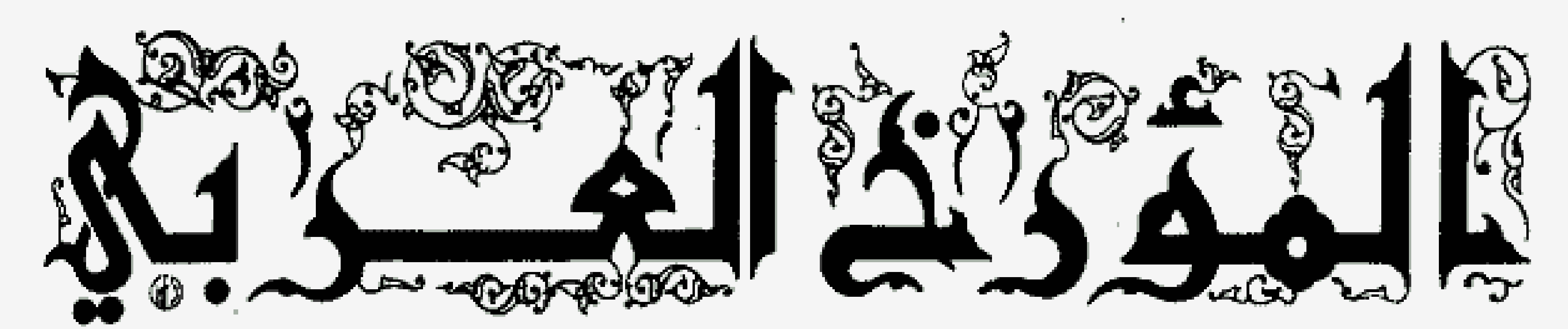

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي



تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

العدد 39 ـ السنة الخامسة عشرة

1409 هـ - 1988 م

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

شروط نشر البحوث في المجلة

1 ـ أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.

2 ـ أن يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.

3 ـ أن لا يزيد عدد صفحاته عن (50) صفحة.

4 ـ أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.

5 ـ تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والانجليزية.

6 ـ يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، وثبت إسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.

7 ـ يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأكل كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم بنسختين.

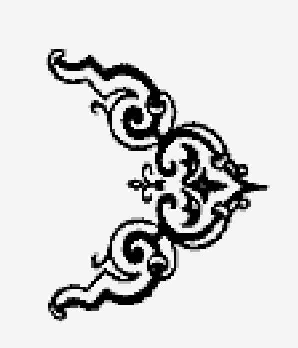
8 ـ بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو كان مستلاً من رسالة أو إشراف عليها مقدّم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث.

9 ـ لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أنْ توحَّد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش في البحث إلى أخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.

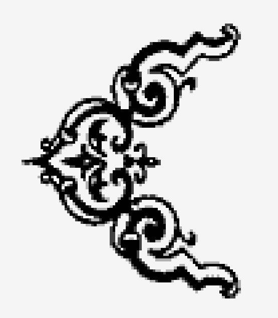
10 ـ يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص، ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.

11 ـ رتِّبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبِّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى، والبحوث التي ترد للمجلة لا تسترجع إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.

12 ـ يرجى تدوين إسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية.



ترسل البحوث باسم مدير التحرير
ص.ب: (4085)بغداد ـ الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت: 448006





الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي

. الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (50) ديناراً، وفي خارج العراق (150) دولاراً امريكياً.

٢ . للمؤرخين في داخل العراق (20) ديناراً، وفي خارج العراق (60) دولارا امريكيا.

٣ . لطلبة التاريخ في داخل العراق (10) دينارات، وفي خارج العراق (30) دولارا امريكيا.

مجلة المؤرخ العربي
العنوان:
اتحاد المؤرخين العرب
ص . ب: 4085
العراق: بغداد

بطاقة الاشتراكات

150 دولار للمؤسسات الرسمية
60 دولار للمؤرخين
30 دولار لطلبة التاريخ

ارجوا قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

يرجى ارسال قائمة بالحساب
تجدون طيا صكاً بقيمة .... دولار
الاسم: ....
العنوان: ....
المدينة: ....
القطر: ....
التاريخ: ....

Subscription Card

Please enter my subscription for

One year $ 150.00 for Institutions
$ 60.00 for Historians
$ 30.00 for Students of History

Address:

Union of Arab Historians
P.O.Box: 4085
Baghdad - Iraq

Please bill me

Check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Country ....
Date ....



تنفيذ



الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

مصراتة ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنا أن نصدر العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي، بأبحاثه المتنوعة التي تغطي مختلف فترات تاريخ الأمة العربية بما في ذلك التاريخ القديم، والوسيط، والحديث، والمعاصر، وذلك من خلال كتابات، تقدم بها مؤرخون عرب عرفوا بتميزهم وإخلاصهم في خدمة تاريخ أمتنا العربية المجيدة وتراثها الخالد وقد أسهموا من أجل تعزيز هدف نبيل من أهداف الاتحاد ممثلاً في الدعوة المخلصة لإعادة كتابة تاريخ الأمة العربية إذ تتواصل الندوات والمؤتمرات العربية في أقطار الوطن العربي لإعادة كتابة تاريخ الأمة العربية كتابة علمية رصينة نابعة من ذات القيم والمبادىء التي بنى عليها وبها تاريخ الأمة العربية المجيدة ولذلك انعقدت في مدينة طرابلس بالجماهيرية العربية الليبية في الفترة من 10-1987/10/14 ندوة فكرية تحت شعار (نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي) ونظمها المجلس القومي للثقافة العربية بالتعاون مع جامعة ناصر، وساهم فيها زهاء المائة أستاذ وكاتب ومؤرخ ومثقف من مختلف أنحاء الوطن العربي، وقدمت عدة بحوث في الندوة تناولت المحاور الآتية:

1 ـ نحو دراسة علمية للتاريخ العربي القديم.
2 ـ المؤرخون العرب وتصورهم للتاريخ العربي.
3 ـ بداية الوعي القومي في القرن التاسع عشر.
4 ـ التاريخ العربي والاستشراق.
5 ـ التاريخ القومي والتاريخ القطري.

وقد أقرّ المشاركون عدة توصيات أبرزها ضرورة تأسيس مركز عربي للدراسات التاريخية وذلك لبلورة الجهود المبذولة من أجل تأسيس مدرسة عربية للتاريخ تستلهم رؤية قومية ويعمل المركز على توثيق الصلات مع الجمعيات والجامعات والهيئات المعنية بتحقيق هذا الهدف، ويكون في مقدمة مهامه، حصر الجهود المبذولة في الوطن العربي في ميدان الدراسات التاريخية والعمل على إعداد موسوعة قومية للتاريخ العربي. مع متابعة للأعمال التاريخية الأجنبية المنشورة وغير المنشورة المتصلة بالتاريخ العربي، والعمل على تشكيل لجنة قومية لدراسة مناهج تعليم التاريخ في الوطن العربي دراسة نقدية برؤية قومية، والعمل على دراسة وتحليل الكتب المدرسية وبخاصة التاريخية في فلسطين المحتلة.

أما الندوة الثانية في هذا الاتجاه فهي الندوة القومية لكتابة التاريخ التي عقدت في بغداد في الفترة من 27-1987/12/29 تحت شعار «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته».

ونظمتها هيئة كتابة التاريخ في القطر العراقي، وحضرها ما يزيد على مئتي مؤرخ من جميع انحاء الوطن العربي، ومن مختلف التخصصات، وقدّم للندوة أكثر من «40» بحثاً. وقد تدارست الندوة على مدى ثلاثة أيام، وعبر ست جلسات، جوانب كتابة التاريخ العربي في إطار المحاور الرئيسية الآتية:

1 ـ الأسباب الداعية لإعادة كتابة التاريخ العربي.
2 ـ مناهج كتابة التراث العربي.
3 ـ تيارات كتابة التاريخ الراهنة واتجاهاتها.
4 ـ الرؤية القومية الحضارية للتاريخ العربي.

وقد تعرض المؤرخون العرب لواقع الدراسات التاريخية في الوطن العربي والمدارس السائدة في فهمه وكتابته بالنقد والتحليل فلاحظوا انصباب الاتجاهات السائدة في التاريخ العربي على ما يخدم مراميها وأهدافها، وأشاروا إلى ما يترتب على ذلك من أخطار تهدد الشخصية القومية للأمة العربية وتفتيت وحدتها ووحدة تأريخها، وتطمس دورها الحضاري وتجزيء ماضيها بما يثبت التجزئة الاستعمارية للوطن العربي وتعزيز هذه التجزئة بتعامل قطري وطائفي ومذهبي مع التاريخ العربي، واتفقوا على أن المنهج الذي يعتمد في كتابة التاريخ العربي وينسجم مع جوهره وطبيعته هو المنهج العلمي ذو الرؤية الحضارية والإنسانية، المنطلق من الثوابت الأساسية وهي وحدة الأمة العربية ووحدة التاريخ العربي. وقد أكّد المؤرخون العرب ضرورة الانطلاق عند دراسة تاريخ الأمة العربية من معطيات الحاضر من أجل فهم التطورات التي حصلت في الماضي ودراستها وتبني المنهج القومي الحضاري في دراسة تاريخ الأمة العربية ودراسة الحياة الاجتماعية، وظهور الدول وسقوطها في إطار المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الشاملة للحياة العربية، والعمل على اعتماد التقسيم الزمني الحضاري للتاريخ العربي، بما يضمن تكامل حقبه وتواصله الحضاري ويؤمن التطور الصاعد في التاريخ ويغطي أفقيّاً الوطن العربي، واعتماد توحيد مصطلحاته، والإفادة من فكرة الوحدة والتنوع في دراسة حضارات الوطن العربي القديمة ومدى تفاعلها مع الحضارة العربية الإسلامية من أجل كشف التواصل والعطاء الحضاري لأبناء الأمة العربية، والاهتمام بتطور الفكر التاريخي العربي بما يمكن من الوعي بتاريخ التاريخ وإدخاله مادة دراسية في أقسام التاريخ في الجامعات العربية، وإيلاء أهمية خاصة للتحديات التي تواجهها الأمة العربية، والتوجه لدراستها وكشف طبيعتها العدوانية وجذورها وأسبابها وممارساتها التخريبية المختلفة ومخاطرها على الإسلام والأمة العربية، واعتبار ذلك واجباً قومياً على المؤرخين العرب، وإدانة محاولات الكيان الصهيوني لطمس الشخصية العربية الفلسطينية وسرقة تراثها القومي وتزوير تأريخها واعتبار ذلك واجباً قومياً ينهض به المؤرخون العرب، ويدعم المؤرخون الهيئة العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية في اتحاد المؤرخين العرب، وتمكينها من تنسيق النشاطات التاريخية التي تمارسها الهيئات الوطنية لكتابة التاريخ العربي والجمعيات التاريخية وأقسام التاريخ في الجامعات العربية، وتشجيع النشر التاريخي العربي المشترك وتوسيع الصلات بين الجمعيات التاريخية العربية وبعث الثقة والاعتزاز بالأمة العربية وتاريخها، ونشر المعرفة التاريخية وتعميق الوعي بالتاريخ العربي واعتماد ذلك في نشاط المؤسسات الإعلامية في الوطن العربي بما يضمن وحدة الشخصية القومية للأمة العربية، وزيادة اهتمام الدول العربية بجمع الوثائق والمخطوطات وتيسير اطلاع الباحثين عليها، وضرورة السعي لتأمين الوصول الى الوثائق في اتفاقياتها الثقافية مع الدول المختلفة وبخاصة تلك التي كانت لها علاقة بالوطن العربي في أيّ حقبة من حقبه التاريخية، وقيام الجامعات العربية بتعميم عناوين دراسات الماجستير والدكتوراة وأسماء الحاصلين عليها، وترصين الدراسات العليا، والتوجيه لدى أقسام التاريخ بتوجيه الطلبة لدراسة الموضوعات التي لم تُدرس بعد وتمكين الطلبة من إتقان اللغات الضرورية لذلك، وتطوير مدرسة نقدية تاريخية عربية معاصرة.

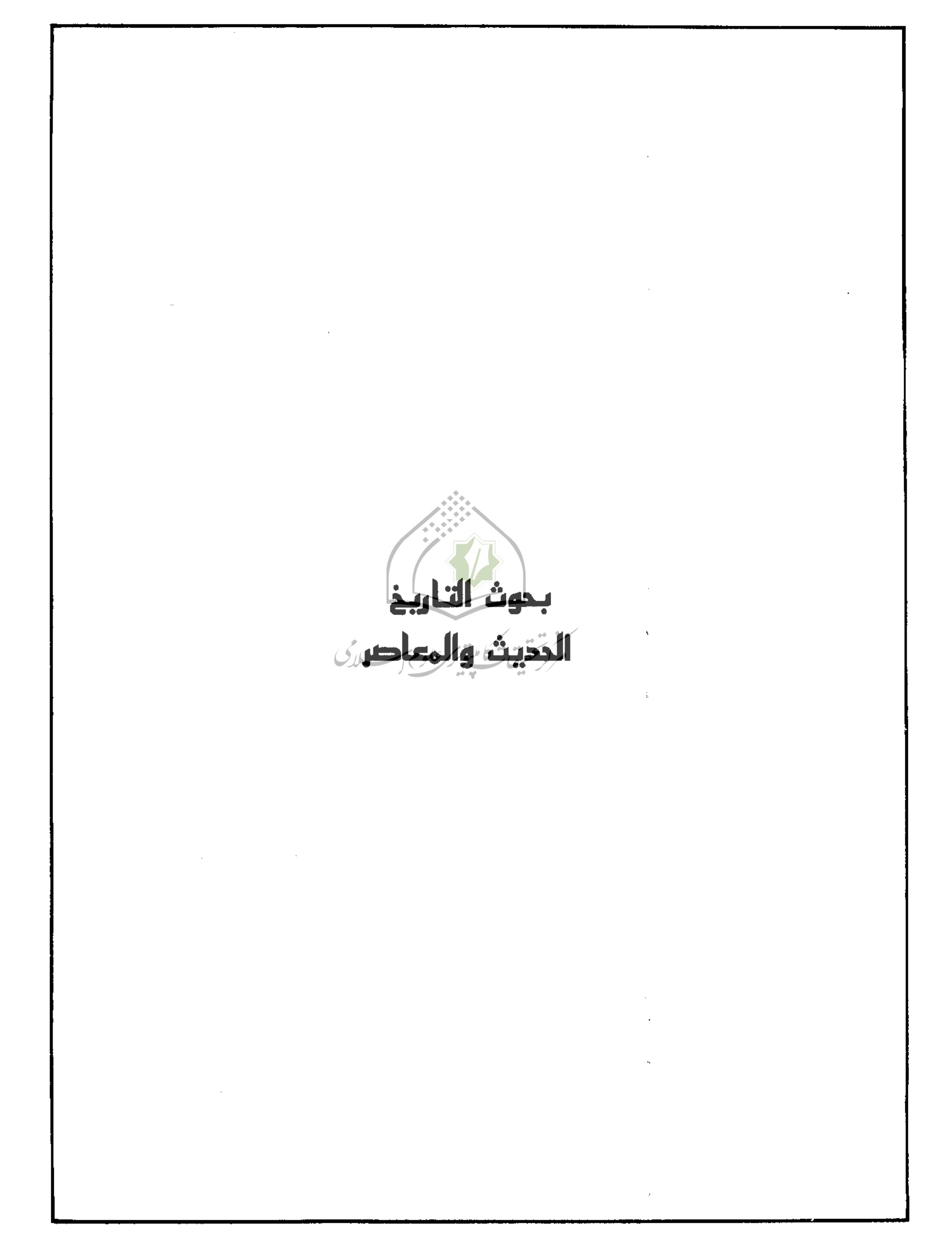
وهكذا كانت ندوة طرابلس، وندوة بغداد، ونأمل في انعقاد العديد من هذه الندوات المهمة من أجل بلورة أسس واضحة ومنهجية دقيقة لفهم وكتابة التاريخ العربي.

والله الموفق لما فيه الخير والصواب

أ.د. مصطفى عبدالقادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب
رئيس التحرير





بحوث التاريخ
الحديث والمعاصر



عمر المختار وحركة المقاومة المسلحة في ليبيا ضد الاستعمار الإيطالي 1911 - 1931

محمد علي داهش

كلية الآداب ـ جامعة الموصل

مقدمة

تعد حركة التحرر الوطني الليبية في مطلع القرن العشرين، واحدة من أبرز حركات التحرر العربية ضد الاستعمار الأوروبي بمختلف أشكاله وصوره. وقد بدأت هذه الحركة ضد الاستعمار الإيطالي منذ أن بدأ غزوه للبلاد في أيلول ـ سبتمبر 1911، واستمرت حتى مطلع عام 1932، أي بعد إلقاء القبض على المجاهد الكبير عمر المختار في أيلول عام 1931 بأربعة أشهر.

قدمت لنا حركة المقاومة الليبية صوراً عظيمة من البطولة والصمود دفاعاً عن الوطن والشعب، وعن الحرية والاستقلال، وتحدَّت الآلة الحربية الإيطالية بإمكانيات قتالية بسيطة، وصمدت وقاومت رغم كل ظروف القهر والإبادة والتقتيل البشع من قبل القوات الإيطالية بحق أبناء الشعب العربي في ليبيا.

إن هذا البحث يحاول إبراز المرحلة الأخيرة للكفاح الوطني الليبي ضد الاستعمار الإيطالي في الفترة 1923-1931، وهي فترة المجاهد الكبير عمر المختار، ويمكن أن يطلق عليها «المرحلة الملحمية» حيث تجلّت فيها روح التضحية والفداء والاستشهاد دفاعاً عن الحرية والاستقلال بشكل لا مثيل له، عبّرت من خلاله حركة المقاومة والشعب من ورائها عن روح وطنية عالية تحدَّت جبروت القوات الإيطالية وهزمتهم في أكثر من موقع، وأبت الاستسلام رغم ظروف الحصار والتضييق حتى النهاية.

ليبيا في ظل الحكم العثماني:

خضعت طرابلس الغرب (ليبيا) للسيادة العثمانية عام 1551 م، وقسمت البلاد في عهد العثمانيين إلى ثلاثة أقاليم رئيسة، إقليم طرابلس ومركزه مدينة طرابلس، وأقليم برقة ومركزه مدينة بنغازي، وأقليم فزان الذي أخضع في أواخر القرن التاسع عشر، وبصورة عامة سيطر العثمانيون على المدن الساحلية، فيما كانت سيطرتهم ضعيفة على دواخل الولاية[1].

وكان اهتمامهم بها اهتماماً عسكرياً أكثر منه مدنياً، وعلى ذلك فقد اقتصرت عنايتهم ببعض المدن الساحلية، فلم تنتعش البلاد في أيامهم، بل على العكس تقهقرت في مختلف مناحي الحياة. ويلخص شاهد عيان وضع البلاد على أيامهم قوله: «والواقع أن الأتراك قد ظلموا السكان ظلماً كثيراً، وخربوا البلاد، فقد انتزعوا من الأهلين جزءاً من أراضيهم ومنازلهم ونهبوا متاعهم، ولم يحترموا امرأة ولا رجلاً. وكان أهل طرابلس يلقون أنواعاً أخرى من العنت والإرهاق والإذلال

كما يلقى غيرهم من سكان أفريقيا. . . »[2].

استمر الحكم العثماني في ليبيا حتى عام 1912، عدا فترة قصيرة هي بين (1711 م - 1835 م) حيث خضعت البلاد لحكم الأسرة القره منلية والتي حكمت بشبه استقلال عن الدولة العثمانية. وقد كان لسياستهم الداخلية أثرها في طبيعة العلاقة مع أبناء البلاد، وعليه فإن الخلل في السياسة العثمانية تجاه الأهالي من جهة اقتصارها على جبي الأموال بالضرائب الفاحشة وعدم الاهتمام بالإصلاح، قد ولّدت ردود فعل عكسية، وعليه فقد لقي حكمهم مقاومة عنيفة، فقد قام الشعب بانتفاضات متكررة بلغت أكثر من ثلاثين مرة وفي فترات متتابعة من الزمن، ولم تقتصر انتفاضاته على دواخل البلاد وإنما سادت في المدن أيضاً كما حدث في درنة وطرابلس وفزان[3]. وبغضّ النظر عن طبيعة الدوافع الكامنة وراء انتفاضات الشعب العربي في ليبيا ضد الحكم العثماني، فإنها تشير بلا شك إلى خلل في سياسته الداخلية من جهة، ورفضاً لوجوده من جهة أخرى.

ظهور الحركة السنوسية:

كانت السيادة العثمانية على ليبيا قد تركزت في المدن الساحلية، واستمر نفوذها ضعيفاً في الداخل، لكن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح النفوذ الفعلي في داخل البلاد للحركة السنوسية[4]، والتي أصبحت الموجّه الرئيس للشعب وشكّلت «دولة داخل دولة».

أسس هذه الحركة السيد محمد بن علي السنوسي (1787-1859) منذ عام 1841، ووضع الأساس الأول لحركته عام 1843 عندما أنشأ أول زاوية في تاريخ الحركة السنوسية والتي عرفت باسم «الزاوية البيضاء».

مرّت الحركة السنوسية بأربعة أدوار تبعاً لقادتها، فكان الدور الأول للسيد محمد بن علي منذ عام 1841-1859، والدور الثاني للسيد محمد المهدي بن محمد بن علي 1859-1902، والثالث لأبن أخيه السيد أحمد الشريف 1902-1916، والرابع للسيد أدريس بن محمد المهدي 1916-1923، والجدير بالإشارة إلى أن دور كل من السيد أحمد الشريف والسيد ادريس قد انتهى بالفترة المحددة أعلاه، إلاّ أن صلاتها استمرت مع الحركة من خارج البلاد كما سيأتي ذكره.

انتشر نفوذ الحركة السنوسية من خلال زواياها الكثيرة التي أنشأتها بصورة واسعة في داخل ليبيا بشكل خاص وفي المغرب العربي وأفريقيا جنوب الصحراء بشكل عام. وبلغ نفوذها من القوة أن اعترفت الحكومة العثمانية بها، فتقربت من قادتها ومنحتهم امتيازات عديدة باعتراف فرماني منذ عام 1856[5]،

(1) **عوض مصطفى السعداوية**: حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشي في رحلته، مجلد ليبيا في التاريخ، المؤتمر التاريخي، (بنغازي 1968)، ص 280، 284.

(2) **أبو الحسن علي بن محمد التمغروتي**: النفحة المسكية في السفارة العثمانية، نقلاً عن، نقولا زيادة، ليبيا من حسن الوزان الى التمغروتي، مجلد ليبيا في التاريخ، ص 256.

(3) **الطاهر أحمد الزاوي**: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دار الفتح للطباعة والنشر، (بيروت 1970)، ص 19 فما بعدها؛
السعداوية، المرجع السابق، ص 281؛
مصطفى عبدالله بعيو: بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر، مجلد، ليبيا في التاريخ، ص 317.

(4) السنوسية حركة دينية في بداياتها وهي الفصيلة الثانية بعد الوهابية في فصائل «الصحوة الإسلامية الحديثة»، أساسها العودة بالإسلام الى ما كان عليه في عهد الرسول الكريم وخلفائه رضي الله عنهم، وكان القرآن والسنة النبوية الشريفة هما الأصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الإسلام دون الإجماع والقياس المتأخرين، وقامت هذه الحركة على ثلاثة أصول، أولها الأصل الديني وثانيها الأصل الاجتماعي وكان أهم مظهر له إنشاء الزوايا، وثالثها الأصل السياسي وكان يهدف الى جمع كلمة المسلمين داخل نطاق دولة سياسية كبرى، وعليه فقد كانت دعوة لم تقتصر على العبادة والتصوف ولكنها ارادت المسلمين أن يكونوا عباداً عاملين منتجين نشيطين. وعلى الرغم من أن الحركة السنوسية لم تقاتل العثمانيين الا أنها كانت تحدياً لنمطهم الفكري وعجزهم المسيطر، كما اتخذت موقف الحذر بل والمقاطعة أحياناً للدولة العثمانية بسبب انصياعها للاستعمار الغربي، كما كانت تحدياً للوافد الغربي الاستعماري إحتلالاً ونهباً وتغريباً. انظر:
نقولا زيادة: برقة (الدولة العربية الثامنة)، دار العلم للملايين، (بيروت 1950)، ص 64-65؛
شوقي الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة 1977)، ص 149-161؛
محمود كامل: الإسلام والعروبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة 1976)، ص 59؛
محمد عمارة: الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري، دار المستقبل العربي، (القاهرة 1985)، ص 20-21.

(5) زيادة، برقة. . ص 73.

وكان هدف الدولة العثمانية من ذلك أيضاً هو الاستعانة بنفوذ الحركة في استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات داخل البلاد وذلك من خلال ما عرف من تعلق العرب في ليبيا بالقيادة السنوسية آنذاك وإصغائهم لنصائحها وارشاداتها. وقد بلغت زوايا الحركة في عهد مؤسسها الأول (22) زاوية، وفي عهد خلفه المهدي نحو المائة عام 1884، انتشرت بين برقة وطرابلس وفزان وطريق ليبيا ـ مصر، وليبيا ـ واداي جنوباً، وتونس ومراكش غرباً، الى شبه الجزيرة العربية شرقاً[6]، وأصبحت المدن الداخلية في ليبيا ـ برقة ـ وهي الجغبوب ـ أوجلة. جالو ـ الكفرة، المراكز الأساسية لهذه الحركة.

بقيت الحركة السنوسية قوية ومتمكنة في المناطق الداخلية من ليبيا وهي خاضعة للحكم العثماني، واستمرت على ذلك حتى نهاية العقد الثالث من هذا القرن ـ كما سيأتي ذكره ـ كما امتلكت نفوذاً وقدرة في مناطق جنوب الصحراء، تؤيد ذلك الرحالة البريطانية روزيتا فوربس Rosita Forbes في كتابها «أسرار الصحراء» The Secret of the Sahara بالبراهين المؤيدة ومشاهد العيان قولها «إن القوة السنوسية في افريقيا تقوم لها وتقعد كل دولة مستعمرة هناك»[7] وكانت تشير بذلك الى قدرتها على مصارعة المد الاستعماري الأوروبي (البريطاني والفرنسي خاصة) الذي كان يزحف على ليبيا من جهة الجنوب ومن الشمال (إيطاليا) فيما بعد.

ومثلما بدأت الحركة السنوسية في ظل السيادة العثمانية على ليبيا، فقد بدأت أيضاً الأطماع الإيطالية بهذا الاقليم العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر وانتهت بغزو ايطاليا لليبيا أواخر عام 1911.

التغلغل الإيطالي في ليبيا:

شهد القرن التاسع عشر تنافساً استعمارياً أوروبياً على الوطن العربي بين كل من فرنسا وبريطانيا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وفي الفترة ذاتها كانت الدولة العثمانية قد ازدادت ضعفاً وعجزاً عن رد أطماع هذه الدول تجاه المناطق التابعة لها. وفيما أخذت سياسة الغزو والتوسع تشق طريقها تجاه الأقاليم العربية في شمال افريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا بالذات، فقد «قلق» الطليان من هذا التنافس وقويت رغبتهم في أن يكونوا أحد أطراف الاستعمار وقبل أن يستكملوا وحدتهم. وكان اقتراح نابليون الثالث امبراطور فرنسا أثناء اجتماعه في أوريون مع ملك سردينيا عام 1857 والذي قضى بـ «إعطاء» جزء من «طرابلس الغرب» الى حكومة سردينيا[8]، قد أيقظ الرغبة الاستعمارية لديهم وخاصة بعد أن استكملت ايطاليا وحدتها القومية عام 1870 وأرادت أن تلعب دوراً في السياسة الدولية. وجاء احتلال فرنسا لتونس عام 1881 وبريطانيا لمصر عام 1882، ليثير مخاوفها أكثر، فتحفز الايطاليون لفرض نفوذهم على ليبيا منذ أواخر القرن التاسع عشر.

كان على ايطاليا وهي الدولة التي كانت غير محسوبة في عداد الدول الكبرى آنذاك، أن تحصل على موافقة الدول الاستعمارية الأخرى لتنفيذ مشروعها لاحتلال ليبيا. وعلى ذلك فقد استطاعت في ميدان السياسة الدولية أن تحصل على مباركة وموافقة كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا وروسيا خلال الأعوام 1898-1904 بجملة اتفاقات مع هذه الدول ومن خلال انتهاج مبدأ «do ut des» الكلاسيكي والذي يعني «إن تعطني أعطك» والذي تستخدمه دبلوماسية الدول الكبرى الاستعمارية[9]، استطاعت أن تضمن حرية العمل في ليبيا على طريق الاحتلال.

جرى التغلغل الايطالي في ليبيا في عهد الوالي العثماني حافظ باشا، واتخذ شكل ما سمي «التغلغل السلمي». وقد تضمن هذا التغلغل مجموعة من الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها حتى عام 1911. فقد تزايد عدد الجالية الإيطالية في ليبيا حتى بلغ عام 1900 حوالى (1100)

(6) كامل، المرجع السابق، ص 59-60.

(7) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعليق شكيب أرسلان، ترجمة عجاج نويهض، مطبعة البابي الحلبي وشركائه، (مصر. بلا) 297/1 فما بعدها.

(8) الزاوي، المرجع السابق، ص 25-26.

(9) بثينة عبد الرحمن ياسين التكريتي: تطور الحركة الوطنية في ليبيا 1911-1943 رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية/بغداد 1981، ص 38-45؛

ز.ب. ياخيموفتش: الحرب التركية ـ الايطالية 1911-1912، ترجمة هاشم صالح التكريتي، منشورات الجامعة الليبية، (بيروت 1970)، ص 57، الهامش.

شخص، ونفذ الايطاليون سلسلة من المشروعات الاجتماعية والثقافية، فأسسوا مستشفى إيطالياً وعدداً من المدارس ومصلحة بريد إيطالية وملجأ للأيتام بين عامي 1900-1903، كما أسسوا «بنك روما» عام 1907 في مدينة طرابلس، وامتدت فروع هذا البنك الى مدينة بنغازي واثنتي عشرة مدينة أخرى بين 1908، 1911، وبذلوا من خلال البنك المذكور المساعي لشراء الأراضي من الأهالي بأضعاف قيمتها، واتباع سياسة الإقراض والاستملاك في حالة العجز عن دفع القروض المقدمة لأصحابها، كما سيطروا تدريجياً على صادرات ليبيا من الصوف والحبوب وعشب الحلفا وريش النعام، وأجروا محاولات للتنقيب عن المعادن. كما قامت القنصلية الايطالية في كل من طرابلس وبنغازي بدورها في النشاط السياسي والدعاية لإيطاليا والتجسس على أحوال البلاد ومراكز الدفاع عنها ووسائله، كما قدمت عام 1911 بعثة عسكرية بدعوى أنها بعثة «علمية» تمكنت من وضع الخرائط والمصورات عن أحوال البلاد وطبيعتها الجغرافية[10]، وانتهزت إيطاليا فرصة إهمال حكومة الاتحاد والترقي العثمانية لليبيا[11]، فأخذت تمهد الرأي العام الأوروبي عن طريق صحافتها لاحتلال ليبيا، وأوضحت مقالاتها أن واجب الإنسانية (كذا) أن تقوم إيطاليا بإصلاح الحالة في البلاد(!!) بعد أن أخفقت الدولة العثمانية في ذلك. ونتيجة لهذه التعبئة الإعلامية هام الشعب الإيطالي حباً بليبيا، وأخذ نشيد طرابلس الجميلة Tripolitania Belle يتردد على ألسنة الايطاليين[12].

الغزو الإيطالي لليبيا 1911:

أتمت إيطاليا استعداداتها العسكرية لغزو ليبيا أواخر عام 1911، وبلغت القوات العسكرية المعدّة للغزو (34) ألف جندي، و6300 حصان، و1050 عربة، و48 مدفع ميدان، و24 مدفعاً جبلياً، و145 سفينة حربية و114 قطعة بحرية أخرى، ضد القوات التركية العثمانية المكونة من (5) آلاف جندي في طرابلس وألفين في برقة. واتخذت إيطاليا عذراً واهياً للعدوان على ليبيا، فقد استغلت الصحافة الإيطالية الرسمية اغتيال شخصين إيطاليين عام 1908 مبرراً جيداً للحرب، حيث قامت بالتحريض على احتلال ليبيا وزعمت ان حياة الإيطاليين وأملاكهم معرضة للخطر، وعلى الرغم من الرد الاسترضائي للسلطات التركية على الاحتجاجات الايطالية، فقد قررت الأخيرة غزو البلاد[13].

أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في ليبيا يوم 29 أيلول ـ سبتمبر 1911. وحاولت حكومة الاتحاد والترقي التوسط لدى الدول الكبرى لوقف هذا العدوان، لكن هذه الدول تظاهرت بأنها على الحياد!! وقد استطاعت القوات الإيطالية وفي غضون شهر واحد من احتلال طرابلس وطبرق ودرنة وبنغازي ومناطق ساحلية أخرى، وفي الوقت نفسه

(10) **كولا فولايان**: حركة المقاومة في ليبيا، ترجمة محمد علي داهش وزميله، مجلة آفاق عربية (العراق) العدد (3) السنة 1979، ص 108؛

أحمد صدقي الدجاني: وثائق تاريخ ليبيا، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي 1974) ص 116؛

صلاح العقاد: ليبيا المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، (القاهرة 1970) ص 12؛

جمال زكريا قاسم: موقف مصر من الحرب الليبية ـ الايطالية، مجلد ليبيا في التاريخ، ص 323؛

أمين سعيد: ثورات العرب في القرن العشرين، دار الهلال (بلا. ت) ص 145؛

أنتوني جوزيف كاكيا: ليبيا في العهد العثماني الثاني (1835-1911)، ترجمة يوسف حسن العسلي، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة. بلا) ص 111، 113-114.

الزاوي، المرجع السابق، ص 36. ؛ زيادة، برقة.. ص 78.

(11) سحبت حكومة الاتحاد والترقي عام 1910 معظم قواتها من ليبيا بحجة أن وضعها في اليمن والبلقان يتطلب ذلك، وسحبت ما كان في ليبيا من أسلحة احتياطية قدرت بـ (40) ألف بندقية، إضافة الى سحبها للضباط الأكفاء وخصوصاً الضباط العرب، وتركت الولاية بـ (7) آلاف جندي، ثم سحبت عام 1911 الوالي أدهم باشا ولم تعين بديلاً عنه، وأهملت البلاد من التموين في وقت اشتد فيه القحط والجوع، اضافة الى انتشار الرشوة وممارسة الموظفين لها بشكل واسع، فضعفت البلاد في «كل شيء». انظر:

الزاوي، المرجع السابق، ص 35، 64، 68.

(12) **قاسم**، المرجع السابق، ص 325.

(13) **فولايان**، المرجع السابق، ص 108-109، 113.

بدأت المقاومة الليبية بقيادة القوات العثمانية المتبقية استعداداتها لمواجهة هذا الغزو.

المقاومة الليبية المسلحة ضد الاستعمار الإيطالي 1911-1912:

فجّر العدوان الإيطالي على ليبيا حركة مقاومة عنيفة في كل من إقليمي طرابلس وبرقة، وارتكز الدفاع الوطني على جهود المواطنين الليبيين مع بعض الدعم العثماني، وقاد المتطوعون في طرابلس الشيخ سليمان الباروني وفرحات بك، فيما قاد حركة المقاومة في برقة السيد أحمد الشريف. وقد تعاون القادة الوطنيون مع الضباط العثمانيين والعرب الموجودين في ليبيا آنذاك ومنهم أنور باشا ومصطفى كمال وناظم بك وعزيز علي المصري، وقد تولى أنور القيادة العامة بينما قاد عزيز علي المصري الدفاع في برقة، ومصطفى كمال في درنة، وناظم بك في طبرق، لكن الحكومة العثمانية سرعان ما أصدرت أوامرها الى قائدها في طرابلس بإخلاء المدينة والقتال خارجها فقط ثم الانسحاب جنوباً الى سهول غريان (العزيزية). وفي برقة أكرهت الحاميات العثمانية على الانسحاب الى الداخل، على أن هذا الوضع دفع القيادات الوطنية الليبية لتحمل تبعات المقاومة. وظهرت بطولات عربية استطاعت تأجيج حماسة الجماهير وتنظيمها للقتال. ففي «الخمس» قاد حركة المقاومة بشير بك السعداوي، واتخذ «ساحل آل حامد» مركزاً له يرسل منه الدعوة الى القبائل يحثهم على الجهاد. وفي طرابلس، وبعد انسحاب القوات التركية جنوباً الى «العزيزية»، واصل سليمان الباروني وفرحات بك قيادة المقاومة الوطنية فيها، فيما اتخذت حركة المقاومة في برقة شكلاً خطيراً، فقد استنفر زعيم السنوسية السيد أحمد الشريف اتباعه، فخرج من ضمن من خرج من القادة السيد عمر المختار[x] على رأس قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور التي يرأسها، واشتبك مع الطليان عند «بنينة» حتى جاء أنور بك الى معسكر القيادة العامة في درنة وعزيز علي المصري الى بنغازي. وطلب السيد أحمد الشريف من كل عربي بلغ الرابعة عشرة من عمره إلى الخامسة والستين الذهاب الى ميدان القتال والخضوع لأوامر أنور بك بصفته نائب السلطان[14]. وقد أجبرت المقاومة الوطنية الليبية قوات الاحتلال الايطالي على الوقوف عند الساحل حتى نهاية عام 1912 على الرغم من قيام حكومة ايطاليا بتكثيف قواتها حتى بلغت نهاية تشرين الأول ـ أكتوبر من العام نفسه (90) ألفاً من الجنود، مزودين بمختلف الأعتدة الحديثة. ولم تقتصر دعوة الزعماء الوطنيين على طرد المحتلين فقط بل وعلى الحصول على الاستقلال التام لطرابلس وبرقة على الرغم من وجود القوات العثمانية المساندة لهم، ودلالة ذلك قيام السيد أحمد الشريف بتوجيه نداء في منتصف كانون الثاني ـ يناير 1912 حث فيه الطرابلسيين والبرقاويين على الكفاح من أجل الاستقلال الوطني ككل وأعلن عزمه على النزول الى الميدان على رأس قوة كبيرة من رجال المقاومة[15]، فيما ظهرت الدعوة للاستقلال بعد معاهدة أوشي في اقليم طرابلس فقط على يد الشيخ سليمان الباروني.

معاهدة أوشي:

أدركت الدولة العثمانية في نهاية عام 1912 عجزها عن رد الأطماع الإيطالية وعزمها على احتلال ليبيا. ومن جهة أخرى كان للمشاكل التي واجهتها في البلقان أثرها في دخولها بمفاوضات مع إيطاليا للتوصل إلى حل يرضي الطرفين ويحفظ ماء وجهها أمام الليبيين خاصة. وعليه ففي 18 تشرين الأول ـ اكتوبر عقدت معاهدة أوشي (لوزان) والتي تخلّت

(x) ولد عمر المختار عام 1862، وهو من «عيلة فرحان» من قبيلة المنفة، وعندما بلغ الثامنة من عمره بعث به والده الى زاوية جنزور في مدينة الجغبوب ودرس فيها ثماني سنوات، وكانت علامات الالتزام والجدية ورزانة العقل ودلائل النجابة واضحة عليه فأثار انتباه السيد محمد المهدي فأصبح موضع إهتمامه، وفيما بعد عيّن شيخاً على زاوية القصور في قبيلة العبيد. وفي عام 1894 إصطحبه السيد المهدي الى مناطق جنوب ليبيا، ورأس هناك زاوية جلك وقام بنشر الاسلام بين الاهالي في مناطق دارفور وكانم ووادي جنوب ليبيا. وبقي هناك حتى عام 1906. وقد قام هناك بدور بارز فى مواجهة المد الاستعماري الفرنسي. وبعد عودته تولى زاوية القصور ثانية، حتى اذا هاجم الايطاليون ليبيا عام 1911 كان أول من لبّى نداء الوطن. انظر:
محمد علي داهش: جهاد عمر المختار لنشر الاسلام في افريقيا 1894-1906، مجلة الأمة القطرية، العدد (66) السنة 1986.

(14) **عبد العظيم رمضان**: الغزوة الاستعمارية للعالم العربي، وحركات المقاومة، دار المعارف، (القاهرة 1985) ص 196-198.

بموجبها الدولة العثمانية عن ليبيا لايطاليا و«منحها» «استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً». وفي اليوم التالي نشرت إيطاليا بياناً بفرض الحماية على ليبيا أكدت فيه بأنها قد أخضعت خضوعاً تاماً للملكية الايطالية، وتعهدت فيه أيضاً بأنها «حالما يستتب لها الأمر في البلاد فأنها ستحضر الى أهلها الحلاقين والقابلات وستنشىء في ليبيا المسارح والملاهي وستهيىء حفلات تأبينية مهيبة كلما مات أحد الأعيان أو المشايخ»[16]!!

المقاومة الليبية في طرابلس 1912-1919:

وقّعت الدولة العثمانية مع إيطاليا معاهدة أوشي من غير أن تستشير الزعماء العرب في ليبيا، فلم يكن لهم رأي في المقررات التي تناولت مصيرهم على الرغم من أن المقاومة الليبية مع المتطوعين العرب والبالغ عددهم (16) ألف متطوع، كانوا يقومون بعبء الدفاع الأكبر. وقد استغل الليبيون ما تضمنه الملحق الأول من معاهدة أوشي بشأن إعلان استقلال طرابلس وبرقة، فكلفوا في طرابلس الشيخ سليمان الباروني بتشكيل حكومة وإبلاغ الدول بذلك. وقد امتد سلطان حكومة الباروني على مناطق طرابلس الوسطى والجنوبية، وأكد الباروني عزمه على مواصلة الكفاح من أجل الاستقلال التام، وقد حاولت إيطاليا استمالته لكنه أبى وصمم على طرد الغاصب الأجنبي، لكن كفاحه لم يستمر طويلاً لتفوق القوات الايطالية في العدة والعدد[17]، إذ لم يصمد كثيراً امام القوات الايطالية، فلجأ في نهاية عام 1913 الى استانبول، لكنه عاد ثانية عام 1915 واستأنف الكفاح وظل كذلك الى نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي تشرين الثاني - نوفمبر 1918 عقد في (مسلاته) اجتماعاً وطنياً، أعلن على أثره عن قيام الجمهورية الطرابلسية واختير أربعة اعضاء لتولي الأمر فيها (الباروني - السويحلي - بلخير - عبدالرحمن عزام) إذ لم يتفق المجتمعون على رئيس واحد للدولة، وقد وافقت ايطاليا اتباعاً لسياسة المسالمة آنذاك على الاعتراف بنظام الحكم الجديد في طرابلس وان تحكم البلاد بالتعاون مع السلطات الوطنية في ظل القانون الأساسي لطرابلس والذي أصبح لها بموجبه برلمان خاص[18]، وكان ذلك بموجب «صلح بنيادم» الموقع في 19 حزيران - يونيو 1919، ومع ذلك فقد بقيت معارضة الشعب للوجود الإيطالي ولسياسته في البلاد.

المقاومة الليبية في برقة 1912-1917:

تصاعدت حركة المقاومة الليبية في إقليم برقة بقيادة السيد أحمد الشريف بعد توقيع معاهدة أوشي، وأكد السيد الشريف على نزعة الاستقلال الوطني التي طرحها قبل توقيع معاهدة أوشي، كما أكد رفضه لهذه المعاهدة التي تعترف باحتلال إيطاليا للبلاد، ففي رسالة وجهها الى أنور بك المقيم في معسكر الظهر الأحمر القريب من درنة ما يؤكد ذلك حين قال: «نحن والصلح على طرفي نقيض ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه إذا كان ثمن هذا الصلح تسليم البلاد الى العدو». كما أكد من جهة أخرى أن هذا التنازل من السلطان محمد الخامس والاعتراف في الملحق الأول بالاستقلال الداخلي للولاية، يعطيه حق الاستقلال بعيداً عن نفوذ أي من الدولتين، وقد عبّر عن هذا الموقف «المستقل» بعد معاهدة أوشي باصداراته التي كانت توقع بـ«خاتم الحكومة السنوسية»، وكان شعار الحكومة «الجنة تحت ظلال السيوف»، كما أصدر منشوراً الى أهالي البلاد أعلن فيه «الجهاد» ضد القوات الايطالية، وكرر دعوة المقاتلين ما بين سن 14-65 للذهاب الى ميدان القتال مزودين بالمؤونة

(15) **رمضان**، المرجع نفسه، ص 199.

(16) **محمد عيسى صالحية**: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت (الحولية الأولى) - الكويت 1980، ص 7.؛

الجمل، المرجع السابق، ص 377.

(17) **عبد الكريم محمود غرايبة**: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت 1984)، ص 200؛

كامل، المرجع السابق، ص 62-63؛

رمضان، المرجع السابق، ص 199.

(18) **روزاليا دافيكو**: الحرب الليبية 1911-1932، الامبريالية ومقاومة الاستعمار في الشمال الافريقي، عن كتاب (الخطابي وجمهورية الريف) ترجمة صالح بشير، دار ابن رشد (بيروت 1980)، ص 326-327؛

الجمل، المرجع السابق، ص 374، 386-387؛ كامل، المرجع السابق، ص 63.

والسلاح لمواجهة قوات الاحتلال بعد أن وقع عبء الدفاع على عاتق ابناء البلاد بعد رحيل القوات العثمانية عام 1913 تنفيذاً لمعاهدة أوشي[19].

استمرت الحرب بين حركة المقاومة الليبية وقوات الاحتلال الايطالي، وظهر عدم تكافؤ القوتين، فكان رجحان الكفة لصالح القوات الايطالية التي نجحت في احتلال بنينة وبومريم والأبيار وطوكرة وجردس العبيد وطليمة والمرج وسلطنة والشحات ومرسى سوسة وغيرها من المناطق في نيسان من عام 1913 حتى أوائل عام 1914، ومع غلبة القوات الايطالية الا أنها كانت تتكبد خسائر لا يستهان بها[20]، وعلى الرغم من هذه الانكسارات والتراجعات الأرضية التي منيت بها حركة المقاومة، إلا أنها لم تسمح للقوات الإيطالية بالتقدم الى داخل البلاد وإنما أوقفتها في الشريط الساحلي من إقليم برقة. والجدير بالإشارة الى أنه كان للظروف الطبيعية التي ألمّت بالبلاد في شتاء عام 1913، أثرها الكبير في هذه التراجعات، فقد كان شتاء ذلك العام قاسياً، أعقبه غزو الجراد مما تسبب في انتشار الأوبئة والمجاعات ثم الطاعون الذي ألحق الموت بالكثير من السكان، ومع ذلك فإن التصميم على المقاومة استمر[21].

جاء تصميم المقاومة الليبية في برقة على مواصلة القتال ضد الاحتلال الايطالي باتخاذ الإجراءات العديدة على صعيد إعادة تنظيم القوات الوطنية التي بلغ عددها (7) آلاف مقاتل، إضافة الى ألف من المتطوعين. واستقر رأي قادة المقاومة وعلى رأسهم السيد أحمد الشريف على الانتقال الى منطقة (إمساعد) لتكون مقراً للقيادة الوطنية، وهذه المنطقة قريبة من الحدود المصرية. وقد كان ذلك قراراً صائباً «إذ إن مصر تشكل عمقاً استراتيجياً لقوات أحمد الشريف بالرغم من الحماية البريطانية، فإذا ما هوجمت قوات المجاهدين انتقلوا الى الأراضي المصرية فلا تجرؤ القوات الايطالية على مطاردتهم داخل الأراضي المصرية...». وقد فرض هذا الانتقال الى (إمساعد) ظروفاً وأوضاعاً جديدة على الساحة الليبية انعكست آثارها كما يقول د. صالحية، على ميزان القوى في المنطقة لأن أحمد الشريف بدأ بتشكيل جيش نظامي مدرب مُستعد لخوض غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الرئيس، الطليان، مستنداً في ذلك الى المساعدات التي كانت تصله من الوطن العربي ومصر خاصة ومن العالم الاسلامي وتركيا بالذات، وجاء اندلاع الحرب العالمية الأولى ليجعل القوى المشاركة فيها تتسارع بل تتسابق لكسب ودّ السيد أحمد الشريف الى جانبها[22].

قاد التصميم الوطني على المقاومة لطرد المحتلين الى إحراج موقف الايطاليين، وقد اعترف الممثل الإيطالي في القاهرة للجنرال البريطاني في تموز - يوليو 1914 «إن الأمور تتفاقم في برقة... وأن على الايطاليين واحداً من حلين، إما احتلال البلد بكامله أو الاتفاق مع السنوسية بصورة أو بأخرى»[23]. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، فقد مال السيد أحمد الشريف الى الدولة العثمانية حليفة المانيا ضد بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وكان لذلك أسباب «موضوعية» على رأسها انتصار الألمان والعثمانيين في أوروبا والبلقان، وتصاعد الثورات ضد بريطانيا في الهند وتململ شعوب الافغان والسودان وزنجبار ضد الاستعمار، إضافة الى أن السيد أحمد الشريف كان «يقدر» أن المصريين سيسارعون الى الانضمام الى جبهته ضد بريطانيا، وهذا ما حصل بالفعل حين انضمت القوات المصرية بقيادة محمد صالح حرب اليه مع بداية اندفاعه داخل مصر لمهاجمة بريطانيا في أوائل تشرين الثاني - نوفمبر 1915[24]. وفي 11 كانون الأول - ديسمبر من العام نفسه، استولى المهاجمون الليبيون وغيرهم على السلوم ثم مرسى

(19) صالحية، المرجع السابق، ص 1009؛ الجمل، المرجع نفسه، ص 378.

(20) زبادة، برقة.. ص 84.

(21) Duncan Cumming: Libya in the first world war p. 384

بحث منشور في مجلد (ليبيا في التاريخ) - المؤتمر التاريخي (بنغازي 1968).

(22) صالحية، المرجع السابق، ص 12.

(23) Cumming, op.cit., p. 384.

(24) صالحية، المرجع السابق، ص 14-15.

مطروح، لكن بعد ذلك ظهر عجزهم في الحصول على ما يحتاجونه من طعام ومؤن، وبدأ البريطانيون يضيقون الخناق عليهم فلم يلبثوا ان استردوا مرسى مطروح، وفي 29 شباط - فبراير 1916، حصلت معركة فاصلة هزم فيها الليبيون واحتلت القوات البريطانية سيدي براني ثم استردوا السلوم في 14 اذار - مارس 1916، وانتقل السيد أحمد الشريف مع رفاقه الى سيوه، وفي 8 شباط - فبراير 1917، ضيق عليه البريطانيون الخناق، فاضطر للهرب مع رفاقه الى الجغبوب. وقد أدى «تورط» الشريف في هذه الحرب الى خلاف مع ابن عمه السيد ادريس السنوسي، وقد كان «رجلاً ذا روح دبلوماسية اكثر منها قتالية» وقد كان يميل الى مصادقة بريطانيا، واضطر أحمد الشريف تحت ضغط القوات البريطانية التي هدّدت بمهاجمة الجغبوب إن بقي فيها الى أن يغادرها الى طرابلس الغرب ومنها نقلته غواصة المانية الى استانبول ثم رحل عنها بعد ذلك ليستقر في الحجاز، وقد تم ذلك بعد أن تنازل للسيد ادريس السنوسي عن القيادة السياسية والعسكرية للسنوسية مكتفياً بالزعامة الدينية[25].

ومنذ عام 1917 وحتى عام 1923 بدأت مرحلة جديدة في العلاقات الليبية - الايطالية اتسمت بطابع العمل الدبلوماسي.

مرحلة الهدنة 1917-1923:

كانت ايطاليا في هذه الفترة قد انهكتها الحرب، كما كانت تعاني من الاضطرابات الداخلية، ولذلك فقد كان يهمها ان تصل الى اتفاق مع السنوسيين يكفل لها الهدوء في ليبيا، كما كانت بريطانيا حريصة على ان تصفي المشاكل على حدود مصر الغربية لتتمكن من نقل قواتها من هذه المنطقة الى أماكن أخرى، وعليه فقد جرت اتصالات بين ادريس السنوسي والبريطانيين والطليان وبناءً عليها تهيأ الجو للمفاوضات في «الزوَيْتية» استمرت حتى أواخر عام 1916، ثم استؤنفت في أوائل عام 1917 في «عكرمة» بالقرب من طبرق، وانتهت بمعاهدة عكرمة التي وقعت في 14 نيسان - ابريل 1917[26].

تتلخص بنود معاهدة عكرمة في الأمور التالية:

1 - يقف البريطانيون عند النقط التي كانوا يحتلونها في نيسان - ابريل عام 1916، ويتعهدون بأن لا يجددوا مراكز عسكرية أبداً، على أن يكون مثل هذا الشرط مقيداً للسنوسيين أيضاً.

2 - اعترف الايطاليون بالإمارة السنوسية للسيد ادريس على أن تشمل مدن جالو - أوجلة - الجغبوب - الكفرة.

3 - أخذت إيطاليا على نفسها عهداً بأن تبقي على المحاكم الشرعية وتولي علماء يوثق بهم أمر النظر في القضاء، وفي قضايا الأحوال الشخصية.

4 - قبلت إيطاليا أن تفتح المدارس العلمية والمهنية في برقة، وأن تعنى بتعليم القرآن الكريم على أيدي أبناء البلاد.

5 - قبلت إيطاليا أن تعيد الزوايا السنوسية والأراضي الخاصة بها وأن تعفى من الضرائب.

6 - تدفع الحكومة الايطالية مرتبات المشايخ للزوايا التابعة لها على أن يقوم هؤلاء بدور الوسيط بين السلطات الايطالية وأهل البلاد حين الحاجة.

7 - تسمح إيطاليا بتبادل التجارة بين الداخل وثلاث من الموانىء وهي طبرق ودرنة وبنغازي على أن يشمل هذا بقية الموانىء عندما تتحسن الأحوال وتسمح بمثل هذا العمل.

8 - كما تم الاتفاق على تجريد السكان من السلاح في فترة أقصاها العام وتحل المعسكرات السنوسية في تاريخ يحدد فيما بعد.

ولم يكن من الصعب الوصول الى اتفاق بين السنوسيين والبريطانيين بعد ذلك، فقد قبل أدريس اعادة الاسرى جميعهم اليهم وتقرر استئناف العلاقات التجارية بطريق الساحل المصري، ولم يسمح بإقامة زوايا سنوسية في مصر، لكن الزكاة كانت تجمع من أتباع السنوسيين المقيمين في مصر[27].

(25) الجمل، المرجع السابق، ص 381-382. فيكو، المرجع السابق، ص 34.

(26) الجمل، المرجع نفسه، ص 382-383؛ وانظر:

رودلفو غرازياني: برقة الهادئة، ترجمة ابراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الاندلس، (بنغازي 1975)، ص 23.

(27) زيادة، برقة. . ص 92-93؛ الجمل، المرجع السابق، ص 383-384؛

راشد البراوي: ليبيا والمؤامرة البريطانية، مكتبة النهضة، (القاهرة 1953)، ص 19.

إن التمعن في شروط هذه المعاهدة يؤشر تراجعاً أولياً من قبل ادريس السنوسي أمام أطماع الإيطاليين في البلاد، لكن هذا التراجع لا يعني الموافقة الجماعية لقادة حركة المقاومة، وكان من أبرز مواقف الرفض لذلك تلك التي عبّر عنها عمر المختار، فقد رفض فكرة المصالحة لأنها «كرست الوجود العسكري الايطالي في ليبيا» وقال على لسان ممثليه «إنهم لا يقبلون بالإيطاليين الا في المدن الساحلية على أن يقتصر عملهم هنا على التجارة» وعدم السماح لهم بممارسة أي نشاط عسكري أو سياسي، مما يوحي أن حركة المقاومة الشعبية ترفض المساومة على مصالح الشعب والوطن وحقهما في الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية، وعليه فان موقف ادريس السنوسي لا يعبر عن رأي الأغلبية. وقد تأكد موقف الرفض ثانية عام 1919 أثناء انعقاد الاجتماع الوطني في اجدابيا مقر الإمارة السنوسية[28].

إن مرحلة «العمل الدبلوماسي» استمرت بين الطرفين حتى عام 1920، فيما ترك اتجاه الرفض الذي قاده عمر المختار أثره الواضح على طبيعة العلاقة بين الجانبين السنوسي والايطالي، وتأكد ذلك من خلال العودة الى فتح باب الحوار من جديد مع الإيطاليين لتحديد صيغة جديدة من العلاقة بين الطرفين، وعليه فقد دخل ادريس السنوسي في مفاوضات مع الايطاليين تم التوصل فيها الى اتفاق «الرجمة» في 25 تشرين الأول - أكتوبر 1920. وبموجب هذا الاتفاق عُدِّلت بعض بنود اتفاقية عكرمة لصالح الإدارة السنوسية. لكنها أكدت من جانب آخر على اقتصار الجيش السنوسي على ألف من الرجال، وعلى أن يقوم ادريس السنوسي بتصفية الأدوار (المعسكرات) السنوسية السبعة خلال ثمانية أشهر، إضافة الى حل جميع المنظمات العسكرية والسياسية المتعلقة بها في المناطق الواقعة خارج حكومته[29]. ويبدو صحيحاً الرأي القائل بأن هذه الاتفاقية مع أنها اعترفت بالسيد أدريس السنوسي كحاكم مدني بالإضافة الى زعامته الدينية، فإن إيطاليا لم تقصد بالطبع وضع السلطة بيده أو الاعتراف به سياسياً بعد منحه لقب (أمير)، بل إن هذه الاتفاقية كانت محاولة من إيطاليا لشراء الهدوء وصمت السنوسيين بما تقدمه من أموال، بالإضافة الى أن هذه الاتفاقية تعني اعتراف الأمير السنوسي بفصل برقة عن طرابلس، ولذا كان قبوله لها موضع نقد الكثيرين[30].

وقد عورض البند الخاص بـ«حل المعسكرات» من قبل عمر المختار وكان يرأس قيادة اثنين منها. ولم تكن الغاية من هذا البند لتحقيق أغراض سياسية بحتة، بل كانت تتعدى ذلك الى ممارسة النشاط والسيطرة على عرب الصحراء في المناطق الداخلية، ومن هنا يظهر جلياً كما يقول فولايان، سبب رفض المختار تلك المحاولة، ويبدو أيضاً أن القبول بهذا البند معناه تفتيت القوة القتالية لحركة المقاومة، وإتاحة الفرصة للإيطاليين بتوجيه ضربة سريعة وسهلة واحتلال البلاد كاملة في حال العودة الى الأسلوب العسكري من قبل إيطاليا.

وعليه، فلم يجد السيد ادريس بديلاً سوى إطالة أمد المفاوضات متذرعاً بأن المحافظة على النظام في منطقته يتطلب الإبقاء على المعسكرات، وقد حاول الحاكم الإيطالي دي مارتينو حل الإشكال في 11 تشرين الثاني - نوفمبر 1921، وذلك بتوقيع معاهدة أخرى عرفت بمعاهدة «بومريم» ونصت على وضع المعسكرين التابعين لعمر المختار مع ثلاثة معسكرات أخرى تحت إشراف ثنائي من قبل الضباط الايطاليين والسنوسيين. وهذا يعني أيضاً سيطرة شبه مباشرة من قبل الايطاليين على معسكرات المقاومة. ولما لم يتمكن اتجاه الرفض من معارضة هذا الاجراء الذي وافق عليه إدريس السنوسي، فقد استغل عمر المختار والقادة الآخرون هذا الشكل الجديد لتأكيد اتجاههم الرافض للوجود الايطالي. فقد استخدموا المعسكرات المختلطة هذه لنشر الدعاية المناهضة للإيطاليين، أي العمل على إبقاء حالة التوتر

(28) **أحمد محمود**: عمر المختار، الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في طرابلس الغرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي (مصر 1353 هـ)، ص 11-14؛ **فولايان**، المرجع السابق، ص 114؛ زيادة، برقة.. ص 92-95.

(29) للمزيد من التفاصيل عن بنود هذه الاتفاقية، انظر: الزاوي، المرجع السابق، ص 272-278؛ الجمل، المرجع السابق، ص 385.

(30) **الجمل**، المرجع نفسه، ص 386.

قائمة بين المقاتل الوطني والجندي الايطالي لتأكيد اتجاه الرفض ولكن بشكل غير مباشر. وعليه فقد وجد الايطاليون أنفسهم في موقع يستحيل معه تطبيق أي اتفاق وفرض النفوذ على البلاد، وهكذا وجدوا من عمر المختار عائقاً عنيداً في طريق محاولتهم ايجاد نفوذ سياسي في ليبيا وبصورة خاصة في برقة، وكل هذا يعني بأن الفضل يعود الى عمر المختار وغيره من القادة السنوسيين مثل صالح العوامي وخالد الحمري وآخرين في استمرار اتجاه الرفض للوجود الايطالي[31].

أما في جبهة طرابلس، فقد حاولت حكومة الجمهورية الطرابلسية الحصول على مزيد من الحرية والاستقلال للبلاد بعيداً عن النفوذ الايطالي، وعليه ففي ٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر 1920 عقد مؤتمر غريان وتقرر فيه «ان الحالة التي آلت اليها البلاد لا يمكن تحسينها الا بإقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الاسلامي بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة ولا يعزل الا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها وأن يشمل جميع البلاد بحدودها المعروفة»[23].

وانتخب المؤتمر حكومة وطنية أطلق عليها أسم «هيئة الإصلاح المركزية»، وانتخب أحمد الشريف رئيساً لها وعبدالرحمن عزام مستشاراً، وكان من اعضائها محمد فرحات الزاوي ومختار كعبار وغيرهم. وخطا المؤتمر خطوة وطنية حينما قرر توحيد الكفاح في القطر الليبي وعرضوا على السيد ادريس السنوسي زعامة طرابلس الى جانب برقة وكان ذلك في اجتماع عقد في «سرت» في كانون الأول ـ ديسمبر 1921، ووقع الطرفان ميثاقاً للتعاون والكفاح من اثنتي عشرة نقطة، ثم كانت الخطوة الأخرى بالعمل من أجل الوحدة الوطنية سياسياً وعهدوا بالبيعة للسيد ادريس السنوسي ليكون رئيساً للبلاد كاملة. وفي اجتماع اجدابيا المنعقد في تشرين الثاني ـ نوفمبر 1922 قبل السيد ادريس البيعة. والجدير بالإشارة هنا هو الموقف البارز للمجاهد عمر المختار من قضية الوحدة الوطنية، فقد كان الى جانب آخرين مصممين على الوحدة الوطنية، وقام بدعاية واسعة النطاق في عدة مناطق من برقة للعمل من أجل تحقيقها لأن هؤلاء كانوا «يدركون موقف ادريس الا أنهم كانوا لا يرغبون بوضع شائبة على السنوسية من خلال السيد ادريس السنوسي»[33].

وفي أواخر ايلول ـ سبتمبر 1923، قضى الايطاليون على آخر محاولة للمقاومة في إقليم طرابلس وأخرج قادة المقاومة من البلاد بعد جهاد دام أكثر من اثني عشر عاماً، فمنهم من لجأ الى مصر وسوريا ولبنان أو الى تونس، ومنهم من آثر البقاء لمقاومة الايطاليين فانسحبوا الى فزان ومنهم الى برقة واشتركوا في المقاومة التي قادها المجاهد عمر المختار[34]، بعد أن استلم القيادة الفعلية لحركة المقاومة بعد رحيل ادريس السنوسي الى مصر في العام نفسه.

عمر المختار والمرحلة الأخيرة في الكفاح الوطني الليبي 1923-1931:

تعتبر هذه المرحلة وهي الأخيرة في الكفاح الشعبي المسلح في ليبيا ضد الاحتلال الايطالي من أهم مراحل الكفاح الوطني، ويمكن أن يطلق عليها بحق المرحلة الملحمية حيث تجلّت لدى الشعب، وبشكل أكبر، روح التضحية والفداء والبذل والتصميم على الحرية والاستقلال الوطني رغم الحصار والتضييق ورغم تصاعد الهجمة الاستعمارية الايطالية في الطريق الذي بدأته في إبادة وتشريد الشعب. وقد تركزت قيادة حركة المقاومة بيد المجاهد الكبير عمر المختار، كما تميزت هذه المرحلة من خلال اتباع المختار أسلوباً قتالياً جديداً بعيداً عن الحرب النظامية، وهو أسلوب حرب الكمائن (العصابات).

لقد استلم عمر المختار قيادة حركة المقاومة بصفة (النائب العام) بعد رحيل ادريس السنوسي الى مصر. وقد لاقى قبول

(31) **فولايان**، المرجع السابق، ص 114-115، الجمل، المرجع نفسه، ص 386؛ الزاوي، المرجع السابق، ص 248.

(32) **الزاوي**، المرجع نفسه، ص 299-301.

(33) **التكريتي**، المرجع السابق، ص 111-114.

(34) **الزاوي**، المرجع السابق، ص 357-373.

ادريس لـ«البيعة» لترؤس البلاد في تشرين الثاني ـ نوفمبر 1922 معارضة إيطالية، غير أنه رفض التراجع عن ذلك، لكنه لم يدعم ذلك بفعل مقاوم، أي العودة ثانية لحمل السلاح ومواجهة المحتلين، فسافر في كانون الأول ـ ديسمبر 1922 الى مصر «بحجة مرضية» ولم يرجع، ووقع في خطأ ستراتيجي كبير لأنه لم يستغل الإمكانات البشرية القتالية والمساحة الأرضية التي توفرت لديه من خلال البيعة. وبعد رحيله عهد بالقيادة العامة للمجاهد عمر المختار، فيما قام شقيقه الرضا نائباً عنه في الأمور الدينية والعائلية. وقد كان رحيله في وقت تصاعدت فيه الأطماع الإيطالية بوصول الفاشية الى الحكم. وكان رحيله فشلاً غير معلن لاجتماع أجدابيا.

كان عام 1922 بداية الحد الفاصل بين فترة الهدنة (العمل الدبلوماسي) وضراوة الاكتساح الإيطالي للمنطقة بكاملها. وقد بدأت هذه المرحلة بنقض حكومة موسوليني الفاشية للتعهدات التي قطعتها الحكومة الايطالية السابقة مع قادة المقاومة في ليبيا. ففي آذار ـ مارس 1923 أعلن حاكم ليبيا الايطالي الجنرال بونجيوفاني «أن جميع الاتفاقات التي عقدتها الحكومة مع السنوسيين هي باطلة وملغاة» فكان ذلك إيذاناً ببدء الحرب من جديد، فكانت حرباً لا هوادة فيها[35].

تبنّت ايطاليا الفاشية في هذه المرحلة سياسة «القبضة الحديدية» فأعلنت الأحكام العرفية، وحلّت المعسكرات المختلطة في مراوة وسلطنة والمخيلي والأبيار وتكنس وعكرمة، وباشرت حملات الإبادة الجماعية ضد الأهالي بادئة بمدينة أجدابيا مقر الحكومة السنوسية حيث هاجمتها في 8 آذار ـ مارس 1923 وسحقت من وجدته فيها، ثم أعملت القتل والتشريد في المدن الساحلية، درنة، طبرق، بنغازي. ومنذ هذا الوقت ايضاً تصاعدت عمليات التعبئة الوطنية الشاملة التي بدأها عمر المختار، فعقد اجتماعاً مطولاً مع قبائل السعدي والجبارنة والحرابي، تدارس معهم الأوضاع الناشئة عن شراسة الهجمة الإيطالية وتخلي ادريس السنوسي عن البلاد، واستقر الرأي في النهاية على ضرورة مواصلة القتال واعتماد تكتيك حرب العصابات لمواجهة القوات المحتلة[36]. وتم خلال الاجتماع اتخاذ الاجراءات التالية:

1 ـ تأمين إسناد اقتصادي مادي متين للكفاح، حيث أعدّ المختار ترتيبات كاملة لجمع ضريبة العشر من كل السكان، وبرمج الإنفاق لكل ما يجمع.

2 ـ أبدى اهتماماً بتجهيز المقاومة من الأسلحة والذخيرة والملابس ومواد أخرى كانت ترسل من مصر وتوزيعها بشكل عادل وكامل على جميع قواته.

3 ـ قسم المقاومة الى مجاميع بأعداد تتراوح ما بين 100-300 مقاتل من الرجال الأشداء، يرأسهم قائد ثانوي وموظف للقضايا المدنية وقاضٍ للمسائل الدينية والشرعية مع ضابط ميرة وضباط آخرين للواجبات العامة.

4 ـ عمل على تأمين خدمات تجسسية كافية بحيث أصبح قادراً على تأمين «عين» أو جاسوس في كل مركز إيطالي لكي يكون على بينة من نواياهم وتحركاتهم[37].

إن هذا التنظيم الدقيق لحركة المقاومة والإشراف المباشر من قبل عمر المختار على كل صغيرة وكبيرة، والأسلوب القتالي المتبع (حرب الكمائن) أكسب حركة المقاومة قدرة على دوام المواجهة وشلّ معنويات القوات الايطالية. وفعلاً وكما يقول فيكو، كان عمر المختار «رجل الجبل» هو الوريث الحقيقي للسيد أحمد الشريف أكثر من أدريس السنوسي[38]. وعليه فقد أصبح عمر المختار «نقطة الارتكاز» لحركة المقاومة المسلحة وخاصة بعد ان تمكنت القوات الايطالية من إنهاء المقاومة في طرابلس في أيلول ـ سبتمبر 1923. وساد اتجاه

(35) **هوبير ديشان**: نهاية الاستعمار، ترجمة زهير السعداوي، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت 1953)، ص 76؛
بيير رونوفن: تاريخ القرن العشرين، تعريب نور الدين حاطوم، دار الفكر الحديث (بيروت 1969)، ص 265؛
زيادة، برقة.. ص 98.؛ ستودارد، المرجع السابق، 121/2.

(36) **محمد عيسى صالحية**: اودوار في حركة الجهاد الليبي، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد (13) السنة 1978، ص 1-152.

(37) **فولايان**، المرجع السابق، ص 115؛ صالحية، الأدوار.. ص 156؛
محمود الشنيطي: قضية ليبيا، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة 1951)، ص 154.

(38) **فيكو**، المرجع السابق، ص 340.

الـرفض للوجـود الايـطالي من خـلال الإصرار عـلى مـواصلة الكفاح. واتضح هذا الاتجاه الـوطني بشكل أكـبر عندمـا زار المختـار مصر (1923) للقاء ادريس ليسأله متى العـودة؟ لكنه (لم يحظ بجواب حاسم)، بل دعاه ادريس للاستقرار في مصر وترك الجبل الأخضر، إلا أن المختـار عبر عن ضمـير الشعب وحقـه في الحـريـة والاستقـلال، والالتصـاق بـتراب الـوطن والدفاع عنه حتى الاستشهاد عندما رد عليه بالقـول «لن أبرح الجبـل الأخضر مدة حيـاتي ولن يسـتريـح الـطليـان فيـه حتى يـواروا لحيتي الـتراب»، وأكـد لـه: «مـا الفـائـدة من العيش مهاجراً ذليلاً، يجب أن أعود لأمـوت وأؤدي بذلـك آخر حق عليّ لله ولبلادي»[39].

ويتـأكد مـوقفه الكفـاحي أيضاً عنـدما اجتمـع به مشـايخ قبيلتـه من الذين رحلوا الى مصر، وهـو في طريق عـودته الى برقة، والذين حاولوا أن يثنوه عن عزمه على مواصلة الكفـاح بدعوى كبر سنه، فكان جوابه قاطعاً فاصلاً وقال لمحدثيه «إن كل من يقول لي هذا الكلام لا يريد خيراً لي لأن ما أسـير فيه هو طريق خير لا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها وكـل من يحاول ذلك فهو عدو لي»[40].

وهكذا ساد اتجاه الرفض للوجـود الايطالي والاستمـرار في الكفاح حتى النهاية، لكن المختار مع ذلك ومن خلال الوعي العميق بطبيعة هذه الحرب ومـدى حاجـة المقاومـة للدعم، لم يقطع علاقته نهائياً بادريس السنوسي وقد عرف عنـه احترامـه للعائلة السنوسية، فاستفاد من وجود ادريس وغيره من القادة السنوسيين في مصر لـدعم حركـة المقاومـة. من جهـة أخـرى أشارت بعض المصادر ومن خلال ما كشف من وثائق جديـدة تتعلق بحركة المقاومة الليبية، الى أن السيد أحمـد الشريف قد بقي عـلى علاقتـه بحركـة المقاومـة ومـوجهـاً لهـا من الخـارج وخاصة بعد استقراره في الحجـاز[41]، ومهما يكن من أمـر فإن الاتجاه الذي اختطّه عمر المختار من قبل هو الذي ساد خلال هـذه المرحلة، وتعمق اكـثر من خـلال حث السيـد أحمـد الشريف على مواصلة الكفاح.

اجتمع عمر المختار بعد الهجوم الايطالي عـلى أجدابيـا مع القيـادات العسكـريـة للتـداول في سـتراتيجية الكفـاح ضـد القوات الإيطالية، وقد تمخض الاجتماع عن الأمور التالية:

1 ـ يستمر عمر المختار في الجبل الأخضر ويتخذه قاعدة له وينشيء داخله مراكز لتدريب المتطوعين.

2 ـ يرابط الشيخ صالح الأطيوش (أحد قـادة المقاومـة) في البريقة ويتخذها قاعدة لمقاومة الايطاليين.

3 ـ تؤسس ثـلاثة مـراكز عسكـرية أمـام درنة وفي شـماسا (داخل الجبل الأخضر) وفي الحرجة.

وجـاء هذا التـوزيع لكي يعـزز وجود المقـاومـة في منـاطق واسعة من برقة ليتمكنوا من إشغال القوات الإيـطالية بشكـل أكبر ومن خلال أسلوب حرب العصابات. وكان اختيـار عمر المختار للجبل الأخضر ليكون قاعدة لحركـة المقاومـة قد دلّـل على رؤيا عسكرية صائبة في اختيار المواقع الستراتيجية في مثل هذه الحرب، ذلك ان الجبل الاخضر بغاباته الكثيفة ووديـانه وتعرجاته وتوفـر المياه فيـه، إضافـة الى توفـر العنصر البشري والمـواد الغـذائيـة، كـان أصلح المنـاطق لحـرب الكـمائن (العصـابات) في حـين كانت المنـاطق الداخليـة، الجغبـوب ـ أوجلة ـ جالو ـ الكفرة، مناطق دفـاع في العمق. وقد اعـترف الجنرال غرازيـاني في مذكـراته بصـواب هذا الاختيـار للجبل الأخضر وأكد «صعوبة الوصول اليه ـ الى عمر المختار ـ لتنفيذ العمليـات العسكـريـة» ومـراقبـة المقـاومــة والجـماهـير عـلى السواء[42].

قسّم المجاهد عمر المختار حركة المقـاومة الى عـدة أدوار ـ

---

(39) محمود، المرجع السابق، المقدمة.

(40) صالح رمضان محمود: جهاد عمر المختار على النطاق الليبي، بحث مقدم الى مهرجان الشهيد عمر المختار المنعقد في بنغازي عام 1979. ص 13.

(41) كانت الفترة ما بين 1924-1933 تمثل الجانب المهم من حياة السيد أحمد الشريف في المنفى. فخلالها نظم الاتصال بينه وبين المجاهـدين في القطر الليبي، وكـان ذلك من خلال الرسائل العديدة التي كان يبعثها الى قادة المقاومة، يدفعهم فيها الى مواصلة الكفاح ضد الاستعمار الايطالي، وبدا محركاً للاحداث فيها وقائداً للمقاومة من الخارج مما اضطر الايطاليين في كثير من الأحيان الى الاتصال بـه في محاولـة لعقد الصلح. انـظر نصوص بعض الـرسائـل المنشورة حديثاً:

صالحية، صفحات مجهولة... ص 22 فما بعدها.

(42) غرازياني، المرجع السابق، ص 33.

معسكرات ـ في عام 1924. وقد نظم المقاومة حسب القبائل، فجعل لكل قبيلة فرقة باسمها، يساعدها عدد من الاخوان، وعلى رأس كل فرقة قائد، وكان المفضل أن يكون قائد الفرقة من أفراد القبيلة لكي يتسنى له ضبط افرادها بشكل أفضل. ويبدو أيضاً أن هذا التقسيم (القبلي) كان الهدف منه خلق حالة التنافس بين الفرق المقاتلة لكي تبقى حالة التوتر والاستعداد العالي قائمة بشكل أكبر. وتختلف هذه الأدوار من حيث عدد مقاتليها ومن حيث توزعهم على المناطق، وهذه الأدوار هي:

1 ـ دور العبيد، ويتكون من (800) مقاتل، وتقع مخيماتهم قرب (بوقال) تحيط بها غابات كثيفة، وتمتلك حركة المقاومة في هذا الدور (1500) بندقية.

2 ـ دور البراعصة، ويتكون من (450) مقاتلاً، ينضمّ اليهم عند الحاجة (600) مقاتل، متخصصون للدفاع عن المخيمات باعتبارهم مسالمين، وينضمون عند الحاجة الى صفوف المقاومة كمدد للدور عند الهجوم عليه.

3 ـ فرقة الحاسة، وتتكون من (150) مقاتلاً.

4 ـ دورية مستقلة (درسة) وتتكون من (150) مقاتلاً أيضاً.

5 ـ دور العواقير ومركزه مدينة الشعفة، ولم يعرف عدده بالضبط، فهو من أكبر الأدوار المقاتلة وحدوده من (الحمدة) شرقاً الى سيدي سلطان غرباً.

وكل هذه التنظيمات من وضع المجاهد عمر المختار الذي يعتبر كما يعترف غرازياني (محيي ومرتّب الثورة ضد حركتنا وقواتنا)[43].

تصاعدت حركة المقاومة المسلحة في برقة من جديد، يساندها الشعب بكل فئاته في الجبل الأخضر وفي بقية المناطق من ليبيا، وحرص المقاتلون الوطنيون على عدم الدخول مع الإيطاليين في معركة حاسمة مما أشعر القوات الإيطالية وهي تقاتل في كل مكان، أنها تقاتل شعباً بأسره وليس جيشاً، وقد عبَّر القائد الإيطالي تيروزي (حاكم برقة عام 1927) عن ذلك بقوله: «إننا نحارب عدواً ليس له شكل متماسك، مما جعلنا على أهبة الدفاع باستمرار، وكان الثوار مثل النار يمكن أن يظهروا اليوم في مكان وغداً على بعد خمسين كلم منه، واليوم الذي يليه على بعد مائة متر وهكذا، ولذلك فان خمسة أو عشرة آلاف من جنودنا غير كافين ضد مائتين أو خمسمائة من الثوار» الذين كانوا يهجمون في الليل عادة ويفاجئون عدوهم الإيطالي في أرض وعرة يعرفون مسالكها كل المعرفة[44].

وخلال هذه الفترة (1924 - 1925) وقعت عدة معارك بين الطرفين أشهرها معركة الرحيبة وعين المطمورة وكرمة التي قال فيها المختار «بأننا وجدنا في ميدان القتال ما ينيف عن (500) قتيل من العدو بينهم ماجور وثلاثة ضباط» واستمرت حركة المقاومة تأخذ امتداداتها الأفقية في كل المناطق، حيث انتشرت المجاميع القتالية من الجبهة الغربية في سرت شمالاً الى فزان جنوباً والى جالو شرقاً، وشغلت قسماً كبيراً من الجيش الإيطالي الذي راح يصعّد حملاته ضدها وضد الشعب عموماً، فقد لجأت القوات الإيطالية في هذه المرحلة من الحرب الى أعمال الإبادة والتقتيل والتنكيل وحرق المضارب وإتلاف الغلال وقتل المواشي او مصادرتها، واستخدمت في ذلك الطائرات أيضاً، كما تمكنت من احتلال العديد من المدن الصغيرة والمتفرقة سواء في الجبل الأخضر أم في جارق وغيرها من المناطق، لكن سلطتهم ظلت لا تتعدى المراكز التي يقيم فيها الجند، اي ان سلطتهم ظلت لا تتعدى المدن الساحلية بعيداً عن الداخل[45]، مما يؤكد قدرة المقاومة الوطنية والشعب من ورائها على مواجهة قوات الاحتلال الإيطالي، وأنهم بعد ثلاثة عشر عاماً من الغزو الإيطالي، ما زالوا يمتلكون المقدرة على المواجهة والكفاح من أجل الحرية والاستقلال الوطني.

(43) **غرازياني**، المرجع نفسه، ص 34.

(44) **الشنيطي**، المرجع السابق، ص 154؛ الجمل، المرجع السابق، ص 389.

(45) **محمود**، عمر المختار، ص 39، 45-46؛ غرازياني، المرجع السابق، ص 35؛ **زيادة**، برقة.. ص 110؛ الجمل، المرجع نفسه، ص 389-390.

الاستراتيجية العسكرية الإيطالية الجديدة:

غيّر الإيطاليون في نهاية عام 1925 استراتيجيتهم العسكرية في الصراع مع حركة المقاومة الليبية. فقد توهم الإيطاليون أن صمود المقاتل العربي الليبي واستماتته في الدفاع عن أرضه وحريته يعودان إلى المتوفر لديه من الإمكانات القتالية والمؤنية من الخطوط الخلفية في عمق البلاد (الجغبوب، أوجلة، جالو، الكفرة)، وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأي، إلا أن الأحداث فيما بعد أكدت ان جذوة الكفاح من أجل الحرية والاستقلال الوطني بقيت مشتعلة في نفوس الشعب وحركة المقاومة رغم كل محاولات التطويق التي مارستها القوات الإيطالية تجاهها. وعليه فقد حشد الإيطاليون قوة عسكرية كبيرة لاحتلال الجغبوب(*)تتألف من ألفين من الجنود وفصائل من السيارات المصفحة المسلحة بالمدافع والرشاشات بلغ عددها ثمانين سيارة، إضافة الى (350) سيارة أخرى لنقل المؤن والمهمات، كما شاركت (12) طائرة لمساندة الحملة[46].

كانت مدينة الجغبوب أكبر الواحات الخلفية عدة وعدداً، وهي تشكل منطقة دفاع في العمق رئيسية، ولما كانت الجغبوب خاضعة اسمياً للحكومة المصرية، فقد استطاع الإيطاليون عن طريق لندن إقناع الملك فؤاد بالتنازل عنها، وكان عليها يومذاك صفي الدين السنوسي، وكان يملك عدداً من المدافع والبنادق، لكنه سلّمها لهم بدون مقاومة في 8 شباط ـ فبراير ـ 1926، وقيل بإيعاز من إدريس السنوسي، في وقت كان بإمكانه أن يبيد الإيطاليين في قلب الصحراء، فكان تسليمها «أمضى سلاح استخدموه في قتل السيد عمر وأكبر معين على سد الحدود المصرية في وجه المجاهدين والتي كانت أعظم مورد لرزقهم»[47]، وكان عمر المختار يومذاك محاصراً في قواعده في الجبل الأخضر، وقد حاول كسر طوق الحصار وإرسال مجموعات من قواته لصد القوات الإيطالية، لكنه لم يفلح، مما جعله يضع قواته في حالة تهيؤ للدفاع عن مراكزها وخاصة معسكرات البراعصة والحاسة والعبيد نظراً لتحرك القوات الإيطالية وتهديدها لها[48].

أدت حالة الحصار الإيطالي لقواعد المقاومة في الجبل الأخضر إلى النقص في المال والعتاد والمؤن مما أدى الى ذهاب المجاهد عمر المختار الى مدينة جالو ولقاء السيد الرضا الذي ينوب عن أخيه ادريس في حكمها اضافة الى أوجلة والكفرة وغيرها من المناطق الداخلية. وقد شكى له المختار حالة المجاهدين ورجاه أن يعطيهم شيئاً من المال الذي كان يجمعه باسمهم، فأبىٰ وألحّ عليه المختار لكن عبثاً ذهبت محاولته، وأخيراً رجاه أن يشتري لرجال المقاومة بعض جلود الإبل ليستعملوها نعالاً يتقون به حفا الجبل الأخضر، فكان «كنافخ في رماد» ورجع المختار الى جبله. بعد ذلك استطاعت إيطاليا استمالة الرضا الى جانبها حين وعدته بالراحة والاستقرار والأموال، ثم خذلوه ونفوه الى روما بعد ذلك، فيما التحق ابنه الحسن بالسيد عمر المختار في الجبل الأخضر، فأكرمه، في حين بقي ابنه الآخر، الصديق، حاكماً على جالو[48].

استمرت القوات الإيطالية في تنفيذ استراتيجيتها بعد احتلال الجغبوب، والتي ابتدأت من عام 1927. وبعد تعزيز الإيطاليين لقواتهم وتعيين حاكم جديد لبرقة الجنرال نيروزي، اتجهوا لإكمال مخطط التطويق واحتلال الأماكن الداخلية، فاستطاعوا احتلال «مسوس» في 16 آذار ـ مارس 1927، ثم «ساونو» بعد يومين، وأخيراً «جوف المطر» في 27 منه، وفي 27 – 28 نيسان ـ أبريل ـ 1927 هزموا المجاهدين في معركة «قبر الظاهر» فيما استمرت المعارك بين الفريقين في

(x) تقع مدينة الجغبوب الى الجنوب من طبرق بمسافة 300 كم تحيط بها صحراء قاحلة وقاتلة من الشمال والغرب والجنوب، وكانت مركزاً رئيسياً للحركة السنوسية قبل الاحتلال الايطالي، وبها زاوية اعدت لتعليم الاطفال، وبها أيضاً مكتبة ضخمة حوت الاف الكتب، فكانت بحق مدرسة كبيرة للاشعاع الثقافي. وفيها قبر السيد محمد بن علي السنوسي جد العائلة الاكبر، وتقع على حدود مصر الغربية قرب سيوة.

(46) **محمود شلبي**: عمر المختار ضحية الاستعمار الوحشي، المكتبة العلمية ومطبعتها (القاهرة. بلا)، ص 70.

(47) سعيد، المرجع السابق، ص 150؛ التكريتي، المرجع السابق، ص 128-129؛ **محمود**، عمر المختار، ص 48-50.

(48) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 35.

(49) **محمود**، عمر المختار. ص 58-60.

الجبل الأخضر في منطقة «وادي الكهوف» من 2 – 11 أيار - مايو - كما استطاعوا في ايلول - سبتمبر - احتلال المناطق الغربية والتي تقع الى الجنوب الغربي من مدينة بنغازي[50]، وتقدمت نحو الداخل لاحتلال مدينتي جالو وأوجلة، ووصلت منطقة «زلة» واحتلتها في 22 شباط - فبراير - 1928 بعد أن أبدت المقاومة فيها من الشجاعة والصمود الشيء الكثير واضطر المجاهدون بعدها الى التقهقر بعد أن نفذت «خراطيشهم»، وبينما كانت الحرب دائرة في «زلة» كانت التدابير العسكرية تتخذ للتقدم لاحتلال أوجلة وجالو، فتحرك الجيش الإيطالي من «الحِسيات» بقيادة الكولونيل مزتي، واستطاع احتلال أوجلة في 23 شباط - فبراير - وجالو يوم 25 منه، ومرادة في 18 آذار - مارس - 1928، وبذلك استطاع الإيطاليون عزل المجاهدين في الجبل الأخضر عن مصر من الناحية الشرقية وعن مراكز السنوسية الباقية في الجنوب في فزان والكفرة[51].

كان احتلال أوجلة وجالو شديد الوقع على النفوس لأنها المنفذ الوحيد الى الصحراء بعد الجغبوب، لكن بقاء الكفرة عزز من صمود المقاومة، كما كان لرباطة الجأش وحسن القيادة اللذين اتصف بهما عمر المختار أثرهما الكبيران في إبقاء معنويات المقاتلين عالية بحيث أن حركة المقاومة هاجمت أسوار درنة وما حولها في الفترة ذاتها، كما استطاع عمر المختار أن يبيد قوة إيطالية أرادت مهاجمة قافلة من البراعصة خرجت من السلوم محمّلة بالعتاد قاصدة الجبل الأخضر في حزيران - يونيو - 1928. وعليه فقد أوضح عمر المختار للايطاليين أن الوصول اليه كما اعترف غرازياني «لا يزال من الرموز التي لم يهتدوا الى حلها» وأضاف بأن الجبل الأخضر كان «مشكلة» الإيطاليين حيث يوجد عمر المختار متحدياً جبروتهم، ويؤكد من جهة أخرى بأن المختار رغم الضغوط التي تعرض لها عامي 1927 – 1928، «فما زال قائماً بسلاحه في وجهنا»[52]. ومع نهاية عام 1928 بدأت مرحلة جديدة في العلاقات الليبية - الايطالية بعد أن وحّدت إيطاليا إقليمي ليبيا (برقة وطرابلس) تحت قيادة حاكم واحد هو الجنرال باودوليو.

عهد المصالحة الفاشل:

بدأت في نهاية عام 1928، العلاقات بين قيادة حركة المقاومة الليبية والقيادة العسكرية الإيطالية تأخذ مساراً آخر. فقد أيقن الإيطاليون أن الطريق العسكري لفرض نفوذهم على البلاد لا يزال متعثراً رغم قدرتهم على احتلال العديد من المناطق الداخلية، وتضييق الحصار على حركة المقاومة في الجبل الأخضر. ويمكن القول إن عهد المصالحة لحل النزاع بين الطرفين عن طريق المفاوضات كان مسألة ضرورية لحركة المقاومة لكي تتمكن من تنظيم قواها من جديد وتأمين أسلحة ومؤن من المناطق التي لا زالت غير خاضعة للاحتلال الإيطالي وخاصة مدينة الكفرة. وكان ذلك مسألة ضرورية لها إذا علمنا أن تضحيات المقاومة في الأفراد، لعام 1927 فقط، بلغت (1296) مقاتلاً ومن الماشية (30400) رأس، ولعام 1928، (280) مقاتلاً إضافة الى (26866) رأساً من الماشية، ولعام 1929، (800) مقاتل إضافة الى (2000) رأس من الماشية، ولا يدخل في عداد ذلك الشهداء الذين أزهقت أرواحهم في غير ساحات القتال[53].

ومن جانب آخر، أراد الطليان الدخول في المفاوضات لعقد الصلح والوصول الى تسوية بدون خسائر مادية تضمن لهم تحقيق أطماعهم، وعلى هذا، فقد أوعز الجنرال بادوليو الى الحاكم العسكري الإيطالي في المرج، بأن يتصل بالسيد عمر المختار ويباحثه في عقد اتفاق ينهي الخلاف بينهما. وفي ٢٠ نيسان - أبريل - ١٩٢٩ دارت مفاوضات أولية بين الجانبين، وخيّر المندوبون الإيطاليون السيد عمر المختار بين أمور ثلاثة، إما الذهاب الى الحجاز أو الى مصر أو البقاء في برقة، فإذا رضي البقاء فيها تخصص له الحكومة مرتباً ضخماً وتعامله بكل احترام، ومعنى ذلك قتل حركة المقاومة باستمالة قائدها،

(50) **رمضان**، المرجع السابق، ص 218-219.

(51) **رمضان**، المرجع نفسه، ص 219.

(52) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 41؛ شلبي، المرجع السابق، ص 74.

(53) **زيادة**، برقة، ص 112.

لكن المختار رفض كل هذا وأكد بأنه ليس من الطراز الطامع في الدنيا، المتهالك على أعراضها[54]. واستؤنفت المفاوضات ثانية وثالثة ثم قدم المختار شروط الصلح التي تفاوض مع بادوليو على بنودها، وهي:

1 ـ أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية ومندوب من طرف الحكومة التونسية ليشهدوا الشروط التي نتفق عليها ويكون ناقض العهد منا مسؤولاً أمام العالم بشهادتهما.

2 ـ لا تتدخل الحكومة الإيطالية بأمور ديننا، كما لنا الحق في تأديب كل من يخرج عن الدين أو يهزأ بتعاليمه أو يتهاون في القيام بواجباته.

3 ـ أن تكون اللغة العربية معترفاً بها رسمياً في دوائر الحكومة الإيطالية.

4 ـ أن يكون الموظفون من الوطنيين والإيطاليين.

5 ـ أن تفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد والتفسير والحديث وسائر علوم الدين.

6 ـ أن تفتح مدارس لتعليم اللغة العربية والإيطالية على السواء، وألا يحرم الوطنيون من التعليم العالي، ويلغى القانون الذي وضعتموه سنة 1923 والذي ينص على منع الوطنيين من دخول المدارس العالية، كما يلغى القانون الذي وضعتموه في السنة نفسها بعدم المساواة في الحقوق بين الوطني والإيطالي.

7 ـ أن تكون إدارة الأوقاف تحت تصرف هيئة مسلمة بإشراف رئيس مسلم ويكون لها نظّار مسلمون.

8 ـ أن تعيد الحكومة الإيطالية جميع الأملاك التي اغتصبتها من الأهالي.

9 ـ أين يكون للأمة رئيس تختاره بنفسها، ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على مصالحها، كما يكون للقاضي القول الفصل في الوطنيين.

10 ـ أن نكون أحراراً في حمل السلاح على اختلاف أنواعه، كما يكون لنا الحق في جلبه من الخارج إذا امتنعت الحكومة الإيطالية عن بيعه لنا.

وقد تسلّم موفد القيادة العسكرية الإيطالية، سيشلياني، هذه الشروط ووعد بأن يعرضها على الجنرال بادوليو ويوافي السيد عمر المختار بما يتم في أقرب وقت ممكن، وعلى هذا انتهت المفاوضات[55].

يلاحظ من شروط السيد عمر المختار عدم وجود تأكيد واضح على إنهاء الاحتلال الإيطالي للبلاد كما كان موقفه في السابق، لكن جوهر هذه الشروط يؤشر نوعاً من «الاستقلالية» في الشؤون الوطنية في الداخل، وتقترب من الاستقلال الكامل فيما يتعلق بالشؤون الخارجية (البند العاشر)، ويبدو أن وضع حركة المقاومة في تلك الفترة التي أحكم فيها الإيطاليون الحصار عليها من كل ناحية أملى عليها اتخاذ هذا الموقف كمرحلة أولى على طريق الاستقلال الكامل وإنهاء الوجود الاستعماري، وللدلالة على ذلك قام المختار بمقاومة أي سلوك يدعو الى حل المقاومة، واتخاذ الإجراءات الكفيلة ببقائها قوية متماسكة، لأنه كان يدرك طبيعة النوايا الاستعمارية لإيطاليا كما سيأتي ذكره.

في هذه الفترة انشقّ الحسن بن الرضا عن عمر المختار، فقد استخدمه الطليان بوقاً ليفتت شمل المقاومة بالدعوة الى الانفضاض عن المجاهد عمر المختار، ويذكر المجاهدين بـ«الهناء»!! و«الراحة» إن هم استجابوا[56]. !! وقد رفض المختار هذا السلوك البعيد عن المصلحة الوطنية وتمسك بأن لا يخضع للسلطة الإيطالية، وبدأ في جباية الزكاة ليواجه المصروفات العامة لقواته خوفاً من أن تتسرب الى دوريات الحسن بن الرضا التي تتمتع بكل الإمكانات الحكومية[57]، حيث كان الطليان يقدمون التسهيلات المادية والغذائية لدور (معسكر) الحسن الذي اتخذ مقره في غوط الجبل قرب مرادة، وأخذت القوات الإيطالية تصرف على هذا الدور وضباطه المرتبات، وتقدم لهم المؤونة كالدقيق والسكر والرز، لذا أطلق عليه المجاهدون، دور الدقيق من باب التندر والسخرية[58]، ولم يكتفِ المختار بجباية الزكاة، بل عمل على شرخ صفوف الحسن، حيث اعترف غرازياني بأن المختار

(54) **شلبي**، المرجع السابق، ص 76-77.

(55) **محمود**، عمر المختار، ص 75-76.

(56) **محمود**، عمر المختار، ص 86-88.

(57) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 58.

(58) **صالحية**، الأدوار.. ص 156.

استطاع أن يدس أتباعه بين صفوف أتباع الحسن واستطاع هؤلاء إبعاد إخوانهم في حركة المقاومة عن التبعية للحسن، وقد أدى ذلك الى تضاؤل سلطة الحسن «من جراء تأثيرات عمر المختار على النفوس» فانشق عدد من رجال المقاومة عنه[59]، وارتموا في أحضان المقاومة الوطنية التي كانت تنتظر رد الطليان على شروط الهدنة.

وأخيراً، وبعد 6 أو 7 شهور من الانتظار على رد الجواب من قبل سيشلياني في آخر اجتماع معه في «سيدي رويفع» هاجمت الطائرات الإيطالية مواقع المقاومة، فكان ذلك جواباً صريحاً من قبل الإيطاليين، وألقت الطائرات عليهم مقذوفاتها، واستطاعت المقاومة الوطنية إسقاط واحدة منها. وكان ذلك عودة من قبل الإيطاليين الى الأسلوب العسكري، لقمع المقاومة، وفي الوقت نفسه عودة الى الكفاح المسلح ثانية من جانب حركة المقاومة. وقد أيقن قادة حركة المقاومة وعلى رأسهم السيد عمر المختار أن عقد الآمال على أخذ الحقوق الوطنية بالطرق السلمية لا يجدي نفعاً، وتأكد القول بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة، فكانت رحلة الكفاح ثانية بلا هوادة، وقد أصدر السيد عمر المختار بعدها بياناً مطولاً ألقى فيه كل تبعة على الإيطاليين ومما قاله [«وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة، وما قصدنا الا الحرية والاستقلال، أما مقاصد إيطاليا وأغراضها فترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو الى إنهاض الشعب الطرابلسي المتقدم، وهيهات أن يصلوا الى ما يريدونه ما دامت لنا قلوب تعرف أنه في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال، وها نحن ندافع عن كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداءً للوطن». ثم أضاف «ولهذا نحن غير مسؤولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يثوب أولئك الأفراد النزاعون الى القضاء علينا الى رشدهم ويسلكوا السبيل القويم ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع» عمر المختار - قائد القوات الوطنية[60]].

في هذه الفترة العصيبة من تاريخ حركة المقاومة، أعاد الطليان السيد الرضا من روما لكي يستخدموه ثانية لضرب حركة المقاومة والمصلحة الوطنية وليكمل ما بدأه ابنه الحسن في محاولة شق صفوف الحركة. وقد أكّد غرازياني ذلك وهو «أن يستغل في نشر البيانات ويتمكن من التأثير على الثوار» وبمجرد وصوله الى ليبيا اجتمع بابنه الحسن وأقطاب الأعيان الراغبين في الاستسلام والرضوخ للاحتلال الايطالي[61].

في آذار - مارس - 1930 أصبح الجنرال غرازياني الحاكم الأعلى للقوات الإيطالية في برقة، وبدأت صفحة جديدة من الحرب الليبية - الإيطالية. فقد كان مصمماً على وضع حد للمقاومة الوطنية، ولتحقيق هدفه عمد الى أن يحول دون وصول الإمدادات للمقاومة من السكان في الداخل أو من الخارج، فكان يلقي القبض على كل مَنْ يعرف أنه ساعد المجاهدين، وأصدر أوامره بنزع السلاح من أيدي الشعب بدون شفقة أو رحمة[62]. كما قام الإيطاليون، من أجل إفناء الناس في بلد كليبيا يندر فيه الماء، بإغلاق الآبار فكانت النتيجة مفجعة، فلقد مات خلق كثير ونفقت أعداد كبيرة من الأغنام حول حفر المياه، وتشتت الناس في الصحراء لئلا يصل اليهم الإيطاليون[63]، كما أنشأ غرازياني «المحكمة الطائرة»، وهي محكمة عسكرية كان أعضاؤها ينقلون من مكان لآخر، حيث يلقى القبض على من يتهم بمساعدة أو بالاشتراك مع حركة المقاومة، وكانت هذه المحكمة تأخذ بالظنة وتحاكم محاكمة صورية وكان حكمها يغلب على «الجرم» ليكون ذلك رادعاً للغير. وقد تجلى في هذه «المحكمة» الطابع اللاإنساني في الحكم على الناس حتى الأبرياء. كما أقفل غرازياني الزوايا وصادر أملاكها ونفى شيوخها وعطّل مرافق الحياة فيها، كما ملأ معسكرات

(59) غرازياني، المرجع السابق، ص 63-64.

(60) سعيد، المرجع السابق، ص 162، محمود، عمر المختار. ص 93-94.

(61) غرازياني، المرجع السابق، ص 48,66.

(62) الجمل، المرجع السابق، ص 391؛ زيادة، برقة. ص 113-114.

(63) نجلاء عزالدين: العالم العربي، ترجمة، عوض ابراهيم وآخرين، مؤسسة فرنكلين، (القاهرة. بلا) ص 369.

الاعتقال بالكثير من أبناء البلاد[64].

إن هذه الإجراءات التي قام بها غرازياني تأتي محاولة منه لتضييق الحصار أكثر على حركة المقاومة والقضاء عليها. وقد صرّح غرازياني «أن عمر المختار الذي أضفى على نفسه صورة الرجل الذي لا يقهر وأسطورة الزمان.. (كذا)..

يجب أن نعامله بنفس الطريقة التي استعملناها في القطر الطرابلسي وهي قتله مع جماعته بالتدريج وتضييق الخناق عليه في كل الميادين الى أن يخضع لسلطتنا... أو يُباد هو وجماعته بالجوع والعطش وبالحديد والنار»[65]. وجاء الرضا ليسهل الاحتلال الإيطالي للبلاد بعد جملة الإجراءات اللاإنسانية التي اتخذها غرازياني، فوجّه نداءً في العام نفسه الى الشعب جاء

فيه: «إن خضوعي لدولة إيطاليا الفخيمة قد كان مني عن طيبة خاطر ولم أكن مكرهاً، كما أني لست مكرهاً اليوم على نصحكم هذا بل هو صادر عن ضميري نتيجة التجربة الصحيحة والتفكير في الصالح العام، لذلك نبذت كل شيء

باطل (كذا) ورجعت الى الدولة، فتأكدوا أنني بالقلب والذات مع هذه الحكومة أعادي من يعاديها وأصادق مَنْ يصادقها»، وبينما يصف غرازياني بـ«العزيز» وبـ«رحيم عادل»!! ينعت حركة المقاومة بكونها حركة «بسافلة» وبـ«العصيان» حيث يقول «لهذا أدعوكم الى ترك العصيان» فكانت دعوة صريحة الى بث الشقاق والتخلي عن عمر المختار على طريق الخضوع والاستسلام للاحتلال[66]، ومع ذلك فقد استمرت حركة المقاومة في كفاحها، يساندها الشعب بما يستطيع من مدد، وخلال الفترة من نيسان ـ أبريل ـ لغاية كانون الأول ـ ديسمبر ـ من عام 1930، جرت اشتباكات غير حاسمة بين الإيطاليين وقوات عمر المختار في الجبل الأخضر، وتمكن فيها الايطاليون من الاستيلاء على منطقة الفايدية في 14 حزيران ـ يونيو ـ واضطر المختار الى نقل مركز عملياته الى الناحية الشرقية في (الدمنا) لقربها من الحدود المصرية، وأخذ يهاجم القوات الايطالية في منطقة عين غزالة، ولكن في 20 أيلول ـ سبتمبر ـ جرت معركة «كرسة» التي استشهد فيها خير قواد عمر المختار السيد الفضيل بوعمر والى جانبه أربعون شهيداً[67]. وعلى الرغم من حالة (الضعف) التي ألّمت بحركة

المقاومة من جراء عمليات التطويق والحصار من كل مكان، فقد استمر عمر المختار يقود قواته بهجوم خاطف في كل مكان من الجبل ضد مراكز ودوريات القوات الإيطالية لكي يرفع من معنويات قواته من جهة ويرهب القوات الإيطالية من جهة ثانية، ويعترف غرازياني بذكاء عمر المختار ومغزى القيام بمثل هذه الهجمات رغم الحصار المضروب عليه فيقول: «هذه الحركات التي يقوم بها عمر المختار من شأنها رفع معنويات الجنود بحيث لا ترهبهم كثرة العدو وسلاحه» ومن هذا المنطلق يقول غرازياني «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن أمامنا عدواً عنيداً»، ويقول أيضاً مؤكداً دور عمر المختار في ابقاء معنويات المقاتلين عالية «وقد سمعت عمر المختار يقول لأتباعه قبل معركة الساقية، إذا سمعتم زئير أسد من بنغازي الى قلب الجبل لا تخافوا سوف تحقق لكم الأيام مرة أخرى انه تحت جلد الأسد حمار»[68].

إن هذه الشهادات من عدو عمر المختار تعبّر بوضوح عن المعنويات العالية التي كان يمتلكها المختار ورفاقه رغم (الضعف) في الإمكانات القتالية التي بحوزتهم، وكان عناده البطولي في مقاومتهم مثار رعبهم الدائم. وعلى ذلك فقد اتخذ غرازياني ومن أجل إحكام التضييق أكثر على عمر المختار، بعزل السكان في الجبل الأخضر عن الحركة عزلاً تاماً، فقام بعملية تهجير مكثفة للسكان ولماشيتهم. وتشير المراجع الى أن المهجّرين من الجبل الأخضر الى صحراء سرت بلغ (80) ألف نسمة مع (600) ألف رأس من الماشية. وقد مات الآلاف منهم عطشاً وجوعاً، إضافة الى موت ماشيتهم. وعوملت هذه المجاميع البشرية البريئة بكل فظاعة وقسوة ساهمت في اهلاك الكثيرين، وكان فصل السكان في الجبل الأخضر عن حركة المقاومة «أمضى سلاح استعملته ايطاليا للقضاء على الثورة في برقة، وكان من أفظع ما تبيحه الحروب للقضاء على أحد

(64) **ستودارد**، المرجع السابق، 2/79-80؛ زيادة: برقة.. ص 113-114.
(65) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 79.
(66) **محمود**، عمر المختار.. ص 97-98.
(67) **رمضان**، المرجع السابق، ص 221؛ شلبي، المرجع السابق، ص 82-84.
(68) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 143، 157-159.

المتحاربين»[69]. ويعترف غرازياني بأن هذه المجموعات السكانية المهجرة الى صحراء سرت، أحيطت بالأسلاك الشائكة المضاعفة والمزدوجة وخضعت حركتهم لأذونات خاصة ـ بيرمسو ـ فانقطعت العلاقة مع حركة المقاومة في الوقت الذي كان هؤلاء ـ رغم المراقبة الشديدة ـ يشكلون المورد البشري والاقتصادي للمقاومة. ومع هذا المسلسل المستمر لعمليات التضييق والتطويق فقد صمد المختار ورفاقه وأبى الاستسلام والخنوع واستمر في قيادة الحركة على أحسن وجه، ويؤكد غرازياني بأن المختار «رغم كبر سنه وانحناء ظهره يحتفظ بنظرته القوية الثاقبة التي تدل على أنه رجل يعرف كيف يحكم ومتعود على الحكم»، وأشار أيضاً مؤكداً صمود حركة المقاومة وقدرتها على شن الحملات المتلاحقة على القوات الإيطالية وتأثيرها عليهم، بأن هذه الهجمات قد «أثرت على معنوياتنا... وأحدثت جروحاً دامية في قلوبنا» واستفهم «الى متى هذا الشعب لا يلين ولا يقبل الحلول»[70].

احتلال مدينة الكُفْرَة:

استطاعت إيطاليا في مطلع عام 1931 أن تكمل مسلسل التطويق على حركة المقاومة، فكان التوجه نحو مدينة الكفرة التي بقيت آخر خط دفاعي في العمق الليبي، اضافة الى مصر، بالنسبة لحركة المقاومة. وجهّزت إيطاليا حملة لاحتلالها تعد من أكبر الحملات في تاريخ الاحتلال الإيطالي لمدن برقة، فقد استعمل الطليان للهجوم عليها (5) آلاف من الإبل لنقل المؤن والذخيرة، و(3) آلاف أخرى لنقل الجنود و(20) طائرة مجهزة بـ(1400) قنبلة. وفي 19 كانون الثاني ـ يناير ـ 1931، وصلت هذه القوة الكبيرة الى الكفرة واشتبكت مع الأهالي من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة بعد ظهر ذلك اليوم، وأخيراً استطاعوا دخولها واستباحوا قراها ثلاثة أيام، فقتلوا مَنْ صادفوه من الأهالي وانتشروا في القرى والبساتين ونهبوا ما وقع بأيديهم، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء اللاتي اغتصبن، وتشرد الآخرون في الصحراء هرباً من بطش الإيطاليين، لكنهم مع ذلك لم يسلموا من تعقب الجنود والطائرات، وكان سقوطها بيد القوات المحتلة إيذاناً بإكمال الاحتلال الإيطالي للبلاد، ولم يبق الا منطقة الجبل الأخضر التي تحتضن حركة المقاومة المحاصرة من معظم الجهات، وقد أثّر سقوطها على حركة المقاومة تأثيراً كبيراً، حيث لم يبقَ لها منفذ للإمدادات الا الحدود المصرية المخفورة بجيش إيطاليا وطائراتها، ومع ذلك فكانت قوات المقاومة تخترقها لتبتاع من الأسواق المصرية ما يلزمها[71].

اكتمال عمليات التطويق ونهاية حركة المقاومة الليبية:

إن مسلسل التطويق الذي فرضه غرازياني على حركة المقاومة الليبية لم يؤد الى استسلامها على الرغم من الضعف الذي أصابها من جراء تناقص قواتها البشرية وإمكاناتها القتالية والمؤنية. وقد حاول عمر المختار وبكل جهد الاستفادة من الحدود المصرية للتزود بما تحتاجه حركة المقاومة والعمل على إدامة نشاطها وتعزيز إمكاناتها. وعليه فقد تحوّل نشاط المقاومة الى منطقة البطنان ـ مرمريقا ـ ليقرب اكثر من الحدود المصرية وواصل المجاهدون تنشيط التجارة مع مصر من ميناء بردية الى أمساعد في شريط طوله (250) كم. ومن جهة أخرى أخذ في تنظيم المعسكرات ورفع معنويات المقاتلين وتوجيه ضربات متلاحقة للقوات الإيطالية المتمركزة في المناطق المحيطة بالجبل الأخضر، ويعترف غرازياني، بأن المختار وقواته كبدوهم خسائر لا حدّ لها، ويضيف قائلاً: «وبكلمة واحدة حتى بعد أن اتخذنا كل الاحتياطات ضد

(69) بقي هؤلاء في صحراء سرت حتى عام 1934 حيث أذن لهم بالرجوع الى جهة الجبل الأخضر وهم لا يتجاوزون (15) ألف نسمة، انظر التفاصيل: ستودارد، المرجع السابق، 2/66-67؛ زيادة، برقة.. ص114؛

محمود، عمر المختار، ص 103.

(70) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 143,141.

(71) **محمود**، عمر المختار، ص 106-112، ستودارد، المرجع السابق، 2/69-70؛

شلبي، المرجع السابق، ص 83-85.

الخاضعين لسلطاتنا وابعادهم عن المنطقة واحتلال الكفرة وغيرها من المراكز الهامة، ورغم هذا كله فالثوار لا يزالون أقوياء يهاجموننا في كل مكان»، ذلك لأن حسن المداراة والسيطرة عند المختار أعطى الليبيين روح المبادرة ووضع الإيطاليين في موقع محفوف بالمخاطر ومقلقل وغير واضح المعالم، وقد اعترف بذلك بعض القادة العسكريين الإيطاليين أمثال تيروزي وكورادو زولي وغرازياني نفسه[73]. من هنا جاء التفكير في استكمال عمليات التطويق لحركة المقاومة بالعمل على انشاء الأسلاك الشائكة مع الحدود المصرية، وقد بلغ طول هذه الأسلاك (300) كم، بدأت من الشمال قرب الساحل في منطقة بردى سليمان وانتهت الى ما بعد مدينة الجغبوب، فانقطع بذلك الاتصال بين حركة المقاومة في الجبل الأخضر والعالم المحيط بها، ووزعت على هذا الحاجز ثلاث مراكز حراسة، وقد حاول المجاهدون اختراق هذه الأسلاك لكنها كانت تلاقي الكثير من الصعوبات. ومع هذا فقد ظل المختار صامداً على موقف الرفض وعدم الاستسلام، ولم يجزع ولم يركن لهذا التطويق، بل استمر يشن الغارات على مواقع الإيطاليين، وكان الأمل يحدوه في أن يثور العرب فيمدوا إخوانهم بما يدفع عنهم خطر الجوع الذي لا يخشون غيره، وأمل من ادريس السنوسي ذلك في مصر، لكن الأخير كان يتظاهر بشيء لم يفهم منه غير أنه ليس له صلة بالمجاهد عمر المختار[74].

حاول عمر المختار بعد أن سُدّت في وجهه كل منافذ الإمدادات أن يتصل بالسكان الذين تم تهجيرهم الى صحراء سرت، لكن قوات الاحتلال الايطالي تصدّت له وأفسدت خطته، ومع هذا، فقد بقيت جذوة الكفاح متقدة في نفوس المقاومة. اذ يكفي للدلالة على ذلك ما جرى بين حركة المقاومة والمحتلين الإيطاليين من معارك ومناوشات بلغت (53) معركة و (210) من المناوشات كما يعترف غرازياني[75]، لكن الحصار استحكم اكثر على حركة المقاومة، وكانت بداية النهاية في أيلول ـ سبتمبر ـ من عام 1931.

في 11 أيلول ـ سبتمبر 1931، وقع المجاهد الكبير عمر المختار في قبضة القوات الإيطالية، فقد كان من عادته أن يقوم بجولات استطلاعية على مواقع القوات الإيطالية، وتثبيت حركاتها ومعرفة نواياها تجاه هذا الموقع أو ذاك من مواقع المجاهدين. وبينما كان يقود كوكبة من المقاتلين يتراوح عددها بين 40-50 مقاتل، التقى بقوة من الجنود الايطاليين الذين أحاطوه من كل ناحية، وحاول الخروج من وديان الجبل، لكنهم أطبقوا على فم الوادي، فلم يجد بُداً من ملاقاتهم رجاء أن يشق له طريقاً، فأصيب جواده برصاصة سقط على أثرها، وسقط معه عمر المختار، فألقي القبض عليه ونقل الى بنغازي عن طريق البحر في الطراد أوسيني، ثم نقل في سيارة المساجين وأودع السجن[76].

وأبرقت قوات الاحتلال الى الجنرال غرازياني نبأ القبض على عمر المختار مساء ١٢ ايلول ـ سبتمبر وكان يقضي إجازته في روما، فعاد مسرعاً وأمر المحكمة بالانعقاد في 15 أيلول ـ سبتمبر فجيء بالمختار مصفداً بالحديد وحوله الحراس من كل جانب، وقال غرازياني بأنه وقع في قبضتهم «أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام لأنه الرأس المفكر والقلب النابض للثورة العربية وكذلك كان المنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة»[77].

ودار الحديث بين الرجلين، وحاول غرازياني أن يظهر عمر المختار بمظهر المخطىء الذي إنما كان يقوم بأعمال «لصوصية» لكن المختار بدا له ثابت العزم رابط الجأش وتمسك بأنه كان يجاهد في سبيل الله وقومه ووطنه ويدافع عن قضية حق وعدل[78].

إن عمر المختار حتى وهو في قبضتهم لم يلن ولم يرضخ وبقي صلباً ومتصلباً في الدفاع عن قضية الوطن، وكان حواره حوار المناضل الحقيقي الذي يعرف كيف يلتصق بتربة وطنه ويدافع عن حريته وكرامته، وبعد مناقشات طويلة

---

(72) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 229,166.
(73) **فولايان**، المرجع السابق، ص 115.
(74) **محمود**، عمر المختار، ص 113-115؛ زيادة، برقة. . ص 114.
(75) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 241-242.
(76) **سعيد**، المرجع السابق، ص 162؛ محمود، عمر المختار، ص 117.
(77) **غرازياني**، المرجع السابق، ص 266-267.
(78) **زيادة**، برقة، ص 115-116.

انتهى الحكم عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت وهو قد قارب السبعين من العمر، وعندما ترجم الحكم له قهقه بكل شجاعة قائلاً، الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف، إنا لله وإنا إليه راجعون. وأعدم في اليوم التالي المصادف 16 أيلول - سبتمبر 1931 في مركز سلوق بحضور (20) ألف من أبناء المنطقة، ويلاحظ أن الإيطاليين أقدموا على شنقه علناً لكي يقبروا الثورة في نفوس الشعب، لكن ذلك المشهد البطولي كان يفيض بعظمة الموقف وسحره الفاعل في النفوس عندما أخذ يطوق بحبل المشنقة ثابت النفس صامدها، ومضى الى ربه شهيداً، وانتهت حركة المقاومة الليبية بعد استشهاده بأربعة أشهر[x]. ودخلت القوات الإيطالية معاقل الجبل الأخضر، وتم الأمر لهم ولكن الى حين.

الخاتمة:

لماذا صمد المختار حتى النهاية؟ ولماذا رفض كل إغراءآت الطليان أو إدريس السنوسي والتخلي عن الكفاح؟

إن الجواب على هذا التساؤل المشروع يدفعنا للإشارة الى مواقف الشهيد عمر المختار من الإسلام. لقد فهم المختار الإسلام على أنه دين العزة والكرامة والتضحية في سبيل الوطن والأمة. دين الحرية والتحرير، دين العدل والمساواة، دين الشموخ وعدم الخضوع للغزاة الأجانب من أي لون أو صنف كانوا. بهذا الفهم الثوري عمل المختار بعقيدة الإسلام منذ البداية وحتى النهاية، وغدا نموذجاً وهّاجاً للعرب المسلم الرافض لكل دخيل ومعتدٍ على وطنه ودينه، فكان منذ البداية من طلائع المسلمين في حركة التبشير الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر في مناطق أفريقيا الوثنية جنوب الصحراء، وجهاده هناك معروف ضد العدوان الفرنسي.

ومن جهة أخرى، كان المختار زاهداً عن متع الدنيا وإغراءآتها وأبت نفسه أن يتنعم على اشلاء الضحايا وجوع الشعب وينجرّ الى إغراءآت الإيطاليين رغم فقره، فقد رفض هدية الجنرال بادوليو عام 1929 وقيمتها مليون فرنك وقال بأنه «ليس من طلاب الهدايا ولا من قابليها»[xx]، وقاده «انحداره الطبقي الفقير الى الاندماج الكامل مع جماهير شعبه والاستشهاد دفاعاً عن حريته واستقلاله»[xxx].

إضافة الى ذلك، فقد كان المختار شجاعاً مقداماً لا يعرف الجبن أو التراجع، قائداً هياباً ومناضلاً فذاً امتلك نفساً نضالياً طويل الأمد، لم يعرف الملل أو الكلل، دؤوباً في مواصلة أعماله أو الكفاح الوطني، ذكياً في استخدام امكاناته الضئيلة في مواجهة الخصوم، وامتلاكه للوعي العسكري بأصول الحرب أثار إعجاب أعدائه، إذ يعترف غرازياني (ص 277) بأن المختار «كان بطلاً في إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يمكن تحديد مواقعه لتسديد الضربات له ولجنوده» وكان «يكافح الى أبعد حد لدرجة العجز ثم يغير خطته ويسعى دائماً للحصول على أي تقدم مهما كان ضئيلاً بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية مادياً ومعنوياً» ص 268.

واضافة الى المبدئية العالية وصفات الشجاعة والإقدام، فقد كان مثقفاً جيداً، مطلعاً على الثقافة العربية الإسلامية، وهذه المسألة بالتأكيد تقوده الى معرفة عظمة الامة العربية في الماضي، وقدرتها على قيادة العالم، ودورها الفاعل في بناء الحضارة الإنسانية، فكيف يخضع أبناؤها الآن للاستعمار؟

هذه الأمور قادته الى الالتحام الصميمي بقضية وطنه والدفاع عن حريته واستقلاله أو الاستشهاد دون ذلك. وكان استشهاده عنواناً بارزاً على قدرة الانسان العربي في مواجهة التحديات التي تستهدف مصيره رغم كل الصعاب. ويبقى المختار علامة مضيئة في تاريخنا العربي.

(x) ترتب على السياسة التعسفية التي اتبعتها ايطاليا في ليبيا من عمليات القمع والابادة والحصار والمعارك والهجرات، أن تناقص عدد سكان ليبيا الى النصف، فبعد ان كان عددهم مليون ونصف عام 1911، انخفض عام 1931 الى (700) الف نسمة. انظر:

التكريتي، المرجع السابق، ص 139.

(xx) **يوسف ابراهيم يزبك**: عمر المختار مقاتلاً شهيداً، (بيروت 1974)، ص 58.

(xxx) **هاشم الملاح**: جهاد عمر المختار بين مبوعة القيادة السنوسية وتضحيات الجماهير (مهرجان عمر المختار) جامعة قار يونس/بنغازي 1979.

معركة أنوال علامة مضيئة في تاريخ النضال العربي المعاصر

الدكتور هاشم صالح التكريتي

كلية الآداب - جامعة بغداد

أخذ تدخل الدول الاستعمارية في المغرب يشتد منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدأ يتحول الى تدخل مباشر، ومع بداية القرن العشرين اشتد الصراع بين الدول الاستعمارية من أجل النفوذ والهيمنة في المغرب بحيث أدى الى حدوث أكثر من أزمة دولية، كما حصل مثلاً في أزمة مراكش الأولى 1905-1906 وأزمة مراكش الثانية (أزمة أغادير) 1911، وانتهى الأمر عشية الحرب العالمية الأولى بعقد معاهدتين إحداهما بين فرنسا وإسبانيا والأخرى بين فرنسا والمغرب في 1912 وكان من نتيجتها أن قسم المغرب إلى ثلاث مناطق: الأولى هي المنطقة الفرنسية وتشمل القسم الأوسط من القطر وتؤلف 80% من مساحته يقطنها 90% من سكانه، والثانية هي المنطقة الإسبانية وتشمل جزءاً صغيراً من شمال المغرب يعرف جغرافياً باسم الريف وهو الإقليم الذي يمتد من مدينة مليلة شرقاً حتى شيفشاون غرباً ومن البحر المتوسط شمالاً حتى مشارف تازه جنوباً، إضافة الى منطقة أخرى تقع في أقصى جنوب المغرب أطلق عليها اسم (مراكش الجنوبية الإسبانية) وقد ألحقت هذه المنطقة فيما بعد بالمستعمرة الإسبانية التي كانت تعرف باسم (الصحراء الغربية الإسبانية). أما المنطقة الثالثة وتشمل مدينة طنجة فقد عدّت منطقة دولية.

لكن ذلك لم ينه القضية بل ظلت الدولتان الاستعماريتان فرنسا وإسبانيا تسعيان للاستيلاء على القطر بأجمعه إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى أعاقها مؤقتاً عن تحقيق هذا الهدف، لذلك ما أن انتهت تلك الحرب إلا وتجددت مساعي الدولتين في هذا المجال. وفيما يتعلق بإسبانيا فإنها اعتقدت أن الوقت قد حان لاستئناف ما كانت قد بدأته قبل الحرب من احتلال الأجزاء الداخلية من المنطقة التي أجازت لها الاتفاقيات الدولية السيطرة عليها، لأنها بهذا الاحتلال تستطيع أن تمارس سلطات كاملة في تلك المنطقة.

وقد وضع الجنرال بيرنجر المقيم الإسباني العام في المغرب لهذا المغرض خطة في نهاية 1918 تقضي بالمحافظة على السلام مع الريف في البداية والاكتفاء بإخضاع الجزء الغربي من المنطقة الإسبانية وهو الإقليم الذي تسكنه قبيلة جبالة، وبعد أن تتم السيطرة على هذا الإقليم تتوجه القوات الإسبانية شرقاً لإخضاع الريف[1]. وطبقاً لهذه الخطة دخلت القوات الإسبانية في بداية عام 1919 أراضي قبيلة جبالة، وأثار هذا العمل من جانب إسبانيا القلق لدى قبائل الريف، وتورت العلاقات بين الزعيم الريفي عبدالكريم الخطابي والسلطات الإسبانية الى درجة أدت بالخطابي إلى أن يعتقد بأن الوقت قد حان لإعلان القطيعة مع إسبانيا لقد كان من رأي الخطابي في البداية التقرب من الإسبان وإقامة علاقات جيدة معهم واستخدام هذه العلاقات لعرقلة النوايا الإسبانية بشأن الريف وقد تقدم بالفعل الى الحكومة الإسبانية «ليلعب معها الدور السياسي مخافة منه أن يتقدم إليها قبله أشخاص من ذوي الأفكار الضعيفة فتغلب عليهم المطامع الشخصية وحب الذات فيحققوا لها ما كانت تصبو إليه»[2]. وأقام مع

(1) N.S. Lubskaya, Ocherki Noveishei Istrori Marcco, M. 1973, p. 74.
جلال يحيى، عبدالكريم الخطابي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1968، ص 42.

(2) محمد محمد عمر القاضي، أسد الريف محمد عبدالكريم الخطابي مذكرات عن حرب الريف تطوان 1979، ص 55.

السلطات الإسبانية اتصالات كان من نتيجتها أن توثقت العلاقات بينه وبينها بحيث عيّن ولده الأكبر محمد مدرساً في إحدى مدارس مليلة أولاً ثم قاضياً للقضاة فيها، أما ابنه الثاني، أحمد فقد أرسله لدراسة الهندسة في مالقا ثم مدريد في حين عيّن أخاه من أبيه عبد السلام الخطابي كاتباً في دائرة حاكم جزيرة الحسيمة[3].

لقد تعرض عبد الكريم بسبب موقفه هذا الى نقد وتجريح أبناء قبيلته الذين كانوا يتهمونه بخدمة مصالح الإسبان حتى ان داره تعرضت للحرق ثلاث مرات. وسعت السلطات الإسبانية الى استغلال ذلك لشق صفوف الريفيين فأخذت تحرضه على الإيقاع بخصومه وتبدي استعدادها لإسناده، ولكنه كان يرفض ذلك على الدوام[4]. وظل الحال على هذا المنوال الى ان أدركت الحكومة الإسبانية أنه «لم يكن مخلصاً لها في أعماله»[5] فأخذت تتصل ببعض زعماء القبائل الأخرى في الريف وتبدي استعدادها لإسنادهم على أمل ان تجعل منهم زعماء منافسين لزعامته، ولكنها فشلت في ذلك أيضاً فلم يبق أمامها الا احتلال الريف عسكرياً فأخذت بالتوسع فيه الى أن بلغت في توسعها قبيلة تسمان وقبيلة بني توزين المجاورتين لقبيلته بني ورياغل، عند ذلك قرر أن الوقت قد حان لمقارعة إسبانيا علناً فاستدعى ولديه من مليلة ومدريد للالتحاق به ففعلا، ومنذ تلك اللحظة، هبّ عبد الكريم وولداه وأخوه عبد السلام ضد الإسبان جهاراً (وقرروا بأن يحاربوا الاستعمار كيفما كان على العموم واسبانيا على الخصوص الى آخر رمق)[6].

يقول محمد الابن الأكبر لعبد الكريم في مذكراته عن هذا الموضوع «لم يكن أبي منذ وقت طويل راضياً عن سياسة إسبانيا ولم يكن يريد أن يسمع عن التعاون (معها) تحت أية ظروف وقد استدعانا لكي يظهر إرادته التي لا تقهر»[7].

مضت إسبانيا في تنفيذ خطتها فاستمرت القوات الإسبانية في عملياتها الحربية في الجزء الغربي من المنطقة الإسبانية طبقاً للخطة المرسومة، لكنها بالرغم من ذلك، قامت في بداية 1920 بمحاولة للصلح مع عبد الكريم كسباً للوقت. فأرسلت الى ولديه رسائل دعت فيها الإبن الأكبر محمد لأن يعود الى منصبه في مليلة والآخر لأن يعود لمواصلة دراسته في مدريد، فرد كل منهما (معتذراً بتطورات الموقف السياسي)[8]. عند ذلك بدأ الإسبان يعملون بشكل مكشوف لإثارة النزاع مع سكان الريف لكي يتخذوه حجة للاستيلاء على إقليمهم، فاحتلوا الشاون في 15 تشرين الأول 1920[9]، ثم دبّروا العديد من الحرائق وأعمال النهب وكلفوا عملاءهم بنشر إشاعة مفادها أن عبد الكريم هو المسؤول عن هذه الحوادث فبعث عبد الكريم برسالة الى القائدين الإسبانيين الجنرال اوسبور والجنرال بيرنجر استنكر فيها هذه الأعمال وتحداهما قائلاً «أروني سبباً لهذه الملاحقات وهذه الجرائم والاستفزازات. . . لماذا تنسب إليّ أعمال وجرائم لم أرتكبها وليس من الممكن أن أحرض على ارتكابها»[10].

لم تعبأ السلطات الإسبانية بهذه الرسالة بل واصلت بث الإشاعات المعادية لعبد الكريم وأخذت تحرض سكان الريف على الإطاحة به مما جعل كأس صبره تنفذ (وعند ذلك جرد سيفه ولسانه. . . وصار يطوف في الاسواق يدعو الناس للجهاد ولمحاربة إسبانيا التي عزمت على احتلال ما تبقّى لها من قبائل الريف، فأسس مركزاً عاماً للمجاهدين في موضع يسمى (وذيع) مقابلاً للعدو الذي كان بتفرسيت. . »[11].

---

(3) ناقش قضية تعاون عبدالكريم مع الاسبان ورأى عبدالكريم نفسه في أن ذلك كانت تقتضيه المصلحة الوطنية آنذاك، السيد ج. أحمد عبدالسلام البوعياشي في الجزء الأول من كتابه: حرب الريف التحريرية، طنجة 1974، ص 80-82.

(4) انظر محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق ص 58-60.

(5) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 10.

(6) المصدر نفسه، ص 64.

(7) Queted in M.S. Lutakaya. op. cit. p. 74.

(8) أمين سعيد ثورات العرب في القرن العشرين، دار الهلال، د. ت، ص 178.

(9) محمد العلمي، زعيم الريف محمد عبدالكريم الخطابي، الدار البيضاء 1968، ص 20.

(10) Quoted in N.S. Lutskaya, op. cit. p. 75.

(11) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 64.

كان المركز الذي حشد فيه عبد الكريم قواته يتمتع بموقع استراتيجي مهمّ فهو يشرف على المركز الإسباني في تفرسيت الذي كان يحرس تفرعاً للسكك الحديدية هناك، لذلك فإنه كان يشكل تهديداً كبيراً للقوات الإسبانية، إضافة الى أن مجرد وجود الفصائل الريفية في هذا الموقع كان مدعاة لأن تثور القبائل العربية في المناطق التي يحتلها الإسبان[12].

لقد أدرك عبد الكريم وكذلك ولداه أهمية القضاء على الخصومات القبلية وتوحيد القبائل في جيش منظم يضمها جميعاً للفوز في الحرب ضد المحتلين الأجانب، ولهذا، ففي الوقت الذي كان عبد الكريم على رأس قواته في تفرسيت ظل ولداه في أجدير يعملان على حث القبائل الأخرى في الريف على الانضمام الى النضال ضد المحتلين الإسبان[13].

ظل عبد الكريم في موضعه مقابل مركز تفرسيت الإسباني حوالى شهرين[14] ثم اعتراه مرض مفاجيء فحُمل الى داره في أجدير وتوفي فيها بعد ثلاثة أيام من وصوله[15] وكانت وفاة عبد الكريم الخطابي على الرغم من كبر سنة مفاجئة وهناك من يعتقد بأن الإسبان دسّوا له السمّ بوساطة أحد عملائهم[16]. ويذكر أمين سعيد بأنه (دعا نجليه وهو يجود بالنفس الأخير وأوصاهما بأن يقاوما الزحف الإسباني جهدهما فإذا عجزا فليغادرا البلاد نهائياً فليس لحرٍّ أن يقيم في بلد محتل)[17].

انتقلت زعامة الريف بعد وفاة عبد الكريم الى ابنه الأكبر محمد[18] وكان هذا يدرك تمام الإدراك أهمية الوحدة في النضال ضد المستعمرين لذلك «كان شغله الشاغل هو المصالحة والتوفيق بين الناس المتعادية ليتّحدوا ويتصالحوا وينسوا الأحقاد والعداوة التي عمّت وترعرعت بين الأفراد والجماعات . . »[19]. وقد أثمرت جهود الزعيم الجديد في توحيد القبائل فتمكن من عقد مؤتمر عام في أمزورن في 21 شباط 1921. حضره أعيان القبائل وتوصل المجتمعون فيه الى قرارين، أقسموا على الالتزام بهما في كل الأحوال، الأول هو التعهد أمام الله بالدفاع عن وطنهم وشرفهم ووحدة ترابهم، والثاني الالتزام بتنفيذ الأحكام الشرعية على كل من تصدر منه جريمة ما ولو كان من أبنائهم وأقاربهم[20]. واتفق المؤتمرون أيضاً على إنشاء مركز عام للمجاهدين في موضع يسمى القامة[21] في منطقة قبيلة تمسمان وقد تمكّن محمد بن عبد الكريم بعد عمل دؤوب وجهد مضنٍ من إقناع غالبية زعماء قبيلة تمسمان بالموافقة على إقامة المركز في أراضيهم بعد أن رفضوا ذلك في بداية الأمر[22].

وحاولت السلطات الإسبانية بدورها تجميع صفوف أنصارها فدعت عدداً من الأعيان لمقابلة المقيم العام في جزيرة النكور «والتذاكر معه في أمور مختلفة كانت من بينها قضية احتلال شاطىء النكور من طرف الجيش الإسباني انطلاقاً من

---

(12) N.S. Lutskaya, op. cit. p. 75.

(13) يذكر أمين سعيد أن أحد عملاء الاسبان زار عبدالكريم في معسكره وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال بعد أن أكد له أن الريفيين لن يستطيعوا الوقوف في وجه اسبانيا، لكن عبدالكريم اعتذر عن قبول المال وأكد أنه عاقد العزم على المقاومة حتى النهاية وفاء بواجبه الوطني والديني ـ المصدر السابق، ص 178.

(14) يقول علال الفاسي إن مدة حصار عبدالكريم لتفرسيت كانت نيفاً وعشرين يوماً ـ «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الرباط د. ت. ص 110» في حين يذكر عبدالعزيز بن عبدالله بأن الحصار دام قرابة شهر. . «تاريخ المغرب، العصر الحديث والفترة المعاصرة، الجزء الثاني، الدار البيضاء ـ الرباط د. ت، ص 104».

(15) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 64.

(16) انظر ج: أحمد عبدالسلام البوعياشي/المصدر السابق ص 426,21. يذكر العلمي خطأ أن عبدالكريم الخطابي لقي حتفه في هجوم شنه على رأس جماعة من أهل الريف على معسكر تفرسيت الاسباني ـ المصدر السابق، ص 20.

(17) المصدر السابق، 179.

(18) عرف عند كل من كتب عنه باسم أبيه عبدالكريم ولن نشذ نحن عن ذلك لأن هذا هو الاسم الذي عرف به في جميع انحاء العالم.

(19) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 92.

(20) المصدر نفسه، ص 94-95.

(21) نقل المركز فيما بعد إلى امبزاورو.

(22) انظر محمد محمد عمر القاضي، ص 96-97.

أنـوال وسيدي إدريس»[23]، لكن هـذا اللقاء لم يحقق الهـدف المرجو منه بسبب صلافة وغطرسة الجنرال سيلفيستري الذي نـاب عن المقيم العام في استقبـال اولئك الأعيـان نظراً لعـدم تمكن المقيم الإسبـاني من النزول الى الجـزيـرة بسبب هيجـان البحر.

على كل حال كانت الاستعدادات الإسبانيـة لغزو الـريف قـد انتهت عندمـا تولّى محمـد بن عبد الكـريم زعامـة الريف خلفـاً لأبيه الـراحل، وبـدأت مرحلة التنفيـذ مع بـداية عـام 1921، ففي خطاب العرش الذي ألقاه الفـونس الثالث عشر في 4 كانون الثاني 1921، قال ملك إسبانيا مؤكداً قدرة إسبانيا عـلى إخضاع المغـاربة «لن تلبث بـلادنا أن تكف عن تقـديم الضحـايا بـالـدم والأمـوال من أجـل تحقيق هـدفنـا القـومي المقدس» وبمجرد أن انتهى الملك من خـطابه أعلنت الحكـومة الإسبـانية عن قـرض كبير لتمـويل العمليـات العسكـريـة في المغـرب[24]، ومن ثم بدأت القـوات الإسبانيـة هجومهـا على الريف.

كانت القوات التي وضعت تحت إمرة الجنرال سيلفيستري الذي عين قائداً لجبهة الريف تتـألف من 24000 جندي منهم 4000 من المجندين المغاربة وكان لدى الجنرال بـالإضافـة الى ذلـك ما يقـرب من 21000 من الجنـود المجهـزين بـالأسلحـة والمدفعية والمدافع الرشاشـة[25]، وبدأت هـذه القوات زحفهـا في عمق إقليم الـريف في بدايـة 1921 وأخذت تحتـل القـرى الواحدة بعد الأخرى دون أن تصادف في طريقها مقاومة تذكر فوصلت في شباط من تلك السنة الى سيدي إدريس.

يبدو أن عبد الكريم كان يعتقـد أنه لا يمتلك بعـد القوات الكافية لمقـارعة الإسبـان ولذلـك حاول في البـداية أن يعقـد معهم اتفاقاً لا يمسّ جوهر الحقوق التي يتمسك بها الريفيـون وهي الاستقـلال التام وعـدم الاعتراف بـالحـماية الإسبـانيـة فأرسل الى الجنرال سيلفيستري يعلمه بأن الريفيين مستعـدون أن يـولوا مصـالـح إسبـانيـا الاقتصـادية اهتـمامهم فيمنحـوا الشركات الإسبانية حق الأولوية في استثمار ثروات الريف وأن يستخدم الريف فنيين من إسبانيا كلما احتاج الى ذلك، ولكنه أفهمه أنه إذا ما رفضت إسبانيا هذه العروض فانها تعدّ لاغية في المستقبل حتى ولو عـرضها الإسبـان أنفسهم[26]. ويبدو أن مـوقف عبـد الكـريم هـذا ونعني استعـداده لـلاتفـاق مـع الإسبان، أثار استياءً ظاهـراً لدى بعض القبـائل، وقـد شكا عبد الكريم نفسه من ذلك في مـذكراتـه قائـلاً: إنهم «كانـوا يتهموننا بأننا لا نبدي المقاومة»[27].

عـلى أية حـال لم يعر الجنـرال سيلفيستري أيّ اهتـمام لهذه المقترحات حتى إنه منع مـراسل جـريدة «الصـول» الإسبانيـة الذي نقل إليه تلك المقترحات من إتمام حديثه[28].

بعد أن احتلت القوات الإسبانية مواقعها عـلى خط سيدي إدريس ـ أنـوال ـ تفرسيت كـانت خـطة القيـادة الإسبـانيـة، تقضي بالهجوم والتقدم نحو رأس (فيـلاطس) تمهيداً لاجتيـاز أراضي قبيلة تمسـمان، ثم القيام بـانزال بحـري لـطرد قـوات الريف من الحسيمة وأراضي قبيلة تمسـمان على السـواء، وكان الملك الإسبـاني قد وافق عـلى هذه الخـطة في نيسان 1921 في أثناء الزيارة التي قام بها الجنرال سيلفيستري الى مدريد[29].

وكـانت القيادة العـامة للحـركة الـوطنية تـرقب عن كثب وبانتباه تحركات الإسبان فأنشأت مركزين عسكريين بالإضافة الى المـركز الـرئيسي في (القامـة) أولهما بـأزلاو في السهول بـين جبال جيزناية وبني توزين والثاني في رأس سيـدي شعيب على شاطىء البحر وأقامت اتصالاً محكماً بين المركزين[30].

بدأت القوات الاسبـانية عمليـاتها بـالهجوم في 1 حـزيران

(23) محمد ابن عزوز حكيم، معركة انوال 21 يوليو 1921 بمناسبة ذكراها الستينية، الرباط 1981، ص 27.

(24) N.S. Lutskaya, op. cit. p. 67.

(25) جلال يحيى، المصدر السابق، ص 43.

(26) أمين سعيد. المصدر السابق، ص 179-180.

(27) Quoted in N.S. Lutskaya, op. cit. p. 76.

(28) امين سعيد، المصدر السابق، ص 180.

(29) N.S. Lutskaya, op. cit. pp. 76-77.

(30) أمين سعيد، المصدر السابق، ص 180.

1921 على جبل أبران فاحتلته دون أن تصادف أية مقاومة، حيث لم تحرك قوات الريف ساكناً حتى إن الجنرال سيلفيستري الذي ظل في أنوال كان (يستهزىء بالاحتياطات التي كان يقوم بها ضباط أركان حربه الذين كانوا ينصحونه بعدم احتلال أبران فكان يجيبهم: إنني كنت على حق عندما خططت للاستيلاء على هذا المركز وقد كنتم جميعاً تعارضونني فها هو ابران قد تم احتلاله ولم يسمع أحد منكم ولو طلقة نارية واحدة وها هو الجيش الإسباني العتيد يتمركز بذلك المكان ويقوم بتحصينه)[31].

لقد كانت خطة الريفيين تقضي بتمكين العدو من التمركز أولاً لكي يطمئن فيترك في المركز حامية صغيرة من جنوده ثم ينسحب بالقسم الأساسي من قواته، وهذا ما حدث بالفعل فقد ترك الإسبان في المركز بعد أن احتلوه واطمأنوا إلى سلامة وضعهم فيه خمسمائة مقاتل وعاد بقية المقاتلين وعددهم خمسة آلاف إلى أنوال[32] وهنا بدأ هجوم قوات الريف بالتركيز أولاً على القوات المنسحبة وهي في طريقها إلى المركز الرئيسي في أنوال فدارت معركة عنيفة لم تسفر على ما يبدو عن نتيجة حاسمة على الرغم من تكبد الإسبان فيها خسائر كبيرة في الأرواح، وبعد ذلك توجه الريفيون نحو مركز ابران (فاقتحموه وقتلوا جميع من كان فيه من ضباط وجنود إلاّ عدداً قليلاً استطاع الهروب فالتحق إما بأنوال وإما بسيدي إدريس)[33]. وحقق الريفيون انتصاراً آخر في سيدي إبراهيم[34] كبدوا فيه الإسبان على ما يذكر الفقيه القاضي نحو مائتي رجل بين قتيل وجريح ولم يفقد المناضلون إلاّ ثمانية شهداء[35].

وكانت غنائم قوات الريف في معركة ابران حسب ما ذكره سيلفيستري نفسه في التقرير الذي كتبه في 8 حزيران 1921 أربعة مدافع وثلاثمائة بندقية وأربعة صناديق فيها ستون ألف خرطوشة وثلاثمائة وستون قنبلة مدفع إضافة إلى عدد من الخيم والأدوية والمأكولات، واثنا عشر ألف ريال إسباني[36]، أما خسائر الإسبان في الرجال فقد بلغت أربعمائة جندي وستة من الضباط[37] ولكن الفقيه القاضي وقد شهد المعركة، يذكر أن غنائم القوات الريفية كانت (أربع مدافع خفيفة من عيار 5 وجميع ما كان بيده (يد العدو) من البندقيات والرشاشات والقرطاس وغيرها) ويقول إن أربعة من المجاهدين استشهدوا في هذه المعركة[38] وأما عبدالكريم نفسه فيقول إن الإسبان خسروا في هذه المعركة الأولى من نوعها أربعمائة رجل من بينهم قبطانان، وأما الغنائم فكانت جداً مهمة، بطارية من عيار 65 سنتيمتراً وبنادق جديدة ونحو ستين ألف من القرطاس وقنابل وخيم وأدوية ومأكولات، والأكثر من هذا كله وهو الأهم كان الأثر المعنوي الذي أحدثه ذلك الانتصار الذي لم يكلفنا إلاّ ثمانية شهداء أو عشرة[39].

لقد كان الأثر المعنوي لهذا النصر كبيراً بالفعل، فبالإضافة إلى أن الكثير من المغاربة العاملين في الجيش الإسباني تحولوا أثناء المعركة إلى القتال إلى جانب أشقائهم الريفيين[40]، فإن النصر الذي حققه هؤلاء فيها دفع المئات من المقاتلين الجدد للانضمام إلى قوات عبدالكريم، فقد (جاءت القبائل الريفية المترددة عند محمد (بن عبدالكريم) تطلب المحاربة بجانبه)[41] (فقام بذلك أساس التحالف القبلي الذي انعقد فيما بعد

(31) نقلاً عن محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، 44.

(32) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 111.

(33) انظر محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق ص 47-48.

(34) للاطلاع على وصف مفصل لمعركة سيدي ابراهيم، ينظر: محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 115-116.

(35) يذكر أمين سعيد أن خسائر الاسبان في هذه المعركة بلغت 318 قتيلاً في حين بلغ عدد الشهداء من المجاهدين ثمانية عشر شهيداً ـ المصدر السابق، ص 181.

(36) نقلاً عن: محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 49.

(37) علال الفاسي، المصدر السابق، ص 110.

(38) المصدر السابق، ص 114.

(39) نقلاً عن محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 55.

(40) N.S. Lutskaya, op. cit. p. 77.

(41) محمد العلمي، المصدر السابق، ص 21.

لمحاربة الإسبان[42]. ولقد هز هذا الانتصار الباهر، تحرزه فئة قليلة من المجاهدين (الريف كله هزة فرح وسرور، ورفع القوة الأدبية والمعنوية في صدور أبنائه وأثبت لهم أن الإيمان أقوى من المادة وأمضى، فأقبلوا على الثورة يؤيدونها ويشدون أزرها ويتطوعون في صفوفها، وفي المقدمة أبناء قبيلة تمسمان رغم معارضة بعض شيوخهم الذين كانوا على صلة بالاسبان)[43]. وقد لمس الإسبان بأنفسهم ذلك وكانوا يخشون من عواقبه، فهذا أحد ضباطهم هو الكولونيل موراليس يكتب إلى المقيم الإسباني العام في 3 تموز 1921 أي بعد شهر عن معركة ابران قائلاً: (إن قضية ابران المشؤومة تشغل بالنا منذ أكثر من شهر فهي لا زالت ماثلة أمامنا وسوف نحمد الله إن بقيت الأمور على الحالة التي هي عليه بدلاً من أن يقع ما هو أخطر، ذلك لأن فقدان المركز المذكور واستيلاء عبدالكريم على المدافع أحدث هيجاناً كبيراً في جميع القبائل حتى التي عهدنا فيها دائماً الهدوء والطاعة التامّين، لأن الشيء الذي وقع لم يسبق له مثيل في الريف)[44]. ولهذا حاولت القيادة الإسبانية أن تقلل من وقع الهزيمة التي لحقت بقواتها في ابران فأعلنت بأن ذلك لم يكن إلاّ (حادثاً عرضياً)[45].

خففت معركة ابران من غلواء سيلفيستري وغروره وجعلته يتخلّى عن استهانته بقوة مناضلي الريف وبأسهم فأخذ يتشدد في اتخاذ الاحتياطات لدرء حدوث كارثة جديدة كالتي أصابت قواته في ابران فعمل على تعزيز المراكز الإسبانية الأمامية بوحدات عسكرية إضافية وقرر، تأميناً لسلامة تموين هذه المراكز ومن اجل القضاء على ما أحدثه سقوط مركز ايران من أثر في نفوس القوات الإسبانية والقبائل المغربية على السواء، العمل على احتلال مراكز جديدة ووقع اختياره على مركز اغريبا الواقع على بعد ستة كيلومترات من المركز الرئيسي في أنوال، وتم احتلال هذا المركز بالفعل في صباح اليوم السابع من حزيران 1921[46]، وبدأ الجنود الإسبان بتحصينه دون أن يجابهوا مقاومة ودون أن يتعرضوا لأي هجوم من جانب القوات الريفية[47].

بعد احتلال الإسبان لمركز اغريبا عقد الريفيون مؤتمراً عاماً برئاسة عبد الكريم في جبل امزاورو في 9 حزيران لدراسة الحالة ووضع خطة محكمة لمقاومة التدخل الإسباني المسلح، ثم عقدوا مؤتمراً آخر حضره ممثلون من عدة قبائل وقرروا فيه استرجاع مركز اغريبا، ثم عقدوا اجتماعاً ثالثاً في 15 حزيران تم فيه تخطيط العمليات الحربية وتعيين رؤساء الكتائب وعيّن اليوم الذي يجب أن يبتدىء فيه حصار اغريبا ثم جرى توزيع المعسكرات الثانوية ونقاط المراقبة لتنفيذ العملية[48].

لقد كانت خطة رجال الريف كما يقول عبدالكريم في مذكراته تقضي (بتحصين جميع الأماكن بدلاً من القيام بهجومات غير منتظمة ضد المراكز الإسبانية)[49]. وقد أثار تنظيم قوات الريف وانضباطها وإحكام الخطة التي كانت تعمل بموجبها إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء. فهذا كاتب إسباني، وقد اشترك في المعارك يقول: إن تنظيم تلك القوات كان محكماً لدرجة أن (قوافل تموين المراكز الثانوية من مركز أنوال الرئيسي تحتاج إلى خوض معارك دامية للوصول إلى مكانها لدرجة أن كل قطرة ماء كانت تصل إلى مركزي اغريبا

---

(42) N.S. Lutskaya, op. cit. p. 77.

(43) امين سعيد، المصدر السابق، ص 181.

(44) نقلاً عن: محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 54.

(45) Quoted in N.S. Lutakaya, op. cit. p. 77.

(46) تخطىء المؤرخة السوفياتية لوتسكايا عندما تذكر بأن قوات الريف شنت هجوماً مفاجئاً على مركز اغريبا في 18 تموز 1921 ثم احتلته بعد انسحاب الاسبان منه وان الجنرال سيلفيستري أخذ بتجميع قواته في أنوال في محاولة لاسترجاع المركز المذكور (المصدر السابق ص 77) فالصحيح أن قوات الريف بدأت حصارها لمركز اغريبا في 17 تموز من العام المذكور بعد أن كان الاسبان قد احتلوه في السابع من حزيران وأن محاولات سيلفيستري كانت تهدف إلى فك الحصار عن قواته المتواجدة فيه وأن المركز لم يسقط بيد الريفيين إلاّ في 21 تموز من العام نفسه أي قبل انسحاب الاسبان من مركز أنوال الذي كان محاصراً هو الآخر بيوم واحد فقط.

(47) محمد ابن عزوز حكيم، المصدر السابق ص 59, 61, 62.

(48) المصدر نفسه، ص 63, 65, 68.

(49) نقلاً: عن المصدر نفسه، ص 64-65.

وبوجان مثلاً كنا نؤدي ثمنها بقطرة دم إسبانية)[50].

أما الملازم كاسادو وهو ضابط في القوات الإسبانية التي اشتركت في هذه المعركة فيقول: (إن اختيار المعسكر الرئيسي والمعسكرات الثانوية والعسس كان يخضع إلى مخطط محكم مدروس بصفة دقيقة، ذلك أنه إذا ما قام الثوار بهجوم على مراكزنا... استطاعوا إرغامنا على البقاء في حالة الدفاع من النفس دون أن يتمكن أي مركز فيها أن يعيّن المركز المهاجم من طرف العدو... أي أنه في الوقت الذي تكون فيه حاميات مراكزنا مرغمة على البقاء في حالة حصار داخل مركزها كانت (الحركة) تتمتع بكامل حرية الانتقال حيث شاءت)[51].

بعد ان استكملت قوات الريف استعداداتها شنت هجومها في الصباح الباكر من يوم 16 حزيران على مركز بوجان فدارت معركة عنيفة دامت طوال النهار تكبد فيها الإسبان على ما تذكر إحصائياتهم الرسمية ستة عشر قتيلاً وخمسة وأربعين جريحاً[52]، وإذا لم نغفل عنف المعركة واستمرارها يوماً بأكمله فإننا نقتنع بأن الخسائر التي يوردها عبد الكريم في مذكراته لهذه المعركة مقابل ستة عشر رجلاً من قواته[53]. ولم تتمكن قوات الريف في هذه المعركة من اقتحام بوجان ولكنها واصلت شن هجماتها عليه إلى أن سقط في 20 تموز 1921 على الرغم من أن القيادة الإسبانية ظلت خلال ذلك تعمل بكل ما أوتيت من عزم على منعها من تحقيق هدفها، فكان الطيران الإسباني يواصل قصف قرى الريف حتى إن عبدالكريم حاول الاتفاق مع القيادة الإسبانية على إيقاف القصف الذي كان يستهدف قرى لا يوجد فيها إلا النساء والأطفال، ولكن الإسبان اشترطوا لذلك أن تترك قوات عبدالكريم أراضي قبيلة تمسمان. ولم يكن عبدالكريم بالطبع على استعداد للقبول بمثل هذه الشروط لذلك واصل أعمال الاستعداد الضرورية لمحاصرة مركز اغريبا[54].

بدأ رجال الريف حصارهم لمركز اغريبا الذي سبق للقيادة الإسبانية أن أقامت فيه تحصينات منيعة ووضعت فيه حامية تقتصر على الجنود الإسبان وولّت قيادتها واحداً من خيرة ضباطها[55]، في 17 تموز 1921 فقطعوا كل اتصال له بالمراكز الإسبانية الأخرى فقد فرضوا سيطرتهم على جميع المراكز القريبة ووجهوا مياه الجبال نحو المنطقة التي تحيط بالقيادة العامة الإسبانية في أنوال، الأمر الذي أقام عقبات إضافية أمام النجدات الإسبانية[56]. وبذلك تعذر إرسال قوافل التموين إلى مركز اغريبا، فكل قافلة تموين أو نجدة عسكرية كانت ترسل إليه كانت تصطدم بقوات الريف فتضطر للرجوع بعد أن تتكبد الكثير من الخسائر في الأرواح والمعدات[57]. ومن الناحية الأخرى توقع عبدالكريم أن يقوم العدو بإرسال النجدات إلى مركز اغريبا من مركزي أنوال وازومار المجاورين فضرب حصاراً على هذين المركزين أيضاً، لذلك باءت بالفشل جميع المحاولات التي قامت بها قوات المركزين لإنجاد الحامية المحاصرة في اغريبا، ففي كل مرة كانت القوات الإسبانية التي ترسل لهذا الغرض تضطر للعودة بعد أن تتكبد خسائر فادحة، والقافلة الوحيدة التي نجحت في الوصول إلى اغريبا، وكانت مؤلفة من مائة وسبعة وثمانين رجلاً، حققت ذلك بعد أن فقدت في هذه العملية مائة وسبعة وخمسين من القتلى، حيث لم يصل منها إلى المركز المذكور إلاّ ثلاثون جندياً فقط[58].

وهكذا تواصلت المعارك حول مركز اغريبا وكانت أحوال الحامية الإسبانية فيه تزداد سوءاً وانخفضت الروح المعنوية لدى رجالها لدرجة (أخذ بعض الضباط في الانتحار، حتى لا يعيشوا ويروا الهزيمة)[59]. وفي ليلة 18 تموز أبرق قائد الحامية إلى القائد العام يقول: (حالتنا تزداد تفاقماً من جراء العياء والعطش والجوع زيادة على رائحة تعفن الموتى)[60] عند ذلك قرر الجنرال سيلفيستري الذي كان موجوداً في مليلة المجيء

(50) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص 64.
(51) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص 68-69.
(52) المصدر نفسه، ص 69.
(53) المصدر نفسه، ص 71.
(54) انظر ـ محمد ابن عزوز الحكيم ـ المصدر السابق ص 76-80.
(55) امين سعيد ـ المصدر السابق، ص 181.
(56) محمد العلمي ـ المصدر السابق، ص 21.
(57) انظر: محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 116-119.
(58) محمد ابن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 83.
(59) جلال يحيى، المصدر السابق، ص 45.
(60) نقلاً عن: محمد ابن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 86.

بنفسه إلى أنوال، وعندما اطلع وهو في الطريق على الحالة الحرجة التي تعانيها المراكز الإسبانية سارع بطلب نجدات إضافية من المقيم العام، وحاول بعد أن وصلت إليه قوات من إسبانيا وتطوان ومن القبائل الموالية القيام بهجوم كبير في 21 تموز 1921 اشترك فيه 40,000 جندي و 20,000 من رجال القبائل (فدارت معركة شديدة لم يسبق لها مثيل في جميع المعارك التي خاضتها إسبانيا منذ دخولها للتراب المغربي) واستمرت المعركة نحو ثلاث ساعات ولم يستطع المهاجمون اختراق الحصار رغم أنهم استعملوا (جميع الأسلحة الخفيفة والثقيلة وبعض الطائرات التي ظهرت لأول مرة في الميدان الحربي بالريف غير أنها لم تسقط أية قنبلة منها[61]) فاضطروا إلى العودة بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة. عند ذلك أيقن سيلفيستري باستحالة إنجاد الحامية المحاصرة في اغريبا فأصدر إلى قائدها أمراً بمغادرة المركز، غير أن القوات الريفية التي تحاصر المركز قطعت الطريق على الحامية المنسحبة ومنعتها من مغادرته. ويصف لنا الفقيه القاضي هذه العملية على النحو التالي: (فلمّا رأى الجيش الذي كان محصوراً بالقشلة (يقصد مركز اغريبا) الانهزام الذي وقع للجيش المهاجم ويئس من رجاله لورود التموين الذي كان ينتظره ونفذ صبره خرج من القشلة التي كان بها وتقدم ليخترق صفوف المجاهدين للموت أو الإفلات إلى أنوال، فلمّا وصل إلى صف المجاهدين قتلوه عن آخره ولم يفلت منه أحد)[62].

واقتحمت القوات الريفية مركز اغريبا واستولت عليه في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم 21 تموز 1921. وتذكر الوثائق الإسبانية أن عدد الذين غادروه تنفيذاً لأمر الانسحاب الذي أصدره سيلفيستري هو ثلاثمائة رجل لم يصل منهم إلى أنوال إلاّ أحد عشر رجلاً، أما البقية فمنهم من قتل ومنهم من وقع أسيراً بيد القوات الريفية[63].

يذكر (سجل العمليات اليومية) للإقامة الإسبانية العامة في المغرب بأن عدد قتلى الإسبانية في المعارك التي جرت حول مركز اغريبا هو ثلاث مائة واثنان وتسعون رجلاً منهم كومندار واحد وقبطانان وستة ملازمين أولين وملازمان ثانيان وثلاثمائة وواحد وثمانين جندياً. غير أن الكاتب المغربي محمد بن عزوز حكيم أجرى إحصائية للخسائر الإسبانية في تلك المعارك استناداً إلى الوثائق الإسبانية نفسها فوجد أنها ستمائة وأربعون رجلاً، منهم: مائة وسبعة وخمسون جندياً قتلوا في يوم 17 تموز وقبطانان وأربعة ملازمين ومائة وثمانية وثمانون جندياً قتلوا في يوم 19 تموز وكومندار واحد وملازمان أولان وملازمان ثانيان ومائتان وخمسة عشر من الجنود قتلوا في يوم 20 تموز، وتسعة وستون أسيراً[64]. أما عن خسائر القوات المغربية فقد بلغت على ما يذكر الفقيه القاضي سبعة شهداء في يوم 18 تموز وعدداً آخر يوم 19 تموز وشهيداً واحداً في يوم 20 تموز ونحو خمسين شهيداً في يوم 21 تموز[65].

عندما حررت القوات المغربية مركز اغريبا كان الجنرال سيلفيستري ومعه أكثر من خمسة آلاف رجل وعشرون مدفعاً واثنا عشرة رشاشة محاصرين في أنوال، وكان في المراكز المجاورة ما يفوق ألف رجل واثنى عشر مدفعاً وست رشاشات إضافة إلى العدد الحربية الكافية[66] وكان سيلفيستري يدرك خطورة وضعه تمام الإدراك، فقد أرسل إلى المقيم العام في يوم 21 تموز برقية يخبره فيها بالأمر الذي أصدره حول إخلاء اغريبا ثم يقول: (والآن إني موجود بأنوال والثوار يحاصرونني من كل الجهات، فالحالة خطيرة، بل جدّ خطيرة، وسوف أحاول الخروج من هذا المأزق وإني غير واثق من التمكن من ذلك، لأن العدو استطاع قطع جميع

(61) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 12-121، كانت الطائرات الاسبانية قبل ذلك تقصف القرى الآمنة بعيداً عن ميدان العمليات الحربية.

(62) المصدر نفسه، ص 121-122.

(63) محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 97، يذكر أمين سعيد أن الناجين من الاسبان كانوا ضابطين وبعض الجنود فقط استسلموا في النهاية. المصدر السابق، ص 182.

(64) المصدر السابق، ص 98.

(65) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 119, 122.

(66) محمد بن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 102.

المواصلات والمراكز المجاورة تلحّ عليّ بأن أقوم بمساعدتها مع أنني أحوج منها إلى المساعدة»[67].

ويبدو أن الإسبان المحاصرين بعد أن فشلوا في اختراق الحصار عمدوا إلى تدبير خدعة لإرهاب القوات الريفية التي تحاصرهم فقد طلبوا إرسال مفاوضين، وعندما ذهب إليهم ستون ريفياً بدون سلاح للتفاوض أغلقوا الأبواب وأطلقوا عليهم الرصاص[68] غير أن هذه المكيدة زادت من تصميم قوات الريف وعزمها على الاقتصاص من الإسبان فشددت من حصارها لمركز انوال ورغبتها في اقتحامه.

ويبدو أن الجنرال سيلفيستري فقد السيطرة على نفسه وبالتالي القدرة على اتخاذ القرارات الصائبة أمام حراجة الموقف وفقدان جنوده لروحهم المعنوية وانتشار الذعر بينهم، فنجده مرة يقرر الانسحاب وإخلاء المركز ويخبر المقيم العام بذلك ومرة يعود عن قراره هذا ويقرر الصمود[69]، وقد علّق أحد الكتاب الإسبان على حالة سيلفيستري هذه بقوله: (الحقيقة المُرّة هي أن سيلفيستري كان قد فقد شعوره فلم يعد له إلمام بالواقع ولم يكن في مستوى الأحداث بسبب انهيار أعصابه)[70].

وأخيراً وبعد أن رأى سيلفيستري أن الحالة تزداد حرجاً وعلى الأخص بعد أن رأى المغاربة الذين يعملون في قواته يتركونه وينضمون مع أسلحتهم، إلى أشقائهم المناضلين (قرر الانسحاب من جميع المراكز الموجودة خارج مليلة إلى داخلها وأبرق لجميع المراكز يأمرها بالانسحاب..)[71].

وكان القرار الذي لم يكن يعلم به إلاّ عدد قليل من الضباط هو أن يجري الانسحاب على دفعات، تتألف الأولى من قافلة الجرحى وتحمل الثانية المعدات الحربية في حين تحمل الثالثة المدافع والرشاشات[72].

نفّذت عملية الانسحاب في صباح يوم 22 تموز 1921 فخرج سيلفيستري من أنوال (بالجيش الذي كان معه تاركاً جميع معداته الحربية الثقيلة متجهاً إلى مليلة بوضعية تشبه الفرار)[73] بحيث (لم يحتج مواطنونا الريفيون أثناء متابعتهم لاستعمال السلاح)[74] ولكن قوات الريف قطعت الطريق على القوات الإسبانية المنسحبة واحتلت بعد أن انضم إليها المجندون المغاربة الذين كانوا قبل ذلك يحاربون في صفوف الجيش الاسباني، جميع الطرق واشتبكت مع الإسبان في جميع المراكز التي كانوا يوجدون فيها خارج مليلة والتي أمرهم سيلفيستري بالانسحاب منها (فأصبحت [مناطق] القبائل التي كانت خارج مليلة كلها ميداناً للمعارك. فدامت المعركة يومين، وفي آخر الأمر قضى المجاهدون على جميع الجيوش التي كانت بأنوال فمات من مات وأسر من أسر، كما أن القبائل قضت هي أيضاً على الجيش الذي كان بداخلها..)[75] ولقد (سقط بانهزام أنوال أكثر من مائة مركز حربي في يد عبدالكريم)[76].

ويصعب في الواقع تتبع ما حدث بدقة بعد أن بدأت القوات الإسبانية المحاصرة بأنوال تنفذ أمر الانسحاب، ولكن الثابت أن الانسحاب تم في جو من ذعر وفوضى (لا يمكن أن تقارن إلاّ بالفوضى التي تقع على ظهر باخرة غارقة عندما ينادي المنادي (كل من يمكنه أن ينجو بنفسه فليفعل) على حد تعبير أحد الكتّاب الإسبان[77] ونثبت هنا ما كتبه عن عملية الانسحاب الكولونيل الإسباني Perez Ortiz وكان أحد ضباط مركز أنوال ومن جملة الضباط القلائل الذين أطلعهم سيلفيستري على قرار الانسحاب من المركز المذكور في 22 تموز 1921، لعل ذلك يساعد على تقديم صورة واضحة عما جرى للقوات الإسبانية في ذلك اليوم. يقول الضابط المذكور[78]:

(وما أن غادرت القافلة الأولى حتى تعرضت إلى هجوم العدو الذي يحيط بنا، الشيء الذي أحدث فزعاً كبيراً في

---

(67) نقلاً عن المصدر نفسه، ص 98.
(68) محمد العلمي، المصدر السابق، ص 22.
(69) انظر: محمد ابن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 103-107.
(70) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص 107.
(71) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 122.
(72) محمد ابن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 111-112.
(73) محمد محمد عمر القاضي: المصدر السابق، ص 122.
(74) علال الفاسي، المصدر السابق، ص 110-111.
(75) محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 123.
(76) علال الفاسي، المصدر السابق، ص 111.
(77) نقلاً عن: محمدبن عزوز حكيم، المصدر السابق، ص 112.
(78) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص 112-114.

صفوفها فأخذت تتقهقر إلى الوراء فوجدت أمامها القافلة الثانية، ونفس الشيء وقع للقافلة الثالثة التي كانت تحمل المدافع والرشاشات، فكان سبب الفوضى التي عمت صفوف الجيش. .

كنت واقفاً بالمكان المخصص لي وللقوات التابعة لقيادتي أنتظر دوري لمغادرة المركز المخصص لي فكنت أشاهد كيف أن القوات الأخرى بدأت تغادر أنوال فتلتحق بها حاميات المراكز المجاورة والجميع يتعرض لوابل من الرصاص الذي كان يطلقه الثوار وكان الجنرال سيلفيستري يقول لهم: «فرّوا فرّوا فإن (الكوكو)[79] سيقبض عليكم، ثم توجه إليّ وأذن لي بمغادرة المركز.

وغادرت أنوال على رأس القوات التابعة لي دون أن نتعرض إلى هجوم العدو إلّا بعد أن قطعنا شوطاً مهماً من طريقنا إلى مركز بن (كذا) الطيّب.

وبفضل الترتيبات التي اتخذتها سابقاً كانت نسبة الضحايا في صفوف قواتي قليلة بالنسبة لما وقع للقوافل التي غادرت أنوال قبل قافلتنا. . وما أن أخرجنا من المكان الذي تحيط به المراكز الثانوية حتى رأيت نفسي معزولاً عن القافلة التابعة لي بسبب انضمام قوات تلك المراكز التي كانت تريد أن يكون (كذا) لها الأسبقية في الطريق الضيق الذي يربط أنوال بابن الطيب. .

وعند وصولي إلى مركز إيزومار وجدت أن حاميته كانت قد غادرته من قبل مخالفة بذلك الأوامر التي كانت قد أعطيت لقائد المركز المذكور. . .

وحاولت أن أقف هناك هنيهة لأستريح في انتظار وصول قواتي لكنني لم أتمكن من ذلك بسبب الفوضى التي عمّت طوال الطريق، فكان المرء إذا أراد الوقوف قذف به في الخنادق المجاورة وذهب ضحية للفوضى لأن الجنود أصبحوا لا يحترمون أحداً ولو كان الأمر يتعلق بضباطهم. .

ومن جملة ما شاهدته أن الجنود الذين كانوا يقودون البهائم المحملة بالسلاح لم يكونوا يحترمون حتى قافلة الجرحى، فكانوا يدفعون بهم إلى الخنادق دون أن يلتفتوا وراءهم. .

وتابعت السير وأنا أشاهد على جانبي الطريق يميناً وشمالاً العشرات من صناديق القرطاس وعدداً كبيراً من العربات والمدافع والرشاشات والبنادق ومعدات أخرى، الشيء الذي كان يعرقل المرور، فخطرت ببالي إحدى اللوحات الزيتية التي تمثل هزيمة نابليون. .

وقبل وصولي إلى مركز بن (كذا) الطيب رأيت كيف أن القوات التي كانت أمامي لم تعد مكثفة ووافرة كما كانت من قبل، لدرجة أنه لم تبق هناك قوات أخرى غير التي كدت أقودها، بل لاحظت أن عدد قواتي نفسها قد تقلّصت (كذا) لدرجة أنها لم تعد تتكون إلّا من خمسين أو ستين رجلاً. .

عندئذ حاولت الوقوف بعض الوقت في انتظار أن يلتحق بي باقي الجنود ولكن بدون جدوى، فكنت مضطراً إلى متابعة مسيرتي إلى أن وصلت إلى مركز بن (كذا) الطيب. . .

وهناك سألت قائد المركز عن القوافل التي خرجت من أنوال قبل مغادرتي المركز المذكور فقال لي إنه لم يمر بابن (كذا) الطيب إلّا مئتان أو ثلاثمائة من الجنود، فتأكدت من أن الباقي قد قتل في الطريق.

ولم أبق بابن الطيب إلّا هنيهة تناولت فيها كوباً من الماء. . . ثم تابعت طريقي إلى أن وصلت دار الدربوش ولم أجد في الطريق أحداً من البشر كما أنني لم أعد أسمع ولو طلقة نارية واحدة، وسبب ذلك هو أن الثوار كانوا قد قضوا على جميع القوافل فانسحبوا عن (كذا) مراكزهم إلى جانب الطريق. .

وهكذا انتهت عملية الجلاء عن أنوال فهذه المأساة لا تختلف في شيء عما وقع بابران وباغربيا فلم تكن ابران واغربيا وانوال إلّا ثلاثة مناظر لمأساة واحدة هي انهيار قيادة مليلة سنة 1921، هذا الانهيار الذي كلّف إسبانيا أودية من الدم ومئات الملايين من البسيطات).

وهكذا استطاع رجال الريف في الفترة الواقعة ما بين 21 و26 تموز 1921 اقتحام جميع المواقع الإسبانية، الموجودة خارج مليلة وتعقب فلول الجيش الإسباني المندحر إلى مركز اعروى الذي يقع ما بين مليلة وأنوال على بعد 50 كم من مليلة والذي لجأ الجنرال نافارو الذي خلف سيلفيستري في منصب

(79) كلمة يستعملها الاسبان لتخويف الأطفال.

القائد العام للقوات الإسبانية هو ومن بقي معه من فلول الجيش الإسباني المنهار وعددهم 1800 جندي وحاصروه هناك إلى أن اضطر إلى الاستسلام دون قيد أو شرط بعد خمسة عشر يوماً من الحصار[80].

سيطر رجال الريف على المنطقة الواقعة خارج مليلة جميعها واقتربوا من أسوار هذه المدينة المغربية التي كانت إسبانيا قد استولت عليها في القرن الخامس عشر واعتبرتها تعسفاً، جزءاً من إسبانيا بل دخلوا ضواحيها واقتحموا (بعض الدور التي كانت في أطرافها)[81] ولكن عبدالكريم قرر عدم احتلال المدينة (آخذاً بالاعتبار الوضع القانوني التقليدي لمليلة وخشية من أن يؤدي خرقه إلى احتمال تدخل الدول)[82]. وقد ارتكب بذلك خطأً كبيراً لأن قواته التي كان النصر قد ألهبها وزاد من حماستها كان بمقدورها آنذاك أن تطرد الاسبان نهائياً من المغرب، وتقول لوتسكايا إن عبدالكريم نفسه اعترف بهذا الخطأ في حديث أجراه فيما بعد مع د. ماثيو مراسل جريدة «ماتين».

لقد قضت معركة أنوال على جيش الجنرال سيلفيستري وكانت ضربة موجعة قصمت ظهر الجيش الإسباني وكبدته خسائر فادحة جداً في الأرواح والمعدات بلغت البشرية منها على ما يذكره المؤرخ السوفياتي كارتسا أكثر من ثلاثين ألف شخص منهم عشرة آلاف ما بين قتيل وجريح وأكثر من عشرين ألف أسير[84] وطبقاً لاعتراف الاسبان بلغت الخسائر 14772 رجلاً و29504 من البنادق و392 مدفع رشاش و129 مدفع ميدان و570 أسيراً[85]. أما الفقيه القاضي وهو من رجال الخطابي القياديين فيذكر بأن خسائر الإسبان في معركة أنوال بلغت أكثر من 40 ألف جندي و1900 أسير في الرجال وما يزيد على مائة مدفع ثقيل ومائتي مدفع صغير ونحو ألف رشاشة وأكثر من ثلاثين ألف بندقية وملايين من الخرطوش والكور المعدّ للمدافع وغير ذلك من البهائم والملابس والمؤن الغذائية.

ومهما يكن من أمر فإن الثابت أن خسائر الإسبان في هذه المعركة كانت كبيرة بحيث حدت بعبدالكريم نفسه أن يعلق عليها بقوله: (لقد أعطانا الإسبان في ليلة واحدة كل ما كنا نحتاج إليه للقيام بحرب كبيرة)[87].

لقد كانت الهزيمة التي لحقت بالقوات الإسبانية ساحقة ماحقة لم يتحملها الجنرال سيلفيستري فاختفى عن الأنظار ولم يعثر له على أثر، فشاعت حول مصيره الكثير من التكهنات، فمن قائل إنه انتحر إلى قائل إنه مات متأثراً بجراحه أو مات

(80) انظر: محمد محمد عمر القاضي، المصدر السابق، ص 123.

(81) المصدر نفسه، ص 124.

(82) N.S. Lutskaya, op. cit. p. 76.

(83) Ibid, p. 78.

ناقش الكاتب المغربي محمد بن عزوز حكيم هذه القضية في الفصل التاسع من كتابه الأنف الذكر (ص 155-162) فخلص إلى أن الأمير الخطابي ارتكب خطأً فادحاً بعدم احتلاله مليلة.

(84) Kh. Gartsa, Ispania V 1918-1939 G.G. «Novishaya Istoria Stran Zapadnei Evrpei e Ameriki 1918-1939» Tom I Moskva 1959, p. 350.

(85) جلال يحيى، المصدر السابق، ص 47 ـ يقول أمين سعيد بأن عدد من استسلم من الضباط والجنود بلغ (بحسب الاحصاء الذي تولته قيادة الثورة 1265 اسيراً بينهم 65 ضابطاً في مقدمتهم الجنرال تكارو (يقصد نافارو الذي استسلم بعد أن حوصر في مركز جبل اعروى الذي انسحب إليه بعد معركة أنوال وظل يقاوم فيه مدة خمسة عشر يوماً كما رأينا) الذي حل محل الجنرال سيلفيستري بعد مصرعه و4 برتبة كولونيل، مع عدد من أصحاب رتب قومندان وكابتن وملازم» ـ أمين بن سعد، المصدر السابق، ص 182.

(86) محمد محمد عمر القاضي: المصدر السابق، ص 124 ـ يذكر عبدالعزيز بن عبدالله بأن المجاهدين استولوا بنتيجة معركة أنوال على عشرات المراكز الحربية و220 مدفعاً و20000 بندقية ومليون خرطوشة علاوة على السيارات ـ عبدالعزيز بنعبد الله، المصدر السابق، ص 104.

(87) Quoted in Lutskaya, op. cit. p. 78.

بأنوال مع جميع ضباط أركان حربه، إلى آخر ما هناك من التكهنات[88].

لقد كانت معركة أنوال واحدة من أمجد معارك النضال العربي المعاصر فقد أدت إلى تحطيم الجيش الإسباني في المغرب، وكانت لها انعكاساتها وتأثيراتها في الأوضاع السياسية في إسبانيا[89] وعمّقت من انقسام الرأي العام الإسباني فارتفعت أكثر من السابق في إسبانيا الأصوات التي تطالب بالجلاء عن المغرب واشتدت فيها الحركة المناهضة لحرب الريف والمطالبة بإنهائها. فالهزيمة التي لحقت بالجيش الإسباني في أنوال (هزت البلاد بأجمعها وأثارت أوسع الجماهير للنضال من أجل إيقاف الحرب الاستعمارية في المغرب ومعاقبة المسؤولين عن هذه الكارثة العسكرية)[90]. ففي أيلول 1921 مثلاً أعلن عمال بلباو إضراباً عاماً احتجاجاً على ارسال الجيش إلى المغرب فاضطرت الحكومة إلى العدول عن إرسال عدد من كتائب الجيش إلى إفريقيا عن طريق هذا الميناء[91] وقد انتقلت الحركة المعادية للحرب بعد ذلك إلى الجيش حتى أن بعض وحداته كانت ترفض الذهاب إلى إفريقيا[92] وبالمقابل ازداد تمسك الطغمة العسكرية وجنرالات الجيش الإسباني بضرورة مواصلة الحرب لإخضاع المغرب بحجة الانتقام للشرف العسكري الإسباني ومحو عار الهزيمة.

ومن الناحية الأخرى كان للنصر الذي تحقق في أنوال نتائج إيجابية بالنسبة إلى النضال العربي المعادي للاستعمار في المغرب نفسه وفي الأقطار العربية الأخرى في الشمال الافريقي، حيث استقبل العرب هناك الذين كانوا يتتبعون الصراع بوعي واضح وحماس عظيم انتصارات الريف بفرح وابتهاج كبيرين فانتعشت الحركة المعادية للاستعمار في المغرب الأقصى خاصة وفي أقطار المغرب العربي عامة.

على أن أهم النتائج التي ترتبت على النصر في أنوال هي تكاتف قبائل الريف واتحادها في حلف قتالي واحد ضم الكثير من أبناء المغرب الآخرين، ومن ثم ارتقاء حركة النضال المسلح بدخولها مرحلة تنظيم شامل انعكست بإنشاء حكومة الريف في آب 1921[93] التي كرست كل جهدها لتحقيق هدف أساسي واحد هو الانتصار التام في الصراع ضد الغزاة الأجانب وتحرير التراب المغربي من رجس الاحتلال الأجنبي.

كانت الحرب الريفية ـ الإسبانية (من أغرب حروب التاريخ) طبقاً لتعبير المؤرخ روم لاندو فهي (لم تكن حرباً يتساوى فيها المقاتلان ولم تكن حرباً بين بلدين، لقد كانت نضالاً بين دولة أوروبية قوية وبين زعيم قبلي ليس لديه من الموارد سوى ما تدره عليه المنطقة المحدودة التي كان يسيطر عليها، ففي الجهة الواحدة نجد جيوش إسبانيا تمتلك السلاح الحديث وفي الجهة الثانية نجد قبائل... تعتمد على السلاح الذي يقع بين أيديها مصادفة وقد يكون ثمة عدد من المدافع الحديثة، ولكن من المؤكد أن عدداً كبيراً من البنادق القديمة كتلك التي استعملها رجال الأمير عبدالقادر في الجزائر قبل ذلك بتسعين سنة كانت تستعمل ولم يكن الرجال مدربين في فنون الحرب الحديثة وكان يقودهم زعيم ذو بأس من أهل

---

(88) يؤكد محمد العلمي بأن سيلفيستري انتحر بعد أن أرسل أوسمته مع ياوره وجماعة من الجنود إلى مليلة (المصدر السابق، ص 22)، وتؤيد لوتسكايا فكرة بالانتحار (المصدر السابق، ص 78) وكذلك يفعل أمين سعيد (المصدر السابق، ص 182)، أما جلال يحيى فقد كان أكثر دقة عندما أكد بأن (أحداً لم يعرف مصيره (مصير سيلفيستري) على وجه التحديد) ـ (المصدر السابق، ص 146) ويصل إلى الاستنتاج نفسه الكاتب المغربي محمد بن عزوز حكيم بعد استقراء قام به للوثائق الاسبانية حول الموضوع وخلص منه إلى القول إنه (ليس بامكان أحد أن يكون على صواب فيما يتكهن به حول مصير الجنرال سيلفيستري لأن كل ما قيل آنذاك لا أساس له من الصحة) ـ (المصدر السابق، ص 116).

(89) عالج جان ماير بشكل سريع ومقتضب بعض جوانب هذا الموضوع في بحثه الموسوم بـ (الانعكاسات السياسية لحرب الريف في اسبانيا) المنشور في كتاب: «الخطابي وجمهورية الريف» نقل إلى العربية باشراف صالح بشير، دار ابن رشد، 1980، ص 240-244.

(90) Kh. Gartsa, op. cit. p. 350.

(91) Ibid, pp. 350-351.

(92) Ibid, p. 351.

(93) يرى البعض بأن إنشاء حكومة الريف يدل على نية عبدالكريم الخطابي على فصل الريف عن المغرب وإنشاء حكومة مستقلة فيه تحت رئاسته، ولكن شواهد كثيرة ربما عدنا إليها في بحث مستقل، تشير إلى أن انشاء حكومة الريف وتولي عبدالكريم الخطابي رئاستها كان أمراً اقتضته ضرورة النجاح في الحرب ضد المحتلين الأجانب وأن ذلك لم يكن في حسابات عبدالكريم إلاّ خطوة على طريق تحرير المغرب بأكمله من رجس الاحتلال الأجنبي.

الجبال لم يدخل يوماً من الأيام باب مدرسة حربية»[94].

فما الذي جعل قوات الريف، إذن، وهي بهذا التخلف الشديد عن مستوى الجيش الإسباني المجهز بأحدث الأسلحة والمتفوق عليها من حيث العدد والمدرب على أحدث فنون القتال، تحقق هذا الإنتصار الساحق؟ يحلل المؤرخ السوفياتي م. ف. فرونزه أسباب الانحدار الذي أصاب الجيش الإسباني في المغرب فيشير إلى أن الإسبان لم يعدوا حملتهم إعداداً جيداً ولم يؤمنوا لها التجهيزات اللازمة ولم تنظم ظهيرة الجيش التنظيم اللازم[95]. وتضيف المؤرخة السوفياتية لوتسكايا إلى ذلك أسباباً أخرى منها أن الجنود الإسبان لم تكن لديهم رغبة في القتال لمصلحة رجال المال الإسبان وأن المحسوبية والوساطة هي المتبعة في تعيين الضباط في المناصب القيادية في الجيش الإسباني وأن هؤلاء القياديين يتحدرون في غالبيتهم الساحقة من عوائل النبلاء وهم يفتقرون إلى الموهبة والمبادرة والتعليم العسكري والخبرة في إدارة العمليات الحربية وكانت تستغرق حياتهم المؤامرات والدسائس، إضافة إلى الفساد الذي كان مستشرياً في الجيش وعدم التنسيق بين أعمال قياداته المختلفة.

وتشير الباحثة المذكورة في هذا المجال إلى الصراع الذي كان محتدماً في إسبانيا بين الملاّك والفلاحين وبين العمال والرأسماليين، في وقت كانت فيه غالبية الجيش من الفلاحين ثم من العمال الذين أريد لهم أن يحاربوا لمصلحة أعدائهم الملاك والرأسماليين، وكذلك إلى الخلافات المحتدمة بين الملاّك والبلاط من جهة والبرجوازية من جهة أخرى. ثم تتحدث عن قبائل الريف فتقول إنها بخلاف القوات الإسبانية كانت واحدة في سعيها لحماية حرية واستقلال الوطن بأي ثمن، فنخلص من ذلك إلى أن الوحدة والروح المعنوية العالية هما اللتان حددتا لدرجة ملحوظة نجاح تلك القبائل في صراعها غير المتكافىء مع الغزاة[96].

قد يكون ذلك كله صحيحاً ولكن ينبغي أن لا نغفل أيضاً الأفضليات التي كان يتمتع بها مناضلو الريف ومنها سرعة الحركة والمعرفة التامة بطبيعة المكان الذي كانت تجري فيه العمليات العسكرية، وتعاطف وإسناد المكان وتكتيك الحرب الخاطفة الذي اتبعوه والتنظيم المحكم وحسن الانضباط والقيادة الجيدة ذات الكفاية العالية، وأهم من هذا كله الاقتناع بالهدف الذي من أجله يحاربون وإيمانهم بعدالة قضيتهم، وروحهم المعنوية العالية واستعدادهم للدفاع عن وجودهم القومي مهما غلا الثمن وعزّت التضحيات.

وهكذا يعلّمنا النصر الذي تحقق في أنوال أن أية قوة مهما كانت عاتية ليست قادرة على قهر شعب صمّم على الدفاع عن حقه في الحرية والاستقلال وتوفرت له القيادة الحكيمة المخلصة.

(94) روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نيقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت د. ت.، ص 150.

(95) فضلاً عن: Quoted in tutokaya op. cit. p. 79 Ibid, pp. 79-80.



اتجاهات البحث
في تاريخ الغزو الصليبي

د.نجاح القابسي

نتوخى من هذه الدراسة المسحية توجيه الأنظار الى واقع الدراسات التاريخية حول فترة الغزو الصليبي، ونسلك الى ذلك سبيل تتبع تطور هذه الدراسات في الحيزين العربي والاوروبي ومقارنتها والوقوف على الجوانب التي يتناولها البحث أكثر من سواها، وعلى الجوانب التي أهملت سعياً وراء الكشف عن الاغراض التي قد تكمن وراء ذلك.

ومثل هذه الدراسات المسحية تفيد ولا شك في السعي لإعادة كتابة التاريخ، فمثل هذا الهدف لا يمكن أن يتحقق دفعة واحدة بل يقتضي الى جانب أمور أخرى معرفة الأدبيات حول هذا الموضوع من حيث طرق التناول والآراء المتبناة وكيفية الوصول اليها وما الغرض من التركيز على هذا الرأي دون سواه. اذن ما هي الصورة التاريخية التي تتوخى هنا وهناك والى أي حد تنسجم مع ما تؤديه المصادر ومع رؤيتنا؟

وينطلق تناولنا لموضوع الغزو الصليبي وفي هذه الفترة بالذات من اعتقادنا الراسخ ان هذه الفترة التي تتكامل مع حركة الاسترداد، لا بل انبثقت عنها فكرياً وعملياً[1]، لم نخصها حتى الآن بالاهتمام الكافي على اهميتها للإنسان العربي وهو يقاوم الآن في المنطقة ذاتها غزواً استيطانياً يتعاظم خطره في ظل طغيان موجة التشرذم والنكوص، كما ننطلق في ذلك من حقيقة أننا نقف خلال العقد القادم أمام سلسلة من المناسبات التي تتعلق بهذين الموضوعين وسيجري التطرق اليهما كثيراً خلال العقد القادم على المستويين العلمي والإعلامي والعربي والأوروبي.

ومثلما احتفل في هذا العام بالذكرى الثمانمائة لمناسبتين عزيزتين على قلب كل عربي هما الانتصار في حطين، وفتح القدس، وعقدت لهذا الغرض ندوات ومؤتمرات في الوطن العربي وخارجه، وحلّت قبلها الذكرى التسعمائة للانتصار في الزلاقة وبعد أقل من عامين سنحتفل بالذكرى السبعمائة لتحرير طرابلس الشام من الصليبيين كما ستشهد السنوات القادمة إحياء الذكرى السبعمائة لفتح عكا 1291 وإجلاء الصليبيين عن فلسطين، وذكرى إجلاء آخر صليبي عن ساحل الشام من طرطوس وجزيرة ارواد في 1291، وبالأحرى بالذكرى السبعمائة للقضاء على الغزو الصليبي، على أن التسعينات تعني أيضاً ذكريات مرة. منها ذكرى مرور خمسمائة عام على سقوط غرناطة 1492 والذكرى التسعمائة لمجمع كليرمونت 1095 الذي يعتبر البداية الرسمية لتنظيم الغزو الصليبي، والذكرى التسعمائة لتأسيس أول كيانين صليبيين على أرض الشام والجزيرة هما الرها وانطاكية في 1098 والذكرى التسعمائة لاحتلال الصليبيين للقدس في 1099.

ويجدر بنا ونحن أمام هذه المناسبات المتتالية وفي إطار سعينا لإعادة كتابة التاريخ العربي أن نطرح السؤال: ما هي مساهماتنا في دراسة هذا التحدي الذي عاشته الأمة وكيف استطاعت القضاء عليه، وقبل أن نتعرض لمساهمتنا نستعرض

---

(1) H.E. Mayer, Greschichte der Kreuzzüge 6 th. ed-Stuttgart 1985 p. 23.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البابا أوربان الثاني الذي دعا في خطابه بمجمع كليرمونت إلى تنظيم الحملات الصليبية كان من اتباع دير كلوني الذي عرف بتطوير فكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين في الاندلس، وأن ريمون ريمون الصنجيلي صاحب بروفانس وقائد أحد الجيوش الصليبية الأساسية كان ممن اشتهروا بالاشتراك في حرب الاسترداد.

تطور الدراسات الدورية حول هذا الموضوع ثم نتناول الدراسات العربية فربما كان ذلك أيسر للمقارنة وعلى وجه الخصوص ان الدراسات الأوروبية قد بدأت في وقت سابق للعربية وكانت ذات أثر واضح عليها.

الدراسات الأوروبية حول فترة الغزو الصليبي.

في البيبلوغرافيا التي أعدها 1965 هانس ابرهاردماير أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة كيل وحصر فيها ما صدر من كتب وأبحاث حول الحروب الصليبية باللغات الاوروبية بلغ عدد العناوين الواردة فيها 5362 عنواناً بين كتاب ومقالة[2] ومن المؤكد أن مئات العناوين قد صدرت خلال العقدين اللذين انقضيا منذ نشر البيبلوغرافيا المذكورة.

وعندما نضع أمام أعيننا هذا الفيض من الدراسات التي تتناول معظم الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية يجدر بنا أن نتساءل متى بدأ اهتمام الاوروبيين بدراسة الحروب الصليبية.

إذا كنا نرى في أن البداية تقترن بتوفير المادة المصدرية التي تسمح باتباع الطريقة العلمية في الدراسات، فانه يمكن أن ينظر الى صدور سلسلة المقتطفات المتعلقة بالحروب الصليبية التي جمعت من المؤلفات التاريخية وبدأ صدورها في 1841 بعنوان: Recueil des historiens des Croisades على أنها البداية الحقيقية لدراسة التاريخي الصليبي. وجاء نشر هذا العمل الضخم اثر قرار اتخذته اكاديمية النقوش والآداب الفرنسية عام 1934 واستغرق إنجازه حوالى سبعين عاماً. وصدر خلال الفترة 1841-1906 في ستة عشر مجلداً ضخماً يضم النص الأصلي والترجمة الفرنسية[3]، وقسمت هذه المجموعة إلى عدة أقسام تضم ما يذكره المؤرخون العرب والسريان والبيزنطيون والأرمن والجيورجيون والغربيون عن الحروب الصليبية، ومنذ 1946 شرعت الأكاديمية بنشر مجموعات الوثائق المتعلقة بالحروب الصليبية تحت عنوان: Decuments relatife à l'histoire de croisades وقد تكاملت هذه المجموعات الوثائقية مع ما نشرته جمعية الشرق اللاتيني Société de l'orient latin من رسائل الحجاج ومواد تاريخية أخرى كما تولّت مجلة وثائق الشرق اللاتيني Archines de l'histoire latin نشر مواد مصدرية مكملة.

وبهذه الأعمال الضخمة اكتسبت الدراسات التاريخية الأوروبية أداة عمل ممتازة تستند الى أقوال مؤرخين من مناطق متباينة ومواقف ولغات مختلفة. ومما زاد حظ المؤرخ اووروبي في الاستفادة من هذه المواد تلك الترجمة الفرنسية التي وضعت الى جانب النص الأصلي، والفهارس التي زود بها كل مجلد. انه عمل ضخم قام على رؤية سياسية تنطلق من نظرة فرنسا الى انها صاحبة الإرث الصليبي وبالتالي فإن دورها في تشجيع دراسة هذا الإرث وإقامة حقوق تاريخية عليه إن أمكن أصبح خلال القرن التاسع عشر أمراً محسوماً في السياسة الفرنسية وطبق خلال القرن العشرين.

على أن بداية الدراسات الأوروبية حول الغزو الصليبي مع صدور مجموعات المقتطفات في 1841 يصطدم بحقيقة صدور العديد من الأعمال التي تؤرخ لهذه الفترة قبل 1841 ولو أنها لا تبلغ في ضخامتها العمل الذي أنجز مع صدور مجموعات المقتطفات ولا تقتصر الأعمال السابقة لسنة 1841 على مجموعات مصدرين فحسب بل تتضمن أيضاً دراسات عامة في التاريخ الصليبي.

في 1611 صدرت في جزءين مجموعة تتضمن أهم التواريخ الغربية للحروب الصليبية قام بتحريرها باللاتينية الفرنسي جاك بونغار وقام على أساس هذين الجزءين وغيرهما من المادة المصدرية المتوفرة عدة دراسات كانت من بينها دراسة ساخرة وضعها الكاتب الفرنسي فولتير[6]، وخمسة كتب صدرت في إطار المسابقة التي أعلن عنها في 1806 قسم التاريخ والآداب في المعهد الفرنسي للإجابة عن السؤال حول أثر الحروب الصليبية على الشعوب الأوروبية في مجالات حرية المواطن،

(2) H.E. Mayer. Biblographie der Kreuzzuge 2nd ed. 1972.

(3) لقد تولى دوسلان DeSlane ترجمة وتحقيق النصوص العربية.

(4) أسسها بانت ريانت Pant Riant في 1875.

(5) Jacques Bongras. Gesta dei per Francos 2 vols. Hanoviae 1611.

(6) H.E. Mayer «Aspekte der Kreuzzüge forschung». Geshichte und Gepen Wart: Festschrift sur. Karl Erdmann 1979 p.75.

والحضارة، والثقافة والتجارة والحرف[7].

وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر وضع جوزيف فرانسوميشو تاريخاً شاملاً للحروب الصليبية في ستة مجلدات نشر خلال الفترة 1812-1822[8] وقد طبع خلال أقل من أربعة عقود (حتى 1856) تسع مرات وترجم الى أكثر من لغة وهذا يدل على مدى التأثير الذي خلفه الصحفي ميشو لدى قرائه.

والى هذه الفترة يعود تاريخ شامل آخر صدر في سبعة مجلدات خلال الفترة 1807-1832 وضعه الألماني فريدريش فيلكن وهو أكثر علمية من عمل الصحفي ميشو إذ اعتمد في إعداده على مخطوطات المؤلفات التاريخية العربية التي لم تكن قد خققت وقتئذٍ. وعلى الرغم من أن جميع من كتبوا عن الحروب الصليبية خلال القرن التاسع عشر لم يجدوا عملاً يركن اليه أفضل من كتاب فيلكن، إلا أنه لم يحظ بالصدى الذي خلفه كتاب ميشو الذي ترجم الى الألمانية ذاتها، ولم تصدر منه طبعة أخرى[9].

ولم ينصرم القرن التاسع عشر إلاّ وقد وضعت دراسات شملت الى جانب التاريخ السياسي والعسكري التاريخ الحضاري، فقد أصبح التاريخ الصليبي موضوعاً للتوجهات السياسية الفرنسية أكثر من ذي قبل، فقد كلف الأمبراطور نابليون الثالث أمانويل راي بدراسة الآثار الصليبية باعتبارها آثاراً فرنسية فدرس القلاع ووضع كتاباً حولها[10]، وحتى الانجليز لم تفتهم فرصة دراسة القلاع الصليبية منذ زارها لورنس العربي قبل أن يبدأ دوره مع الشريف حسين ووضع دراسة حولها نشرت مع مطلع القرن العشرين.

والى القرن التاسع عشر يعود ذلك التاريخ الحضاري الشامل الذي وضعه الألماني برونس حول الفترة الصليبية[11] وعرفت نهاية القرن التاسع عشر كتاباً بالألمانية يتسم بالدقة والتفاصيل وتزامن صدوره مع زيارة الامبراطور فيلهلم الثاني الى الدولة العثمانية والقدس وقد ألّف هذا الكتاب رويشن وصدر بعنوان مملكة بيت المقدس[12].

وعندما طبقت معاهدة سايكس بيكو بعد الحرب العالمية الأولى احتلت انكلترا فلسطين واحتلت فرنسا سورية التي أخذت تبرر استعمارها تاريخياً وقرنته مع الإرث الصليبي ولا يتضح ذلك من كلمة الجنرال غورو عندما أعلن على ضريح صلاح الدين الأيوبي «ها قد عدنا يا صلاح الدين»، فحسب، بل من خلال مؤتمر كرِّس لدراسة سوريا وعقد في 3-1919/1/5[13].

وقد عبر عن هذه الأغراض الفرنسية المستشرق الفرنسي رينيه غروسيه في تاريخه الشامل للحروب الصليبية الذي ألّفه إبان الاحتلال الفرنسي لسورية ولم يكتف بالتاريخ للكيانات الصليبية بل عمد الى فرض مصطلحات جديدة لا تعني سوى ترويج للنوايا الاستعمارية الفرنسية التي تتمثل في إيجاد حق تاريخي في المنطقة قائم على أساس ما يدعى بإحياء التراث الفرنسي السياسي الحضاري وهكذا يطلق غروسيه على كونتية طرابلس الصليبية اسم مقاطعة بروفانس اللبنانية ويسمي مملكة بيت المقدس الصليبية فرنسا شرقي البحر المتوسط[14].

إن هذه المصطلحات الجديدة التي تبرز في مؤلف غروسيه ذي الأسلوب الجذاب إنما تنم عن الارتباط المسف بين العلم والعقل الاستعماري، إنها الروح الصليبية التي لا تجد لها مناسبة الا وتعبر عن نفسها بكل وقاحة وتتجاهل حق الشعوب في الوجود فوق أرضها وتقرير مصيرها. وفي منتصف القرن العشرين صدر تاريخ شامل للحروب

---

(7) المصدر نفسه، ص75 و86 وما بعدها.

(8) J.F. Michaud. Histoire des croisades 6 vols 1812-1822.

(9) Friedrich Wilken. Geschiichte de. Kreuzzüge 7 vols 1807-1832.

(10) E. Rey Etude sur les monument de l,architecture militaire des croisades en Syrie et dans l'Ile de Chypre 1871.

(11) Prutz. Kulturgeshichte der Kreuzzüge 1883.

(12) Robricht. Geschichte des Konigereichs Jer.salem 1898.

(13) Chambre de Commerce, Marseille-Congre's francais de la Syrie 1919.

(14) H.E. Mayer «America and the Crusades»-Proceeding of the Amer. Phil, Soc. 125 (1981) p.41.

الصليبية وضعه ستيفان رنسيمان[15] المختص في التاريخ البيزنطي وترجمه الباز العريني الى العربية ترجمة ممتازة بمجلداته الثلاثة.

وإذا كنا حتى الآن قد وجهنا معظم اهتمامنا الى التواريخ فيجدر بنا أن لا ننسى الدراسات الامريكية حول الحروب الصليبية التي بلغت ذروتها مع مونرو في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. فهو صاحب فكرة تأليف تاريخ شامل للفترة الصليبية وفي تلك الفكرة التي تحققت فيما بعد باسم تاريخ بنسلفانيا للحروب الصليبية وخطط له أن يقع في ستة مجلدات[16]. ووضع مونرو دراسة هامة حول ملكية بيت المقدس ووضع تلاميذه سلسلة من التراجم للقادة الصليبيين[17] وحلل لامونت الملكية الإقطاعية في بيت المقدس[18]. ولم تقتصر المساهمات الأمريكية على الدراسات المستفيضة في جوانب التاريخ الصليبي فحسب بل صدرت سلسلة من المصادر التاريخية[19] وأصبحت فيلادلفيا وماديسون من المراكز الهامة للدراسات الصليبية[20].

وبالاضافة الى التواريخ الشاملة وضعت أعمال عديدة تتناول كل دويلة صليبية بذاتها ومن أبرز هذه الدراسات كتاب جان ريشارد عن كونتية طرابلس[21] ودراسة كلود كاهن عن امارة أنطاكية[22] ويوشع براور عن مملكة بيت المقدس[23].

ولم يقتصر اهتمام التواريخ الشاملة أو الجزئية على النواحي السياسية والعسكرية بل تطرقت أيضاً الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية كما درست هذه الجوانب في مؤلفات مستقلة ووجه الاهتمام على وجه الخصوص ـ كما ذكرت ـ الى فن العمارة العسكرية والقلاع على وجه التحديد. وبعد دراسة راي ولورنس نجد بدءاً من الثلاثينات دراسة مستفيضة وضعها دو شامب وجاءت في ثلاثة مجلدات وثلاثة ألبومات تحتوي على مخططات وصور[42]. ووضع هذا الكتاب أيضاً في نفس إطار كتاب راي فهو ينطلق من فكرة إحياء الآثار الفرنسية، إذ قامت فرنسا بترميم بعض هذه القلاع خلال الانتداب الفرنسي على سورية انطلاقاً من هذا الموقف.

وليس من المستغرب أن يهتم يوشع براور الأستاذ في الجامعة العبرية بقضايا الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس فهو يعي جيداً من خلال دراسته المستفيضة لمملكة بيت المقدس الصليبية التي وضعها في جزءين في أواخر الستينات[25] الطبيعة العدوانية للدولة الصليبية والصهيونية، ويدرك أيضاً أن مدة قرنين من العدوان والاستيطان الصليبي لم تقض على السعي المستمر لدى الإنسان العربي للقضاء على الجسم الغريب واستبعاده. ولذلك نراه يتولى مشروعاً كبيراً وشاملاً يضم فرق عمل مهمتها دراسة الأسباب التي جعلت الغزو الصليبي يزول الى الدمار بعد هذه المدة الطويلة. وهو لا يقف في دراسته هذه عند المصادر التاريخية والوثائق بل يعمد أيضاً الى دراسة كتب الجهاد والفتاوى والاسلحة والأدب وغيرها من المصادر التي يمكن أن تساعد في التوصل الى تفسيرات دقيقة لانهيار الكيانات الصليبية. ولا يعمل براور وحده في ذلك بل يستعين بالعلماء المتصهينين في الجماعات الغربية.. فلهم مراكز بحث ومستشارون في جامعة باريس لدى العالم اليهودي كلاوكاهن وفي الجامعات الأخرى الأمريكية أمثال اشتور شتراوس وبرونشفيك وتيشر رابالون المختص بالعصر المملوكي وغوثياين الذي كتب عشرات الأبحاث حول القدس والصليبيات واليهود والإسلام[26]..

(15) S. Runciman. A history of the Crusades. 3 vols 1951-1954.

(16) Kennth M. Settou. A history of the Crusades. vols 1-6 1955-1977.

(17) H.E. Mayer Op.cit p.40 sq—

(18) J.L. La Monte. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291 Cambridge 1932.

(19) Translations and Reprint from: Original Sources of European History.

(20) H.E. Mayer Op.cit p. 44 sq.

(21) Jean Richard Le Compte de Tripoli 1945.

(22) Claude Cahen La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades 1940.

(23) I.Prawer Histoire du Royaume Latin de Jerusalem-2 vols 1969-1970.

(24) Deschamp, Les chateaux des Croice's en Terre Sainte-3 vols- 1939- 1973.

(25) انظر الهامش رقم 23.

(26) شاكر مصطفى، من الغزو الصليبي الى الغزو الصهيوني وبالعكس. تاريخ العرب والعالم 100-106 (1987) ص 7.

وإذا كنا قد اكتفينا بهذا القدر من الإشارات السريعة فإنما اخترنا إشاراتنا لذكر الأعمال الأساسية، ولم نول الدراسات الحديثة الكثير من الاهتمام وبخاصة تلك التي وجهت الى القيادات العربية الإسلامية مثل عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون وترجمت لهم. فهي عديدة وبالغة الأهمية وبخاصة تلك التي اهتمت بنور الدين وصلاح الدين. وباختصار فان الدراسات الاوروبية شملت جميع الجوانب ولو أنها تركز على موضوعات بعينها وتهمل أخرى أو تذكرها عرضاً.

وأما البلدان التي تهتم بالدراسات الصليبية فيمكن أن نذكر منها على وجه الخصوص فرنسا وانجلترا وألمانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وهولندا وبلجيكا وسويسرا وكندا ونيوزيلاندا والعدو الاسرائيلي[27].

وإذا ما تأكد لنا أن الاهتمام الذي حظيت به الدراسات الصليبية كان كبيراً وواسع النطاق وبلغت أعداد الأبحاث في المكتبة الأوروبية ما يزيد على ستة آلاف بين كتاب ومقالة. فما هو وضع هذه الدراسات في الحيز العربي.

الدراسات العربية حول الحروب الصليبية

لما كانت المكتبة العربية ما زالت تفتقر الى قائمة بيبلوغرافية تحصر الأدبيات التاريخية في الوطن العربي[28]، فان أية محاولة لتتبع بدايات الأدبيات العربية حول الحروب الصليبية وتطورها تغدو صعبة وتقترن بالكثير من الثغرات.

إن ما استطعنا حصره يسمح لنا بالتمييز بين صنفين من التأليف حول هذا الموضوع في مطلع القرن الحالي. ويتمثل الصنف الأول في المؤلفات التاريخية العامة التي تتناول بلاد الشام ومصر وهي عادة لا تخرج عن إلقاء نظرة عامة على الحروب الصليبية منسجمة وخط المؤلف الذي ارتضاه لكتابه وخلفيته الفكرية، وقلما تمكننا من القول على ضوئها ببداية دراسة الحروب الصليبية مع صدور هذه التواريخ العامة وهذا ينسحب على كتب تاريخ سورية ليوسف الدبس وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ومحاضرات الخضري بك في تاريخ الدول الاسلامية وخطط الشام لمحمد كرد علي.

وأما الصنف الثاني فيتمثل في دراسات خصصت لهذا الموضوع أو أُلِّفت في إطار الجامعات ونذكر منها كتاب علي الحريري الذي صدر في طبعته الثانية 1911[29]. وجاء هذا الكتاب متوسط الحجم إذ تبلغ صفحاته 410 ويصفه التميمي أنه «طائفة من الحوادث والأخبار التي فيها الشيء الكثير من الصحة والطرافة ولكنه لم يسلم من هفوات غير مقصودة خففت من أهميته العلمية»[30] ومن وصف التميمي لهذا الكتاب يمكننا النظر إليه على أنه بداية الدراسات العربية حول الحروب الصليبية أي أن دراساتنا حول هذا الموضوع قد تأخرت عن أوروبا حوالى قرن من الزمن وجاءت بعد صدور العديد من المؤلفات الشاملة والدراسات التي تتناول موضوعات محددة من مختلف جوانب التاريخ الصليبي. وهكذا فإننا لا نستغرب أن تتأثر أعمالنا لا بل أن تقع تحت وطأة الأعمال الأوروبية. وأكثر ما يتمثل هذا في أعمال أولئك الذين امتلكوا ناصية اللغات الحديثة أو درسوا في الجامعات الأوروبية. والحق أننا نستطيع القول ان غالبية الدراسات العربية حتى الآن وبالأحرى الأعمال الشاملة تعاني من تأثيرها الواضح في الدراسات الأوروبية في طريقة تناولها وتبويبها.

وإذا ما استمرينا في استعراضنا للدراسات التي صدرت في النصف الأول من القرن العشرين لا يسعنا إلا أن نذكر عملين هامين صدرا خلال العشرينات حول صلاح الدين الأيوبي أولهما أطروحة دكتوراه تقدم بها الى الجامعة المصرية

(28) لا شك أن بيبليوغرافيا الوطن العربي 1908-1980 التي يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية تسد ثغرة هامة في هذا المجال، الا أن عدم صدور الجزء الموضوعي منها حتى الآن، يجعل من الصعب حصر الدراسات التي صدرت حول موضوع بعينه، ومن المؤمل ان يتمكن المركز من اصدار هذا الجزء حتى تزداد فرص الاستفادة منها، ولا يفوتنا بهذه المناسبة الا أن نشيد بالجهود التي يبذلها اتحاد المؤرخين العرب لاصدار قائمة تحصر رسائل الماجستير والدكتوراه التي قدمت الى الجامعات العربية.

(29) علي الحريري الاخبار السنية في الحروب الصليبية ط. 2 القاهرة 1911.

(30) رفيق التميمي، الحروب الصليبية، القدس 1945 ـ المقدمة.

أحمد بيلي[31] وثانيهما كتاب وضعه محمد فريد أبو حديد[32]. وفي حين يمتدح التميمي أطروحة البيلي بقوله «مكتوب (كتاب البيلي) وفقاً لأساليب التأليف الحديثة ومبوب أحسن تبويب»[33] ينتقد الكتاب الثاني للثغرات الكثيرة التي تعتريه. وإن كتاب رفيق التميمي الذي صدر 1945 بحيث يغطي متطلبات تدريس مادة تاريخ الحروب الصليبية لطلاب شهادة الاجتياز للتعليم العالي. نجده كتاباً متوازناً في معالجته يستفيد ولا شك من المراجع الأوروبية ولكنه لا يخضع لها، ويمكن أن يعتبر بداية صحيحة لإعطاء معلومات دقيقة موثقة ومبوبة تبويباً جيداً حول هذه الفترة الحساسة. وقبل أن ينصرم النصف الأول من القرن أخذت تصدر أعمال الدكتور حسن حبشي التي بدأها بدراسته حول الحرب الصليبية الأولى[34].

وإذا ما عدنا الى مصطلح «البداية الفعلية» للدراسات العربية حول الحروب الصليبية فاننا نستطيع أن نقرنها بظهور مجموعة من اساتذة الجامعات أخذت بدءاً من منتصف القرن بالتأليف والترجمة والتحقيق وشهدت الخمسينات والستينات على وجه الخصوص دفعاً للدراسات العربية حول هذا الموضوع ويمكن أن نعتبرهم بمثابة القاعدة التي انطلقت منها المحاولات التي اعقبتها في السبعينات والثمانينات وهي التي شكلت إيجابيات وسلبيات الدراسات العربية وبالتالي لا يسعنا إلا أن نتوقف بحيث نذكر على الأقل بعض هذه الأعمال.

لقد شهدت الخمسينات والستينات أساتذة أفاضل مثل حسن حبشي والباز العريني وسعيد عاشور وجوزيف نسيم ومحمد مصطفى وجمال الشيال... لا يسعنا أن نفهم نشاطهم في إطار عملهم الجامعي والاختصاص فحسب بل يجدر بنا أن نتلمس تأثير الاتجاه التحرري القومي الذي ساد الخمسينات وتمخض عن تحقيق الوحدة بين مصر وسوريا. لقد شجعت الوحدة الدراسات حول هذه الفترة وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بدراسة وحدة الشام بما فيها الجزيرة ومصر التي ما فتئت أن امتدت لتشمل ليبيا واليمن والحجاز وشكلت طريق النصر والقضاء على الصليبيين وكياناتهم. فقد شجعت الوحدة تحقيق مؤلفات مؤرخي هذه الفترة مثل كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة وكتاب ابن واصل كما دفعت العمل في تحقيق ابن النديم وابن عساكر، كما اندفع التأليف في شتى الجوانب.

وإذا ما استعرضنا أعمال هؤلاء الأساتذة الأفاضل فإننا نلاحظ أن معظمهم حاولوا أن يخوضوا جميع المجالات من تأليف وتحقيق وترجمة، وكأنهم كانوا يشعرون ان هذه الحقبة المهمة في تاريخنا، التي تتكرر أحداث متشابهة لها في أيامنا، تتطلب جهوداً مركّزة بحيث ندرسها دراسة عميقة تجعلنا نقف على تجربة سبق لإنساننا العربي أن تعرّض لها وجابه تحدياتها على مدى قرنين من الزمن وخرج منتصراً بفضل ما بذله من تضحيات وبتوحيد صفوفه وبإخلاص قياداته.

فقد درس حسن حبشي الحملة الصليبية وحملة لويس الأولى[35] ووضع دراسة عن نور الدين[36]. وترجم مصدراً غربياً[37] إضافة الى دراسته عن لويس التاسع. وقام الباز العريني بترجمة كتابي باركر ورنسيمان عن الحروب الصليبية، كما وضع كتاباً عن مصادر الحروب الصليبية، ووضع دراسات عن الايوبيين والمماليك والمغول[38].

---

(31) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي القاهرة 1920.

(32) محمد فريد ابو حديد صلاح الدين الايوبي وعصره، القاهرة 1927.

(33) رفيق التميمي، المصدر السابق، المقدمة.

(34) حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، القاهرة 1947.

(35) حسن حبشي، الشرق بين شقي الرحى: حملة لويس علي مصر والشام القاهرة 1949.

(36) ــــ نور الدين والصليبيون. القاهرة 1948.

(37) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة 1958.

(38) الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية القاهرة 1962.
الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة 1963
المغول، بيروت 1967
المماليك، بيروت 1968

وأما سعيد عاشور فبدأ مؤلفاته بكتاب قبرص والحرب الصليبية[39]، وكتابه الشامل الحركة الصليبية[40] الذي يوازي الأعمال الشاملة الأوروبية، ودراسته عن الظاهر بيبرس[41]. وله مؤلفات أخرى هامة حول هذا الموضوع ولا يزال يتحف المكتبة العربية بدراساته ويجاريه في هذا المجال مؤلفات جوزيف نسيم يوسف التي نشرت في إطار مكتبة الحروب الصليبية التي ضمنها كتبه الثلاثة العرب والروم واللاتين[42] وهزيمة لويس التاسع[43].

وإن أعمال عاشور ونسيم تفهم في إطار المد الوحدوي الذي شهدته المنطقة، وبخاصة أن جوزيف نسيم وضع كتاباً حول الوحدة العربية[44] وهي الدراسة المستقلة الوحيدة في هذا الموضوع.

وعرفت الخمسينات أيضاً دراسات تتناول العلاقات الاجتماعية[45] ودراسة تتناول بيت المقدس[46] وتراجم لنور الدين[47] وصلاح الدين[48] تلتها تراجم لعماد الدين زنكي وتأملات عن شخصية نور الدين[49].

إن هذا السرد لأهم المؤلفات التي صدرت خلال الخمسينات والستينات لم يتضمن جميع الأعمال بل اكتفينا بنماذج كما أننا لم نتوقف عند محققي النصوص التي ساعدت ولا شك في دفع الأبحاث. ولم نتعرض الى الدراسات التي تتناول على سبيل المثال الأيوبيين والمماليك والفاطميين والسلاجقة والتي يمكن أن تعتبر في جزء كبير منها من صلب الموضوع إلا أننا نرى أنه من المناسب أن نلقي نظرة عامة على منهج هذه المؤلفات في تناولها لموضوعاتها.

إن الصفة شبه العامة التي يمكن أن تطلق على هذه المؤلفات أنها متأثرة بطريقة التناول الواردة في المراجع الأوروبية من حيث تقسيم الحروب الصليبية الى حملات ثمانٍ في غالب الأحيان وهو أمر لم نقع عليه إلا في المراجع الأوروبية والحروب الصليبية ليست سوى عدوان مستمر كان يتلقى باستمرار الدعم دون انقطاع الا أن الضربات القاصمة التي وجهت للصليبيين بدءاً من فتح الرها كانت تسبب ولا شك في قدوم نجدات يترأسها ملوك أوروبيون في معظم الأحيان.

كما نلاحظ انعدام التوازن بين معالجة أوضاع الصليبيين ودراسة الأوضاع في الجانب العربي الإسلامي. فالحملات الصليبية وتطورات الأوضاع داخل الدويلات الصليبية تحظى باهتمام رئيسي بينما نجد أن معالجة التطورات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الحيز العربي الإسلامي شبه منعدمة.

الحق أن السبعينات والثمانينات أخذت تشهد محاولات للخروج عن هذا الوضع واقتراح وضع بديل، ونخص بالذكر ما يتكرر ذكره في مقدمات أعمال الأستاذ سهيل زكار[50] ويقترح في هذه المقدمات أن تدرس الحروب الصليبية في إطار الموضوعات التالية:

1 ـ أحوال بلاد الشام والجزيرة في القرنين العاشر والحادي عشر.

---

(39) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة 1957.

(40) الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة 1963، جزءان.

(41) الظاهر بيبرس، القاهرة 1963.

(42) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى الاسكندرية 1963 (مكتبة الحروب الصليبية 2).

(43) جوزيف نسيم يوسف، العدوان على مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة الاسكندرية 1976 (مكتبة الحروب الصليبية 3).

(44) الوحدة العربية وحركات اليقظة ابان العدوان الصليبي ـ الاسكندرية 1967.

(45) زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية. بيروت 1957.

(46) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، القاهرة 1958.

(47) حسين مؤنس، نور الدين محمود. القاهرة 1959.

(48) عبد المنعم ماجد الناصر، صلاح الدين يوسف الإيوبي، القاهرة 1958، كما وضع قدري القلعجي، ترجمة شاملة لصلاح الدين.

(49) عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي. نور الدين الرجل والتجربة.

(50) ورد ذلك في مقدمة مجموعة المصادر التي بدأ بتحرير المقتطفات الخاصة بالحملتين الأولى والثانية ونشرها بعنوان: الحروب الصليبية. الجزء الأول «دمشق» 1984.

2 ـ أحوال أوروبة خاصة الأمبراطورية البيزنطية في الفترة نفسها.

3 ـ أوضاع الغرب الإسلامي وعلاقته بأوروبة الغربية في الفترة ذاتها.

4 ـ أحوال الخلافة العباسية في المشرق مع أوضاع الخلافة الفاطمية.

5 ـ الغزو الصليبي لبلاد الشام والجزيرة واحتلال الأرض حتى نهاية المد.

6 ـ حرب الاسترداد العربية ومراحل أعمال التحرير وأهم الوقائع والدروس (وهنا يشار الى النجدات الأوروبية الكبرى)[51]

إن التقسيمات المقترحة مغايرة الى حد بعيد لطريقة التناول السائدة في معظم المؤلفات العربية التي وضعت حتى الآن حول الحروب الصليبية وتبتعد عن التقسيمات الأوروبية، وهي تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الغزو الصليبي ما كان ليحصل لولا الفراغ السياسي والعسكري الذي كانت تعاني منه المنطقة، كما أنها تربط بوضوح بين حركة الاسترداد التي أخذت تحقق بعض الانتصارات الملموسة في الأندلس وبين الحركة الصليبية وفي هذا يتفق مع ابن الأثير عندما يذكر لأول مرة الغزو الصليبي إذ يقول في أحداث 491: «وكان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرهما من بلاد الأندلس وقد تقدم ذكر ذلك، ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها وقد ذكرته أيضاً وتطرقوا الى أطراف أفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم ثم ملكوا غيره على ما تراه فلما كانت سنة تسعين خرجوا الى بلاد الشام»[52].

ومهما يكن شأن هذه التقسيمات المقترحة فإن ما يجدر بنا فعله يتمثل في الإقدام على دراسة هذه الفترة دراسة عميقة.

وبقدر ما نحتاج الى دراسة شاملة ذات منطلقات جديدة، فاننا بحاجة ماسة الى دراسات تتناول موضوعات محدودة فنتناولها على الرغم من أهميتها وحساسيتها.

مازلنا نفتقد دراسات حول أوضاع الشام والجزيرة قبيل الغزو الصليبي، إضافة الى الدراسة التي وضعها سهيل زكار حول إمارة حلب والتي استوعبها في كتابه المدخل الى تاريخ الحروب الصليبية، كما نفتقر الى دراسة تتناول العلاقة بين حركة الاسترداد الإسبانية في الأندلس والحركة الصليبية. إن دراسة تطور مفهوم الجهاد والمظاهر التي اتخذها في مقاومة الغزو الصليبي مازالت لم تحظ بالاهتمام على الرغم من توافر عدد من المخطوطات التي تعود الى هذه الفترة ووضعها علماء مشهورون وشخصيات كانت لها علاقة بقيادة المعركة.

وعلى الرغم من أهمية الوحدة في حركة التحرير والقضاء على الغزو الصليبي، فما زالت الساحة خاوية من دراسة أو دراسات تتناول الخطوات الوحدوية والمراحل التي مرت بها، وتحديد هذه المراحل من مراحل التحرير والاشارة الى ان الاخفاق المرحلي الذي كانت تعانيه كان يقترن مع مكاسب يحققها الغزاة. ان الجهد الذي بذله جوزيف نسيم مازال وحيداً على الرغم من مرور عقدين على صدوره. إن ظاهرة الكامل وما قام به من تسليم القدس وغيرها من المناطق للصليبيين ما زالت دون دراسة مرضية.

على الرغم من أهمية الجوانب الاقتصادية فانها لم تحظ بأي اهتمام وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمؤسسات الثقافية والعلمية، لم تصدر حتى الآن دراسة تبين مدى الدور الذي ساهمت به المدارس والروابط والخانقاهات والفقهاء والمتصوفة في دعم حركة الجهاد والخطوات الوحدوية. ولقد وضع أحمد بدوي كتابه عن الحياة العلمية في العصر الأموي إلا أنه لم يوضح دور هذه المؤسسات في الإطارين السياسي والجهادي.

إن المعركة ضد الصليبيين كانت تشمل مجاهدين من مشرق الوطن العربي ومغربه وفي المصادر إشارات واضحة الى ذلك، وهذه الحقيقة لم تحظ باهتمامنا أيضاً.

إن دراسة الأسلحة وتطويرها، وكذلك دراسة التكتيك والاستراتيجية للقيادة العربية الإسلامية مازالت أيضاً تحتاج الى المزيد من الدراسة. وفي هذا الإطار يجب أن نشير الى ضرورة دراسة تشكيلات الجيش، ما هو دور الجيش

(51) سهيل زكار، الحروب الصليبية، ص 37.

(52) ابن الأثير، 1985/8.

النظامي. ما هو دور المتطوعة والدور الشعبي في المقاومة. ما مدى تأثير نظام الإقطاع العسكري على المدة التي كان يقضيها الجنود في الخدمة.

إننا بحاجة إلى دراسات حول المجتمع الصليبي وحول الاستيطان وتركيبة المجتمع المدني، والقلاع الصليبية.

إذا كنا قد حاولنا أن نشير هنا الى موضوعات حساسة لم تلق بعد الاهتمام المطلوب وبالأحرى لم يتطرق اليها مطلقاً، لا بد لنا من التذكير أنه ما زالت مجموعة من المصادر العربية حول هذه الفترة لم تحقق، كما اننا لم نترجم سوى عدد قليل من المصادر الغربية حولها، وان المحاولة التي بذلها الدكتور سهيل زكار لترجمة مقتطفات من مصادر غربية وبيزنطية وسريانية تتعلق بالحملتين الأولى والثانية، مازالت تتطلب التكملة حتى لا تبقى بعض النصوص مبتورة.

وأخيراً، ونحن أمام المناسبات الكثيرة التي تتعلق بالغزو الصليبي حبذا لو توجهنا الى وضع أبحاث لعمل عربي موحد في هذا الاطار، واننا عندما ندرس إمكانية تكليف جهة علمية معينة بتولي مشروع للدراسات يتركز حول الغزوين الصليبي والصهيوني، نكون قد ساهمنا في تشجيع هذه الدراسات التي آن لنا أن نتولاها.





الدور التاريخي
للخط الحديدي الحجازي

د. سعد أبو دية

كلية الآداب - جامعة اليرموك

توطئة

إنّ الخط الحديدي الحجازي تتويج لفكرة قديمة ترتبط بعلاقات بلاد الشام مع الجزيرة العربية، وإن هذا الاهتمام ظهر في العهود القديمة وقبل الإسلام وفي العهد الإسلامي وفي العهود اللاحقة. كان الاهتمام يتأرجح، تارة تهتم السلطة في الجزيرة العربية ببلاد الشام على نحو ما حصل في عهد معين وسبأ ثم عصر ما قبل الإسلام ثم العهد الإسلامي، وتارة كانت السلطة في الشمال تهتم بالجزيرة العربية على نحو ما حصل في العهد الأموي والعهد العثماني، وأن الامويين والعثمانيين اهتموا بالاتصال مع الأماكن والديار المقدسة في الحجاز. ولقد وصل اهتمام العثمانيين ذروته بالاهتمام بطرق الحج الشامي ثم بلغ الاهتمام عهداً ليس له مثيل وتم إنشاء الخط الحديدي الحجازي في فترة بدت فيها الأخطار تهدد الدولة العثمانية وبدا أنّ عهداً جديداً من الإصلاحات قد ظهر. قام الخط الحديدي الحجازي ليرد لدولة الخلافة الإسلامية روحها ويبعثها من جديد بخاصة في فترة ظهرت فيها الأطماع الاستعمارية بالمنطقة وظهرت الاهتمامات بالطرق التجارية وخطوط المواصلات وظهرت الخطوط الحديدية في أوروبا وفي روسيا وانهالت الطلبات على الدولة العثمانية للحصول على امتيازات. وكانت الدولة ترى بضرورة الاعتماد على ألمانيا والابتعاد عن انجلترا وحلفائها لعدة أسباب بعض منها يرتبط بخشية الدولة من الأطماع البريطانية وقد سيطرت على قناة السويس واحتكرت الطريق وأن البديل هو ألمانيا التي كانت مستعدة لمدّ يد العون. ومدّ خط بهدف إحياء طريق تجاري جديد فيه فائدة للعثمانيين والألمان معاً وفيه فائدة للعثمانيين الذين بدأوا يوجسون خيفة من الاستعمار البريطاني بالتحديد الذي وصل إلى قناة السويس وأصبح قريباً من المناطق الجنوبية في الدولة العثمانية واحتكر طريق المواصلات الرئيسي إلى باب المندب وفصل مصر عن الدولة العثمانية. كانت أحد الأفكار التي وردت فكرة مدّ قناة من المتوسط إلى البحر الأحمر عن طريق البحر الميت، لكن الخطوط الحديدية قد أصبحت من مظاهر ذلك العصر وظهر أنها ذات فائدة عسكرية واقتصادية وأصبحت أمنية من أماني السلطان عبد الحميد وبدأ تحقيقها فعلاً.

مقدمة

تؤكد المصادر بأن المنطقة التي يمر بها الخط الحديدي الحجازي هي منطقة تاريخية واشتهرت بأنها طريق لمرور القوافل عبر السنين الطويلة، وأن هذا الطريق ربط بلاد الشام بالجزيرة العربية وأنه كان يسير بمحاذاة الصحراء من الناحية الغربية في الجزء الجنوبي من بلاد الشام ليترك على الناحية الشرقية الأراضي الخصبة. ويمكن أن نتتبع الموضوع على النحو التالي:

1 ـ العهود القديمة:

المصادر القديمة تؤكد بأنَّ المعينين والسبأيين عندما امتد سلطانهم التجاري شمالاً وتعاملوا مع مصر والشام فإنهم ابتدعوا نظاماً للواحات على الطريق التجاري. كانوا يرسلون جالية من عرب الجنوب وكان يقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب يشرف على ملوك الإقليم ورؤسائه ومراقبتهم حتى لا يقوموا بأي عمل يعطل مصالح المماليك الجنوبية معين أو سبأ اللتين اتبعتا نفس النظام السياسي لإدارة الواحات، وأن حكام آشور وسوريا لم يفهموا هذا النظام السياسي على طريق التجارة الرئيسي ولم يهتموا بالمفاوضات مع الملوك المحليين بل اتجهوا إلى (المقيم الجنوبي) الذين كانوا يعرفون بأنه يشرف على الإقليم ويخلطون بينه وبين الملك الجنوبي الذي كان المقيم يعمل في خدمته.

إن الإشارات التي وردت في الوثائق (السريانية والعبرية) عن السبأيين تذكرهم بأنهم كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت[1].

يؤكد (موزيل) بأن الطريق الذي كان يمر من العقبة إلى الشمال بين البدو والحضر كان يحمل اسم (الطريق العربي) لأنه يمر على حافة الحدود الغربية لأرض عروبي أو عريبي أو بلاد العرب كما تسميها الوثائق الآشورية والعبرية. يستفاد من ذلك بأن المنطقة من جنوب الجزيرة العربية وحتى شمال بلاد الشام وشرقها كانت من عهود سبأ ومعين طريقاً للقوافل وأن المنطقة أديرت بواسطة مقيمين سبأيين ومعينين[2].

2 ـ عهد ما قبل الإسلام

يتضح لنا من قراءة بعض آيات القرآن الكريم أن «رحلة الشتاء والصيف» التي أشارت آيات القرآن الكريم كانت تتمّ عبر الأردن، ونصّ الآيات القرآنية هو: **«لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»**.

فسر ابن كثير ذلك بأن رحلة الصيف كانت إلى الشام ورحلة الشتاء كانت إلى اليمن. ولا شك أن رحلة الشام كانت تمر في نفس طريق القوافل السابقة في عهود معين وسبأ ومن تلاهم[3] وأن الرسول ﷺ سار في الطريق التي يسير عليها الخط الحديدي الحجازي الآن حيث تمر كما يقول (الدباغ) في معان ثم الحسا ثم أبني (خان الزبيب) ثم عمان ثم المفرق وحتى الشام[4].

3 ـ العهد الأموي

بعد ظهور الإسلام فإن الفتوحات الإسلامية انطلقت شمالاً وبعد أن وطد الخلفاء الراشدون أركان الدولة فإن الأمويين قد استقروا في دمشق. ولقد شمل اهتمام بني أمية طريق القوافل ولبني أمية علاقة بالتجارة وأن وظيفة من وظائف مدينة مكة السياسية قبل الإسلام كانت العتاب (حمل اللواء) وقيادة القوافل كانت لبني أمية.

ركز معاوية على ذلك الطريق الذي يربط بين مكة المكرمة ودمشق.

يلاحظ أن اهتمام بني أمية بالحجاز قد انعكس على أهمية طريق القوافل وازدهاره وأن العكس صحيح أيضاً، بمعنى أن أي اهتمام من قبل الحجاز بالشام تنعكس آثاره على طريق القوافل وازدهاره والاهتمام به، وأن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد في عهد العباسيين قد انعكس على طريق القوافل في بلاد الشام إلى الحجاز بحيث لا تجد في كتب الأدباء والمؤرخين أيّ إشارات لازدهار الطريق على النحو الذي تجده في العهد الأموي.

---

(1) Alois Musil, The Northern Hejaz (New York: The American Geograpical society, 1926) p. 243.

(*) موزيل: ـ أستاذ الدراسات الشرقية والعربية (في النمسا في مطلع هذا القرن) تعتبر أعماله تحقيقات مضنية تخصص في بادية الشام والعراق والحجاز ونجد. عمل لصالح المانيا وتركيا وله مؤلفات عن الرّولة وغيرهم من البدو.

(2) انظر الدكتور عبدالمحسن الحسيني شمال الحجاز (اسكندرية: 1952) ص 1-9 ترجمة كتاب موزيل السابقة الذكر.

(3) تفسير ابن كثير القرشي (عمدة المفسرين شيخ الحفاظ والمحدثين عماد الدين أبي العزاء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي النافعي (700-774) ج 4 القاهرة مكتبة النهضة 1968، ص 587.

(4) مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين (بيروت: دار الطليعة، 1979)، ص 209.

4 ـ العثمانيون

اهتم العثمانيون بطرق الحج إلى الحجاز وبالقلاع ونلاحظ أن السلطانين (سليم وسليمان) وجها اهتماما لهذا الموضوع وأنهما وجدا بعض القلاع القديمة ورمماها وبنوا قلاعاً جديدة ساحلية كانت أم داخلية[5]. ويورد الشيخ نجم الدين الغزي 977-1061 قصة بناء بعض القلاع واهتمام السلطان العثماني ببناء هذا القلاع فيقول:

وصل أمرٌ شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان إلى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة وفي صحبته سباهية ومعلمون وفعول ومعهم وما يكفيهم من الزاد واحدة بالقطرانية وثانية بمعان وثالثة بذات حج ورابعة بتبوك فعمرت كما أمر»[6]..

ويمكن أن نورد الجدول التالي بأسماء القلاع وسنة البناء ومن بناها.

مشاهدات الرحالة في منتصف القرن السابع عشر

تعطينا مشاهدات الرحالة انطباعات عن ازدهار المدن على خط القوافل بين الشام والحجاز، على سبيل المثال:

1 ـ مذكرات الشيخ حسن بن محمد البوريني المتوفى 1024هـ ـ 1615م، كان قاضياً لقافلة الحج الشامي لسنة 1611[7].

2 ـ الخياري المدني: ـ يصف في رحلته ازدهار مدن القوافل على خط قوافل الحج[8].

3 ـ عبدالغني النابلسي: ـ يصف في رحلته الشيء نفسه الذي شاهده الخياري المدني[9].

فكرة الخط الحديدي الحجازي

في أواخر القرن التاسع عشر وفي تشرين الأول 1899 بدأ العمل بالخط الحديدي الحجازي عندما رأت الدولة العثمانية أن بلاد اليمن والحجاز شاسعة وبعيدة عن مقر السلطان. ومن جهة أخرى رأت أن بعض القبائل هناك تخفي شرًا يلوح في الأفق إذا أتت فرصة مواتية[10].

كان السلطان عبدالحميد الذي تولى الحكم من عام 1876 إلى 1909 هو صاحب فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي وكان هو منفذها أيضاً وفي ذهنه فكرتان[11]:

1 ـ تعزيز قوة الدولة وقدرتها وتحقيق أهداف سياسية وعسكرية كبيرة للدولة على الصعيدين الداخلي والخارجي.

2 ـ التضامن الإسلامي.

كانت الظروف قد تهيأت لفكرة هذا الخط لعدة أسباب[12]:

1 ـ أن أهمية البلاد العربية قد ازدادت بعد أن تقلص نفوذ الدولة العثمانية وممتلكاتها في أوروبا.

2 ـ كان السلطان عبدالحميد يسعى لتعزيز مكانته بصفته خليفة للمسلمين.

3 ـ بدأ السلطان عبدالحميد إصلاحات عامة في الجيش وبدأ يتوجه توجهاً إسلامياً وهذا يتطابق مع فكرة الخط الحديدي.

4 ـ بدأ السلطان عبدالحميد يفكر بالاستقلال المالي عن أوروبا[13] وبدأ في الوقت نفسه يتحالف مع دول أوروبية

---

(5) نوفان الحمود: ـ حركات العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

(7) راجع محمد عدنان البخيت، معان وجوارها استعراض تاريخي مجلة دراسات تاريخية ـ جامعة دمشق لجنة كتاب العرب 1983م.

(8) الخياري المدني هو ابراهيم عبدالرحمن الخياري المدني، رحلة الخياري تحفة الأدباء وسلوة الغرباء القاهرة وزارة الثقافة والاعلام، مديرية الثقافة العامة، ص ص 84/83. الخياري من شيوخ الأزهر وعلماء المدينة كانت رحلته في القرن الحادي عشر هجري.

(9) عبد الغني النابلسي (1143-1731) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز نسخة مصورة عن مكتبة أسعد افندي 2376 انظر الصورة في مركز الوثائق والمخطوطات ـ الجامعة الأردنية عمان تحت رقم 573، ص ص 384-384.

(10) محمد كرد علي، سكة الحجاز المقتطف نوفمبر 1904، ص ص 970-980.

(11) William Oschsenwald, the Hijaz Railway (univ. press of Virginia, 1980).

(12) Ibid.

(13) كانت فرنسا صاحبة الامتياز في ادارة السكك الحديدية في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

كبيرة لتحقيق أهدافه الداخلية، مثلاً أن تحالفه وعلاقاته مع المانيا هيأت الفرصة للاستفادة من الخبرة والمساعدة الألمانية في مد الخط.

5 ـ تأييد اثنين من كبار الشخصيات العربية لفكرة مد الخط وهما عزت باشا العابد أمين سر السلطان وهو من دمشق والثاني الشيخ أبو الهدى الصيادي (من قرى حلب) كان يؤيدان فكرة مد الخط ويشجعان السلطان عليها ويدعمانها.

بداية العمل

وفي تشرين الأول 1899 بدأ العمل بالخط وسط ظروف صعبة جداً وكان القرار أن يبدأ العمل فوراً من دمشق إلى مكة المكرمة ثم إلى جدة بتكاليف عشرة ملايين من الجنيهات. وتشكلت لجنة للخط مقرها الآستانة وبيدها جميع الأعمال وكانت هناك لجنة فرعية في دمشق[14].

بدأ العمل بالخط بأربعين مهندساً نصفهم من العثمانيين المساعدين والباقي معاونون أجانب برئاسة (مايسنر) المهندس الألماني، وقد أثبت الجميع كفاءة عالية. أشرف مايسنر على مد الخط من دمشق حتى مدائن صالح ثم تولى التنفيذ بعد ذلك مهندس عثماني (مختار باشا) الذي تولى العمل من مدائن صالح حتى المدينة المنورة[15]. حملت الجماهير مختار باشا على الأكف في المدينة المنورة وأقسموا أن يمد الخط إلى مكة المكرمة ووصل الحماس إلى أن يمدوا الخط إلى حضرموت[16].

لقد كانت الحماسة لا توصف ولقد عمل الجميع بهمة ونشاط ووصل معدل العمل اليومي «ثلاثة كيلومترات».

أي أن العاملين وصلوا لمرحلة أن يمدوا ثلاثة كيلومترات يومياً وأنّ كل كيلومتر كلفهم (1500) جنيه بما في ذلك المحطات وأحواض المياه وغيرها من مرافق السكة وهذه أقل قيمة أنفقت على خط حديدي في العالم[17]، كان الجندي يتقاضى (قرشاً) عن كل متر مكعب و (ثلاثة قروش) عن كل متر مكعب من الصخر المتوسط وإذا زادت صعوبة الصخر زاد الأجر.

وصل راتب الجندي إلى جنيه ووصل أجر الضابط أربع (بارات) عن كل متر مكعب ولقد عمل في الخط الحديدي مدنيون وكانت رواتبهم مثل رواتب الجنود واشترك في العمل دوابهم من جمال وبغال وحمير[18].

عمل مع المهندس مايسنر (450) جندياً وخمسماية عامل من غير الجند تركز عملهم من دمشق لعمان ثم أصبحوا ألفاً، بعد ذلك[19] أخذ العدد يتزايد تدريجياً حتى وصل إلى (5700 رجل في عامي 1901-1902، وفي عام 1907 وصل العدد إلى 5700 رجل) كانت الدولة تشجع الجنود على العمل بتخفيض المدة الإجبارية واحتساب ثلاث سنوات بدلاً من أربع ثم تشجيعهم بالعلاوات والترقيات والأوسمة[20].

كانت معاناة الجنود كبيرة بسبب الأمراض وقد اتخذت الدولة ترتيبات صحية في عام 1907، فقط لمقاومة الأمراض التي انتشرت من (التفوئيد والكوليرا والدوزنطاريا)[21]. . .

التمويل:

اعتمد العثمانيون على الأمور التالية:

أ ـ إعانات من سكان الولايات وكانت أكبر المبالغ من مسلمي الهند ومصر[22] بالرغم من أن المعتمد البريطاني

---

(14) المصدر نفسه، اللجنة الأولى مهمتها جمع التبرعات واللجنة الثانية مهمتها التنفيذ.

(15) عين صادق باشا المؤيد العظم مساعداً ولمايسنر، ولمايسنر باع طويل في انشاء خطوط السكك الحديدية واكتسب خبرة في بغداد ومنحه السلطان لقب باشا. كان أكثر المهندسين مع مايسنر من المانيا.

(16) المقتطف ج 1 مجلد 33 اكتوبر 1908، ص 812.

(17) محمد كرد علي، مصدر سابق، ص 972.

(18) المصدر نفسه.

(19) المصدر نفسه.

(20) Oschénwaid, op. cit.

(21) Ibid.

(22) محمد كرد علي، سكة الحجاز، المقتطف نوفمبر 1904، ص ص 971-980.

«كرومر» لم يوافق على فرض ضريبة على المواطنين المسلمين في مصر مقدارها (خمسة قروش)[23]. اتخذ الخط طابعاً إسلامياً شاملاً ولم يعد مجرد خط عثماني فقط، بل شاركت فيه دول إسلامية وتلقته الأمة الاسلامية كعمل وطني لتخفيف عناء السفر عند حجاج المسلمين وإعمار البلاد.

ب ـ صدرت طوابع لتوضع على المعاملات الرسمية.

ج ـ فرضت ضرائب على امتيازات المعادن والأراضي الأميرية وأخذت تتقاضى كل سنة عُشر شهر أيار من المأمورين الذين تتجاوز رواتبهم شهرياً (500) قرش سواء أكانوا عسكريين أم مدنيين، حاولت الدولة تأمين الموارد اللازمة من المصادر الداخلية ولكن محاولاتها لم تتوقف فاستوردت الكثير من (بلجيكا وألمانيا والولايات المتحدة).

يروي محمد كرد علي بأن البعض تبرع ووصل تبرع أحدهم 10,000 جنيه دون أن يذكر اسمه ويقول بالحرف: ـ

«وتلكأ بعض ممّن جرت عادتهم أن يكونوا أول الباذلين في كل ما تريد الدولة القيام به من الأعمال لأنهم كانوا في شك من إتمام العمل، ولما أخذت أمارات الهمّة تبدو حيناً بعد آخر أخذ الهنود والمصريون يشتركون في مد يد المعونة وقد جاء بعض المكتتبين بليرة أو ليرتين لكل كيلومتر ودفع بعضهم عشرة آلاف جنيه دون أن يعرّف اسمه...»[24].

أهمية الخط

أثّر الخط في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ويمكن استعراض بعض من فوائد هذا الخط:

الناحية العسكرية: أصبح الخط وسيلة سريعة لإحباط أي تمرد عسكري حيث تحقق للدولة فائدة ثمينة في حشد قواتها بواسطة هذا الخط وبطريقة أسرع. فعلى سبيل المثال فإن الدولة أرسلت في عام 1904 ثلاثة آلاف جندي للقضاء على عصيان البدو بين ينبع والمدينة ووصلت القوة إلى معان ثم سارت للعقبة سيراً على الأقدام واتجهت بحراً إلى ينبع، وفي عام 1905 أرسلت الدولة بالطريقة ذاتها ثمانية وعشرين طابوراً من دمشق إلى الحديدة في اليمن خلال أسبوعين، وفي عام 1908 أرسلت الدولة تعزيزات إلى المدينة عندما وقع عليها هجوم القبائل[25].

وفي عام 1910م أخمدت ثورة الكرك بالسرعة ذاتها، كان شيوخ الكرك قد اتفقوا على إعلان الثورة في 1910/11/23. قبل هذا التاريخ المحدد هاجمت عشائر الكرك ضمن حدودها الموظفين والجنود الأتراك ودخل الثوار المدينة وحاصروا الموظفين في القلعة. تشجع البدو القريبين وهاجموا موظفي الإحصاء والخط الحديدي الحجازي من المدورة إلى الجيزة ولو كان لديهم متفجرات لنسفوا الجسور بعد مهاجمة المحطات. في يوم 1910/11/29 جاءت نجدة عن طريق الخط الحديدي الحجازي بعد إصلاحه. تجمعت القوة في القطرانة وسيطرت على الوضع في أيام معدودات[26].

الناحية الاقتصادية: بالرغم من أن الدولة أرادته خطاً عسكرياً حربياً لا تجارياً[27]، إلاّ أنها أخذت النواحي الأخرى الاجتماعية والاقتصادية بعين الاعتبار. فعلى سبيل المثال فإن الدولة من البداية اختارت الطريق التاريخي للقوافل وهو الأكثر عمراناً ومياهاً وأن الخط يسير في أرض زراعية. من أبرز النواحي الاقتصادية الهامة هي:

أ ـ الخط أثبت احباط محاولات لإنجلترا في عرقلة أعمال الدولة العثمانية في خدمة بلادها ولقد جاء الخط ليجعل الدولة وحلفاءها يستغنون عن قناة السويس الواقعة تحت سيطرة بريطانيا، وظهرت فكرة إحياء طريق تجاري جديد إذا ربط الخط الحديدي الحجازي بخط بغداد وفي هذه فائدة ليست

(25) راجع المقتطف عدد 1/شباط 1908 مجلد 33 لتلاحظ توزيع القوات العثمانية بأنه قد كان في سالونيك، الاستانة، ادرنه، اذربجان، دمشق، صنعاء، بغداد، راجع مقال (الجيش العثماني) في المجلد المذكورة وراجع:

Oschsenwald, op. cit.

(26) مذكرات عودة القسوس 1877-1943 وثورة الكرك وثائق ووقائع من تاريخ شرق الأردن خلال 70 عام (مخطوط 1943). انظر ص ص 65-76.

(27) محمد كرد علي، المقتطف مرجع سابق، ص 973. الخط كان بعرض 105 سم يقطع المسافة 25 كم في الساعة ولو كان بعرض 150 لقطعها في 80 كم. الدولة راعت الناحية الاقتصادية.

اقتصادية بل عسكرية أيضاً[28].

ولقد حقق هذا الخط بطرقه المختلفة تحسين أحوال المعيشة للشعب على هذا النحو:

(1) انخرط سكان المدن القريبة من الخط في أعمال السكة. بعضهم انصرف عن الزراعة كما حصل في مدينة معان.

(2) نشّط الخط الزراعة في مناطق أخرى. ويروي محمد كرد علي بأن الخط أثّر على الزراعة ونشطت في مناطق قريبة من الخط. إن بعض السوريين من أعيان دمشق استصفوا مئات من الأفدنة ليزرعوها. كما أن الدولة بدأت تهتم بالأراضي الزراعية وتضيفها لأملاكها[29].

(3) أثّر الخط على حركة الهجرة في أرجاء الدولة، مثلاً في مدينة حيفا ارتفع عدد السكان من الستة آلاف عام 1880م - إلى 22 ألف عام 1914[30] وفي باقي المناطق حيث وجدت محطات صيانة وإصلاح قطارات فإن المهاجرين تدفقوا، مثلاً تدفق المهاجرون إلى مدينة معان من سوريا ومصر وقطاع غزة[31]، وتدفق المهاجرون إلى عمان أيضاً وظهر حي كامل باسم بعض المهاجرين من معان[32].

(4) ساعد اختراق الخط لأراضي حوران وجنوب الأردن في دعم الحركة التجارية ونقل شحنات القمح من حوران إلى حيفا ثم بنغازي لينقل القمح إلى هناك ثم تعود السفن محملة بالملح. وساعد الخط على نقل الماء عن طريق القاطرات، وحفر العثمانيون آبار جديدة أو رمّموا القديمة. كانت واردات الخط الحديدي الحجازي تغطي نفقاته على عكس الخطوة الفرنسية التي لم تكن وارداتها تغطي نفقاتها[33].

(5) إن الأهمية الاقتصادية للخط الحديدي الحجازي ليست جديدة إذ إن القوافل على طريق الحج الشامي كانت تقوم بالدور نفسه كما لاحظ «باربير» Barbir، وأن طريق القوافل قبل الخط الحديدي الحجازي كانت عامرة بالحركة التجارية، وأن البضائع كانت تأتي من الكرك والخليل وحوران والشوبك إلى قلاع الحج[34].

خاتمة

يمكن أن نجمل ملخص الدراسة بما يلي:

(1) يُلاحظ أن الخط الحديدي الحجازي هو استمرار لدور القوافل بين بلاد الشام والجزيرة العربية من عهود معين وسبأ وحتى اليوم.

(2) يلاحظ أن الخط الحديدي الحجازي يقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به القوافل في توطيد أواصر العلاقات بين بلاد الشام والجزيرة العربية. وأن العلاقات بين بلاد الشام والجزيرة كانت تؤثر في الحركة التجارية والاجتماعية على طول طريق القوافل في عهود معين وسبأ ثم العهد الإسلامي وبالتحديد العهد الأموي والعماني، وأن الأمويين والعثمانيين قد تشابهوا في موضوع الاهتمام بالجزيرة العربية وبالتحديد الأراضي المقدسة. ولقد انعكست آثار ذلك على طرق القوافل وانتعشت وازدهرت الحركة على طرق القوافل حيث وصلت هذه الاهتمامات ذروتها في الخط الحديدي الحجازي.

(3) يمكن القول إن الخط الحديدي الحجازي توخّى أهدافاً أكثر شمولاً من طرق القوافل، وأن للخط الحديدي الحجازي أهدافاً عسكرية ودينية واجتماعية، وأن هذه الأهداف لم تكن قد ظهرت في أذهان الأمويين أو غيرهم من الذين أولوا طرق القوافل اهتماماتهم.

(4) أصبح الخط الحديدي الحجازي منافساً لقناة السويس على صعد مختلفة بعضها تجاري وبعضها عسكري وبعضها استراتيجي.

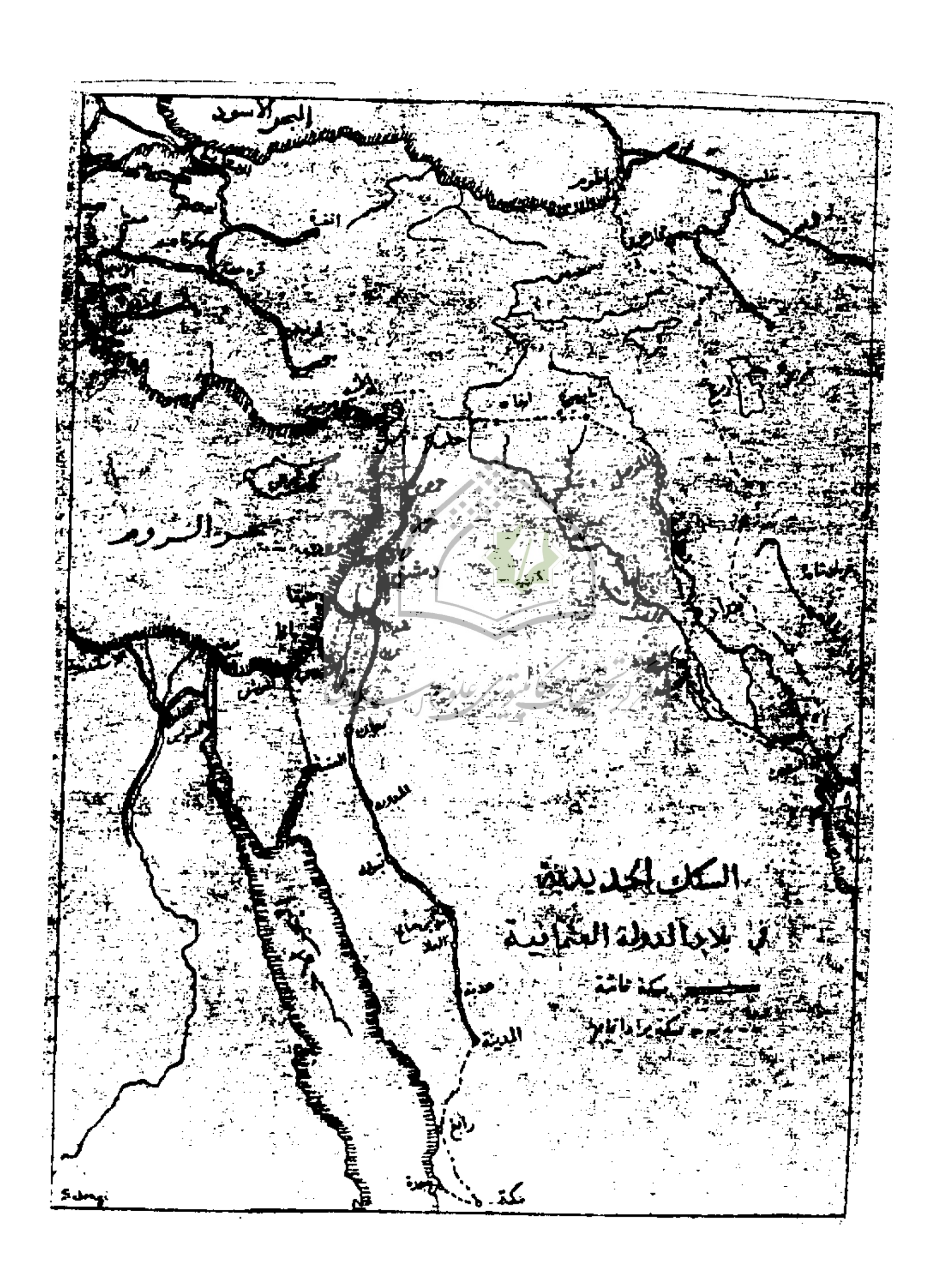
---

(28) السلطان عبدالحميد الثاني، مذكراتي السياسية 1891-1908 (بيروت: مؤسسة الرسالة 1982) ص ص 126-128، 106 ,67.

(29) المقتطف، «سكة الحجاز» نوفمبر 1904، ص 974.

(30) Oschsenwald, op. cit.

خارطة (1)


البحر الأسود
بحر الروم
السكك الحديدية
في بلاد الدولة العثمانية
سكة قائمة
المدينة
مكة
Sdegi

ملحق (2)

مدينة منوره دن شامه قدر عودت مرحلة لري					
قوناق	ساعت	اسامىء مراحل	قوناق	ساعت	اسامىء مراحل
00	00	مدينة منوره دن	19	03	تبوك
01	03	جرف	20	12	قاع الصغير
02	02	بئر الصغير	21	13	ذات الحج
30	11	بيار ناصيف	22	08	مدوره
04	10	فحلتين	23	13	بطن الغول
05	13	ديسة العظام	24	06	عقبة
06	06	هديه	25	06	بئر الشيويه
07	12	براقه	26	12	معان
08	06	بئر جديد	27	10	عنيزة
09	08	بئر الزمرد	28	12	حسا
01	12	سهل مطران	29	12	قطرانه
11	10	مداين صالح	30	14	بلقا
12	08	جبل أبو طامه	13	10	زرقه
13	10	دار الحمره	32	12	مفرق
14	07	مفرش البزبير	33	10	رمته
15	12	معظم	34	05	مزيريب
16	08	جناين القاضي	35	07	كتيبه
17	06	أخضر	36	05	كسوه
18	13	ظهر المعز .	37	03	شامشريف
		مراحل 37			ساعت مسافة 343
موكب حج شريف محمل وصرة همايون ايله برابر صره امينتك زير نظار تنده وحج محافظتك تحت محافظه سنده اوله رق شهر					

ملحق (3)

1 ـ اتخذ القرار بإنشاء الخط يوم 1900/5/2 للدفاع عن الدولة ضد الهجمات الأجنبية.
2 ـ وصل الخط إلى المدينة في آب 1908. افتتح يوم 1908/9/1 عيد جلوس السلطان. رافق الرحلة الوفد السلطاني.
3 ـ وصل الخط إلى معان في 1904/9/1 يوم جلوس السلطان. رافق الرحلة الأولى وفد سلطاني.
4 ـ أول قسم من الخط تم بناؤه بين:

المزريب ـ درعا ـ الزرقاء	250كم	في الأعوام 1902-1903
دمشق ـ درعا	124 كم	
الزرقاء ـ القطرانة	123 كم	
حيفا ـ درعا	168 كم	1903-1905
المدورة ـ تبورك	120 كم	1906/9/1 افتتاح
تبوك ـ المدينة	610 كم	1908/9/1 افتتاح

بلغ عدد الجسور 950 جسراً على الخط الرئيسي وفروعه، أهمها في وادي اليرموك ووادي الأردن بين حيفا ودرعا منها ستة جسور حديدية والأخرى من الحجر.

6 ـ هناك ستة أنفاق يتراوح طولها بين 40-170م.
7 ـ تم إنشاء خطوط فرعية: حيفا ـ عكا 1911-1913.
درعا ـ بصرى 39 كم
القدس ـ بئر السبع
عنيزة ـ الشوبك

8 ـ مجموع المحطات 96 استمر العمل بها حتى عام 1914. من هذه المحطات الرئيسية: دمشق ـ درعا ـ حيفا ـ معان ـ تبوك ـ مدائن صالح ـ المدينة

9 ـ في عام 1914 كان هناك ثلاث سفرات في الأسبوع من دمشق إلى المدينة تستغرق 56 ساعة، وكانت من قبل تستغرق أربعين يوماً تقريباً.



علاقات الكويت الخارجية
خلال القرن الثامن عشر

د. ميمونة خليفة الصباح

كلية الآداب ـ جامعة الكويت

مقدمة

بالرغم مما يلقاه تاريخ الكويت من اهتمام الباحثين المختصين في الوقت الحالي لاسيما من العرب والكويتيين إلاّ أنه لا يزال يحتاج إلى المزيد من الاهتمام والبحث في كثير من جوانبه، وذلك أن اهتمام وعناية المهتمين لم يبدآ إلاّ منذ فترة قريبة جداً، لذلك فإنهم لم يغطوا كافة مراحله بل إن تاريخ الكويت الحديث وهو تاريخ قريب جداً ولا يتعدى فترة الثلاثمائة عام لا يزال الغموض وعدم الوضوح يكتنف بعض النواحي الأساسية فيه لاسيما في مراحله الأولى منذ مطلع القرن الثامن عشر، ثم يتعدى الغموض ذلك القرن ليصل إلى منتصف القرن التاسع عشر. ولا شك أن القصور وعدم الوضوح في تاريخنا يعود إلى عدم الاحتفاظ بأصولنا التاريخية وإهمال جمعها ومتابعتها.

كما أن اهتمام الدارسين غالباً ما ينصبّ على المراحل الحديثة جداً والمعاصرة والواقعة بين نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن الحالي وذلك نتيجة لتوافر المادة العلمية اللاّزمة لتلك الدراسات. كما أن الدراسات جاءت بشكل اجتهادات فردية متفرقة ومتناثرة ولا يمكن أن تشكل تاريخاً متكاملاً للكويت، وهذا ما دفعني إلى العمل الجاد بكل جهد ومثابرة سعياً للوصول إلى غاية عزيزة صعبة المنال وهي إعادة كتابة تاريخ الكويت بطريقة علمية معتمدة على المصادر الأولية المتوافرة في الوثائق الإنكليزية الموجودة في دور الوثائق البريطانية والتي سأبيّنها في قائمة المراجع والمصادر، ثم بعض الوثائق العثمانية، إلى جانب الدراسات التي سبقتني في تناول جوانب معينة من تاريخ الكويت سواء الأجنبية منها أم العربية ثم المصادر والمراجع المعتمدة والموثوق بها، والتي تدخل الكويت ضمن اهتمام مؤلفيها.

وما بحثي هذا إلاّ حلقة من حلقات محاولاتي الجادة لإعادة كتابة تاريخ وطني الحبيب الكويت، وتمثلت هذه المحاولة بشكل بحوث متتالية من الناحية الزمنية والموضوعية بحيث أجمعها في النهاية بكتاب من عدة أجزاء تكتمل من خلال هذه الأجزاء دراسة كاملة لتاريخ الكويت. وقد قمت بنشر بعض هذه الأبحاث في مجلات علمية محكمة معترف بها حرصاً مني على مستوى هذه الدراسة من ناحية، وللاستفادة من رأي أساتذتي مستشاري التحرير في هذه المجلات العلمية في تعديل ما يستدعي التعديل وسدّ أي ثغرة أو نقص يعتري هذه الدراسة من ناحية أخرى.

وفي نهاية مقدمتي أتضرع إلى الله العزيز الحكيم أن يوفقني في تحقيق هذه الغاية الغالية والهدف النبيل الذي أسعى إليه بإصرار وصبر.

علاقات الكويت الخارجية
خلال القرن الثامن عشر

كان من أهم ما اتسمت به سياسة الكويت الخارجية منذ استقرار العتوب فيها وتأسيس حكمهم على أرضها هو السلم الذي تشتق منه وجودها واستقرارها ونموها، وبالتالي فإنها حرصت على الالتزام به والمحافظة عليه في ذات الوقت الذي تمسكت فيه بالحياد وعدم التورط في عداء مع القوى والدول المجاورة أو الانحياز، إلى واحدة من تلك القوى المتصارعة في المنطقة لكي لا يجرها هذا الميل إلى الدخول في حرب لا تريدها. ولم تدخل الكويت حرباً إلاّ دفاعاً عن نفسها.

ولا شك أن تقيد الكويت بتلك السياسة منذ تلك الفترة المبكرة من عمرها يعود إلى إدراك حكام الكويت منذ البداية أن الحياد هو الضمان الأفضل لاستمرار بقاء ووجود دولة صغيرة وضعيفة. لذلك وعبر تاريخها باستثناء فترة الحماية البريطانية عليها وضعت الكويت سياستها الخارجية على أساس نهج حيادي في الصراع مع القوى المحيطة بها. وعرفت الكويت أن حيادها يضمن استقلالها السياسي بالمفهوم السائد في حينه، كما يحافظ هذا الحياد على كيانها الإقليمي بصورة دائمة. وبالرغم من أن الكويت سعت في البداية للحفاظ على التوازن في علاقتها مع الدول الأقوى منها والمحيطة بها دون أن تتحصل من تلك الدول على نص مكتوب تتقيد فيه هذه الدول الأكبر بضمان استقلال الكويت السياسي والمحافظة على كيانها الإقليمي[1]، إلاّ أن هذه السياسة التي اتبعها حكام الكويت نجحت بالفعل في تأكيد استقلال الكويت على مرّ السنين.

وما دمنا في مجال الكلام عن الاستقلال الذي حرصت عليه الكويت منذ عهدها المبكر، فلا بدّ لنا من التطرق إلى إشارات بكنجهام (Buckingham)[2] حول استقلال الكويت، وذلك على الرغم من أن هذه الإشارات جاءت في فترة لاحقة لتأسيس حكم آل الصباح. فقد زار الرحالة الانكليزي المذكور المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر (عام 1816م) ولفت نظره أن تكون الكويت حتى في تلك الفترة المبكرة من تاريخ المدينة «قد احتفظت باستقلالها دوماً، وذلك حتى في الوقت الذي خضعت فيه هرمز ومسقط والبحرين والإحساء لحكم أجنبي، كذلك فإن القطيف والبصرة وقد كانتا تخضعان للأتراك، خضعتا لحكم البرتغال من قبل، حين داهموها بجيوشهم». وأهل الكويت معروفون بأنهم أكثر أهل الخليج حباً للحرية والإقدام[3].

ولا شك أن تلك هي شهادة مشرفة للكويت وأهلها من رحالة أوروبي ينتمي إلى دولة مستعمرة لها من الأطماع الشيء الكثير في الكويت والمنطقة بأسرها.

ويؤكد تمتع الكويت بالاستقلال على الدوام أيضاً الكابتن بلي (Pelly) المقيم السياسي الإنكليزي في الخليج الذي كان من حسن الحظ يزور الكويت عام 1863م ويدوّن عنها ملاحظات هامة جداً ومفيدة لإعطاء صورة تاريخية واضحة عنها في تلك الفترة التي عزّت فيها المصادر التاريخية المهتمة بالكويت لاسيما الوثائقية منها وكانت ملاحظات «بلي» دقيقة جداً تنطق عن درايته التامة بالمنطقة[4] وهو يشير إلى استقلال الكويت من خلال عرض له في صدر تقريره لأنواع الحكومات في منطقة الخليج وأي منها تتبع شاه فارس، وأي منها تتبع السلطان العثماني، ثم وضع جدولاً بأسماء إمارات أخرى سمّاها بالإمارات التي تخضع فعلياً لشيوخها دون أي خضوع من هؤلاء الحكام لشاهٍ أو سلطان، وأكد أنها خاضعة لزعماء عرب مستقلين، وكان من بين تلك الإمارات الأخيرة إمارة الكويت[5].

ومن ناحية أخرى، فإلى جانب حرص الكويت على

---

(1) د. حسن الابراهيم (الكويت) دراسة سياسية، ص 40-41.

(2) بكنغهام: رحالة انكليزي يتحدث بغزارة عن الخليج العربي وهو مصدر مفيد لاسيما فيما يتعلق برحمة بن جابر الجلاهمة، كما أنه يورد تفاصيل هامة عن الكويت، في صفحات 370 و462 و462 عن أبو حاكمه «تاريخ الكويت الحديث»، ص 198.

(3) Buckingham: Travels in Assyria etc. p. 370.

(4) Lewis Pelly-Recent tour around the northern portion of the Persian Gulf.

(5) Pelly Remarks: 70-74.

استقلالها وما اتصفت به سياستها الخارجية من حرص على السلام والحياد فقد كان من أولويات سياستها في تلك الفترة المبكرة إقامة علاقات ودية مع مختلف القوى التي تجاورها، غير أنها أكدت من خلال معالجتها للأحداث ومن خلال علاقتها الوثيقة بجيرانها أن هذه الصداقة يجب ألا تعني بحال من الأحوال الخضوع لحكم أجنبي. وتأكيداً لما ذهبنا إليه بهذا الشأن نجد الكويت وسط ذلك التيار المتصارع من القوى في المنطقة تمارس نوعاً من الاستقلال الذاتي، على الرغم من محافظتها على ولائها لبني خالد وللدولة العثمانية المتمثلة بولاية البصرة.

وبذلك نجد أن سياسة الكويت اتسمت بالحكمة والتعقل في التعامل مع كافة القوى في المنطقة وفي الحفاظ على استقلالها وحريتها وحيادها وصداقتها للجميع، فعرفت كيف تبني علاقاتها الطيبة مع جيرانها في الوقت الذي لا تسمح به لأي من هذه القوى بالاعتداء عليها.

ولا شك أن سياسة الكويت الحالية التي تقوم على العلاقات الطيبة مع الجميع مع الاحتفاظ بالحياد والسلام وحفظ التوازن والتي حققت استقلالها بواسطتها تعود إلى تلك الفترة المبكرة مع الاختلاف في تقبل تلك المفاهيم والعمل بها تبعاً لاختلاف الزمن والظروف المتغيرة.

وقد أشاد «بلي» بتلك السياسة التي انتهجتها الكويت منذ البداية فيقول «.. وسياسة الكويت الجارية هي الحفاظ على الأمن والسلام داخل المدينة وخارجها أي مع جيرانها، وهي لا تدفع زكاة للأمير فيصل (الوهابي) لكنها تحتفظ بعلاقات صداقة معه»[6]. ويثني «بلي» على الشيخ صباح بن جابر لحسن إدراكه لمفاهيم السياسة المحلية في الخليج، كما كان يدركها والده الشيخ جابر وذلك من خلال قصة سردها الشيخ صباح على الكولونيل «بلي» الذي سجلها بالإنكليزية. وهذه ترجمة لها: «عندما بلغ والدي المائة والعشرين من عمره، ناداني إليه، وقال: يا ولدي إنك تعلم أنني سأفارق الحياة. إنني أموت فقيراً دون أن أترك لك ثروة أو نقوداً، غير أنني كوّنت في حياتي صداقات حقيقية خالصة مع أناس عديدين، عليك أن تعتمد على هؤلاء. انظر إلى القوى المختلفة من حولك في منطقة الخليج تجد أنها قد تساقطت بسبب الظلم وسوء الإدارة ولكن إمارتي كانت دائماً تقوى وتتسع. تمسّك بسياستي، ومع أنك محاط بقبائل كانت ذات يوم معادية، وهي ما زالت حتى يومنا هذا غير مستقرة أو متحضرة، فلسوف تتقدم مشيختك وتزدهر».

وكان مما لفت نظر بلي أيضاً وشدّ إعجابه في شخص الشيخ صباح بن جابر بن عبدالله الصباح سعة أفقه واطلاعه على أمور كانت تجري بعيداً عند دار حكمه. ذلك أن الشيخ وقومه كانوا على صلة بما يجري من أحداث في أوروبا نتيجة لاطلاعهم على صحيفة عربية كانت تصدر في باريس وترسل إليهم من هناك، ولعلّ هذا الاطلاع على الأخبار الأجنبية والمحلية وهو الأمر الذي أدهش «بلي»[7]، هو أمر مدهش فعلاً.

هذا، وكان لا بدّ أن يسترعي النمو السريع الذي شهدته الكويت في تلك الحقبة انتباه القوى الأخرى في الخليج العربي لاسيما وأن الكويت قد اعتمدت اعتماداً كليّاً على سياستها الخارجية في تنمية اقتصادها وذلك نتيجة لقلة مواردها الطبيعية خاصة المياه، مما جعل ميادين الكسب المادي تنحصر في التجارة وحركة النقل البحري والبري مع الجهات الخارجية بصورة رئيسية. وتبعاً لذلك فقد اضطرت إلى الاحتكاك بالقوى المحيطة بها سلباً وإيجاباً، فوقفت بعض القوى المجاورة منها موقف المعاداة بعد أن عجزت عن منافسة موانئها التي أثّر ازدهارها على موانىء تلك الدول تأثيراً عكسياً، لذلك اتجهت إلى الانتقام منها ومهاجمتها كلّما سنحت لهم الفرص لتنفيذ خصومتهم[8]. بينما وقف البعض الآخر من القوى المحيطة بالكويت موقف اللامبالاة فلم يكن لها تأثير يذكر على نمو الكويت السياسي والاقتصادي، بل لعلّ

(6) Pelly: Remarks - 74.

(7) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص ص 202-206.

(8) رنده المصري قطينة، في مجلة الوثيقة التاريخية البحرينية، العدد الأول، ص 189.

إن الوحدة منعدمة بين سائر مدنها، فكل أمير كان مستقلاً

الشيخ صباح قَبِل بهذا الاتفاق رغم ما تضمنه من قيود، على

الكويت استفادت مما أصاب تلك القوى واستغلّت نقاط ضعفها لصالحها فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد، ولا بدّ لنا من معالجة طريقة تعامل الكويت وعلاقاتها مع هذه القوى كل على حدة لكي نتبين كيف تمكنت الكويت من الصمود أمام جميع المخاطر والتحديات وكيف واصلت اطراد نموّها وازدهارها وسط ذلك الزخم المتصارع من القوى الأكبر المحيطة بها الذي يتمثل ببلاد فارس والأتراك والشركات الإنكليزية والهولندية والفرنسية، وبني خالد، بعد أن بزغ نجم الحركة الوهابية صار لا بدّ من ضمها إلى تلك القوى بالإضافة إلى بعض القوى البحرية العربية.

قبيلة بني خالد:

هي قبيلة كبيرة ومن أقوى القبائل العربية التي كانت تقطن السواحل الشمالية من الخليج العربي في ذلك الوقت وكان سلطانها يمتد من شبه جزيرة قطر جنوباً حتى البصرة شمالاً بمحاذاة ساحل الخليج من ناحية ووسط الجزيرة العربية من ناحية أخرى، ولقد بقيت هذه القبيلة التي ظهرت إلى مجال السيطرة منذ أوائل القرن السادس عشر[9]، وتمت على شكل شبه تنظيم سياسي حين أصبح شيوخها بشكل رسمي هم حكام شرقي جزيرة العرب منذ القرن السابع عشر حتى انتزعوا الحكم من الولاة العثمانيين حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر حتى استولى الوهابيون على ديار بني خالد.

ويرجع بنو خالد في أصولهم إلى عرب الشمال والعدنانيين الذين تنزل قبائلهم في ديار نجد وساحل العدان الممتد إلى أطراف الكويت الشمالية. ونظراً لنشأة الكويت في ظل حماية بني خالد ولكونهم هم أصلاً أصحاب تلك البقعة من الأرض التي قامت عليها الكويت الحديثة حين منحوها للعتوب وسمحوا لهم بالاستقرار فيها وإقامة حكمهم وإمارتهم فيها، لذلك رأينا أن نبدأ الحديث عن علاقات الكويت الخارجية بالتطرّق لعلاقتها بحماتها بني خالد في ديار حكمهم في منطقة الحسا وشرقي الجزيرة العربية حيث كان بمقدورهم أن يتحدّوا تحرشات جميع القوى الخارجية الخطرة، مما أتاح الفرصة للكويت في ظل هذا الأمن الخالدي أن تنشأ وتترعرع بدون خوف[10].

أما عن نوع العلاقة التي قامت بين العتوب وبني خالد فعلى الرغم من نظرة المؤرخين المعاصرين على أن الكويت قد خضعت خضوعاً مباشراً لحكم بني خالد اعتماداً على روايات بعض الرحالة الذين زاروا المنطقة في ذلك الوقت مثل «نيبور» Carsten Neibuhr الذي لم يزر الكويت وإنّما سجّل ملاحظاته اعتماداً على ما سمعه عنها حيث يقول نيبور (فرين) محكومة من شيخ معين - تابع لشيخ الإحساء لكنه يطمح بالاستقلال. وفي مثل هذه الحالات وحين يتقدم شيخ الإحساء بمقاتليه يتراجع سكان فرين بممتلكاتهم إلى جزيرة فيلكا الصغيرة»[11].

غير اننا نشك في تبعية الكويت المباشرة لبني خالد في أي وقت من الأوقات وذلك أن اعتماد المؤرخين فيما ذهبوا إليه بهذا الخصوص على الرحالة الأوروبيين يجعل الأمر موضع شك. فنظرة الرحالة لم تكن صحيحة فيما يتعلق بالتبعية المباشرة أو غير المباشرة لعدم تفهمهم الكامل لطبيعة الحكم القبلي التي تختلف اختلافاً كلياً عن نظم الحكم الأوروبية للبلاد التي جاءوا منها. كما أن فترة بقائهم في المنطقة دائماً تكون قصيرة جداً ولا تتعدى المرور وقد يبنون أحكامهم على السمع دون أن يزوروا البلاد التي يتكلمون عنها مثل حالة الرحالة نيبور والرحالة بكنجهام وغيرهما، ونظراً لعدم الاهتمام بدراسة تاريخ المنطقة في تلك الفترة وعدم وجود المؤلفات الأوروبية بلغاتهم التي تعينهم على دراسة أحوال المنطقة ونظمها، فغالباً ما تكون أحكامهم قاصرة وغير مسلّم بها لاسيما إذا صدر الحكم على أمور غريبة عنهم في بلاد لم

(9) د. جمال زكريا قاسم موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الإحساء (مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية). المجلد 17 سنة 1970.

(10) د. أبو حاكمة، نفس المصدر ص ص 19-21.

(11) Carsten Niebuhr, Travel through Arab and other countries in the East, translated by Robert Heron, Vol. 2 (Edinburgh and London, 1972), p. 127.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المراحل الأولى من بدء استقرارهم في وطنهم الجديد الذي اتخذوه منطلقاً لإنشاء إمارتهم وحكمهم[19]. وكانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بنوع من التبعية لحكم بني خالد ولو كانت تلك التبعية إسمية، ولذلك كان من المتوقع حينما داهمت بني خالد الغزوات السعودية في الفترة من 1785 إلى 1795 أن يبادر التابع لنجدة متبوعه، ولكن الشيخ عبدالله بن صباح كان متردداً بين أمرين:

الأول: تقديم العون لبني خالد والانضمام إليهم في حربهم مع السعوديين ومعنى ذلك أن يستمر على ولائه لهم.

الثاني: مساعدة السعوديين في إسقاط أسرة بني خالد.

وقد يكون الشيخ مقدّراً أن الأمر الثاني سيترتب عليه انطلاق الكويت في إحدى المراحل العامة لتأكيد استقلالها وتخلصها من أي نوع من التبعية لبني خالد، إلاّ أنه مما لا شك فيه أن الشيخ عبدالله كان يدرك في ذات الوقت قوة الضغط السعودي لاسيما في تلك المرحلة التي اندفع فيها الموحدون بشكل تعصبي بالغ بهدف نشر الدعوة الوهابية في سواحل الخليج العربي وما سيترتب على ذلك بالضرورة من تعرض إمارته لخطر مجاورتها لنفوذ السعوديين في الإحساء، خاصة وأن الشيخ بدأ يحس بالآلام التي يتعرض لها شعبه نتيجة تعرض الكويت بشكل واضح وجدي لمناوشات السعوديين القاسية، خصوصاً بعد قدوم القائد السعودي إبراهيم بن عفيصان بجماعة من قبائل الخرج والعارض والسدير إلى الكويت وقيامه بمهاجمتها وحصوله على قدر كبير من الأسلاب، لذلك كله حرص الشيخ عبدالله أن يبدو في مسلكه واقفاً على الحياد في الصراع الدائر، ولكن من المؤكد أنه كان يتعاطف مع القوتين المتحالفتين وهما العثمانيون وبنو خالد في صراعهما ضد السعوديين[20].

وكان تقدير شيخ الكويت أن إمارته تتمتع باستقلال ذاتي في ظل العثمانيين وبني خالد ولكنه لا يضمن أن تستمر مشيخته متمتعة بذلك الاستقلال في ظل السيطرة السعودية، على أنه من ناحية أخرى كان حريصاً على ألاّ يظهر من خلال تقديم الكويت عونها للعثمانيين وبني خالد تأكيداً لتبعيتها لهاتين القوتين. لذا، قرر أن يكتفي بتقديم المساعدات لشيخ المنتفق الذي كلف من قِبَل والي بغداد بإعداد قوة كبيرة بالتحالف مع شيوخ بني خالد لمقاتلة السعوديين، وتم ذلك بالفعل حين جمع الشيخ عبدالله جميع إمكانيات الكويت البحرية في خدمة العمليات الحربية، واستخدمت السفن الكويتية لنقل قسم كبير من قوات الشيخ ثويني إلى الإحساء، إلاّ أن النتيجة لم تكن طيبة ومشجعة على أية حال[21]، إذ تفرقت تلك القوات وقتل ثويني في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين[22]، وعقب ذلك نجح السعوديون في الاستيلاء على الإحساء وتأكيد نفوذهم في المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية. مما ترتب عليه أن أصبحت الكويت ملامسة للقوة السعودية التي راحت تتاخمها من الجنوب. وعلى الرغم من أن الكويت استفادت من سقوط أسرة بني خالد على المدى الطويل في تأكيد استقلالها والتخلص من الارتباط الذي كان قائماً بينها وبين هذه الأسرة في عهد الشيخ صباح الأول ـ والذي أشرنا إليه سابقاً ـ إلاّ أن شيوخ الكويت اعتباراً من ذلك التاريخ أخذوا يتعرضون لهجمات سعودية مباشرة وعنيفة[23].

هذا، ولما كانت مدن العتوب ودويلاتهم الصغيرة قد نشأت وتأسست في ظل حماية بني خالد وأن هذه المدن عندما نمت وازدهرت وازدادت أهميتها وتوسعت وضمت إليها أراضٍ جديدة بفتح البحرين بعد الزبارة، ولما لم يرد ما يفيد تغيير مسلك شيوخ بني خالد تجاه زعماء العتوب في كل من الكويت والزبارة والبحرين. لذا، فقد استمرت العلاقات الودية قائمة بين خالد والعتوب بل إن الأخيرين قدموا مساعدتهم لبني خالد في اللحظات الأخيرة من تاريخ حكم

(19) د. عثمان بن سند، سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ص 8.

(20) للمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى مقال الأب انستاس الكرملي عن الكويت في مجلة المشرق، العدد العاشر لسنة 1952، ص 45.

(21) د. جمال، نفس المصدر، ص ص 96-97.

(22) حسين بن غنام روضة الأفكار والافهام، ج 2، ص 165 وما بعدها.

(23) لوريمر، دليل الخليج، ج 3، ص 1508.

شكلية وأن الكويت كانت تحكم منذ البداية بواسطة حكامها

خالد على استتباب الأمن والسلام في ديارهم حتى تكون

بني خالد. وما الإقامة المؤقتة لزيد بن عريعر في الكويت عام 1793م عندما لم يكن بمقدوره أن يقف أمام هجوم الوهابيين على أراضيه في منطقة الإحساء إلاّ مثالاً على تقديم الكويت المساعدة للخوالد وكذلك براك بن عبدالمحسن عام 1795، عندما هرب من الإحساء لنفس السبب، ولا شك أن الكثيرين من سكان الإحساء الذين هربوا اتقاءً لخطر الوهابيين قد لجأوا إلى مدينة الزبارة الحصينة، كما أنه من المؤكد أن قبائل بني خالد البدوية كانت تتجه صوب أراضي الكويت شمالاً كلما هزمها الوهابيون، أما الحضر من بني خالد فكانوا يتجهون بمراكبهم إلى الزبارة والأماكن الساحلية المشابهة لها، وكان العتوب يتصرفون في تلك الأحوال وفقاً للقواعد العربية القاضية بحماية المستجير في ذات الوقت الذي كانوا يزيدون فيه من قواتهم المقاتلة واستعداداتهم الحربية نتيجة لإدراكهم أن دورهم لا شك قادم، لاسيا بعد قبولهم لأولئك اللاجئين مما جعل السعوديين يعملون بوضوح في سبيل إخضاع الدويلات العتبية لسلطانهم.

العلاقات بشركة الهند الهولندية:

قامت علاقات ودية وثيقة بين شركة الهند الشرقية التي أقامت لها مستعمرة في جزيرة خرج الإيرانية وبين الكويت[24]، فقد قامت صداقة بين رئيس الوكالة التجارية الهولندية البارون كنفهاوزن (Kniphausen) والشيخ عبدالله بن صباح شيخ الكويت[25]. وقد بلغت هذه الصداقة حدّ التأثير على علاقة الكويت بالشركة[26]، التي قويت وأدت إلى قيام تعامل وترابط كبيرين بين الطرفين إلى درجة دعت بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة مثل الدكتور إيفز (Ives) إلى الاعتقاد بأن شيخ الكويت يدين للبارون بالشيء الكثير أو أنه واقع تحت نفوذه، متخذين من طريقة تصرف البارون مع الشيخ حين قام بالتفاوض معه لتسهيل مرور الدكتور إيفز ورفاقه عبر الكويت إلى حلب، دليل خضوع الشيخ لنفوذ البارون كما زعم لوريمر (Lorimer)، وربما وقع الأخير في الخطأ بعد أن قرأ حرفية الكلمات التي أوردها إيفز من أن الشيخ «كان واقعاً تحت تأثير البارون»، ففي الحقيقة أن الشيخ لم يكن تابعاً للبارون بحال من الأحوال وأن ما بينهما من علاقات كانت قائمة على قدم المساواة، وبهدف المنفعة والمصالح المشتركة، فالبارون والشيخ كانا يستفيدان من نقل التجارة عبر الصحراء على الجمال بطرق تتجنب المرور بالبصرة. وكان الغرض من تجنب البصرة أن لا يستفيد متسلمها من المكوس الجمركية التي كان يفرضها على البضائع المارة بمدينته، لاسيما وأن البارون يكنّ للمتسلم شيئاً من الكراهية نتيجة خروجه من البصرة قبل سنوات قليلة مطروداً إثر الخلاف الذي نشب بينه وبين ذلك المتسلم. وهذا ما جعل للبارون فائدة قصوى من جراء خسران المتسلم لتلك المكوس التي كانت كبيرة نسبياً. أما شيخ الكويت فكان بدوره يستفيد فائدة كبرى من ذلك الخلاف ويعمل على تصعيده نظراً لتحول الكثير من السفن الهولندية وغيرها إلى ميناء الكويت لتفريغ شحنتها من البضائع فيها بدلاً من البصرة، وكانت هذه البضائع تصدّر إلى الشام وأوروبا[27].

هذا، ومن حادثة الدكتور «إيفز» وغيرها يتضح لنا قيام علاقات كبيرة بين شركة الهند الشرقية الهولندية وبين الكويت وأن هذه العلاقات قائمة على التعاون في المجال التجاري وقيام صفقات تجارية متعددة بين الجانبين. إلاّ أننا لا نستطيع تحديد حجم هذا التعاون التجاري على وجه الدقة بالرغم من تأكدنا من وجوده. وإلى جانب الممارسات التجارية التي قامت بين الطرفين فإن هناك نشاطاً كبيراً تعاون خلاله الجانبان في نقل التجارة عبر الصحراء وبواسطة البحر من الكويت إلى حلب وأوروبا. فقد أصبحت الكويت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر محطة للقوافل المسافرة بين حلب وشرقي

(24) خالد السعود الزيد، المصدر السابق، ج 1، ص 23.

(25) خالد السعود الزيد، نفس المصدر، ج 1، ص 37-40.

(26) المقصود بالتأثير هنا هو أن الصداقة القائمة بين البارون وشيخ الكويت قد انعكست على توطيد العلاقات الودية بين الكويت والشركة وليس كما قد يتبادر للذهن من أن البارون كان له بعض التأثير على الكويت من خلال صداقته للشيخ.

(27) د. أبو حاكمة، المصدر السابق، ص 30.

الجزيرة العربية. فكانت القوافل المارة بالكويت تحمل معها بضائع الهند التي كانت تصل الكويت على السفن الكويتية والتي كانت تحمل معها إلى جانب البضائع الركاب المسافرين إلى حلب ممن يكونون قد وصلوا شمال الخليج قادمين من الهند أو جنوب الخليج[28]. ولا شك أن هذه التجارة عبر الخليج إلى الهند، وذلك النشاط في حركة البضائع والأفراد التي تحملها سفن التجار الكويتية ثم القوافل إلى الكويت، تشكل مصدر الدخل الأكبر بالنسبة للكويت.

وبصفة عامة، فقد استفادت الكويت فائدة كبيرة من المساهمة في النشاط التجاري الملحوظ لشركة الهند الشرقية الهولندية في ذات الوقت الذي استفادت فيه فائدة أكبر من التعامل مع شركة الهند الشرقية الانكليزية التي بدأ نجمها في الارتفاع ابتداءً من ذلك الوقت حتى تمت لها السيطرة الكاملة على النشاط التجاري والاقتصادي في الخليج في القرن التاسع عشر بعد أن تمكنت من القضاء على منافسة القوى الأوروبية الأخرى لها، ثم أخذت تمارس فرض نشاطها السياسي في المنطقة في الفترة اللاحقة.

ومن الجانب الآخر فقد استفادت شركة الهند الشرقية الهولندية من العلاقات الطيبة التي نشأت بينها وبين الكويت بصورة كبيرة في إقامة تعامل تجاري معها، فعقدت معها صفقات كبيرة بهذا الصدد، في محاولة للاستعانة بالكويت كمركز لتصريف بضائعها واتخذت من تجار الكويت واسطة لهذا الغرض، كما اتخذت من الكويت محطة لقوافلها المارة عبر الصحراء إلى الشام وحلب ثم إلى أوروبا. كما لم تقلّ أهمية ميناء الكويت البحري عن طريقها الصحراوي فارتادته سفنها وحملت السفن الكويتية بضائع الشركة من الهند إلى الأسواق الأخرى في الجزيرة العربية والعراق والشام وأوروبا.

لذلك كله، كانت للكويت أهمية خاصة في نظر الشركة ومسؤوليتها وتجلّى هذا الاهتمام بوضوح في تقارير أولئك المسؤولين الحافلة عن الكويت والتي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلّا وعنيت بها مما ترك لنا مادة علمية هامة جداً عن تاريخ الكويت في تلك الحقبة من الزمن التي لم نجد فيها من يهتم بالكويت ودراسة تاريخها إلّا قلّة من الرحالة الأوروبيين الذين طافوا في المنطقة، وهذا ما صعّد فائدة تقارير مسؤولي شركة الهند الشرقية الهولندية. ومن هذه التقارير تقرير «نيفهاوزن» مدير الشركة ومساعده السالف الذكر عن المنطقة الساحلية للخليج والذي اهتم بالكويت بشكل خاص[29].

ولا شك أن ذلك الإهتمام من أولئك المسؤولين راجع إلى تقديرهم لأهمية الكويت بالنسبة لتجارة شركتهم، وذلك نظراً لموقعها الاستراتيجي الممتاز على خط مواصلات الشركة البحرية والبرية، ولمهارة تجار الكويت ونشاطهم في مجال النقل للأفراد والبضائع.

ولم ينحصر اهتمام شركة الهند الشرقية الهولندية بالكويت في النواحي التجارية ونشاط النقل البري والبحري بل شمل هذا الاهتمام مجالات أخرى كثيرة، فقد قام «فان نيفاوسن» (المقيم السياسي الهولندي في البصرة) بتخطيط لتعدين الكبريت في الكويت وذلك عام 1754[30].

وبهذا نجد أنه كانت لشركة الهند الشرقية الهولندية اهتمامات كبيرة شملت مجالات كثيرة ومتعددة مما دفع الشركة إلى إقامة علاقات ودية وثيقة مع الكويت.

هذا، ومهما كان لشركة الهند الشرقية الهولندية من آمال بإقامة مشاريع في الكويت إلّا أن بريطانيا تمكّنت من تبديد هذه الآمال تدريجياً حتى استطاعت السيطرة على تجارة الخليج والتحكم بحركة النقل فيه وعبر أراضيه الصحراوية والقضاء على المنافسة الأوروبية لها في هذه المجالات وفق خطوات عملية ومدروسة بإتقان حتى تمكنت في النهاية من القضاء على منافسة كافة الأطراف، وأولها حليفة الأمس هولندا وحكّمت حلقات نفوذها ومصالحها في الخليج الذي غدا أشبه بالبحيرة الإنكليزية، وذلك بعد أن عقدت الاتفاقيات المانعة مع دوله، وعن طريق تلك الاتفاقيات غير المتكافئة حصلت على احتكارات كاملة لكافة المصالح الحيوية في دول الخليج العربي

(28) Dr. Ives, Voyages 201-216.

(29) ترجمة التقرير عن الهولندية والمنشور في مجلة الوثيقة التاريخية البحرينية ـ العدد الثالث ـ ص 15.

(30) مجلة الوثيقة التاريخية البحرينية (مؤتمر البحرين عبر التاريخ) ج 3، ص 67.

وكانت اتفاقيتها المانعة (الحماية) مع الكويت عام 1899م.

علاقة الكويت بالدولة العثمانية:

تعتبر الكويت أقرب إمارات الخليج العربي للدولة العثمانية في العراق إلّا أنه لم يثبت وجود سيطرة عثمانية فعلية عليها قبل عام 1869م. وقد اقتصر الأمر على مجرد نوع من التبعية الإسمية، وذلك أن المستوطنين الأول في الكويت من العتوب بزعامة آل الصباح لم يجدوا مناصاً من تأمين مركزهم بالاعتراف بشيء من الولاء للوالي العثماني في العراق[31]، وذلك في بداية مرحلة استقرار العتوب في الكويت[32]. وبذلك أقرت الكويت للدولة العثمانية نوعاً من السيادة الإسمية دون أهمية تذكر لتلك السيادة ولا تدخل من جانب الدولة العثمانية في الشؤون المحلية[33].

وكان التحرر من التبعية العثمانية عاملاً سائداً ومؤكداً في سياسة شيوخ الكويت في غضون القرن الثامن عشر[34]، وحتى بعد منتصف القرن التاسع عشر (1869م) وحتى حين يتعرضون للخطر الخارجي فإنهم لا يلجأون إلى الدولة العثمانية وإنما يعتمدون على أنفسهم في درء ذلك الخطر، وهذا ما حدث حين تعرضت الكويت للهجمات الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

ولتأكيد استقلال الكويت عن الدولة العثمانية فإننا نجد أن هناك من المسؤولين العثمانيين أنفسهم من يعترف بهذا الاستقلال. فمثلاً، مدحت باشا (والي بغداد منذ 1869م) اعترف باستقلال الكويت وذلك بالرغم من أنه كان يعمل منذ توليه ولاية بغداد على تنظيم علاقة العراق العثماني بالخليج العربي بحيث يضمن سيادة الدولة العثمانية على الكويت وبقية إمارات الخليج العربي والجزيرة العربية. وقد جاء اعتراف مدحت باشا في مذكراته (ترجمة حاله)[35] حين ذكر في معرض وصفه لأحوال الكويت «ومع أن جميع أهلها مسلمون إلّا أنها لم تكن مرتبطة بأية جهة، وبالرغم من محاولات نامق باشا الوالي السابق لإلحاقها بالبصرة وتشبثه بإدارتها عن طريق تكليف أهلها بقبول ذلك، إلّا أنها لتمتعها بإدارة مستقلة مستثناة مجردة من جميع التكاليف، وخشية من تحميلهم الضرائب ورسوم الجمارك، لم يوافقوا على تغيير حالهم وفضّلوا البقاء على وضعهم... وبالنظر لمساعدة موقعهم الجغرافي فإنهم يؤلفون مملكة أشبه ما تكون بالجمهورية حيث يحكمون أنفسهم منذ القدم.. وكانت سفنهم تبحر للتجارة غالباً تحت الراية الخاصة بمملكتهم[36] إلّا أنهم يضطرون في بعض الأحيان إلى رفع العلم الفلمنكي (الهولندي) تارة والإنكليزي تارة أخرى لتأمين سلامتهم».

وقد أكد مدحت باشا جميع ما ذهب إليه من استقلال الكويت عن كافة الأطراف حتى عن الدولة العثمانية نفسها ودعا إلى إيجاد التنظيمات التي تجعل الكويت ولاية مستقلة ذاتياً من ولايات الدولة العثمانية مع إعفائها من الضرائب والمكوس وذلك في رسالة منه إلى الصدر الأعظم[37]. فرفع الصدر الأعظم ما جاء في رسالة مدحت باشا إلى السلطان[38] الذي استحسنها وأصدر أوامره بتنفيذها[39]. ونظراً لوقوع هذه الأمور في وقت لاحق لفترة دراستنا لذا، فلن نتناولها بالتفصيل. وبالإضافة إلى هذا الاعتراف من أحد كبار

(31) د. جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي (دراسة لتاريخ الامارات العربية) 1840-1914، ص 255 ـ القاهرة 1966.

(32) د. مصطفى النجار ـ التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ـ التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ـ 38 (منشورات مركز دراسات الخليج) ـ البصرة ـ عام 1975.

(33) سيد نوفل ـ الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي ـ ص 152 ـ 1953.

(34) F.O. /78/5113 India Office to Foreign Office, 24 March 1897.

(35) مذكرات مدحت باشا (ترجمة حاله) من وثائق وزارة الخارجية الكويتية.

(36) قد يقصد بالراية الخاصة، الراية العثمانية مع وضع كلمة «كويت» على أحد جانبيها تمييزاً لها أو هي الراية الخاصة بالفعل أي الراية الحمراء تتوسطها كلمة «كويت».

(37) رسالة من والي بغداد إلى الصدر الأعظم (ص 1 م 1) من دفتر المهمة العثماني بتاريخ 8 ذي القعدة 1286هـ/يناير 1869م.

(38) كتاب من الصدر الأعظم إلى السلطان العثماني بتاريخ 25 ذي الحجة 1286هـ ـ 1869م.

(39) كتاب من رئيس كتاب إلى الصدر الأعظم رداً على كتابه إلى السلطان وذلك في 26 ذي الحجة 1286هـ ـ 1869م.

المسؤولين العثمانيين (مدحت باشا ـ والي بغداد) فإننا نجد عدم وجود دلائل للتبعية العثمانية في الكويت مثل الدفع الضريبي أو الجزية من الكويت للدولة العثمانية[40]. وعدم وجود حاميات عسكرية أو مراكز عثمانية[41]. عدم وجود أي موظف رسمي عثماني في الكويت، بل إن الشيخ مبارك رفض في وقت لاحق محاولة الدولة العثمانية لتعيين مدير عثماني لميناء الكويت[42]. كما أن شيوخ الكويت ألجأوا الثائرين على السلطات العثمانية[43] ـ كما سنرى ـ وهذا دليل واضح لاستقلالها عن الدولة العثمانية. كما لا يوجد أي اتصال فعلي بين الكويت والدولة العثمانية. وظل أمراء الكويت بمنأى عن السيطرة العثمانية يشكلون وحدة مستقلة حرصت على حريتها وازدهار تجارتها[44].

إلاّ أن هذا الاستقلال لم يمنع وجود تعاطف ومودّة من شيوخ الكويت للدولة العثمانية على أساس تقارب روحي انطلاقاً من كونها دولة الخلافة. ومن كون السلطان يمثل رأس العقيدة الإسلامية. وهذا ما نلمسه من خلال تتبعنا للأحداث ومن ذلك ما نجده من تعاطف الكويت مع البصرة أثناء الحصار العثماني لها (1775م ـ 1776م). فعلى الرغم من اضطرارها للوقوف موقفاً حيادياً درءاً للخطر الفارسي عن الكويت بل وتقديمها بعض المساعدات للفرس على مضض كتلك التي قدمتها لمساعدة صادق خان (قوة قوامها مائتا رجل)، فإن ذلك لم يكن عن طيب خاطر بل إنّ تعاطفها كان مع الدولة العثمانية، وكثيراً ما استقبلت مراكبها للإصلاح في ميناء الكويت[45]. كما نجد ذلك التعاطف من خلال تقرب شيوخها للدولة العثمانية ورفعهم الراية العثمانية على قصرهم وذلك نتيجة لمحاولات بذلها الإنجليز لمد نفوذهم إلى إمارتهم[46]. ومع ذلك، فإن رفع الكويت للراية العثمانية لم يعن اعترافها بالسيادة العثمانية بل إنها وبقية إمارات الخليج (كما يذكر كمبول) «Colonel Camball» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي كان من الصعب على سفنها أن تبحر تحت أعلامها الخاصة نظراً لعدم وجود اعتراف دولي بهذه الأعلام. كما أن علم الدولة العثمانية لم يكن يقترن في الأذهان بالدولة العثمانية بل إنه يمثل الراية الإسلامية، وهي مظهر روحي لاحترام دولة الخلافة الإسلامية[47].

وأكد كمبول استقلال الكويت عن الدولة العثمانية حيث استدل من واقع الأمور على أن سكان الكويت قاوموا بنجاح جميع المحاولات التي بذلت لجعلهم تحت السيادة العثمانية وتحت نفوذ القضاء العثماني وأنهم حافظوا على استقلالهم. وأشار كمبول إلى حقيقة أن سكان الكويت يعترفون بالسيادة العثمانية إلاّ أن ذلك لا يتعدى كونه اعترافاً إسمياً[48]. هذا، وكانت علاقات الكويت بالدولة العثمانية ودّية على الدوام لا يكدرها إلاّ قيام شيوخ الكويت ببعض الأعمال من واقع استقلالهم مثل قبول اللاجئين وحين ذاك يصطدمون بالدولة العثمانية، وهذا ما حدث حين ألجأت الكويت مصطفى آغا متسلم البصرة حين أجبرته قوات باشا بغداد هو وأتباعه على الالتجاء إلى الكويت على إثر محاولته الرامية لحكم البصرة حكماً مستقلاً عن بغداد. وأيّده في ذلك الشيخ ثويني بن عبدالله أمير المنتفك. وقد دارت مراسلات عديدة بين بغداد والكويت لتسليم اللاجئين وكان لصموئيل مانستي Menesty (رئيس الوكالة البريطانية في البصرة) دور رئيسي للتوسط بين الجانبين، فكتب إلى الشيخ عبدالله الصباح كتاباً بهذا الصدد ذكر فيه «لقد قمت مؤخراً بزيارة باشا بغداد في معسكره... فأشار إلى أن علاقة قديمة ربطت وما زالت تربط أهل الكويت بالبصرة. ولكنه عبّر عن دهشته وغضبه العظيمين

(40) F.O. 78/5113 Viceroy to Foreign Office, telegraphic 12 Feb. 1899.

(41) F.O. 78/5114 From Sir O'Connor to the Marquis Salisbyry, No. 440 9 Sept. 1899, Secret.

(42) F.O. 78/5114 Foreign Office to Viceroy No. 6 Secret, 9 Sept. 1899.

(43) د. جمال زكريا قاسم ـ المصدر السابق ـ ص ص 263-264.

(44) البيان الثالث لحكومة الكويت (بمناسبة مطالبة عبدالكريم قاسم بضم الكويت) الصادر بتاريخ 1961/7/15.

(45) د. مصطفى أبو حاكمة ـ المصدر السابق ـ ص ص 77-78.

(46) حافظ وهبه ـ جزيرة العرب في القرن العشرين ـ ص 83.

(47) Whigham: The persian problem, p. 101-103.

(48) Frazer: India under Curzon and after, pp. 97-98.

تجاه سلوككم في منح الحماية لأناس كانوا ثائرين عليه، وفروا ليتجنبوا العقاب الذي يحتمه ذنبهم. وحذر من أنه ما لم تسلمهم إليه أو تأمرهم بمغادرة الكويت فإنه سيعتبركم عدواً له، ويرسل إليكم حملة عسكرية مدعمة بقوات طلبها من بومباي يقودها بنفسه إلى القرين»[49].

فأجاب الشيخ على رسالة مانستي برسالة بيّن فيها «أن الكويت ملك للباشا وأن سكانها مستعدون لخدمته. ولكنكم تعرفون حق المعرفة أن عاداتنا تلزمنا بحماية أيّ مستجير بنا، ومن العار التخلي عنه أو تسليمه إلى أعدائه... وإني أعتمد على صداقتكم في إيضاح الأمر على حقيقته للباشا[50]». وبالفعل أقنع مانستي الباشا بالعدول عن إرسال الحملة التي كان يزمع القيام بها وساعد مانستي في مهمة ترك اللاجئين الكويت إلى نجد[51].

وإذا كنا استندنا إلى بعض الإشارات لالتجاء الفارين من الدولة العثمانية إلى الكويت لتأكيد استقلال الكويت عن الدولة العثمانية، فلا بدّ من التركيز بهذا الشأن على انتقال الوكالة البريطانية (أو المركز البريطاني التجاري) نفسها إلى الكويت في 30 ابريل عام 1793م وظلت فيها حتى اغسطس عام 1795م نتيجة لخلافات بينهم وبين الموظفين العثمانيين[52]. واختيار الكويت يشير إلى دلالتين: الأولى: أن موظفي الوكالة ارتاحوا للتعامل مع الكويت أثناء انتقال بعض نشاطهم إليها خلال حصار الفرس للبصرة (1775م ـ 1776م) والثانية: والأهم ـ عدم خضوع الكويت لأية سلطة عثمانية[53].

وبالرغم من كل دلائل الاستقلال القاطعة فإن حكمة شيوخ الكويت تدعوهم إلى بناء علاقات ودية مع الجارة القوية الدولة العثمانية، وكثيراً ما كانت تساهم في حملات الدولة العثمانية البرية والبحرية مثل حملة ثويني باشا شيخ المنتفك عام 1797م حين أرسله والي بغداد لمهاجمة الوهابيين في الإحساء فتوقف في الجهرة الكويتية لجمع مستلزمات الحرب. وقد ساهمت الكويت في هذه الحملة ولكن لا يعرف بالتحديد ماهية مساهمتها، ولا بدّ أنها أسلحة وبعض المراكب لأن الحملة كانت بحرية وكان دافع الكويت للمساهمة في هذه الحملة والحملات الأخرى هو ما قاسوه من هجمات الوهابيين على بلادهم. وبعد فشل هذه الحملة نتيجة اغتيال قائدها أبحرت حملة عثمانية أخرى في أواخر السنة التالية (2 ديسمبر 1798م) بقيادة متسلم البصرة الكيخا علي باشا[54]. وقد سلكت الحملة طريقاً برياً وبحرياً في تقدمها نحو الإحساء، فسارت نحو الجهرة حيث قدم لها شيخ الكويت عبدالله الصباح معونات بحرية ساعدتها كثيراً[55].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن من الأسباب الرئيسية التي عملت على تمتع الكويت باستقلالها عن الدولة العثمانية واحتفاظها على الدوام بهذا الاستقلال دون محاولات تذكر من الدولة العثمانية لتحويل سيادتها الإسمية إلى سيادة فعلية لاسيما خلال القرن الثامن عشر[56]، هي الأوضاع السياسية المهلهلة السائدة في العراق العثماني مّما مكّن الكويت أن تحتل مكاناً مرموقاً في عالم الخليج دون خوف من الجارة الكبرى. فقد شهدت البصرة منذ أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر فترة اضطرابات وفتن استمرت حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد صاحب هذه

---

(49) القرين: هو الاسم الذي كان يطلقه الأوروبيون على الكويت التي عرفت به عند مجيئهم إلى الخليج وذلك نسبة إلى الساحل الذي تقوم عليه والذي ينحني في اتجاه دائرة مكوناً ما يشبه القرن.

(50) د. مصطفى النجار ـ المصدر السابق ـ ص ص 38-39.

(51) Factory Record, persia and persian Gulf, Vol 18 serial No. 1532 letter dated 17th April 1789.

(52) Ibid, letter dated 30th April 1789.

(53) Factory Records, persia and persian Gulf, Vol. 19 letter No. 1652, dated 18th July 1795.

(54) د. مصطفى النجار ـ المصدر السابق ـ ص 41.

(55) Lorimer, Gazette letter of the persian Gulf, IV, Table 9 p. 1004.

(56) ظهرت بعض المحاولات العثمانية لتحويل سيادتها الاسمية على الكويت إلى فعلية عندما حاول نامق باشا ذلك عام 1866م ثم مدحت باشا عام 1869م ولكن نظراً لكون هذه المحاولة خارجة عن فترة دراستنا كما أنها لم تسفر عن شيء يذكر لذا فلن نتناولها في دراستنا هذه.

الاضطرابات انتشار وباء الطاعون الذي أفنى البصرة وخربها خراباً أدّى إلى هجرة بعض أهاليها، وبهذا لم تكن أوضاع العراق العثماني بأحسن حال من جيرانهم الفرس. لذا، فلم يكن بمقدورهم بالتالي أن يلعبوا دوراً ذا بال في هذه الحقبة من الزمن، بالإضافة إلى أن قوتهم لم تكن قادرة على تحدي قوة بني خالد على السواحل الشرقية للجزيرة العربية. ويكفي أن نذكر أن البصرة خلت من السكان بسبب الطاعون والمجاعة واضطهاد حكامها العثمانيين وتسلطهم[57].

ومن ناحية أخرى لا يفوتنا أن نذكر التأثير الكبير لاحتلال الفرس للبصرة (1776 م ـ 1779) على اوضاع العراق العثماني وما ترتب على ذلك من إضعاف النفوذ العثماني في الخليج والجزيرة العربية ودحر أي محاولة لهم لمد نفوذهم هناك. فقد كان لاحتلال البصرة نتائج عكسية واضحة بالنسبة للنفوذ العثماني في المنطقة بينما كانت له في المقابل نتائج إيجابية كبيرة بالنسبة لنمو الكويت وازدهارها السياسي والاقتصادي. ذلك أن احتلال البصرة دفع بكثير من أهلها للهجرة إلى الكويت ـ لاسيما أولئك الذين كانوا من أصول نجدية وعربية ـ فزادت تلك الهجرة من سكان الكويت بشكل ملحوظ، مما زاد من مسؤولياتها السياسية تجاه القادمين الجدد وترتيب أمور استقرارهم، واتخاذ ترتيبات أمنية لمواجهة أي محاولة فارسية للامتداد الى الكويت، هذا بينما أدى ذلك الاحتلال إلى تلاشي أية محاولة من سلطات البصرة إلى تحويل تبعية الكويت الإسمية لها الى تبعية فعلية أو محاولة ضمها[58].

ومن ناحية أخرى، فإن احتلال الفرس للبصرة حوّل الأنظار إلى الكويت مما دعّم مركزها السياسي لدى القوى المحلية (العربية) والقوى الأجنبية المتمثلة بالشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية الإنكليزية وشركة الهند الشرقية الهولندية، وهكذا سنحت الفرصة للكويت للظهور والبروز في المنطقة، كما أن الكويت لم تتأثر سلبياً نتيجة الاحتلال، لأن حكامها عرفوا كيف يتصرفون أثناء الحصار فاتبعوا سياسة ذات حدين في إرضاء طرفي النزاع[59].

ومن جميع ما تقدم يمكن أن نصف السيادة العثمانية على الكويت بأنها سيادة إسمية لا تظللها أي سلطة فعلية ولا يتبعها أي مظهر من مظاهر النفوذ، فلا خراج ولا ضرائب، ولا وجود لقوة عسكرية ولا موظف مدني عثماني، بل تصرفت الكويت في ظل السيادة الإسمية للدولة العثمانية تصرف الدولة المستقلة كاملة السيادة فاستقبلت ممثلي الدول الأجنبية وأقامت علاقات مع الأطراف الخارجية وعقدت معهم المعاهدات والاتفاقيات ـ مثل اتفاقية الصداقة مع بني خالد ثم معاهدة الأمن والسلام مع بريطانيا عام 1841م ـ إلى غير ذلك من أركان السيادة التي تمتعت بها الكويت بصورة كاملة وغير منقوصة.

وانحصرت مظاهر السيادة العثمانية بتلقي ولاء الكويت الديني وتقديم المساعدات في المناسبات اللازمة وإصدار فرمان باسم وارث العرش الذي يختاره آل الصباح دون أن يكون لها يد في اختياره ثم رفع الكويت للعلم التركي مع إضافة كلمة كويت على أحد جانبيه.

بداية الاتصالات البريطانية بالكويت:

يمكن اعتبار عام 1775 هو بداية الاتصال البريطاني المباشر بالكويت وذلك لأنه أسبق تاريخ مدون لهذا الاتصال كما أنه مثبت بواقعة مادية هي احتلال الفرس لمدينة البصرة في ذلك العام. فبدأ إرسال البريد الصحراوي الإنجليزي عبر الخليج إلى حلب يتوجه عن طريق الكويت بدلاً من الزبير، وذلك على الرغم من أن الفرس لم يحتلوا الزبير إلاّ بعد ذلك بأكثر من عامين وبالتحديد عام 1778م، كما أن النظرة البريطانية إلى الكويت في ذلك الوقت على أنها تابعة للبصرة[60].

ولم يقتصر اهتمام الإنكليز بالكويت على كونها محطة لإرسال بريدهم بل اهتمت بها شركة الهند الشرقية الإنكليزية

(57) د. أبو حاكمة ـ المصدر السابق ـ ص 41.

(58) مقال للباحثة بعنوان (نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ العدد السادس والأربعون ـ رجب 1406هـ الموافق ابريل 1986م.

(59) رنده المصري: مقالة بعنوان «الكويت» (دراسة تحليلية) مجلة الوثيقة التاريخية ـ العدد الأول، السنة الأول، رمضان 1402هـ ـ المواق يوليو 1982م.

(60) لوريمر دليل الخليج النسخة المترجمة، ج 3، ص 1504-1505.

لأغراض تجارية، فقد حلّت المشكلة التي واجهتها الشركة في تصريف بضائع الهند وسورات في بلدان الشرق الأوسط بعد احتلال البصرة. وهذا ما تكشفه لنا رسالة القنصل البريطاني في حلب إلى المستر لاتوش الوكيل البريطاني في البصرة بتاريخ 11 يونيه 1776. فقد ذكر فيها «أنه إذا كان بالإمكان بقاء القرين[61] محايدة فإنه يمكن للقوافل أن تسافر إليها، وأن تحمل البضائع منها إلى حلب. وأنها ذات موقع جيد يمكّنها من أن تكون خلفاً للزبير، غير أن هذا لن يتأتّى من دون بقائها مستقلة»[72].

وقد أيد المستر لاتوش رأي القنصل البريطاني في حلب مبيّناً وجهة نظره الخاصة: «بأنه يدرك تماماً أن بدء اتصال برّي مع حلب وبغداد عن طريق القرين لهو حدث يتطلعون إليه بكل شوق لأنه سيمدهم بمخرج لبضائع البرتغال وسورات المكدسة في بومباي والتي تنتظر تجار البصرة لاسيما وأن القرين لا زالت بعيدة عن عبث الفرس[63]».

وعلى أية حال، فقد استفادت الكويت من هذا الوضع الجديد فائدة تجارية كبرى فأصبحت مركزاً تجارياً عظيماً كما توقع لها القنصل البريطاني في حلب. وذلك إلى جانب ما ثبت من أن الكويت استفادت من استعمالها كمحطة يسلم بها البريد الصحراوي، فقد جرت العادة على أن تؤجر الشركة موظفي بريد الصحراء السريع من الزبير، ولكن حين خلفت الكويت الزبير أصبح هؤلاء الموظفون يختارون منها[64]. إلاّ أن البريد لم ينتظم في البداية لعدم وجود ممثلين للشركة فيها. فكلف المستر لاتوش اللفتنانت تويس Twiss قبطان السفينة (تربيل Terrible) للقيام بهذه المهمة. وبذلك استفادت الكويت من احتلال الفرس للبصرة مثلما استفادت في السابق من وباء الطاعون الذي حلّ بالأخيرة عام 1773-1774 فانتقل إليها عدد من التجار ومعهم المال اللازم للتجارة لتمويل صناعة السفن[65]. وفي عام 1778 رفض الشيخ عبدالله تسليم الضابط الفرنسي المسيو دي بورج الذي التجأ إليه لرجال الوكالة البريطانية في البصرة[66]، مراعياً بذلك قواعد الضيافة العربية، إلاّ أنه عاد ووافق على القبض عليه بعد أن تبين له أنه محتال، وحرصاً منه على علاقته الطيبة بالإنكليز التي تعرضت للتصدع نتيجة لهذا الحادث[67]. وفي 24 أبريل 1793 انتقل المخزن التجاري البريطاني (الوكالة التجارية) إلى الكويت نتيجة للعقبات التي وضعتها في وجهه السلطات التركية وبقي في الكويت حتى 26 أغسطس 1795[68]. فكان لهذا الانتقال أثر كبير في ازدياد نمو الكويت وتطور اقتصادها. ويقول المستر بريدجز Brydges أحد موظفي شركة الهند الذي التجأ إلى الكويت 1794، أن الشيخ قدم للمخزن كل التسهيلات وأن المخزن كان مزوداً بحرس من الهنود لحراسته خصوصاً من اعتداءات السعوديين (الوهابيين)[69].

وتطورت علاقة الإنكليز بالكويت إلى الأحسن حين كانوا يعترضون سبيل المراسلات الفرنسية بعد أن زاد نشاطهم في الهند والمحيط الهندي، وكانت الحرب قد أعلنت بين إنجلترا وفرنسا. وقد استفادت إنجلترا من صداقة المستر مانيستي (Menesty رئيس المخزن) والشيخ عبدالله الصباح بهذا الصدد، في القضاء على المخططات الفرنسية الرامية إلى استخدام السفن الكويتية في حمل مبعوثيها ورسائلهم، وفي القضاء على محاولة الفرنسيين في أن يجعلوا من الخليج العربي طريقاً غير صالح لاستخدام الإنكليز.

وعلى الرغم من توثق العلاقات البريطانية ـ الكويتية

القرين: هو الاسم الذي أطلقه الأوربيون على الكويت ومنهم عام 1816 من كتابه Travels in Assyria حيث يصف أهل الكويت بأنهم مشهورون من بين أهل الخليج بأنهم أكثرهم حرية وشجاعة.

(62) خطاب من القنصل البريطاني في حلب إلى المستر لاتوش في البصرة بتاريخ 11 يونيه 1776م.

(63) خطاب من لاتوش إلى مجلة المديرين في لندن بتاريخ 24 يوليو 1776. والخطابين مأخوذين عن د. أبو حاكمة. تاريخ الكويت ص 173-174.

(64) رسالة الباحثة للدكتورة بعنوان العلاقة البريطانية الكويتية في الفترة 1922-1961 (غير منشورة ص 2).

(65) Marlowe, The persian Gulf in the Twentieth century, p. 24.

(66) Capper, Observation, pp. 99-101.

(67) Brydges, Wahauby, pp. 175-176.

(68) السير ارنولد ويلسون الخليج العربي (النسخة المترجمة) (ترجمة عبدالقادر يوسف) ص 402.

(69) Brydes, An account of His Majesty's to the court of Parsian pp. 12-16.

بشكل أكبر في فترة لاحقة والتي أدت في نهاية القرن التاسع عشر إلى توقيع اتفاقية الحماية، إلاّ أننا لا بد أن نقف في دراستنا عند هذه الفترة التي تنتهي عندها الفترة المحددة للبحث.

علاقة الكويت ببلاد فارس:

إن الأوضاع السياسية التي كانت تسود بلاد فارس في مطلع القرن الثامن عشر قد عملت على أن تحتل الكويت مكاناً مرموقاً في عالم الخليج بعد حين، فقد مهدت أحوال فارس المضطربة وغير المستقرة خلال الربع الأول من ذلك القرن[70] سبل النمو والاستقرار والازدهار للكويت بحريّة ودون أدنى خوف من تلك الدولة المتسلطة، والتي كانت في زمن قوتها تتحين الفرص لتفرض سيطرتها على الجانب الغربي من الخليج العربي. إلاّ أنها في تلك الفترة كانت مشغولة في محاولة للمة شمل أجزائها المهلهلة ومعالجة أوضاعها المتردية نتيجة تعرضها للغزو الأفغاني ثم العثماني ثم الروسي على التوالي. لذا، فقد كان من الطبيعي أن يتحرر الخليج العربي من أية سيطرة فارسية. فبالإضافة إلى الغزو الخارجي الذي تعرضت له بلاد فارس كانت أوضاعها الداخلية أكثر سوءاً، فقد دبّ الوهن في جسم الدولة الفارسية نتيجة للفوضى والفتور والاضطراب في سياستها الداخلية وتفشي الفساد في الدولة الصفوية، مما أغرى الشعوب الواقعة تحت نيرها أن تطالب بالاستقلال وتسعى لنيله وأن تقوم بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس[71]، مما زاد من ضعف الدولة وفتّ عضدها وجعلها تنصرف عن محاولة فرض سيطرتها على الدول المجاورة نتيجة لانشغالها بأمورها الخاصة، وذلك إلى جانب عدم إحكام مواصلاتها. كل هذه العوامل وغيرها فسحت المجال واسعاً أمام العتوب في الكويت لإنشاء دولتهم والعمل على نموها وتقدمها والمحافظة على استقلالها من كافة الأطراف، بل إن العتوب طمحوا إلى ما هو أكبر من ذلك وهو عملهم على تحرير البحرين من الحكم الفارسي[72]، بعد أن اطمأنوا إلى ضعف فارس من جهة والعراق في ظل حكم الأتراك من جهة أخرى، وهما البلدان الوحيدان اللذان كان بمقدورهما بما لهما من قوة عسكرية أن يلعبا دوراً هاماً في سياسة الخليج العربي في هذه الحقبة من الزمن، غير أنه لا الأتراك ولا الفرس كانوا في وضع يمكنهم من أن يقوموا بمثل ذلك الدور الهام والحيوي في تاريخ المنطقة. وهكذا، خلا ميدان الخليج العربي السياسي في تلك الفترة من أية قوة كبرى تفرض هيمنة كلية عليه، ومن هنا صار في مقدور المدن الناشئة كالكويت أن تتطور وتقوى دون أن تتعرض لخطر حكام فارس أو الأتراك[73].

هذا، ولم يأخذ الخليج العربي دوراً مرموقاً في الاهتمامات الفارسية إلاّ بعد عام 1726م عندما سيطر نادر شاه على فارس جميعها، وبدأ يتطلع بأنظاره إلى مدن الخليج العربي، وتبنى حينذاك (سياسته البحرية) في الشمال والجنوب، أي باتجاه بحر قزوين والخليج العربي. وحتى هذه السياسة فشلت بسرعة لعدم توفر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة ذلك الطموح والأطماع السياسية. ذلك أن قوام أسطوله كان يقوم على البحارة الهنود والبرتغاليين المرتزقة[74]. أما الميناء الذي كان يتجمع فيه ذلك الأسطول فهو ميناء بوشهر الذي أطلق عليه نادر شاه عام 1734م اسم بندر نادريه نسبةً إليه.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان الحكم في إيران قد آل إلى كريم خان الذي كان يمثل أقوى إدارة قامت في الخليج، فكانت قاعدته الأساسية شيراز ثم بسط نفوذه على البلاد جميعاً فيما عدا بعض المناطق البعيدة المتطرفة. ومن الجهات القليلة التي لم تخضع له خضوعاً كاملاً تلك المتاخمة للخليج مثل عربستان. وبالرغم مما وصل إليه كريم خان من قوة ونفوذ إلاّ أن مركزه في الداخل كان دقيقاً وحرجاً بحيث

(70) L. Lockhart, Nadir Shah, A Critical Study, pp. 1-17.

(71) محمد حجازي ـ تاريخ ايران ـ 1346هـ (باللغة الفارسية) ص 179.

(72) د. علي أبا حسين ـ دراسة في تاريخ العتوب ـ مجلة الوثيقة التاريخية ـ العدد الأول، ص 100.

(73) د. أبو حاكمة ـ المصدر السابق ـ ص 42.

(74) Sykes, A History of Persia. 271.

لا يسمح له بالتأثير في الأحداث الخارجية، إذ كان مشغولاً مدة حكمه القصير بقمع حركات التمرد في الداخل. وكانت الكويت قد بدأت في البروز[75]، بعد أن استقرت أمورها في الداخل ونظمت شئونها فسعت بكل جهدها إلى الظهور في عالم الخليج، فتحقق لها ما أرادت تحقيقه لنفسها من نمو وتطور بسرعة كبيرة وذلك بفضل العوامل الخارجية المحيطة بها والتي منحتها الأمن والسلام في تلك الحقبة من الزمن التي كانت بأشدّ الحاجة لمثل هذين العاملين الهامين لاطراد نموها وتقدمها.

أما الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الكويت في هذه المرحلة من تاريخها فقد جاء من الجانب الفارسي من الخليج العربي ولكنه لم يأت من الفرس بل من العرب مثل عرب بني كعب الذين كانت مدينتهم الدوراق مركز سلطتهم وقوتهم وكانوا ينزلون إلى الشرق والجنوب الشرقي من البصرة وكانوا لا يداومون على ولاء لأحد، فهم طوراً مع الفرس وطوراً آخر مع الأتراك وأحياناً مع الطرفين في آن واحد[76]. والخطر الآخر تمثل بعرب بندرريق ثم بوشهر وكانت هذه القبائل العربية الثلاث التي تحكم المدن الثلاث هي التي ترسم الخريطة السياسية للجزء الجنوبي من بلاد الفرس في العقد السابع من القرن الثامن عشر.

ويمكن القول إن العلاقات كانت قائمة باستمرار بين ساحل فارس الجنوبي على الجانب الفارسي من الخليج العربي وشرقي الجزيرة العربية، نظراً لأن ذلك الساحل كان مأهولاً بالعرب الذين كانوا على اتصال دائم بعرب شرقي الجزيرة الذين كانوا هناك. ولما أراد نادر شاه أن يوطّد أقدامه على ساحل الخليج الشرقي، اعتمد على مشاته الفرس، ثم لما أراد أن يبسط نفوذه خارج حدود فارس عبر الخليج العربي، اعتمد على ضباط من القرى لقيادة سفنه التي كان يسيرها ملاحون من العرب وهو متعمد بذلك على إبعاد العنصر العربي من جيشه البري، وأسند إليه أعمالاً ثانوية في بحريته، فكان مآل تلك السياسة إلى الفشل، إذ إنه لم يتمكن من أن يفرض تفوقه في مياه الخليج حيث فتك الجنود العرب برؤسائهم الفرس وسلموا الأسطول إلى إخوانهم العرب.

وعند تسلم كريم خان الحكم عام 1757م عمل على تركيز السلطة في يده بشكل كامل ووطّد علاقاته مع العرب النازلين بفارس فطلب منهم العون في كفاحه لتوطيد نفوذه في منطقة الخليج العربي، إلّا أن العرب لم يتعاونوا مع كريم خان بمحض إرادتهم بل إنهم تسبّبوا له بكثير من المشاكل[77].

وهكذا، ساهمت أوضاع بلاد فارس بصورة عامة في تسهيل مهمة العتوب في الكويت وفي تمكينهم من تأسيس مدينتهم وتوطيد حكمهم والعمل على إعلاء شأن بلدهم ـ فكان ضعف الفرس وانعدام نفوذهم إلى جانب انعدام نفوذ القوى الكبرى الأخرى وهي الدولة العثمانية في العراق، مما أتاح الفرصة أمام المدن الصغيرة النامية مثل الكويت والزبارة أن تتطور دون خوف من خطر قوة أكبر منها قد تتدخل في شئونها وتفرض عليها سلطانها، فتحدّ من حريتها واستقلالها ونشاطها ونموها واطراد تقدمها.

لذا، انحصر جهد العتوب الجاد والمضني في العمل على مواجهة تحديات القوى العربية الثلاث وهم بنو كعب وعرب بندرريق وبوشهر الذين تمكن العتوب في النهاية من النجاح في مقاومتهم والقضاء على خطرهم، والحفاظ على استمرار استقلال بلدانهم في الكويت والزبارة، وتخليص البحرين منهم وضمّها للمدن العتبية كقوة جديدة ناشئة.

وبالإضافة إلى تلك القوى القبلية الثلاث الكبيرة كانت هناك جماعة أخرى هي عرب الهولة النازلون في الجزء الجنوبي من الخليج والمنتشرون في جزر قشم وقيس وهرمز وغيرها من الجزر الصغيرة الواقعة في جنوب الخليج العربي، وبما أنهم لم يقوموا بدور يذكر في فترة دراستنا الممتدة عبر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لذا لن نتطرق إلى الحديث عنهم في هذا البحث.

(75) لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ـ ص 225-226.

(76) Niebuhr, Voyage en Arabe, 11, 178-188.

(77) د. أبو حاكمة ـ نفس المصدر ـ ص 66-67.

بنو كعب:

هم قبيلة شهيرة من سبيع ترجع في أصلها إلى نجد ومنها هاجر الكعبيون إلى أقصى بقعة في شمال الخليج العربي، حيث نـزلوا الإفشـار في العـراق[78] وبلغـوا درجـة كبيرة من القـوة ورفعة الشأن في منتصف القـرن الثامن عشر. وكـان شيخهم آنذاك سليمان الذي بلغت شهرته أوروبا نتيجـة لصراعه مـع الإنكليز واستيلائه على بعض سفنهم. واستمر الشيخ سليمان يحكم بني كعب حتى عـام 1766م. ثم انتقلت هذه القبيلة إلى شط العرب واستوطنت مدينة (قبـان) ثم لم تلبث أن تمكنت، أثناء حكم الشيخ سليمان، من الاستيلاء عـلى مدينـة الدورق في أعقاب مقتل نادر شاه عام 1747م بعد أن أبـدلتْ تسميتها إلى (الفـلاحية). وقـد نجـح الكعبيـون في إقـامـة إمـارة لهم تذبذبت في ولائها السياسي بـين العثمانيـين والفرس[79]. فقـد كـان على حكـام بني كعب أن يراوغـوا الطرفـين لـلاحتفـاظ باستقلالهم، ونجـح الشيخ سليمـان في الحفاظ عـلى استقلال بـلاده دون أن يـدفـع الخـراج لأي من الـدولتين. بـل إن الدولتين تسابقتا في محاولة كسب ودّ الشيـخ سليمان هـذا. كما نجح الكعبيون في تكوين أسطول بحري كبير ساعدهم في مد نفـوذهم عـلى المنـاطق المجـاورة[80]. ويقـال إن انتقـالهم من العراق على إثر نشوب خلاف بينهم وبين الدولة العثمانية التي طـردتهم من أراضيهـا فتـوجهـوا إلى الأراضي الإيـرانيـة بعـد ذلك[81].

وقـد انقسم الكعبيـون إلى قسمـين: قسم منهم أقـام في المحمرة وعابدان وقد تألف من عشائر (المحسن) و (الدريس) و (النصـار) وغيرهـا. والآخـر أقـام في الفـلاحيـة (الـدورق) وتألف من عشائر (مقدم) و (العسـاكرة) وغـيرها[82]. وهـاتان الأخيرتان هما اللتان نشبت بينهما وبين الكويت معركة الرقّة.

وقد تعرضت مشيخـة الكويت النـاشئة في وقت مبكـر من تـاريخها الحـديث لخطر الغـزو من قبل الكعبيـين الذين كـانوا يمارسون نوعاً من النفوذ على بعض المدن والقبائل النازلـة على شواطىء الخليج العربي ممن كانت تصلهم السفن الكعبية.

وقد تزايـد خطر بني كعب وتعـدّى تهديـدهم للقبائـل إلى تهـديـد نفـوذ متسلم البصرة وتجـارة شركـة الهنـد الشرقيـة الإنكليزية. لذا، اتحد متسلم البصرة مع مسئولي الشركـة في محاولة لإخضـاعهم، إلاّ أنّ كريم خـان حاكم فـارس تدخـل لحمايتهم محتجاً بأنهم من أتباعه المتمتعين بحمايته كما هي الحال بالنسبة لشيخ بوشهر الشيخ نصر آل مذكور الذي تمتع بحماية كريم خان كذلك[83]. وكان هدف كـريم خان من منـح هذه الحـماية لبني كعب وآل مـذكور هـو الاعتـماد عـلى أسطولهـما البحـري اعتماداً كليّـاً، لأن كريم خـان لم يكن يملك أسطولاً بحـرياً. ولما تزايـد خـطر بني كعب وحلفـائهم وآل مـذكـور شيوخ بوشهر على العتوب، وضمن محاولات الأخـيرين الجادة لدرء هذا الخطر فقد عملوا عـلى كسب صداقـة رجال شركـة الهنـد الشرقيـة الانكليـزيـة ومتسلم البصرة العثـماني، في الوقت الذي أبقوا فيه على صداقة بني خالـد حماتهم الأولـين، وذلك في محاولة للتمتع بحماية هذه القوى الكـبرى الثلاث في المنطقة في ذلك الحين، نظراً لأن قوة العتوب البحرية الذاتيـة لم تكتمل بعد، غير أن قوة بني خالد في ذلك الوقت قد بدأت في الاضمحـلال بحيث لم تكن قـادرة عـلى حمـايـة العتـوب، وذلك ما تأكد حين لم تحل تلك القـوة لبني خالـد دون هجوم بني كعب على ميناء القطيف الخالدي وتدميره ونهبه. فعـاد بنو كعب إلى عـاصمتهم الـدورق محملين بغنـائـم القـطيـف الوفيرة[84]. وذلك على الـرغم من قيام بني كعب بهـذا الهجوم

---

(78) Niebyhr. Voyage en Arabie, 11, 178-188.

(79) د. بدر الدين الخصوصي ـ المصدر السابق ـ ص 105.

(80) مصطفى عبدالقادر النجار ـ التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية 1897-1925، ص 41-44.

(81) سيف مرزوق الشملان ـ من تاريخ الكويت ـ ص 119.

(82) حسين الشيخ خزعل ـ تاريخ الكويت السياسي ـ ج 1، ص 1082.

(83) Parsons, Abraham: Travels in Asia and Africa (London 1808) pp. 196-198.

(84) A Letter from Mr. Latouche, Moore & Abraham (The Basra Residency) to the Court of Directors, London dated 13th of May 1774, from the factory records persia and the persian Gulf vol. 17, despatch No. 1074.

منفردين ودون مساعدة حليفهم شيخ بوشهر والذين كانوا يعملون معه في تحالف خاضع لكريم خان يحركهم كأداة كيفما شاء ضد العثمانيين وغيرهم من القوى المتنافسة في منطقة الخليج العربي، وهذا ما اتضح بجلاء أثناء حصار الفرس للبصرة عام 1775م.

وعلى الرغم من أن شيخ الكويت عبدالله بن صباح تصرف بحكمه أثناء حصار الفرس للبصرة وحاول إرضاء الطرفين، ولم يعمد إلى إثارة غضب أي منهما بل لعلّه استجاب لكثير من طلبات الفرس على مضض، في محاولة لدرء خطرهم وخطر حلفائهم عن الكويت الناشئة، وفي الوقت الذي كان الشيخ يحتفظ فيه بعلاقات صداقة طيبة مع متسلم البصرة الذي يكنّ له مودّة ومحبّة، فإنه أراد فيه أن يخطب ودّ الجانب الآخر في الصراع فاستجاب لطلب شيخ بني كعب في تسليمه السفينتين الحربيتين التابعتين لباشا بغداد واللتين وصلتا إلى الكويت محملتين بجمع من الأتراك والعرب يقدر تعدادهم بنحو مائتين وثلاثين رجلاً ـ كما يستدل من رسالة بعث بها وكلاء شركة الهند الشرقية الإنكليزية بالبصرة إلى مجلس المديرين بلندن. وتشير نفس الرسالة إلى أن الشيخ عبدالله قد أرسل جماعة قوامها مائتا رجل لمساعدة صادق خان. وتؤكد الرسالة أن هذه المساعدة لم تكن عن طيب خاطر من الشيخ إلاّ أن تلك المحاولات من جانب الشيخ لم تؤدّ إلى ما كان يرمي إليه منها، فلم تثمر في درء خطر الفرس وحلفائهم عن الكويت الذين استمروا في مهاجمة سفن العتوب التجارية والتعرض لها وسلب ما يستطيعون سلبه، مما دفع العتوب واضطرهم إلى اتخاذ موقف عدائي من أنصار الفرس والعودة للعداوة التقليدية بينهم وبين بني كعب، بل تطور الموقف إلى أكثر من ذلك حين خلقت عداوة مستجدة بينهم وبين شيخ بوشهر على ما سنرى[85].

وبالرغم من أن أسباب ذلك الصراع الذي نشأ بين العتوب وعرب بني كعب غير واضحة[86] تماماً، إلاّ أنها على أية حال كانت بسبب الغيرة من ازدهار العتوب ومنافستهم القوية لموانىء بني كعب.

معركة الرقة:

هي أول معركة في تاريخ الكويت ـ بغضّ النظر عن معركة فتح البحرين التي لم تقع في الكويت ـ ويعتقد أن وقوع معركة الرقة كان عام 1782م.

وأسباب هذه الموقعة الحربية طمع بني كعب في الكويت ورغبتهم الأكيدة بإخضاعها، وإباء أهل الكويت الخضوع وتمسكهم باستقلالهم وتحديهم لمظالم بني كعب[87]. فقد استرعى انتباه بني كعب ازدهار الكويت وتطورها السريع، وبعد أن عجز (بنو كعب) عن مجاراتها، ومنافسة موانئها التي ازدهرت وتفوقت على سواها من الموانىء المجاورة، واستحوذت على معظم التجارات القادمة من مختلف الأصقاع، وذلك نتيجة للسياسة الحكيمة التي اتبعها زعيمها الشيخ عبدالله بن صباح في البقاء على حياد الكويت وإقامة علاقات طيبة مع كبرى القوى التجارية الأوروبية، مثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية مع حرص الشيخ على تبني سياسة تجارية ناجحة، مما زاد في اطّراد نمو الكويت وتطورها التجاري وازدهارها الاقتصادي. وتضاعف هذا الازدهار[88] التجاري والاقتصادي حين انتقلت للكويت نشاطات وكالة شركة الهند الشرقية الإنجليزية من البصرة نتيجة لحصار الفرس للمدينة المشهورة، فأثار هذا الازدهار والتفوق التجاري والاقتصادي حسد بني كعب وتطلعهم لإخضاع الكويت بقصد التمتع بخيراتها والقضاء على منافستها القوية لموانئها، وموانىء حلفائهم، وفي محاولة للإقدام على هذه الخطوة قبل أن تبلغ الكويت أشدّها وتضاعف قوتها فتتمكن من مقاومة عدائهم وصدّه[89].

(85) د. أبو حاكمة ـ نفس المصدر ـ ص 79-80.

(86) خالد سعود الزيد ـ نفس المصدر ـ ص 54.

(87) خالد سعود الزيد ـ المصدر السابق ـ ص 54 الهامش ـ ج 3، ص 242.

(88) الشيخ يوسف القناعي ـ صفحات من تاريخ الكويت، ص 11-12.

(89) رنده المصري ـ الكويت (دراسة تحليلية) منشورة في مجلة الوثيقة التاريخية البحرينية (العدد الأول، ص 178-195).

وفي محاولة بني كعب[90] احتلال الكويت تذرعوا لذلك بحيلة لتغطية مطامعهم وغايتهم فتقدموا يخطبون (مريم) ابنة الشيخ عبدالله لأحد أبنائهم وهم يعلمون أن طلبهم لن يستجاب. وحين استشار الشيخ عبد الله أعيان الكويت أظهروا له أشدَّ الإباء والامتناع وحذّروه من الانصياع لبني كعب والخضوع لما يريدون لإدراكهم أن الأخيرين يرومون من وراء هذه المصاهرة ربط الكويت ببلادهم وقد أخذ الكويتيون للحرب أهبتها، وأودعوا نساءهم وأموالهم في سفن حتى إذا ما هُزموا يهرب الآخرون بالنساء والسفن ويتركون البلاد خاويةً. وساروا هم بسفن أخرى لملاقاة عدوّهم، وبعد مسيرهم تخوّف الشيخ عبدالله من غلبة عدوّهم وندم على ما فرّط ندماً عظيماً، دفعه إلى أن يبعث من يعيدهم قبل أن يشتبكوا وإياهم في قتال، سيما وأن جماعة(آل خليفة) ـ كما تشير بعض المصادر[91] ـ كان من رأيها إتمام تلك المصاهرة إرضاءً للكعبيين، اعتقاداً منهم بعدم مقدرة العتوب على مواجهة الخصوم.

على أن رأي آل خليفة لم يمنع الكويت من مواجهة تحدي الكعبيين[92]، كما لم يمنعهم عن ذلك حرص الشيخ عبدالله على أبناء شعبه، فبدلاً من أن يطلب رسول الشيخ من القوة الكويتية العودة ويثنيهم عن عزمهم في مواجهة العدو، حثّهم على ذلك قائلاً: (إن الشيخ عبدالله يقول لكم «سَوّد الله وجوهكم! إلى الآن أنتم لم تناجزوا العدو أتظنون أن المرء يموت قبل يومه؟» فأثار هذا الكلام حماس الكويتيين وشدّ من عزيمتهم وحفّز شجاعتهم وإقدامهم فجرت معركة حامية الوطيس بين الفريقين في الرقة وهي منطقة من البحر يقلّ فيها الماء وقت الجزر بحيث لا تستطيع السفن المتوسطة الحجم المرور منها[93]، وهذا ما أوجد صعوبة لدى سفن بني كعب الكبيرة الحجم، سيما وأن المعركة جرت في وقت توقفت فيه الرياح مما أفقد السفن الكعبية حرية الحركة وأتاح الفرصة للسفن الكويتية لكي تحيط بسفن الخصوم وتشعل فيها النيران فانهزم الكعبيون على ذلك النحو، وتمكن الكويتيون من الاستيلاء على بعض سفن الأعداء وأسلحتهم[94]، ومن بينهم بعض المدافع التي حملوها معهم إلى الكويت حيث نصبوها على ساحل مدينتهم كذكرى عزيزة غالية لذلك الانتصار الكبير[95].

ويقال إن أهم الأسباب في انتصار الكويتيين خطتهم الحكيمة حين هاجموا سفن القادة أولاً فنجحوا في ذلك مما أدّى إلى تداعي قوة الجند نتيجة لقتل قادتهم فركنوا إلى الفرار خوفاً من ملاقاة نفس المصير. كما أن دراية أهل الكويت بطبيعة جزْر الماء في ذلك الموقع من وطنهم وطريقة تسيير السفن بواسطة المجاديف إذا ما سكن الهواء، كل ذلك مكّنهم من النصر على أعدائهم الذين يجهلون تلك الأمور. وبذلك فشل الهجوم الكعبي على الكويت التي نجحت في رد المعتدين والانتصار عليهم. ومن أهم ما يمكن الخروج به من ملاحظات تحليلية لمعركة الرقة ونتائجها المشرفة على قلّة ما جاء عنها في المصادر المعاصرة لها بل والمعاصرة لنا بحيث لا تورد إلّا إشارات قليلة وقصيرة عن هذه المعركة، إلّا أننا يمكن أن نتبين خطوطاً رئيسية وواضحة لا تغيب عن الباحث المدقق في تتبعه لهذه المعركة الأولى في تاريخ الكويت الحديث، وهي:

1) إباء الكويتيين وشجاعتهم وإصرارهم على الحفاظ على استقلال بلدهم وردّ الأعداء عنها مهما كلّفهم ذلك من تضحية بالأرواح والأموال.

2) بالرغم من حكمة الشيخ عبدالله بن صباح المشهود له بها وحسن تصرفه تجاه الأحداث الجسام، إلّا أنه كان يصرُّ دائماً على استشارة أهل الرأي من شعبه حتى في شؤون الحرب.

---

(90) عبدالعزيز الرشيد ـ المصدر السابق ـ ص 88.

(91) سيف مرزوق الشملان ـ المصدر السابق، ص 119.

(92) Hopwood: The Arabian Penisula p. 32.

(93) عبدالعزيز الرشيد ـ المصدر السابق ـ ص 89.

(94) الشيخ يوسف القناعي ـ نفس المصدر ـ ص 12.

(95) د. بدر الدين الخصوصي (الأهمية الاستراتيجية للكويت في العصر الحديث) دراسة منشورة في مجلة كلية الآداب جامعة الكويت العدد السادس ـ ديسمبر 1974) ص 8.

3) أن الكويت كانت تمتلك في ذلك الوقت المبكر من تاريخها أسطولاً كبيراً ومجهزاً تجهيزاً طيباً. فقد تضافرت عدة عوامل على ظهور قوة الكويت البحرية، أهمها كون العتوب تجاراً فكانوا يزيدون من سفنهم التجارية كلما نمت تجارتهم والتي نمت بشكل واضح وكبير بعد حصار الفرس للبصرة. ولا شك أن تلك الزيادة في عدد السفن التجارية صحبها زيادة في عدد السفن الحربية مع تجهيز حربي لبعض السفن التجارية ذاتها، وذلك لحماية أسطول الكويت التجاري سيما وأن هذه الحماية أصبحت أمراً لازماً لا مفر منه لمواجهة حملات النهب والسلب التي كان يتعرض لها الأسطول أثناء رحلاته التجارية والتي تضاعفت بعد موت كريم خان حاكم إيران (عام 1779م) الذي كان يتمتع بهيبة في المنطقة جعلت أولئك الذين يمارسون هذه الأعمال يتوقفون عن القيام بأعمال السلب والنهب في الخليج، خصوصاً تلك القبائل العربية التي كان لكريم خان بعض النفوذ والسلطة عليهم. لذا، فقد اشتد الصراع بينها بعد وفاة كريم خان وزادت أعمال القرصنة والسلب على السفن العربية التي تنقل التجارة في الخليج[96]، مما دفع الدول البحرية على شاطىء الخليج إلى الاستعداد لمواجهة تلك الأعمال وحماية تجارتها منها وكانت الكويت من أبرز تلك المدن.

4) على الرغم من أن عهد الشيخ عبدالله بن صباح كان عهداً كله سلم ورخاء فلم تبدأ الكويت خلاله أحداً بالعداء. وكانت سياستها تقوم على السلم والأمن والابتعاد قدر الإمكان عن الحروب اتقاءً لشرورها ودفعاً لويلاتها إلّا أنها استعدت لحماية نفسها وردّ الأعداء عنها عند مواجهتها بالعداء من قبل القوى الأخرى، وهذا ما كان من ردّها للمعتدين من البحر أمثال بني كعب والذي تولاه أسطول الكويت بقدرة وإتقان بينما كان الشيخ عبدالله بنفسه ومعه أبناؤه يقودون العتوب في صد الأعداء من البر (كما سنرى). هذا، ولم تنته العداوة التقليدية التي نشأت بين بني كعب والكويت والتي كان من أوضح أسبابها الطمع والحسد من ازدهار الكويت ونموها السياسي والاقتصادي والرغبة في امتلاكها والتمتع بخيراتها، والقضاء على منافستها لموانئهم، ثم إن تأسيس العتوب للزبارة التي زادت من رخائهم وثرائهم زاد من طمع بني كعب بهم ورغبتهم في احتلال مدنهم سيما الكويت القريبة منهم، والأكثر ازدهاراً وتطوراً. لذا، هدد بنو كعب الكويت وتجارتها لأنهم لم يخشوا بأس أسطولها الذي كانوا قادرين على مواجهته بل إنهم كانوا قادرين على الوقوف في وجه أساطيل الشركة الإنكليزية وحاربوا كريم خان زند شاه فارس قبل وفاته عندما ضم قوته إلى قوة الشركة، وحاول عام 1759 دون طائل إخضاع الشيخ سليمان شيخ بني كعب[97]. كما فشلت حملة تركية إنكليزية مشتركة في القضاء على بني كعب والاستيلاء على مدينتهم الدورق عام 1765، وحتى الوهابيين لم يكونوا قد بلغوا شأناً يمكّنهم من التحرك نحو شرقي الجزيرة في هذه الفترة الواقعة ما بين عامي 1760-1775م.

لذا، استمر تهديد بني كعب للعتوب وتجارتهم فأدت المناوشات التي وقعت بين تحالف بني كعب مع شيخ بوشهر وشيخ بندرريق من ناحية وبين العتوب من ناحية أخرى إلى جانب الصراع بين القواسم وعرب مسقط وشيخ هرمز وشيخ جزيرة خرج، بالإضافة إلى اضطراب الأحوال في العراق العثماني وبلاد فارس، مما أدى إلى تحرك العتوب نحو البحرين واحتلالها وتقليص نفوذ شيخ بوشهر عليها، وهذا ما أدى بدوره إلى إشعال العداوة التقليدية بين العتوب من جهة وبين كعب وآل مذكور من جهة أخرى.

العلاقات مع شيخ بوشهر:

تخضع بوشهر لحكم آل مذكور وهم من عرب المطاريش العمانيين وكان شيخهم آنذاك هو الشيخ نصر آل مذكور. ويشير نيبور إلى أصل عرب بوشهر ما ترجمته «أن العرب النازلين في منطقة بوشهر ليسوا من الهولة ولقد امتازت بينهم ثلاث أسر اثنتان منها كانتا تنزلان في بوشهر منذ أمد بعيد جداً، أما الثالثة والمسمّاة بالمطاريش فقد جاءت مؤخراً من عمان حيث كانت تعمل في صيد السمك، وسرعان ما

(96) د. أبو حاكمة ـ نفس المصدر ـ ص 91.

(97) Wilson, The Persian Gulf, 184.

تضافرت الأسر الثلاث واستطاعت أن تستولي على زمام الأمور في بوشهر كما هو الأمر القائم حالياً، وهذا لا شك قد تم قبل عام 1765م بكثير».

ولم يكن الشيخ نصر يحكم تلك المدينة وجزءاً من البحرين فحسب، بل إنه كان يمتلك ممتلكات واسعة (خرم شهر) التي كان يحكمها باسم كريم خان، والذي لم يكن ليطمئن للشيخ نصر إلّا بعد أن ترك أولاده رهينة لديه، وقد استفادت شيراز من مخالفة الشيخ نصر لها نتيجة لوجود ممتلكاته في (خرم شهر).

هذا، وقد فاقت الأسباب التي دعت حكام بوشهر لمعاداة العتوب تلك الأسباب التي تجمعت لدى حلفائهم من بني كعب وذلك أن بوشهر كانت أكثر تأثراً منذ البداية بالنجاح التجاري الذي أحرزته مدينة البصرة بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية الإنكليزية إليها في العقد السابع من القرن الثامن عشر، وكان هذا التأثر من أهم الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات وتأزمها بين الباشا العثماني وحاكم بوشهر، وذلك إلى جانب تأثرها الكبير الناتج عن ازدهار تجارة العتوب في الكويت ومنافستهم لتجارتها بحيث كان انهيار تجارة بوشهر أمراً محتوماً[98].

لذلك أخذت تنظر إلى الكويت بعين الحقد والحسد وتتحين الفرص لتنفيذ عداوتها بالهجوم عليها، وهذا ما دفعها لمحالفة الفرس وبني كعب ضد الكويت ومناصرة الأخيرين في هجومهم على الكويت أثناء معركة الرقة، وذلك بالرغم من أن الشيخ نصر كان قد لجأ في وقت سابق إلى العتوب في الكويت واستنجدهم في فتح البحرين الذي تم عام 1753م، ولا شك أن في ذلك دليلاً واضحاً على أن الشيخ نصر كان مدركاً لقوة العتوب في الكويت ومقدراً لها، وأنه في حاجة إلى مساعدتهم بعد أن بلغوا ذلك القدر من القوة والنفوذ في الخليج العربي نتيجة لازدهار تجارتهم وتطور سفنهم حجماً واستعداداً، إلى جانب نمو مدينتهم وتقدمها. لذلك استنجد بهم الشيخ نصر المذكور طالباً مساعدتهم في فتح البحرين على أن يعفيهم في مقابل ذلك من دفع أية ضريبة على ممارسة الغوص في مغاصات البحرين. وكان العتوب يتقنون عملية الغوص[99].

ولا ندري ما إذا كانت الكويت قد استجابت لهذا الاستنجاد أم لا، وذلك لأن رد الكويت لم يرد في التقرير الهولندي لمدير شركة الهند الشرقية الهولندية نيفهاوزن (Kniphausen) ومساعده (جان فان هولست) عام 1756م - 1170هـ والذي رفعاه إلى الحاكم العام للشركة (جيكوب وسبل) ووصفا فيه أحوال المنطقة الساحلية للخليج وسكانها، والذي أشار إلى استنجاد الشيخ نصر بالكويت لفتح البحرين، كما أن رد الكويت على هذا الاستنجاد لم يردْ في أي مصدر آخر لنعرف ما إذا كانت الكويت استجابت له أم لا، ولنقرر بالتالي ما إذا كان موقف بوشهر العدائي للكويت كان أحد أسبابه رفض الكويت لهذا الاستنجاد فنضم هذا السبب إلى الأسباب الأخرى التي أشرنا إليها آنفاً.

ومهما يكن الرد على هذا الاستنجاد فقد انضمت بوشهر إلى القوى الأخرى في الجانب الشرقي من الخليج العربي وهم بنو كعب وعرب بندر ريق في عدائهم للكويت وتطلعهم لإخضاعها والسيطرة عليها، في محاولة للقضاء على منافستها لتجارتها وتفوقها عليهم. وبالرغم من أن بوشهر لم تقم بهجوم مسلح مباشر على الكويت إلّا أنها بلا شك قد ساعدت حلفاءها بني كعب في هجماتهم المسلحة على السفن الكويتية التي تجوب الخليج تنقل التجارة والأفراد - ونهبت وسلبت ممتلكاتها ثم ساعدت بني كعب كذلك في هجومهم على الكويت في معركة الرقة.

هذا ويشير مستر لاتوش إلى طلب الشيخ نصر شيخ بوشهر الصلح مع شيخ القرين (الكويت) وذلك قبل فتح العتوب للبحرين بقليل، غير أن شيخ الكويت رفض إجابة طلبه إلّا إذا دفع نصف دخله من البحرين وقدراً كبيراً من الجزية سنوياً عن بوشهر[100].

ولا شك أن طلب الصلح الذي تقدم به الشيخ نصر

---

(98) د. أبو حاكمة - المصدر السابق - ص 76-77.

(99) A Letter from Mr. Latouch (The Basra Residency) to the Court Directors, London dated 4th Nov. 1782, Vol. 17, despatch 1(100) 1230.

للشيخ عبدالله بن صباح يؤكد مدى القوة التي تمتعت بها الكويت في تلك الفترة والتي دفعت حاكماً قوياً مثل الشيخ نصر يملك أسطولاً ضخماً وقوياً أن يطلب الصلح معها. ومكّنها من رفض هذا الطلب للصلح وتقديم شروطٍ صعبة ولا يخشون بذلك تهديد القوة التي راح الشيخ نصر يعدها للهجوم عليها رداً على رفضهم الصلح معه، فلا شك أن عتوب الكويت كانوا على ثقة بقدرتهم على رد هذا الهجوم المنتظر، كما استطاعوا أن يتحدوا بني كعب ويردوا هجومهم على بلدهم في معركة الرقة وينتصرون عليهم.

كل ذلك جعل الصراع يشتد عى النفوذ والسلطة في المنطقة والذي أدى إلى تمكن العتوب من الاستيلاء على البحرين عام 1782م والقضاء على سلطة الشيخ نصر ونفوذه فيها.

بندرريق:

إلى الشمال من بوشهر قامت مشيخة بندر ريق التي كان شيخها يتمتع بنفوذ يمتد إلى أبعد من حدود مدينته بندر ريق والمدن المجاورة لها ويصل حتى أماكن أخرى في (خرم شهر).

وكان شيخ بندر ريق حليفاً لشيوخ بني كعب وشيوخ بوشهر لذا، فقد عاون الأخير عام 1753م في احتلال البحرين. وربما كان من أسباب هذا التعاون إلى جانب كونهما حلفاء أنهما يشتركان في الانتماء إلى قبائل عربية عمانية، فشيخ بندر ريق ينتمي إلى قبيلة بني صعب، بينما ينتمي شيخ بوشهر إلى قبيلة المطاريش. وقد كان حاكم بندرريق في العقد السابع من القرن الثامن عشر مير مهنا نجل مير ناصر، وكانت هذه الأسرة تنتمي إلى المذهب السنّي إلاّ أن مير مهنا، نظراً لعلاقاته الوثيقة مع شاه إيران، رأى أن من مصلحته ومصلحة بلده أن يتحول إلى المذهب الشيعي وأن يتزوج من إيرانية شيعية، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح العرب ينظرون إلى أسرة مير مهنا على أنها فقدت عراقتها.

وقد لعب مير ناصر وولده مير مهنا دوراً بارزاً في أحداث الخليج العربي لاسيما في الفترة ما بين عام 1753 وعام 1769 وذلك أن مير ناصر قد سمح في عام 1753م للهولنديين باتخاذ جزيرة خرج التابعة له مقراً لوكالتها التجارية (وكالة الهند الشرقية الهولندية)، ثم قام البطل العربي مير مهنا بدورٍ وطني كبير حتم عليه أن يحارب ضد الهولنديين والفرس والإنكليز على التوالي، وذلك أنه بعد مدة قصيرة من إقامة الهولنديين في جزيرة خرج وقع خلاف بين رئيسها البارون نيفهاوزن (Kniphausen) ومير ناصر بعد أن رفض الأول أن يزيد الايجار الذي نصت عليه اتفاقية تأجير الجزيرة لوكالة هولندية ، مما أوجد عداوة بين الجانبين استمرت قائمة حتى حينما تولى مير مهنا مشيخة بندرريق بعد أن قتل والده عام 1758م. وفي الوقت ذاته كانت علاقة مير مهنا مع الفرس لا تقل سوءاً عما هي عليه مع الهولنديين غير أنه احتفظ بعلاقات ودية وثيقة مع باشا بغداد العثماني ومع متسلم البصرة، كما ساءت علاقة مير مهنا بشركة الهند الشرقية الإنكليزية مما جعله في وضع حرج. لكن لا يهمنا من هذه الأمور سوى علاقة مير مهنا بالفرس والتي اضطرته للجوء إلى الكويت عام 1769م وذلك أن مير مهنا بعد أن تخلص من الهولنديين بطردهم من جزيرة خرج اشتد النزاع بينه وبين كريم خان الذي أحكم الحصار عليه مما أجبره على الهرب والالتجاء إلى الكويت متستراً بظلام الليل حاملاً معه بعض المقربين إليه وشيئاً من كنوزه، مبحراً في سفينة سريعة إلى الكويت التي وصلها في الليلة التالية في طريقه إلى البصرة[102].

ولعل لجوءه إلى الكويت جاء بعد تحسن علاقته معها وبعد أن انفرط عقد ذلك التحالف العدائي للكويت والذي كان طرفاً فيه مع بني كعب وآل مذكور، وقد يكون تحسن العلاقات مع الكويت ناتجاً عن أن الأخيرة قد أقامت علاقات حسنة مع شركة الهند الشرقية الهولندية في جزيرة خرج، فلما طرد مير مهنا الهولنديين من تلك الجزيرة رغب في الاحتفاظ بتلك العلاقات الطيبة لاسيما وأن علاقته مع حليفيه السابقين (بني كعب في الفلاحية وآل مذكور في بوشهر) لا بدّ أن تكون

(101) د. أبو حاكمة ـ نفس المصدر ـ ص 71.

(102) لوريمر ـ دليل الخليج القسم التاريخي ـ المجلد 3، ص 55.

قد تأثرت نتيجة لسوء علاقته مع كريم خان.

ومهما يكن الأمر، فقد رحبت الكويت به كلاجىء وكانت على استعداد لحمايته رغم ما بدر منه من عداوة سابقة، إلّا أن مير مهنا رغب في مواصلة سفره إلى البصرة حيث ظن أنه سيكون هناك بمأمن من كل خطر لاسيما وأنه كان لا يزال محافظاً على المعاهدة القائمة بينه وبين والي بغداد الخاصة بعدم التعرّض لأية سفينة متجهة إلى البصرة أو عائدة منها، هذا وقد أحسن المتسلم استقباله وأكرم وفادته باعتباره صديقاً لسيده باشا بغداد[103] تبعاً لرواية الرحالة الإنكليزي المعاصر بارسونز (Abraham Parsons) إلّا أن لوريمر يختلف مع الأخير حين يؤكد أن المتسلم التركي قد غدر بالمير مهنا وأعدمه شنقاً في منتصف ليلة 21 مارس 1769[104]، ولا نريد أن نتتبع قصة مير مهنا لنتأكد أياً من الروايتين صحيحة، فإن أكثر ما يهمنا في موضوعنا هو لجوء مهنا إلى الكويت.

العلاقات الكويتية البحرينية:

ترتبط الشقيقتان الكويت والبحرين بروابط أخوية متينة وثيقة العرى ثابتة البنيان لا يمكن تفكيكها أو تفتيتها مهما كانت الظروف التي تمر بها، أو الأحداث التي تتأثر بها: فهناك روابط القربى المتينة التي تشد الأسرتين الحاكمتين في كلا البلدين بعضهما لبعض. فإن لهما أصلاً واحداً ونسباً واحداً حيث تنتميان إلى نفس القبيلة وهي قبيلة عنزة العربية الكبرى. حيث يقول الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة: «إننا آل خليفة وآل صباح كلنا عنزة من قبيلة العمارات أبناء تغلب بن وائل»[105]. ونستطيع أن نذهب أكثر من ذلك فنقول إن للأسرتين رباط قربى أكبر من انحدارهم من قبيلة واحدة فهما تنتميان إلى نفس الفخذ (جميلة) بل وإلى نفس الفرع (شملان)[106] ولا نستبعد أن يربطهما جدّ واحد حيث كانت عزوتهم وشهرتهم حين هجرتهم من موطنهم الأصلي كما يقول الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة واحدة هي (الأدسالم) أي أولاد سالم وبقيت حتى بعد انتصار آل الصباح في معركة الرقة (يذكر الشيخ عبدالله أنها وقعت عام 1782) وفتح آل خليفة للبحرين عام 1783م[107].

وإلى جانب روابط القربى القوية بين الأسرتين الحاكمتين والعتوب عموماً من سكان البلدين فإن تاريخ الكويت والبحرين واحدٌ لا يتجزأ منذ القدم حيث شملت مملكة دلمون الكويت (فيلكا) وكثيراً من أجزاء الخليج العربي ثم في التاريخ الوسيط حين كان حاكم البحرين يشمل بنفوذه أجزاء كبرى من منطقة الخليج العربي منها الكويت. ثم كانت الكويت والبحرين أكثر اتحاداً والتصاقاً بعضهما ببعض في التاريخ الحديث بحيث لا يستطيع دارس تاريخ الكويت إلّا أن يبدأ بهجرة العتوب بزعامة آل صباح وآل خليفة وآل جلاهمة من موطنهم الأصلي (الهدار) في نجد متحدين تحت اسم واحد هو (جماعة العتوب) ومرورهم بعدة أماكن متفرقة حتى وصلوا إلى الكويت وأسسوا مدينة الكويت فيها وتقاسموا الأمور فيها من سياسية وتجارية وشئون البحر، فاختصت كل أسرة من هذه الأسر بشأن من الشئون. وعملوا على نمو الكويت وتقدمها وازدهارها فلما تم لهم ذلك وسّعوا نفوذهم ومدوا سلطانهم إلى كل من الزبارة والبحرين مشتركين ومتحدين في كل هذه الأحداث الهامة في تاريخ الكويت والبحرين. لذا، فلا يمكن فصل تاريخ أي من البلدين عن الآخر مهما حاول الباحث واجتهد في ذلك نتيجة لاختصاصه لدراسة واحدة من البلدين، ودارس تاريخ البحرين الحديث سيصادف نفس الوضع الذي قابله عند دراسة تاريخ الكويت الحديث.

أما أسباب هجرة آل خليفة من الكويت والتي حدثت حوالي عام 1766[108] فقد اختلف حولها المؤرخون حتى من أسرتي آل الصباح وآل خليفة، فبينما يجمعون على أنها جاءت بسبب

(103) Parsons, Abraham: Op. Cit. 196-198.

(104) لوريمر ـ المصدر السابق ـ المجلد الثاني ـ ص 2655.

(105) رسالة جوابية من الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة إلى سيف مرزوق الشملان بتاريخ 4 ذو الحجة 1374هـ منشورة في (من تاريخ الكويت) ص 104.

(106) نوريه الصالح علاقات الكويت السياسية بشرقي الجزيرة العربية والعراق العثماني 1811-1902، ص 15.

(107) المقالة السابقة للشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة الوثيقة العدد الثالث رمضان 1403هـ الموافق يوليه 1983م.

(108) د. علي أبا حسن في رسالة جوابية بتاريخ 7 ربيع الثاني 1405هـ الموافق 3 ديسمبر 1984م رقم ط 1984/91/1.

بني كعب فإنهم يختلفون في تفاصيل هذا السبب بحيث يصفه كل جانب بشكل مغاير عن الجانب الآخر. ففي حين يذكر الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أنه سمع من كبار عشيرته آل خليفة أن سبب الهجرة كان محدداً، وذلك أن إحدى سفن الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة وفيها أحد أبنائه (لا يعلم هل هو خليفة أو أحمد أو مقرن) كانت راسية في الدورق وكانت تحمل تمراً فهاجمها قطاع الطرق ليلاً بهدف نهبها ونشبت بين المهاجمين وأصحاب السفينة معركة انتهت بقتل أحد المهاجمين وهو من بني كعب. وغادرت السفينة مرساها بسرعة وعادت للكويت فطلب بنو كعب بتسليم ابن الشيخ محمد لأخذ الثأر منه لقتيلهم فرفض الشيخ محمد تسليم ابنه واقترح عليه الشيخ عبدالله بن صباح أن يأخذوا الابن في مسيرة ويذهبوا إلى بني كعب ويطلبوا منهم الصفح على أن يدفعوا لهم دية القتيل، فلم يوافق الشيخ محمد على ذلك الرأي وقال إنه مستعد لدفع الدية مهما بلغت لكنه لن يسلم ابنه، خاصة وأن بني كعب هم الذين بدأوا العدوان. فاشتد الخلاف بين بني كعب والشيخ عبدالله نتيجة لذلك الرفض، مما دعا الأخير إلى الإلحاح على الشيخ محمد بتسليم ابنه على أساس أنه ليس في مقدورهم محاربة بني كعب، فأدى ذلك إلى مغادرة الشيخ محمد آل خليفة مع من رافقه من العتوب وتوجه إلى أقاربه وأصهاره العتوب من آل بنعلي الذين هاجروا من الكويت في وقت سابق وسكنوا الفريحة في قطر فسكن عندهم وأسس مدينة الزبارة في وقت لاحق واستقل بها عن قطر[109].

وفيما يورده مؤرخنا المحلي الشيخ يوسف القناعي (صفحات من تاريخ الكويت) تأييداً لبعض ما ذهب إليه الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، إذ يشير إلى أنّ أصحّ الأقوال في سبب هجرة آل خليفة هو ما حصل من التعدي على أهل الكويت من بني كعب بن عامر فلم يطق الشيخ محمد بن خليفة هذه الإهانة فهاجر إلى الزبارة[110].

هذا، وتعزو الرواية المحلية الأخرى تلك الهجرة إلى أن الخلاف تطور بين بني كعب وشيخ الكويت إلى مرحلة حدت بالأولين إلى فرض شروط على الشيخ رآها آل صباح مقبولة وشايعهم بعض العتوب في ذلك ورآها آخرون ومن جملتهم آل خليفة غير مقبولة، مما حدا بالأخيرين إلى الهجرة. حيث قال شاعرهم: هب الهبوب وطير الشر وانجال[111]. واللي يبقى حاشا الردى[112] والذله، فأجابه شاعر آل صباح ومن أقام معهم: هب الدبور وطير التبن وانجال. لا بقي إلاّ مصطلح[113] الحب كله[114].

ويؤكد النبهاني رواية الشيخ عبدالله آل خليفة فيقول «إن الشيخ محمد بن خليفة كان قد وقع عليه جور وتعديات من أمراء المحمرة من بني كعب الذين كان لهم نفوذ ومطامع في تلك الجهات، مما زهده في سكنى الكويت وحبب إليه الرحيل، فهاجر بقومه ونزل بهم في الزبارة من بر قطر[115].

أما الكولونيل ديكسون (Dickson) فيورد رواية مغايرة نقلاً عن الشيخ عبدالله السالم الصباح (الحاكم الأسبق للكويت) أن جماعة آل خليفة كان من رأيها إجابة طلب الكعبيين للمصاهرة مع حاكم الكويت الذي تقدموا به قبل معركة الرقة اعتقاداً منهم بعدم قدرة العتوب على مواجهة بني كعب في حال رفض طلبهم، وأن هذا الخلاف في الرأي بين آل الصباح وآل خليفة كان دافعا للجماعة الأخيرة على الهجرة من الكويت عام 1766م كما يذكر هوب ود (Hopwood)[116].

وتخرج علينا جماعة أخرى من آل خليفة برواية مختلفة حتى

(109) الشيخ عبدالله بن خالد المقالة السابقة مجلة ثقافية نفس العدد ص ص 20-21.

(110) الشيخ يوسف القناعي صفحات من تاريخ الكويت.

(111) انجال ـ مقلوب انجلي أي انكشف.

(112) حاشا الردى ـ نال الردى.

(113) مصحصح ـ خالص.

(114) عبدالعزيز الرشيد نفس المصدر ص ص 89-90.

(115) النبهاني تاريخ البحرين، ص 119.

(116) Dickson: Kywait and her Neighbours, p. 27.

عن رواية الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة السابقة حيث يعزون تلك الهجرة لأسباب سياسية خاصة بالحكم فيذكرون: إنه سبق لفيصل جد خليفة حكم المنطقة التي أقام فيها العتوب قبل نزولهم إلى الكويت، وقد قام فيصل هذا بتزويج إحدى كريماته لجابر، (والد الشيخ صباح بن جابر) عقب اختياره كأول حاكم للعتوب في الكويت على أمل أن يصبح الحاكم الذي سيخلفه من أسرة (فيصل). فلما اختير (عبدالله) أصغر أبناء (صباح) للحكم رحل آل خليفة من الكويت[117].

هذا، ويمكن الأخذ بأي من الروايات السابقة لتقاربها وإجماعها على كون السبب المباشر للخلاف والهجرة هو اعتداءات بني كعب وردود فعل كلّ من الأسرتين عليها مهما اختلفت تلك الروايات في تفسير ردود الفعل تلك حسب ميلها لآل الصباح أو آل خليفة، إلاّ أننا لا يمكن أن نقبل الرواية الأخيرة بأي حال من الأحوال لأنها تجانب المنطق وتخرج عن سير الأحداث التاريخية التي مرت بها الأسرتان كما أنها لم ترد في رواية أو مصدر آخر. فإذا حلّلنا هذه الرواية نجد أنها غير صحيحة ابتداءً من كون أي من الأسر العتبية لم تحكم أي منطقة من المناطق التي مروا بها قبل وصولهم إلى الكويت وتأسيس حكمهم فيها وكان استقرارهم في كل البلاد التي مروا بها تحت ظل حكامها سواء طال هذا الاستقرار أم قصر. كما أن المصادر تشير إلى وفاة جابر والد الشيخ صباح الأول في الزبارة (في قطر) قبل وصول العتوب إلى الكويت، وهذا ما يؤكده المنطق والأحداث فلو كان جابر حيًّا حين استقر العتوب في الكويت لولّي هو حاكماً على الكويت بدلاً من ابنه، ثم لو افترضنا أن الشيخ صباح تولى الحكم ووالده على قيد الحياة وأن فيصل أراد المصاهرة بقصد أن يؤول الحكم إلى أسرته، فلماذا لم يزوجها الشيخ صباح نفسه. ثم حتى لو آل الحكم إلى أحد أبناء ابنه فيصل فإن هذا الابن هو من سلالة آل صباح وليس من سلالة آل خليفة لأن الابن ينسب إلى أبيه وليس إلى أمه. وأخيراً، فإنه من المعروف لدى الجميع أن أول مصاهرة بين آل الصباح وآل خليفة كانت حين تزوج خليفة بن محمد بن خليفة من (مريم) ابنة الشيخ صباح بن جابر، وذلك أن والد خليفة هذا وهو الشيخ محمد بن خليفة قد توفي في الكويت في العقد الثالث من القرن الثاني عشر الهجري الموافق للعقد الثاني من القرن الثامن عشر. ولما كان الشيخ خليفة صغيراً في السن عند وفاة والده الشيخ محمد لذا، فقد رعاه عمه الشيخ صباح وزوّجه ابنته[118].

وأقرب رواية إلى الواقع ومسايرة الأحداث تلك التي وردت في ملاحظات (فرانسيس واردن) عن العتوب. فقد أشار إلى أن الكويت عندما بلغت مستوى عالياً من التطور والازدهار إبان الخمسين عاماً الأولى من نشأتها، رغب الفرع التجاري في التحلل من التحالف القديم لكي ينفرد أصحابه بالتمتع بالغنى والحصول على الثروة[120]. لذلك اضطر هذا الفرع التجاري أن يسلك طريق المواربة لتحقيق مبتغاه. وذلك عندما صور الشيخ (خليفة بن محمد) للجماعتين الأخريين مخابل الثراء التي تتراءى لعينيه من الانتقال إلى سواحل ذلك الجزء من الخليج حيث يكثر اللؤلؤ، وأنهم إذا أنشأوا مستوطناً في بقعة مجاورة استطاعوا أن يباشروا استخراج اللؤلؤ بأنفسهم، فأذن شيخ الكويت للشيخ خليفة بمغادرة الكويت مع قسم من جماعته حيث نزلوا في الزبارة وحصلوا على قسم هام من مصايد اللؤلؤ، حيث تمكن الشيخ خليفة من استدعاء بقية جماعته إلى هذا المستوطن الجديد، ومع مرور الزمن انفصلت جماعة (آل خليفة) تماماً عن الجماعتين الأخريين واستقلت بالزبارة[121].

هذا، ومهما اختلفت المصادر في تفاصيل أسباب هجرة آل خليفة عن الكويت والتي أوردناها جميعاً ورجحنا ما رأيناه أكثر واقعية، إلاّ أنه يمكننا القول بعد ذلك وباطمئنان إنه لم ينتج عن هجرة آل خليفة أي خلاف بينهم وبين آل الصباح

---

(117) Hopwood, Op. Cit. p. 40.

(118) د. أبو حاكمة، تاريخ شرقي الجزيرة العربية، ص 93.

(119) المقالة السابقة للشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة ـ نفس المصدر، ص 18.

(120) Mr. Warden: The rise and progress of the Arab Tribes of the persian Gulf, Vol. No. 4 pp. 362-363.

(121) Extract, Op. Cit. No. 5 pp. 362 F.

أو ضرر لبلديها، وإنما نتج عن هذه الهجرة زيادة في تعاون الأسرتين بإطار من المحبة والمودة والوفاق في العمل لكل ما فيه مصلحة بلديها وتقدمها ورخائها فقد مدّ جماعة العتوب نفوذهم إلى مناطق أخرى ووسعت من سلطتها في هذه المناطق الجديدة مما عاد عليها بالغنى الوفير نتيجة لامتلاء تلك المستوطنات الجديدة (الزبار) ثم البحرين فيها بعد وصلاحية موانئها ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز، مما ساهم في ازدهار تجارتهم وتطور نشاطهم في النقل البحري.

ومهما يكن من أمر هجرة آل خليفة، فالثابت أن هذه الجماعة عندما تركت الكويت بين عام 1762[122] و1766[123] وكان على رأس هذه الجماعة الشيخ (خليفة بن محمد)[124]، قد سلكت طريق البحر نحو جزر البحرين للإقامة هناك[125]، إلّا أن حكامها من (آل مذكور) حالوا بينهم وبين ذلك[126]. فاتجهوا إلى شبه جزيرة قطر، وأقاموا في الزبارة[127]، على مقربة من جزر البحرين حيث أخذوا يتطلعون منها إلى تلك الجزيرة لإخضاعها لنفوذهم.

الاستعداد لفتح البحرين:

وبنزول آل خليفة منطقة الزبارة بقطر ـ على ذلك النحو ـ أصبحوا على مقربة من الجيران في البر والبحر على حد سواء، فمن ناحية البركان (الخوالد) يتركزون في الإحساء، وهؤلاء لا خوف منهم فقد سبق للعتوب التحالف معهم، وهناك (آل مسلم) أصحاب النفوذ والسلطان الفعلي في قطر، وبما أنهم قد سبق لهم الاصطدام بالعتوب قبل رحيلهم إلى الكويت خلال هجرتهم من موطنهم الأصلي (الهدار) لذا، لم يكن مستبعداً أن ينشب نزاع بينهم وبين آل خليفة لاسيما وأن الأخيرين رفضوا دفع الزكاة لهم[128]، وأعدوا عدتهم للاستقلال بالزبارة. كما أن العشائر القطرية الأخرى كانت على استعداد لمناوأة العتوب الذين شاركوهم خيرات بلادهم بل فاقوهم نشاطاً وخبرة مما أكسبهم المزيد من الغنى والثراء.

ولذا، وإزاء تلك الأخطار التي أحاطت بعتوب الزبارة كان عليهم الاستعداد والاعتماد على النفس في الدفاع عن مركزهم الجديد، فأقاموا العديد من الحصون والأسوار[129] لحماية مدينتهم، ولم يعولوا كثيراً على تحالفهم مع (الخوالد) لانشغال الأخيرين في نزاعهم الأسري من ناحية، وصراعهم مع الوهابيين من ناحية أخرى، واهتم آل خليفة إلى جانب ذلك بتنمية مواردهم الاقتصادية وذلك لمواجهة التحديات التي تعترضهم، وقد وجدوا أن ذلك لا يتحقق إلّا بالإكثار من سفنهم العاملة في صيد اللؤلؤ وتخفيض الرسوم الجمركية وبعد فترة عجزت الزبارة عن تلبية احتياجات مجتمع (العتوب) الجديد الذي تزايد أفراده بشكل كبير بانضمام جماعات أخرى إليه في أعقاب احتلال الفرس للبصرة (1776-1779)، واضطرار أعداد كبيرة من مواطنيها إلى الهجرة نحو موانىء الخليج المختلفة وبصفة خاصة تلك التابعة للعتوب في الكويت والزبارة، نظراً للتسهيلات الكبيرة التي كانت توليها هذه الجماعة للتجارة. وذلك إلى جانب قدوم جماعات من شبه الجزيرة العربية واستقرارها في الكويت والزبارة كذلك[130].

(122) د. علي أبا حسين في رسالته الجوابية السابقة لي.

(123) Albaharna, The Arabian Gulf States, p. 3.

(124) د. أبو حاكمة محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ص ص 128-131.

(125) د. أبو حاكمة نفس المصدر، ج 1، ق 1، ص 129 ـ محاضرات ص 79.

(126) يذكر الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة أنه سمع من المرحوم الشيخ محمد بن عيسى رواية عن المرحوم راشد بن فاضل آل بنعلي أن بنعلي أثناء هجرتهم من الكويت التي سبقت هجرة آل خليفة حاولوا المرور بالبحرين ومنعهم آل بومهير من ذلك أي أن الذين حاولوا المرور بالبحرين والاستقرار فيها هم آل بنعلي وليس آل خليفة.

(127) عثمان بن سند ـ المصدر السابق، ص 12.

(128) أمل الزياني، البحرين من 1783-1973، ص 43.

(129) تمكن آل خليفة خلال عامين من نزولهم (الزبارة) من بناء سور المدينة وقلعة مرير.

(130) د. بدر الدين الخصوصي دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج 1 ص ص 108-110.

فكان من الطبيعي إزاء تزايد عدد سكان «الزبارة» على ذلك النحو أن يتجه العتوب بأنظارهم نحو البحرين والتي تمثل لهم مركز الثروة والرخاء في منطقة الخليج العربي لشهرتها بمغاصات اللؤلؤ ووفرة الزرع والنخيل بها. لذا، فكروا بالتوسع نحوها ومد سلطتهم إليها ولم يتطلعوا في ذلك إلى التوسع الداخلي في شبه جزيرة قطر نتيجة لتبعية أجزاء منها لبني خالد الذين تربط بهم علاقات طيبة، فلم يكونوا راغبين بالإساءة إلى تلك العلاقات. أما الأجزاء الأخرى التابعة للعشائر القطرية فقد كان العتوب مدركين لمدى الجهد الذي يتوجب عليهم بذله لإخضاعهم، كما كانوا مدركين أن نجاحهم في ذلك إلى جانب صعوبته فإنه وقتي لأن التحرك الوهابي نحو شرقي شبه الجزيرة العربية كان قد اشتد وأحاط الزبارة بخطره. لذا، فلم يكن أمام عتوب الزبارة من سبيل يطرقونه سوى البحرين التي سيحققون الكثير من المكاسب المادي بإخضاعها، كما أنها كانت في مأمن بعض الشيء من الموحدين السعوديين لوجود الحاجز المائي، ثم إن الطريق إليها أكثر يسراً من التحرك إلى الداخل، فهم يمتلكون السفن القادرة على إخضاعها، وهم بوجودهم في (الزبارة) أقرب إليها من آل مذكور حكام بوشهر الذين كانوا يزاولون السلطة والنفوذ على تلك الجزر، والذين كانوا يتحينون الفرص المناسبة لشن هجماتهم على عتوب الزبارة[132]. خلال الفترة الواقعة بين عامي 1777 و1782 بعد أن زادت قوتهم وازدهارهم الاقتصادي ومنافستهم لهم بتحول القسم الأكبر من تجارة البحرين إليها، مما حدا بآل مذكور الوقوف منهم ذلك الموقف العدائي[133]. وقد شجع ذلك الموقف من آل مذكور (عتوب) الزبارة على بذل المحاولات الجادة من جانبهم لإخضاع البحرين منتهزين فرصة النزاع القائم بينهم وبين حكام البحرين من آل مذكور ومعتمدين على ما أسسوه من قوة بحرية بحكم الممارسة والواقع الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد رحيلهم عن الكويت.

وفي الوقت الذي وقف فيه شيوخ (بني كعب) و (بندرريق) و (هرمز) و (القواسم) إلى جانب (آل مذكور) انضمت العشائر القطرية إلى جانب عتوب الزبارة، كما كان من الطبيعي أن ينضم إليهم بقية العتوب من آل صباح والجلاهمة[134].

معركة الزبارة:

وقد اتخذت قوات العتوب موقف الدفاع في بداية المعارك التي نشبت بشأن البحرين، ولكنهم نجحوا في الاستيلاء على إحدى سفن الخصوم[135]، مما أجبر الأخيرين على الخروج لمهاجمة الزبارة ومحاصرتها، إلّا أنهم فشلوا في ذلك وأخذت سفنهم تتردد ما بين الزبارة والبحرين، وهنا حاول (راشد بن مطر) شيخ القواسم في (جلفار) التوسط بين الجانبين غير أنه فشل في وساطته مثلما فشلت وساطة (شيخ بندرريق) التي سبقتها. لذلك، تحركت قوات بوشهر نحو الزبارة للاستيلاء على قلعتها[136]، ولكنها ووجهت بمقاومة باسلة من العتوب مما اضطر الأعداء إلى الفرار على أثر هزيمتهم[137]، وقتل بعض قادتهم في معركة الزبارة عام 1782م. هكذا وقعت معركة الزبارة.

فتح البحرين:

يشير د. أبو حاكمة إلى أن العتوب ظلوا بعيدين عن تلك المعركة (الأولى) وذلك نتيجة لكونهم ينتظرون أن ينزل بهم هجوم بوشهر قبل الزبارة نظراً لقرب مدينتهم من ديار بني كعب وبوشهر. كما يبدو أن أنباء الهجوم على الزبارة قد وصلتهم متأخرة وبعد أن ألقوا القبض على مركب تابع لبوشهر يحمل أنباء هزيمة جيوش الأخيرة في الزبارة، وأوامر

(132) د. أبو حاكمة تاريخ شرقي الجزيرة العربية ص ص 143-144 محاضرات ص ص 105-106.

(133) IOR: Briet history or Bahrain Islands.

(134) Hopwood: Op. Cit. p. 40.

(135) Extracts, Op. Cit. No. 11, p. 364.

(136) د. بدر الدين الخصوصي دراسات في تاريخ الخليج العربي، ج 1 - ص 110.

(137) Belgrave: The pirate, p. 124.

إلى ابن الشيخ نصر المتصرف بشؤون البحرين بأن يبذل كل ما في وسعه للدفاع عن المدينة حتى يتيسر لوالده أن يمده بالعون وبذلك يتسنى لعتوب الكويت معرفة ما يجري في الزبارة والبحرين[138].

لذلك، أبحر أسطول الكويت المكون من مراكب كبيرة وبعض المراكب الصغيرة إلى الزبارة لنجدتها[139] متخذين بذلك إجراءً سريعاً وحاسماً لمساعدة آل خليفة فتوجهوا إلى البحرين واستولوا على قلاعها الرئيسية وقطعوا خط الرجعة على أسطول الشيخ نصر المهزوم.

ويذكر المستر لاتوش (Latouch) (مقيمية البصرة) في رسالة منه إلى ديوان الإدارة بلندن (مؤرخة 4 نوفمبر سنة 1782) ما ترجمته: «هاجم أهالي القرين والزبارة مؤخراً البحرين ونهبوها مثلما استولوا على عدة سفن تابعة لبوشهر وبندر ريق في مدخل النهر (شط العرب)، ورد الشيخ نصر على ذلك بجمع قوة بحرية وأخرى برية من بوشهر وبندر ريق وموانىء فارسية أخرى. وتظاهر (الشيخ نصر) بأنه ينوي الثأر لهذه الاعتداءات بشن هجوم على الزبارة. وكتب إلى علي ميرزا علي خان في أصفهان لكي يمده بالمال. ورغماً عن مظاهر الحماس، يقال بأن (الشيخ نصر) أرسل مؤخراً إلى القرين في طلب الصلح ولكن (شيخ القرين) رفض الموافقة على هذا الطلب ما لم يدفع له الشيخ نصر نصف دخل البحرين، وأيضاً أتاوة سنوية كبيرة عن بوشهر». ويمضي لاتوش في سرد الأحداث قائلاً: «لم تمض سنوات كثيرة على الوقت الذي كانت فيه القرين مجبرة على دفع أتاوة كبيرة لبني كعب، أما الزبارة فكان اسمها قلّ أن يعرف، ولكن عندما هاجم الفرس البصرة تحول أحد شيوخ القرين (خليفة بن محمد آل خليفة) إلى الزبارة مع كثيرين من كبار القوم، وتحول أيضاً عدد من تجار البصرة إلى هناك، وبهذه الطريقة دخل جزء كبير من تجارة اللؤلؤ وتجارة الهند إلى هناك (الزبارة) وإلى القرين خلال الزمن الذي استولى فيه الفرس على البصرة. ولقد زادت قوة هذه الأماكن (هذين المكانين) زيادة عظيمة، كان من شأنها أن تحديا بني كعب زمناً ما، وتفوقا عليه (أي الشيخ نصر) بمزايا عظيمة لا يخشون من القوة التي يهددهم بجمعها ضدهم»[140].

وعلى الرغم من عدم معرفتنا أي معركة من المعارك التي دارت بخصوص البحرين يشير كل من لوريمر ومستر لاتوش إلى أن اشتراك الكويت بهذه المعركة يؤكد لنا مدى مساهمة الكويت الفعالة في فتح البحرين. وهذا ما تؤكده أيضاً كافة المصادر الأجنبية الرسمية المعاصرة، ومنها ما جاء في مختارات حكومة بومباي: 365 أن لوريمر 1, 1, 839 في وصفه لهذا الفتح يقول إن الحملة الكويتية أسرعت إلى المنامة عاصمة البحرين، واستولت على المدينة وأشعلت فيها النيران وعزلت (الحامية الفارسية)[141] عن القلعة.

ولا نعرف على وجه الدقة هل شارك عتوب الزبارة إخوانهم عتوب الكويت في هجوم الأخيرين الأول على المنامة في البحرين إذ لم نجد في التقارير الأجنبية (مسئولي شركة الهند الشرقية وحكومة بومباي) ما يشير إلى مشاركتهم. وذلك على الرغم من أن الرواية المحلية لآل خليفة تعزو فتح البحرين إلى أحمد بن محمد بن خليفة والقبائل العربية النازلة بر قطر وعتوب الجلاهمة وهي تنفي أن يكون لعتوب الكويت أي دور في الفتح، إلاّ أننا باعتمادنا على ما أشرنا إليه من تقارير رسمية نؤكد باطمئنان كامل أن الدور الأساسي في هذا الفتح كان لعتوب الكويت حيث ندعم تأكيدنا هذا على ما سبقت الإشارة إليه من تقارير رسمية إلى جانب التقارير الأقدم عن الفتح، وهي تلك التي كتبها المستر فرنسيس واردن (Warden) والكابتن تايلور (Taylor) والتي تشير بوضوح إلى أن دور الكويت كان هاماً وحاسماً

وبهذا الفتح من العتوب امتدّ نفوذهم وسلطانهم إلى منطقة

---

(138) د. أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث، ص 92-93.

(139) Lorimer, Op. Cit, 1, i, p. 839.

(140) Mr. Latouche (The Basra Residency) to the Court of Directors. London, 4th Nov.

(141) الحامية الفارسية التي يشير إليها لوريمر في تقريره هي حامية الشيخ نصر وهي من العرب في الغالب لا الفرس.

(142) انظر تقريرهما في منتخبات حكومة بومباي (24): 18-29.

أخرى هامة (البحرين) فأصابوا بذلك نجاحاً سياسياً كبيراً إلى جانب ما حققوه بهذا الفتح من مكسب وازدهار اقتصادي ناتج عن غنى البحرين الكبير بأصداف اللؤلؤ، بالإضافة إلى أن هذا الفتح دعّم نجاحهم وتطورهم التجاري ونشاطهم في مجال النقل البحري وهو ما حققوه خلال النصف الأول من القرن الثامن.

ومما لا شك فيه، أن ذلك النجاح السياسي والازدهار الاقتصادي قد جلبا معهما منافسات شديدة ومنازعات جديدة لم يكن لها وجود قبل عام 1782، ذلك أنه بالإضافة إلى أعداء العتوب الثلاثة التقليديين وهم (بنو كعب) و (عرب بوشهر) و (عرب بندر ريق) فقد ضم الفتح إلى قائمة أعداء الكويت بالذات الشيخ راشد شيخ رأس الخيمة وابنه، والشيخ عبدالله شيخ هرمز الذين صاروا أعداء للقوة العتبية النامية، كما أن خطراً أعظم من ذلك تعرض له عتوب البحرين تمثل في سلطان مسقط الذي كان قد ادعى في وقت سابق السيادة على البحرين. ولكن هذا الخطر الأخير لم يتضح بصورة كاملة إلاّ في نهاية القرن الثامن عشر[143]. وفي محاولة من الكويت لحماية البحرين ضد اعتداءات سلطان مسقط أخذت سفنها تتردد على موانيء البحرين فحمل وجودها هناك القواسم إلى تحويل نشاطهم ضد السفن البحرينية إلى سفن إيران على الجانب الآخر من الخليج.

العلاقات الكويتية الوهابية

تعريف الوهابية:

الوهابية هي حركة دينية إصلاحية إسلامية سنّية دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وكان لها آثار عميقة انعكست على الأوضاع السياسية في شرقي الجزيرة العربية بأكملها، بل وتعدّى هذا الأثر شرقي الجزيرة العربية إلى بقية إمارات الخليج العربي. وكان ذلك خلال الفترة ما بين 1765 و1800م.

وتقوم هذه الدعوة الدينية على الوجدانية، وعدم الشرك بالله بأية صورة كانت. وبما أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب حين دعا إلى دعوته تلك لم يبتدع أي شيء جديد، لذا، فهي خالية من أي تعاليم جديدة غير موجودة في الإسلام[144] ولا بدّ من اعتبارها دعوة للعودة إلى تعاليم الدين الصحيحة كما نزلت في القرآن الكريم كتاب الله (سبحانه وتعالى) وفي سنّة رسوله محمد (ﷺ)[145]. فقد صرف الشيخ محمد بن عبدالوهاب من هذه الحركة الإصلاحية أن يخلص المسلمين من الآثام التي وقعوا فيها عندما تركوا الالتزام بالشريعة الإسلامية المنزّلة بالقرآن الكريم وتحللوا من التقيد في كثير من واجباتهم الدينية. لذلك، توجه الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى مواطنيه وإلى كافة المسلمين بدعوة للعودة إلى تفهم أصول الدين الصحيحة والتقيد بجوهر تعاليمه المستمدة من كلام الله[146] (سبحانه وتعالى) في قرآنه المجيد ومن أقوال الرسول والصحابة (الخلفاء الراشدون)، وقد أصبحت هذه الحركة تعرف باسم الوهابية على الرغم من أن هذا اللقب أطلقه عليها خصومها واستعمله البحاثة الأوروبيون نقلاً عنهم عندما تناولوا هذه الحركة في أبحاثهم أما أصحاب الحركة فيطلقون على أنفسهم الموحدين، وهم سنيون من أتباع ابن حنبل (كما شرحه ابن تيميه)[147] الذي هاجم عبادة الأولياء وما تبعها من زيارة قبورهم والتبرك بها وتقديم النذور إليها ـ إلى غير ذلك من الخرافات الطارئة على الإسلام. وذلك في كثير من كتاباته لاسيما الرسائل[148].

(143) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص ص 93-94.

(144) د. أبو حاكمة، المصدر السابق، ص ص 103-104.

(145) لم يتفهم كثير من الباحثين الأوروبيين المعاصرين للشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته وأصولها لذا حفلت كتاباتهم عنها بالكثير من الأخطاء والتي دعت بعض الكتاب الأوروبيين الآخرين من الذين كتبوا بعدهم ومنهم.

Burchardt: Notes on the Bedouins and Wahabys, p. 277.

(146) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب، ص ص 263-277.

(147) د. حسن الابراهيم، المصدر السابق، ص ص 36-37.

(148) أحمد بن صالح بن تيميه ـ مجموعة الرسائل الكبرى ـ القاهرة.

ولـد الشيخ محمـد بن عبدالـوهاب في العينيـة بنجد. أمـا تعليمـه الديني المبكـر فقد تلقـاه عن والـده الشيـخ محمـد بن عبدالوهـاب قـاضي العينيـة وعن علماء آخرين، ومن خـلال أسفاره الكثيرة في العالم الإسلامي تـوصل إلى أن الإسـلام في طريقه إلى الاضمحلال إذا لم يعد المسلمون إلى مبادىء دينهم الحقيقية وتعاليمه الأساسية.

وحين عاد محمـد بن عبدالـوهاب إلى بلدتـه العينية وبـدأ ينشر دعوته فيها طرده الشيخ سلمان بن محمد آل حميد أمير بني خالد. فانتقل إلى الدرعية حيث أقام فيها نهائياً. ولم تكتسب دعوة محمد بن عبـدالوهـاب قوتهـا إلاّ حين احتضنـه محمد بن سعـود أمير الـدرعية والـذي أصبح بـدوره المؤسس السيـاسي للحركة. فقد تضافرت القوة الروحية لمحمـد بن عبدالـوهاب مع قوة سيف ابن سعود لتضيف فعالية كبرى للحـركة وتبعث فيهـا الحيويـة والانـدفـاع إلى تحقيق أهـدافهـا ونشر تعـاليمهـا واتسمت بطابع العنف والقـوة. ففي الوقت الـذي احتفظت فيه بمظاهرها الدينية فإنها أصبحت في حقيقتها حركة سياسية قومية متطرفة، تستهدف الوحدة، وإقامة إمبراطـورية عـربية وطرد النفوذ الأجنبي الفارسي والـتركي من المنطقـة[149]. وفي سبيل تنفيذ ذلـك اصطدم الـوهابيـون بمعظم جيـرانهم، فكل من لم يكن وهـابياً اتّهم بـالشرك والضـلال. وكـان لا بـدّ أن تكون بداية تلك الحروب والنزاعات مع جيرانهم القريبين بني خالد أصحاب السلطان والنفوذ الـواسع في كثير من الأجزاء الشرقية من جزيرة العرب فأرادوا أن يقضوا على ذلك النفـوذ ويخضعون تلك الممتلكات الواسعة لحركتهم فيتمكنون بـذلك من الامتداد إلى أبعد من تلك الممتلكـات في الخطوة التـالية. لاسيـما وأنهم يحملون لشيوخ بني خـالد عـداءً سابقـاً نتيجـة لطردهم للشيخ محمد بن عبدالوهاب من العينية. وما دام بنو خالد يملكون القوة التي تمكنهم من تحـدي قوة الـوهابيـين فإن الكويت بقيت بعيدة عن متناول الوهابيين. وقد لجأ كثير من بني خالد في فترة لاحقة وبسبب توالي الهزائم عليهم من قبـل الـوهابيـين إلى محميتهم السابقـة الكويت حيث وجـدوا الملجأ البعيد عن ديار الوهابيين، غير أن كرم ضيافة الكويتيـين لبني خـالد جرّت عليهم عـداء الـوهـابيـين وجعلتهم يتعـرضـون لمـواجهتهم الحربيـة، لاسيما في الفـترة بـين عـامي 1792-1795 حـين استطاع الـوهابيـون أن يقضوا عـلى مقاومـة بني خـالـد ويقوضوا حكمهم في الإحساء ويركـزوا اهتمامهم عـلى العراق والأجـزاء الأخرى من الخليـج العربي بمـا في ذلـك الكـويت والـزبارة[150]. حينـذاك دخلت الكويت في صراع طـويل مـع قـوات الوهـابيـين. وبـالـرغم من أن قـوة الكـويت لا يمكن مقارنتها بقوة الوهابيين من حيث الإمكانيات البشرية والمادية إلاّ أن الكويت استطاعت أن تقـاوم بشجاعـة ورباطـة جأش الغزوات العديدة للوهابيين وأن تحافظ على استقلالها.

مما سبق نتبيّن أن الحركة الـوهابيـة نشأت أصلاً في نجد، أي في وسط شبه الجزيـرة غير أنها أخـذت تؤثر عـلى أوضاع الخليج منذ أن امتـد نفوذهـا إلى الإحسـاء عـام 1787م وقـد استغرقت عملية تـوحيد نجـد أربعين عـاماً من 1747-1786. لذا، فقد مضى مؤسس الدولة (محمـد بن سعود) سنيّ حكمـه دون أن يتمكن من تحقيق الـوحـدة، ومـا أن تمكن خلفـه عبدالعزيـز بن محمد بن سعـود من القضاء عـلى جميع عنـاصر المقاومة في نجد حتى تطلع إلى الإحساء وإلى غيرهـا من أقطار الخليج.

ولا بـدّ أن نحكم على الحـركة الـوهابيـة بمقياس عصرهـا فنقـرر أنها أسدت خيـراً إلى إقليم نجد فـأنقـذتـه من حـالـة الفـوضى والتفكك التي كـانت تسوده. بـل ويمكن القـول إن تلك الحركة غدت تعبيراً عن شعور وطني نجدي.

أمـا في أقـطار الخليـج فقـد اختلف تقـديـرهـا بـاختـلاف البيئـات، ففي المـدن والإمـارات التجاريـة مثـل الكـويت والـزبـارة والبحـرين سـاد روح الاستيـاء من هـذه الـدولـة العسكـريـة التي تفـرض سلطتهـا بـالقـوة وتـرهق السكـان بالضرائب والمكوس المختلفة باسم الجهاد مما يؤثر على ازدهـار التجارة وحريتها[151].

(149) د. حسن الابراهيم، نفس المصدر، ص 37.

(150) أحمد عبدالحليم بن تيميه، نفس المصدر.

(151) د. صلاح العقاد التيارات السياسية في الخليج العربي، ص ص 57-59.

الهجمات الوهابية على الكويت:

يمكن اعتبار سقوط حكومة بني خالد كبداية للعلاقات المباشرة بين الكويت والسعوديين. ولا يمكن اعتباره بأية حال بداية خضوع الإمارة للنفوذ السعودي[152].

فقد ترتب على نجاح السعوديين في الاستيلاء على الإحساء وتأكيد نفوذهم في المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية، وترتب على ذلك أن أصبحت الكويت ملامسة للقوة السعودية التي أخذت تتاخمها من الجنوب[153]. وقد تكون الكويت قد استفادت من سقوط بني خالد في التخلص من الارتباط القائم بينها وبين هذه الأسرة في بداية نشأتها إلّا أن الكويت أخذت تتعرض لهجمات الوهابيين العنيفة[154].

هذا، ولم يكن لجوء الفارّين من بني خالد من بطش السعوديين إلى الكويت هو السبب الوحيد في تعرض الأخيرة للهجمات الوهابية. فالوهابيون في تعاليمهم الأساسية ذكروا أنهم سيوجهون حروبهم إلى أية بقعة فيها شرك وبدع. فكانت الكويت شأنها شأن غيرها من المسلمين من غير الوهابيين تعتبر من بقع الشرك حسب معتقدات الوهابيين، وذلك إلى جانب الغنى الوفير في المدن العتبية والذي لفت أنظار الوهابيين ودعاهم إلى محاولة الاستيلاء على أموال العتوب الذين لم يكونوا بحال من الأحوال وهابيين أو ممن التزموا وتقبلوا المبادىء الوهابية[155]. وقد شن الوهابيون أول غاراتهم المتعددة على الكويت وكثرت هجماتهم عليها خلال الفترة من 1793-1795 في الوقت الذي انتقلت فيه الوكالة البريطانية مؤقتاً من البصرة إلى الكويت. لكنهم لم يحققوا أي نجاح يذكر[156]. إلّا أنها أثارت حالة من الرعب هناك.

ويعتقد بعض المؤرخين أنه كان لوجود الوكالة التجارية البريطانية في الكويت في الفترة من 1793-1795 أثر كبير في حماية الكويت من السقوط في قبضة السعوديين. فقد رأى المستر مانستري (Manistry) (القائم بأعمال الوكالة آنذاك) أن يبقى طراد صغير في ميناء الكويت لحماية الوكالة من الخطر السعودي، كما وضعت فرقة من الحرس الهنود يقودها ضابط هندي على الشاطىء. وذلك على الرغم من أن الوثائق الرسمية البريطانية قد حرصت على أن تنفي نفياً قاطعاً تدخل الوكالة البريطانية العامة التي كانت تقرر عدم التدخل في الصراعات الداخلية في الخليج العربي، وإن الوكالة كانت حريصة على أن تقف موقف الحياد في الصراع بين الوهابيين والكويت خوفاً على بريدها الصحراوي من التعرض لانتقام السعوديين... وهذا ما أكده المستر بريدجز Brydges المسئول الثاني بالوكالة في الكويت في كتابه عن الوهابيين Wahauby إذ بيّن أن الكويت دافعت عن أهلها فحسب، وأن الذي حماها هو شجاعتهم وثقتهم الكاملة في شيخهم عبدالله بن صباح، الشيخ الوقور، المهيب الطلعة الذي كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى والد لا حاكم. وقد نجح هذا الشيخ الجليل بعدله وسماحته من أن يجنب إمارته الخضوع للسعوديين[157]. إلّا أن بعض المؤرخين ممن يؤكدون دور الوكالة الفعال في رد الهجمات السعودية يستندون إلى ما ذكره أحد الموظفين في الوكالة البريطانية ويدعى المستر رينود Reinaud من أن المستر مانستري أصدر أوامره خلال عمليات الغزو السعودي للكويت عام 1795 بإنزال مدفعين من الطراد الإنكليزي، وطلب من الجنود الهنود الاشتراك مع أهالي الكويت في صد السعوديين عن الإمارة، فكان رد الفعل المنتظر مهاجمة السعوديين لبريد بريطانيا الصحراوي والذي حدا بمانستري إلى إرسال رينود إلى الدرعية وتكليفه

---

(152) د. جمال زكريا قاسم ـ موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الاحساء/ مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ المجلد السابع عشر سنة 1970 ـ ص ص 95-97.

(153) حسين بن غنام روضة الأفكار والافهام في مرتاد حال الامام، ج 2، ص 165.

(154) لوريمر، دليل الخليج، ج 3، ص 1508.

(155) د. أبو حاكمة، نفس المصدر.

(156) Kellv, Britain and the persian Gulf, London 1928 of Chapter 1.

(157) Brydges, Sir Harford Jones: An account of His Majesty's mission to the court of Persia 1809-1808 to which is appended a brieg history of the Wahquby Vol. 2, p. 12.

بمقابلة الأمير السعودي في عاصمته. فكان رينود بذلك أول أوروبي يزور عاصمة الوهابيين السعوديين الأولى.

وقد نتفق مع الأخيرين في الأخذ برواية رينود لأن الوكالة كانت بطبيعة الحال تخشى على أموالها المودعة بالكويت فيما لو حدث غزو وهابي والتي كانت ستصبح غنيمة مشروعة في عرف الوهابيين باعتبارها (أموال الكفار). فضلاً عن وجوب الالتزام الأدبي من الوكالة أن تشترك بالدفاع عن المدينة اعترافاً بجميل الشيخ الذي أفسح لها مكاناً في بلاده[158]. ولكننا مع ذلك لا بدّ أن نؤكد أن الدور الرئيسي في الدفاع عن الكويت قام به الكويتيون أنفسهم بتشجيع وقيادة شيخهم الحكيم الذي حرص على السلم، في نفس الوقت الذي لم يرض لبلاده بالذل والتسليم والخضوع لأجنبي ورفض التنازل بأي شكل من الأشكال عن استقلال بلاده. ويبدو أن عتوب البحرين لم يتمكنوا من مساندة أبناء عمومتهم آل صباح وذلك لبعد المسافة بين الكويت والبحرين من جهة والأخيرة والزبارة من جهة أخرى خلفت صعوبة في إرسال قوات للنجدة براً وبحراً. بالإضافة إلى أن طبيعة القتال الوهابي كانت تعتمد على الغارات السريعة، ونظام الكر والفر في الحرب، فاعتمد الوهابيون على قدرتهم في تجميع قواتهم وتفريقها في سرعة فائقة[159]. ويشير المؤرخان الوهابيان ابن بشر وبن غنام أن أول غارة وهابية ضد الكويت وقعت سنة 1208هـ/1793م وكان يقودها إبراهيم بن عفيصان الذي انتصر منذ أمد غير بعيد على بني خالد في عدة معارك. وكان قوام جيش ابن عفيصان عرباً من نجد من الخرج والعارض وسدير[160]. أما الغارة الثانية فقد حدثت سنة 1212هـ/1797م واشترك فيها ـ بخلاف سابقتها ـ أهل الإحساء إلى جانب الوهابيين. ويذكر المؤرخون الوهابيون أن أهل الكويت خرجوا لملاقاة الوهابيين خارج أسوار مدينتهم، وكان من بين الغنائم أسلحة ثمينة عاد بها ابن عفيصان ورجاله إلى بلدانهم بعد أن قتلوا ثلاثين من أهل الكويت[161].

أما الغارة الوهابية الثانية على الكويت فقد وقعت عام 1212هـ/1797م كما ذكرنا إلّا أنه يمكن القول بصفة عامة إن الغارات الوهابية لم تنقطع منذ عام 1793 وكما اختلف مسئولا الوكالة البريطانية اللذان كتبا عن الغارات الوهابية على الكويت (بريدجر ورينورد) حول دور الوكالة في الدفاع عن الكويت فإنهما عادا للاختلاف عند وصفهما للمعارك الدائرة بين الجانبين. ففي حين يذكر بريدجر أن الهجوم الأول الذي قام به الوهابيون على الكويت كان قوامه خمسمائة رجل، انهزموا على إثر طلقة واحدة من مدفع قديم كان الشيخ قد أنزله من إحدى سفنه إلى البر[162]. يدّعي المستر رينود أن قوام الجيش الوهابي 2000 جمل يحمل كل منها رجلين، أولهما مسلح ببندقية والثاني بحربة يحمي زميله حين يحشو بندقيته[163].

وبالرغم من أن السعوديين واصلوا عملياتهم الحربية ضد الكويت إلّا أن تلك المناوشات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية. بل إن الكويت تمكنت من إحراز انتصارات اقتصادية هامة ضد السعوديين خلال السنوات التالية. وذلك حينما أدت المشاكل والحروب المستمرة بين الوهابيين والقبائل التي أخضعوها لسلطانهم في الإحساء إلى تحول طريق تجارة الهند إلى أواسط شبه الجزيرة العربية عن مجراه الطبيعي.

ونحن لا نريد أن نتناول موقف كافة الأطراف من الدعوة السعودية ونجاحها الديني والسياسي في نشر تعاليمها ومد سلطانها ونفوذها إلى أبعد من مكان انبعاثها في أواسط الجزيرة العربية إلّا بقدر ما يتعلق ذلك الموقف لأي جهة بالكويت وأثره عليها. وأول ما يهمنا في هذا المجال موقف الدولة

(158) د. جمال زكريا نفس المصدر، ص 98، Bruckhardt: Op. Cit. pp. 211/332. ابن بشر ج 1 ص ص 102، 111. وابن غنام ج 2 ص ص 191، 273.

(159) Buckhart: Op. Cit. pp. 211-232.

(160) ابن بشر، المرجع السابق، ج 1، ص ص 102-111.

(161) ابن غنام، المرجع السابق، ص 191.

(162) انظر The Wahauby p. 12.

(163) انظر كذلك Montaliche correspondentz pp. 234-235.

العثمانية من التقدم الوهابي وذلك لما لهذا الموقف من نتائج وانعكاسات على الكويت في مواجهتها للوهابيين، فقد كان العثمانيون في الإحساء قبل بني خالد، وكانت تربطهم بجزيرة العرب مصالح دينية، وتتمتع بشيء من النفوذ السياسي على مناطق شرقي الجزيرة العربية وإمارات الخليج العربي لاسيما الكويت الجارة القريبة جداً ذات الموقع الاستراتيجي على الخليج العربي. وعلى وجه العموم، فقد ساء الدولة العثمانية امتداد النفوذ الوهابي حتى حدود البصرة وأطراف الشام بحيث لم يصبح أمامها مفر من الاشتراك معهم ومواجهتهم بجدية وحزم لوقف امتدادهم وخطرهم على الأراضي الخاضعة لسلطانها في الوطن العربي.

وقد تقدم الوهابيون للاستيلاء على شبه جزيرة قطر بعد أن ثبتوا أقدامهم في الإحساء. غير أن ذلك لم يكن غفلة من العثمانيين في العراق الذين تنبهوا لخطر تزايد النفوذ الوهابي فحركوا حملة لمواجهة الوهابيين بقيادة ثويني عام 1787. وبعد فشل هذه الحملة واصل الوهابيون حملاتهم واعتداءاتهم على أطراف العراق، فأرسل العثمانيون ثويني مرة أخرى بحملة عام 1796 حيث لقي مصرعه فقام الوهابيون بغزوة قادها سعود مغيراً بجماعته على الشمال فهاجموا حتى العراق. فلما رأى سليمان باشا (والي بغداد) الخطر الوهابي يدق بابه لم يجد بدًّا من إعداد حملة ضد الوهابيين عهد بقيادتها إلى علي باشا. وقد تقدم فرسان الحملة عن طريق البر قاصدين الإحساء، أما المشاة والمدفعية والذخائر فقد حملتها السفن إلى البحرين ثم إلى موانىء الإحساء، حيث استقبلت بكل ترحيب.. ولا نريد الدخول في تفاصيل الحملة وسنعالجها بقدر ما يهمنا أن نسلط ضوءاً على تاريخ الكويت. ويذكر صاحب لمع الشهاب بأن الحملة استأجرت مائتي مركب من الكويت لاستخدامها في عملية نقل شحناتها من المؤن والأسلحة والأغذية. ولا شك في أن استخدام موانىء العتوب وسفنهم دلالة واضحة على انحيازهم إلى جانب العثمانيين[164]. وقد ورد في مختارات بومباي أن العتوب كانوا ينوون المشاركة في الحملة بالإضافة إلى عرب المنتفق وقبائل البصرة. غير أنه لا توجد تفاصيل عن ماهية تلك المشاركة في حملة علي باشا عام 1798م. ويبدو أن العون الذي قدمه العتوب كان عوناً بحرياً. ولم يكن هذا العون أمراً مستغرباً من العتوب لكونه يأتي في إطار محاولاتهم الرامية للقضاء على الخطر الوهابي الذي كان يتهدد ديارهم. وهذا ما يفسّر لنا مساعدة الشيخ جابر لإبراهيم باشا القائد المصري أثناء حصاره للدرعية التي أشرنا إليها فيما مضى والتي وقعت في وقت لاحق لحملة علي باشا وبالتحديد كانت عام 1818.

أما سر بقاء الكويت محتفظة باستقلالها وبقائها خارج منطقة النفوذ الوهابي بعد إخضاع الوهابيين للزبارة. فلا شك أنه يعود إلى كون الوهابيين منهمكين بعد سنة 1796م في رد الهجمات التي شنّها عليهم شرفاء مكة من ناحية وثويني شيخ المنتفق من ناحية أخرى، بالإضافة لعدم احتفاظ العتوب بجيش يتخوف منه الوهابيون على نفوذهم القائم في شرق الجزيرة العربية. فكان بمقدور الأخيرين إرسال قوات إلى ميدان المعركة في أي وقت يشاؤون لا قِبل للعتوب على ملاقاتها[165]، ولكن لم يكن معنى ذلك أن العتوب في الكويت كانوا على ذلك القدر من الضعف الذي توقعه الوهابيون. بل رأينا الكويت تواجه الوهابيين في المعارك السابقة بشجاعة ورباطة جأش. وهو أمر شهد لهم فيه المؤرخون الوهابيون أنفسهم إلى جانب المؤرخين الآخرين ممن عاصروا تلك الأحداث من عرب وأوروبيين.

وإذا قيل إنه قد يكون لعلاقة القربى التي تربط شيوخ الكويت بآل سعود أثر في احتفاظ الكويت باستقلالها، فإننا نرى أن ذلك غير صحيح بدليل أن علاقات القربى لم تمنع الغزوات المتكررة على الكويت. كما أن العوامل الأخرى التي كان لها أثر خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر في حفظ استقلال الكويت مثل بني خالد وإقامة الوكالة البريطانية في الكويت قد تلاشت وتلفت مع مطلع القرن التاسع عشر، فقد انقصمت شوكة بني خالد نهائياً إلى جانب

---

(164) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص ص 128-129.

(165) Brydgestoc (Mr. Jacob Bosanguet) the court of directors, London Vol. 21 dated 1st Dec. 1798.
Lorimer, Gazetteer, 1, i 1006.
Milles, Colonel S.B., The Countries and Tribes of the Persian Gulf 11, p. 297.

كون المصالح البريطانية في الكويت قد انتفت بعودة الوكالة إلى البصرة، وبالتالي لم يعد ما يُلزمها للمساهمة بالدفاع عن الكويت. وهو أمر مشكوك فيه في حينه. كما لم يفد الكويت مجاورتها للبصرة في الاحتماء بسلطان والي البصرة أو شيخ المنتفك، فلم يكن بمقدور هذا ولا ذاك الصمود أمام هجمات الوهابيين المتلاحقة. لذا، لا بد أن يكون الفضل كل الفضل في بقاء الكويت مستقلة عن سلطان الوهابيين للكويت ذاتها ودون معاونة أي طرف خارجي. فقد كانت الكويت لا تزال قوية في مطلع القرن التاسع عشر بحيث كان بمقدورها أن ترد أي خطر بحري عليها. في حين لم يكن للوهابيين قوة بحرية سوى قوة حلفائهم القواسم وحتى تلك القوة لم يكن بمقدورها أن تدحر أسطول الكويت. وكذلك لم يكن بإمكان الوهابيين أن يحتلوها عنوةً برًّا لنفس الأسباب[166]، إذ لا ريب أن الكويت كانت تملك وسائل دفاعية تستطيع بواسطتها رد أي اعتداء خارجي عليها، إذ كان بمقدورها أن تجند للدفاع عن النفس ما بين 5000 و7000 مقاتل[167]. فضلاً عن الإمكانيات العسكرية براً وبحراً، ولكن يجب أن لا تنسينا تلك الإمكانيات ما كان يتمتع به الشيخ عبدالله بن صباح من حكمة وسداد رأي وقدرة سياسية وحسن تدبير وإدارة، وهو أمر شهد له جميع معاصريه. وبالرغم من استمرار هجمات الوهابيين على الكويت في مطلع القرن التاسع عشر، إلّا أن تناولها يخرجنا عن فترة دراستنا.

الخاتمة

لعل أهم ما يمكن التوصل إليه من خلال دراستنا هذه هو أن الكويت استطاعت الحفاظ على استقلالها وتأكيده بكيانها المحدد بأرضها وشعبها، كما استطاعت مواجهة كافة التحديات والمخاطر بكفاءة واقتدار يفوق حجمها وإمكاناتها المادية وذلك بفضل السياسة الخارجية الحكيمة والمتزنة التي اتبعها حكامها من آل الصباح منذ تأسيسها، والتي كانت أوضح معالمها اعتماد سياسة الحياد والابتعاد عن الدخول في منازعات أو الانحياز إلى جهة ضد أخرى، وبناء علاقات ودية متينة مع الجميع ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. على أن لا يكون في هذه العلاقات أي معنى للخضوع والتنازل عن السيادة، فملكت الكويت ناصية أمرها ونجحت في اختيار طريقها الأصوب وسط ذلك الموج المتعاظم من الصراع والتنافس والتلاحم. فتمكنت الكويت من معايشة كل ما يحيط بها من مخاطر وتحديات بعزيمة وقوة. واستطاعت الكويت أن تمسك زمام شئونها الخارجية والداخلية. ولم يكن حفاظها على استقلالها ليجعلها تعيش في عزلة عما حولها بل إنها وازنت بين حرصها على هذا الاستقلال وبين نشاطها في المجال الخارجي، وعلاقاتها مع القوى المحيطة، وذلك أن قلة مواردها الطبيعية والزراعية فرضت عليها الاعتماد بشكل كبير على سياستها الخارجية لتعويض نقص مواردها بتوجهها إلى المجال الخارجي بنشاطات اقتصادية مختلفة عن طريق البحر لتنهل من خيراته ما حرمتها الصحراء القاحلة منه. وسعت بمسيرة جادة نحو النمو والازدهار فحققت في فترة قصيرة ما لم يحققه غيرها في فترات طويلة.

وقد أمضى العتوب القرن الثامن عشر وهم يبذلون الجهود الصادقة الحثيثة لتنمية بلادهم وتركيز أنفسهم وتأسيس حكمهم وتدعيم نفوذهم والدفاع عن بلادهم، فكان من نتيجة هذه الجهود أن احتلت الكويت مكانة مرموقة بين مشيخات الخليج والجزيرة العربية آنذاك. وقد اعتمدت الكويت في تقدمها على التجارة والملاحة والنقل البحري والغوص إلى غير ذلك من النشاطات البحرية.

ولفت تطور الكويت السريع ونموها وازدهارها السياسي والاقتصادي أنظار المحيطين بها، وأثار حسد وحقد بعض القوى الغريبة فوقفت من الكويت موقفاً عدائياً. وأخذت تتحين الفرص للقضاء عليها وعلى منافستها لموانيهم وتقويض مكانتها والاستيلاء على ما فازت به من مكاسب اقتصادية كبيرة، وذلك بعد أن عجزت عن منافستها والفوز بما تميزت به في مجال التجارة والغوص والنقل البحري، فاتجهت إلى الانتقام منها بدون أي ذنب اقترفته بحقها.

وكانت أنظار الحكام شاخصة إلى الكويت وآمالهم معلقة

(166) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص ص 147-148.

(167) Milles, Colonel S.B., The countries and tribles of the Persian Gulf, 11, p. 297.

بالاستيلاء عليها وقد حاولوا ذلك بطرق شتى ولكنهم لم ينالوا منها شيئاً ولم يفوزوا بما يبتغون، وكان من فتح عيونهم عليها هم شيوخ بني كعب والنصار إلاّ أنهم فشلوا في تحقيق محاولاتهم الرامية للقضاء على استقلال الكويت والاستيلاء على كيانها النامي وحققت الكويت كل نجاح في التصدي ومواجهة الطامعين والمعتدين بالرغم من قلة إمكاناتها الحربية والمادية.

وقد ساعدت أوضاع العراق العثماني المهلهلة على أن تحتل الكويت مكانة مرموقة في عالم الخليج العربي دون أن تخشى محاولات الدولة العثمانية لفرض أي نفوذ أو سيادة عليها أو تحويل سيادتها الإسمية إلى سيادة فعلية. وذلك نتيجة لانشغال الولاة العثمانيين بالفتن والاضطرابات التي سادت البصرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بالإضافة إلى وباء الطاعون، ثم احتلال الفرس للبصرة (1776-1779م)، إلى غير ذلك من الأمور التي ساعدت الكويت على اطّراد النمو والتطور في كافة المجالات واحتفظت باستقلالها ورخائها.

ومن الظروف التي ساعدت الكويت على النمو والازدهار وسط أمور آمنة مستقرة ضعف بلاد فارس، فقد دبّ الهرم الدولة الصفوية في مطلع القرن الثامن عشر فلم تتعرض الكويت لجشع حكام فارس واعتداءاتهم دون أن تقع تحت سيطرتهم.

ومن ذلك يتبين أن الكويت تمكنت بفضل سياستها الخارجية الحكيمة والمتزنة من مواجهة كافة المخاطر والتحديات والتغلب عليها بإرادتها القوية وكفاح شعبها وصبره وعمل حكامها الدائب والمستمر لما فيه مصلحة بلدهم وازدهارها. وكانت تلك السياسة هي حجر الأساس الذي قامت عليه الكويت الحديثة، وما سياسة الكويت الخارجية في الوقت الحاضر التي رفعت اسمها عالياً إلاّ امتداد لتلك السياسة التي اختطتها لنفسها منذ تأسيسها وحرصت على تطبيقها بدقة خلال القرن الثامن عشر.

تم بحمد الله ومن الله التوفيق

مراجع ومصادر البحث

وثائق غير منشورة

أولاً ـ الوثائق العربية :

1 ـ تقرير سري، اعداد وزارة الخارجية الكويتية عن وضع الكويت بالنسبة للدولة العثمانية معتمد على مذكرات مدحت باشا نفسه.

ثانياً ـ وثائق مترجمة إلى العربية من الوثائق العثمانية :

(1) الوثيقة العثمانية رقم (111) من دفتر المهمة بأرشيف رئاسة الوزراء العثماني باسطنبول ص 713.

(2) مذكرات مدحت باشا ترجمة حاله (من وثائق وزارة الخارجية الكويتية).

(3) كتاب من مدحت باشا إلى الصدر الأعظم بتاريخ 8 ذي القعدة سنة 1286هـ الموافق 28 كانون الثاني (يناير) سنة 1869م (مقترحات مدحت باشا بشأن الكويت).

(4) كتاب الصدر الأعظم إلى السلطان بتاريخ 25 ذي الحجة سنة 1286هـ الموافق سنة 1869م.

(5) كتاب من رئيس كتاب السلطان إلى الصدر الأعظم (ردا على كتابه).

ثالثاً ـ وثائق انكليزية :

أ ـ وثائق الوكالة التابعة لشركة الهند الشرقية (فرع البصرة) :

1 - Factory record: Persia and Persian Gulf, Vol. 17 despatch No. 1074 (1774-1788) (The Basra Residency).

2 - Factory Record: Persia and Persian Gulf, Vol. 118: Serial No. 1532

3 - Ibid. Vol. 19, letter No. 1652.

وثيقة منشورة: البيان الثالث لحكومة الكويت (بمناسبة مطالبة عبدالكريم قاسم بضم الكويت) الصادر في 1961/7/15.

ب ـ وثائق حكومة الهند :

(1) تقرير شامل عن أحوال الكويت في الفترة بين 1871م ـ 1901م. وثيقة رقم (23) مجموعة م ف 2 من وثائق حكومة الهند الموجودة في المكتبة المركزية في منطقة المباركية التجارية ـ شارع عبدالعزيز آل سعود.

(2) وثيقة رقم (7) من المجموعة م ف 2.

Letter from Col. Mead to India Office.

(3) وثيقة رقم (3) من المجموعة م ف 2 ـ الموجودة في المكتبة المركزية.

(4) وثيقة رقم (6) من المجموعة م ف 2.

(5) وثيقة رقم (6) من المجموعة م ف 2.

(6) وثيقة رقم (12) من المجموعة م ف 2 ـ مذكرة عن الكويت اعداد ج. س. وايت Whyte.

(7) وثيقة رقم (24) من المجموعة م ف 2.

Saldanha, J.A. Selection from State papers, Bombay regarding the East India Company connection with the Persian Gulf, (Calcutta 1908).

ج ـ وثائق من سجلات وزارة الخارجية البريطانية :

Great Britain Public Record.

الملفات التالية :

F.O. 195/1944.
F.O. 602/2.
F.O. 78/5113.
F.O. 78/5114.

رابعاً ـ وثيقة منشورة :

ـ البيان الثالث لحكومة الكويت (بمناسبة مطالبة عبدالكريم قاسم بضم الكويت) الصادر في 1961/7/15.

خامساً ـ المراجع والمصادر العربية

(1) **ابن بشر (عثمان)**: عنوان المجد في تارخ نجد ـ في مجلدين القاهرة 1349هـ 1930م.

(2) **ابن سند (عثمان بن سند البصري)**: رجعت للمجلد (2): سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد (بومباي 1315هـ ـ 1897م) وهناك نسخة خطية بالمتحف البريطاني.

(3) **ابن غنام (حسين بن غنام الاحسائي)**: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات الاسلام.

(4) لمع الشهادة في سيرة محمد بن عبدالوهاب (مجهول المؤلف) بيروت 1967م.

(5) **أبو حاكمة (د. أحمد مصطفى)**: (1) تاريخ الكويت الحديث (1163-1385هـ ـ 1750-1965م) الطبعة الأولى ـ الكويت ـ منشورات دار السلاسل (1984م).

(2) محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة ـ القاهرة 1969م.

(6) **الابراهيم (د. حسن علي)**: الكويت ـ دراسة سياسية ـ دار البيسان للنشر ـ الكويت ـ دار النهضة للنشر ـ بيروت.

(7) **الخصوصي (د. بدر عباس)**: (1) دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ج 1 الطبعة الثانية ـ الكويت ـ 1984م مطبوعات دار السلاسل.

(2) الأهمية الاستراتيجية للكويت في العصر الحديث ـ دراسة منشورة في مجلة كلية الآداب ـ جامعة الكويت ـ العدد السادس ـ ديسمبر سنة 1984 ص 8 وما بعدها.

(8) **خزعل (حسين)**: تاريخ الكويت السياسي ـ ج 1، بيروت 1962.

(9) **الخترش (فتوح عبدالمحسن)**: تاريخ العلاقات السياسية البريطانية 1890-1921م الكويت ـ منشورات دار السلاسل ـ الطبعة الأولى سنة 1974.

(10) الداود (محمود علي) الخليج العربي والعلاقات الدولية 1890-1914 ـ القاهرة 1961.

(11) **الدباغ (مصطفى)**: قطر ماضيها وحاضرها ـ بيروت 1961.

(12) **الرشيد (عبدالعزيز)**: تاريخ الكويت ـ بيروت 1971.

(13) **الزياني (أمل)**: البحرين 1783-1973م.

(14) **الزيد (خالد سعود)**: الكويت في دليل الخليج (جي. ج. لوريمر) الطبعة الأولى ـ الكويت 1981.

(15) **الشملان (سيف مرزوق)**: من تاريخ الكويت ـ القاهرة 1959.

(16) **الشيباني (محمود شريف)**: امارة قطر العربية ـ بيروت 1962.

(17) **الصالح (نوريه)**: علاقات الكويت السياسية بشرقي الجزيرة العربية والعراق العثماني ـ الكويت.

(18) **العقاد (د. صلاح)**: التيارات السياسية في الخليج العربي ـ القاهرة 1965.

(19) **الفرحان (راشد)**: مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية ـ القاهرة 1960.

(20) **قاسم (د. جمال زكريا)**: (1) الخليج العربي (دراسة لتاريخ الامارات العربية) 1840-1914 ـ القاهرة 1966.

(2) دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا 1741-1861 ـ القاهرة 1967.

(21) **قدورة (زاهية)**: تاريخ الخليج العربي الحديث. بيروت 1971م.

(22) **القناعي (الشيخ يوسف)**: صفحات من تاريخ الكويت ـ الطبعة الثانية ـ دمشق 1374هـ ـ 1954م.

(23) **النبهاني (محمد خليفة)**: التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية في اثني عشر جزءاً:

(1) تاريخ البحرين (القاهرة 1342هـ1923م).

(2) الكويت وعلاقتها بعربستان والبصرة (1896م/1951م) ـ القاهرة عام 1971.

(24) **النجار (د. مصطفى عبدالقادر النجار)**: (1) التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي ـ منشورات مركز دراسات الخليج بجامعة البصرة (1975).

(2) التاريخ السياسي (امارة عربستان العربية ـ القاهرة ـ 1971).

(25) **المنصور (د. عبدالعزيز)**: التطور السياسي لقطر في الفترة بين 1868-1916م ـ الكويت ـ دار السلاسل ـ الطبعة الأولى ـ 1975م.

(26) **نوار (د. عبدالعزيز سليمان)**: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا (القاهرة ـ 1968).

(27) **نوفل (د. سيد)**: الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ـ بيروت ـ 1969م.

(28) **نخلة (محمد عرابي)**: تاريخ الاحساء ـ رسالة ماجستير ـ غير منشورة.

(29) **وهبه (حافظ)**: جزيرة العرب في القرن العشرين ـ القاهرة 1935م.

سادساً: المصادر الأجنبية المترجمة إلى العربية:

(1) بيرين (جاكلين): اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من قرون المغامرة والعلم ـ ترجمة قدري قلعجي ـ بيروت 1963م.
(3) لوريمدرج. ج ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخي ج 3 ـ ترجمة ديوان حاكم قطر ـ الدوحة ـ 1967م.
(3) ولسن (أرنولد): الخليج العربي ـ ترجمة د. عبدالقادر اليوسف ـ الكويت ـ منشورات مكتبة الأمل.

سابعاً ـ المقالات المنشورة في الدوريات العلمية:

(1) أبا حسين (د. علي): دراسة في تاريخ العتوب ـ مجلة الوثيقة التاريخية البحرينية ـ العدد الأول ـ رمضان 1402هـ يوليو 1982م.
(2) آل خليفة (الشيخ عبدالله بن خالد): تعليق على مقالات البحرين قديماً وحديثاً لسيف مرزوق الشملان ـ مجلة الوثيقة ـ العدد الثالث ـ السنة الثانية ـ رمضان 1403هـ يوليو 1983م.
(2) الخصوصي (د. بدر الدين الخصوصي): الأهمية الاستراتيجية للكويت في العصر الحديث ـ دراسة منشورة في مجلة كلية الآداب جامعة الكويت ـ العدد السادس ـ ديسمبر 1984، ص 8، وما بعدها.
(4) قاسم (د. جمال زكريا): (1) موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الاحساء ـ مستخرج من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ المجلد 17 سنة 1970م.
(2) رحمة بن جابر ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ المجلد العاشر ـ 1964م.
(5) قطينة (رندة المصري): الكويت (دراسة تحليلية) منشورة في مجلة الوثيقة التاريخية ـ العدد الأول ـ رمضان 1402هـ يوليو 1982م. ص 178 ـ 195.
(6) الكرملي (الأب انستاس ماري): مقاله (الكويت) في مجلة المشرق البيروتية العدد العاشر ـ 1904م ـ بيروت.
(7) الصباح (د. ميمونة): مقال بعنوان (نشأة الكويت وتطورها في القرن الثامن عشر) ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السادس والأربعون، الصادر في ابريل 1986م/رجب 1406هـ.

ثامناً ـ الدوريات العربية:

(1) جريدة الاصلاح ـ بيروت ـ العدد 68 بتاريخ مايو 1913م. ـ مقالة بعنوان ـ انجلترا والكويت.
(2) جريدة صدى بابل (العراقية) عددها الصادر بتاريخ 5 رجب 1329هـ ـ 2 تموز/يوليه 1911م.

تاسعاً ـ المراجع الأجنبية

1 - Al-Baharna H. The Legal States of Arabian Gulf States, London 1968.
2 - Brydges (Sir Harford Jones): An account of His Majesty's mission to the Court of Persia. 1807-1881. «To which is appended a brief history of the Wahaby» 2 vols. London 1834.
3 - Brydges to (Mr. Jacob Bosanguet): The Court of Directors, London, vol. 21 dated 1st December, 1798.
4 - Belegrave C.: The Pirate Coast. London 1966.
5 - Burchart M.: Notes on the Bedouins and Wahabys.
6 - Bukingham James Silk. Travel in Assyria etc. (London 1830).
7 - Ives, Edward from England to India, in the year 1753 (London 1773).
8 - Fraser (Lovat): India Under Curzon and After. London 1901.
9 - Lockhart, L.: Nadir Shah a critical study based mainly upon contemporary sources (London 1938).
10 - Lorimer, J.J.: Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia, (reprinted from original in the India Office library) vol. 2, Holland 1970.
11 - Low-History of the India Office Navy.
12 - Lutsky: Modern History of the Arab.
13 - Milles Colonel S.B., The Countries and Tribes of the Persina Gulf. vol. 1 (London 1919).
14 - Niebuhr, Casten: Travels in Arabia and other countries in the East, translated into english byRobert,Hersan (Two. Vols. Edinburgh, 1797).
15 - Hopwood D.: The Arabian Peninsula (London 1972).
16 - Parsons. Abraham, Travels in Asia and Africa (London 1808).
17 - Pelly. Lewis: (Record tour around the northern portion of the Persian Gulf) Transactions of Bombay Geographical society. No. 35, (1863-1863).
18 - Sykes P.M.: A History of Persia, vol. 2 (3rd Edition) London 1969.
19 - Whigham, H.J.: The Persian Problem, New York: Charles Scribner & Sons, 1903.
20 - Wilson, Arnold T.: The Persian Gulf: An Historical sketch from the earliest times to the beginning of the Twentieth Century, (Ox- ford: The Clarendon Press).

ثورة العوام 1520 - 1521
والمجتمع التجاري في قشتالة

د. فلاح حسن عبد الحسين

كلية التربية - جامعة البصرة

بعد انتخاب شارل الأول عام 1519 امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم الإمبراطور شارل الخامس ثارت قشتالة ضده لأنها اعتبرت ذلك جرحاً لشعورها الوطني، ولأنها كانت تريد ملكاً اسبانياً وليس مشاركة في إمبراطور أجنبي لا يعرف لغتها ولا تقاليدها القديمة، لذلك فإن وقوع إسبانيا تحت حكم آل هابسبورغ بزعامة شارل الخامس كان يعني مشكلتين لها، هما:

الأولى: غياب امبراطوري طويل عن قشتالة، وتضحية مصالحها الضخمة لصالح السياسات الإمبراطورية في المجالين السياسي والاقتصادي وخاصة عندما ظهر ذلك واضحاً بتوزيع شارل الخامس المناصب الحساسة في قشتالة على بطانته من الفلمنكيين الذين لا يفهمون مشاكل قشتالة خاصة وممتلكاتها فيما وراء البحار عامة[1].

الثانية: عبء مالي جديد إلى خزينة قشتالة التي شهدت في 1512 و1516 زيادتين هائلتين في نسب الضرائب لأن شارل الخامس طالب قشتالة بالمساهمة في تسديد نفقات انتخابه البالغة 800000 دوكادو ذهبي (2100 كيلو ذهب) التي اقترضها من عائلة آل Fuggers الألمانية، وفي أول زيارة له لقشتاله دعا برلمانها للموافقة على منحه «مساعدة» تبلغ قيمتها 600 ألف دوكادو لتسديد تلك النفقات[2].

تناولت الدراسات الحديثة المتعلقة بثورة العوام سنة 1520-1521 بالتحليل والنقاش تلك المشاكل والأحداث التاريخية المتفرعة عنها[3] دون الالتفات إلى أثر تلك الثورة على الاقتصاد والمجتمع القشتاليين في فترة كانت قشتالة تشهد أزمتين: الأولى سياسية: بدأت بوفاة الملكة إيزابيلا عام 1504 ومن ثم زوجها الملك فرديناند عام 1516 وغياب ملك قوي يرثها حيث تولت ابنتها المعتوهة العرش Juana la Loca وبإشراف مجلس للوصاية[4]، والثانية **اقتصادية**: تمثلت برداءة الحصاد المتكرر نتيجة للجفاف، وارتفاع في الأسعار، وزيادة في الضرائب، وجمود في الصناعة النسيجية[5]. . . الخ.

Footnotes:

(1) عن منح الوظائف العليا في قشتالة الى الفلمنكيين خلال زيارته الأولى عام 1517 راجع
Jean-Paul le Flem, La Frusturacion de Un Imperio, 1476-1714, (Madrid, P. 179-80).

(2) Perez, Joseph, La Revolución de las Comunidades de Castilla (1520-1521), traduction por Juan Jose Faci la Casta, (Madrid, 1979), P. 129-31.

(3) من هذه الدراسات مثلاً:
Bonilla, Luis, Las Revoluciónes espanôles en el siglo XVI, (Madrid, 1973), P. 275.
Seaver, H.L., The Great Revolt in Castile, A Study of the Comunero Movement of 1520-21, (London, 1928),
Maravell, Jose Antonio, Las Comunidades de Castilla, Una Primera Revolucion Moderna, Revista de Occidente, 15 (1963), PP. 227-234.

(4) Perez, J., Op. Cit. P. 101; Gimnenez Fernandez, Bartelomo de Las Casas, tomo I, :Sevilla, 1953), P. 8.

(5) عن رداءة الحصاد والجفاف راجع:
Ibarra y Rodriguez Manuel, El Problema cerealista en España durante el tmempo de les Reyes Catolicos, (1475-1516), (Madrid, 1944).

لقد تعددت الآراء والتغيرات حول بواعث تلك الثورة وأهدافها، فقد رأى البعض بأنها قامت من أجل الدفاع عن حريات قشتالة التقليدية ضد الاستبداد(6)، في حين ذهب آخرون إلى تفسيرها بالسبب التقليدي لكثير من ثورات أوروبا آنذاك وهو ثورة الطبقة العامة المحرومة ضد الإقطاع والأرستقراطية(7)، أما جوزيف بيرث فقد رأى في جانب منها على أنها صراع بين مستهلكي المواد الأولية (خاصة الأصواف) ومصدريها من التجار الكبار. (8).

لا أريد في هذا البحث مناقشة الظروف والعوامل التي أدت إلى اندلاع تلك الثورة عام 1520 لأنها معروفة من خلال الدراسات العديدة، وإنما معالجة الآثار العامة لتلك الثورة على المجتمع التجاري هناك الذي لم تلتفت إليه تلك الدراسات إطلاقاً، وربما يرجع ذلك إلى تلف وثائق الثوار خلال أحداث الثورة وبعدها. ولكن البحث في بعض أرشيفات المدن التجارية التي شاركت في تلك الثورة ساعدنا على كشف بعض الجوانب الغامضة لها ومازال غير معروف لدى الباحثين، وهو آثار تلك الثورة على المجتمع التجاري في قشتالة. ولذلك، فإن هدف هذا البحث هو التطرق إلى الدوافع التي دفعت التجار وبعض رجال الأعمال هناك للانهماك في الثورة، ومن ثم كيفية معالجة ذلك المجتمع لتلك الأزمة، لأنها تعكس لنا مدى نضج «الطبقة التجارية» في تلك المدن لتحديد آثارها وتجاوزها فيما بعد.

يعتمد هذا البحث على دراسة 40 حالة إفلاس تجاري لتجار من مدن قشتالة القديمة مركز الثورة خلال الفترة 1518-1523 وهي فترة قبيل الثورة وما بعدها، وبلغ عدد الدائنين أكثر من 352 تاجراً دائناً من مختلف المدن هناك، وتراوحت ديونهم ما بين 25 ألف و12 مليون مير ڤيدي. وتتطلب تسجيل الحالات والنظر فيها حوالى 275 صفحة مازالت مسجلة في سجلات كتاب «العدول» في مدينة Medina del Campo المركز المالي والتجاري الشهير لقشتاله خلال عصر نهضتها.

يبدأ تسجيل كل حالة إفلاس بأن يقدم الدائنون إشعاراً موقعاً من قبلهم إلى كاتب العدل يعرف بـ Polizas يعلنون فيه ما يلي:

1 - عدم قدرة التاجر المدين على الدفع.

2 - تسمية اثنين أو ثلاثة محكّمين من الوسط التجاري نفسه المعروفين بنزاهتهم.

3 - يطالبون فيه حجز وتصفية ممتلكات وموجودات ذلك التاجر.

4 - وإعلان حكمهم خلال فترة محددة تتراوح ما بين أسبوعين وشهر واحد.

5 - ومن ثم يُقسم جميع الدائنين أن لا يتنازلوا عن ذلك ويختمونها بالتوقيع وتاريخ التسجيل، بعد ذلك يقوم المحكمون بإصدار حكمهم المعروف بـ Sentencia Arbitraria الذي يتضمن ما يلي:

1 - إلزام التاجر بدفع ديونه بالكامل أو جزء منها لأنه غالباً ما يمنح أولئك المحكمون «تخفيضاً» في تلك الديون Hacer Gracia يتراوح بين 25 و50 بالمائة كمحاولة لتسهيل الدفع وكمؤشر للحالة المالية لذلك التاجر المفلس.

وعن زيادة الضرائب راجع:

(6) Carande, R., Carlos V Y sus Banqueros, tomo:II, La Hacinda Real de Castilla, (Madrid, 1949), P.

وبالنسبة لجمود الصناعات النسيجية في قشتالة في مطلع القرن 16 راجع:

Iradiel, Murugarren, Evoluction de la industeria textil Castillana en los siglos XIII-XVI, (Salamanca, 1974).

وكذلك راجع الفصل الذي كتبه كرانديه عن صناعات النسيج في قشتالة خلال فترة حكم شارل الخامس.

Carlos V Y sus Banqueros, tomo: I, P.

(6) Bonilla, L., Op. Cit. P. 158-60.

Lynch, J., Spain Under the Habsburgs, Vol.1, (Oxford, 1981), P. 34 and passim.

(7) Gutierrez Nieto, Las Comunidades demo movimiento antisenorial, (Barcelona, 1973).

(8) Perez, J., Op. Cit. P. 30.

وكذلك راجع

Gonzalo Lopez, E., Los factores economicos en el alzamiento de las Comunidades de Castilla: La industeria textil lanera, Revista Hispanica Moderna, 31 (1961), tomo: II, P. 17.

2 ـ الفترة الزمنية التي يتم خلالها الدفع تتراوح ما بين ثلاث سنوات إلى عشر سنوات (على أن يتم الدفع مرتين كل عام) كما هو موضح في ملحق رقم (1).

3 ـ تقديم عدد معين من الكفلاء على أن يكونوا من الوسط التجاري أيضاً يتناسب عددهم وضخامة حجم الدين.

4 ـ التوقيع وتاريخ تسجيل الحكم لدى كاتب العدل.
فإذا قبل الدائنون الحكم فإنّ عليهم إشعار كاتب العدل بذلك وأن يقدم كلّ على انفراد كمية المبالغ المدين بها ذلك التاجر لهم.

إن هذه الوثائق على غزارتها تهتم فقط بميكانيكية التقاليد والأعراف التجارية المعمول بها في قشتالة آنذاك ولا تساعدنا على الإجابة عن أسئلة كثيرة ما زالت مثار جدل ونقاش بين الباحثين، منها مثلاً: لماذا شارك التجار في أحداث الثورة؟ ولماذا انحصرت تلك المشاركة في تجار مدن قشتالة الداخلية (طليطلة، شقوبية، ثامورا، . . . إلخ) ولم يشارك تجار مدن الأطراف كمدينة بورغس مثلاً؟ ولماذا انضم التجار مع بعض عناصر «الطبقة الوسطى» إلى جانب الطبقة العامة؟

لقد فسر بعض الباحثين ذلك تفسيراً دينياً ويرى أن بعض عناصر الطبقة الوسطى وخاصة التجار كانوا من المتحولين Conversos الذين اعتنقوا المسيحية بعد مرسوم عام 1492 للمحافظة على مصالحهم وممتلكاتهم وللتخلص من محاكم التفتيش الصارمة التي بقيت تلاحقهم حتى بعد تنصيرهم وبذلك وجدوا في الثورة فرصة للتخلص أو «لتخفيف» إجراءات تلك المحاكم ضدهم[9].

لكن هذا التفسير التقليدي تعرض للنقد من لدن الباحثين المحدثين، حيث يرى Dominguez Ortiz مثلاً أن الاعتقاد السائد في كون المسيحيين الجدد وراء الحركات السياسية لثورة العوام 1520 تعوزه الأدلة القاطعة وأن مشاركتهم كانت مشاركة عامة بدون أية أهداف سياسية أو ايديولوجية محددة[10]. أما Ignacio Nieto فيرى أنه حقيقة توجد بعض الأدلة التي تؤيد مشاركة المتحولين في أحداث الثورة ولكن تفسير تلك المساهمة بحاجة إلى دراسة وبحث عميقين[11].

أما الفريق الآخر فيرى أن سبب تلك المشاركة دينية بحتة وأن هناك دافعاً اجتماعياً يتمثل في كون المتحولين يشتركون مع بقية رجال المدن كطبقة أو جماعة معزولة وغير مستقرة اجتماعياً ومحرومة من الامتيازات الاجتماعية التي تتمتع بها الطبقات التقليدية من رجال الدين الكبار والإقطاع (المسيحيون القدماء)، ولذلك أطلق عليها I.Nieto في أطروحته المعروفة بأنها Movimiento antisenorial، «حركة ضد الإقطاع»[12].

أما التفسير الاقتصادي الذي لقي قبولاً واسعاً من الباحثين يرى أن التجار كانوا يشكلون الجزء المهم من طبقة رجال المدن في قشتالة وكانوا يهدفون من مشاركتهم في الثورة إلى:

هنالك الكثير من الدراسات حول علاقة المتحولين بثورة العوام لعلّ أهمها:

(9) Castro, A., De la Edad Cconflictiva, (Madrid, 1963), P. 83.
Caro Baroja, J., Los Judios en la Espana moderna y contemperana, (Madrid, 1961), tomo II, P. 17.

(10) Castro, A., Los Conversos Judios despues de la expulsion, en Estudios de Historia Social de Espana, tomo III, (Madrid, 1955), P. 256-7.

(11) Castro, A., Los Conversos y el Movimiento Comunero, (Madrid, 1967), P. 249.

(12) Castro, A., Las Comunidades.... (Barcelona 1973).

عن سيطرة التجار الأجانب وخاصة الايطاليين عن تجارة قشتالة منذ أواخر القرن الخامس عشر في اشبيلية راجع

(13) Pike, R., Enterprise and Adventure. The Genoese in Seville and the Opening of the New World (Ithaca 1966).

وعن وجودهم في قشتالة القديمة وخاصة بلد الوليد ومدينة دل كامبو راجع.

Bennassar, B., Valladolid au siecle d'Or, Un villdde Castille et sa campagne au XVI siècle, (Paris, 1967), PP. 353-7.

وحول دور التجار الأجانب في الاقتصاد الاسباني راجع.

Girard, A., «Les etrangers dans la vie economique de l'Espange aux XVI et XVII siecle», Annales d'histoire economique et sociale, 10 (1933), P. 567-78.

أولاً: التخلص من سيطرة التجار الأجانب خاصة الإيطاليين على تجارة واقتصاد قشتالة الذين حولوا اقتصادها إلى اقتصاد مصدرٍ للموارد الأولية ومستوردٍ للسلع المصنعة من خارجها[13].

ثانياً: تنشيط الصناعات النسيجية ذات التاريخ الطويل في قشتالة التي كانت في حالة جمود واضح منذ مطلع القرن السادس عشر وتفتقر إلى الاستثمارات وإلى الأيدي العاملة الماهرة وإلى الحماية التجارية، وبالتالي فإن المدن الداخلية (طليطلة وشقوبية) الصناعية وهي مراكز الثورة أيضاً كانت في صراع مع التجار الأجانب وتجار مدينة بورغس من مصدري الأصواف البيضاء الناعمة الجيدة إلى الخارج وخاصة إلى إقليم الفلاندرز وإيطاليا. وبذلك تصادم أصحاب الصناعات النسيجية مع واحدةٍ من أقوى الشرائح الاجتماعية التي كانت في تحالف غير معلن مع الطبقةِ النبيلةِ التي تعتمد على أولئك التجار للحصول على القروض اللازمة. فالطبقة النبيلة هي التي كانت تؤجر المراعي الواسعة إلى مربي الأغنام، وكان مصدرو الأصواف يشترونها مقدماً من أولئك المربين سنوات عديدة، والملك هو الذي يفرض الضرائب عليها عند تصديرها من موانىء قشتالة العديدة إلى أوروبا. وهكذا كان على أصحاب تلك الصناعات النسيجية في تلك المدن الوقوف بوجه هذا التحالف الضخم غير المعلن[14].

ثالثاً: التخلص من زيادة الضرائب وجباتها وخاصة بعد الزيادات التي فرضها الملوك الكاثوليك في 1512 و1516، لأن تلك الزيادة أثّرت على أسعار المنسوجات وبالتالي جعلتها أقل تنافساً من الأقمشة الأجنبية الأكثر جودة والأقل سعراً[15].

لقد طلب أصحاب تلك الصناعات في قشتالة إلى الملكة إيزابيلا والإمبراطور شارل الخامس المساعدة ولكن دون جدوى رغم التشريعات المتعددة لتنظيم إنتاج الأقمشة[16]، لأن العرش كان بحاجةٍ إلى موارد مالية ثابتة وسريعة توفرها له الضرائب، وليس إلى تحسين إنتاج قد يستغرق سنين عدة وبالتالي بقاء التجارة الداخلية على هياكلها القديمة. إن ما حدث في مطلع القرن السادس عشر وخاصة بعد زيادة السكان (يقدر سكان قشتالة وحدها آنذاك بـ 7,5-8 مليون نسمة) واكتشاف العالم الجديد أن ازدهر محوران تجاريان، الأول شمالي يربط بورغمس بيلباو ـ الفلاندرز، والثاني جنوبي يربط إشبيلية بالعالم الجديد. الأول يستورد السلع المصنعة من أوروبا ويصدر الموارد الأولية (الأصواف، الحرير، الزيتون..)، والثاني يقوم بتصدير ما يستورده الأول إلى العالم الجديد ويستلم منه بالمقابل المعادن الثمينة التي سرعان ما تذهب إلى أوروبا بطريق أو بآخر، وهكذا اكتشف الإسبان أن أوروبا تستغل اقتصادهم بنفس الطريقة التي يستغلون هم بها اقتصاد العالم الجديد. ونتيجة لذلك، ازدهرت اقتصاديات الأطراف وبالذات بعد حركة الكشف الجغرافي مقابل إهمال واضح لاقتصاديات المركز (المدن الداخلية) والتي كانت مركز الثورة.

لكن التفسير الاقتصادي هو الآخر لم يصمد للنقد، لأن ازدهار اقتصاديات الأطراف كان يعتمد أيضاً على اقتصاديات المركز. فالأصواف الجيدة التي كان يصدرها المحور الشمالي من قشتالة كانت تُجزّ وتُغسل وتُنقل ويتم التعاقد عليها في أسواق مدن المركز أولاً قبل تصديرها[17]. ومن جهة أخرى كانت تلك المدن تستهلك نسبة لا بأس بها من استيرادات ذلك المحور وخاصة إذا أدركنا أن تلك المدن نفسها شهدت نمواً واضحاً للسكان في تلك الفترة[18]. أما الحرير الطبيعي

أول من قدم هذا الرأي هو الباحث الفرنسي عام 1963 في مقالته

(14) «Pour un nouvelle interpretetion des comunidades de Castille» Bulletin Hispanique, 65 (1963), PP. 238-83.

ثم عاد ووضح ذلك الرأي بالتفصيل بأدلة تاريخية قاطعة عام 1967 في اطروحته الشهيرة عن الثورة المذكورة في هامش 2.

(15) Ulloa, M., La Hacienda Real DE Castilla en el Reinado de Felipe II, (Rome, 1963), P. 113.

(16) Carande, R., Op. Cit. P. 167-168.
Le - Flem, J-P., «Vrais et fausses spllendeurs de l'industrie segovienne (ver 1460-ver 1650),» en produzione commercio et consumo dei panni di lana, (Florencia, 1976), P. 24.

(17) Basas Fernandez (Manuel), El Consulado de Burgos en el siglo XVI, (Madrid, 1963).

هنالك دراسات عديدة حول التركيب السكاني وتطوره في قشتالة خلال القرن 16 أهمها:

(18) Nadal Jordi, Historia de la población española (XVI-XX)? (Barcelona, 1973), P. 25-30.
Ruiz Almensa (Juan), «La población de España en el siglo XVI», Revista Internacional de sociologia, 3 (1965), PP. 30-48.

الذي كانت تنتجه غرناطة فكانت نسبةٌ منه يتم تسويقها في أسواق مدن قشتالة الداخلية ولم يكن ضروريا تصدير كل إنتاجها إلى الخارج، وإن كان بعض التجار الإيطاليين يسيطرون على تلك التجارة بشكل عام[19].

ومع ذلك، فإن بعض تجار مدن المركز (وهم في الغالب أصحاب الصناعات النسيجية هناك) يشترون الأصواف الجيدة لا لغرض تحسين إنتاجهم من الأقمشة، وإنما لتصديرها أو إعادة بيعها في مدينة شقوبية مثلاً والتي كانت من البؤر الساخنة في أحداث الثورة وكانت مركزاً صناعياً مهماً نلاحظ تجارها المعروفين Antonio Suarez, Luis de Cuellar ومن المنهمكين في أحداث الثورة يقيمون شركة عام 1519 لشراء الأصواف في أسواق مدينة دل كامبو حيث اشترى وكلاؤهم هناك من خلال عدد من العقود 6,786 أوربا (أوربا = 2 أونس) من الصوف الجيد (وهي كمية ليست قليلة حيث قدرت بعض المصادر المعاصرة أن استهلاك المدينة سنوياً في صناعتها هو 20 ألف أوربا)[20].

ويبدو من جدول رقم (1) أن A. Suarez كان منهمكاً بشراء الأصواف من سوق شقوبية نفسها حيث يشتري الأصواف الجيدة ذات التيلة الطويلة وهو النوع الذي كان يُعدّ للتصدير Lana blanca fina marina sin hierro (أصواف بيضاء ناعمة بدون شوائب) ويملك «خاناً» لغسل تلك الأصواف وتنظيفها يشتغل فيه عدد غير قليل من العمال. فمن خلال عقدين تجاريين في 17 آب 1518 باع A. Suarez أصوافاً قيمتها 890,544 ميرفيدي وباع في 5 تشرين الأول 1518 بعدد من العقود ما قيمتها 230,774 ميرفيدي وباع في شهر آب تسعة عقود قيمتها 253,750 ميرفيدي من الأصواف[21].

ولم يكن A. Suarez الوحيد من تجار شقوبية منهمكاً بتجارة الأصواف وإعادة بيعها هناك، كذلك Antonio de Espinar الذي تصفه وثائق كتاب العدول في المدينة بأنه كان يشتري الأصواف ويغسلها ويهيئها للتصدير إلى إقليم الفلاندرز في الأراضي المنخفضة، في الوقت نفسه كان يملك شركة متخصصة في صناعة النسيج في المدينة[22] وكذلك Diego Castro الذي كان يشتري الأصواف لغسلها وتهيئتها للتصدير إلى فلورنسا ومدينة روان في فرنسا، حيث نشر L. Larrios ذلك العقد بينه وبين بعض التجار الإيطاليين حول كيفية تهيئة تلك الأصواف ووزنها وتحديد مواعيد نقلها. . . إلخ[23].

وكما هو الحال بالنسبة إلى شقوبية، فلا يمكن تفسير مشاركة تجار مدينة طليطلة بالحفاظ على مصالحها الاقتصادية فقط، فنلاحظ مثلاً أن عدداً من تجارها خلال الفترة 1515-1535 من أنشط باعة الحرير الطبيعي في سوق مدينة دل الكامبو، حيث باعوا بموجب 25 عقداً 34045 أونس من الحرير الطبيعي إلى تجار إيطاليين وإسبان، وكان تجار مدينة بورغس يشكلون نسبة 93,30 بالمائة من أولئك المشترين رغم أن طليطلة وصناعتها بحاجة إلى ذلك الحرير الطبيعي[24].

مما تقدم يبدو أن تجار قشتالة كانوا كالتجار الآخرين يميلون إلى تنويع تجارتهم وسلعهم سواء كانوا يبيعون إلى تجار محليين أم إلى أجانب من الأصواف أو الحرير الطبيعي، وكانوا يبيعون إلى الذي يدفع أسعاراً أعلى، وأن الانقسام بين تجار أقوياء أثرياء جداً (كما هو الحال مع تجار بورغس) وأصحاب صناعات نسيجية (في طليطلة أو شقوبية)، ليس مردّه إلى.

(19) تحتوي سجلات كتاب العدول في مدينة دل كامبو المحفوظة في أرشيف المدينة على عشرات العقود التجارية منذ عام 1515 والمتضمنة بيع الحرير الطبيعي المنتج في غرناطة من قبل تجار مدينة طليطلة منها:
Archivo Historico Provincial de Valladolid (A. H%P%V%), Protocolo (P), 7839: folio (f), 133; 137; f.198; P. 7840: f. 210, f. 221, f. 225, f. 227; P. 7842: f. 291, f. 321, f. 351, f. 411, f. 474, f. 375; f. 438; P. 7843; f. 433; P. 7844: f. 226, f. 371; P. 7845: f. 226, f. 538; P. 7846: f. 372, f. 364, f. 472, f. 682, f. 261, f. 634; P. 7847: f. 252, f. 785, f. 167; P. 7848: f. 170, f. 607, f. 537.

(20) A.H.P.V.: P. 7840: f. 405.

(21) Archivo Historico Provincial de Segovia, escribano Busian, f. 429 y 430; f. 574 y 579; f. 610.

(22) Archivo de Simancas, Camara de Castilla, Legajo 123.

(23) Archivo de Estudios Segovianos, 14 (1962), PP. 329-331.

(24) تمّ حساب ذلك من خلال العقود التجارية المذكورة في هامش (19)

جدول رقم (1)
مشتريات Antonio Suarez من الأصواف
للفترة 1517 - 1518 في شقوبية

تاريخ العقد	كميات الأصواف أوربا = 2 اونس	سعر الأوربا بالميرفيدي	تاريخ تسليم الأصواف
1517/12/4	100	340	مايس 1518
1517/12/9	10	300	مايس 1518
1518/4/22	80	250	مايس 1519
1518/7/15	150	400	مايس 1519
1518/9/9	90	500	مايس 1519
1518/9/9	10	300	مايس 1519

المصدر: Perez, J. Op. Cit. P. 35, note, 114-115.

التنافس أو صراع مصالح تجارية بقدر ما هو علاقة رابح وخاسر في الحرب، بين دائنين ومدينين كما هو الحال في عالم التجارة على الدوام[25].

ومهما تكن الدوافع وراء مشاركة التجار لثورة العوام سنة 1521 والنقد الذي تعرضت له، فإن وثائقنا تشير بوضوح إلى وجود أزمة ثقةٍ Crisis of Confidence بين عناصر المجتمع التجاري في قشتالة أثناء أحداث الثورة وما بعدها نتيجة لفقدان الكثير من تلك العناصر إلى ممتلكاتها وديونها، وهي بذلك لا تختلف عن موجات الإفلاس التي كانت تحدث غالباً في بعض أقاليم ومدن أوروبا التجارية منذ أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة، فإن إفلاس تاجر واحد فقط يكفي لهز المجتمع التجاري في المدينة، وهذا ما حدث فعلاً في طليطلة قبيل الثورة وخلالها حيث سجلت وثائق أولئك التجار ما يلي:

(إن التجار مدينون أحدهم للآخر، وربما أنهم لم يحصلوا على ديونهم، فإنهم غير قادرين على دفع التزاماتهم إلى دائنيهم)[26].

وان الملوك الكاثوليك أنفسهم تدخلوا في أزمة مدينة دل كامبو عام 1491 عندما تعرضت للحريق ومنح أولئك الملوك التجار المفلسين عام 1492 مهلة أمدها سنة واحدة «لأنهم مدينون أحدهم للآخر وبغية تمكينهم من جمع ديونهم»[27].

ومن الناحية العملية فإن ثورة العوام لم تأتِ بأية إيجابية للمجتمع التجاري في قشتالة سواء في مدينة طليطلة أم شقوبية أم في المدن الداخلية الأخرى للإقليم، بل أدت الثورة إلى إفقار تلك العوائل أو هروبهم إلى خارج المدن، ولعل من أبرز تلك الأمثلة عائلة Garcia del Castillo وعائلة Fernando de la Fuente من مدينة طليطلة حيث تم

(25) إن عزوف بورغس عن الانهماك في أحداث الثورة ليس سببه رغبتها في تأمين تجارتها مع شمال أوروبا كمصدر للأصواف كما يرى بيرث، وإنما تخوفها من ضياع ديونها الضخمة التي كان تجار مدن قشتالة الداخلية وخاصة طليطلة مدينة لها، مثلاً عائلة آل فرانكو كانت مدينة لتجار بورغن 35 و8 من أصل ديونها البالغة 12,5 مليون ميرڤيدي. راجع ملحق رقم (1).

(26) A.H.P.V: P. 7840, f. 588.

(27) A.G.S. Registro General del Sello, 17 abril 1493, f. 21.

منحهم فترة عشر سنوات لدفع ديونهم وذلك لأنهم فقراء جداً ولا يملكون أي شيء يدفعونهم في الوقت الحاضر، وأن كل سجلاتهم وأموالهم إما ضاعت أو تلفت في هيجان المدينة، وهروب أو قتل غالبية المدينين لهم من التجار»[28].

يبدو أن الثورة وأحداثها أثّرت عميقاً في طليطلة وخاصة على عناصر المجتمع التجاري فيها وليس فقط على التجار الكبار، حيث ذكر دائنو التاجر Alvar San Pedro «أن تلك الأحداث أثّرت في طليطلة وما حولها حتى جعلت الجميع يعيشون في حالة جوع وفقر. .»[29] بل نرى التاجر Pedro Lopez يهرب من طليطلة ليختفي في قرية Zafra القريبة، بعيداً عن عيون دائنيه بعد أن سلم كافة موجوداته وممتلكاته إلى لجنة التحكيم لتسديد ديونه التي كانت أكبر بكثير منها حيث منحته تلك اللجنة فترة سبع سنوات لتسديدها بعد أن منحته تخفيضاً قدره 25 بالمائة من أصل ديونه[30].

لكن الاختفاء والهرب ليس هو السبيل الوحيد أمام التجار للتخلص من ديونهم، وإنما يعتمد ذلك على سمعة التاجر ومنزلته في السوق. إن عائلة آل Fuente مثلاً وهي من العوائل الثرية في طليطلة التي كانت تلتزم ضرائب الحرير الطبيعي في غرناطة للفترة 1505-1516 كما هو موضح في جدول (2)، بقيت في التجارة حتى بعد إعلان إفلاسها، ولو على نطاق ضيق.

ما زالت معلوماتنا غير كاملة عن الظروف التي أدت إلى إفلاس تلك العائلة، كما أن دراسة الأستاذ كرانديه لتاريخ ضرائب الحرير الطبيعي في غرناطة لا تساعدنا على فهم ملابسات إفلاس تلك العائلة حيث تذكر وثائق إفلاسها مثلاً.

(بسبب دفعهم تسعة ملايين ميرقيدي في ضرائب الحرير الطبيعي في غرناطة وإقصائهم الأخير منها فإن شركتهم لم تعد قادرة على الإيفاء بديوتها إلى دائنيها من التجار. . .)[13].

وهذا النص يتركنا لتفسير ذلك الإقصاء من تلك الضرائب باحتمالين هما:

الأول: أن السلطات المالية أقصتهم بسبب انهماكهم المباشر في الثورة التي بدأت أحداثها في طليطلة تتبلور منذ عام 1517.

الثاني: عجز تلك العائلة عن الإيفاء بديونها لفقدان سيولتهم النقدية وعجز منتجي الحرير الطبيعي عن تسويق منتوجاتهم وبالتالي عدم قدرتهم على دفع الضرائب المستحقة عليها، وهذا ما تؤيده إحدى مذكرات المجلس المالي لقشتالة عام 1523 حيث ذكرت:

(أنه بسبب أحداث الثورة الأخيرة أصبحت تجارة الحرير الطبيعي في غرناطة راكدة وأن الجزء الأكبر من تلك التجارة تذهب إلى إيطاليا عن طريق البحر، ولم يرسل منه إلى أسواق قشتالة منذ عدة سنوات بسبب تلك الثورة، وأن ما يباع منها الآن يقدر بنصف السعر الاعتيادي أو أقلّ منه)[32]. .

جدول رقم (2)

التزامات عائلة رل Fuente لضرائب الحرير الطبيعي في غرناطة للفترة 1505 - 1516

مقدار الالتزام بالميرقيدي سنوياً			الفترة
7	950	714	1501
7	200	000	7 - 1506
7	300	00	10 - 1508
9	450	710	1511
8	700	000	13 - 1512
8	800	000	16 - 1504

المصدر: Carande, R. Op. Cit. P.

وبالرغم من تشاؤم المجلس المالي في مذكرته أعلاه، فإن جزءاً من الحرير الطبيعي كان يجد طريقه إلى أسواق مدينة دل كامبو للفترة 1518-1523 كما أشرت سابقاً، بل وأن عائلة آل Fuente نفسها كانت تبيع ما لديها من الحرير الطبيعي في تلك الأسواق حيث باعت في 19 كانون الثاني 1535 ومن خلال عقدين تجاريين 1350 أونساً من الحرير الطبيعي 1.567,250 ميرقيدي، وفي 19 كانون الأول 1535 باعت تلك العائلة 600 أونس بمبلغ 696,000 ميرقيدي[33].

(28) A.H.P.V. P. 7840: f. 575 y f. 589.
(29) A.H.P.V. P. 7840: f. 587.
(30) A.H.P.V. P. 7840: f. 581.
(31) A.H.P.V. P. 7840: f. 589, 590, 591-2.
(32) Carande, R. Op. Cit. tomo: 11, P. 330-31.
(33) A.H.P.V. P. 7840: f. 252.

جدول رقم (3)
الأزمة التجارية في مدينة دل كامبو عام 1491:
التوزيع الجغرافي لدائني بعض تجارها المفلسين (بالميرقيدي)

	اسم التاجر المفلس	بورغس	بيلباو	طليطلة	بلد الوليد	شقوبية	كلاتيود	تجار إيطاليون	ساركوسا	غير معروف(*)	المجموع
:1	Sancho de Gumiel	229000	34000	16000				16000			345000
:2	Gregorio Gonzalez y Luis Gonzalez	111000	12000	84000	19000		19000			50000	403000
:3	Luis del Castillo	70000		58100	34000		13256	56400	4600	33900	2700256
:4	Garcia de la Pena		41000	8700		6800	23000				79500
:5	Juan de Arevalo	39850				5400		18350			63600
:6	Pedro de Zigales	12000		20600	5000					3200	
:7	Pedro de la Fuente	22670		86675	10058			58446	3327	7850	188446
:8	Bernal de la Santa			3000	1700	6400					11100
:9	Juan Garcia	6400			3500					1900	11800

(*) غير معروف: لم تذكر الوثيقة مدينة التاجر الدائن وإنما تكتفي بذكر اسمه فقط.

المصدر: Archivo General de Simancas: Registro General del Sello 17 abril 1493, fol. 21.

يبدو أن تلك العائلة بقيت في عالم التجارة على نطاق ضيق كما تشير بعض العقود التجارية، وربما يرجع ذلك إلى الترتيبات السهلة التي وضعتها لجنة التحكيم لدفع المتبقي من ديونها البالغة 2,9 مليون ميرڤيدي حيث نصّت تلك الترتيبات على أن تدفع العائلة 1,178,000 ميرڤيدي خلال شهر مارس 1521 (موعد انعقاد السوق الصيفي في مدينة دل الكامبو) وأن تدفع 377,000 ميرڤيدي سنوياً خلال السنوات الثلاث التالية والباقي يتم دفعه بالحرير الطبيعي المنتج في غرناطة. (يبدو أن تلك العائلة تمتلك كميات لا بأس بها من الحرير الطبيعي لإيفاء ديونها)(34).

وعلى العكس من تجار طليطلة وشقوبية، فإن تجار مدينة دل كامبو صاحبة الأسواق المالية والتجارية المعروفة لم يتورطوا في أحداث الثورة ولكنهم تأثّروا بها إلى حد كبير بسبب وجود قلعة La Mota الشهيرة التي كانت مخزناً للسلاح الملكي. وبسبب موقعها التجاري الحساس رفضت المدينة الوقوف إلى جانب أي من الطرفين رغم إلحاح الثوار عليها بالانضمام إليهم، لإدراكها أنها بحاجة إليهما معاً «بحاجة إلى العرش من أجل حماية تجارتها، وبحاجة إلى منتجات المدن الصناعية الثائرة لتزويد أسواقها». وعندما طلب الثوار من المدينة تسليم السلاح المخزون في تلك القلعة رفضت ذلك إلا بموافقة العرش، ولذلك كتبت مدينة شقوبية إلى المجلس البلدي في مدينة دل كامبو في خضمّ أحداث الثورة:

«في الوقت الذي يرسل تجارنا أقمشتهم وسلعهم لإغناء أسواقكم، أنتم ترسلون أسلحتكم ومدافعكم لتهديم أسوار مدينتنا. لقد أرسلت طليطلة مساعداتها لنا لأنها تدرك أنه إذا سقطت شقوبية فإنها هي الأخرى ستسقط فيما بعد بأيدي قوات الملك، يجب أن تأخذوا بحسابكم مصالح طليطلة في أسواقكم لأنكم تحتاجون تجاراً يتاجرون في أسواقكم وليس حكاماً مستبدين يحطمونها»(35)...

(34) A.H.P.V. P. 7840: f. 591-2.

(35) Moraleja Pinilla, (Gerardo) Historia de Medina del Campo, (Medina del Campo, 1971), P. 108-109.

لقد كان لهذا التحذير صدى مباشر في مدينة دل كامبو التي استمسكت بحيادها، ورفضت تسليم السلاح من قلعتها إلى أي من الطرفين حتى دخلها قائد الجيوش الملكية Francisco Fonseca عنوة يوم 20 آب 1520 للاستيلاء على الأسلحة عند الفجر وأشعل النار في المدينة لأنها رفضت ذلك وبالتالي أحرق حوالى 900 بيت ومحل تجاري (ويشكل ذلك نسبة ثلث بيوت المدينة حسب إحصاء عام 1561 حيث لا توجد إحصائية قبل ذلك)، وفي هذا تكمن مأساة المجتمع التجاري هناك لأن الحريق التهم معظم المنطقة التجارية من المدينة[36].

وليست هذه هي المرة الأولى التي تعرّض فيها المجتمع التجاري في المدينة إلى الأزمات نتيجة تعرضها للنيران، ففي عام 1491 أصاب المدينة حريق كبير ذهب ضحيته عناصر غير قليلة من ذلك المجتمع «لتعرض مساكنهم ومحلاتهم التجارية للحريق والتدمير ولا يوجد لديهم الآن ما يدفعونه إلى دائنيهم» كما تذكر وثائق أرشيف الدولة في سيمانكس، ولكن لا تورد حجم الخسائر التي أصابت التجار هناك عدا تسع حالات إفلاس تجاري التمسوا فيها أصحابها الملوك الكاثوليك عام 1492 وطالبوهم فيها بالتدخل لحلّ أزمتهم حيث منحوهم مهلة أمدها سنة لكي يدفعوا ديونهم «لأنهم تجار أغنياء ذو سمعة حسنة» ووفق الطريقة التالية:

1 ـ دفع ثلث ديونهم إلى دائنيهم خلال شهر الثاني 1492.
2 ـ دفع الثلثين الباقيين خلال السنة التالية 1493.
3 ـ منع إقامة الدعاوى القضائية ضدهم طيلة تلك الفترة[38].

كما لا يمكن تحديد حجم الخسائر التي لحقت بالمجتمع التجاري في المدينة خلال أحداث الثورة في 1520، ولكن تتباين بعض المذكرات التي رفعها المجلس البلدي هناك إلى المجلس المالي للدولة في تقديراتها، حيث ذكرت إحداها أن حجم تلك الخسائر يتراوح بين 150 مليون و750 مليون ميرفيدي، في حين اشتكى جباة ضرائب النبيذ عام 1520 إلى المجلس نفسه من أن خسارتهم كانت كبيرة وأنهم خسروا أكثر من 750 ألف لتر من النبيذ في ذلك الحريق (بالرغم من أن هذه الكمية ليست كبيرة بالنسبة لإنتاج المدينة الضخم الذي كان يقدر بـ 10 ملايين لتر، لكنها تبقى نسبة عالية لتاجر واحد أو أكثر)[39].

وفي 23 شباط 1519 قدم ثلاثة عشر تاجراً للأقمشة مذكرة إلى المجلس البلدي أيضاً يطالبون فيها تأجيل الضرائب المفروضة عليهم «لعدم قدرتهم على دفعها نتيجة لكساد تجارتهم»[40]. وفي 26 آذار من العام نفسه خسر جباة ضرائب الحلى والمجوهرات في المدينة 14 ألف ميرفيدي «لأنه لا يوجد من يدفعها...»[41] وهذا يشير إلى أن أسواق المدينة تأثرت تجارتها بالأحداث التي سبقت الثورة واندلاعها.

إن ما تذكره وثائق كتاب العدول في مدينة دل كامبو هي ست حالات إفلاس فقط وهي لا تمثل حقيقة المجتمع التجاري هناك وشملت Fernando de Valladolid Hernando, Olivera, Juan Topas, Juan de Medina, Diego Marques والأخوين الإيطاليين Rafael y Pedro Archidioli اللذين استوطنا المدينة منذ مطلع القرن السادس عشر وكانا من أنشط التجار الإيطاليين هناك حتى عام 1521 عندما تعرض R. Archidioli إلى أزمةٍ مالية حادة ومطالبة دائنيه بتصفيه كافة أعماله وذلك بتسديد نصف ديونهم حتى نيسان 1524 والنصف الآخر في نيسان من السنة التالية ودفع فائدة قدرها خمسة بالمائة على كافة تلك الديون المتأخرة لحين سدادها بالكامل، حيث كان غالبية دائنيه من مدينة دل كامبو

(36) Marcos Martin, (Alberto) Auge y declive de un nucleo mercantil y financiero de Castilla la vieja: evolucion demografica de Medina del Campo) durante los siglos XVI y XVII, (Valladolid, 1978), PP. 312-319.

(37) راجع هامش (27)

راجع هامش (37)

(38) A.G.S. Contaduria Mayor de Cuentas, primera epoca, leg. 166.

(39) A.H.P.V. P. 7840: f. 53.

(40) A.H.P.V. f. 80.

(41) A.H.P.V. P. 7842: f. 48 y 49.

وتجاراً إيطاليين ومن مدينة بلد الوليد المجاورة[42].

وكما هو الحال مع عائلة آل Fuente في طليطلة، يبدو أن هذه التسهيلات المرنة هي التي مكنت عائلة Archidioli من البقاء لفترة أخرى في عالم التجارة حيث ظهروا من جديد في وثائق كتاب العدول للفترة 1548-1560 كتجار وكمقرضين للأموال ولو على نطاق ضيق، حيث أقرض من خلال ثلاثة عقود 1650 دوكادو ذهبياً إلى مجموعة من تجار مدينة دل كامبو وشقوبية، وظهر في إحصاء عام 1561 لمدينة بلد الوليد كواحد من الجالية الإيطالية في تلك المدينة التي كانت تعمل على تقديم القروض إلى العرش[43].

إن أهم ما يميز الأزمة التجارية التي شهدتها بعض مدن قشتالة الداخلية في 1491 و1520، هو استطاعة المجتمع التجاري فيها تجاوزها، على عكس تلك الأزمات المماثلة التي شهدتها قشتالة وإشبيلية في أواخر القرن السادس عشر والتي أدت إلى سحق ذلك المجتمع الناشيء وتضاؤل دوره في الحياة الاقتصادية عامة. ولعلّ ذلك يرجع إلى:

أولاً: النمو الاقتصادي الذي شهدته قشتالة للفترة ما بعد الثورة حتى منتصف القرن السادس عشر.

ثانياً: التقاليد والأعراف التجارية المعروفة آنذاك في حل مثل تلك المنازعات ودور مجلس غرفة تجارة بورغس El Consulado de Burgos الذي أنشأه رسمياً «الملوك الكاثوليك» عام 1494، حيث يرى أن «القضاء والتجارة» ضدان لا يجتمعان لأن أية محاكمة رسمية تحتاج إلى تكاليف دعاوى ومحامين وشهود ووقت غير قصير لحلّها (تتراوح فترة حسم أية دعوى في قشتالة آنذاك بين سنتين إلى ثلاث سنوات)[45].

مثلاً، قبل دائني التاجر Antonio de Valladolid ضمان كفلائه البالغ 250 ألف ميرڤيدي عام 1519، ولكنهم اشتكوا عام 1521 من أن أولئك الكفلاء لم يدفعوا ما تعهدوا به سابقاً بالرغم من بقاء 184 ألفاً من أصل ديونه البالغة 450 ميرڤيدي[46]. وكذلك رأى المجلس أن لا يتقاضى أعضاؤه أمام المحاكم «لأنه يدرك أن الدعاوى بين التجار لا تنتهي أبداً بسبب الحجج والحجج المضادة التي يقدمها كل طرف وبالتالي يصبح القضاء مؤذياً للتجارة ويؤدي إلى فقدان ثقة الواحد بالآخر...»[47] ولذلك وضع المجلس صيغة التحكيم السريع كما ذكرناها في الصفحات الأولى من هذا البحث لإعادة الثقة إلى السوق بسرعة وعدم كشف خفايا التجارة في مجتمع ما زال محافظاً تسيطر عليه الكنيسة التي تعتبر التجارة «حرفة فاسدة».

يبدو أن تلك التقاليد والأعراف في حل مثل تلك المنازعات كانت جزءاً من أعراف تجارية عامة سائدة في قشتالة آنذاك، ففي عقود بيع الحرير الطبيعي التي كانت تبرم في أسواق مدينة دل كامبو مثلاً وتباع عن طريق النماذج Samples (الاسبانية: Muestras) حيث يتم الاتفاق على اللون والنوع والكمية، ومكان وموعد التسليم. فإذا اختلف الطرفان في أي سبب من بنود الاتفاق فإنهم يحكّمون تاجراً ثالثاً يسمونه في العقد نفسه لحل ذلك الخلاف إذا نشب[48].

إن هذا النوع من التحكيم لا تنفرد به قشتالة وحدها من بين أقاليم ومدن أوروبا في عصورها الوسطى المتأخرة وعصر النهضة، وإنما كان معروفاً ولو بصورة متباينة فكان يعرف في برشلونة مثلاً «بالتحكيم الخاص» Arbitag Privé خلال القرن الخامس عشر[49]. وفي مدينة ليون بفرنسا يعرف

---

(42) A.H.P.V. P. 6842: f. 115; P. 6095: f. 1186.
(43) Bennassar, B., Op. Cit., P. 354.
راجع أيضاً:
عن حول الافلاسات التجارية في اشبيلية في أواخر القرن 16 راجع:
(43) Lorenzo Sanz (Eufemio) Comercio de España con America en la época de Felipe 11, tomo: 1, (Valladolid, 1979), P. 179-81.
(44) Kagen, R.L., Lawsuits and Litigants in Castile, 1500-1700; (The University of North Carolina Press, 1981), P. 18-19 and P. 44-45.
(46) A.H.P.V. P. 7841: f. 250 y f. 257.
(46) Kagen, R.L., Op. Cit., P. 19.
(47) هذا النوع من التحكيم يتم ذكره في كل العقود التجارية المتعلقة ببيع وشراء الحرير الطبيعي التي ذكرتها في هامش (19)
(48) Carrere, C., Barcelona au temps du Crisis economique (Paris, 1967), P. 65.
(49) Gascon, K., Lyon et les marchandes Lyonnesse, tome, 11, (Paris, 1978), P. 115.

Atermoiment[50] الذي يشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في انثـويـرب بـالأراضي المنخفضـة الـذي يعـرف بـه Voie Ordinaire[51].

يبدو مما تقدم أن المجتمعات التجارية في أوروبا آنذاك قـد طورت نوعـاً من التقاليـد والأعراف التجـارية لحـل نزاعـاتها وحماية مصالحها بنفسهـا، في وقت لم تكن الدول القـومية قـد تبلورت مؤسسـاتها ولم تكن القـوانين المتخصصـة قـد شملت نـواحي الحيـاة العـامـة كلهـا. ففي تلك المجتمعـات كـان الدائنون والمدينون تجـاراً ورجال أعـمال لا يجدون صعـوبة في فهم بعضهم الآخر وهذا يميـز وثائق إفـلاسهم التي نقرأ فيهـا مثلاً:

(نحن دائنـوك نعرف عـدم قدرتـك عـلى دفـع ديـوننـا في الـوقت الحـاضر وبـدون ضرر كبـير لممتلكـاتـك وسمعتـك وتجارتك، ولذلك نرغب في إعطائك وقتاً أطول لدفعهـا وقبل أن نضع حالتنا أمام المحكّمين...)[52].

لكن أهم مـا يميـز هـذا النـوع من التحكيم التجـاري في قشتالة عن مثيلاته في أوروبا هو أولاً: أن رابطة الدم والقرابة لعبت دوراً أكبر في ديمومته واستمراره من رابطة المهنة، وبـرز ذلـك واضحاً في أصـل الكفلاء الـذين كفلوا أولئـك التجـار المفلسـين. فنلاحظ أن كفيـل التـاجـر Hernando de Avila من بلد الـوليد هـو والـده Juan de Avila وقـد كفله بنصف ديونه وقد كفل التـاجر Juan Sanchez de San Pedro أخـاه Alvaro de San Pedro بمبلغ 200 ألف مـيرفيـدي وحفيـده Gonzalo de San Pedro بمـبـلـغ 150 ألـف ميرفيدي، ... الخ[53].

ثانياً: عدم مطالبة الدائنين بأية فوائد على ديـونهم المتأخـرة كما كان معمولاً به في مدينة ليـون بفرنسـا (ربما حـالة واحـدة Archidioli) حيث لا تذكر وثائق الإفلاس أيـة إجراءات من هذا النوع. وربما يرجع ذلك إلى الحالة المالية السيئة للمدينين أو إلى النزعة الدينية القوية التي كان يعرف بها سكان قشتـالة آنذاك وخوفهم من عيون الكنيسة.

(50) Vazquez de Prada, V., Lettres de Marchandes d'Anvers, tome, 11, (Paris, 1961), P. 78.
(51) A.H.P.V. P. 7838: 393.

راجع ملحق رقم (1)

ملحق رقم (1)

حالات الإفلاس التجاري المسجلة في سجلات دوائر كتاب العدول في مدينة دل كامبو (قشتالة القديمة) للفترة 1518 - 1523

المصدر	عدد الدفعات(*)	مقدار الضمان	كفلاؤه	المدينة	اسم التاجر المعلن	تاريخ التسجيل
7838:393	12	ديونه	Rodrigo Sanchez Diego Vazquez Isabell de Sevilla	طليطلة	Juan Ximenez	1 — 10/7/1518
7838:407	2		Juan de Exicia Martin Alonso Alnso de Villa Real		Lope del Royo	2 — 15/11/1518
7838:419	6	400.000	Lopez Sanchez Rodrigo Ponce Pedro Husyllo		Alvar del Royo Y Pedro Sanchez	3 — 23/11/1518
7839: 81	6	——	——		Fernando de Toledo Diego Garcia	4 — 16/8/1518
7839:103	9		Fernando Perez Garcia Lopez Alnso Montalvon Gutierrez Garcia Alnso de Madrid		Alnso Alvarez de San Juan y Gonzalo Sanchez de San Pedro	5 — 25/8/1518
7839:163	10	——	——		Alonso de Bedoya (Guadalajara)	6 — 5/8/1518
7839:163	4	——	——		Hernando de Chillon	7 — 9/8/1518
7839:325	7	——	Garcia Lopez		Juan Lopez de Toledo	8 — 28/8/1518
7839:347	10	250.000	Sabstian de Shghun Francisco de Leon Luis de la Torre Juan Vanas Enrique de Torre		Anton de Valladolid	9 — 1/7/1518
7840:426	12	500.000	Alonso de Castanada Anto Alvarez Pedro de Castanada Juan de Montalvon		Francisco de Diego Castanada	10 — 16/7/1518
7840:512	10		Sanchez Ortiz		Francisco y Bartelomo y Nicolas Ortiz	11— 16/7/1518
7840:517	16		Juan de Avila		Hernando de Avila	12 — 7/7/1518
7840:528	10	120.000	Pedro Lopez		Garcia de Arevalo	13 — 14/ 7/1519

		Juan Vazquez			
		Alonso del Castillo			
14 — 30/11/1519	Alonso Nunez	Gonzalo de la Fuente	80.000	12	7840:532
		Juan del Castillo			
		Pedro de Arevalo			
15 — 3/12/1519	Juan Sanchez de	Alvaro de San Pdero	500.000	8	7840:539
	San Pedro	Gonzalo de San Pedro			
		Luis Hurtado			
16 — 1/12/1519	Diego Lopez y	Gonzalo de Segura		10	7840:551
	Fernando Nunez	Fernando de Duenas			
		Gonzalo de Ovieda			
		Juan del Castillo			
		Alonso de Toledo			
		Lorenzo de Duenas			
17 — 10/12/1519	Garcia del Castillo				
	y Hernando de la Fuente	Gonzalo de la fuente		20	7840:575
18 — 4/12/1519	Pedro Lopez de	———		8	7840:581
	Toledo				
19 — 7/12/1519	Francisco del Anguyo	———		4	7840:583
20 — 10/12/1519	Luis Alvarez Franco	———		8	7840:588
	Diego Garcia				
21 — 14/12/1519	Diego ynJuan de la	Alnso de Toledo		10	7840:589
	Fuente	Juan de Torre			
22 — 17/11/1519	Juan de San Pedro	———		4	7840:597
	y Alvar de San Dpedro				
23 — 2/11/1519	Diego Marques	———		16	7840:609
24 — 4/12/1519	Diego Fernandez	Juan de Yllescas	140.000	16	7840:611
	de Yllescas	Dpedro Hernandez de			
		Yllescas			
25 — 10/12/1519	Juan de Montalbon	Antonio de Madrid	125.000	8	7840:614
	y Rodrigo Vazquez	Francisco de Toledo			
		Sancho Ortiz			
		Alnso Ortiz			
		Gutierrez Garcia			
26-15/7/1520	Juan Lopezde	Alonso Gonzalez de		6	7841:234
	Anaya	Ortiz y Alonso de			
		Basurto			
27 — 8/12/1520	Juan Ortiz		———	10	7841:237
28 — 9/12/1520	Rodrigo de San Pedro		———	8	7841:239
29 — 30/6/1520	Alonso y Fernandez	Juan de Portillo	1.700.000	10	7841:228
	y Pedro Franco	Diego Lopez			

30 — 1/12/1521	Hernando de Valladolid	———		10	7841:245
31 — 9/9/1521	Juan Nunez	Pedro de Burgos		16	7841:226
32 — 9/12/1521	Alonso de Prado	———		3	7841:236
33 — 13/12/1521	Ramon Garcia	Antonio de Pantorbo	75.000	14	7841:242
34 — 17/12/1519	Francisco Lopez de San Gines		———	10	7842:467
35 — 15/ 7/1519	Gomez de Carrion	———		8	7840:594
36 — 6/ 7/1519	Garcia Lopez	Pedro Gonzalez Usyllo Juan Perez de Toldeo Francisco de Madrid Alonso Alvarez de Usyllo Ruy Perez de la Fuente	2 Million	9	7840:464
87 – 13/12/1521	Fernando de Villa Real	Juan Vazquez Alonso de Villa Real		2	7841:247
38 — 13/12/1523	Juan de Topas	———		———	7813:48
39 — 15/12/1523	Rafael Archdioli Dpedro Archidioli	———		———	7842:604
40 — 21/12/1523	Fermandez Olivera	———		———	7843:419
41 — 15/ 7/1524	Pedro de Burgos	———		10	7842:334

الاستشراق الأمريكي الحديث: طبيعته ومؤثراته

أ. د. خليل سمعان

جامعة نيويورك

أ ـ الاستشراق والمثقف العربي

نشأ المثقف العربي المعاصر في بيئةٍ رأت النور الحضاري بعد ظلمة دامت قروناً عديدة، كانت نتيجة لانطفائه على يد الأتراك العثمانيين، الذين أنزلوا بالوطن العربي ويلات حضارية واجتماعية واقتصادية سجلها التاريخ لأسوأ فتراته. وخلال تلك الفترة المشؤومة من تاريخ العالم العربي، كانت أوروبا المستيقظة حديثاً منهمكة في مد سلطانها الاقتصادي، الاستعماري، على مناطق أمريكية وإفريقية وآسيوية، بما في ذلك الأقاليم العربية التي كانت أوروبا تعلم بأن شعوبها المتعطشة للحرية والنهوض ما كانت راضخة لظلم العثمانيين. وأوروبا هذه لم تكن جاهلة بمكانة الشعوب العربية في التاريخ الكوني إذ إن أوروبا بالذات كانت الإبنة الحضارية لتلك الشعوب التي كانت قد بسطت سلطانها على أجزاء منها، الأندلس وصقلية مثلاً، قروناً عديدة، كانت بمثابة جسر حضاري متين عبرت عليه الحضارة العربية إلى فلورنس وروما وإلى باريس ولندن. هذا الواقع التاريخي شكّل بالنسبة لأوروبا منفذاً ضخماً دخلته قواها فأصابت أهدافاً خمسة:

1 ـ الهدف العلمي: إذ إن مادة الحضارة العربية كانت ولا تزال موضوعاً ثميناً وميداناً واسعاً مكّن العلماء الأوروبيين المخلصين من التجوال فيها لغة وتاريخاً.

2 ـ الهدف السياسي: إذ إن الدولة العثمانية كانت «رجل أوروبا المريض» الذي كان سوطاً في يد الإنجليز تارة والفرنسيين تارة أخرى لضرب الألمان والروس المتنافسين على تركته ومنعهما من الاستيلاء عليها.

3 ـ الهدف الاقتصادي: إذ إن المنطقة من مستعمرات العثمانيين كانت معروفة بأنها منطقة غنية بتاريخها الديني ومعالمها وبثرواتها النفطية الضخمة وبحضارتها العريقة النامية في الحجاز والعراق وفي سوريا وفلسطين وفي مصر وتونس والمغرب الأقصى.

4 ـ الهدف الاستراتيجي الذي كان يرمي إلى تأمين حماية أوروبا لمصالحها الاستعمارية في آسيا وإفريقيا الشرقية.

5 ـ الهدف الديني الذي كان دافعاً قوياً في الأوساط الأنجلو ـ سكسونية التي كانت على علم بأن الدين إنما هو أحد السبل إلى تنفيذ الأهداف الأربعة الأخرى وإلى «خلاص» المسلمين. . .

ومن تحصيل الحاصل أن تمتّع خدم الهدفين الأول والخامس بالكثير من الصلاحيات، وذلك نظراً لأن العلم والدين كانا وما زالا الركيزتين القويتين للحضارة الأوروبية اللتين إليهما تستند الركائز الأخرى كالجيش والدولة، إلخ. فالعلماء اتخذوا من الجامعة مقراً لهم أنشأوا فيها مراكز لدراسات سمّوها «شرقية» بالرغم من أن عُظمى موادها كانت العربية والذين عملوا في الدين اتخذوا من الكنيسة سنداً لهم فكانوا «مبشرين» تمدهم الكنيسة بالمال وكافة التسهيلات الضرورية لمباشرة أعمالهم المخربة اجتماعياً، إذ كانت تبذر الفرقة حتى بين أبناء العائلة الواحدة، وخلقياً إذ إنها كانت تهدف إلى لغم التربية القومية وإنتاج أتباع لسياسة

الدولة التي ينتمي إليها المبشرون أولئك.

ومن هنا، بدأ الاستشراق وظهر المستشرقون. فالذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم درسوا وحققوا وشرحوا الغامض من ثروة العرب الفكرية وأفلحوا، وقد ترجمت أعمالهم العلمية إلى اللغة العربية وأصبحت مادة أكاديمية ثمينة يُعتمد عليها. كما صار لبعض المبرزين من هؤلاء العلماء الأوروبيين نصيب الأسد من تقدير واحترام العالم العربي الذي أوْلاهم ثقته وفتح لهم أبواب جامعاته ومؤسساته العلمية مرحِّبا، حتى أصبح من العلماء العرب من يستشهد بتلك الأعمال وأيضاً بمقالاتهم وكتبهم وكتاباتهم وأقوالهم فصار للاستشراق اسماً مكرماً في جميع البلاد الناطقة بالضاد.

وهكذا نشأت أجيال من المثقفين العرب وربيت على احترام العمل الاستشراقي واعتباره عملاً علمياً صحيحاً يعتمد عليه أكاديمياً ويستشهد به.

وبقي الوضع على هذه الحال حتى منتصف هذا القرن الذي به صدمت الحضارة العربية صدمة ما زالت منصبة عليه بعنف عظيم. وتشرد الكثير من أبناء فلسطين وبقية البلاد العربية ممن اضطر إلى التشرد طلباً للسلامة، أو إلى الهجرة سعياً وراء الطمأنينة والثروة. ومن بين هؤلاء من كانت الثروة بالنسبة لهم العلم والمعرفة ومن نجح في الحصول عليها فكان هذا كسب ضخم لا للأفراد فحسب بل أيضاً للأمة العربية التي رسخ حبها في فؤاد أولئك المغتربين. وفي هذه الآونة ظهر في الوطن العربي ترجمات كثيرة لأعمال المستشرقين والتعليق عليها وإظهار أخطاء ارتكبها الباحثون الأوروبيون إما سهواً أو عمداً. أما المغتربون فقد وجدوا أنفسهم مدججين بأسلحة لم يتوفر الكثير منها للعلماء المقيمين كالتعمق في دراسة اللغات التي هي مفتاح الأعمال الاستشراقية. وهكذا، تضامناً مع العلماء المقيمين، بدأ المغتربون أعمالهم النقدية هادفين منها إلى تثقيف الأجانب وإقرار العدالة العلمية في الأبحاث التاريخية والاجتماعية المستهدفة العالم العربي وأبنائه.

وإنه لما يبعث السرور والاعتزاز والفكر أن تكون إدارة مجلة (آفاق) الغراء، أحد الميادين التثقيفية هذه، حيث تُناقَش أعمال استشراقية نقاشاً علمياً رصيناً يهدف إلى التنبيه إلى الخطأ إن لم يكن إلى تصحيحه.

ب ـ أهم ركائز الاستشراق الأميركي الحديث

معلوم أن أعمدة الحضارة الأوروبأمْريكية هي العائلة، والكنيسة، والمدْرسة، والجيش. ومعلوم أن العائلة الأوروبأمْريكية المعاصرة فقدت الكثير من وحدتها وتضامنها منذ أصبح بإمكان أفرادها كسب معاشهم بأنفسهم. فالكنيسة وقد كانت منذ القرون الوسطى ذات سلطان روحي فحسب بل وزمني أيضاً، وجدت نفسها نتيجة لهذا التفكك العائلي في وضع يؤمن لها نفوذاً كبيراً على المؤمنين الذين لجأوا ويلجأون إليها لإيجاد حلول لأزماتهم الدينية والزمنية، وأيضاً لتثقيف أبنائهم دينياً واجتماعياً. وهكذا أصبحت الكنيسة الأمْريكية مركزاً دينياً واجتماعياً وثقافياً وحتى رياضياً وكشفياً.

وصار لكل معبد كاهنان مهمة أولهما إقامة الطقوس الدينية وإلقاء عظة نهار الأحد وعيادة المرضى وعقد الزواج والتعميد والجنازة، بينما يُكَلَّف مساعده بتثقيف الأبناء والبنات والسهر على راحتهم أثناء العبادة والزيارة والألعاب الرياضية.

ومعلوم أن اللاهوت المسيحي هو تكملة لناموس اليهودية وأن الصلة بين الدينين كانت ولا تزال متينة جداً، بالرغم من أن تاريخ السلطات المسيحية مليء بأعمال اضطهاد اليهود. هذه الصلة هي أقوى ما يكون في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تكثر الكنائس والكهنة وحيث توجد طبقة خاصة من القُسس الذين يستعملون التَّلْفَزَة لنشر أفكارهم الدينية وجمع المال من الجموع الغفيرة من مستمعيهم. و «قسس الهَواء» هؤلاء، ومساعدوهم وخبراء العلاقات العامة الذين يعملون في خدمتهم، يجمعون ويصرفون الأموال الطائلة على رسالتهم الدينية التي، في كل حالة من الأحوال، تتضمن الكثير من الأفكار السياسية. إنهم يكْرزون تَلْفَزَة فيلعبون على أوتار حساسة في سامعيهم مستعملين التوراة والأناجيل مصدراً لتبشيرهم. فهم يعتبرون الكتاب المقدس كلام الله المعصوم وأنهم المكلفون بشرحه للمؤمنين كلمة كلمة، مستغلين شرحهم هذا لحل أزمات المؤمنين الديني منها والخلقي، السياسي والاقتصادي، وشفاء الأمراض وحتى النبوءات بمستقبل الأفراد والأمم. هؤلاء القسيسون يتناسون أن

نبوءات «العهد القديم» في «الكتاب المقدس» قد تحققت بظهور السيد المسيح ولا يتورعون عن العودة إلى التوراة لدعم آرائهم الشخصية في أوضاع العالم الحالي. فمثلاً، يستقطبون نبوءة عاموس، 14/9 التي تقول بجمع شمل اليهود فيخلطون بين اسرائيل القديمة واسرائيل الصهيونية ويعتبرون أن تأسيس الكيان الصهيوني، هو تحقيق لهذه النبوءة، والنبي عاموس هذا كان راعياً ظهر في القرن الثامن قبل المسيح وخطب في فساد خلق شعب إسرائيل محاولاً دلّهم إلى الطريق القويم أما جمع شمل اليهود فهو ما حصل بعد خلاصهم من النفي البابلي. والغريب أن هؤلاء المسيحيين الأمريكيين المؤمنين بعصمة «الكتاب المقدس» الحرفية يعتقدون بأن ما جاء في التوراة والأناجيل من أشياء عقائدية وخلقية وتاريخية ونبوءات بما في ذلك عودة السيد المسيح - الظهور الثاني - والحشر الجسدي وما إلى ذلك، هي أمور لا يجوز الشك فيها. فهم يؤمنون أن من دلائل وعلامات قرب ظهور المسيح ثانية، إعادة إقامة دولة اسرائيل التي سيليها اهتداء جميع يهود العالم إلى المسيحية، وانتهاء العالم، وصعود المؤمنين إلى السماء حيث الحياة الأبدية... وبالرغم مما في هذا التفكير من إساءة معنوية إلى اليهود واليهودية، فإن حاخامية اليهود، بلسان رئيسهم الحاخام أَلِكسانْدَرْ شِنْدْلَرْ، لا يتورعون عن التصريح بأن ما يقوله هؤلاء المسيحيون المتزمتون هو مقبول لدى يهود أمريكا «ما داموا، أي النصارى، يساندون اسرائيل». وطبعاً، ومن تحصيل الحاصل، يساند هؤلاء اسرائيل بكل قواهم المعنوية والمادية: فهم يرون في تعديات إسرائيل على الفلسطينيين واللبنانيين وسواهم من العرب أمراً مقدراً من الله عز وجل (والله معصوم عن هذا الكفر، إذ إن الله، في المسيحية، هو المحبة لا القتل والتشريد والسرقة)، ويهلّلون لانتصارات الجيش الصهيوني، كما يضغطون على أعضاء الكونغرس والإدارة الأمريكية لمنح اسرائيل مساعدات عسكرية وهبات مالية وتنازلات اقتصادية ضخمة تضرّ حتى في مصالح الدفاع والاقتصاد الوطني الأمريكي، وأهم هؤلاء الدعاة من قُسس الهواء الأمريكيين جِمي سواغَرْت وجري فالْوِلْ، وجم باكِرْ، وجيمس روبْسون، وباتْ روبِرْتْسُنْ، وبول كرَوْش: إنهم بوليسة تأمين ضخمة لسلامة إسرائيل والدعاية لها وتبرير أعمالها الوحشية.

أما العمود الثاني في الكيان الأمريكي - الإسرائيلي فهو المدرسة بشُعبها الأربعة: روضة الأطفال، الابتدائية، الثانوية والجامعة. فعلاوة على المدارس الصهيونية الصرفة كروضات الأطفال التابعة للمراكز اليهودية المنتشرة في البلاد، والابتدائيات، والثانويات اليهودية المختلفة التي تأسست على غرار مدارس الطائفة الكاثوليكية، والجامعات الصهيونية كجامعتي «يشيفا» في نيويورك و«بْرانْدايْسْ» في ماساشوستس، فإن المنظمات الصهيونية تحرص على دعوة الكثير من المسؤولين السياسيين والمدرسين الأمريكيين لزيارة فلسطين المحتلة والاطلاع على المنجزات الصهيونية. ومن الطبيعي أن يكون الأدلاء المرافقون للمدعوين صهاينة متعمقين في أساليب العلاقات العامة، يعملون على تعميق الصداقة العالمية لإسرائيل. وهكذا يعود هؤلاء المدرسون من زيارتهم للكيان الصهيوني وهم مسلحون بالكثير من المعلومات عن الإنجازات الصهيونية والقليل القليل من العنصرية والظلم الصهيونيين. وبالإضافة إلى هؤلاء فإنه، مما لا شك فيه، أن عدداً كبيراً من المدرسين الأميركيين اليهود يعطفون على الصهيونية ويساندونها حتى في المدارس والكليات الوطنية الأمريكية. وهكذا ينشأ جيل بعد جيل من الأمريكيين المتعصبين لكل ما هو صهيوني في فلسطين المحتلة، الجاهلين تمام الجهل للقضية العربية: جيل أمريكي يهودي تخرج على أيدي أبناء ملّته وجيل أميركي مسيحي تثقف في مدارس، للصهيونية فيها يد ليست بالقصيرة.

وهنا لا بد من التساؤل عن، أولاً، دور العلاقات العربية في أمريكا، وثانياً، الدور الذي يلعبه المدرسون العرب والجالية العربية في أمريكا: والجواب على السؤال الأول هو... حدّث ولا حرج، وسنعالج هذا الموضوع في بحث آخر إن شاء الله. أما السؤال الثاني فجوابه... بعض الشيء ولكن نظراً لأن العربي في أمريكا كأخيه في الوطن تنقصه الثروة والوحدة فإن أثر عمله وإن كان ملموساً لا يشكل عاملاً قوياً في تثقيف الشعب الأمريكي في الأمور العربية خاصة والإسلامية عامة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية هنالك الاضطهاد العنيف الذي يتعرض له المدرسون العرب والقلة من زملائهم

الأمريكيين الذين يخدمون العلم فيدحضون أكاذيب الصهيونية. ولإعطاء صورة واقعية عن هذا الاضطهاد تكفي الإشارة إلى آخر الأحداث في هذا المجال:

1 ـ الأعمال التي تقوم بها «اللجنة الأمريكية ـ الاسرائيلية للأمور العامة» التي عممت على الطلاب والأساتذة اليهود في الجامعات الأمريكية كتيّباً من 187 صفحة طالبةً إليهم مراقبة الأساتذة وحتى الطلاب من «المناوئين لإسرائيل». ويشكل هذا التعميم «لائحة سوداء» بمن تعتبرهم اللجنة «خطراً على اسرائيل». وقد نددت بهذا العمل الإجرامي بحق العلم جمعية الدراسات الشرق أوسطية في اجتماعها السنوي الذي عقد في مدينة سان فرانسيسكو في شهر نوفمبر 1984.

2 ـ والأعمال غير العلمية وحتى السخيفة التي تقوم بها شلة صهيونية تدعي نفسها «أساتذة جامعيين يعملون لإحلال السلم في الشرق الأوسط» ومنها نشر كتاب عن «تاريخ الشرق الأوسط» يُظْهر القضية الفلسطينية بصورة صهيونية مشوّهة عُمّم على المدارس والكليات الأميركية وشجبته اللّجنة العربية ـ الأمريكية لمكافحة العنصرية.

3 ـ وأعمال اللجنة اليهودية ـ الأمريكية التي تهدف إلى خنق الصوت العلمي في كل ما يتعلق بفلسطين العربية والتي دستورها رسالة عمّمها الحاخام مارك تاننباوم بتاريخ 2 ابريل 1969 على الطلاب وأساتذة الجامعات اليهود.

4 ـ أضابير جمعية أبناء العهد «بني برث» اليهودية التي تحتوي على الكثير من المعلومات المتعلقة بشخصيات أكاديمية تعتبرها الجمعية المذكورة «عدوة لاسرائيل».

5 ـ الأعمال الاضطهادية التي قام ويقوم بها الصهاينة ضد الأساتذة الأمريكيين وخاصة العرب الأمريكيين.

1/5 قضايا الأساتذة نوعامْ تْشومْسكي، من معهد ماساشوستس التقني، إرنست دوبْ من جامعة ولاية نيويورك في سْتوني بْروكْ، إدْوَرْدْكيينْ من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس وسواهم (انظر مجلة **لِنْك**، العدد 18 الرقم 2 لشهري مايو ويونيو 1985).

2/5 وقضايا الكثير من الأساتذة العرب ـ أمريكيين آخرها مشكلة الأستاذ العراقي ـ الأمريكي عابد المراياتي في جامعة تولِيدو (انظر مجلة **«نظرات فلسطينية»** العدد 17 لشهري يونيو ـ يوليو 1985).

وهكذا تجتمع الكنيسة والمدرسة فتشكلان الأساسين القويين للدعم الأمريكي للصهيونية المعادية. ومن نتيجة هذا العمل المشترك (الذي يصعب الرد عليه ما دام ليس هنالك دعماً مادياً وثقافياً قويين) أن تظهر إسرائيل بصورة الرسالة السماوية الحضارية النبيلة بينما يظهر العرب، أعداء اسرائيل بصورة مشوهة! فالكنيسة والمدرسة تنتجان جيلاً أمريكياً يعطف على اسرائيل دينياً وثقافياً وعسكرياً واقتصادياً أيضاً. ومن هنا تولّد التمييز العنصري الأمريكي الموالي للصهاينة والمعادي للعرب: فالاسرائيلي الصهيوني، بالنسبة للأمريكي العادي، هو إنسان مؤمن، ديمقراطي، إنساني، يعمل على إنجاح رسالة سماوية منصوص عليها في «الكتاب المقدس» وفي كتب التاريخ المستعملة في المدارس الأمريكية، وأيضاً في كتابات مراسلي الصحف والمجلات وفي روايات الروائيين وخطب السياسيين وسياسة علماء الاقتصاد المكلفين بصيانة المالية الأمريكية وتضخيمها. أما العرب في الكتب المقدسة المعمول بها في كنائس ومعابد الأمريكيين وفي كتب التاريخ المستعملة في مدارسهم وفي رسائل مراسليهم الصحفيين وروايات روائييهم وخطب سياسييهم وسياسة اقتصادييهم... فهم بالنسبة لغالبية هؤلاء جماعات بربرية تدين بدين همجي لا حضارة لها ولا ثقافة بالرغم من أنها تتمتع بثروات بترولية طائلة.

ج ـ نموذج!

هذا إذاً، وباختصار، هو الأساس المتين الذي يرتكز عليه الاستشراق الأمريكي: التربية العائلية ـ الدينية والتنمية المدرسية ـ الثقافية اللتان هما مصدر الحياة الأمريكية المعاصرة من جيش وصحافة ومكتبة ودولة واقتصاد.

ولإعطاء فكرة واضحة واقعية عن أخف نتائج هذا الاستشراق وصفاً بالرغم من أنه بالإمكان إعطاء أمثال كثيرة مأخوذة من المكتبة الأمريكية العلمية والمكتبات الروائية والصحفية والسياسية والاقتصادية، ولكننا اخترنا النموذج التالي نظراً لشهرة منتجه، الرئيس الأمريكي السابق جيمي

كارتر. فقد نشر هذا الرجل مؤخراً كتاباً بعنوان «دم ابراهيم: نظرة نافذة إلى الشرق الأوسط» وذلك في منشورات هُيوتن مِفْلِنْ في بوسطن لعام 1985 هو نموذج جيد للاستشراق الأمريكي المعاصر.

وجيمي كارتر هذا هو رجل «آدمي» بكل معنى الكلمة ورجل علم فهو يحمل شهادة الماجستير في فيزياء الذرة، ورجل محسن فهو اليوم - أي بتاريخ كتابة هذا البحث - يعمل نَجّاراً بدون أجرة في مدينة نيويورك مساهمة منه في أعمال إحسانية تهدف لإيجاد مأوٍ للفقراء الأمريكيين ورجل سياسة. فقد ترأس جمهورية الولايات المتحدة لمدة أربع سنوات ورجل مؤمن فهو عضو مرموق في الكنيسة المعمدانية لا عن طريق ولادته في بيت معمداني، بل عن طريق إيمان ساطع اختبره عن كبر فأصبح ممن «وُلِدَ ثانيةً» في الكنيسة المعمدانية.

ورجل نشأ نشأةً صالحة وتثقف ثقافة عالية كجيمي كارتر هذا لا يمكن أن يقال عنه بأنه متهور مهووس لا يدري ماذا يفعل: إنه رجل مفكر مسؤول يعرف مكانه في التاريخ ويحرص عليه. وهو وقد ترأس وكان مسؤولاً عن نجاح «مصالحة» السادات وبيغن درس ولا شك قضية فلسطين وما تتطلبه هذه الدراسة من معرفة بالعرب وبالدين الإسلامي. فلننظر الآن إلى انتاجه الفكري فيما يتعلق بالقضية الصهيونية الفلسطينية وكيف تسرّب الاستشراق إلى هذا الانتاج فشوّهه.

يرى القارىء من عنوان الكتاب، «دم ابراهيم»، أثر التوراة في الكاتب. وربما قال قائل بأن ابراهيماً ليس في التوراة فحسب بل وفي القرآن أيضاً. هذا صحيح ولكن تسلسل أفكار الكاتب لا يدل على دراسة ولو سطحية للقرآن الكريم. فالكاتب لا ينظر إلى التوراة على أساس أنها كتابات يهودية أُخرجت في عدة قرون وعصور، بل إنها تاريخ مستكمل الحدود. فمثلاً يقول كارتر بأن إبراهيم انتقل من أور الكلدانية إلى أرض كنعان حوالى (1900 قبل المسيح) وأن موسى أخرج العبرانيين من مصر حوالى (1200 ق.م). والمعروف أن التاريخ كعلم لا يثبت شيئاً من هذا. ليس هذا فحسب بل وإنه يسمي المهاجرين اليهود الذين جاؤوا فلسطين حتى قبل ولادة هرتزل مؤسس الصهيونية، يدعوهم كارتر صهاينة. أما الصهاينة المعاصرون فإن كارتر يدعوهم يهوداً رغم أن غالبيتهم تعتبر نفسها لا دينية يهودياً. ويتكرر هذا الخطأ في الكتاب حيث يدعو كارتر الارهابيين الصهاينة «الإرهابيين اليهود». أما عن هدنة 1949 فإن كارتر يقول بأنها «أعطت» اسرائيل أرضاً... مع أن الرجل يجب أن يعلم بأن الهدنة هي «وقف قتال» لا «إعطاء» أرض. وعن حرب 1956 فإن كارتر يقول بأنها كانت نتيجة «عدم السماح لإسرائيل بالمرور في قنال السويس»؛ وحركة تحرير فلسطين، فتح، تأسست «لتدمير اسرائيل» وبأن أعمال «الإرهاب ضد اسرائيل تصاعدت بعد تشكيلها». أما حرب 1967 فيقول كارتر بأنها كانت «نتيجة لقصف المستوطنات الإسرائيلية من قبل سوريا». وبالرغم من أنه يكتب بعد كشف اللثام عن حقائق التدخل الأميركي في تلك الحرب وعن محاولة الإسرائيليين إغراق السفينة الالكترونية «الحرية» التي نجم عنها قتل عدد كبير من رجال البحرية الأمريكية فإن كارتر، على ما يظهر، ليس مطّلعاً على شيء من هذا!..

ويتمادى الرئيس الأميركي السابق في إظهار جهله بالحقائق التاريخية فيقول بأن مؤتمر قمة الخرطوم كان يهدف إلى «إعادة كل فلسطين إلى إدارة غير يهودية». وعن مصرع الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ فهو يقول بأنهم قتلوا بيد «الإرهابيين الفلسطينيين» متجاهلاً سبب العملية الفلسطينية الذي كان إطلاق سراح معتقلين، وأيضاً «أمر» رئيسة وزراء اسرائيل الميتة، غولدا ماير، إلى الألمان بمهاجمة الطائرة التي كانت تقلّ الرياضيين ومختطفيهم. أما حرب عام 1973 فهو لا يذكر كلمة واحدة عن المحاولات المتعددة لتأمين انسحاب الاسرائيليين المحتلين سلمياً، كما أنه يتناسى الدور الضخم والخبيث الذي لعبه الصهيوني كسنجر وزير خارجية نكسون والذي كان من جرائه تزويد إسرائيل المندحرة بالأسلحة والعتاد والخبراء مما قلب الأوضاع العسكرية رأساً على عقب فخرجت إسرائيل من تلك الحرب منتصرة. وأيضاً، ما نتج عن انتصار اسرائيل مؤخراً وصلحها مع مصر السادات التي فتحت البلاد لا لتبادل دبلوماسي فحسب، بل وأيضاً لتأسيس معهد للدراسات العربية في القاهرة تقوم عليه الصهيونية الإسرائيلية وتستغله لصالحها. كما نتج عن سياسة كسنجر

الناجحة دك وحدة الصف العربي وانقسام الدول العربية على نفسها. كل هذا لا ذكر له في كتاب كارتر كما أنه لا ذكر لقرية طابا المصرية التي لا تزال مغتصبة في أيدي الصهاينة بالرغم من «انسحابهم» عن سيناء في كانون الأول 1981.

وحتى اعتداءات اسرائيل المتكررة على لبنان لا ذكر لها اللهم إلاّ عند ذكر اعتداء آذار 1984 حيث يقول كارتر بأن «احتلال» اسرائيل لجنوب لبنان يعادل «بقاء» سوريا في «مناطق أخرى» من البلد العربي الجريح.

ويقدم كارتر في كتابه خريطة يسميها «رحلة إبراهيم» في الشرق الأوسط، خريطة لا يقرها علم جغرافي أو منطق يهودي ـ أو مسيحي.

والغريب أن كارتر يذكر مذابح الفلسطينيين الأبرار في مخيمي صبرا وشاتيلا بشيء من الأسى ولكنه يحاول تبرير اعتداءات الاسرائيليين على أرض وشعب وكرامة لبنان بوصفها أعمالاً «تتنافى وسياسة دولة اسرائيل» وأن تلك الأعمال الإجرامية بحق الإنسان إنما كانت رد فعل على أعمال إرهاب هددت أمن اسرائيل. والأغرب من هذا أن كارتر يعتقد بأن هدف الإرهابيين الإسرائيليين قد مُني بالنجاح وأن «الزعماء الإسرائيليين والأمريكان الداعمين لهم كانوا جد راضين» عن النجاح الراهن لتلك العملية العسكرية.

ويقرن كارتر هذه الترّهات بأقوال التوراة التي يعتبرها ولا شك سجلاً لإرادة الله. فهو يقول بأن الاله «يهوه» قطع لإبراهيم الخليل وعوداً كثيرة منها تمليكه «الأرض الواقعة بين نهري النيل والفرات». وطبعاً هذا هراء. فالوعد المقطوع لإبراهيم هو في التوراة. والتوراة، بالنسبة للدين المسيحي الذي يدين به كارتر هي «العهد القديم» من «الكتاب المقدس» الذي يؤمن به النصارى كتكملة لكتاب «العهد الجديد». والدين المسيحي يعتبر «العهد القديم» كتاباً منسوخاً أي ملغى وأن «العهد الجديد» قد حقق وعود «العهد القديم» جميعها دون استثناء. كل هذا يتناساه كارتر كما يتناسى أن «العهد القديم» هو كتاب اليهود الشرقيين وأن يهود أوروبا لا صلة عرقية لهم بيهود الشرق، هؤلاء، منذ القدم، كانوا عرضة للتبشير المسيحي الذي كسب الكثيرين منهم ثم للهداية للدين الإسلامي الحنيف الذي اهتدى ويهتدي إليه عدد كبير من اليهود حتى يومنا هذا...

ويستطرد الرئيس السابق كارتر فيتحدث عن هاجر، أم اسماعيل وزوجة ابراهيم الثانية فيقول بأن طردها من مخيم إبراهيم كان سببه «كرهها» لسارة الزوجة اليهودية العاقر...

ويختم كارتر أطروحته العرقية الغريبة هذه بقوله إن سكان «لبنان وسوريا والأردن ومصر هم من نسل إبراهيم وزوجه «كتوره» وبذلك يفرق بين عرب الجزيرة وعرب الهلال الخصيب وعرب إفريقيا الشمالية وهو ما حاوله كل مستعمر منذ وفاة الإسكندر الكبير حتى يومنا هذا. وكارتر لا يرى أي تناقض بين قوله بأن إله اليهود القدماء وعد ملكهم داوود «بدوام مملكته إلى الأبد» في سطر، وفي سطر آخر يكتب بأن تلك المملكة خربت... ونفي سكانها ! أهذه وعود سماوية؟

أما عن الإسلام فيقول كارتر بأن «كلمات النبي محمد هي دليل قبلي (كذا) وعائلي ـ كيف يجب معاملة الأصدقاء والأعداء، الضيوف والذين ينزلون الضرر بجيرانهم أو الذين لهم دعاوى قانونية...».

هذا ما كتبه الرئيس الأمريكي كارتر في مقدمة كتابه، «دم ابراهيم» عن العرب واليهود. وبقية المقدمة تستطرد الكلام عن الحضارتين الإسلامية واليهودية استشراقاً رخيصاً. كما يحاول الكاتب المقارنةَ بين فكر الإرهابي بيغن والسادات حين استضافته لهما في واشنطن وفي «كامب دافيد». والحديثان استشراقيان صرفاً يليهما تحليلات لا يمكن أن يقال عنها بأنها نِصْف علمية عن اسرائيل وسوريا ولبنان و «الفلسطينيين» ـ لا فلسطين ـ والأردن ومصر والعربية السعودية. والمستقبل. وفي باب المستقبل يفند كارتر رأيه في الحرب والسلام وفي الصلح بين العرب واليهود، صلحاً يؤمّن لإسرائيل الاحتفاظ بمعظم أملاك عرب فلسطين مصرحاً بأن على «العرب الاعتراف بحقيقة وجود إسرائيل كما يجب على الإسرائيليين الاعتراف بأن للفلسطينيين حقوقاً مدنية منها الحق بحرية الرأي في جزء من أرضهم القومية». ويختتم هذا الباب باستقطاب التوراة عندما سأل الله قايين «أين هابيل أخوك؟ فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي؟ فقال الرب ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض، فالآن ملعون أنت (العهد القديم، سفر التكوين 4:9-11)... إن الدم المسفوك

في الأرض المقدسة لا يزال يصرخ إلى الله، صرخة آسية للسلام».

ومقدمة الكتاب هي كما ذكرنا مبنية على تاريخ توراتي لا علمي. وفي بقية فصوله يتحدث كارتر عن أمور كثيرة أهمها ترؤسه لمفاوضات «كامب دافيد». ومن العدل القول بأن كارتر بالرغم من عطفه على إسرائيل وحتى على الإرهابي بيغن، يُظهر في بعض السطور أسى على ما حلّ ويحلّ بالفلسطينيين وبعض الإعجاب بأنور السادات. ولكن الاستشراق يشعّ في كل عبارة وكل كلمة تذكر العرب والإسلام. هذا الاستشراق إن دلّ على شيء إنما يدل على ثقافة ناقصة، فالمؤلف لم يدرس ولم يكرس سوى القليل من وقته للاطّلاع على ثقافة العرب وتاريخهم وعلى تاريخ القضية الفلسطينية. ليس هذا فحسب ولكن هنالك أساسين رئيسيين لاستشراق مؤلفنا هذا:

أولاً: التفاسير اللاّمسيحية للعهد القديم من «الكتاب المقدس». صحيح أن «العهد القديم» وعد ووهب، إلخ ولكن جميع تلك الوعود والهبات قد حققت بظهور السيد المسيح، عيسى عليه السلام. وهكذا، بالنسبة للدين المسيحي الحقيقي، لا حقّ مطلقاً لليهود بالأرض المقدسة على أي أساس ديني.

ثانياً: حتى اللاهوت اليهودي الحقيقي، وهو يتنافى واللاهوت المسيحي مئة بالمئة، لا يقول بالقتل والنهب والتشريد واغتصاب الأراضي: إنه الناموس النبيل الذي أعطى الإنسانية الوصايا العشر التي تأمر الإنسان بصورة صريحة جداً أن لا يقتل ولا يسرق ولا يشهد بالزور.

ثالثاً: تناسى أن أرض فلسطين، في تاريخها الطويل، كانت مسكناً للساميين الذين منهم اليهود الشرقيون ثم جاءها المصريون فالبابليون فالإغريق فالرومان. وعند ظهور السيد المسيح، عيسى عليه السلام، بين اليهود، كان سكان فلسطين قسمين، يهوداً ووثنيين. وقد اهتدى الكثير من الفئتين إلى دين عيسى وأصبحوا نصارى. وعندما فتح المسلمون فلسطين كانت غالبية السكان مسيحيين وقلتهم يهوداً. ومن الفئتين أيضاً اهتدى الكثيرون إلى الدين الحنيف.

هؤلاء إذاً هم الفلسطينيون: أحفاد اليهود والوثنيين الذين تنصروا، ثم أحفاد النصارى والأقلية اليهودية الذين اهتدوا إلى الإسلام والذين أصبحوا الأكثرية في أرض فلسطين إبان بدء الاحتلال الصهيوني لها وتليهم أقلية مسيحية يأتي بعدها عدد ضئيل من اليهود الأصليين. أما يهود أوروبا الاشكنازيون فإن صلتهم بالأرض المقدسة هي صلة الأوروبيين المسيحيين بها، لا أكثر ولا أقل.

رابعاً: وهو ما لم نذكره حتى الآن بالرغم من وجاهته: فالرئيس السابق كارتر، عندما دعا لاجتماع «كامب دافيد» وعند كتابته لكتابه الاستشراقي هذا لم يكن دخيلاً على العلم وعلى الاهتمام بالقضايا العربية الصهيونية. إنه يصرح بهذا في كتابه. إن اهتمامه يرجع إلى إيمانه بالتفسير التوراتي الخاطىء للعهد الجديد أولاً. وثانياً قد دُعِي وزوجه لزيارة «اسرائيل» وزارها في شهر مايو 1973 بناءً على دعوة «الجنرال يتسحق رابين»... وهناك زار المستوطنات الاشتراكية الصهيونية وأكل «سمك القديس بطرس» إلخ، من خرافات كهذه جميعها يدل على علاقة عاطفية بإسرائيل أقدم من «كامب دافيد».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هنالك من بين المؤثرات العظمى التي تؤدي إلى الاستشراق بصورة عامة، بالإضافة إلى التربية الكنائسية التي ذكرنا، التربية الجامعية. إن كارتر هذا لم يكتب الكتاب الذي يحمل اسمه الذي هو سبب رواجه وانتشاره، لم يكتبه بنفسه، كما أنه لم يسجل نتيجة مقابلاته بنفسه ولم يجر الأبحاث في تاريخ الثقافة بنفسه. فلقد اعتمد، حسب قوله في مطلع الكتاب، اعتمد على الأساتذة الجامعيين:

1 ـ كِنِتْ سْتاينْ، الأستاذ المشارك لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة إِمُري في أتْلانْتا بولاية جورجيا، مسقط رأس جيمي كارتر. وستاين هذا صهيوني.

3 ـ نَدَف صفران، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد، والمتخصص بالشرق الأوسط، وهو صهيوني أيضاً ومن أشد الصهاينة الأمريكيين خطراً إذ إنه من مواليد القاهرة بمصر وهؤلاء أشد ظلامة.

3 ـ ستيفن هوخمن، يد كارتر اليمنى في الأبحاث وكتابة الكتاب وهو الآخر صهيوني: ثلاثة صهاينة ونصراني راغب بتنصير اليهود.

فاللاهوتيون النصارى المتطرفون الذين يؤمنون خطأً بأن التوراة في عهدها القديم هي سجل تاريخي يشكلون مصدراً من مصادر الاستشراق الخطر لا بالنسبة لفلسطين فحسب بل وأيضاً بالنسبة للثقافة العربية إنهم الأساس الأول للاستشراق الأمريكي. والأساس الثاني للاستشراق في أمريكا مصدره الجامعيون الصهاينة وبقية المدرسين المنتمين إما إلى أولئك أو إلى هؤلاء. إن الفئتين عنصريتان متزمتتان مؤمنتان بأن اسرائيل الصهيونية هي امتداد لإسرائيل المقدسة القديمة وهذا ما لا يقره تاريخ أو منطق. وبالرغم من أن الفئة الأولى إنما ساندت وتساند الفئة الثانية، أي اليهود، أملاً في هدم الدين اليهودي بتنصير أبنائه فإننا نجد أن الصهاينة من اليهود لا يتورعون عن ممالأتهم، طالما في تلك المساندة نفعاً معنوياً أو سياسياً أو اقتصادياً لإسرائيل.

ختاماً، نرجو أن لا نخرج من هذا البحث بفكرة أن الأجانب من صهاينة ونصارى وسواهم هم مصدر الاستشراق الوحيد. فالواقع أن هنالك مصادر أخرى ليس أقلها أهمية تحركات الدول العربية والزعماء العرب وحتى الأفراد من المتمولين ورجالات الدين العرب، تحركاتهم السياسية والاقتصادية. ولنا في هذا الميدان صولة إن شاء الله.



حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ودوره في قيادة النضال ضد النظام العنصري لجنوب افريقيا

د. لطفي جعفر فرج

كلية التربية ـ جامعة بغداد

تمهيد

أملت الظروف السيّئة التي أخذ يعيشها الأفارقة في جنوب أفريقيا، بسبب ممارسة الأقلية الأوروبية لسياسة التمييز العنصري، تحركاً أفريقياً من أجل الإصلاح ومقاومة الإجراءات التي تمادت في سلب حقوقهم السياسية وفرصهم الاقتصادية ومواقعهم الاجتماعية، فقد عمل الأوروبيون باتجاه جعل الأفارقة قاعدة دونية دائمة للهرم الاجتماعي كعمال غير مهرة في الصناعة والزراعة والتعدين والخدمات لأجل أن يحافظ الأوروبيون على سلطتهم وسيادتهم ولكي يضمنوا استمرار حصولهم على قوة العمل الرخيصة لمرافقهم الاقتصادية.

لقد شهد القرن (19)، سيما بعد انهيار المقاومة المسلحة الأفريقية عند انتصار الأوروبيين على قبائل (الزولو) في 1838م، مجموعة قوانين تتعلق بتركيز التفرقة العنصرية أهمها (قانون المرور) الذي فرض على السكان من غير البيض حمل بطاقات يسمح بواسطتها التجول وقانون (الخدم والمخدومين) الذي نظم علاقة العمال الأفارقة بأرباب العمل البيض[1]، ودستور (1856) الذي رفض العناصر غير البيض من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، وقرارات سلب الحقوق الانتخابية للوطنيين والتصرف بامتيازاتهم[2]، والترحيب بفكرة (الفصل العنصري) التي دعت إلى عزل الأفريقيين في مناطق خاصة اقترحوا أن تشغل 13% من مساحة البلاد في أراض فقيرة لا تحتوي ثروات طبيعية أو مراكز صناعية، كي تصبح هذه المعازل عاجزة عن استيعابهم فيضطرون إلى الاشتغال في مناجم ومزارع ومصانع الأوروبيين[3].

إنّ ما عاناه الأفريقيون من وطأة تلك القوانين والإجراءات التعسفية التي رافقتها، أدى إلى ظهور بوادر النشاط السياسي الأفريقي في أواخر ذلك القرن، والذي أخذ يطالب بالإصلاح وبتحسين أوضاع الأفريقيين باعتبارهم يشكلون الغالبية العظمى في السكان، فقد ظهرت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر تنظيمات أفريقية محلية[4]، كان أشهرها تنظيم Imbumba Yama Afrika «اتحاد الأفارقة» الذي ظهر عام 1886 في شرق الكاب، كما ظهرت صحافة أفريقية في ثمانينات القرن أيضاً[5]، ولكن ظل الوعي السياسي الأفريقي بطيئاً، بحدود التأثير.. مبعثراً ومحلياً ولم يتّسم بالقدرة على توحيد الجهد الأفريقي حتى عام 1912 الذي أعطى مؤشراً بأن ردود الفعل التي تركتها ممارسات الأوروبيين قد تجسدت لتجعل كل الأفارقة في جنوب أفريقيا يتحسسون تهديدها وخطرها عليهم، لاسيما بعد نشوء اتحاد جنوب أفريقيا في 1910م الذي بدأ كمحاولة لتوحيد الصف الأوروبي من أجل الإمعان في هضم الحقوق الإفريقية والسيطرة الشديدة على قوة عملهم[6]. بتوجيه الإدارة والتشريع لخدمة ذلك الغرض، فتهيأت الظروف لظهور «المؤتمر الوطني الأفريقي».

«المؤتمر الوطني الأفريقي: مرحلة اعتماد الوسائل السلمية»

تأسيس المؤتمر

على الرغم من سوء الأحوال الأفريقية في جنوب أفريقيا إلاّ أن الأفريقيين هناك كانوا يمتلكون في عام 1912 أكبر مجموعة من الأفريقيين المتأثرين بالعالم الحديث، مقارنة بأية منطقة كان يسيطر عليها الأوروبيون في القارة. فكانت هناك نخبة أفريقية متأثرة بالثقافة الغربية، كما كان يوجد أكثر من مائة أفريقي خارج البلاد لتكملة دراستهم في بريطانيا والولايات المتحدة[7].

بعد ظهور اتحاد جنوب أفريقيا، بدأ المثقفون الأفريقيون (المعلمون والمحامون ورجال الدين والتجار الصغار) يشعرون بالحاجة إلى تنظيم أكبر وأكثر قدرة من التنظيمات المحلية التي ظهرت في العقود الأخيرة من القرن(19)[8] فاستطاع أربعة من المحامين الأفارقة الشباب أنشطهم المحامي الدكتور Pixly Kalzak Seme الذي كان قد ذهب للدراسة في الولايات المتحدة ولندن، أن ينظموا مؤتمراً في مدينة Blombontein استقبلوا فيه ممثلين من جميع أجزاء اتحاد جنوب أفريقيا، وصف بأنه كان تجمعاً مثيراً التقى فيه أعضاء من كل من (التقليديين والتقدميين): شيوخ العشائر والوجهاء ورجال الدين إلى جانب المعلمين والتجار الصغار والمحامين[10]، الذين قرروا أن يتناسوا خصوماتهم ومنازعاتهم وأن يتكتلوا للدفاع عن أنفسهم كأمة واحدة، معتبرين ذلك الاجتماع يوم مولد الوطنية في جنوب أفريقيا[11]. وقد برز خلال ذلك دور الدكتور (بيكسلي سيم Pixly Seme) في حمل المؤتمرين على القناعة بضرورة تأسيس منظمة سياسية واسعة تسعى إلى إصلاح أوضاع الأفريقيين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، اتفق على تسميتها في البداية «المؤتمر الوطني القومي لجنوب أفريقيا The South African Native National Congress وذلك قبل أن يتحول اسمها في 1917 إلى «المؤتمر الوطني الإفريقي African National Congress[12]. انتخب أول رئيس لها John Langalitalele Dube وهو معلم ورجل دين ذو ثقافة أمريكية، في حين انتخب Pixly Seme أميناً عاماً للصندوق.

الأهداف وأسلوب العمل

قرر ممثلو الأفارقة أن تسعى منظمتهم نحو هدف إصلاح الأوضاع الأفريقية عن طريق المطالبة بالحقوق المدنية من خلال شكل من العمل القانوني الذي لا يقوم على العنف، بل ولا على التحريض، إلى درجة تقرر فيها: «أن تتكلم المنظمة من أجل الناس أكثر مما تتكلم مع الناس»[13]. أن تسعى إلى كسب احترام ودعم الأوروبيين للأهداف الأفريقية المتعلقة بالعدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاسيما في مجال إزالة الحاجز اللوني في التربية والصناعة والإدارة والبرلمان[14] ومحاولة الحصول على قبول في الحكومة البيضاء عن طريق الوسائل الدستورية القائمة على التحاور وإقناع السلطة بعدم ضرورة التفرقة.

إن منهج اللاعنف الذي تبنته المنظمة كان يعكس حقيقة أن الكثير من قادة النشاط السياسي الأفريقي في هذه الفترة كانوا متأثرين بأفكار (غاندي) الذي قاد في 1906 حملة ناجحة ضد قوانين التمييز في الهند، حققت بعض المكاسب المحدودة للهنود الذين ناشدهم بعدم اللجوء إلى العنف عند المطالبة[15] بالحقوق.

ولكن فات الأفارقة، على ما يبدو، أن تعامل الأوروبيين معهم لا يمكن أن يكون على نحو التعامل مع الهنود طالما أنهم يكوّنون الغالبية ويتمتعون بالشرعية الوطنية ويشكلون خطراً حقيقياً بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين في المستقبل.

أصدر المؤتمر في نفس العام (1912) جريدة ناطقة باسمه

أطلق عليها «Abanto-Batho» أي (جريدة الشعب The People)، أسسها أحد المحامين أخذت تنشر بالإنكليزية وبثلاثة لغات أفريقية. كرست كل جهودها في البداية للحملة ضد لائحة الأرض الأهلية (Native Land Bill) التي سنتها الحكومة من أجل حرمان الأفارقة من حق شراء الأراضي بحرية. وقد أرسل (المؤتمر) بهذا الخصوص وفداً إلى لندن على أمل أن تحمي الحكومة البريطانية حقوق الأرض للأفريقيين[16]. ذلك أن الأفريقيين في تلك الفترة كانوا يتجهون بأنظارهم نحو العرش البريطاني لحمايتهم، باعتبارهم أن اتحاد جنوب أفريقيا تكوّن تحت إشراف التاج البريطاني وارتبط كدولة من دول الكومنولث بالإمبراطورية البريطانية[17]. رجع وفد (المؤتمر) من لندن دون أن يحقق نجاحاً، وعندما بدأ (المؤتمر) يناقش تلك النتيجة في مدينة Blombontein كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت[18].

خلال الحرب العالمية الأولى، كان الأفارقة كغيرهم في المناطق المستعمرة، مأخوذين بالوعود والآمال التي صدحت خلال الحرب حول حق تقرير المصير للشعوب وإعادة توزيع العدالة الاجتماعية وترسيخ الأسس الديمقراطية. ولهذا، نجد المؤتمر لم يستغل ظروف الحرب بالضغط على الحكومة البيضاء وحملها على إصلاح الأوضاع الأفريقية، وإنما اقتنع بذريعة النظام القائلة بأنه مضطر إلى أن يرجىء النظر في كثير من الأمور بسبب ظروف الحرب، وحتى يكسب (المؤتمر) ود النظام، لم يمانع، من هذا المنطلق، على أن يساهم الأفارقة في أعمال الخدمات التي كان يحتاج إليها جيش النظام. ويمكن القول إن نشاط (المؤتمر) مر خلال الحرب العالمية الأولى في فترة سبات على أمل أن تأتي رياح التغيير بشيء جديد بعد الحرب.

شهد (المؤتمر الوطني الأفريقي)، بعد الحرب العالمية الأولى تطورين مهمين، فقد اتسع بين عمال المدن، وأقام صلات مع التكتلات والتنظيمات الأخرى، مع اتحاد التجارة لجنوب أفريقيا، ومع حركة الجامعة الأفريقية، وقد حضر أحد أعضاء (المؤتمر) مؤتمر الجامعة الأفريقية التي نظمه W.E.B. Dubois في باريس عام 1919م، كما بعد (المؤتمر) بمفوضين عنه، برئاسة (Selope Thema) السكرتير العام للمؤتمر، ذهبوا إلى (فرساي) للاشتراك في (مؤتمر السلام) من أجل تمثيل الأفارقة، ومع أن أولئك المفوضين لم يمارسوا تأثيراً على (مؤتمر السلام) لكنهم أسسوا روابط مع الملونين من أفارقة وأمريكيين وآسيويين[19]، وقد غذّت تلك الصلات روح المعارضة للسلطة لدى «المؤتمر الوطني الأفريقي» الذي قرر بالتعاون مع اتحاد العمال الصناعيين والتجاريين الذي كان قد تأسس في 1919 إشهار المعارضة للسيطرة والاستغلال الأبيض فاتجه إلى دعوة العمال الأفارقة إلى الإضرابات السلمية التي كان من بواكيرها إضراب عام 1920 حين أضرب (70) ألف عامل عن العمل ولم تستطع السلطة أن تنهي إضرابهم إلّا بعد أن أعطت صلاحيات واسعة لقوات الشرطة، تضمنها[20] «قانون الإدارة المحلية» و«قانون تجمعات الشعب المعدل The Riotous Assemblies Amendment Act» وكان لتشكيل الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا في 1921 دوره في دفع (المؤتمر الوطني الأفريقي) لنهج معارضة النظام عن طريق الإضرابات السلمية، وقد تأتّى ذلك نتيجة عاملين:

الأول: دعم الحزب الشيوعي للحركة الأفريقية، وتأثر بعض قادة «المؤتمر الوطني الأفريقي» بالشيوعيين الذين وجدوا في شخص «جيمس كوماد Jamess Gumade صديقاً حميماً. وقد انتخب «جيمس كوماد» في 1927 رئيساً للمؤتمر الوطني الأفريقي وحضر في نفس السنة المؤتمر الشيوعي في مدينة «بروسيل Brusseles[21]» البلجيكية الذي أقامته «عصبة العمل ضد الاستعمار» والذي حضره قادة من الحركات في آسيا وأفريقيا، ووجهت إلى «جيمس كوماد»، بعد المؤتمر، دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتي وعندما عاد إلى جنوب أفريقيا كان متأثراً جداً بما شاهده هناك.

الثاني: أن أكثرية قادة «المؤتمر الوطني الأفريقي» كانت تفسر تشجيع الحزب الشيوعي للإضرابات على أنه أسلوب يسعى من خلاله إلى توسيع قاعدته على حساب «المؤتمر الوطني الأفريقي»، ولهذا اندفعت بدورها إلى تأكيد وجود (المؤتمر) عن طريق الدعوة لتوسيع عملية الإضرابات المعارضة للسلطة، وانسحب هذا على موقفهم من رئيس المؤتمر الوطني الأفريقي (جيمس كوماد) والجماعة التي تميل إلى التعاون مع اليسار، بعد أن رفضوا «نظريات الشيوعيين القائمة على الإلحاد»، وأعلنوا: «أنهم أصبحوا يخشون من أن تكون البلاد منقادة للشيوعيين كغرباء بيض أيضاً»، وقد[22] أدى هذا الموقف إلى تنحية (جيمس كوماد) عن رئاسة المؤتمر الوطني الأفريقي.

أعـطى تـوجـه «المؤتمـر الـوطني الأفـريقي» لأسلوب الإضرابات السلمية وتعـاطف بعض أعضائـه مع الشيـوعيين مـروراً كافيـاً للنـظام في تـوجيـه ضربـات متـلاحقـة للمؤتمـر ومـلاحقة أعضـائه بعـد أن وصفته بـأنـه منـظمـة تـدعـو إلى الاشتراكية، مما أدّى إلى تشتته وتفكك قياداته، وهذا ما سهل على النظام مهمـة امتصاص وكسب بعض قـادته في المجـالس البلديـة التي اصطنعتهـا في 1936 لتمثيـل الأفـريقيـين، حيث أخـذت تدفـع لها رواتب «جـرايات» بصفتهم زعـماء منـادين بعـدم العنف، ولكي لا يهتموا بـالحصـول عـلى المسـاعـدات الخارجية، فأصبحوا منقـادين برضى السلطة[23]، مـع علمهم بأن تلك المجالس كانت بدون فاعلية وليس لها سوى الصفـة الاستشارية. وهكـذا امتازت قيـادة (المؤتمر الـوطني الأفريقي) بعدم القدرة على قيادة النضـال الأفريقي خـلال الثلاثينـات.

وعنـدما انـدلعت الحرب العـالمية الثـانيـة حـاولت أن تجـرب إمكانية استغلال ظروف الحرب علّها تستطيع أن تحقق بعض المكاسب للأفريقيين إلاّ أنها اصطدمت بتعنّت النظام الذي لم يُعِرْ اهتماماً بالموقف الأفريقي ومـا يمكن أن يلعبـه كثقـل في مسألة قرار جنوب أفريقيا بدخول الحرب إلى جانب بريطانيا، فقد أصدر (المؤتمر الوطني الأفريقي) بعد ثـلاثة أيـام من قيام الحرب بياناً أعلن فيه بـأنه سيـدعم موقف النـظام من الحرب بشرط:

1 ـ أن توفر الحكومة تدريباً عسكرياً لرجال (المؤتمر الوطني الأفريقي) يمكن بواسطته استخـدام رجال (المؤتمـر) ليس فقط كعمال ولكن كجنود في الجيش أيضاً.

2 ـ السماح للأفـريقيين بـالدخـول في المشاريـع السياسيـة والدفاعية وقد رد الرئيس (الجنرال Rev. Z.R. Mahabana) عـلى الشروط بعنف، ممـا أدى إلى أن يعـدل (المؤتمـر الـوطني الأفريقي) من موقفه بالتصريح بأنّ:

«المؤتمر الوطني الأفريقي يرغب في تسجيل اقتناعه بأن قرار برلمان الاتحاد بإعلان الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى، إنما هو قرار صحيح».

وتغير على إثرها لهجة (المؤتمر الـوطني الأفريقي) من لهجـة شروط إلى لهجة رجاء، عندما[24] بيّن:

«أنه قد جاء الوقت الذي تهتم فيه حكومة الاتحاد بملاءمـة قبـول الأفارقـة والعناصر غـير الأوروبيـة الأخـرى وشمـولهم بالمواطنة الكاملة في الاتحاد».

تحول (المؤتمر الوطني الأ ريقي) إلى حركة جماهيرية

أدّى ضعف قدرات المؤتمر) على تحقيق الأهداف الأفـريقية واستمرار ارتباط بعض قادته بالنظام، إلى ظهور عوامل اندثار القيادات وصيغ العمل القديمة، ساعدت على ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي شهدت ارتفاع معدل التضخم في جنوب أفريقيا والذي رافقه تدهـور الإنتاج الـزراعي واستخدام صارم للتشريعات العنصرية للوقـوف في وجه المعارضة العفوية للجماهير التي عبّرت عن نفسها بسلسلة من الإضرابات بلغ عددها أكثر من (300) إضراب بين 1939-1945م[25].

ظهرت جماعة من المفكرين الأفارقة الشباب في كلية فورت هير Fort Hare وجوهانسبورغ أخذت على عاتقها: «تطوير فلسفة إنعاش الوطنية للجماهير الأفريقية»، عن طريق نفخ الحياة في جسم «المؤتمر الوطني الأفريقي» الضعيف، وذلك بعد أن اجتمعت في 1944 وشكلت من نفسها «عصبة شباب المؤتمر الوطني الأفريقي».

ترأس هذه العصبة شاب كان يدرس القانون في كلية «فورت هير» Fort Hare اسمه Anton M. Lemebede وهو ابن لأحد العمال الزراعيين من قبيلة (الزولو)، وكان من بين أعضائها «أوليفر تامبو» Oliver Tambo و «نيلسون مانديلا» Nelson Mandela الزعيمان الحاليان للمؤتمر الأفريقي. انتقدت هذه الجماعة قيادة (المؤتمر) القديمة باعتبارها «أظهرت التعاون مع المضطهدين»، واتهمتها في وطنيتها وفي التقصير في المسألة الأفريقية كونها لم تبذل جهوداً حقيقياً من أجل إنهاء القيود العنصرية والتخلص من القوانين الممقوتة[26]. وسرعان ما أثبتت (عصبة الشباب) أنها أكثر جدارة في قيادة (المؤتمر) عندما بدأت بالإعلان صراحة عن رفضها لجميع أشكال السيطرة البيضاء، وقدمت قائمة بالمطالب الأفريقية طالبت فيها النظام بإلغاء «قوانين المرور، وتبني مبدأ ديمقراطي في التعامل، تساوٍ في الحقوق الانتخابية، تثقيف متساوٍ، فرص متساوية، تساوٍ في أجور الاستخدام»[27]. وقد برز تأثير العصبة على الجماهير الأفريقية بعد أن اقترحت برنامجاً للعمل النضالي يقوم على أساس تحقيق الحرية الوطنية بتنفيذ استراتيجية إيجاد تكتلات جماهيرية واسعة للوقوف في وجه السلطة، ونجحت في تنظيم تجمع (حملة التحدي Defiance Campaign) التي اشترك فيها الآسيويون والملونون وغيرهم[28]، وحذر حكومة (مالان) التي جاءت إلى السلطة في 1948 مع ايديولوجية الفصل العنصري القمعية، من مستقبل معتم بعد أن وعد بأن تجعل سلطة جنوب أفريقيا سلطة بيضاء إلى الأبد[29].

لقد بدت «عصبة الشباب» خلال ذلك كله «جماعة متماسكة تلتزم ببرنامج محدد»، وكان ذلك بفضل رئيسها (ليمبيدي Lembede) الذي أصبح مدرساً في Heilbron High School وحصل بالمراسلة على شهادة عليا في الفلسفة والقانون الروماني في 1949. تولت (عصبة الشباب) زمام (المؤتمر) عندما انتخب أحد أعضائها «موروكا Moroka» رئيساً للمؤتمر الوطني الأفريقي والذي باشر بتنفيذ البرنامج النضالي لعصبة[30] الشباب. ففي نفس العام أصدر (المؤتمر الوطني الأفريقي) برنامج عمل جديد يهدف إلى تحويل (المؤتمر) من هيئة إصلاحية إلى حركة شعبية جماهيرية ثورية وذلك عن طريق ممارسة أشكال متنوعة من النضال التي تسمح الظروف بممارستها[31]، وكانت أولى بوادر هذا التوجه توحيد الجهد مع (حزب المؤتمر الهندي) بإعلان الإضراب لمدة يوم واحد في مايس 1950 احتجاجاً على قوانين التفرقة الجائرة. وكان رد البوليس على ذلك الإضراب السلمي قتل عشرات من المواطنين الأبرياء لتخلفهم عن العمل مما دفع بالحزبيين إلى إعلان الإضراب يوماً آخر حزناً على القتلى

وإصراراً على العمل من أجل استرداد حقوقهم. وفي نهاية 1951 قرر الحزبان الأفريقي والهندي إعلان العصيان العام الذي عرف بـ (حركة التحدي) التي بوشر بتنفيذها في 26 حزيران 1952م[32]، فشهد عام 1952 مظاهرات جماهيرية عنيفة ضد قوانين التفرقة ضمت غير البيض وبعض البيض، وقتل المئات من الناس خلال المظاهرات[33]، فقد صادف ظهور حزبين جديدين من الأوروبيين أحدهما (حزب الاتحاد)، والثاني (حزب الأحرار)، وقد أصرّ كلاهما على أن تمنح (الجماعات الملونة والسود) بعض الحقوق السياسية، وهاجم (حزب الأحرار) مبدأ التمييز العنصري وكان على رأس هذه المهاجمة بعض الأساقفة وأساتذة[34] الجامعة.

لقد أعلنت تلك المظاهرات تحديها ووقوفها في وجه التشريعات والقوانين العنصرية، ووقعت نتيجة لذلك تمردات في العديد من المدن مما أدى بالنظام العنصري إلى إعلان الأحكام العرفية وزج بأكثر من (8) آلاف من المواطنين في السجون، وسنّ في 1953 قانون تعديل قوانين الجريمة وقانون الأمن العام اللذين أعطيا الحكومة والشرطة سلطاناً أوسع للقمع[35]، ولكن تلك الإجراءات لم تفتّ من عضد المعارضة التي وجدت في اتحادها خير وسيلة للضغط على النظام، فقد سعى (المؤتمر الوطني الأفريقي) في إقامة تحالف أوسع، ونجح في 1953 في تكتيل تجمع أكبر ضم (المؤتمر الهندي والمؤتمر الأوروبي الديمقراطي، ومنظمة الشعوب الملونة، ومؤتمر جنوب أفريقيا لاتحادات التجارة غير العنصري)، هؤلاء جميعهم كوّنوا «اتحاد المؤتمر» الذي أصبح تحت القيادة النظرية للمؤتمر الوطني الأفريقي من خلال تمثيل متساوٍ في لجان تنسيق[36].

وصل التحالف بين قوى المعارضة أوجه في 1955 عندما اجتمع (اتحاد المؤتمر) قرب (جوهانسبورغ) ووضع (ميثاق الحرية Freedom Chartar) الذي حدد فيه المبادىء الأساسية لعدم العنصرية ولجنوب افريقيا[37] الديمقراطية. ويعدّ (ميثاق الحرية) بمثابة دليل للعمل الوطني وبه يحدد أسس التحالف بين القوى الاجتماعية المختلفة التي تعارض التفرقة، ويعتبر هذا الميثاق من أبرز وثائق التحرر الوطني التي تناضل من أجل الاستقلال بين حركات التحرر[38] الأفريقي.

صيغ ميثاق الحرية، بواسطة مجلس وطني شكّله (اتحاد المؤتمر) نادى بمجتمع متعدد الأعراق، وبإجراءات اقتصادية اشتراكية وبتأمين المصادر المعدنية وبالمساواة في نظام ملكية الأرض، ودعا إلى (السلام والصداقة) في جنوب أفريقيا، والسلام العالمي وتسوية جميع النزاعات الدولية[39] بالمباحثات وليس عن طريق الحرب.

لقد بقي (المؤتمر الوطني الأفريقي) حتى هذا الوقت لا يميل إلى استخدام العنف عند المطالبة بالحقوق، وذلك بالرغم من قيام بعض أعضائه بأعمال تخريبية سرية. استمر يحذر من الوطنية المتطرفة، ويؤكد بأن هدفه هو أن يساعد شعبه في الحصول على حياة أفضل في ظل مجتمع ديمقراطي. وقد عمل (البرت لوثولي Albert Luthuli) الذي تولى رئاسة (المؤتمر الوطني الأفريقي) في 1953 على إبعاد العناصر التي تميل إلى العنف. لقد كانت سياسة «نظام البيض» في الخمسينات، القائمة على القمع والعنف، نموذجاً مرعباً بالنسبة للمؤتمر الوطني الأفريقي إلاّ أنه مع هذا استمر يؤكد على الموقف الأفريقي العام من الأوروبيين باعتباره ينبغي أن يحتوي على مقدار كبير من النظرة الخيّرة تجاههم[40] فإن هذه النظرة التي أدت إلى خروج الجناح الذي تزعمه (فوسومي ماكي Vusu-mi Make) الذي اختلف مع المؤتمر الوطني الأفريقي على أساس أن المجتمع الديمقراطي لا يمكن أن يكون إلاّ للأفريقيين[41]، وكوّن (مؤتمر الجامعة الأفريقية) في 1959، ولكن مع هذا استطاع المؤتمر الوطني الأفريقي توحيد جهده مع ذلك الجناح طالما أن الاثنين يرميان إلى الضغط على النظام.

اعتقلت السلطة في كانون الأول عام 1956، (156) عضواً من أعضاء (حركة التحدي) ينتمون إلى مختلف الجماعات العنصرية، وقد اتهموا بالتآمر وقلب نظام الحكم، ولكن ذلك لم يؤثر في استمرار (حركة التحدي) التي أعلنت في 1957 مقاطعتها لسيارات الأوتوبيس وشجعت النساء الأفريقيات على مقاومة قانون المرور الذي طبق عليهن أسوة بالرجال، فنظمت النساء عديداً من المظاهرات طالبين فيها بحقوق سياسية متساوية[42].

ثم اندفعت (حركة التحدي) إلى حرق تصاريح المرور في (1960)، مما أدى إلى قيام (مذبحة شاريفيل) التي راح ضحيتها عشرات المواطنين.

تبني (المؤتمر الوطني الأفريقي)
أسلوب الكفاح المسلح

كانت مذبحة شاريفيل (آذار 1960) إيذاناً بتوجه المؤتمر إلى أسلوب العمل السري والكفاح المسلح، فعلى أثرها حظرت السلطة نشاطه بموجب (قانون التنظيمات غير الشرعية)[43] باعتباره يشكل تهديداً خطيراً لأمن الدولة، واعتقلت بعض قادته بينهم رئيس (المؤتمر) (لاثولي Lathuli)، أما الآخرون فقد اتجهوا إلى العمل السري أو هاجروا إلى خارج البلاد، وكان من بين الذين هاجروا إلى خارج جنوب أفريقيا نائب رئيس المؤتمر (أوليفر تامبو) و(نيلسون مانديلا) الذي سيكون له الدور البارز في عملية الإعداد لمرحلة جديدة في حياة المؤتمر أهّله لأن يصبح رئيساً للمؤتمر بعد وفاة (لاثولي Lathuli) عام 1967م.

اشترك (مانديلا) في مؤتمر أفريقي عقد في (بيترمارزبورغ Pietermarizburg) في 1961 دعا فيه إلى التشكيك في حكمة سياسة عدم العنف، ونال في حزيران 1961 موافقة بعض القادة الأفارقة على المباشرة في عمليات تدميرية لمنشآت نظام جنوب أفريقيا، على أن توجه هذه العمليات للمنشآت فقط دون أن تسبب ضرراً للأفراد. ولأجل الإعداد لهذه العمليات والتخطيط لها، قام (مانديلا) بجولة في الأقطار الأفريقية المستقلة، وتوجه إلى (مؤتمر حركة تحرير الجامعة الأفريقية Pan African Freedom Movement في (أديس أبابا) وزار نقاط الحدود في (المغرب) حيث اطلع على عمليات الكفاح المسلح التي يقودها (هواري بومدين) ضد الفرنسيين، وعاد إلى جنوب أفريقيا ليباشر في تشكيل أول تنظيم سري مسلح أطلق عليه «احتياطي الشعب»، أعلن أنه «سيعمل من أجل جميع شعب البلاد، البيض والسمر والسود»[44].

دشنت منظمة (احتياطي الشعب) أول عملية تفجير بالقنابل في يوم 1961/12/16 وهو اليوم الذي يصادف فيه ذكرى انتصار الهولنديين على زعيم قبيلة الزولو (دنيكان Dingaan) في معركة (نهر الدم)، واتخذت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني هذا الحادث مناسبة لوصف المنظمة بكونها «نواة الجيش الوطني لشعبنا في المستقبل». في تموز 1962 سمع (مانديلا) بأخبار نجاح (جبهة التحرير الوطنية الجزائرية) في الحصول على الاستقلال منهية (132) عاماً من الحكم الاستعماري الفرنسي والاستغلال الذي مارسته أكبر جماعة مستوطنة، فزاد هذا من إيمانه بقدرة الكفاح المسلح على تحقيق الأهداف الأفريقية فعزم على توسيع عمليات المقاومة المسلحة، إلّا أن السلطة تمكنت من إلقاء القبض عليه في (آب 1962) وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة في جزيرة (روبن Robben)[45].

لقد جاءت عملية اعتقال (مانديلا) ضربة لنشاط الجناح العسكري للمؤتمر الوطني الأفريقي، في وقت اتجهت فيه حكومة جنوب أفريقيا إلى تشديد قبضتها أكثر من أي وقت على القوى المعارضة ومنعها من إثارة الأيدي العاملة الأفريقية سيما وقد دخلت رؤوس الأموال الأجنبية إلى البلاد بمقياس مدهش في وقت مبكر من الستينات، وسجل القطاع الصناعي في جنوب أفريقيا أسرع معدل نمو في العالم بعد اليابان[46]. ولما كانت المحافظة على هذا المعدل تتطلب تحقيق حالة من الاستقرار الداخلي، فقد اندفع النظام إلى تحقيقها عن طريق القمع والإرهاب، فانعكس ذلك على نشاط (المؤتمر الوطني الأفريقي) الذي أوقف تقريباً (في 1965) نشاطه العسكري تحت ضغط الظروف الفاشية. كانت هناك، من وقت لآخر، نشرات توزع في المدن بصورة سريعة من جانب المؤتمر الوطني الأفريقي، ولكن عمليات التفجير أصبحت نادرة وغير مؤثرة كما كانت في السابق، وحتى الاجتماعات، أصبح (المؤتمر الوطني الأفريقي) غير قادر، في الغالب، على عقدها بسبب انتشار قوات الشرطة الخاصة في كل مكان[47].

دفعت تلك الأوضاع بالعديد من الأفريقيين نحو ترك البلاد واللجوء إلى البلدان الأفريقية المجاورة حيث وجدوا تعاطفاً مع قضيتهم سمح لهم بإعادة ترتيب أوضاعهم تحت قيادة (المؤتمر الوطني الأفريقي) التي كانت تعيش في المنفى تحت زعامة (أوليفر تامبو) التي أصبحت تؤمن: بأن الصراع المسلح ينبغي أن يكون امتداداً واتساعاً للعمل السياسي بعد أن عاش الأفريقيون عقوداً من الإحباطات والاضطهادات[48].

استطاع (المؤتمر الوطني الأفريقي)، الذي ظل متمسكاً بـ «تحالف المؤتمر»، أن يكون مع «مؤتمر الجمعة الأفريقية» جبهة متحدة خارج البلاد، وراح (أوليفر تامبو) يعد مناضليه داخل معسكرات التدريب في تنزانيا وزامبيا متبعاً نهج (مانديلا) في تطوير المقاومة المسلحة الأفريقية، ذلك بعد أن أصبح (القائد العام بالوكالة لقوات المؤتمر الوطني الأفريقي) وأخذ ينادي بشعار «القتال حتى النهاية»، فظهرت معسكرات التدريب حول (كونكوى Kangua) و (مبيا Mbeya) و (موروكورو Morogoro) في تنزانيا، ومعسكر (نكومو Nkomo) في زامبيا، مدة التدريب في هذه المعسكرات بين (3-9) شهور لتعلم المهارات العسكرية العامة: استعمال الأسلحة النارية والمتفجرات، ووسائل التدمير، ومبادىء حرب العصابات، ودروس في التوجيه السياسي[49].

حصل (تامبو) على الدعم من جانب الاتحاد السوفييتي والصين وكوبا وبلدان أوروبا الشرقية وبعض البلدان المستقلة في أفريقيا وآسيا ومن منظمات البلدان الأفريقية، وبفضل بعثات (المؤتمر الوطني الأفريقي) التي انتشرت في العالم، ونشراته، ومجلته (السيجابا Sechaba) التي كان يطبعها في لندن وجولات قادته لشرح وجهة نظرهم في أوضاع جنوب أفريقيا، حصل المؤتمر على أصدقاء ومساندين في (النرويج) و (هولندا) و (الدانمارك)، ففي اسكندنافيا أدى نشاط (المؤتمر الوطني الأفريقي) المتواصل إلى أن تحصل الحركة على سخاء كبير وخصوصاً في السويد حيث تمسك (الحزب الديمقراطي الاشتراكي) الحاكم بعلاقات ودية مع (المؤتمر الوطني الأفريقي)[51]. وعلى العموم فإن أكثر الدعم جاء من جانب الاتحاد السوفييتي والصين. وبعد أن اشتد الخلاف بين الصين والسوفييت، مال (المؤتمر الوطني الأفريقي) إلى الاعتماد على السوفييت بتأثير شيوعي جنوب أفريقيا الموالين للسوفييت. فقد تغيرت نبرة قيادات (المؤتمر) المضادة للشيوعيين في أعقاب (شاريفيل)، وبدأ (المؤتمر) يتعاون علانية مع الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا، حتى أن هناك من وجّه اللوم إلى نظام بريتوريا على أساس أن إجراءاته التعسفية كانت هي السبب في التقارب بين (المؤتمر) والشيوعيين[52].

وهكذا أصبح الاتحاد السوفييتي هو الممول الأساسي للأسلحة التي يحتاجها (المؤتمر): أسلحة مشاة خفيفة، وقاذفات، وبنادق (كلاشنكوف) ومدافع مورتر، ومتفجرات. وفي الوقت الذي كان يتلقى فيه مقاتلو المؤتمر تدريبات على يد السوفييت داخل المعسكرات في تنزانيا وزامبيا، كان القسم الآخر يحصل على تدريباته في بلدان اشتراكية مختلفة[54].

كان من تبعات ذلك التقارب بين (المؤتمر) والسوفييت أن يجيب (المؤتمر) على تهمة كون قيادته شيوعية، فأجاب كل من (مانديلا) و (تامبو) بأنهما شخصياً غير شيوعيين ولكنهما قبلا السلاح والأموال من الاتحاد السوفييتي والأحزاب الشيوعية الصغيرة في جنوب أفريقيا، بسبب الحاجة إلى المساعدة من أي مكان يستطيعون الحصول عليها. إن نفي قادة (المؤتمر) كونهما شيوعيين لم يمنع من وجود تأثير شيوعي داخل (المؤتمر). فقد احتوى (المؤتمر) جماعات ماركسية، مثل الاستراتيجي العسكري (جو سلوفو Joe Slovo)، المحامي السابق الأبيض من (جوهانسبرغ).

تبنى (المؤتمر) استراتيجية عسكرية تعتمد على الهجمات الصغيرة القائمة على (الكرّ والفرّ Hit - and - run) بدلاً من المواجهة العسكرية المباشرة، ووجّه معظم تلك الهجمات نحو الأهداف الستراتيجية مثل مستودعات البترول والخزانات والسدود ومقرات الشرطة، فأوقعت هجماته المتكررة خسائر كبيرة في مقرات نظام بريتوريا العسكرية ومنشآته الاقتصادية. وتدعيماً لنشاطه المسلح تحالف (المؤتمر) في 1967م مع حركة (زابو) التي كانت تقود النضال ضد حكم الأقلية البيضاء في روديسيا الجنوبية، وتطلع إلى توحيد كفاحه أيضاً مع حركة (فريليمو) في موزمبيق وحركة (مابلا) في أنغولا وحركة (سوابو) في ناميبيا باعتبار أن توحيد نضال تلك الحركات سيؤدي إلى زيادة قدرتها في الضغط على أنظمة الحكم الاستعمارية

والعنصرية في جنوب[56] القارّة، وظل المؤتمر عاقداً الآمال على نجاح حركات التحرير في موزمبيق وأنغولا وروديسيا الجنوبية وبوتسوانا، وبالفعل تمكن بعد استقلال تلك البلدان من إيجاد قواعد في بعضها مكّنته من تسهيل مهمات القيام بعمليات هجومية من أراضيها، وفي المقابل أخذ النظام يوجه ضربات شديدة ومؤثرة لقوات المقاومة ويقوم بأعمال عسكرية استفزازية ضد تلك الدول إلى أن أجبر بعضها على توقيع اتفاقيات تقضي بعدم قيام نشاط عسكري لقوات (المؤتمر) من أراضيها. ففي السنتين الماضيتين فقد (المؤتمر) مناطق حيوية في موزمبيق وسوازيلاند بفعل الضغط الاقتصادي والعسكري الذي مارسته حكومة جنوب أفريقيا، والذي أدى إلى توقيع اتفاقيات وافقت بموجبها هذه البلدان على إيقاف الدعم المباشر للمؤتمر، وبهذه الوسائل يسعى نظام بريتوريا إلى تحجيم العمليات الهجومية للمؤتمر وجعله يعيش حالة من العزلة في معسكرات التدريب البعيدة في أنغولا وتنزانيا[57].

والواقع أن العمليات العسكرية التي شنها النظام ضد قوات (المؤتمر) كانت أشبه بحرب الإبادة ضد هؤلاء الوطنيين، فقد صرف النظام مبالغ طائلة على الدفاع والتسليح خوفاً من تطور وتقدم الوعي القومي الأفريقي[58]. وتعاون من أجل ذلك مع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والصهيونية[59]، ووصلت قوات جنوب أفريقيا إلى الحد الذي أخذت تعتبر فيه موازية لـ (12) جيشاً أفريقياً، وقدّر أن في إمكانها الوصول إلى شمال الصحراء بشهر واحد[60]، ولهذا فليس من الغريب أن يعترف (أوليفر تامبو) في النهاية بأن ليس له فرصة إحراز نصر عسكري على الحكم الأبيض الذي يصرف (3) بليون دولار في السنة على قواته المسلحة التي تبلغ 83,400 مقاتل[61]، في حين لا يمتلك هو أكثر من (8) آلاف مقاتل.



سعي (المؤتمر) إلى تقويض النظام العنصري من الداخل

إن شعور قيادة المؤتمر بعدم القدرة على إحراز نصر عسكري دفع إلى التفكير بضرورة تطوير أسلوب مواجهة النظام من الداخل باتباع استراتيجية تقوم على العنف الثوري، خصوصاً وقد تهيأت الظروف المشجعة. لقد مرت جنوب أفريقيا بفترة سيئة نتيجة للركود الاقتصادي في نهاية الستينات وبداية السبعينات عندما هبط معدل النمو الصناعي وارتفع معدل البطالة بين الأفريقيين، فاندلعت منذ 1973 مقاومة أفريقية على شكل موجة إضرابات واسعة، وفي 1976 حصلت أكبر الاضطرابات في جنوب أفريقيا عندما ثار الأفارقة في مدينة (سويتو Soweto) ضد التمييز العنصري، وانتشرت ثورتهم في كل البلاد، وأعطت انطباعاً بأن روح المقاومة بين الأفارقة والتي كانت ساكنة خلال فترة نهاية الستينات أصبحت قوية وأكثر تأثيراً من أي وقت آخر[62].

ومع أن النظام استطاع أن يقمع تلك الثورة بأساليب وحشية، إلا أنها أسهمت في خلق جيل جديد داخل جنوب أفريقيا كان أكثر فاعلية ونشاطاً في التعبير عن أهداف «المؤتمر الوطني الأفريقي». لقد وصف هذا الجيل «جيل سوتيو» بأنه الدم الجديد للمؤتمر الوطني الأفريقي «امتاز بأنه يختلف عن سلفه.. جيل مثقف عاطل.. ليس لديه القدرة على احتمال الضيم مثلما كان آباؤه.. يدرك أن بلده يتمتع بأعلى مستويات العيش في العالم في الوقت الذي يحتفظ فيه بـ 85% من الشعب على شكل أقنان»[63]. ورغم العراقيل والعقبات أخذت قوة معارضة هذا الجيل تنمو، في كل منطقة في جنوب أفريقيا وأخذ رجاله يعدون اجتماعاتهم السرية في الغرف الخلفية المبنية من الصفيح، يضعون أيديهم في أيدي بعض، يتحدثون عن نشر العنف الذي أوصى به حزبهم (المؤتمر الوطني الأفريقي)، يرددون (إذا أنت أفريقياً، يجب أن تكون ضد الفصل العنصري، وتعمل من أجل «المؤتمر الوطني الأفريقي»)[64].

أصبح هذا الجيل القوة الداخلية الضاربة لحزب (المؤتمر الوطني الأفريقي) حين قررت قيادة الحزب مقاطعة النظام وتصعيد أعمال العنف لتشمل لأول مرة مناطق البيض السكنية. فقد صرح (تامبو) من زامبيا بأنه سيعمل على توسيع الصراع المسلح ليشمل مناطق البيض وبأن المعارك القادمة ستؤدي إلى: «أن يفقد العديد من البيض أرواحهم بعد أن فتحت السلطة النيران على الأولاد الأفارقة الذين كانوا يستخدمون الحجارة» بيّن (تامبو): «أن الحزب كان في الماضي يضع خططه لعمليات الهجوم على المقرات العسكرية ومقرات الشرطة آخذاً بنظر الاعتبار فيما إذا سيؤدي ذلك إلى قتل المدنيين. ولكن من الآن فصاعداً سوف لا نهتم لاحتمال موت المدنيين، تمسكنا بذلك في الماضي ولكن ذلك لم يؤد إلى إنقاذ حياة مواطنينا[65]. لقد أصبح قادة (المؤتمر) مقتنعين بأن العنف الثوري سيكون الأكثر فاعلية في إلحاق الضرر بالبنى الأساسية للنظام وسيؤدي إلى هروب رأس المال الأجنبي الحساس جداً من أي اندلاع للعنف، مما يجعل النظام سريع التأثر بنتائجه»[66]. ومن هنا ركّز المؤتمر على: «تخريب الاقتصاد، وجعل الناس يشعرون بعدم الأمن وبعجز قوات جنوب أفريقيا في وضع نهاية للاضطرابات» وتوقع قادة المؤتمر أن يكون هناك «حمام دم»، وبأنهم سيقدمون تضحيات جسيمة، ولكن وضعوا في بالهم أيضاً أن العالم قدم تضحيات جسيمة عندما قاتل من أجل تحطيم الحكم (النازي)[67].

أعلن (تامبو) أنه، «سيركز على أعمال العنف التي ستقوض النظام من الداخل»، ووعد بأنه، «سيسعى إلى تحقيق حكم الأغلبية في غضون أقل من عقد»[68]، وانقلبت الفلسفة الداخلية للمؤتمر إلى شجب أي تعاون مع دولة الفصل العنصري، وأخذ ينادي:

«على الفرد الأفريقي أن لا يتجاوب مع النظام... أن يستمر بالادعاء بأنه فرد أفريقي... يبقى في باله أن لا يكون

«كلب النظام» أو «خائناً» أو «متخلياً عن عقيدته السياسية.. يرفض أي روابط مع الحكومة، وحتى المباحثات..»[69].

على هذا الأساس استهدف (المؤتمر) العناصر الأفريقية التي تعاونت مع النظام أو انخرطت في مؤسساته، وأكد بصفة خاصة على الأفريقيين الذين تجندوا في قوات النظام، بعد أن شن حملة تدميرية على «مركز تجنيد الأفريقيين في قوات جنوب أفريقيا Sade» الموجود في وسط مدينة «دوربان Durban»[70] فقتلت بعضهم حرقاً لتعاونهم مع الحكومة[71].

اندلع الوضع في جنوب أفريقيا في 1982 بصورة لم تشهدها البلاد من قبل، فبدأت سلسلة العصيانات المسلحة المدنية، والانفجارات والتظاهرات التي شملت كل أنحاء البلاد، ولم تستطع إجراءات النظام الإرهابية أن تضع حلاً للمشكلة، ولأول مرة ظهر النظام فاقداً المبادرة في التحكم في الموقف[72] الذي اشتد على إثر ظهور نتائج انتخابات آب 1984 التي أعطت، لأول مرة، للملونين والهنود أصواتاً محدودة في الحكومة المركزية، حصلوا بواسطتها على قوة سياسية رمزية في ضوء دستور جديد، في حين ظل الأفارقة بدون تمثيل. وبسبب اتساع الصدامات أعلن النظام في 20 تموز 1985 حالة الطوارىء التي لم تعلن منذ 1960، في (17) مقاطعة حول (بورت اليزابيث) وفي شرق الكاب وفي (19) مقاطعة حول (جوهانسبورغ)[73].

رافق تصاعد أعمال العنف، كما توقع (المؤتمر الوطني الأفريقي) ظهور أزمة اقتصادية، فقد هرب رأس المال الأجنبي، وانخفضت قيمة (الراند) إلى (40) سنتاً أمريكياً، بالمقارنة مع (1,20) دولاراً قبل ثلاث سنوات، فتأثرت الصناعة والأعمال إلى الحد الذي اعترف فيه وزير مالية جنوب أفريقيا (بارند دوبليسيس Barend du Plessis) بأنه لا يعرف ما يصنع ليوقف الأزمة وبخاصة هروب رأس المال من البلاد[74].

تأثرت الشركات الأمريكية والأوروبية العاملة في جنوب أفريقيا بتلك الأوضاع، ووجدت أن مصالحها مهددة ما لم تتحرك لحمل النظام على إجراء إصلاحات تخفف من حدة الغضب الأفريقي بعد أن أخذ المحللون الاقتصاديون يجمعون على: «أن وضع نهاية لموجات العنف التي تشهدها جنوب أفريقيا وحده فقط سيعيد الثقة المالية التي تحتاجها عودة الاستقرار إلى اقتصاد جنوب افريقيا»[75]، فاتجه ذوو المصالح إلى الاهتمام: «بإمكانية الاستجابة للمطالب التي تبرر استخدام العنف المدني من جانب المؤتمر الوطني الأفريقي. إن التهديد الناجم عن الضغط الخارجي على جنوب أفريقيا لا يبدو له اهتمام على مدى السنوات القليلة القادمة، فالخطوة تكمن في الاضطرابات الصناعية وحملات أعمال الشغب والتخريب»[76].

ومن هنا أخذوا يدعون نظام بريتوريا إلى إطلاق سراح (مانديلا) والتفاوض مع (المؤتمر الوطني الأفريقي) إذا كان النظام يأمل في الوصول إلى اتفاقية ذات معنى مع الأفارقة[77]، وإلا فسيكون خياره «أن يمطر نفسه بالقنابل، وهو ما يمكن أن يشبه بجنون[78] مؤقت لتدمير النفس».

موقف نظام بريتوريا من نشاط (المؤتمر) في الوقت الراهن

واجه النظام محاولات التدخل بالإعلان عن استعداده لإجراء إصلاحات ولكن بشرط: «أن ينبذ المؤتمر الأفريقي أعمال العنف ويقطع روابطه مع الشيوعيين ويلجأ إلى الوسائل القانونية من أجل الإصلاح «وفي حالة قبول المؤتمر بتلك الشروط، صرح (بيتر بوثا) رئيس النظام «أنه يعد لأن يقوم ببعض المجازفات لتحديث النظام»، ولكنه بنفس الوقت أعلن: «أن ليس لديه توجّه لأن يكون من (الأفريكانرز) الذي يجعل معبد الأرباتهايد يتحطم بين يديه»[79]، اقترح (بوثا) منهجاً إصلاحياً مبنياً على أساس: «التقدم التدريجي للسود، عن طريق جمع اتحاد من دويلات أفريقية صغيرة منوعة، مما سيسمح للبيض بأن يكونوا مسيطرين دائماً على مركز السلطة»[80]، لكن «المؤتمر الوطني الأفريقي» رفض هذا المنهج، ورأى «بأن الأفريقيين سيظهرون أقل من طبيعيين إذا طالبوا بأقل من أن يكونوا أحراراً الآن»، وصرح قادة المؤتمر: «إذا وافقنا على التغيير التدريجي فمعنى ذلك أننا سنجعل الجريمة تستمر، فالمباحثات الوحيدة التي ننتظرها ستكون حول ميكانيكية التعبير المباشر المؤدي إلى حكم الغالبية»[81].

ويبدو أن موقف النظام ورفضه إجراء إصلاحات في ظل الظروف الراهنة قابل للتفسير بأنه يشعر بأن أي تنازلات من جانبه معناها تشجيع الأفارقة على التمادي في أعمالهم الثورية، وجعلهم يحسّون بأنهم نجحوا في ممارسة الضغط المطلوب على الحكومة، ولهذا لا زال النظام متمسكاً بأسلوب القمع والإرهاب، ويروج أنه: «إذا تدهور اقتصاد جنوب أفريقيا أكثر، وفقد العمل فإن أول من يتضرر هم السود وليس البيض»[82].

إن عدم توصل النظام إلى صيغة توفيقية مع (المؤتمر الوطني الأفريقي) جعل الحالة في جنوب أفريقيا تزداد سوءاً إلى درجة دفعت ببعض رجال الأعمال إلى الذهاب إلى (لوساكا - عاصمة زامبيا) للاجتماع بقيادة (المؤتمر) من أجل الاطمئنان على مستقبل أوضاعهم، وقد بدا خلال ذلك اللقاء أن رجال الأعمال ينتابهم القلق على أساس أن دستور (المؤتمر الوطني الأفريقي) ينص على هدف تحويل الثورة المعدنية والبنوك واحتكار الصناعة إلى ملكية الشعب، وتساءلوا: ماذا سيترك لرجال الأعمال»[83].

عرض قادة (المؤتمر) إشارات توفيقية فيما يتعلق بوضع البيض عموماً، فتحدث (تامبو) و (سلوفو Slovo) عن إعادة توزيع الثروة عن طريق وضع حد للمشاريع المختلفة، ولكن وعدوا بأنهم سيسمحون بالأعمال الصغيرة وبالملكيات الخاصة الصغيرة، وسيرحبون ببقاء البيض تحت حكم الأكثرية باعتبار ذلك مبدأ أقر في (ميثاق الحرية) الذي نص على: «أن جنوب أفريقيا تعود لجميع الذين يعيشون فيها السود والبيض»[84].

أخبر (تامبو) رجال الأعمال بأن (المؤتمر الوطني الأفريقي) سيعمل على تأميم بعض الصناعات «المصارف والمناجم»، ولكن بصورة عامة سيسعى إلى إيجاد حالة تعايش بين القطاعات الخاصة وقطاعات الدولة: «نحن نقول بأن الاقتصاد يمكن أن يكون اقتصاداً متمازجاً.. ولكن نحن بيّنا بأننا لا نستطيع أن نترك الشركات الكبيرة تعمل كما تعمل الآن»[85].

لم يخفِ رجال الأعمال قلقهم من احتمال اتجاه (المؤتمر) نحو الشيوعية، فأخبرهم (تامبو): «مع أن (المؤتمر الوطني الأفريقي) له تحالف شكلي مع الحزب الشيوعي لجنوب افريقيا، ويتلقّى مساعدات عسكرية من الاتحاد السوفييتي، فإن الحكومة التي سيترأسها (المؤتمر) سوف تكون غير منحازة، وربما ستكون ذات روابط وثيقة مع الغرب، إن (المؤتمر) يفضل نظاماً ديمقراطياً ذا حزب متعدد العناصر مع ضمانات دستورية للأفراد، ولكن بدون امتيازات خاصة لجماعة

عرقية، نحن منظمة غير عنصرية، نعتقد أن جميع الأفراد ينبغي أن يحصلوا على حقوقهم، لذلك فالجماعات العرقية لا تحتاج إلى امتيازات خاصة[86].

جاء اجتماع رجال الأعمال البيض مع قيادة حزب (المؤتمر) ليؤشر منعطفاً جديداً في القضية الأفريقية، فقد اعتبر اعترافاً بأهمية (المؤتمر) وضرورة اعتباره من الآن جزءاً في أي محاولات لمناقشة التسوية في البلاد[87]، كما أوضح بأن الموقف الأفريقي أخذ يشكل تهديداً خطيراً لأمن النظام.

وتكمن قوة الموقف الأفريقي في تفاعل (المؤتمر) مع جميع القوى الوطنية التي تعمل باتجاه إلغاء الفصل العنصري وتحقيق حكم الأغلبية، ولاسيما روابطه القوية مع «الجبهة الديمقراطية المتحدة التي تشكلت في 1983 بزعامة (آلان بوسك Rev, Allan Boesak) رئيس التحالف الدولي للإصلاح الكنسي - والتي تضم (600) جماعة وطنية، وقد بلغت قوة الروابط بينهما إلى درجة دفعت النظام إلى اعتبار الـ (الجبهة الديمقراطية المتحدة) واجهة للمؤتمر الوطني الأفريقي خصوصاً وأن (الجبهة الديمقراطية المتحدة) تتبنى أساساً (ميثاق الحرية) الذي وضعه (المؤتمر) في 1955م. وهناك اعتقاد أنه إذا أطلق سراح (مانديلا) فإن (بويسك Boesak) وقادة (الجبهة الديمقراطية المتحدة) هي تعبير عن سياسة[88] ونشاط (المؤتمر الوطني الأفريقي) المحظور.

هناك بعض القوى التي تحاول منافسة المؤتمر الوطني الأفريقي في مسرح النشاط السرامي إلى مقاومة النظام العنصري، مثل (منظمة شعب ازانيا Azapo - The Azanian People's Orgnaization) وهي جماعة ذات مشاعر أفريقية ترفض أي اقتراح حول حكومة متعددة الأعراق، وجماعة (انكاشا Inkatha)، وهو تنظيم من مليون عضو يتزعمه بوثيليزي Chief Gatha Buthelezi الذي ينادي بإطلاق سراح (مانديلا) على أن لا تقبل قيادته ما لم يقم بانتخابات ديمقراطية، إلّا أن الكثيرين من الأفارقة يرفضون (بوثيليزي) ويعتبرونه «أضحوكة» لكونه يشترك في إدارة[89] السلطة في منطقته.

وعن مستقبل حزب (المؤتمر الوطني الأفريقي) هناك تنبؤ بأن قوة الصدام في المستقبل، في حالة غياب (مانديلا)، ستكون بين القادة القدماء أمثال (أوليفر تامبو) وبين الأعضاء الأكثر راديكالية من جيل «سويتو Soweto»[90] على اعتبار أن الكثيرين من الأفارقة يدعمون (المؤتمر الوطني الأفريقي) بسبب (مانديلا)، وبدونه فإن معركة الأفارقة على القيادة ستكون واسعة.

الهوامش

(1) معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، («سياسة التميز العنصري في جنوب افريقيا وموقف العراق منها» د. لطفي جعفر فرج، ص 12.
(2) محمد عبدالغني سعودي، افريقية: دراسة شخصية الاقليم (القاهرة، 1976) ص 371.
(3) «حقوق الانسان الافريقي والتمييز العنصري»، مجلة السياسة الدولية، ع 39، سنة 11، كانون الثاني 1975، ص 49.
(4) Africa South of Sahana.
(5) Robin Hallett, Africa Since 1875 (Great Bntain, 1980), p. GG7.
(6) Richard Synge, New African Year book Clin den, 1979.
(7) Hallett - Robin, Op. Cit, p. GG7.
(8) Africa South of Sahara.
(9) Richard Gibson, African Liberation Movement: Contemporany Struggles Against White Minority Rulle (London, 1972). p. 40.
(10) Hallett - Robin, Op. Cit., GGG.
(11) صبري أبو المجد، ثورة أفريقيا (القاهرة - 1960) ص 197.
(12) Africa South of Sahra.
(13) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 33.
(14) Hallett - Robin, Op. Cit., p. GGG.
(15) Africa South of Sahara.
(16) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 40.
(17) Violaine I. Junad, The Hand Book of Africa (N.Y., 1963) p. 350.
(18) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 40.
(19) Ibid., p. 40.
(20) Synge - Richard, Op. Cit.
(21) Hallett - Robin, Op. Cit., p. 667.
(22) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 40-42.
(23) Edwin S. Munger, Africaner and African Nationalism, South African Parallels and Paremeters (Great Britain, 1967), p. 7, 102.
(24) Kenneth W. Grundy, Soldiers without Politics, Blacks in the South African Armed Forces (London, 1983), 67.
(25) Synge - Richard, Op. Cit.
(26) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 43.
(27) Ibid, p. 43.
(28) Munger - Edwin, Op. Cit., p. 102.
(29) Synge - Richard, Op. Cit.
(30) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 48.
(31) عبدالمنعم الصاوي، دليل القارة الأفريقية (القاهرة - 1975)، ص 159.
(32) أبو المجد - صبري، المصدر السابق، ص 202.
(33) أنشطة الأمم المتحدة لمناهضة الفصل العنصري، نشرة المركز الاعلامي التابع للأمم المتحدة (العراق) بمناسبة الذكرى (35) للإعلان العالمي لحقوق الانسان.
(34) أبو المجد - صبري، المصدر السابق، ص 202.
(35) Synge - Richard, Op. Cit.
(36) Gitson - Richard, Op. Cit., p. 520.
(37) Africa South of Sahara.
(38)
(39) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 520.
(40) Nunger - Edwin, Op. Cit., p. 102.
(41) Africa South of Sahara.
(42) جاك ووديس، جذور الثورة الافريقية، ترجمة: فؤاد بليع (القاهرة - 1971)، ص 437-438.
(43) Encyclopedia Britanica.
(44) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 56.
(45) Ibid., p. 60.
(46) Synge - Richard, Op. Cit.
(47) Gibson - Richard, Op. Cit. p. 60.

(48) «What the ANC Wants», Newsweek September 16, 1985.
(49) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 65.
(50) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(51) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 70.
(52) Munger - Edwin, Op. Cit., p. 103.
(53) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985.
(54) Gerad Chaliand, The Struggle for Africa: Conflict of the Great Powers (Hong Kong, 1982), p. 82.
(55) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985.
(56) Gibson - Richard, Op. Cit., p. 67, 73.
(57) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985, 16, 1985.
(59) Africa South of Sahara.
(60) David Lamb, The Africans (Toronto, 1982),p. 316.
(61) «What the ANC wants?» Newsweek - September 16, 1985.
(62) Synge - Richard, Op. Cit.
(63) Lamb - David, Op. Cit., p. 330.
(64) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985.
(65) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(66) Chaliand - Gerad, Op. Cit., p. 80.
(67) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(68) «What the ANC wants?» Newsweek, September, 16, 1985.
(69) Grundy - Kenneth, Op. Cit., p. 221.
(70) Ibid., p. 221.
(71) «Emergency Grows in South Africa» U.S. News, Agusut, 5, 1985.
(72) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(73) «Emergency Grown in South Africa» U.S. News, August 5, 1985.
(74) Apartheid: Cracks in the Facade» Africa Asia, October 1985.
(75) Ibid.
(76) Donald Rothchild and Victor A. Olorunsola, State Versus Ethnic Claims: African Policy Dilemmas (U.S.A., 1983), p. 96.
(77) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(78) Lamb - David, Op. Cit., p. 330.
(79) Rothchild - Donald, Op. Cit., p. 96.
(80) «Scenarios for South Africa» The Economist, August 23, 1985.
(81) «South Africa: What can be done?» Newsweek september 16, 1985.
(82) Lamb - David, Op. Cit., p. 330.
(83) «South Africa: What can be done?» Newsweek, September 16, 1985.
(84) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985.
(85) «Apartheid: Cracks in the Facade» Africa Asia, October 1985.
(86) Ibid.
(87) Ibid.
(88) «What the ANC wants?» Newsweek, September 16, 1985.
(89) Ibid.
(90) Ibid.



بطرس البستاني
دراسة في فكره الثقافي والاجتماعي والسياسي

أمين عبدا محمود

كلية الآداب - جامعة الكويت

شهدت سوريا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أحداثاً جساماً بلغت ذروتها في ربيع عام 1860 حينما اندلع أوار فتنة الستين الكبرى بين الموارنة والدروز[1]. وقد نبهت هذه الأحداث التي أطاحت بالأسس البنيوية للمجتمع السوري التقليدي الكثير من المفكرين السوريين الشبان الى ضرورة التفكير بمصير مجتمعهم والعمل على التأثير في ذلك المصير بغية إنقاذه من محنته[2].

أثارت الظروف والمتغيرات التي شهدتها سوريا في أواسط القرن الماضي ردود فعل متفاوتة بين مختلف فئات المجتمع السوري وخاصة فئاته الإسلامية. فقد اعترف السلطان العثماني بموجب مرسوم كلخانه «خطي شريف» عام 1839 ثم مرسوم «خطي همايون» في عام 1856[3] بالمساواة بين رعاياه النصارى والمسلمين وبدأ التنفيذ التدريجي للسياسة الموضوعة في هذين المرسومين مما أدى الى اندلاع ردود فعل عنيفة في الأوساط الإسلامية. فقد كان المسلمون يرقبون جيرانهم النصارى وهم يجمعون الثروات الضخمة ويقيمون الصلات التجارية والثقافية وأحياناً السياسية مع الدول الكبرى[4]، في حين كان يتعرض المسلمون بمقتضى المراسيم السلطانية الى فقدانهم التدريجي وبصورة فعالة لمواقعهم المتميزة داخل المجتمع السوري. وكان المسلمون أيضاً يرقبون تلك الدول الأوروبية وهي تتدخل بصورة مباشرة وغير مباشرة لصالح النصارى السوريين عام 1860. ولذا، فإنه كان لمسلمي سوريا ما يبرر نقمتهم لا على جيرانهم النصارى ولا على الدول الأوروبية الكبرى التي تبنتهم وحسب، بل كذلك على الدولة العثمانية التي كانت إما عاجزة أو غير راغبة في صيانة مركز المسلمين داخل الامبراطورية[5]. وقد ولّد هذا إحساساً بالظلم الاقتصادي والاجتماعي لدى بعض الفئات المسلمة مما دفعها الى تأسيس نواة حركة انفصالية عن العثمانيين بحجة أن هؤلاء تخلوا عن حماية مصالح الإسلام بإقرارهم سياسة المساواة الدينية. ولجأ قادة هذه الحركة الى استنهاض الوعي

(1) أدت أحداث عام 1860 الى هلاك ما لا يقل عن خمسة عشر ألفاً من النصارى فقط وتشرد نحو مئة ألف، كما أن الدروز بدورهم خسروا أيضاً العديد من القتلى، وقد جعلت هذه الأحداث التي ذهب ضحيتها آلاف من الجانبين الحاجة الى التغيير أشدّ إلحاحاً، فبادرت الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الكبرى الى إقرار نظام للبنان جرى التوقيع عليه في الأستانة عرف بالنظام الأساسي وأصبح لبنان بمقتضاه سنجقاً عثمانياً له استقلاله الداخلي تضمن كيانه الدول الكبرى. ولمعرفة تفاصيل وافية عن فتنة الستين انظر الدراسة القيّمة التي كتبها كمال الصليبي - **تاريخ لبنان الحديث** (بيروت: 1972)، ص 115-158.

(2) John W. Jandora, «Butrus Al-Bustani, Arab Consciousness and Arabic Revival», **The Muslim World,** (April 1984), Vol LXXIV, No.2, p.71.

(1) يشير عبدالكريم رافق الى أن (خطي شريف) قد صدر للحصول على دعم الدول الأوروبية ضد محمد علي لإجلائه عن بلاد الشام، في حين صدر (خطي همايون) لتأمين دعم الدول الأوروبية الى العثمانيين في مؤتمر باريس الذي أنهى حرب القرم بهزيمة روسيا، انظر: عبدالكريم رافق - **العرب والعثمانيون 1516-1916** (بيروت: 1974)، ص 380-381.

(4) خاصة في فرنسا والمدن الإيطالية.

(5) Jandora, **Ibid.**

العربي متطلعين الى شريف مكة وخديوي مصر لحماية مصالح المسلمين العرب مؤكدين على الارتباط بين الدين الإسلامي والشعب العربي وعلى أن اللغة العربية تمثل الأساس المتين للوعي العربي. كما أعادوا للأذهان مجيء الإسلام على يد نبي عربي ونزول القرآن الكريم باللغة العربية وقيام العرب بنشر هذا الدين الحنيف وإرساء دعائم الحضارة العربية الإسلامية العريقة. وكان المسلمون العرب في سوريا (وفي الشرق العربي عامة) يرون أنهم من سلالة هؤلاء القوم. ولذا، فقد كان لديهم مبرر قوي لمطالبة العثمانيين بعدم المساس بمكانتهم «المتميزة» أو الانتقاص منها[6]. وجاءت دعوتهم إلى إحياء الخلافة العربية بهدف وضع حد للأوضاع المتدهورة التي كانت سائدة في المنطقة آنذاك.

وهكذا كانت جهود هذه الحركة الإسلامية العربية بمثابة رد فعل للسياسة العثمانية التي أفقدت مسلمي سوريا وضعهم المتفوق بترويجها للمساواة الدينية والعلمانية استرضاءً للقوى الغربية العظمى. وبالرغم من قيام السلطان عبدالحميد الثاني فيما بعد بتبنّي سياسة الجامعة الإسلامية ومحاولاته المتكررة للقضاء على المبررات التي أدت الى ظهور هذه الحركة إلا أن أزمة الثقة كانت قد تأصلت بين القيادة الشعبية العربية الإسلامية وبين نظام الحكم العثماني ولم يعد هناك مجال لحلول وتسويات توفيقية.

وبالرغم من المكاسب الاقتصادية والقانونية والاجتماعية التي حصل عليها النصارى في سوريا، إلا أن إحساسهم المستمر كأقلية جعلهم دائمي القلق حول هذه المكاسب والامتيازات التي حصلوا عليها من السلطان العثماني دون موافقة طوعية من أكثرية السكان المسلمين. وقد دفعهم هذا الإحساس بالقلق الى توثيق صلاتهم بالدول الأوروبية لتوفر لهم المزيد من الضمان والحماية. كما أدى هذا الإحساس أيضاً الى قيام البعض منهم باختيار **التبعية الثقافية للغرب** مما نتج عنه الشعور **بالغربة وعدم الانتماء للثقافة العربية**. ولا غرابة أن نرى هؤلاء ومعظمهم من الموارنة والكاثوليك يطالبون بقطع صلتهم مع السكان المسلمين وإقامة دولة مسيحية لهم تتمتع باستقلال ذاتي تحت الحماية الأوروبية.

غير أن هنالك فئة أخرى من نصارى سوريا رفضت الانصياع لهذا التوجه اللامنتمي وبقيت محافظة على أصولها الثقافية العربية وولائها لنظام الحكم العثماني، وكان في طليعة هؤلاء بطرس البستاني (1819-1883) الذي كان يعرف «بالمعلم» لما نشره بين أبناء وطنه من علم وما حمل اليهم من «أسباب الثقافة ومبادىء الوطنية الحقيقية»[7]، وكان أيضاً واحداً من أبرز قادة الإحياء الثقافي العربي (النهضة الفكرية العربية) في القرن التاسع عشر.

نشأته

ولد بطرس البستاني في قرية الدبّية في عهد إمارة الأمير بشير الشهابي الثاني من أبوين مارونيين، ونشأ في كنف عائلة أنجبت عدداً من العلماء، التحق وهو ابن عشر سنوات بمدرسة عين ورقة وهي يومئذ المدرسة الدينية المتخصصة للطائفة المارونية، وتعلم فيها أصول اللغة العربية بالإضافة الى السريانية واللاتينية فضلاً عن العلوم اللاهوتية، وتفوق وهو في تلك المدرسة فاختاره الرهبان ليوفدوه الى الكلية المارونية في روما على نفقتهم، وكان راغباً في الذهاب ولكن ظروفه العائلية حالت دون ذلك[8].

بدأت صلته بدعاة المذهب الإنجيلي عام 1840[9] وهو في الحادية والعشرين من عمره، حيث ما لبث أن اعتنق مذهبهم

---

(6) Ibid.

(7) أنيس المقدسي، **الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة** (بيروت: 1978)، ص 190.
وهناك من يطلق على بطرس البستاني لقب المعلم الثالث على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول لكونه المرجع الأكبر للعلم والفلسفة، والفارابي هو المعلم الثاني لإنجازاته المتميزة بالحكمة والفلسفة.

(8) يقال إن والدته كانت مسنّة ورفضت أن يبتعد ابنها عنها.

(9) وهي السنة التي قدم فيها الأسطول البريطاني الى بيروت لإخراج القوات المصرية من بلاد الشام، وعمل بطرس البستاني حينها مترجماً للقوات البريطانية ثم ما لبث أن تعرف ببعض المراسلين الأمريكيين وتوثقت صلته بهم وخاصة مع إيلي سميث (Ely Smith) والدكتور كورنيليوس فانديك (Dr. Cornilius Van Dyck) وهو مستشرق أمريكي معروف وأحد مؤسسي الكلية الطبية الأمريكية في بيروت.

وتقبل أفكارهم العلمانية التي كانت تتيح جوّاً من الحرية النسبية أكثر بكثير من المذاهب النصرانية الأخرى. عيّن معلماً في معهد الإرسالية الأمريكية في بيروت حيث انتهز الفرصة هناك فدرس العبرية واليونانية كما عمل أيضاً مترجماً في القنصليتين البريطانية والامريكية في بيروت[10] وبقي في هذا العمل حتى عام 1862.

البستاني والإحياء الثقافي

اتسمت الحركة الثقافية العربية في بلاد الشام في أواسط القرن الماضي بظهور اتجاهين رئيسيين متميزين، الأول تقليدي والثاني عصراني؛ أما الأول فكان يمثله الشيخ ناصيف اليازجي[11] ويدعو الى إحياء التفوق السابق للآداب والعلوم العربية من خلال دراسة الأعمال الكلاسيكية وتقليد طرائقها. أما الاتجاه الثاني الذي كان يمثله بطرس البستاني فكان يسعى لإنتاج أعمال ذات قيمة عملية أو جاذبية جماهيرية من خلال تطوير مواضيع جديدة للبحث وألوان أدبية وطرز للنشر جديدة[12]. والاتجاهان بالرغم من تمايزهما عن بعضهما إلا أنهما كانا يظهران أحياناً وفي حالة بعض الكتاب لدى كاتب واحد. فبطرس البستاني بالرغم من أنه من قيادة الاتجاه العصراني إلا أن بعض مؤلفاته كانت مرتبطة بالألوان التقليدية من المحاولات الأدبية والعلمية، ولكن البستاني يظهر رائداً عصرانياً في الدرجة الأولى إذ أن إسهامه في الاتجاه التقليدي بقي محدوداً فلم يكن هو نفسه ميّالاً لدراسة المؤلفات الكلاسيكية العربية أو متابعة السيطرة على ناصية العربية كغاية في حد ذاتها، غير أنه شجع آخرين أمثال اليازجي وإبراهيم الأحدب[13] على المساهمة في إحياء التراث الثقافي العربي لا سيما عن طريق تسهيل نشر مؤلفاتهم باللغة العربية. كما تعاون معهم في مشاريع مشتركة واستأجر خدماتهم في مشاريع خاصة به. وكان البستاني مرتبطاً بصورة احترافية مع ناصيف اليازجي في مطلع حياته الثقافية[14].

(1) الترجمة

بدأ البستاني الكتابة بالتعاون مع الداعية الأمريكي الإنجيلي إيلي سميث فترجم كتيباً لسميث في شرح المذهب البروتستانتي بعنوان «الباب المفتوح في أعمال الروح» ونشره في بيروت عام 1843[15]. كما تعاون الإثنان أيضاً على ترجمة كتابين مدرسيين نشرا في بيروت عام 1848 أولهما بعنوان «كتاب كشف الحجاب في علم الحساب» وقد وسع البستاني بعض أبوابه فنشر كتاباً آخر بعد ثلاث سنوات بعنوان كتاب «روضة التاجر في مسك الدفاتر»[16] أما الكتاب الثاني فهو «بلوغ الأدب في نحو العرب». وفي عام 1847 بدأ البستاني بالتعاون مع كل من اليازجي وسميث وفاندايك العمل على ترجمة التوراة الى اللغة العربية وظلت هذه الترجمة شغله الشاغل على مدى عشر سنوات تقريباً لحين ظهورها عام 1857[17]. واستمر البستاني ينشر المزيد من الكتب المدرسية لفائدة الطلبة والجمهور ونشر مختلف صنوف المعرفة بينهم، فظهر له كتاب عام 1854 بعنوان «مصباح الطالب في بحث المطالب» في صرف اللغة العربية ونحوها، وقام بترجمة مغامرات روبنسون كروزو بعنوان «التحفة البستانية في الأسفار الكروزية» ومما دفعه لترجمة هذا الكتاب القيمة العلمية للتعليقات الاجتماعية لكاتبه دانيال ديفو (Danial Devo)[18].

---

(10) Henry H. Jessup, **Fifty-three years in Syria** (NewYork: 1910), vol.I, p.483.

(11) الشيخ ناصيف اليازجي (1800-1871) ولد في كفرشيما وكان حجة في اللغة والأدب. ولكنه لم يبد اهتماماً بالقضايا الاجتماعية كما فعل البستاني، غير أن محاولاته الأدبية العديدة ودراساته اللغوية كانت ذات أثر لا يستهان به على الفكر الاجتماعي في ذلك العصر. وقد فاقت شهرته في تضلعه باللغة العربية الفصحى والعلوم اللغوية كل من سبقوه وتبعاً لذلك كان نفوذه أكبر من نفوذهم.

(12) Jandora Op.Cit., p.77.

(13) ابراهيم الأحدب (1826-1891)، من رواد النهضة الحديثة في بلاد الشام اشتهر باسم أديب طرابلس وهو من الكتاب الذين أبدعوا في فن المقامات.

(14) Jandora op.cit., p.78

(15) عبداللطيف الطيباوي ـ المعلم بطرس البستاني ـ، **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق** (تموز 1970)، ج 3، مجلد 45، ص 596.

(16) المصدر نفسه.

(17) وقد تولى الدكتور فانديك الإشراف على الترجمة النهائية خاصة بعد وفاة سميث.

(18) Jandora op,cit., p.78.

وبالرغم من أن البستاني لم يمارس الشعر أو يدرسه إلا أنه أقدم بجرأة على نشر «ديوان أبي الطيب المتنبي» وعاونه بالشرح والتعليق عليه ناصيف اليازجي[19].

(2) محيط المحيط

أما أول عمل علمي كبير للبستاني فقد كان وضع معجم للغة العربية صدر عام 1870 في مجلدين بعنوان «محيط المحيط» وبسبب حجم المعجم واتساع بنوده وصعوبة توفير نسخ كافية منه فقد وضع عام 1871 مختصراً له لفائدة الكثرة الغالبة من الطلاب والشبان وأطلق عليه اسم قطر المحيط[20]. وقد اتبع البستاني في وضع معجمه النسق نفسه الذي اتبعه جرمانوس فرحات عام 1849 حين وضع في مرسيليا معجماً بعنوان «أحكام الإعراب عن لغة الأعراب»، وقد أشار فرحات في مقدمته الى أن معجمه كان اختصاراً وتبسيطاً لقاموس الفيروز أبادي[21]، وهذا بالضبط ما أشار اليه البستاني نفسه بعد عقدين من الزمن في مقدمة معجمه «محيط المحيط» بأنه اعتمد بشكل رئيسي ومباشر على قاموس الفيروز أبادي كمرجع معتمد للمعاني القديمة (الكلاسيكية) للكلمات، وكان مما قاله بهذا الصدد: «لما كان هذا الكتاب يحتوي على محيط الفيروز أبادي وعلى زيادات كثيرة عثرنا عليها في كتب القوم وعلى ما لا بدّ منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون سميناه «محيط المحيط»[21]. وبالرغم من مرور هذه المدة الطويلة على ظهور المعجم ومختصره فإنهما لا يزالان من أحسن المعاجم حتى في أيامنا هذه. وهنالك العديد من المعاجم العربية التي وضعت في فترات سابقة «لمحيط المحيط» ولكنها بالإضافة الى ضخامة سعتها فهي سيئة في ترتيبها الهجائي للمئات من الألفاظ والتعابير التي تعج بها هذه المعاجم[22]. والجديد في معجم «محيط المحيط» هو عدم اتباع الأسلوب الغربي في ترتيب الكلمات وإنما اتبع ترتيبها بناءً على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الفعل الثلاثي المجرد. كما يمتاز المعجم عما سبقه من حيث إدخاله عدداً من الاصطلاحات الجديدة في العلوم والفنون والمنقول غالبيتها عن اللغات الأوروبية الحديثة[23]. وحوى المعجم كثيراً من الألفاظ العامية التي أشار إليها البستاني بقوله: «تنازلت الى ذكر كثير من كلام المولدين وألفاظ العامة منبهاً في أماكن على أنها خارجة عن أصل اللغة»[24]. ومن ناحية أخرى أزاح المعجم الكثير من الغموض عن أصول الألفاظ الأعجمية التي كان أصلها مجهولاً أو مهملاً[25].

(3) دائرة المعارف

أما أهم عمل ثقافي قام به البستاني فهو بلا شك إصداره الموسوعة العلمية العربية «دائرة المعارف» وتمثل هذه الموسوعة شأنها في ذلك شأن مؤلفات البستاني الأخرى تجديداً في الأسلوب العلمي إذ تتميز بكونها محاولة لتسجيل تقدم الفكر الإنساني برمته، وبذلك كانت أول محاولة من نوعها في الثقافة العربية.

ولم تكن موسوعة البستاني مصنفة على غرار المراجع العربية التقليدية بل كانت أشبه بالموسوعات الأوروبية. ورغم هذه الحقيقة فإن دائرة المعارف لم تكن منفصلة انفصالاً تاماً عن الصنوف التقليدية في الأدب العربي. وقد تطور مشروع موسوعة البستاني بعد أن كان أصلاً مجرد محاولة لإكمال «محيط المحيط» بقاموس تراجم من النوع التقليدي (قاموس الأعلام)[26]. أما المبررات التي اعتمد عليها في قيامة بهذا

(19) الطيباوي المصدر السابق، ص 599.

(20) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب** (بيروت: 1974)، ص 113.

(21) الطيباوي المصدر السابق ص 607.

(22) بطرس البستاني، **محيط المحيط** (بيروت: 1870) المقدمة، ص 3.

(23) جرجي زيدان، **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر** (القاهرة: 1902) ج 2، ص 38.

(24) الطيباوي المصدر السابق، ص 608.

(25) المقدسي المصدر السابق، ص 213.

(26) John W. Jandora, «Al-Bustani's Da'irat Al-Ma'arif», **The Muslim World** (April 1986), Vol LXXVI, No.2, p.86.

المشروع العلمي فتتلخص فيما يلي: [27] -

1 - حاجة العرب الماسة الى موسوعات علمية جديدة إذ أن الموسوعات والمعاجم العربية القديمة تفتقر الى المعارف الحديثة.

2 - وضع كتب تغطي كل بند من بنود الموسوعات يحتاج الى كثير من الوقت والجهد، كما أن سواد الشعب لا يستوعب اللغة الفنية أو الاصطلاحية الموجودة في مؤلفات كهذه.

3 - عدم قدرة الفئات المثقفة على دفع ثمن مثل هذه الكتب المتخصصة التي تتناول الموضوعات الهامة المتعددة.

4 - سهولة الحصول على المعرفة النافعة عن طريق الموسوعات العلمية والفنية الحديثة التي وضعها الغرب.

ولم يكن البستاني في وضعه لهذه الموسوعة مجرد جامع أو مترجم، لقد بذل جهداً جاداً أصيلاً في البحث والتحليل واعتمد بشكل رئيسي على المصادر الأوروبية المختلفة التي تمكّن من الرجوع اليها، كما اعتمد أيضاً على العديد من المصادر العربية وخاصة في الحقلين الأدبي والتاريخي، ومما قاله بهذا الشأن: «.... لقد كتبنا الى مختلف الجهات فوردت إلينا الفوائد المحققة من مصادر يوثق بها، كما اعتمدنا على من يعتمد عليهم من أصحاب المعارف ممن لهم شهرة في علوم وفنون مخصوصة للوقوف على المواد قبل طبعها»[28].

وقد اعتمد البستاني في إخراج هذه الموسوعة وتسديد نفقاتها على الدعم الذي قدمه اليه الخديوي إسماعيل، إذ لم يكتف الخديوي بضمان شراء ألف نسخة من الموسوعة، بل وضع تحت تصرف البستاني ولأغراض البحث مجموعة من الكتب التي قد نشرت في مصر.

نشر البستاني المجلد الأول من دائرة المعارف عام 1876 وأتبعه المجلد الثاني في العام التالي، وقد تناولت معظم المقالات في هذين المجلدين التراجم والسير وهي مادة من الواضح أن البستاني قد أعدّها من أجل قاموس السير والأعلام الذي كان قد فكر فيه ذات مرة. ونشر المجلد الثالث عام 1878 وهو يتضمن تعريفات ببعض المواد العلمية وخاصة الكيماوية منها، وتطرق في المجلد نفسه أيضاً وبشيء من التعمق الى معالجة بعض الشؤون الأوروبية من خلال مقالين عن إسبانيا والسويد وضعهما على غرار مقالات الموسوعات الأوروبية الحديثة، وتناول أيضاً في هذا المجلد أوضاع كل من الأرمن والأسكيمو. وجاء التغيير الوحيد عن الصورة الأصلية لدائرة المعارف في المجلد الرابع الذي صدر عام 1880، ففي محاولة لرفع مستوى نوعية موسوعته أضاف البستاني عدداً من الصور والإيضاحات في ملاحق وضعها في نهاية المجلد. أما فيما عدا ذلك فقد واصل البستاني الإنتاج وفق الخطة المرسومة أصلاً فنشر المجلد الخامس عام 1881 والسادس في العام التالي، وقد أكمل مسودة مجلده السابع قبل وفاته عام 1883. وبتنفيذ مشروع الموسوعة زود البستاني القارىء العربي ببيان حديث وإن كان جزئياً عن معرفة الإنسان عن طبيعته وعالمه وإنجازاته. بيد أن دائرة المعارف كانت أكثر من مجرد خلاصة وافية للحقائق، إذ كانت أيضاً تفسيراً لمبادىء معينة عن الاستنارة التي كان البستاني قد تمثلها في فلسفته الاجتماعية وهي شمولية المعرفة وموضوعية الفكر والربط بين المعرفة والتقدم[29].

أما بالنسبة لشمولية الفكرة فقد جرى التعبير عنها من خلال الطرح القائل بأن المواضيع العلمية الحديثة هي من منجزات الجنس البشري ككل وليست نتاجاً لأية بيئة ثقافية واحدة، إنها نتيجة لانتقال الثقافة من حضارة الى أخرى. وتقوم دائرة المعارف بتسجيل تراث محطات الانتقال أو معالم الطريق الذي سارت عليه التطورات الثقافية الإنسانية وهي حضارات الشرق الأدنى القديم وعالم البحر المتوسط والحضارة العربية الإسلامية التي تميزت بقدرتها الفذة على الأخذ والعطاء.

وبالنسبة للفكر الموضوعي فيتضح من خلال معالجة البستاني للعديد من القضايا الحساسة مثل قضية الحكومة النيابية. إذ أن البستاني في وصفه لمختلف أنواع الحكم ينكر

---

(27) Jandora, Al-Bustani's Da'irat Al-Ma'arif», The Muslim World (April 1986), vol LXXVI, No.2, p. 87

(28) المقدسي المصدر السابق، ص 220.

(29) Jandora, Al-Bustani's Da'irat Al-Marif, p.89.

أن أي نوع من أنواع الحكم هو أحسن في جوره من الأنواع الأخرى. ويشير الى أن كل نوع يتناسب مع ظروف تختلف عن ظروف غيره، وأن المحك الصحيح الوحيد لتقرير جدارة الحكومة هو قدرتها على رفع مستوى الصالح العام. ومع أن هذا المحك ليس محدداً بدقة، إلا أن البستاني يدعو بوضوح الى انتحاء منحى فلسفي في تناول القضايا السياسية في ذلك الوقت[30].

أما فيما يتعلق بالربط بين المعرفة والتقدم، فإن البستاني يتناول ذلك في مقدمة موسوعته بقوله: «. . . من المعروف جيداً ان المعرفة أساس لإتقان الزراعة والصناعة والتجارة، وهي أم الاختراعات والاكتشافات ومصدر الثروة والقوة وأحد الأصول لراحة وحفظ الصحة وركن لتنظيم أمور المجتمع وفهم تعقيدات الإدارة السياسية ومعرفة القوانين والمراسيم والأنظمة ووسيلة لتثقيف العقل وسلامة الحكم ونقاء الخلق وتحسين العادات ودراسة الأديان واكتشاف العلل والأسباب وقواعد الأعمال وضبطها وما الى ذلك»[31].

ومع أن البستاني يعطي أولوية لمبدأ الربط بين المعرفة والتقدم، إلا أن منظوره المتعلق به يفتقر الى العمق. إذ لا يشغل نفسه بالطرح الأساسي القائل إن التقدم لا يأتي من المعرفة نفسها بل من **تطبيقها بصورة عملية**. فالموسوعة تفتقر الى مقالات تعالج الأساليب الزراعية أو الصناعية أو الهندسية الحديثة. وإهمال مواضيع كهذه يعكس مصالح وأذواق الفئة الاجتماعية المثقفة التي تتعامل الموسوعة معها وهي النخبة المثقفة، فأفراد هذه الفئة عموماً لا تكسب قوتها من مجالات مثل الزراعة والصناعة والإنشاءات[32].

(4) المدرسة الوطنية

في أعقاب فتنة الستين أنشأ البستاني عام 1863 مدرسة في بيروت باسم المدرسة الوطنية، وهي أول معهد علمي قام على مبدأ الابتعاد عن الطائفية والعمل على تجسيد الوحدة الوطنية[33]. وقد مهدت هذه المدرسة السبيل لظهور الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الامريكية في بيروت)، وظلت تقوم منذ عام 1866 بدور المعهد الإعدادي لهذه الكلية حتى عام 1876 حينما أنشأت الكلية السورية معهدها الإعدادي الخاص فأغلقت المدرسة الوطنية أبوابها بعد أن خدمت البلاد مدة ثلاثة عشر عاماً. وكان مما قالته مجلة «**المقتطف**» عنها: «هي أحدث المدارس الوطنية التي أُنشئت على قاعدة الحرية الدينية والجامعة الوطنية. تؤلف القلوب بين متنافري الأديان ومتبايني المذاهب، وتذيع المبادىء الوطنية على صدق في جانب الدولة وإخلاص في جانب الوطن. فانسل اليها الطلبة من كل ناد وصوب من مصر والأستانة واليونان والعراق من عرب وأعجام، وولّي شؤون التعليم فيها أساتذة فضلاء من العرب والإفرنج»[34].

وتبنّت المدرسة منهجاً تعليمياً يسعى للمحافظة على اللغة العربية وتراثها والانفتاح على الثقافات الأجنبية واقتباس المناسب من علومها وفنونها[35]. وقد لخص البستاني أهم المبادىء التي قامت عليها مدرسته بما يلي:

1 ـ ليس المقصود منها أن تكون طائفية، بل كانت أبوابها ولا تزال مفتوحة لجميع أبناء الوطن وغيرهم من كل جنس وطائفة وملّة دون تعرض لمذاهبهم الخصوصية.

2 ـ صرفت الهمّة في تنشيط لغة الوطن لأنه من المقرر أن أساس تقدم كل قوم إنما هو لغتهم التي يرتضعونها مع اللبن.

3 ـ حافظت كل المحافظة على المشرب الوطني والعلاقات الوطنية بحيث لا يكون المتعلمون فيها كغرباء في وطنهم، أي أن غايتها أن يربّى أبناء الوطن لخدمة الوطن.

---

(30) **Ibid**, p.90.

(31) بطرس البستاني، دائرة المعارف (بيروت: 1874)، المقدمة، ص 2.

(32) Jandora, Al-Bustani's **D'irat Al-Marif**, pp.90-91.

(33) البرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939** (بيروت: 1977) ص 127.

(34) **المقتطف** (القاهرة: 1883) عدد 8، ص 2-3.

(35) فؤاد صروف ونبيه فارس، **الفكر العربي في مائة** [illegible] (بيروت: 1967) ص 142-143.

4ـ عنيت بتعليم اللغـات والمعارف التي رأت البـلاد في حالتها الحاضرة في غاية الاحتياج إليها.

5 ـ اجتهـدت في تربيـة حب الـوطن في قلوب تـلامـذتهـا وإيجاد مبادىء الإلفة والاتحاد بينهم. . . حتى اذا خرجوا منهـا كانوا ذوي غيرة على وطنهم وأمناء له ولحكومته، وقـادرين أن يتحدوا في ما يؤول الى عمار الوطن ونجاحه»[36].

تـولى سليم بن بـطرس البستـاني نيـابـة رئـاسـة المـدرسـة وناصيف اليازجي الإشراف عـلى تدريس اللغـة العربيـة فيها كـما كـان يـوسف الأسـير، العـالم والمؤلف السـوري المشهـور واحـداً ممن انضموا الى الهيئة التعليمية في المـدرسة[37]، وقـد ذاعت شهرة المدرسة بسرعة، وتقاطر إليها الطلبة النابهون من سائر أنحاء المنطقة ودول الشرق الأدنى[38].

(5) الصحافة

لم يقتصر أثـر البستاني عـلى سعـة انتشـار كتبـه ومؤلفـاتـه المطبوعة وإنما تعدى ذلك ليشمل المجال الصحفي أيضاً، فقد بـدأ حياتـه الصحفية عـام 1860 بإصـدار صحيفـة أسبـوعيـة صغيرة في بيروت بعنوان «نفير سـورية» وكـانت أول صحيفة سياسية محلية أتيح لهـا الصدور في بـلاد الشام. وقـد صدرت ثلاث عشرة مرة دون انتظام بين ايلول 1860 ـ نيسان 1861، وكانت عبارة عن صفحـة واحدة أشبـه بنشرة عاديـة مطبـوعة دون توقيع صريح. وقد وقفت الصحيفة معظم جهودها على القضاء على الأسباب التي أدت الى وقوع فتنة الستين والدعوة الى التـوفيق بين العقـائد المختلفـة. وكان البستـاني يهيب من خـلال صحيفتـه بـأبنـاء وطنـه الى نبـذ الضغـائـن والتعصب الـطائفي والمبـادرة الى الاتحـاد والتـآلف تحت لـواء المواطنـة الصـالحة والعمـل على إعـادة تعمير بـلادهم بعد أن خـربتها أحداث فتنة الستـين الدامية[39]. وفيها يتعلق بهـذه الاحداث نشرت الصحيفة افـ احية في عددها الأول الصادر في التـاسع والعشرين من شهـر ايلول عام 1860، ورد فيهـا: «يـا أبنـاء الـوطن! إن الفظائـع والمنكرات التي ارتكبهـا أشقياؤنـا هـذه السنـة (1860) في ظـرف مـدة قصـيرة وصلت أخبـارهـا الى أطـراف المسكونـة. . . ! يا أبناء الوطن! إنكم تشربـون مـاءً واحـداً وتشمـون هـواءً واحـداً ولغتكم التي تتكلمـون بهـا وأرضكم التي تطأونها وأهواؤكم وعاداتكم جميعاً واحـدة. فإذا كنتم لا تـزالـون الى الآن سكـارى من شرب دم إخـوتكم في

(36) الجنان (بيروت: 1870) مجلد 1، ص 70، المقدسي، ص 187-188.

(37) كانت الهيئة التعليمية في المدرسة الوطنية تتألف من:

المعلم/بطرس البستاني (الرئيس)	كان يعلم صفّا اللغة الإنجليزية
السيد/سليم البستاني ـ ولد (نائب الرئيس)	وكان يعلم الصف الأول الإنجليزية
السيدة/سارة ـ ابنته	وكانت تعلم صفا الإنجليزية وقد توفيت في السنة المدرسية الأولى.
الشيخ/ناصيف اليازجي	كان يعلم الصف الأول العربية ويقوم مقامه ولده إبراهيم إذا غاب.
الشيخ/يوسف الأسير	كان يعلم الصرف، وهو من خريجي الازهر.
الشيخ/خطار الدحداح	كان يعلم الصف الثاني الفرنسية.
السيد/سعدالله البستاني	كان يعلم الصف الثالث الفرنسية.
السيد/إسبر شقير	كان يعلم الفرنسية
السيد/شاهين سركيس	كان يعلم العربية والحساب
السيد/يوسف الباحوط	كان يعلم العربية والحساب
السيد/إبراهيم ناصيف	كان يعلم العربية والحساب
السيد/خليل ربيز	كان مسؤولاً عن المرحلة الابتدائية
السيد/سليم تقلا	كان مسؤولاً عن المرحلة الابتدائية

انظر: شاكر الخوري، مجمع المسرات (بيروت: 1908)، ص 149-150.

(38) زيدان، ص 38، انطونيوس ص 115.

(39) Jessup, p.484.

الوطن أو طائشين من عظم المصائب عليكم فلا بدّ من أنكم عما ستستفيقون من هذه الغفلة وتدركون معنى هذه النصائح وصالحكم العمومي. فهذا ما قصدت أن أخاطبكم به الآن، ولي أمل أن أداوم الكتابة وأسأل الله أن يرشدكم الى معرفة صالحكم وخير بلادكم، ويحرك قلوبكم الى اعتبار نصوص ومبادىء الديانة التي انتم متدينون بها، وأدام الله بقاءكم. من محب الوطن..»[40].

وفي معرض تعليقه أيضاً على أحداث فتنة الستين أشار البستاني في رسالة كتبها بحياد نادر وبعثها الى «إيلي سميث» في أمريكا ونشرت في «النفير» قال فيها: «... نحن نعلم أن هذه المرة كان الافتراء من النصارى لأن الدروز في ابتداء الأمر لم تكن لهم إرادة في الحرب، ولأجل عتوّ النصارى وجبرهم وإرادتهم الخبيثة أن يبيدوا الدروز واتكالهم على سيفهم وترسهم وعدم مسكهم جانب الدولة.. قد حصل لهم هذا الدمار والخراب... أظن أن إرادة الله في ذلك أن يقاص عتوّ الذين اجتهدوا في أن يقاوموه بمقاومتهم لكلامه...»[41]. وقد دعت «النفير» الى الوحدة الوطنية والتعاون في سبيل طلب العلم والمعرفة. «فالمعرفة» كما ذكر البستاني في إحدى افتتاحياته بالنفير «تؤدي الى الاستنارة العقلية، والاستنارة العقلية تؤدي الى القضاء على التعصب وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الأديان»[42]. وقد يبدو هذا الكلام بالنسبة إلينا هذه الأيام عادياً لا جدة فيه، ولكنه في واقع الأمر حديث مهم بالنسبة لبلاد الشام في تلك الفترة إذ أنه كان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية.

وبالإضافة الى «النفير» أصدر البستاني عام 1870 «**الجنان**» وهي مجلة أدبية كانت تتطرق أحياناً الى بعض الموضوعات السياسية. واستمرت في الصدور مرة كل أسبوعين (نصف شهرية) والتزمت بمواعيد صدورها التزاماً يكاد يكون منتظماً طيلة حياة البستاني وحتى عام 1886، وعهد برئاسة تحريرها الى نسيبه «سليمان البستاني»[43].

كان شعار **الجنان** كما هو مدوّن على صفحتها الأولى «حب الوطن من الإيمان» فحبّ الوطن والانتماء اليه بالنسبة لبطرس البستاني يعلو كل ماعداه من انتماء ديني أو انتماء طائفي أو حتى انتماء لغوي. فالانتماء الوطني هو الانتماء الأكبر الذي يشكل أساساً كافياً لجعل جميع الذين تحته أبناء وطن واحد، وكانت المجلة بالتالي تحارب التعصب وتدعو الى التسامح الديني والوحدة الوطنية والى كل ما فيه خير الوطن وازدهاره.

ومن أهم الموضوعات التي عالجتها المجلة موضوع المشاركة العربية في القرارات السياسية للدولة العثمانية. وكرست المجلة عام 1877 عدة صفحات للدستور العثماني الذي كان قد منح حديثاً، فنشرت جزءاً من نص ذلك القانون جنباً الى جنب مع مرسوم الإصلاحات الذي رافق إعلانه، ثم نشرت تحليلاً لمختلف بنوده، كما أوردت الإجراءات والمناقشات في البرلمان العثماني الذي أسس حديثاً. واهتم البستاني بالتجربة الدستورية لأنه رأى فيها وسيلة لإصلاح أحوال شعوب الإمبراطورية وخاصة العرب منهم.

وأصدر البستاني عام 1870 صحيفة أسبوعية سياسية تجارية أدبية أطلق عليها اسم **الجنة** وعهد بها الى ابنه سليم، ثم اصبحت تصدر في الشهر الثاني مرتين في الأسبوع وظلت كذلك حتى عام 1884. وقد وصفها «فيليب طرازي» في مؤلفه **تاريخ الصحافة العربية**: «... اشتهرت بصدق المبدأ وانتقاء الأخبار الصحيحة... وكان التجار يعولون عليها في أسعار التجارة وسوق القراطيس المالية والحوادث السياسية»[44]. وفي عام 1871 عهد بطرس البستاني الى نسيبه سليمان البستاني بإصدار صحيفة أخرى أطلق عليها **الجنينة** وهي أول جريدة يومية تصدر باللغة العربية، ولكنها لم تستمر سوى أربعة أعوام فقط[45]. وقد حرص في هذه المجلات على

(40) **نفير سورية** (بيروت: التاسع والعشرون من أيلول 1860)، عدد 1، ص 1.

(41) الطيباوي ص 579.

(42) **نفير سورية**، عدد 1، ص 1.

(43) فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** (بيروت: 1913-1933)، مجلد 2، ص 45,22,10.

(44) المصدر نفسه، ص 10.

(45) المصدر نفسه.

إرساء خط فاصل بين نوعين مختلفين من التديّن: التعصب الأعمى الذي أهلك سوريا والاحترام المتبادل بين أهل الديانات المختلفة. ودعا في مجلاته الى إصدار مزيد من القوانين العادلة التي تتفق ومنطق العصر والقائمة على الفصل بين الدين والدنيا. غير أنه دعا الى التشبث باللغة العربية كي لا تصبح سوريا «بابل لغات كما هي بابل أديان»[46].

(6) مساهمته في انشاء الجمعيات الأدبية والعلمية

في عام 1849 قام البستاني بالتعاون مع ناصيف اليازجي بتأسيس أول جمعية أدبية في بيروت وهي مجمع (محفل) التهذيب[47]، وعرفت فيما بعد باسم جمعية الآداب والعلوم، وانتخب البستاني سكرتيراً للجمعية واليازجي قيّم مكتبتها، وقد بلغ عدد اعضائها بعد عامين على تأسيسها خمسين عضواً، غالبيتهم من نصارى سوريا المقيمين في بيروت بالإضافة الى عدد محدود من الأعضاء الأجانب. ومما تجدر ملاحظته أن جميع الأعضاء باستثناء اليازجي كانوا من البروتستانت، وبطبيعة الحال لم يكن فيها أعضاء مسلمون أو دروز. ولعلّ السر في وقوف المسلمين والدروز بمعزل عنها كان مرده الى الخلافات الطائفية واشتراك المبشرين الأجانب في الجمعية. كانت الجمعية تعقد اجتماعاتها مرتين في الشهر ثم ما لبثت الاجتماعات أن أخذت تقلّ مع الزمن الى أن انتهت بعد مضيّ خمس سنوات على تأسيسها. وفي عامها الأخير قام البستاني بإعداد كتاب يتضمن عرضاً شاملاً لجميع منجزاتها وملخصاً دقيقاً لجميع الأبحاث التي ألقيت في اجتماعاتها.

وفي رسالة مؤرخة في العاشر من كانون الأول عام 1846 كتب البستاني الى «إيلي سميث» في الولايات المتحدة يخبره بتأسيس هذه الجمعية وطريقة عملها، وكان مما ورد فيها: «... ثم أخبر جنابك أننا قد رتبنا مجمع التهذيب في بيروت وجعلنا له بعض رسوم لا بدّ منها لحفظه، وعدد أعضائه الآن أربعة عشر عضواً، ونتداول فيه عن موضوعات شتى وعقدنا أربعة اجتماعات، والترتيب في الاجتماع هو أن رئيس المجمع ينتخب موضوعاً مناسباً للنقاش يدوّنه الكاتب في دفتر المجمع، وكل عضو من الأعضاء يقوم بكتابة شيء عن الموضوع، وفي وقت الاجتماع يقرأ كل عضو ما كتبه، وإذا وجد على قوله اعتراض فعليه ان يجيب عليه، وعند نهاية القراءة يقوم من يكون قد اختاره الرئيس للخطبة فيدلي بخطبته. وموضوع الاجتماع الأخير كان: «هل يجوز اقتناء العبيد؟ وكان الحكم عند جميع اعضاء مجمعنا أنه مناف لهذا القانون...» وأعضاء المجمع هو ناصيف اليازجي والدكتور دي فورست Dr. Henry De Forest والدكتور فندايك Dr. Cornilius Van Dyck وطنوس الحداد ويوحنا ورتبات وديمتري فيليبس وإسكندر أبكاريوس وكركور ورتبات وبطرس البستاني[48].

كانت هذه الجمعية الأولى من نوعها في بلاد الشام، وكانت غايتها اكتساب العلوم والفنون دون التعرض للأمور السياسية والدينية وذلك عن طريق جهد جماعي منظم. وقد كانت جمعية رائدة تألفت على منوالها جمعيات أخرى كان لها دور كبير فيما بعد على نمو الحركة القومية العربية.

وفي عام 1860 ارتبطت مجموعة من المفكرين السوريين مع البستاني في مشروع نشر تعاوني أطلق عليه اسم «العمدة الأدبية لأشهار الكتب العربية» بهدف تسهيل طباعة الكتب والمؤلفات الأدبية والثقافية وتأمين نشرها على أوسع نطاق. وكان الأعضاء المساهمون في هذه المؤسسة من مختلف الملل والطوائف السورية. كان من بينهم إبراهيم الأحدب وحسين بيهم وخليل الخوري ونقولا نقاش. وقد تولى البستاني أمانة سر هذه المؤسسة. وقامت المؤسسة بنشر ثلاثة أبحاث له أحدها تناول «تعليم المرأة» والثاني «آداب اللغة العربية» والثالث «مقارنة بين العادات العربية والإفرنجية»[49].

وفي عام 1857 قام البستاني بالتعاون مع اليازجي وحسين بيهم ومحمد أمين أرسلان بتأسيس الجمعية العلمية السورية التي وصل عدد أعضائها الى مائة وخمسين واعترف بها رسمياً عام 1868، واتسعت عضويتها فشملت شخصيات عربية من مختلف أرجاء الوطن العربي. لقد «التقت الطوائف (العربية)

---

(46) نفير سورية، (الخامس والعشرون من تشرين الأول 1860)عدد 4، ص 1.

(47) الطيباوي، ص 608.

(48) المصدر نفسه، ص 589.

(49) المصدر نفسه، ص 604.

المختلفة لأول مرة بعد ثلاثمائة وخمسين عاماً من الحكم العثماني حول أهداف ومثل واحدة تسعى الى تطوير البلاد ناهلة من التراث المشترك الأصيل، ويمثل ظهور هذه الجمعية بحق أول تعبير فعلي عن الوعي القومي»[50].

وكان للجمعية مجلة شهرية اسمها **مجموعة العلوم** تنشر المقالات العلمية والأدبية والاقتصادية والزراعية[45]. واشتهرت هذه الجمعية أكثر مما سبقها أو عاصرها من الجمعيات الأخرى، وقد حدد فيليب طرازي الغرض من إنشائها بقوله: «... غرض هذه الجمعية تنشيط المعارف وتعزيز شؤون الآداب وزيادة انتشار المدارس لتنوير أذهان الشعب وارتقاء الأمة في معارج الفلاح...»[51].

خصائص البستاني الفكرية

إن من أكثر الصفات تميزاً لدى البستاني قدرته على ترجمة **الأفكار الى إنجازات**، وبإمكاننا وصفه بأنه «من أصحاب المشاريع أو المقاولين الثقافيين»[52]. فقد عمل معلماً ومترجماً ومحاضراً ومصنفاً للكتب المدرسية والمراجع ومؤلفاً وصحفياً وناشراً وموظفاً في الروابط أو الجمعيات، وأسس المدرسة الوطنية فكانت أول مؤسسة للتعليم العالي من نوعها في بلاد الشام. ونشر «محيط المحيط» فكان أول قاموس عربي شامل يرتب حسب الحروف الهجائية، وأصدر مجلة «الجنان» فكانت أول صحيفة أدبية عربية تنجح كمشروع، أما قمة عطائه فكانت «دائرة المعارف» التي ظهرت كأول موسوعة عربية حديثة.

ولا شك أن السر في هذا النجاح الذي حققه كان يعود الى حد كبير الى مزاجه العملي، فلو لم يكن له هذا الميل العملي لما أمكن له أن يتجاوز الدراسة النظرية للاحتمالات.

وكانت قدرة البستاني على تحويل أفكاره الى مشاريع ذات قيمة هي التي جعلت من حياته مثالاً يحتذى بين مواطنيه[53].

وكان البستاني من أوائل من طوروا تصورهم الخاص لطرق الحياة الحديثة في الغرب وصاغوا وعمموا صورة عربية للفكر الاجتماعي الغربي. وكان يدرك أهمية التراث العربي الإسلامي كمصدر إلهام للإنجازات المعاصرة، ولكنه كان يتطلع في الوقت نفسه الى المجتمعات الغربية المعاصرة حيث وجد لديها مؤسسات وأساليب وعادات فكرية رأى أنها جديرة بالاقتباس والمحاكاة وعدم الاستخفاف بأهميتها. وكما أن الإفرنج لم يستخفوا بآداب العرب في أيام جهلهم لأجل مجرد كونها منسوبة الى العرب، كذلك لا يليق بالعرب أن يستخفّوا بعلوم الإفرنج لأجل مجرد كونها إفرنجية، بل يليق بنا أن نترحب بالعلوم من دون نظر الى من يعطينا إياها سواء كانت آتية من الصين أم الهند أم العجم أم أوروبا[44].

لكن البستاني كان معارضاً بشدة للتقليد الأعمى الذي لا يميز بين النافع والضار، فالقبول بالعادات الأجنبية لمجرد كونها أجنبية كان لا يقلّ في نظره حماقة عن رفضها لمجرد كونها أجنبية[55]. فالواجب قبول العادات ورفضها حسب جدواها وفائدتها. وقد أسهب البستاني في الحديث عن فضل العرب العلمي على الأوروبيين خلال عصور ازدهارهم الحضاري، ولذا، فلا ضير أن يسترد العرب بعض ما أخذه ونقله الغربيون عنهم من علوم ومعارف لا سيما وأن من أهم مزايا الحضارة العربية الإسلامية قدرتها الهائلة على الأخذ والعطاء. وفيما إذا أراد العرب العلم والنهوض فلا بد من الانفتاح على الغرب، إذ أن «ما مكث فيه الإفرنج السنين العديدة والمدد المديدة يمكن للعرب أن يكسبوه في أقرب زمان مع غاية الإتقان والإحكام»[56]. وبدون المعرفة الواسعة

---

(50) رافق، ص 515.

(51) طرازي، مجلد 2، ص 45.

(52) Jandora, **Butrus Al-Bustani, Arab Consciousness and Arabic Revival,** p.82.

(52) Ibid.

(54) صروف، ص 86.

(55) فؤاد البستاني، المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق (بيروت: 1966)، ص 25.

(56) المصدر نفسه.

الصحيحة لا مجال لنشوء نهضة اجتماعية مستنيرة، ولذا، فان البستاني دعا الى تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها لتسهيل عملية نقل أكبر قسط من العلوم والمعارف العلمية الأجنبية الى اللغة العربية.

وكان البستاني يرى في اللغة عاملاً معززاً للشعور الوطني، فدعا الى إحياء اللغة العربية وبذل جهوداً مضنية ليجعلها أقرب متناولاً للناس فيزداد شغفهم بها والانكباب على دراستها، إذ كان يدرك أن اللغة عامل توحيد ضروري بين أبناء الوطن الواحد، فهي تخلق نوعاً أكيداً من الوحدة المعنوية[57]. واهتمام البستاني باللغة يهدف أيضاً الى نشر المعرفة بين أبناء بلده وإيصال علوم الاوروبيين واكتشافاتهم اليهم.

ويعتبر البستاني ـ من ناحية أخرى ـ من أوائل من روجوا للمفهوم القائل بجعل سوريا مركزاً جديداً يتمحور حوله الولاء. وقد انطلق هذا المفهوم من مقدمة تقول إن العيش في نفس الوحدة الجغرافية أحد منابع المصالح والمصير المشتركين. ومما قاله بهذا الصدد: «... واذا كانت منافع الاجتماع (البشري) لا تنال على أتم ما يرام إلا بواسطة القرب والاختلاط نتج من ذلك عمار المزارع ثم القرى ثم المدن ثم العواصم، ولما كانت هذه الاحتياجات لا توجد كلها في مكان واحد من بلاد واحدة نتج بالضرورة اتصال قرية بقرية ومدينة بمدينة، وهكذا حصل الاجتماع المدني، وإذا كانت الاحتياجات المذكورة لا توجد جميعها في بلاد واحدة لأن باري الكون لأجل كمال الاتصالية والإلفة بين الجنس البشري بحيث يصير الجميع كعائلة واحدة جعل بحكمته الباهرة لكل بلاد أو إقليم خاصيات أو مواد لا توجد في غيره حتى صار العالم بأسره نظير سلسلة تعددت حلقاتها، كانت كل واحدة منها مفتقرة الى أختها بحيث لا يتيسّر حفظ تركيبها ونظامها بدونها. ومن ذلك نتج اتصال البلدان واختلاط أهاليها معاً لاشتراكهم في الصوالح»[58].

وكانت رؤية البستاني لمصير سوريا انعكاساً لآماله الشخصية وهي إحياء الازدهار والحضارة اللذين نعمت بهما البلاد من قبل وذلك من خلال الجهود الوطنية. وقد قام المفكرون في الأجيال التالية بالتوسع في شرح ربط البستاني بين الأفكار ففسروا بدورهم مصير سوريا حسب تطلعاتهم الخاصة التي تفاوتت حسب الوضع السياسي في زمن كل منهم. وكانت نداءاتهم من أجل الحكم الذاتي والاستقلال وإعادة الوحدة تقوم على مفهوم البستاني لأرض الآباء على أنها مركز للمصالح المشتركة ومن ثم للحقوق والواجبات المشتركة.

وقد اتخذ البستاني في أعقاب الأحداث الطائفية الدامية التي شهدها عام 1860 موقفاً سلبياً حازماً من الطائفية ولم يعد يرى فيها الإطار الأصلح لتسيير الحياة العامة في سوريا وصيانة حقوق الأفراد ومصائرهم. ويبدو أن اعتناقه المذهب البروتستانتي دفعه لتجاوز النطاق الماروني الذي كان يعتبر آنذاك نطاقاً ضيقاً قائماً على التعصب الأعمى الذي أهلك سوريا[59]. وتبنى البستاني مبدأ الفصل بين الدين والدولة واعتبر العبادة جزءاً من حرية الفرد الشخصية على اعتبار أنها علاقة خاصة بين العبد وخالقه. وقد دعا الى تنفيذ سياسة المساواة الدينية بين جميع الملل والطوائف التي ضمنها السلطان العثماني بمقتضى خطي همايون عام 1856، ودعا أيضاً الى نشر سياسة التسامح بين مختلف الأديان السماوية، فالأديان جميعها تلتقي في رأيه على خدمة الإنسان وعبادة الإله الواحد[60].

وقد أزال الاعتراف العثماني الرسمي بالمساواة الدينية الحواجز من أمام النصارى حينما اعترف ضمناً أنه يحق لهم التعرض للقضايا العامة في المجتمع ومخاطبة المسلمين مخاطبة الند للند. وكان خطاب البستاني الذي ألقاه في الخامس عشر من شباط عام 1859 بعنوان «آداب العرب» من أولى المحاولات لممارسة هذا الحق، وكان مما ورد في هذا الخطاب قوله: «أين كان العرب وأين هم الآن؟ قد قضى جيل آدابهم الذهبي وخيّم عليهم جيلهم المظلم أواخر الجيل الرابع عشر وما زال ينمو ويتزايد حتى عمّ البلاد والعباد. أين الشعراء؟ أين الخطباء؟ أين المدارس؟ أين المكاتب؟ أين الفلاسفة؟ أين المهندسون؟ أين المؤرخون؟ أين الفلكيون؟ أين العلماء

(57) بطرس البستاني، محيط المحيط، المقدمة، ص 2.

(58) المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق ص 166-167.

(59) نفير سورية (25 تشرين الأول 1860)، عدد 4، ص 1.

المحققون والأدباء المدققون؟»[61].

وينتقل بعد ذلك الى التعصب الطائفي فيقول: «... وما لا يسع عاقلاً إنكاره أن أهالي سوريا الذين هم أعلى طبقة من جودة العقول والنباهة الطبيعية والاستعداد للتقدم في الآداب والصنائع والارتقاء الى أسمى درجات التمدن، وبلادهم هي من أحسن البلدان في قواها الطبيعية ومواقعها التجارية لم يصلوا هم وبلادهم الى ما وصلوا اليه من الانحطاط والمذلة والتأخر إلا من جراء عدم الاتحاد وقلة المحبة بينهم وعدم غيرتهم على صالح بلادهم وأبناء وطنهم وتسليمهم أنفسهم بحماقة وجهالة الى سلطة وسطوة التعصبات والأغراض المذهبية والطائفية والعائلية وانقيادهم الأعمى الى دسائس وتملقات الأقوام المضرّين...»[62].

أما المحدد الأساسي للأمة العربية في فكر البستاني فهو الانتماء الوطني. لقد وجد البستاني في الوحدة الوطنية والانتماء للوطن أساساً للحكم وتنظيم الحياة الاجتماعية. والوطنية بالنسبة اليه تعني الانتماء والولاء لوحدة إقليمية معينة ضمن الدولة العثمانية. فسوريا ككل هي وطنه الذي يحبه وينتمي اليه والانتماء لا يقتصر على الأرض في حد ذاتها وانما على السكان الذين يعيشون فيها أيضاً، وهؤلاء السكان الذي ينتمي اليهم البستاني ويعمل من أجلهم «ليسوا أبناء القبيلة ولا أبناء الطائفة ولا إخوان الدين وإنما هم أبناء الوطن»[63].

وقد أكد البستاني على الرابطة الوطنية كرابطة مجتمعية في المقام الأول. «فالأبوة هي أبوة الوطن والأمومة هي أمومة الأرض والأخوة هي الأخوة الوطنية والواجبات والحقوق هي واجبات وحقوق بين الوطن وأبنائه»[64]. ويلاحظ أن مفاهيم البستاني في الوطن والوطنية تضمنت جزءاً واسعاً من مفاهيم الأمة ومعانيها. ويبدو أنه آثر متعمداً الابتعاد عن استعمال تعبير الأمة لما فيه من أبعاد دينية ولما قد يثيره من التباس في المعنى أو ما قد يسببه من ردود فعل سلبية لدى المسؤولين العثمانيين[65]. ومما ورد حول هذا الموضوع في افتتاحية العدد الرابع من نفير سورية الصادر بتاريخ 25 تشرين الأول عام 1860 القول التالي للبستاني بتوقيع محب للوطن: «يا أبناء الوطن! لقد أكثرنا ذكر الوطن في نشراتنا، وما ذلك إلا لأنه أحب شيء الى سمع من كان محباً لوطنه وألذ ما زيّن به جِيدُ العربية من الكلمات المولدة، فسورية المشهورة ببر الشام وعربستان هي وطننا على اختلاف سهولها ووعورها وسواحلها وجبالها، وسكان سورية على اختلاف مذاهبهم وهيئاتهم وأجناسهم وتشعباتهم، هم أبناء وطننا. والوطن أشبه بسلسلة متصلة كثرت حلقاتها، طرفها الأول منزلنا أو مسقط رأسنا بمن حواه، وطرفها الآخر بلادنا بمن عليها، ومركز طرفيها ومغناطيسها قلبنا أو هما مركز قلبنا ومغناطيسه. ومن شأن الجاذبية القوية التي للوطن طبعاً نحو بنيه أن تضبطهم بعزم شديد داخل دائرته... وتمسك بحبال قلوبهم وتجذبهم إليه جذباً عنيفاً لترد إليهم إذا غابوا عنه، وإن تكُنْ أرض غربتهم أحسن منه»[66]. والوطن بالنسبة للبستاني عبارة عن سلسلة متصلة من الحلقات، فالمنزل أو «مسقط رأسنا بمن حواه» هو الحلقة الصغرى من الحلقات التي تسمى الوطن الصغير. أما الحلقة الكبرى من هذه الحلقات فهي «بلادنا بمن عليها» وتسمى الوطن الكبير. وبين الحلقتين الصغرى والكبرى يرى البستاني حلقات وسطى كالمدينة يمكن أن تحمل اسم الوطن ولكنها دون الطرفين المذكورين في الجاذبية والتأثير[67].

ويرى البستاني أن الوطن بحلقاته الثلاث يصبح في النهاية رمز المصالح والحقوق والواجبات والولاءات المشتركة ويكون لكل واحد من أبناء الوطن حقوق متساوية في المشاركة بتصريف أموره وواجبات متساوية للإسهام في رفاهه. ويمكن

---

(60) **المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق**، ص 145.
(61) المصدر نفسه، ص 147، صروف ص 85-86.
(62) نفس المصدرين.
(63) **المعلم بطرس البستاني: دراسة ووثائق**، ص 185.
(64) ناصيف نصار، **تصورات الأمة المعاصرة** (الكويت: 1986)، ص 366.
(65) المصدر نفسه.
(66) **نفير سورية** (25 تشرين الأول 1860)، عدد 4، ص 1.
(67) نصار، ص 368.

ضمان هذا النظام باستمرار السيادة العثمانية[68]. ولم يكن البستاني يرى أي تضارب في المناداة بالولاء للمجتمع العربي في سوريا ولنظام الحكم العثماني الذي كان يسيطر عليه، وذلك طالما أن العثمانيين يواصلون تنفيذ الإصلاحات في المناطق العربية ويسمحون للمؤهلين من العرب بإشغال مناصب في الحكومة المركزية ويحمون الوطن من الأخطار الخارجية. وبعبارة أخرى، طالما يضمنون للعرب استمرار التقدم والمحافظة على حقوقهم وحمايتهم من التهديد الأجنبي. وكان البستاني لا يرى مبرراً لإثارة قضية حق العرب السوريين في تقرير مصيرهم بصورة مستقلة طالما أن العثمانيين يتبعون سياسة إصلاحية في المناطق العربية[69]. وكان يأمل أن تتوحد مختلف الطوائف في سوريا وتتعاون معاً في قضية إعادة سبك حضارة بلادها وذلك عن طريق غرس شعور بالوعي العربي وبالهدف المشترك في أوساط الجماهير السورية.

اكتسب بطرس البستاني شهرة واسعة وتخرج على يديه جيل من مفكري الإحياء العربي الحديث، فقد قام بتوجيه العديد من تلاميذه الشبان في تطورهم الأدبي والفكري ولا سيما أولئك الذين عملوا كتّاباً ومحررين لدورياته ولموسوعته. فتحت إرشاده برز ابنه سليم ونسيبه سليمان بالإضافة الى شاكر شقير وأسعد طراد وسليم تقلا الذي سار على نهج البستاني ونجح في تأسيس صحيفة «الأهرام» القاهرية. لقد عكست كتاباتهم جميعاً فلسفة البستاني الوطنية لمدرسته ودورياته وموسوعته.

ولعلّ خير ما قيل في البستاني تلك الكلمات التي وردت على لسان رفيقه «أديب إسحاق» وهو يؤبّنه قائلاً: «... أي مؤلف أدبي نراه ولم تكن أنت بادئه أو نصيره؟ وأي مشروع نافع نشاهده ولم تكن أنت الذي بادرت إليه أو دعمته؟ ما هي الآثار التي نعددها لجهودك الرائدة المتواصلة ولا نجدها عظيمة؟ أهي مثابرتك في خدمة المعرفة والثقافة مدة أربعين عاماً أو تزيد؟ أم مؤلفاتك وأعمالك الأدبية التي تجلّ لشهرتها عن الوصف؟ أم قاموسك «محيط المحيط»؟ أم موسوعتك العلمية الرائدة؟»[70].

لقد اختطف الموت المعلم «البستاني» عام 1883 وهو منزوٍ في صومعته ممسك بقلمه يكتب الكلمة تلو الكلمة ويقدم العطاء تلو العطاء دون كلل أو سأم!

(68) Jandora, Butrus Al-Bustani, Arab Consciousness and Arabic Revival, p.73.
(69) **Ibid**, p.74.
(70) دائرة المعارف، مجلد 7، ص 594-595.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محاولات بريطانيا اشراك المانيا في مشاكلها الاستعمارية في آسيا الوسطى 1885

د. يقظان سعدون العامر

كلية التربية - جامعة البصرة

أعطى الاتحاد الألماني زخماً للتوسع الروسي في آسيا الوسطى، فبعد أن عززت روسيا علاقاتها مع ألمانيا والنمسا - المجر عند توقيع حلف الأباطرة الثلاثة عام 1881، ضمنت بذلك حدودها الشرقية وأطلقت يدها في آسيا. لذا، كثفت نشاطاتها التوسعية وأضافت أراضٍ جديدة في آسيا الوسطى الى امبراطوريتها المترامية الأطراف. وقد أثار التوسع الروسي هذا قلق بريطانيا ليس على الهند - درة تاجها - فحسب، بل على الدول المجاورة للهند وخاصة أفغانستان وبلاد فارس.

وقد شهد عام 1884 وكذلك الأشهر الأولى من عام 1885 توتراً في العلاقات البريطانية - الروسية. وعلى الرغم من وعود روسيا المتكررة بعدم التوسع في آسيا الوسطى، إلا أنها لم تلتزم بها، بل على العكس فإنها كانت تدّعي امتلاكها أراضٍ جديدة وتحتلها وتدعي بأنها أراضٍ روسية، وهذا ما حدث في قضية البندجه Pendjeh في نهاية شهر آذار (مارس). وتردّت العلاقات بين بريطانيا وروسيا، واتخذت كلا الدولتين إجراءات عسكرية لمواجهة الموقف، إلا ان الدولتين لم تكونا جادتين في ذلك لاعتبارات داخلية وخارجية. لذلك، اقترحت بريطانيا عرض الموضوع على التحكيم، على أن يقوم بهذه المهمة رئيس دولة أخرى.

يتناول هذا البحث محاولات بريطانيا إشراك المانيا في مشاكلها الاستعمارية في آسيا الوسطى خلال الفترة الممتدة بين شهري أيار وأيلول (مارس وأوكتوبر) 1885. وسيحاول إيضاح الأسباب التي دفعت بريطانيا الى اقتراح: أولاً، قيام الإمبراطور الألماني وليم الأول William I (1871-1888) بمهمة التحكيم في قضية النزاع البريطاني الروسي على الحدود الأفغانية خاصة بعد توصل الطرفين الى اتفاقية 16 آذار، ثانياً، قيام بريطانيا وألمانيا بضمان مشترك لكيان بلاد فارس، وأخيراً التوصل الى عقد حلف بين بريطانيا، باعتبارها أقوى قوة بحرية في العالم، وألمانيا باعتبارها أقوى قوة برية في العالم.

يعتبر كلادستون W. Glastone رئيس حكومة الأحرار البريطانية صاحب فكرة التحكيم في النزاع البريطاني - الروسي[1] ففي 24 ابريل نيسان، وافقت روسيا على الاقتراح الرامي الى التحكيم واستئناف لجنة تحديد الحدود أعمالها وكذلك تأجيل موضوع مسؤولية حادثة البندجه[2]. وبينما كانت المفاوضات البريطانية - الروسية حول الحدود الأفغانية

(1) Gladstone to Granville, 10 Downing street, 24 April 1885, Cited in The Political correspondence of Mr. Gladstone and Lord Granville, 1876-1886, edited by Agatha Ramm, vol. II, 1883-1886, (Oxford University press, 1962), No. 1637. Hereafter will be cited as P.C.G.G.

(2) Gladstone to Granville, 10 Downing street, 3 May 1885, Ibid, No. 1643.

مستمرة وقد توّجت بتوصل الطرفين خلال الأسبوع الأول من شهر مارس ـ أيار الى اتفاقية تقرير الخط الرئيسي للحدود الأفغانية قبل ترسيمها بصورة مفصلة[3]، جرت اتصالات أخرى بين الطرفين حول اختيار رئيس دولة يقوم بمهمة التحكيم وترددت في العاصمة البريطانية أسماء شخصيات عديدة. فذكر اسم ملك الدانمارك الذي كان معروفاً، ومقبولاً لدى الروس[4]، وكانت زوجة أمير مقاطعة ويلز أميرة دانماركية[5]. ومع ذلك لم يحبذ غلادستون رئيس الوزراء وكرانفيل G. Granville وزير الخارجية البريطانية أن يقوم ملك الدانمارك بمهمة التحكيم[6]. وذكر اسم ملك إيطاليا وكذلك ملك بلجيكا. ومع أن البريطانيين أعلنوا موافقتهم على قيام الأخير بمهمة التحكيم، إلا أنهم كانوا يفضلون الإمبراطور الألماني[7]، بالرغم من نصائح زوجة ولي عهد المانيا الانكليزية بعدم الطلب من الإمبراطور الألماني[7] ان يكون حكماً بين بريطانيا وروسيا لأنه يؤيد الأخيرة[8]. وفي السابع من مارس ـ ايار، وافقت الحكومة البريطانية على تسمية الامبراطور الألماني أو ملك الدانمارك للقيام بمهمة التحكيم بين بريطانيا وروسيا[9]. وفي اليوم نفسه طلب كرانفيل من السير إدورد مالت Sir E. Malet السفير البريطاني في برلين أن يسلم زوجة ولي عهد المانيا رسالة من الملكة فكتوريا Victoria (1837-1901) التي رفضت تسمية ملك الدانمارك للقيام بمهمة التحكيم[10] ونصّت هذه الرسالة على ما يأتي: يرغب الوزراء البريطانيون ان يطلب من الامبراطور الألماني أن يقوم بمهمة التحكيم في حادثة البندجه. فخبرته العسكرية الواسعة ومنصبه وصنفه يؤهلانه لأن يقدم تقييماً عادلاً للأوضاع[11].

أدرك المستشار ـ الألماني الأمير بسمارك Otto Von Bismark تأثير زوجة ولي العهد على العائلة المالكة. فقد ذكر أن هذه المرأة الانكليزية تشكل «قناةً للتأثير البريطاني هنا، وأداةً لتعزيز المصالح البريطانية.. فالبريطانيون لا يسمحون أن يمارس عليهم أي تأثير أجنبي وعلى كل حال، فالمراد منا أن نتنازل الى هذا النوع من التأثير فنحن جنس من درجة أدنى، وكتب علينا أن نخدمهم وهكذا تفكر الملكة فكتوريا وأن ابنتها زوجة ولي العهد تشاركها نفس الرأي تماماً. ويستطرد بسمارك قائلاً: .. كانت بريطانيا، وفي جميع الأوقات تبحث وما زالت تبحث عن وسيلة للتأثير علينا من أجل غاياتها، والتي غالباً ما تكون ضد مصلحتنا، وأن تستخدمنا من أجل تعزيز أمنها وتوسيع نطاق قوتها. وفي الآونة الأخيرة بواسطة النساء وبواسطة بنات الملكة فكتوريا وأصدقائها[12].

وأدرك بسمارك أيضاً غاية بريطانيا من اقتراحها أن يقوم الإمبراطور الألماني بدور التحكيم بين بريطانيا وروسيا. فقد قال في نيسان 1888: منذ بداية القرن الماضي، كانت سياسة بريطانيا وبصورة مستمرة، هي زرع الشقاق بين قوى القارة الأوروبية أو إبقاء الفوضى... وهي تستخدم كل قوة ضد الأخرى لكي يتم إضعافها وإلحاق الضرر بها لمصلحة بريطانيا. وكانت هذه الجهود موجهة أولاً ضد فرنسا وثم ضد روسيا... وفي الآونة الأخيرة حاولت استخدامنا ضد الروس الذين أصبحوا يشكلون خطراً عليهم في منطقة البسفور وخطراً كبيراً على حدودهم الهندية وعلى الانسانية والسلام والحرية ـ هذه هي تبريراتهم عندما يفشلون. وفي الواقع، إن من مصلحة بريطانيا أن تكون علاقة الإمبراطورية الألمانية سيئة مع روسيا. فمصلحتنا تتطلب أن نكون على علاقات

(3) Granville to Gladstone, Foreign Office, 11 May 1885, Ibid, No. 1651.
(4) Granville to Gladstone, 18 Carlton House Terrace, 5 May 1885, Ibid., No. 1654.
(5) Count Muster to Count Herbert Bismarck, 4 May 1885, cited in German Diplomatic Documents edited by E.T. Dugdale, Vol.I, (London, 1969), P. 202.
(6) Memorandum by Gladstone, 6 May 1885, P.C.G.G., No. 1646.
(7) Granville to Gladstone, 18 Carlton House Terrace, 5 May 1885, Ibid., No. 1645; Malet to Granville, Berlin; 7 May 1885, Private, P.R.O 30/29/179.
(8) Malet to Granville, Berlin, 6 May 1885, Private and Personal, P.R.O 30/29/179.
(9) Gwynn, S. & Tuckwell, G., The Life of Rt. Hon. Sir Charles W. Dilke, vol. 11, (London, 1917). P. 121.
(10) Ibid.
(11) Granville to Malet, London, 7 May 1885, Private, P.R.O 30/29/179.
(12) Busch, M., Bismarck: Some Secret Pages of His History, Vol, IIII, (London, 1898), PP. 138-40, 180.

جيدة مع روسيا كلّما يسمح الوضع[13].

لقد نجح بسمارك بذرائع شتى في رفض فكرة التحكيم فتارة يزعم تطابق نصوص اتفاقية التحكيم الروسية مع البريطانية. وتارة يخبر بريطانيا بأن روسيا لن تنضم الى بريطانيا في الطلب من الإمبراطور الألماني ان يقبل مهمة التحكيم[14]. هذا، وقد سبق لروسيا أن رفضت فكرة قيام الإمبراطور الألماني بهذه المهمة[15]. صحيح أن روسيا رفضت قيام الإمبراطور وليم الأول بالتحكيم بينها وبين بريطانيا والذي يبدو ناجعاً عن ضغوط ألمانية[16]، إلّا أن رفض المستشار الألماني أن يتولى الامبراطور مهمة التحكيم يعود الى أسباب أخرى. ففي ردّه على الأخبار التي ذكرتها جريدة التايمس البريطانية وبعض الصحف الفرنسية والتي اتهمت المانيا بأنها ترغب في رؤية اندلاع حرب بين بريطانيا وروسيا، وأن المانيا عملت على القضاء على أي أمل في التوصل الى السلام، أخبر بسمارك الإمبراطور الألماني في السابع والعشرين من مارس ما يلي: . . . انه ليس من مصلحة المانيا تثبيط عزيمة روسيا في استخدام جيشها في آسيا بدلاً من اوروبا. فلو لم يرسل الجيش الروسي -الذي بدأ يقاسي منذ عام 1856 من وجوده في المواضيع، وأخذ يميل الى الإرهاب، عام 1877 لقتال الدولة العثمانية - لكان قد تم إرساله لمحاربة النمسا. فالجيش الروسي الذي لم يستخدم، يمثل خطورة لأمن الامبراطورية الروسية وسلامتها وللأسرة الحاكمة. فإن لم يتم استخدامه في آسيا، فإنه يتوجب وبالضرورة استخدامه على الحدود الغربية (أي ضد المانيا). فقبل وقت قصير وعندما ازداد توقع السلام في آسيا، تم تعزيز مواقع المدفعية على الحدود الغربية وتم أيضاً إدامة الحصون والقلاع الواقعة على تلك الحدود. يضاف الى ذلك، فقد عبّرت الصحافة في دول عديدة عن توقعها بأن تسوية النزاع على الحدود الأفغانية ربما يؤدي الى التوصل الى تفاهم وكذلك الى حلف بين بريطانيا وروسيا. ولهذه الأخبار أهمية كبيرة. . . لأن الفكرة التي تدعو الى التوصل الى حلف بريطاني - روسي ينادي بها حزب الجامعة السلافية Pan-Slavist Party الذي يعتمد في سياسته على إعلان الحرب ضد النمسا وبعد ذلك ضد المانيا. ويشكل هذا الحلف جزءاً من برنامج غلادستون والذي يناصر الجامعة السلافية والتطرف، وفي حال تحقيقه، فإن الفرصة ستكون مهيأة لتدعيم هذا الحلف وذلك بانضمام فرنسا إليه مع الافتراض أن السياسة البريطانية - الروسية قد جابهت معارضة المانيا. وسيشكل أساساً للائتلاف ضدنا. لذا، فإن هناك إغراءً ودافعاً أكيداً، يدفع المانيا الى تشجيع العداء بدلاً من تعزيز العلاقات الودية بين بريطانيا وروسيا. . . وتتجنب اتباع أية سياسة قد تؤدي الى تحريرنا للبريطانيين من عداوة روسيا وبذلك نجعلها تعتمد علينا. ولتحقيق هذه النتيجة، فإن أي ضغط مباشر أو غير مباشر على روسيا يفي بالغرض، بل حتى أية توصية ودية تقدمها ألمانيا الى روسيا بهدف الحفاظ على السلام. ومن دون شك فإن روسيا لا تدخل حرباً ضد بريطانيا إذا كانت تتوقع خطراً من المانيا والنمسا. لذا، فإن نتيجة أي اقتراح مهما كانت أهميته تقدمه المانيا الى روسيا سيضطرها الى التوصل الى سلام مع بريطانيا. ولكنها في الوقت نفسه، ستثير عدم ثقة روسيا بنا. . . وبالنهاية ستوجه السياسة الروسية نحو الغرب. لذلك، كنا حذرين في عدم إعطاء أي انطباع أو إشارة صغيرة يمكن أن تصل الى سان بطرسبورغ قد تفسر على أنها ضغط أو إشارة أو تلميح فقط بأن جلالتكم رغب في أن تبقى روسيا في سلام. ومن الصعب جداً مناقشة مثل هذه الرغبة بين دولتين كبيرتين مباشرة أو بصورة غير مباشرة ما لم يتم تطبيق التهديد في حال عدم تنفيذ مثل تلك الرغبة. . . إننا نقوم فقط بواجبنا في الحفاظ على علاقات الامبراطورية الالمانية الودية بنحو جيراننا في الشرق والتي تم استعادتها»[17].

وعلى الرغم من أنّ بسمارك قد أخبر مالت في السابع من مارس - أيار برفض المانيا قيام امبراطورها بمهمة التحكيم بين

(13) Ibid., P. 180.
(14) Malet to Granville, Berlin, 16 May 1885, Private, P.R.O 30/29/179.
(15) Memorandum by Count Herbert Bismarck, 17 May 1885, G.D.D., Vol. I, PP. 203-4; Gwynn & Tuckwell, OP. cit., vol. II, P. 121.
(16) Al-Amir, Y.S., British Reaction to Germany's Ottoman Policy, 1870-1885, unpublished Ph.D. thesis, University of Bradford, 1978, vol. II, P. 587.
(17) Prince Bismarck to the Emperor William I, 27 May 1885, G.D.D., vol. I, P. 206.

بريطانيا وروسيا[18]، كرر غلادستون محاولته من أجل إقناع بسمارك في العدول عن رأيه[19]، ولكن بدون جدوى. وبعد أن أعلنت روسيا أنها تفضل ملك الدانمارك على الامبراطور الالماني، أعلن كرانفيل عن قبوله فكرة قيام ملك الدانمارك بمهمة التحكيم بين بريطانيا وروسيا فيما يخص النزاع بينهما على الحدود الافغانية، وأخبر الحكومة الروسية بالموضوع[20]. وافق غلادستون على ذلك إلا أنه رشح رئيس الولايات المتحدة[21].

وبينما كانت الاتصالات بين بريطانيا وروسيا مستمرة حول الاتفاق على ترشيح حكم بينهما طلبت روسيا إجراء تعديلات على اتفاقية ترسيم الحدود الأفغانية والتي سبق أن تم التوصل اليها في السابع من مارس ـ أيار. فادعى الروس أن الأفغان لا يتمتعون بسيطرة تامة على ممر ذي الفقار. ويشكل هذا الممر، الذي ينحدر من الشرق الى الغرب، أهمية استراتيجية لكل من الهند وأفغانستان وفارس وروسيا. فهو يربط خراسان مع الأجزاء الشمالية والقريبة من أفغانستان وكذلك يربط روسيا ببلاد فارس. فادّعى الروس أنه في حال بقاء ممر ذي الفقار تحت السيطرة الافغانية فإن الأفغان سيقطعون طرق مواصلاتهم. واختلف الطرفان البريطاني والروسي على تحديد منطقة ذي الفقار، أهي قرية أم ممر[22]، وأعلن غرانفيل أنه يرفض إحالة الخلاف البريطاني ـ الروسي على الحدود الأفغانية وخاصة فيما يتعلق بممر ذي الفقار الى تحكيم ملك الدانمارك. فوزير الخارجية البريطاني كان يرى أنه إذا كان ليس بوسع بريطانيا وروسيا اللتين ترغبان في تفادي الصدام العسكري، التوصل الى حل وسط فيما يتعلق بممر ذي الفقار، فكيف يتمكن ملك الدانمارك، الذي لا يعرف أي شيء عن الموضوع، حل هذا النزاع[23]؟

بينما لم يتوقع غلادستون أن يكون موضوع ذي الفقار مشكلة كبيرة. فكان يرى أنه لما كان هدف الروس هو منع الأفغان من قطع مواصلاتهم ولذلك يرفضون إعطاء ذي الفقار الى افغانستان، فإنه يتوجب على الطرفين احترام خطوط مواصلاتهم ويجب عدم إعطاء الطرق الفرعية إلى أحد الأطراف وحرمان الآخر[24].

لم يكن لموضوع ذي الفقار أثر في إبطاء سير المفاوضات بين بريطانيا وروسيا فحسب بل إنه أدى الى توتر العلاقات بين الدولتين، فبدأ كل من غرانفيل ونورث بروك T. North Brook قائد البحرية البريطانية بوضع «الاستعدادات» لحرب بحرية في الشرق الأقصى، ومحاولة إقناع السلطات العثمانية للموافقة على مرور السفن الحربية البريطانية عبر المضائق العثمانية[25]. وقبل أن تسقط حكومة الأحرار بزعامة غلادستون ومجيء حكومة المحافظين برئاسة اللورد سالزبوري Lord R. Salisbury في 12 حزيران 1885، أخبرت الحكومة الروسية بريطانيا بقبولها اقتراح التحكيم في موضوع مسؤولية حادثة البندجه، إلا أنها مازالت ترفض وجهة النظر البريطانية التي تدعو الى إعطاء أفغانستان السيطرة الكاملة على ممر ذي الفقار ذي الاستراتيجية المهمة[26].

لم يحصل حزب المحافظين على أغلبية كبيرة في الانتخابات البريطانية العامة لعام 1885. لذا، كان قرار سالزبوري، وهو في طريقه لمقابلة الملكة فكتوريا، عدم تشكيل الحكومة. غير أن زعيم المحافظين غيّر رأيه بسبب رغبة الملكة بقيامه بتشكيل الحكومة وإصرارها على ذلك، خاصة أن بريطانيا كانت تعاني من مشاكل عديدة على الصعيدين الداخلي والخارجي. فعلى الصعيد الداخلي، كانت هناك المشكلة الإيرلندية ومشكلة الإصلاح البرلماني. أما على الصعيد الخارجي، فإن علاقات

(18) Malet to Granville, Berlin, 16 May 1885, Private, P.R.O. 30/29/179.
(19) Gladstone to Granville, 10 Downing street, 8 May 1885, P.C.G.G., No. 1650.
(20) Granville to Gladstone, Foreign Office, 11 May 1885, Ibid., No. 1652.
(21) Gladstone to Granville, 10 Downing Street, 13 May 1885, Ibid., No. 1656.
(22) Greaves, R.L., Persia and the Defence of India 1884-1892, (London University Press, 1959), P. 80.
(23) Granville to Gladstone, Foreign Office, 29 May 1885, P.C.G.G., No. 1669; Granville to Gladstone, Walmer, 30 May 1885, Ibid., No., 1675.
(24) Gladstone to Granville, Hawarden Castle, 1 June 1885, Ibid., No. 1676,
(25) Lowe, C.J., The Reluctant Imperialists, Vol., I., British Foreign Policy 1878-1902, (London, 1967). PP. 88-9.
(26) Ibid., P. 89

بريطانيا مع الدول الأوروبية في وضع لا يحسد عليه[27]. وقد صور سالزبوري علاقة بريطانيا مع دول القارة الأوروبية خير تصوير بعد رجوعه من مقابلة الملكة فكتوريا. فقد قال إن حكومة الأحرار قد حققت أخيراً رغبتها التي كانت تنشدها دائماً وهي «المحفل الأوروبي» فقد نجحت في توحيد قارة أوروبا ضد بريطانيا[28].

كانت حكومة المحافظين كسابقتها حكومة الأحرار لا تريد الدخول في حرب ضد روسيا بسبب ضعف موقف بريطانيا في آسيا الصغرى. ولم تعتقد، في الوقت نفسه، أن روسيا ترمي الى الدخول في حرب ضد بريطانيا. ومع ذلك، فان الاستعدادات الحربية التي بدأت خلال فترة حكومة الأحرار، استمرت في ظل حكومة سالزبوري. وتعليل زعيم المحافظين لهذه الاستعدادات هو القيام بهذه التحضيرات والرغبة في دخول الحرب لسبب وجيه هو أحسن ضمان ممكن للسلم[29]. لكن الدخول في حرب يعتمد على الوضع الأوروبي العام. فحالما شكل وزارته، أخبر سالزبوري المستشار الألماني بانه وحزبه يريدان (إعادة التفاهم الوطيد الذي كان قائماً بين البلدين والذي نعتبره في غاية الأهمية) ويرغبان أيضاً في التوصل الى تفاهم مع روسيا حول المشكلة الأفغانية. وأوضح رئيس الوزارة البريطانية صراحة أن بريطانيا لا تريد أن تدخل الحرب بسبب هذه المشكلة، أما إذا أجبرت بريطانيا على الدخول في الحرب ضد روسيا لسبب آخر، فإن ذلك يتطلب سنتين حتى يتم إكمال مد سكك حديد الى قندهار Kandahar لأن الوسيلة الوحيدة للرد على الروس، وهي عبور السفن الحربية البريطانية المضائق العثمانية أمر في غاية الصعوبة بسبب العزلة البريطانية في أوروبا[30].

وفي الحقيقة إن تقارب سالزبوري من بسمارك يعود الى عدة أسباب. فرئيس الوزارة البريطانية كان يعتقد بأنه من الممكن أن يتخذ المستشار الالماني موقفاً ودياً من بريطانيا التي باستطاعتها ان تستغل هذا الموقف[31]. يضاف الى ذلك أن الملكة فكتوريا كانت ترى أنه من الضروري «أن نجني ثمار العلاقات الودية مع ألمانيا الى حد بعيد»[32]. علاوة على ذلك نصح السير راندولف تشرشل Sir R. Churchill وزير الدولة لشؤون الهند[33] وكذلك السير وليم وايت Sir W. White السفير البريطاني في اسطنبول والذي كان يثق به سالزبوري بان تتقرب بريطانيا من ألمانيا (قدر الإمكان)[34]. إلا أن أهم الأسباب التي تقف وراء التقارب البريطاني من المانيا هو أن الحكومة البريطانية كانت تحت ضغوط مستمرة من حكومة الهند التي كانت ترى ضرورة أن يشمل ضمان بريطانيا ليس كيان أفغانستان فقط بل يمتد الى بلاد فارس، خاصة بعد ورود معلومات مفادها أن شاه فارس يحاول التقرب من المانيا وأن السفير الفارسي في اسطنبول قد قام بزيارة الى برلين هدفها منح «امتيازات مهمة للرعايا الألمان مشابهة للامتيازات السابقة التي حصل عليها البارون رويتر»[35]. بينما كان زعيم المحافظين يرفض فكرة حكومة الهند ويعتبرها غير عملية، إلا أنه واللورد تشرشل جبذ فكرة الضمان المشترك البريطاني - الالماني لكيان بلاد فارس والتي ستكون من مصلحة الهند التي لا يهمها كيان أفغانستان فحسب بل بلاد فارس أيضاً. فاللورد تشرشل كان يرغب (في أن تقوم المانيا وبريطانيا معاً بضمان كيان فارس، وأن تتم تسوية شاملة في فارس)[36] وكمثال على ذلك، تشكيل شركة دولية مدعمة من قبل بسمارك واللورد روتشيلد Lord N. Rothschild بهدف تنفيذ

(27) Quoted in Lady Cwendolen Cecil, Life of Robert, Marquis of Salisbury, Vol. III, (London, 1932), P. 136.
(28) Salisbury to white, Foreign Office, 11 July 1885, Private, F.O. 364/1.
(29) Greaves, Op. cit., P. 80.
(30) Count Munster to the German Foreign Office, 26 June, 1885, Telegram, G.D.D., Vol. I, P. 207; Count Herbert Bismarck to Count Munster, 29 June 1885, Telegram, Ibid; Count Munster to the German Foreign Office, 29 June 1885, Ibid.; Lord Salesbury to Prince Bismarck, 2 July 1885, Ibid.
(31) Temperley, H. & Penson, L., (eds)., Foundations of British Foreign Policy, 1792-1902, (London, 1966), P. 429.
(32) The Queen to salisbury, 6 October 1885, Private, quoted in Greaves, Op. cit., P. 91.
(33) Ibid., P. 92.
(34) White to Salisbury, Constantinople, 29 September 1885, Private, quoted in Greaves, Op. cit., P. 91.
(35) White to Salisbury, Therapia, 25 June 1885, F.O. 78/3751, No. 299, Confidential.
(36) Count william von Bismarck to Prince Bismarck, London 19 August 1885, G.D.D., Vol., I, P. 210.

امتياز البارون يوليوس رويتر Baron Juluis de Reuter وذلك بمد سكة حديد من الخليج العربي حتى بحر قزوين وكذلك تنفيذ مشاريع الري ومد الطرق وبناء الجسور وخطوط التلغراف[37]. إضافة الى ذلك ان سالزبوري أراد إخبار بسمارك أنه في حالة كون الحرب بين بريطانيا وروسيا أمراً لا مفر منه فإن بريطانيا ستهاجم المضائق العثمانية لتضمن مرور سفنها الحربية عبرها. وأنه من الأحسن تحقيق ذلك بمساعدة بسمارك بدلاً من معارضته[38]. لقد كان سالزبوري مصمماً على أن يحصل على ثقة بسمارك لذلك حاول تحقيق ذلك عندما تبنى موضوع زنجبار وجزر الكارولين Caroline بنفسه[39]. وكخطوة أولى تم إرسال السير فيليب كوري Sir P. Currie الموظف في وزارة الخارجية البريطانية والسكرتير الخاص لغرانفيل سابقاً الى برلين لمقابلة المستشار الالماني وإقناعه بالتوسط بين بريطانيا وروسيا في قضية ممر ذي الفقار، وبذلك (يرسي أسس حلف وثيق وحميم بين البلدين)[40].

ردَّ بسمارك على رسالة سالزبوري المؤرخة في الثاني من تموز 1885، ورأى المستشار الألماني أن (اندلاع حرب بين روسيا وبريطانيا، التي تربطنا معها روابط قرابة وصداقة(!) سيمثل خطراً سياسياً وكارثة كبيرة على مصالح أوروبا المادية)[41]. ان هذا الكلام بعيد عن الحقيقة. فعلى الرغم من أن بسمارك كان يكره غلادستون وكان يخشى (أن تحصل الحركة الجمهورية على اليد الطولى في بريطانيا) وكذلك يخشى من احتمال قيام تحالف بين بريطانيا وروسيا، إلا أن المستشار الألماني كان قد أخبر اومير كلود ويك هوهنلوهي Prince C. Hohenlohe السفير الألماني في باريس (بأن من مصلحتنا أن يبقى غلادستون في الحكم وليس من مصلحة بريطانيا)[42].

ومع ذلك فقد رحب بسمارك بالوزارة البريطانية الجديدة لأن (سالزبوري قد تكلم وبشدة ضد روسيا الى درجة القضاء على أية فرصة من شأنها التوصل الى تفاهم... بين المحافظين وسان بطرسبورغ) لكن بسمارك قد أعلن بأن (سالزبوري لا يلائم أهدافنا وغاياتنا)[43]. ويبدو أن المستشار الألماني كان يدرك آراء رئيس الوزارة البريطانية الرامية الى توريط المانيا في المشاكل القائمة بين بريطانيا وروسيا. علاوة على ذلك، لم يطرأ أي تغيير على موقف بسمارك في تشجيع الحرب بين بريطانيا وروسيا. فقد ذكر في الحديث الذي دار بينه وبين هوهنلوهي في 19 حزيران - يونيو 1885 (بأن خطب المحافظين ستجلب الحرب وهو أمر لا مفر منه، وستكون الحرب من مصلحتنا وسنكسب منها خاصة إذا احتلت روسيا أراض في آسيا والتي ستحول اهتمامها عن النمسا)[44] وقد فند بسمارك بعض الآراء التي ذهبت الى أنه في حال انتصار روسيا على بريطانيا فإنه سينجم (إحساس بالقوة والغطرسة المتميزة، قد يؤدي وبسهولة الى تدخل روسيا في المصالح النمساوية - المجرية في البسفور وفي شبه الجزيرة البلقانية على العموم). فعلّق بسمارك على هذه الآراء بأن روسيا بعد أن ألحقت الهزيمة بالقوات العثمانية خلال الحرب الروسية - العثمانية 1877-1878، احتاجت الى الوقت الكافي لاستعادة قوتها. وحتى (في حال زيادة هيبة روسيا، فإن ذلك لا يخيفه «بسمارك» ولا يؤدي الى اضطراب العالم السلافي)[45]. يضاف الى ذلك أن استراتيجية بسمارك كانت في ذلك الوقت تؤكد

(37) Greaves, Op. Cit., pp., 95-100.

يرجع تاريخ امتياز رويتر الى عام 1877. وفي السنة التالية اعتبرت الحكومة الفارسية الامتياز ملغياً بسبب الضغوط الروسية. وعلى الرغم من ان الحكومة البريطانية لم تعترض على قرار الحكومة الفارسية، الا انها في الوقت نفسه اعتبرت القرار غير شرعي. ويعود ذلك الى ان الحكومة البريطانية ترى أن امتياز رويتر سيكون في صالح بلاد فارس وبريطانيا، وبأن مد سكة حديد بين الخليج العربي وبحر قزوين سيدعم مكانة بريطانيا في آسيا الوسطى. لذلك اعطت بريطانيا تأييداً غير رسمي للبارون رويتر. وعندما حدثت مشكلة البندجة طالب رويتر بالحصول على تعويضات، وهدد ببيع حقوقه الى روسيا والمانيا.

Frechtling, L.E., The Reuter Concession in Asia, Asatic Review, Vol.XXXIV, 1938, pp.518-33.

(38) Lowe, Op. Cit., P. 92.

(39) Greaves, Op.Cit., p.92

(40) Lowe, Op.Cit., Vol.I, P. 90

(41) Prince Bismarck to Lord Salisbury, 8 July 1885, G.D.D., vol. 1, P. 209.

(42) Curtius, F. (ed), Memoris of Prince Chlodwing of Hohenlohe Schillinosfurrst, vol. II, (London, 1906). P. 311.

(43) Busch, Op.cit., Vol. III, P. 143.

(44) Curtuis, Op.cit., Vol. II, P. 316.

(45) Prince Henery of Reuss to Prince Bismarck, Vienna, 6 May 1885, Secret, G.D.D., Vol. I, P. 203.

على إبقاء الدولة العثمانية على الحياد في حال اندلاع الحرب بين بريطانيا وروسيا من أجل أقلمتها ومنع انتشارها الى اوروبا. لذا، فقد كان يؤكد على الصفة الدولية للمضائق العثمانية وضرورة بل وجوب غلقها بوجه السفن الحربية كما نصت عليها الاتفاقيات الدولية[46].

وعند أول مقابلة أجراها الوفد البريطاني مع هربرت بسمارك ابن المستشار الألماني ذكر كوري أن النزاع البريطاني - الروسي على الحدود الأفغانية وخاصة حول ممر ذي الفقار قد وصل الى طريق مسدود. (فالموقف أصبح حرجاً، وأنه في حال عدم التوصل الى تسوية خلال الأشهر القليلة القادمة فإن الموقف قد يؤدي الى قطع العلاقات بين بريطانيا وروسيا، وذلك سيؤدي الى الحرب ليس في آسيا الوسطى فحسب بل في أنحاء العالم كافة حيث بمقدور بريطانيا أن تنزل ضربة قاصمة بغريمتها). وذكر كوري بأن بريطانيا ستركز جهودها الحربية على قطع المواصلات بين روسيا وممتلكاتها في آسيا الوسطى. (ولذلك فإنه يصبح ضرورياً لنا أن نضمن الدخول الى البحر الأسود، وأننا سنقوم بذلك وبدون شك، بطريقة أو بأخرى، مهما كانت وجهة نظر أوروبا كأقلمة الحرب). ولكنْ إذا أريد تجنب الحرب، فإن المستشار الألماني يمكن أن يقوم بدور الوسيط بين الدولتين في ضوء موقف روسيا الذي أعلنته في 16 نيسان بالموافقة على ضم قرية البندجه مقابل التنازل عن ذي الفقار لأفغانستان. فإذا نجح بسمارك في تحقيق هذه التسوية (فإنه بذلك يضع أسس حلف وثيق وحميم بين البلدين). فرئيس الوزارة البريطانية الحالي (معروف بتأييده لمثل هذا الحلف بكل ما تعنيه الكلمة. وفي حال التوصل اليه فإن الشعب البريطاني، يميل بصورةكبيرة نحو حليفه البروتستانتي القديم، وسوف لا يسمح لحكومته، مهما كان الحزب الذي يؤلفها، بالتخلي عنه. والاتحاد الوثيق بين أكبر قوة عسكرية وأكبر قوة بحرية سيؤدي الى إيجاد اتحاد لا يضمن السلام في العالم فقط بل سيكون وبدرجة كبيرة حمايةً لمصالح البلدين. وهو يضع ألمانيا في طمأنينة تامة فيما يتعلق بسلامة ممتلكاتها الاستعمارية في حال التعقيدات الأوروبية وسيجعل بريطانيا قادرة على الدفاع عن مصالحها في حال تعرضها الى اعتداء تقوم به روسيا ضد امبراطوريتها في الهند من دون أن تكون هي المحرضة، وبذلك سوف لا تهتم بموقف الحياد المعادي الذي تتخذه القوى الأوربية).

لقد اعلن هربرت بسمارك عن دهشته لمهمة السير فيليب كوري وتساءل عن سبب عدم اتخاذ الحكومة البريطانية الأسلوب الدبلوماسي عن طريق سفيرها، الذي كان على وشك العودة الى مقر عمله، وبذلك نتعرف على رأي الحكومة الألمانية بشأن القضايا الراهنة. أجاب كوري بأن هذا الاتصال لو تم عن طريق السفارة البريطانية فإنه يتخذ الصفة الرسمية! ويبدو أن الحكومة البريطانية، وخاصة سالزبوري، كانت تهدف الى تحقيق أحد أمرين: الأول هو استخدام علاقات المسؤولين البريطانيين الودية مع هربرت بسمارك ابن المستشار الالماني، وذلك للتأثير على موقف والده تجاه بريطانيا. وبالفعل فقد طلب كوري في اجتماعه الأول مع هربرت أن يستخدم نفوذه لدى والده، إلا أن هربرت رد عليه (بأنه لا يوجد أي شخص قادر على التأثير على والدي) والثاني هو التوصل الى اتفاقية سرية بين بريطانيا والمانيا من دون علم البرلمان البريطاني، علماً أن سالزبوري كان قد وقّع عدة معاهدات سرية من دون علم البرلمان البريطاني عندما كان يشغل منصب وزير الخارجية عام 1878 في وزارة دزرائيلي B. Disraeli.

وعلى كل حال رد هربرت بسمارك على كوري بأنه غير مقتنع باحتمال نشوب الحرب ويعتقد بأنه ليس للروس نوايا في التقدم الى هرات. وأعرب عن شكوكه في قبول الروس فكرة التحكيم في موضوع ذي الفقار (فهي مسألة هيبة. فالامبراطور الروسي أخذ الموضوع على عاتقه. ولأول مرة يحصل على شعبية، لأنه أظهر تصميماً وصلابة أكثر من وزرائه. وهو يزيد الحفاظ على هذه السمعة، وهو أيضاً مزهو بنصره الدبلوماسي). فاعلن هربرت بسمارك (بأن والده قد يرفض قبول مهمة التحكيم خوفاً من سخط الرأي العام في بريطانيا في حال كون القرار في غير صالحهم. أما في روسيا فإن اقتناع الامبراطور ورضاه هما ذات أهمية كبيرة، في حين يوجد في بريطانيا البرلمان والصحافة. لذا، فإن الحلّ الذي

(46) Malet to Salisbury, Berlin, 12 September 1885, Private, F.O. 343/7.

يرضي الحكومة قد يثير هياج الرأي العام). وأخبر هربرت كوري بأنه يعتقد أن رأي والده في التحكيم هو (أنه من الأفضل أن يقوم رؤساء دول صغيرة بمهمة التحكيم بين القوى الكبرى..)[47] واعلن هربرت بسمارك عن دهشته واستغرابه عما ذكره كوري بأن بريطانيا عازمة على فتح المضائق في حالة نشوب الحرب مع روسيا: فقد أخبر كوري بأن المضائق (مغلقة بموجب «معاهدة برلين» 1878، إذ أن أطرافها جميع الدول الأوروبية). فأجابه كوري بأن ذلك لا يتم (في حال دعوتنا من قبل الباب العالي، وأن عليهم أن لا يتوقعوا أن ندخل حرباً وإحدى أيادينا موثوقة خلف ظهورنا)[48].

وفي العاشر من آب ـ أغسطس جاء رد المستشار الألماني عن الاستفسارات البريطانية فقد أخبر هربرت كوري بأن والده (لا يستطيع القيام بمهمة التحكيم ما لم تنضم روسيا الى بريطانيا ويقترحا الفكرة معاً، وهذا أمر غير مرجح لأنه سبق لروسيا أن أعلنت رفضها لقيام المانيا بالتحكيم خلال مناقشات قضية البدنجه). وأوضح بسمارك (أن هدف روسيا في مماطلة المفاوضات هو من أجل كسب الوقت الى حين استكمال استعداداتها العسكرية ومد سكك حديدها. وأنه أكثر اعتقاداً من اللورد سالزبوري بأن روسيا تنوي التوسع في آسيا الوسطى. وفي هذه الحالة فإنها سوف لا تقبل التحكيم الألماني الذي قد يحرمها من الحصول على مكتسبات تريد تحقيقها... ويعتقد الأن أن الحكومة الروسية تميل الى الإسراع في مقاومة النهلستية[49] التي هي في انتشار متزايد في الجيش الروسي. وأن أي إعلان يصرح به.. عن رغبته في القيام بمهمة التحكيم بين بريطانيا وروسيا قد يؤول على أنه ضغط تمارسه ألمانيا على روسيا. وبوسع ملوك الدول الصغيرة أن يقوموا بالتحكيم بين الدول الكبرى، وإلا فإن المهمة ستؤدي الى إراقة الدماء بين الدولة المحكمة والمتنازعين. إن مصلحة المانيا تقضي بأن تكون علاقاتها ودية وجدية مع كل من بريطانيا وروسيا. ومن المؤكد أن التحكيم سيؤدي الى نفور أحدهما أو كليهما. فطرفا النزاع.. مقتنعان بعدالة مطالبهما، والطرف الذي يخسر قضيته يعتقد بأن التحكيم كان مجحفاً. ففي جميع المنازعات بين الدول، فإن الذي يقوم بمهمة التحكيم يقاسي من انزعاج الطرف الخاسر). وأضاف هربرت بسمارك بأن والده يرى (أنه إذا قام بمهمة التحكيم وأصبح التحكيم ضد روسيا، فإن الصحافة الروسية ستشن في الحال حملة عنيفة ضد ألمانيا، وربما يثير عداء روسيا حتى إذا كان القرار في صالحها). وأشار المستشار الألماني الى مؤتمر برلين الذي عقد بعد توصل روسيا الى معاهدة سان ستيفانو مع الدولة العثمانية في آذار 1878 في أعقاب الحرب الروسية العثمانية التي اندلعت بعد إنزال الدولة العثمانية الهزيمة العسكرية بالدويلات البلقانية التي كانت قد انتفضت في عام 1875. فخلال جلسات المؤتمر الذي استمر شهراً واحداً أيّد المستشار الألماني، بل تبنّى جميع المقترحات الروسية. إلا أن الصحافة الروسية شنت حملة ضد بسمارك، فاتهمته بمنع روسيا من الاستمرار في الحرب وتجريدها من مكتسبات جديدة ناشئة عن حرب أخرى ضد الدولة العثمانية. (أما إذا كانت نتيجة التحكيم في غير صالح بريطانيا فإن الرأي العام هناك ربما سيسخط عليها. وهكذا، فإن تحكيمه سيجلب للحكومة البريطانية الحالية الأذى بدلاً من الفائدة... فحكومة غلادستون قد هزمت نتيجة فشل سياستها الخارجية، وأن الحكومة الحالية ستسقط اذا منيت بهزيمة

---

(47) Currie to Salisbury, Hamburg, 4 August 1885, cited in Greaves, Op. cit, PP. 237-9; Copy of paper Shown to Count Herbert Bismarck at Konigstein, 3 August, 1885; Ibid., PP. 239-41.

(48) Currie to Salisbury, Homburg, 7 August 1885, Private, Cited in Ibid., p.241.

لم يعترف رئيس حكومة المحافظين البريطانية بالاتفاقيات الدولية الخاصة بالمضائق العثمانية والتي كانت بريطانيا أحد الاطراف الموقعة عليها، وخاصة الفقرة الخاصة بالمضائق في معاهدة برلين لعام 1878. فقد ذكر سالزبوري في مجلس اللوردات عام 1885 «بأن تعهداتنا فيما يتعلق بالدردنيل هي ليست التزامات ذات طابع اوروبي أو دولي، بل انها تعهدات نحو السلطان (العثماني) فقط» وهذا يعني انه اذا كان السلطان العثماني تحت ضغط من قبل دولة أو دعوة دول ولم يتمكن من التصرف بمحض ارادته «فاننا سنكون في حل من الالتزام الدولي بعدم المرور عبر الدردنيل.

Headlam-Morley, Sir J., Studies in Diplomatic History (London, 1930), p.236.

(49) النهلستية Nihilism برنامج أحد الأحزاب السياسية الروسية في القرن التاسع عشر دعا الى الاصلاح الثوري واتباع الارهاب والاغتيال.

بسبب قضية ذي الفقار[50].

أما فيما يتعلق بفكرة التوصل الى حلف بريطاني ـ ألماني، فإن المستشار الألماني لم يحبذ الفكرة لسببين رئيسيين: الأول، الصداقة بين المانيا وبريطانيا، والحلف، في حال التوصل إليه بين الدولتين، سوف لا يستمر في حال سقوط الحكومة المحافظة الحالية ومجيء حكومة الأحرار بزعامة غلادستون، وكل الأدلة كانت تشير إلى حدوث ذلك قريباً. وبالفعل، شكل غلادستون حكومة جديدة في شباط 1886 فغلادستون، حسب رأي بسمارك (رجل ليست لديه معرفة بالسياسة الخارجية، وأنه من المستحيل التعامل معه)[51]. والسبب الثاني، أن الحلف البريطاني ـ الألماني في حال التوصل إليه كان سيؤدي إلى استياء روسيا. لذا، (فالماء حار جداً ولا نستطيع أن نضع إصبعنا فيه)[52]. وكما أخبر هربرت بسمارك اللورد تشرشل وزير الدولة لشؤون الهند في 19 آب 1885، رداً على استفسار الأخير وطلبه مساعدة المانيا ضد روسيا بأنه (ليس باستطاعتنا أن نضحي بعلاقتنا الجيدة مع روسيا وأن طول حدودنا الشرقية لا تسمح لنا بأن نجازف باستخدام نصف جيشنا في الدفاع عنها بينما نشتبك نحن في حرب ضد الفرنسيين. فيمكننا مواجهة هذا الاحتمال بثقة أكبر لو كانت هناك ضمانات لصداقة بريطانيا. . إلا أن الحكومة البريطانية الحالية ستسقط في الانتخابات القادمة وسنجد انفسنا وخلال ثلاث سنوات وجهاً لوجه مع موقف بريطاني متغير كلياً. وهكذا، وبالنتيجة سنخسر صداقة روسيا، ولا نحصل على صداقة بريطانيا[53].

ولم تلق الفكرة البريطانية الرامية الى ضمان بريطاني ـ الماني مشترك لكيان بلاد فارس تأييد المستشار الألماني. فقد أعلن أن فرنسا وروسيا هما أعداء بريطانيا (وأنه سيساعد بريطانيا ضد فرنسا، وفي حالة تطور الخلافات بين البلدين الى درجة إعلان الحرب فإنه لن يسمح باندلاعها. . . فالحرب بين بريطانيا وفرنسا ليست في مصلحة المانيا فسيضطرب والى الأبد توازن القوى في أوروبا ويمكن أن تجد فرنسا لنفسها حليفاً متمثلاً بروسيا ضد المانيا). أما في حالة اندلاع حرب بين بريطانيا وروسيا فقد وعد بسمارك بأن المانيا ستقف على الحياد وأن المانيا (لا ترغب في الانحياز الى بريطانيا وروسيا في الأمور التي تتصادم فيها مصالحهم)[54].

وهكذا لم تنجح مساعي اللورد سالزبوري في إشراك بل توريط المانيا في المشاكل الاستعمارية بين بريطانيا وروسيا. لذلك تطلب من بريطانيا مواجهة روسيا وجهاً لوجه للدفاع عن المصالح البريطانية في آسيا الصغرى. وحاولت الحكومة البريطانية مرة أخرى معرفة ما إذا جرى تغيير على موقف السلطات العثمانية من المضائق. فقد أخبر السفير البريطاني في اسطنبول الباب العالي بأن البحرية البريطانية أمرت بتوجه السفينة الحربية البريطانية Iris الى ميناء Chanak الواقع في مضيق الدردنيل بحجة التزود بالفحم. إلا أن الباب العالي رفض هذا الطلب وأخبر السفير البريطاني بأن السلطات العثمانية ستمنع أية سفينة حربية أجنبية من الاقتراب من مضيق الدردنيل[55].

إلا أن هذا الموقف قد انفرج عندما جاء الحل من الجانب الروسي، عندما وافق القيصر الروسي الاسكندر الثالث 1881-1895 على الاحتفاظ بقرية البندجه مقابل التنازل لأفغانستان عن ممر ذي الفقار. وهكذا توصل الطرفان البريطاني والروسي الى بروتوكول تحديد الحدود الروسية الأفغانية في العاشر من أيلول 1885. إن الاسباب التي دفعت روسيا الى قبول الموقف البريطاني المتعلق بممر ذي الفقار غير واضحة. فقد تكون ناجمة عن اعتقاد الروس بأن البريطانيين لن يرضخوا لمطاليبهم. أو قد تكون بسبب عدم استكمال استعدادات روسيا للدخول في حرب ضد بريطانيا في آسيا إلا أنه يمكن القول إن موقف روسيا من المشكلة كان متذبذباً بسبب وجود جماعات تختلف وجهات نظرها من الحرب.

(50) Currie to Lord Salisbury, 10 August 1885, Private, cited in Greaves, Op. cit., PP. 243-4.
(51) Notes of Conversations with Prince Bismarck at Friedrichsruh, 28 September, cited in Ibid., P. 246.
(52) Qouted in Lowe, Op. cit., vol. I, P. 91.
(53) Count William to Prince Bismarck, London, 19 August 1885, G.D.D., Vol. I, PP. 209-10.
(54) Notes of Conversations with Prince Bismarck at Friedrichsruh, 28 September, 1985, cited in Greaves, Op. Cit., PP. 246-7.
(55) White to Salisbury, Therapia, 27 August 1885, F.O 78/2752, No. 364.

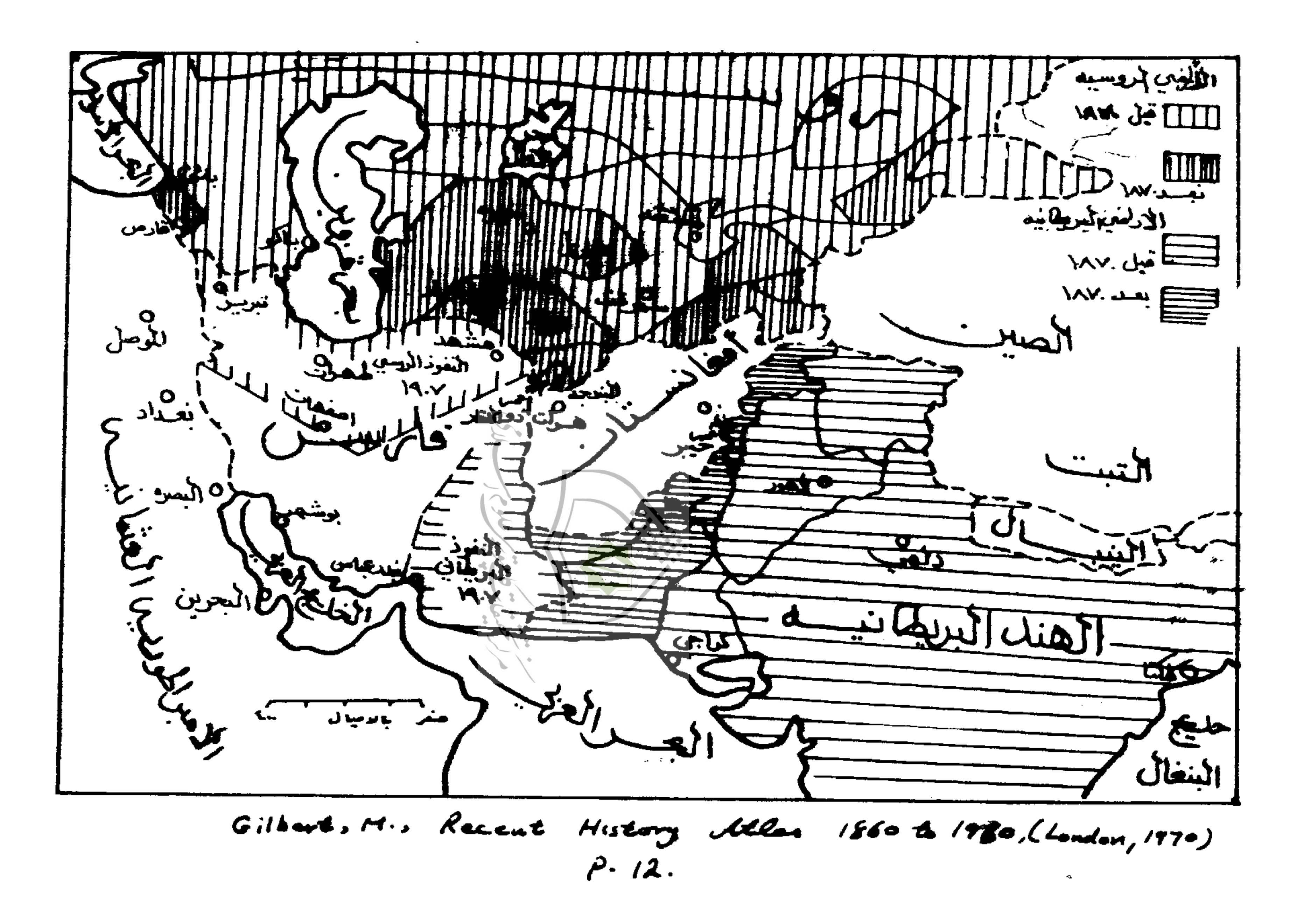
ويبدو أن الجماعات التي كانت ترفض ولا تحبذ دخول روسيا في حرب ضد بريطانيا هي التي أصبحت لها الآن كلمة مسموعة عند القيصر الروسي. وعلى كل حال، فإنه على الرغم من توقيع بروتوكول العاشر من أيلول بين الدولتين، إلا أن مفاوضات تفاصيل الحدود استمرت لمدة سنتين.

يتضح مما سبق أن بريطانيا كانت تحاول تحقيق أهداف معينة عندما اقترحت على المانيا أن تقوم بمهمة التحكيم بينها وبين روسيا في نزاعها على الحدود الأفغانية، وأن تقوم كل من بريطانيا والمانيا بضمان مشترك لكيان بلاد فارس وأخيراً أن يتم التوصل الى عقد حلف بين أقوى قوة بحرية في العالم وبين أقوى قوة برية في العالم. فمن جهة كانت ترمي الى التخلص من عداوة روسيا، ولكن على حساب علاقات المانيا مع روسيا. لذلك رفضت المانيا ليس فقط فكرة التحكيم بل امتنعت عن ممارسة أي ضغط مهما كان نوعه على روسيا خوفاً من أن تفسره الأخيرة على أنه انحياز من قبل المانيا الى جانب بريطانيا. فإذا تردّت العلاقات الالمانية ـ الروسية فإن روسيا ستعيد أنظارها الى أوروبا مرة أخرى، وسيسود التوتر الحدود الالمانية الروسية، وسيخيم شبح الحرب في الجهتين الفرنسية والروسية على المانيا.

وعلى الرغم من تبدل الحكومة البريطانية، حيث سقطت حكومة الأحرار برئاسة غلادستون الذي كان يكنّ له بسمارك الكراهية بسبب اتجاهها الحر وكذلك تقربها من أنصار الجامعة السلافية في روسيا ومجيء حكومة سالزبوري المحافظة التي تظاهرت بصداقتها وعلاقتها الودية مع ألمانيا، على الرغم من هذا التبدل في لندن إلا أن سياسة بريطانيا الخارجية فيما يتعلق بإشراك المانيا في مشاكلها الاستعمارية في آسيا الوسطى لم تتغير بل استمرت. فعندما اقترحت حكومة سالزبوري عقد حلف بريطاني ـ الماني، كان الهدف هو استخدام المانيا ضد روسيا مستغلة حالة التردي في العلاقات بين المانيا وفرنسا. وأن الحجة التي استند عليها بسمارك في رفضه لفكرة عقد الحلف وهي أن مثل هذا الحلف لن يستمر عند مجيء الأحرار الى الحكم ثانية هي تبرير، لأنه لا يوجد دليل يؤيد أن المستشار الالماني كان يريد التحالف مع بريطانيا. بل على العكس فالمستشار الالماني كان يرمي الى عزل بريطانيا، وأنه رفض فكرة الحلف لأنه كان يدرك ان بريطانيا تريد القضاء على العلاقات الودية بين المانيا وروسيا وبالتالي القضاء على تحالف امبراطوريات المانيا والنمسا ـ المجر وروسيا.

وفي محاولة غطاؤها حاجة المانيا الى المستعمرات اقترحت بريطانيا فكرة ضمان بريطاني ـ الماني مشترك لكيان بلاد فارس، أرادت بريطانيا توريط المانيا في هذه البلاد. فغاية بريطانيا من وراء هذا الاقتراح هو إما استخدام النفوذ الالماني ضد النفوذ الروسي، أو التعاون البريطاني ـ الالماني ضد النفوذ الروسي في بلاد فارس، وفي كلا الحالتين فإن ذلك يؤدي الى تصادم بين المانيا وروسيا ويكون له مردود سلبي على وضع المانيا في اوروبا. وهكذا أوضح بسمارك للساسة البريطانيين أنه غير مستعد، ولأي سبب كان لتوريط المانيا في الشؤون الفارسية وأنه غير مستعد لأن يكون بجانب بريطانيا أو روسيا في الأمور التي تتعارض فيها مصالحها.

لقد حاولت بريطانيا، ولكن بدون جدوى، التأثير على موقف بسمارك من العروض البريطانية فتارة تستخدم النساء، كقناة للتأثير البريطاني على المانيا، والمتمثلات ببنات الملكة فكتوريا. وتارة أخرى تحاول استخدام علاقات بعض المسؤولين البريطانيين الودية مع هربرت ابن بسمارك للتأثير على والده. علاوة على ذلك، استخدمت بريطانيا الأساليب غير الرسمية في اتصالاتها مع المانيا من أجل تحقيق غاياتها، إلا أنها باءت بالفشل أيضاً.



Gilbert, M., Recent History Atlas 1860 to 1970, (London, 1970) p. 12.





بحوث التأريخ العربي والاسلامي



الخبر التاريخي
عند مؤرخي المسلمين

أ. د. عبدالمنعم ماجد

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الخبر وجمعه أخبار، لفظة غير واضحة الأصل اللغوي والمعنى؛ فقد يكون أصلها يمنياً جنوبياً، أو عبرياً، وبالأولى عربياً، من فعل خبَر، بمعنى معرفة شيء من الماضي، شاملة الحدث، وغير الحدث، أي ما يطرأ في حياة البشر، وغير ذلك. وقد اعتبر الخبر؛ من علوم العرب قبل الإسلام، مثل: القصص، والأنساب، والشعر وغيرها؛ فالعرب كانت لهم أخبار في الجاهلية.

ولم يكن يوجد في الجاهلية غير الخبر، مصطلحاً؛ ليعني مضمون التاريخ؛ ولا يمكن أن نقول إن العرب قبل الإسلام قد تداولوا علم التاريخ، أو ألّفوا فيه؛ مثلما تداولوه بعد الإسلام، وإنما الذي كانوا يتداولونه هو الأخبار؛ في مواطن الحضر طبعاً.

ولم يكن للخبر قبل الإسلام مظهرٌ كتابي؛ إلّا في النقوش؛ وارتبط أساساً بالرواية الشفوية دائماً؛ وذلك لقلة التدوين، ووجد له رجال متخصصون في معرفته، وساعد على ذلك أن الخبر أصبح من بيْن علوم العرب الأخرى قبل الإسلام، له ميزة المعرفة الواسعة؛ بسبب أن العرب كانت لهم ذاكرة قوية تحفظه؛ لم تتوفر لأي شعب من الشعوب الأخرى غيرهم.

ولما جاء الإسلام، ارتبطت الأخبار به؛ ولاسيما بالحديث النبوي؛ شأن ارتباط أي علم آخر للمسلمين به. وفي الواقع إن الرواة الإخباريين كانوا بالإضافة إلى نقل الحديث؛ ينقلون معه أرضية تاريخية، ولاسيما أن النقل للحديث النبوي، كان يتمشى مع المناخ السياسي الموجود من دولة أموية، ودولة عباسية بعدها. إلّا أنه بسبب قدم الخبر على الحديث النبوي؛ فإنه بقي له كيان خاص، مثلما كان له قبل الإسلام، وظل يعرف بعلم الأخبار، ووجد له متخصصون في نقله؛ فقد وجد ما يعرف: بالتبليغ الخبري[1]، وعرف نقلته بالرواة أو أصحاب الأخبار أو الإخباريون[2]، وكتبهم سميت: كتب الأخبار[3]؛ حتى ان الخليفة معاوية بن أبي سفيان اعتبر الأخبار من علوم الملوك خاصة، ورأى أن الرجل أهم شيء يناله، هو علم الأخبار، وأن غير ذلك فالنتف والشذر[4]، كما عُرف عن أبي جعفر المنصور العباسي أنه كان يعتني بالأخبار المتعلقة بأيام العرب[5].

حقاً إن التاريخ بعد ذلك؛ قد حجب الخبر، كما ضمّ إليه

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ط 1322هـ، ص 23 س 18.

(2) السخاوي، التوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق 1349هـ/1930، ص 48؛ انظر: عبدالحميد العبادي، علم التاريخ، ترجمة وإضافة فصل من التاريخ عند العرب، ص 57.

(3) مثل: الأخبار الطوال؛ لأبي حنيفة الدينوري (ت 895/282).

(4) ابن النديم، الفهرست، Leipzig، 1971، ص 32؛ ياقوت، ارشاد 7 ص 96؛ الكافيجي، نشر روزنتال (ترجمة صالح العلي، بغداد 1963، ص 72 وهامش.

(5) ابن الفقيه، كتاب البلدان، ط. Leyden، 1885، ص 1 وما بعدها.

علوماً أخرى من علوم العرب قبل الإسلام، مثل: الأنساب، وهي العلاقات القبلية والعائلية للشخصيات العربية، التي تتناول شجرة النسب؛ وإن كانت في الحقيقة أخباراً، لم تدوّن إلاّ في الإسلام، أو حتى القصص التي هي أساطير العرب وحكاياتهم قبل الإسلام؛ إلاّ أن الخبر من دونها جميعاً أعتبر أهم شيء بالنسبة للتاريخ؛ فاعتبر له الجذور والعصب، واستمر علم التاريخ يسمّى أحياناً؛ بعد تداوله قروناً؛ علم الأخبار؛ حتى ان مؤرخين فحولاً مثل ابن خلدون، الذي عرّف علم التاريخ بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني[6]، وذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل[7].

ثم إن التاريخ هو الآخر، في أول ظهوره، كان مثل الخبر؛ غير واضح الأصل والمعنى؛ فقد يكون أصل اللفظة يمنياً، أو عربياً؛ بمعنى التعريف بالوقت، أو غير ذلك؛ حيث ينسب إدخاله إلى عمر بن الخطاب، وهو ليس بمؤرخ، وإنما هو خليفة للمسلمين؛ فقد أراد هذا الخليفة أن يعرف التاريخ - التوقيت - في مراسلاته بالسّنة والشهر القمري والليلة؛ مما جعل التاريخ يرتبط بالشؤون الادارية في أول أمره؛ وإن تطور في معناه بعد ذلك.

ومع ذلك؛ فإن التاريخ؛ وإن كان قد حجب الخبر؛ إلاّ أنه كان من الممكن التمييز بين الاثنين دائماً؛ فالخبر هو المادة الساذجة، وهو الحادث أو الواقعة، أو المعلومة المباشرة، بينما التاريخ هو موضوع من عدة أخبار، مع إحساس المؤرخ وفهمه لها، والتعاقب المرتبط بها، وعلى عكس الخبر؛ فإنه يستحسن ألاّ يكون التاريخ هو المعرفة المباشرة؛ للنظر فيه. وحتى في عصرنا الحديث؛ فإن الخبر في كل اللغات، هو غير التاريخ؛ فترجمة الخبر بالفرنسية مثلاً: Information، بينما التاريخ: Histoire.

ولا شك أن أثر المسلمين في تطور الخبر التاريخي واضح ملموس، ظهر فيها سمّوه بالتدوين بالحوليات، جمع حولية؛ وهي طريقة لجمع الأخبار، تُعتبر اتجاهاً عربياً إسلامياً؛ لم يعرف قبلاً؛ عبارة عن تزامن أو معاصرة لمعلومات في الخبر؛ لفترة معينة، تحدد بالسنة. وإن كان بعضها قد يستمر لعدة سنين. فمن قبل كانت شعوب مثل المصريين القدماء، أو اليونان، أو حتى الفرس، الذين أخذ العرب كثيراً من نظمهم في الإسلام؛ لا يرتبون معلوماتهم على حسب السنين[8]، وإنما على حسب الملوك والأسر الحاكمة؛ وكليهما سادة العالم القديم؛ وإن أخذ الفرس المسلمون بعد ذلك في تدوين معلوماتهم بالترتيب التاريخي على السنين. وقد أخذت شعوب غير إسلامية، عن المسلمين، ترتيب المعلومات على السنين، مثل: الإسبان الذين سمّوها المدونات Cronicas، والفرنسيين الذين سمّوها الأنال Annales، بحيث ظهرت لها في فرنسا مدرسة خاصة بها: Ecole des Annales.

فهذا الترتيب على السنين أو الحوليات؛ وهو ليس إضافات من المؤرخ أو فحصاً للأخبار، وإنما المهم فيه هو الخبر؛ حتى لا تُعرض الأخبار عشوائياً[9] وترتبط بعضها ببعض، مع جعلها في حيز واحد؛ مهما تعددت روافدها، باعتبار أن الزمن وعاء لتحرك الإنسان.

وقد كان ترتيب الخبر في الإسلام بترتيب السنين؛ يتمشّى مع الإتجاه الاسلامي، الذي أصبح يهتم بالإنسان؛ بصرف النظر عن أن يكون وارثاً لعرش أو من أسرة نبيلة؛ فيقتصر الخبر عليه. فهذا الترتيب على السنين؛ له إذن فلسفة، فالحولية لا تشتمل فقط على أبناء الصفوة من الناس، وإنما على أخبار كل الناس؛ حتى ان مؤرخاً مثل الجبرتي فيما بعد؛ لا يهتم في تاريخ عصره بالحكام فقط[10]. وإنما يهتم بالشعب أيضاً، فأتى بالحوادث من الحواري والقرى. ويؤيد هذا الاتجاه الانساني في الخبر الإسلامي أيضاً؛ أن الخبر أصبح يمتد إلى بدء الخليقة[11]؛ مما يدل على ارتباط الإنسان بالإنسان؛

---

(6) مقدمة ابن خلدون، ص 27 س 22.

(7) نفسه، ص 25 س 20.

(8) أنظر: روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، مقدمة، ترجمة، ص 106، هونشو علم التاريخ، ترجمه عبدالحميد العبادي، ص 67.

(9) انظر: مؤنس، التاريخ والمؤرخون، عالم الفكر، العدد الأول، 1974، ص 109.

(10) انظر: روزنتال، علم التاريخ، ترجمة، ص 102.

(11) أنظر: ماجد، مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي. تعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومناهجه الحديث، ط 4، القاهرة 1986، ص 37.

مهما امتدت به السنين. حقاً إن الخبر الإسلامي سوف يهتم بالصفوة أحياناً، ولاسيما الملوك؛ ولكن أنّى هذا؛ حينما كان يضعف الاتجاه الإسلامي الديمقراطي؛ ليدخل الخبر في متاهات الشعوبية على الخصوص.

وفي الواقع؛ فإن كبار المؤرخين المسلمين[12]، على حسب قول ابن خلدون؛ قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر[13]؛ بحيث دُوّن في الأخبار أكثر من غيرها[14]. ولا شك أن عصر المؤرخ ابن جرير الطبري؛ اعتبر عصر ازدهار الخبر وهو نفسه اعتبر العمدة في كتابته على ترتيب السنين أو الحوليات، وذاع صيت مؤلفه: تاريخ الرسل والملوك، الذي أصبح يعرف بتاريخ الطبري أيضاً؛ حتى أنه كان يوجد في مكتبة الفاطميين وحدها في القاهرة ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري[15]. كذلك حاول مؤرخون مسلمون آخرون، أتوا بعد الطبري أن يقلدوه، مثل ابن الأثير، الذي سار على نهجه في الأخذ بالترتيب الزمني على السنين أو حتى بالشهر؛ إلّا أنه تفادياً لتقطيع الحادثة؛ فإنه سعى إلى جمعها: «متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض»[16]. ولما تعددت التآليف التاريخية؛ فإن مؤرخاً مثل ابن إياس؛ قص حياة السلاطين المماليك سلطاناً بعد سلطان على ترتيب السنين أيضاً.

حقاً، إن كتابة الخبر التاريخي على السنين، قد ظهرت أول ما ظهرت في العراق؛ ولكن بعد ذلك؛ لما برزت المدرسة المصرية التاريخية في عهد دولة سلاطين المماليك؛ فإنها أوجدت ترتيب الخبر التاريخي على حسب القرون؛ مما يبيّن مجهودها في تطوير ترتيبه؛ باعتبار أن القرون تستوعب عدداً كبيراً من الأخبار، وتتيح فرصة أكبر للإضافات؛ ليست في حوزة الحوليات؛ وإن اختلف لغوياً في تعريف القرن، الذي قد يعني مائة أو ثمانين أو أربعين أو ثلاثين عاماً[17]؛ وهي لفظة وردت في القرآن الكريم مثل السنين؛ بحيث ظهر من مؤرخي المدرسة التاريخية المصرية من تناول بأخباره مائة عام كاملة، مثل عبدالرحمن السيوطي.

والواقع؛ أننا قد نذهل من طريقة جمع مؤرخي الإسلام للخبر التاريخي، ونعجز أحياناً عن تصور كيفية إتمام جمعها؛ إلّا أنها على كل حال، تدل على دأب المؤرخ المسلم غير العادي، ومثابرته، وذاكرته التي لا تكلّ؛ حتى أن الأخبار التاريخية، قد تكتب بأسلوب الشفرة، قصيرة جداً، ودسمة جداً، والسطر الواحد قد يشتمل على أخبار بجزئيات نادرة، تجعل منها أشبه بمتحف ضخم للمعلومات؛ ومثل هذا الجمع للأخبار التاريخية لا يوجد إلّا عند المؤرخين المسلمين وحدهم؛ مما يحيّر الأفكار.

وإذا ما قارنا تفاصيل الأخبار التي في كتب المسلمين، بما كان يوجد في العصور السابقة؛ فإنه من الملاحظ أنها تعددت بشكل كبير، لم يسبق إليه؛ شاملة لنواحٍ متعددة؛ خاصة بطوائف المجتمع، وبالمدن، وبالأسر، وبالأفراد، وبالحروب، وحتى الخبر العلمي والفكري. فقد كان المسلمون أمة متقدمة علمياً وفكرياً، كما اتخذت الأخبار موضوعات متعددة؛ تظهر في أسماء كتب مؤرخي المسلمين، مثل: سير، وأخبار، ومغازي، وتاريخ، وفتوح، ومختصر، وذيل، وشرح، وحاشية، وأنساب، وتراجم، وطبقات، ووفيات، ومعاجم، وغرائب، وتحفة، وعقود، ودُرّ، ونزهة، وروضة، وحديقة، وحسن، وحقائق، وخريدة، وخطط، وغير ذلك.

ومع أن مؤرخاً عربياً، اسمه ابن أبي الربيع (القرن

(12) يسميهم ابن خلدون الإخباريين، ص 11 س 13.

(13) نفسه، ص 2 س 23.

(14) نفسه، ص 3 س 5.

(15) ابن كثير، البداية، 12 ص 266، حوادث سنة 1171/567؛ يقول المقريزي ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري. الخطط، 2 ص 255 ص 12-13. عن الطبري نفسه، انظر: أحمد محمد الحوفي، الطبري، سلسلة أعلام العرب، القاهرة 1963. مثلاً.

(16) ابن الأثير، الكامل، 1348هـ، ص 5 و 6؛ انظر عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون من العرب، الإسكندرية 1981، ص 83؛ طليمات، المؤرخ ابن الأثير، رسالة 1967، ص 53.

(17) لسان العرب، 17، ص 211؛ انظر: روزنتال، علم التاريخ، ترجمة ص 122.

الثاني/9م)[18]؛ قد رأى أن علم الأخبار ينقسم بالأولى إلى أخبار الأنبياء، والأولياء وأخبار الملوك وسياساتهم، وذكر الأول، والحوادث، وأخبار الفضلاء والحكماء والكرماء من سائر الناس وأضدادهم؛ إلاّ أنه من الممكن أن نميز منها أكثرها قبولاً عند مؤرخي المسلمين. فيأتي في مقدمتها، ما اتصل بالحروب والسياسة[19]؛ لأنها صراع الإنسان في سبيل البقاء والأمن[20]. وهو طابع قوي بقي للخبر حتى وقتنا هذا، وكذا ما اتصل بالدولة، وهذا أمر طبيعي؛ فالدولة عند المسلمين، اعتبرت هي التي تدور عليها الحياة؛ ولذلك فكثير من الأخبار يتعلق بالدولة وأحوالها. ولا شك أن الاهتمام بالدولة في الإسلام؛ أصبح أكبر مما كان سابقاً عند الشعوب قبلهم، ولاسيما لما بدأ الحكام يعتمدون على عناصر من الشعوبية؛ بحيث ان التاريخ في أيام المؤرخ السخاوي أصبح يعني تاريخ الأمم[21]؛ كما أن الترتيب الخبري على حسب الملوك كان محبوباً لدى معظم مؤرخي المسلمين، وتفرّغ له كثيرون.

***

وهنا، لا بد من أن نشير في تطوير الخبر التاريخي عند المسلمين إلاّ أنه كان همهم الأول فيه؛ الالتزام بالمعاصرة؛ بنقله من الشاهد العيان، عن طريق السماع والمشاهدة؛ بحكم أن الشاهد العيان يدرك الصورة والزمن. وفي سبيل ذلك؛ التزموا بشرائط في جمعه، ولاسيما إذا كان الخبر ينقل من الذاكرة؛ حيث إن معظم أخبارهم في الجاهلية وصدر الإسلام كانت تنقل من الذاكرة. فلكي ينقلوا الخبر صحيحاً؛ عمدوا إلى نقله عن طريق سلسلة من الحفّاظ، من فلان عن فلان، وهو ما عُرف بالعنعنة أو بالسند أو الإسناد[22]؛ بمعنى رفع القول إلى قائله، وهي طريقة للإجماع على صحة الخبر؛ مقتبسة من طريقة جمع الحديث النبوي؛ مما يبيّن الارتباط بين الخبر التاريخي والحديث النبوي في أول الأمر، وقد سمّى المؤرخون المسلمون فيما بعد هذه الطريقة في جمع الأخبار بالنقل المتواتر[23]، أي الذي لا شبهة فيه.

وبعد انتشار التدوين، وكثرة التآليف التاريخية، ظهر ما عُرف بالتاريخ السندي، أو أسانيد الكتب[24]، بسبب أن المؤرخين المسلمين في أي وقت، لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها أخبارهم؛ فكان حرص المؤرخين المسلمين على ذكر مصادرهم من الكتب إضافة جديدة لإبداعهم في هذا العلم، وهو تطوير واضح في اتجاه الموضوعية التاريخية؛ لا زلنا نقوم به إلى الآن؛ فيما يعرف بالتهميش أو الحواشي.

وفوق ذلك؛ فإن المؤرخين المسلمين، لم يكتفوا باستيعاب الخبر فقط، والالتزام بنقله صحيحاً؛ ولكنهم عمدوا إلى تحري صحة الخبر، فكان هذا الاتجاه يُعتبر مرحلة حاسمة في الخبر الإسلامي، بحيث إن التاريخ لم يعد الخبر وحده، وإنما المؤرخ أيضاً، الذي يفحص الخبر؛ فالمؤرخ لم يعد همزة الوصل بين الخبر وناقله، وإنما أصبح يعالج الخبر في ذاته؛ فالمؤرخ لم يعد همزة الوصل بني الخبر وناقله، وإنما أصبح يعالج الخبر في ذاته؛ مما أوجد ما يُعرف بدور المؤرخ في الخبر، وهو الدور الرئيسي للمؤرخ في تناوله للتاريخ في وقتنا.

ولعل هذا الاتجاه في فحص الخبر لدى المؤرخين المسلمين؛ قد أتى من تنبُّه مدرسة التاريخ المصري بالذات، التي كان لها فضل سابق في ترتيب الخبر على القرون؛ مما دعا مؤرخين كباراً فيها؛ إلى تخصيص كتب قائمة بذاتها عن علم التاريخ الإسلامي، تناولت معظمها ضرورة فحص الخبر التاريخي؛ باعتبار أنه يحتوي الصدق والكذب معاً؛ وبما أن التعليل التاريخي لا يُبنى إلاّ على الحقيقة؛ فإنه لا بد من بيان الكذب فيها؛ فألف ابن خلدون مقدمته، والسخاوي كتابه:

(18) أورده روزنتال، علم التاريخ، ترجمة، ص 57. اعتمد على كتاب سلوك المسالك في تدبير الممالك، طبع القاهرة 1329هـ.
(19) انظر: روزنتال، علم التاريخ، ترجمة، ص 96.
(20) أنظر: حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، عالم الفكر، العدد الأول، 1974، ص 53.
(21) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص 22 و25.
(22) المقدمة، ص 452، س 11؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، استنبول 1311/1893-1894، ص 390-391، 422.
(23) أنظر: ماجد، ذيل على مقدمة، ص 37.
(24) الإعلان بالتوبيخ، ص 13.

«التوبيخ لمن ذم التاريخ»، والسيوطي كتابه: «الشماريخ في علم التاريخ».

فمثلاً ابن خلدون في مقدمته رأى أن الكذب متطرق للخبر بطبيعته[25]، وله أسباب تقتضيه[26]، وخصص فيها فقرات متعددة عن الخبر المكذوب[27]، وعدد منه أنواعاً كالخبر الواهي، والخبر المُغالط فيه، والخبر المُبالغ فيه، والخبر الموضوع أو المدخول، وبخصوص هذا الأخير، يشير إلى الإسرائيليات، التي أصبحت تدس في الأخبار الإسلامية[28]؛ لمقاصد خفية. كذلك سعى ابن خلدون وغيره إلى تحري الأسباب التي تؤدي إلى الكذب في الخبر[29] وعدّدها في الآتي:

1 ـ التشيّعات للآراء، أو المذاهب أو النِحل؛ أي التعصب لها؛ مما يجعل المؤرخ يقبل الخبر لأول وهلة.

2 ـ تقرُّب الناس لما ينقل عن صاحب الخبر؛ بسبب السلطان أو الجاه أو الثراء.

3 ـ الثقة بالناقلين؛ دون فحص أحوالهم.

4 ـ توهم الصدق، والتسرع في قبول الخبر، دون فحص.

5 ـ ضياع القصد من الخبر؛ فكثير من الناقلين لم ينقلوا عن الشاهد العيان، العارف بحقيقة الخبر، أو له قصد في ذلك.

6 ـ الجهل بطبيعة الأحوال والواقع.

7 ـ الجهل بطبائع العمران؛ بحيث إن الناس قد تقبل الأخبار المستحيلة[30]، غير الحقيقة في دنيا المنطق.

ومن ناحية أخرى؛ فإن مؤرخي المدرسة المصرية، الذين اهتموا اهتماماً خاصاً بفحص الخبر في ذاته، قد وضعوا للخبر شرائط، حتى يكون صادقاً، وركزوا على الآتي:

1 ـ تمحيص الخبر من داخله؛ بالأقوال المقنعة[31]، ولذلك هاجم ابن خلدون المؤرخين الأوائل لاعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه أو سمعوه أو نقلوه، وعدم تأمل حقيقة الخبر في ذاتها ومناقشتها، إذ في رأيه أن التحقيق عن صحة الخبر قليل، والتنقيح في الغالب قليل[32]؛ وأراد أن يضع للخبر الصادق قانوناً، سمّاه قانون المطابقة[33]، أي مطابقة الخبر للواقع، وبالتوافق أي بضرورة موافقة الخبر للاستنتاجات والمفاهيم المسلّم بها.

3 ـ تعديل النقلة للخبر، على أساس أن أفضل الأخبار هي ما نُقل من الشاهد العيان؛ وذلك بمعرفة مدى جديتهم، وأمانتهم في النقل، وهو ما أطلق عليه التعديل والتجريح[34]، بحيث يطبق على سند الخبر، ما كان يطبق على الحدث النبوي.

3 ـ الخبر النافع؛ وإلاّ فلا ضرورة له؛ فالخبر الفعلي، هو الذي تكون له فائدة؛ فالخبر لا ينقل لمجرد أنه خبر؛ إلاّ إذا كانت له أهمية للأجيال الناشئة على حد قول ابن خلدون[35].

فالتاريخ إن تكلم في الماضي؛ فبقصد أن يعيش في حاضر متطور، ونحو مستقبل أفضل، ولذلك لا يرى ابن خلدون أن يورد المؤرخون أخباراً لا تهمّ الأجيال القادمة، ويتساءل ما الفائدة[36].

(25) المقدمة، ص 27 (آخر سطر).
(26) نفسه، ص 28 س 4.
(27) نفسه، ص 16,11,10,9.
(28) نفسه، ص 8، س 23.
(29) نفسه، ص 28.
(30) نفسه، ص 28 س17.
(31) نفسه، ص 30 س 4-5.
(32) نفسه، ص 3 س 1، ص 28.
(33) يفهم ذلك من مضمون كلامه؛ فيقول: الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع؛ لأجل ما بداخلها من التلبيس، والتصنع. نفسه، ص 28 س 7، وما بعدها.
(34) نفسه، ص 29.
(35) نفسه، ص 3 س 25. يقول: يغفلون أمر الأجيال الناشئة.
(36) نفسه، ص 25، س 13-14.

ولسنا نشك في أن مؤرخي الإسلام الحديثين؛ حينما يعرضون لتاريخ الإسلام؛ فإنهم لا يجعلون للشاهد العيان، مكان الصدارة في مصادرهم؛ مع أنه كان المصدر الأول طوال العصور الوسطى، وإنما زاد الاهتمام بمصادر خبرية أخرى؛ لها أهميتها الكبرى في العصر الحديث، لم تكن تدخل في حساب مؤرخي الإسلام القدامى؛ وإن كان المؤرخون المسلمون؛ وعلى رأسهم ابن خلدون قد نبّهوا إليها من قبل[38]؛ إلاّ أنهم لم يستخدموها في أبحاثهم إلاّ في النادر.

فنذكر في إطار تحديث مصادر الخبر في التاريخ الإسلامي؛ استخدام الوثيقة في المقام الأول، وهي تعني شيئاً مكتوباً بطريقة ما صادرة من جهة موثوق بها، حيث أصبحت في وقتنا هذا عماد البحث التاريخي الحديث. ومع أن الرواية العينية أو الوثيقة؛ كلاهما يعتبر منبعاً مباشراً للحقيقة التاريخية؛ إلاّ أن الوثيقة تتفوق على الرواية العينية؛ بسبب أنها لا تحمل عواطف ناقلها، فهي السبيل الأفضل للحقيقة؛ وإن كانت أساساً في الإسلام لم تكتب للتاريخ؛ ولكن لغاية محددة بالأولى إدارية أو قضائية أو حربية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية؛ إلاّ أنها تشتمل على معلومات خبرية مركزة.

ومع ذلك؛ فإن البعض[39] يريد أن يلغي دور الوثيقة الهام في عصرنا، على أساس أنها لا تسعف وحدها على فهم أفضل للحقيقة. ولكن لا شك أن استخدام المؤرخ الإسلامي للوثيقة من شأنه أن يؤدي إلى نتائج هامة، تجعل علم التاريخ الإسلامي يُبحث بنفس المستوى العلمي، الذي يُبحث به في أوروبا في عصرنا. هذا بالإضافة إلى إلقاء أضواء جديدة غير معروفة؛ بسبب أن غالبية الوثائق صادرة من جهات رسمية، وتصحيح معلومات لم تكن تخرج من الرواية التاريخية، أو على الأقل تأييداً لحقائق آتية منها. ثم إن الوثيقة قد لا تكون فقط وثيقة دولة إسلامية، إنما قد تكون أيضاً من وثائق دولة غير إسلامية؛ مما يفتح آفاقاً أوسع أمام البحث التاريخي. ولذلك لا يهتم أن تكون الوثيقة كاملة، أو حتى مبتورة؛ إنما المهم ما هو بداخلها. ولا يعني هذا أن كل وثيقة قد تعطي شيئاً، وإن كان البحث التاريخي قد يستطيع أن يستكمل النقص دائماً.

ولا شك أن الوثيقة توجد بالنسبة للتاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام؛ بسبب أن الدولة الإسلامية تحولت إلى بيروقراطية في تركيبها؛ فقد قامت منها الدواوين، منذ نشأتها، وهي المصالح الحكومية. إلاّ أن وقوع الحروب والانقلابات والفتن في بلاد المسلمين كانت السبب الرئيسي في القضاء على الوثائق في غالب الأحيان؛ إذ لا يزال كثير منها غير معروف بعد[40]، ومع ذلك، فما بقي منها؛ فإن غالبيته لم يُستفد منه بعد[41]؛ بسبب وجوده متفرقاً في أماكن متعددة، أو لا يزال في مضامين الكتب السردية؛ وإن بدىء في استخلاصه وجمعه منها[42]. فقد ورد لنا من وثائق الدواوين نماذج متعددة، بأسماء متعددة، مثل[43]: كتاب، كتب، مكاتبات، رسائل، مراسلات، تراسل، منشآت، مطلقات،

(37) بتفصيل، انظر: ماجد، ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي دراسة لمفهوم التاريخ عند المسلمين، ودور المؤرخ الإسلامي الحديث، القاهرة 1979، ص 43 وما بعدها.

(38) يرى ابن خلدون؛ إنه من الخبر: «تصفحهم لأوراق الدواوين؛ حيث يتثبت منها. المقدمة، ص 16 س 10.

(39) انظر مثلاً: عفت الشرقاوي، أدب التاريخ، ص 16.

(40) أنظر: Eney. de l'Isl, (art Diplomatique) 2 ed, t 2, p. 309.

(41) مثلاً في قسم البردي بالمكتبة الأهلية Mationalbibliotek بفيينا، المعروفة سابقاً باسم: ألبرتينا Albertina، توجد فيها أكبر مجموعة من البرديات، بلغ عددها مائة ألف بردية، منها: 40 ألف بردية بالعربية، كما يوجد أكثر من ربع مليون ورقة مكتوبة بالعربية، تعرف بجنيزة القاهرة، ووثائق أرشيفية بالمعنى الصحيح توجد في أرشيف تركيا، أكثر من نصف مليون وثيقة، ووثائق المكتبات العامة، لاسيما الدول المطلة على البحر الأبيض، وأوراق الوقفيات، والوصايا والعقود والوكالات والبيع والسجلات الشرعية، ومراسم الأديرة، وإجازات الفتوى والتدريس والرواية. انظر: ماجد، ذيل على مقدمة، ص 45-51.

(42) منها: حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهر 1941، ومحمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، بيروت، 1978، وجمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الأول، 1958.

(43) انظر: ماجد، ذيل على مقدمة، ص 45.

إطلاقات، سجل، صك، سند، حجة، ظهير، عقود، مواثيق، منشور، ملطفات، تذكرة، مساحات، فتوى، بواقي، جمعات، أمان، بيعة، عهد، تقليد، تفويض، مرسوم، توقيع، مكوس، هدنة، مهادنة، مناسخة، تسليم، موادعة، مسالمة، مقاضاة، تعزيات، إخوانيات... الخ.

ثم إنه من الممكن أيضاً أن يصل المؤرخ الإسلامي إلى الخبر عن طريق مصادر أخرى غير تقليدية، نبّه إليها البحث التاريخي الإسلامي الحديث؛ تعتبر من أوثق المصادر التاريخية؛ لاحتوائها على المادة الخام الحية النشيطة القابلة للتشكيل، والبعيدة عن المؤثرات والعواطف. ومن الغريب أن استغلالها لم يأت من قبل أصحابها، وإنما أتى من قبل المستشرقين بالذات؛ فنذكر منها الآثار والنقوش الإسلامية والعربية، بما فيها الأوراق البردية، التي ربطت بالخبر قبل الإسلام بفترة طويلة، والمسكوكات وهي العملة والأسلحة والأقفال والمفاتيح والطبل وغيرها، التي تحمل أسماء وألقاب وتواريخ وعقائد وعبارات مناسبة وزخارف؛ وهذه جميعها وإن لم تكن سرداً تاريخياً؛ إلّا أنها الحقيقة Realia الثابتة؛ فضلاً عن أنها دراسات كثيرة ظهرت عنها من قبل متخصصين؛ ولذلك لا يمكن التنازل عنها.

كذلك مؤرخو المسلمين الحديثون، مثل أسلافهم القدامى يدركون أن التاريخ لا يقوم بدون النص المكتوب؛ إلّا أنهم أصبحوا يميزون بين الإنتاج الأصلي لمؤرخي الإسلام القدامى، ينقلون منها أخباراً معاصرة، أو يعتمدون على أخبار معاصرة، ليس من السهل الرجوع إليها، وبين الكتب الحديثة، التي أصبحت تعبّر بالأولى عن وجهة نظر أصحابها.

ولقد أصبح همّ مؤرخي المسلمين الحديثين، إحياء النص القديم، أو ما يسمّى حالياً بالتراث، وذلك بنشره على القواعد المتفق عليها؛ دون الاقتصار على نسخها؛ مثلما كان الحال من قبل، بحيث أصبح إبرازها يُعتبر عملاً قائماً بذاته؛ إذ يبقى النص القديم غير مستعمل إلى أن يظهر المؤرخ الإسلامي الحديث، حيث إن تراثنا المخطوط القديم يبلغ على الأقل ثلاثة ملايين[44] في بلاد العالم. ولذلك ظهرت مجلات خاصة بالتراث[45]؛ بقصد الإعلان عنه.

ومن ناحية أخرى؛ فإن مؤرخي الإسلام الحديثين؛ لا يمكن أن يتجاهلوا مؤلفات قيّمة اهتمت بتاريخ الإسلام، عُرفت في وقتنا بالاستشراق. ولا شك أن المستشرقين ألّفوا في التاريخ الإسلامي كتباً، مبنية على البحث العلمي الصحيح. فضلاً عن أنهم قاموا بتحقيق النصوص التاريخية الإسلامية وغير الإسلامية المتعلقة بتاريخ المسلمين، وأصدروا الدوريات وهي المجلات التاريخية العلمية، التي لم يعرف تأليفها من قِبل المؤرخين المسلمين الأوائل ولم تظهر إلّا في عصرنا الحديث بظهور الصحافة، وهي ذات قيمة كبيرة، لأنها تعتبر الصلة بين الباحثين على مختلف أجناسهم وأماكنهم عن تاريخ المسلمين، بل بعضها يحتوي على أبحاث جديدة. ثم إن المستشرقين ألفوا دائرة المعارف الإسلامية، وهي عمل عظيم جداً. فالمؤرخون الحديثون في الشرق، مطالبون بالإطّلاع على تآليف المستشرقين[46].

وأخيراً، فإنه من الممكن استخدام مصادر أخرى مصورة أو مسموعة تتناسب في تطورها مع عصرنا؛ فالكلمة المطبوعة بدأت تفسح مجالاً للصورة؛ فمخطوطات عربية متعددة مصورة على ميكروفيلم، وهذه من الممكن أن تكون في أرشيفات، وحتى المصادر المسموعة هي الأخرى أصبحت من مصادر التاريخ الإسلامي.

وإجمال القول؛ إن الخبر التاريخي؛ قد تطور على يد مؤرخي المسلمين، وأصبح يتماشى مع تطور المصدر التاريخي في العصر الحديث.

---

(44) انظر: صلاح الدين المنجد، معجم المخطوطات العربية، بيروت 1962، ص 7.

(45) مثل: مجلة معهد المخطوطات العربية، ومجلة المجمع العلمي ببغداد، وصحيفة المعهد الفرنسي، ومجلة المعهد المصري بمدريد، ومجلة التراث العربي بدمشق. ومجلة أخبار التراث العربي... الخ.

(46) انظر: ذيل على مقدمة، ص 55.



عام الرماده والأزمة الاقتصادية سنة 18 هـ / 639 م

د. خالد خليل الظاهر

معهد الدراسات القومية والاشتراكية ـ الجامعة المستنصرية

مقدمة

في مختلف مراحل التاريخ البشري تتعرض الأوضاع الاقتصادية للشعب إلى كثير من الهزات والأزمات وبالأخص تلك المفاجئة والطارئة التي يكون لها أثر خطير بالأخص في العصور التاريخية المبكرة، فلم يذكر التاريخ حالة انكماش أو اختلال في أمور الحياة إلّا ورافقها تدهور في الأوضاع الاقتصادية، وقد حفلت كتب التاريخ العربي الإسلامي بأدلة كثيرة شهدت غلاء الأسعار والقحط ورافقها انتشار الأمراض والأوبئة وفقدان الأمن والنظام.

إن التاريخ العربي الإسلامي يلهمنا بدروس بليغة وسيبقى كذلك قادراً على إلهامنا الدروس الكثيرة إذا ما استلهمنا روحه في حياتنا المعاصرة وفي قدرة الإرادة بالفعل إلى أمام، إن النصوص لا تدرك بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب، وإنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحي وفي دوافعها الإيجابية وتفاعلها مع الواقع لأنها أبعد مدى وأبقى أثراً في الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه ولا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلّا في ضوء ذلك الواقع التاريخي ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم وواقعيتها المستمرة. فقراءة التاريخ تعطي الإنسان دروساً في السيرة والمواعظ وتلقي ضوءاً على الأحداث لاستنباط مواعظ تلك الدروس، فمعرفة تصرف الإنسان صانع بيئته الاجتماعية، وإن حددت طبيعتها، والتي يتعذر على المرء غالباً ما أن يتجاوزها وإن استطاع أن يقلب مظاهرها إلى حد ما[1]، فيلاحظ أن الوضع الاقتصادي ليس هو العامل الوحيد المؤثر وما عداه إلّا نتيجة سلبية، والصحيح هو العكس، حيث إنها حالة متفاعلة ومتبادلة على أساس الضرورة الاقتصادية التي لا تحل نفسها بنفسها وفق أسس البيئة الطبيعية من جغرافية واقتصادية.

إن معرفة ما كانت عليه المجتمعات في الماضي وكيفية تطورها، تبصرنا بالعوامل التي تؤثر فيها والتيارات والقوى التي تحركها وبالدوافع والمصادمات التي تشكلها خاصة كانت أم عامة، بحيث تتناول فيه الطبيعة البشرية في تلك الظروف وهنا تبرز أهمية حياة الشخصية التاريخية التي تعلم الناس دروساً في الحكمة وتدبير الأمور والأحداث.

تعرضت الدول وتتعرض إلى العديد من الأزمات والمشاكل التي تستلزم من القيادات أن تعمل على عبورها وتكريس الجهد للتغلب عليها، فليس من العيب أن تنبت المشاكل على طريق العمل وتثور الأزمات في المجالات الاقتصادية أو الاجتماعية، فاقتحام المشاكل وعبور الأزمات دليل حياة وبشير أمل، أما الوقوف أمام هذه المشاكل فهو الطريق القاتل.

فكان عام الرمادة الذي أصاب الناس فيه بالمدينة المنورة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها. كان الناس بذلك وعمر (رض) كالمحصور عن أهل الأمصار، حتى أقبل بلال بن الحارث المزني وأبلغ الخليفة بأن رسول الله إليه. ليقول له، رسول الله ﷺ «لقد عهدتك كيساً وما زلت على رجل، فما شأنك»[2].

فسنرى كيف كان عام الرمادة، وكيف كانت الإجراءات، وكيف تمّ تجاوز الأزمة؟

أولاً ـ التسمية

تعددت الآراء حول تعليل التسمية التي أطلقها المؤرخون على عام «الرمادة» واقتران تسمية ذلك العام بها، ويكاد المؤرخون يجمعون بأن حلول القحط والجوع والمرض الذي أصاب الحجاز كان سبباً رئيسياً في إطلاق تلك التسمية، ولذلك يرون بأنها سميت بعام الرمادة «لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد» وفي رواية «لأنها تسفي[3] الريح تراباً كالرماد[4]».

وقد أجدب الناس في هذه السنة بأرض الحجاز وحفلت الأحياء إلى المدينة، وقال اليعقوبي (ت، 279) «وأصاب الناس جدب وقحط ومجاعة شديدة في عام الرمادة»[5] فلجأ الناس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) الذي اتخذ من الإجراءات المناسبة لمعالجة الموقف كما سنرى.

إن عام الرمادة وهو العام الثامن عشر من الهجرة. قد أصاب الناس فيه مجاعة شديدة وقحط، حيث سفّت الريح تراباً كالرماد فسمّي لذلك عام الرمادة[6].

ثانياً ـ تاريخ الأزمة

يكاد المؤرخون يجمعون على أن عام الرمادة كان في السنة الثامنة عشرة للهجرة النبوية الشريفة، كما ذهب إلى ذلك محمد بن اسحق (ت، 151هـ) وأبو معشر السندي (ت، 170هـ) واليعقوبي (ت، 279هـ) والطبري (ت، 310هـ) وابن كثير (ت، 774هـ)[7]. وأكد اليعقوبي بأنها كانت أول سنة 18هـ[8]. وقد انفرد سيف بن عمر التميمي المتوفى زمن الرشيد برواية، قال فيها «بأنها حدثت في سنة 17هـ، وأوائل سنة 18هـ»[9]، ويرجح أنها كانت في السنة الثامنة عشرة نظراً لإجماع غالبية الرواة والمؤرخين على ذلك.

ثالثاً ـ أسباب الأزمة

لعلَّ أبرز الأسباب لهذه الأزمة الاقتصادية يتمثل في قلة المطر، وشحّته، كما ذكرت ذلك المصادر[10].

يعلل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) أن إرادة الله تعالى شاءت أنْ تحبس المطر عن الناس بسبب عدم تمسكهم بما أمر به الله تعالى.

فيروى أن أبا عبيدة قد كتب إلى عمر بن الخطاب (رض) «أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب منهم ضراراً وأبو جندل، فسألناهم فتأوّلوا وقالوا: خيّرنا فاخترنا قال: «فهل أنتم منتهون يعني «فانتهوا» فجمع الناس فاجتمعوا على أن يضربوا فيها ثمانين جلدة، ويضمنوا الفسق من تأوّل عليها بمثل هذا، فإن أبى قتل. فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن أدعهم، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، فإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين. فبعث إليهم فسألهم على رؤوس الناس، فقالوا: حرام فجلدهم ثمانين وحدَّ القوم، وندموا على لجاجتهم، وقال: ليحدثن فيكم يا أهل الشام حادث فحدثت «الرمادة»[11].

رابعاً ـ الإجراءات لمواجهة الأزمة

إن جزءاً من قوة الاقتصاد تستمد من قوة النظام السياسي، ويشكل التنظيم عادة وسيلة لضمان بلوغ العمل

(1) أ. ل. راوس، التاريخ أثره وفائدته. ترجمة محي الدين حفني ناصيف. مراجعة د. محمد أحمد اليس. القاهرة 1968، ص 120.
(2) الطبري 98/4، ابن كثير 91/7.
(3) ابن كثير 90/7، الطبري 98/4.
(4) اليعقوبي ـ التاريخ 150/2.
(5) البداية والنهاية لابن كثير 90/7، والكامل لابن الأثير 555/2، وطبقات ابن سعد 340/3، ونهاية الأرب التويري 351/19.
(6) تسفي: والسفي هو اسم كل ـ ما سفت الريح، وسفت الريح التراب تسفيه سفياً، ذرى، وقيل حملته فهو سفي «ابن منظور لسان العرب، 389/14».
(7) الطبري 98/4، ابن كثير 91/7.
(8) اليعقوبي التاريخ 150/2.
(9) الطبري 98/4 ابن كثير 91/7.
(10) الطبري 98/4، ابن كثير 90/7.
(11) الطبري 96/4.

أهدافه، وكذلك فالأمر يتطلب تحفيز كل الأطراف للتفكير بإيجاد الصيغ الأكثر صلاحية في تنظيم العمل وللوفاء بمتطلباته وتحقيق أهدافه وبما يتناسب مع الظروف مرحلياً واستراتيجياً.

تميّز الخليفة عمر (رض) ببراعته وحنكته الإدارية وإحاطته بشؤون الرعيّة بنفسه مباشرة حيث كان يُرى ماشياً في الأسواق[12] ويعسّ بالليل ويضع نفسه في الظروف التي تكفل له أن يعيش ذات الأوضاع التي تحياها الرعيّة فأحسّ بمشاكل الناس ووضع لها الحلول المناسبة، قال ابن منظور: «إنه كان يعسّ بالمدينة أي يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة»[13].

فقد عسّ بالمدينة ذات ليلة في عام الرمادة فلم يجد أحداً يضحك ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ولم ير سائلاً. فقام عمر بإجراءات منها خاصة وأخرى عامة.

1 ـ الإجراءات الخاصة:

فقد اختط عمر (رض) لنفسه منهجاً خاصاً[14]، كي يقتدي به الناس، وهي حياة تتسم بالزهد والتقشف إلى درجة أفقر شخص في المجتمع. ففي عام الرمادة أخذ على نفسه بأن يحيا كما يحيا الناس في ذلك العام الجدب، حيث قال «كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يعنيني[15] ما أصابهم» ويروى[16]: إن عمراً (رض) أتى عام الرمادة أو الربذة[17]، قصعة فيها خبز مفتوت بسمن، فدعا أعرابياً يأكل معه، فجعل الأعرابي[18] يتتبع باللقمة الودك[19] فقال له عمر (رض): كأنك مقفر (من الودك) فقال الأعرابي أجل ما أكلت سمناً (ولا زيتاً) ولا رأيت أكلاً له مذ كذا وكذا قبل اليوم فحلف عمر (رض): لا يأكل سمناً ولا لحماً حتى يحيا الناس من أول ما أحيوا[20].

إن تقشف عمر لم يكن مجرد عبادة وإنما منهجاً للرعية من ناحية ووسيلة للإحساس بمشاكلها من ناحية أخرى، ومبداه في ذلك قوله تعالى ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستعنتم بها﴾[21].

بدأ الخليفة عمر (رض) في معالجة وتعبئة الرعية اقتصادياً لمواجهة الأزمة فبدأ بنفسه أولاً وقبل كل شيء، أدرك منذ اللحظة الأولى خطورة القدوة الحسنة من ولي الأمر، فألزم نفسه أن لا يأكل سمناً ولا سميناً حتى يكشف ما بالناس. فاسودّ لونه وتغير جسمه حتى كاد يُخشى عليه من الضعف.

وخرج عمر (رض) لصلاة الاستسقاء. فنادى في الناس الصلاة جامعة فصلى ركعتين ثم استفتى المسلمين في الأمر بعد أن قال: «نشدتكم الله الذي هداكم هل رأيتم (مني) شيئاً تكرهون، قالوا اللهم لا ولم ذلك؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن مر فقالوا: إنما استبطاؤك في الاستسقاء بنا»[23]، وفي رواية قالوا: «فاستفت بالله وبالمسلمين»[24] فنادى في الناس إلى الاستسقاء وخرج معه العباس (رض) ماشيا فخطب،

---

(12) المنجد في اللغة الطبعة 23 ص 504، ابن منظور لسان العرب 139/6. عس يعس عسساً وعساً، أي طاف بالليل. اعتسى: كشف في الليل على أهل الريبة والشيء طلبه أر قصده بالليل والبلد وطنه وتعرف بالليل العس خبره، العاس عسى وعسيس من يعس جمع العاسر الذين يطوفون ما يربون الناس ويكشفون أهل الريبة.

(13) ابن منظور لسان العرب ج 6 (بيروت، طبعة دار صادر).

(14) تولى عمر (رض) الخلافة وسنه حوالي الخمسين وهي سن تكفل النضج العقلي والمحافظة على قوى الجسم، وسلامة الحواس.

(15) د. سليمان محمد الطاوي: عمر بن الخطاب واصول السياسة والادارة الحديثة دراسة مقارنة، القاهرة، 1976. ص 67.

(16) تاريخ المدينة المنورة، ص 740.

(17) الربذة: الشدة والشر. ابن منظور لسان العرب. بيروت، طبعة دار صادر، ج 3، ج 1.

(18) في طبقات ابن سعد 313/3.

(19) الودك: الدسم من اللحم والشحم وما ينحلب من ذلك (أقرب الموارد ـ القاموس المحيط).

(20) طبقات ابن سعد 313/3.

(21) سورة الأحقاف آية 20.

(22) الاستقساء: هو أن يخرج الناس خارج المدينة ويصلون ويستغيثوا الله ويطلبون العون والرحمة والغفران والرضوان.

(23) ابن الأثير الكامل في التاريخ 556/2-557.

(24) الطبري 99/4.

وأوجز وصلّى ثم جثا لركبتيه. وابتهل إلى الله بالدعاء وقال: «اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا، ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا الغدران»[25].

ويروى أن الخليفة عمر (رض) قال في دعاء الاستسقاء «اللهم إنا نتقرب إليك بعمّ نبيك: اللهم فلا تخيب ظنهم في رسولك»[26].

ويروى أن عمر (رض) خرج يستسقي فلم يزل رافعاً صوته: «اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً حتى أتى المصلى يستسقي ويدعو والناس معه» (فليتنا أياماً) ثم ساقها الله حتى أمطرت البلاد بإذن الله، فاستجاب الله له وللمسلمين فأغاث عباده. فقال عمر حين انزل الله الغيث: «الحمد لله، فوالله لو لم يفرجها الله ما تركت أهل بيت من المسلمين لهم سعة إلّا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكا من الطعام على ما يقيم واحداً»[27].

وهذا قول صريح ومنهج واضح في حياة الأمة ودليل عمل اقتصادي في معالجة الأزمات باشتراك الناس فيما بينهم وبمسؤولية الدولة وتدخلها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ويروى أن عمر (رض) قرأ قوله تعالى ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾[28]، ثم قرأ ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾[29].

2 ـ المراسلات:

لجأ الخليفة عمر (رض) إلى الإنفاق من بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى نفذه. وكتب عمر (رض) إلى ولاته على الأمصار ومنهم أبو موسى أمير البصرة، وعمرو بن العاص بمصر وسعد بالكوفة وأبا عبيدة في الشام (أن يا غوثاه لأمة محمد) فبعث إليه كل واحد منها بقافلة عظيمة.

وذكر سيف عن شيوخه أن أبا عبيدة قدم المدينة ومعه أربعة آلاف راحلة تحمل طعاماً، فأمره عمر (رض) بتفريقها في الأحياء حول المدينة فلما فرغ من ذلك أمر له بأربعة آلاف درهم فأبى أن يقبلها فلحّ عليه عمر (رض) فقبلها[30].

وكتب إليه عمرو بن العاص: قد وجهت السفين تترى بعضها في إثر بعض، وأما ما قام به عمرو بن العاص بإصلاح بحر القلزم (الأحمر) فإنه عمل جبار وهذا ما سوف نتطرق إليه في الفقرة اللاحقة.

3 ـ الإجراءات العامة:

جاء الاسلام للأمة العربية المتميزة بالبساطة والتقشف والبعد عن الانغماس في الترف المادي ويرضى أفرادها بالكفاف، وهي أهم الوسائل التي ساعدتها على قيامها بالمهمة، وبجانب هذا وذاك فإن الله سبحانه وتعالى هيأ لها القيادة والقدوة الحسنة. ومما هو ثابت أن القادة في العالم يختلفون في الطرق التي يلجأون إليها في تصريف الشؤون العامة، ويتأثرون بعوامل عدة. وإن من عوامل النضج السياسي يقتضي الفهم التاريخي الذي من أهم مقوماته أن تفهم تطورات السياسة بعقلية تاريخية، فحاجتنا إلى التاريخ وفائدته كحاجتنا إلى العلوم، وكذلك فوائد التاريخ في بناء وتكوين مستقبل المرء، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متفرعة وحسن نظر وتثبيت يهديان بصاحبها إلى الحق ويجنبان به عن المزلّات والمغالط فالتبصر في ذلك تحكم أصول وقواعد السياسة وطبيعة العمران وأحوال المجتمع الإنساني.

ويروى أن عمرو بن العاص أصلح بحر القلزم (الأحمر) وأرسل فيه الطعام إلى المدينة فصار الطعام بالمدينة كسعر

(25) الطبري 99/4.
(26) اليعقوبي، تاريخ 150/2.
(27) تاريخ المدينة المنورة 739.
(28) سورة نوح الآيات 10, 11, 12.
(29) سورة هود، آية 52.
(30) ابن كثير 90/7.

مصر، ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس البحر مع مقتل عثمان بن عفان (رض) فذلوا وتضاروا[31]. وأجرى عمر (رض) في تلك السنة على عيالات قومه من المسلمين وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال[32].

وجاء كتاب عمرو بن العاص جواباً لكتاب عمر بن الخطاب (رض) في الاستغاثة: إن البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله (ص)، فصب في بحر العرب، فسدّه الروم والقبط فإن أجيب أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر حفرت نهراً وبنيت له قناطر فكتب إليه عمر (رض) أن أفعل وعجّل.

ويروى أن أهل مصر بيّنوا بأنه إن تمّ ذلك فإن فيه انكساراً لخراج مصر وخرابها فكتب عمر (رض) أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها فعالجه عمرو بأن شق القلزم ولم يثر ذلك مصر إلاّ وباء[33].

ويروى أن عمر رضي الله عنه ترك الناس عام الرمادة لم يأخذ منهم الصدقة، فلما كان العام المقبل أرسل إليهم فأخذ عقالين، فقسم فيهم عقالاً وحطّ إلى عمر (رض) عقالاً[34].

ويروى أن عمر (رض) عندما جاء المدينة حاجّاً أتى بمال فقسمه بين فقراء المهاجرين ثم قال: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة، فأعطاهم كلتيهما، والذي نفسي بيده لولا أن الله أغناكم بخزائن من عنده لجعلت آتي الرجل فآخذ فضل ماله من عند فأقسمه بين فقراء المهاجرين»، وأنه قال وهو يخطب الناس «أيها الناس كتب عليكم ثلاثة أسفار، كتب عليكم الحج والعمرة، وكتب عليكم الجهاد، وكتب عليكم أن يبتغي الرجل بماله في وجه من الوجوه في سبيل الله، والمستعين والتصديق، فوالذي نفسي بيده لأن أموت وأن أبتغي بنفسي ومالي في وجه من هذه الوجوه في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت على فراشي ولو قلت إنها شهادة رأيت أنها شهادة[35].

تلك هي القيادة والقدوة الحسنة وذلك هو القرار والإرادة الفاعلة والإجراءات الهادفة في تنظيم شؤون الأمة وإشراف الدولة على حاجة الناس والسهر على أمنهم وراحتهم، وهذا ما تمَّ وحصل في عام الرمادة وحتى ان قضى الله سبحانه وتعالى أمراً مفعولاً فانفرجت الأزمة. تحدث الأمور الطبيعية والحوادث في الدولة وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض فيأخذ بتلافي الأمور وإصلاحها وهذا الذي حصل في عام الرمادة وتلك هي الإجراءات والمواقف.

الخلاصة

فكما أن القانون ظاهرة اجتماعيّة ولكي تفهم ذلك لا بدّ من أن تدرك روح القانون وأعماله على نحو ينبغي تحقيق العدالة من دراسته بوصفه ظاهرة متحركة عبر التاريخ، فبدون ذلك لا تكتمل الصورة ولا تتم المعرفة. وكذلك الحال بالنسبة لما هو ثابت بأن الأزمات الاقتصادية في العالم لها آثارها ونتائجها التي لا يحمد عقباها، والذي أشار إليه التاريخ عن عام الرمادة أنه حصل في الدولة العربية الإسلامية وكان الإجراء الصائب في معالجة الأزمة على المستوى الخاص والعام، وهذا يدل على رضى الأمة عن قيادتها وعن الحنكة وحصافة الرأي للقيادة في معالجة الأزمة وكيف كان دور القدوة الحسنة في البدء بالنفس واشتراك جميع الأمة بالرأي للعمل على تجاوز المعضلة، فالعزم والعمل والتعاون وقوة الرأي والإرادة كانت ولا تزال عوامل شاخصة ومؤثرة في معالجة المواقف.

---

(31) ابن الأثير 557-556/2.

(32) اليعقوبي، تاريخ 150/2.

(33) الطبري 100/4.

(34) «وفي منتخب كنز العمال 398/4 عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب: إن عمر آخر الصدقة عام الرماد: فلم يبعث السعاة، فلما كان قابل، رفع الله ذلك الجدب أمرهم أن يخرجوا فأخذوا عقالين فأمرهم أن يقسموا فيهم عقالاً ويقدموا عليه بعقال» هامش رقم (1) جـ 2 ص 745 تاريخ المدينة المنورة ـ لعمر بن شبه.

(35) تاريخ المدينة المنورة جـ 746-745/2.

قائمة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الدمشقي (ت، 630هـ).
الكامل في التاريخ، ج 2 (بيروت، 1965).
- ابن شبه، أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري (ت، 262هـ).
تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، 2 (جدة، 1983).
- ابن سعد، إمام محمد بن سعد كاتب الواقدين (ت، 230هـ)،
الطبقات الكبرى (ليدن، 1904).
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت، 310هـ)،
«تاريخ الرسل والملوك»، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ج 4، (القاهرة، 1970).
- ابن كثير، عز الدين ابو الغداء (ت، 774هـ).
البداية والنهاية، مطبعة المعارف، ج 7، (بيروت، 1966).
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري.
لسان العرب، بيروت، طبعة دار صادر.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت، 733هـ).
نهاية الارب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة، 1975).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، ت 8 واضح (ت، 284هـ).
التاريخ، بيروت، طبعة دار صادر.

ب ـ المراجع:

- راوس، أ ـ ل:
التاريخ اثره وفائدته، ترجمة محمد الدين حفني ناصيف. مراجعة د. محمد أحمد القسي (القاهرة، 1968).
- طحاوي، د. سليان محمد:
عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة المدنية. القاهرة، 1962.
- المنجد في اللغة، (بيروت، 1975).

نابل من الفتح الاسلامي الى سقوط الدولة الحفصية (1574/981 - 645-646/25)

د. راضي دغفوس

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ الجامعة التونسية

نقع نابل في سهل بين البحر وجبل سيدي عبدالرحمان، في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة الرأس الطيب Cap) (Bon المسماة حالياً الوطن القبلي والتي كان يطلق عليها العرب الفاتحون «جزيرة أبي شريك».

واسم مدينة نابل مشتق من الاسم الإغريقي القديم لها «نيابوليس» ومعناه «المدينة الجديدة» Néapolis ويرجّح جون بول درمون «J. Paul Darmon» في دراسته عن نابل القديمة[1] أن كلمة نابل ما هي إلاّ تعريف لاسم «نيابوليس» القديم عند العامة.

ومما يلاحظ أن مدينة نابل لم تحظ ـ في العهد الإسلامي الوسيط ـ باهتمام العرب المسلمين الذين فتحوا إفريقية والمغرب بكامله بعد عناء كبير ومحاولات عديدة دامت ما لا يقل عن سبعين سنة.

فتح العرب لأفريقية

إذن شرع العرب ـ في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ـ بتوجيه الغارات والسرايا على أطراف أفريقية وقام بهذه المهمة عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي عيّنه عثمان سنة 25/645-46 على ولاية مصر والمغرب[2].

لكن انتصار الجيش العربي الإسلامي على «جرجير» قائد المقاطعة الأفريقية انذاك ـ في معركة «عقوبة» (قرب سبيطلة) سنة 648/28 لم تؤدّ مباشرة إلى فتح البلاد وفرض السيطرة العربية عليها. ذلك لأن الحملة أوقفت ـ بعد عزل ابن أبي سرح. وبقيت «أفريقيا» على حالها ما يقارب عشرين سنة. وهي المدة التاريخية التي دخلت خلالها الخلافة الإسلامية في المدينة في فترة اضطراب وفوضى أدّت إلى قيام ما يسمى بالحرب الأهلية الأولى في الإسلام. وتوقفت إثر ذلك حركة الفتوح[3].

وفي سنة 666/45م أسند الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان قيادة الجيش إلى معاوية بن حدّيج لمواصلة الفتح في اتجاه افريقية. وبعد سلسلة من العمليات العربية ضدّ البيزنطيين تمكّن خلالها ابن حدّيج من الحصول على مغانم كثيرة ونشر السرايا في البلاد عاد هذا الأخير قافلاً إلى مصر سنة 49هـ/669م دون أن يخلّف عاملاً في إفريقيا أو حامية عربية[4].

إنّ الفتح العربي الدائم لأفريقيا لم يتم في الحقيقة إلاّ في عهد عقبة بن نافع الذي شيّد سنة 50 هـ/670 مدينة القيروان ـ ولكنّه عزل سنة 675/55 نتيجة سياسته المتشدّدة

---

(1) انظر: J.P.DARMON: *Les Pavements de la maison de Nymphes à Néapolis*.

(2) انظر ابن عبد الحكم ـ **فتح مصر وأخبارها** ـ ليدن 1920 ـ ص 183 وما بعدها ابن اعثم الكوفي ـ كتاب الفتوح 2 ـ حيدر آباد الدّكن 1969 ـ ص 131... حسن حسني عبدالوهاب ـ **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية**. I، تونس 1972، ص 43 وما بعدها.

(3) انظر: H. DJAIT - La Conquête arabe in «*Histoire Générale de la Tunisie 11, le Moyen âge*, p. 16.

(4) انظر ابن عبدالحكم ـ **المصدر نفسه** ص 193 وما بعدها.

إزاء البربر - ثم في عهد خليفته أبو المهاجر دينار (55-62/655-682) الذي سلك سياسة مرنة إزاء البربر تعتمد الانسجام وتأليف القلوب مع تطبيق مبدأ التقريب بينهم وبين العرب[5].

ومما يذكر أن أبا المهاجر وجّه السّرايا نحو قرطاجنة سنة 59هـ/678 وتونس وفتح من ناحية أخرى «جزيرة شريك» - أي الوطن القبلي - وإذ يشير المؤرخ خليفة بن خياط في حوادث سنة 59[6] إلى أنّ أبا المهاجر «نزل على قرطاجنة والتقى مع الجيش البيزنطي فكثر القتل والجراح في الفريقين وحجز الليل بينهم وانحاز المسلمون في ليلتهم فنزلوا جبلاً في قبلة تونس ثم عاودوهم القتال فحاكوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة» - يعني جزيرة أبي شريك التي تهمنا. يذكر لنا المالكي[7] الحدث بأكثر تفصيل: «خرج أبو المهاجر من مصر سنة 55 هـ بجيوش أهل الشام ومصر إلى افريقية فوصل إلى قرطاجنة، وفيها مجتمع الروم، ويقال «نزل بفحص تونس، ويقال «نزل سبخة وبنى بها، ومنها حارب أهل قرطاجنة وصالحهم، ووجه حنش بن عبدالله الصنعاني بجيش إلى الجزيرة فافتتحها، وكتب إلى أبي المهاجر بذلك، فرحل إليه واجتمع معه وقسم الفيء هنا بين جميع الجيش».

إذن فتحت «الجزيرة» سنة 59هـ في عهد أبي المهاجر دينار عن طريق حنش بن عبدالله الصنعاني أحد التابعين الذي شارك في حركة فتح المغرب وشهد فتح الأندلس واستقرّ في القيروان وتوفي سنة 100.

وقد أعيد عقبة بن نافع ثانية إلى افريقية سنة 62/681 وواصل عمله الحربي بإعداد حملة كبرى قادته حتى سواحل السّوس الأقصى - لكن موته في «تهودة» سنة 63/683 كان بمثابة الهزيمة للعرب المسلمين وبداية عهد «المقاومة البربرية الشديدة» للوجود العربي في إفريقية والمغرب[7 مكرر].

وبعد القضاء على الحركة الزّبيريّة في المشرق سنة 73/692 من طرف عبدالملك بن مروان أرسل هذا الأخير حسّان بن النعمان الغسّاني على رأس جيش مكثف وعهد إليه بولاية المغرب سنة 75/695[8]، وقد تمكّن حسّان من القضاء على المعارضة البربرية بقيادة الكاهنة كما وضع حدّاً للهيمنة البيزنطية في افريقية التي أصبحت - بعد تخريب قرطاجنة واستعادة بقية الحصون من أيدي البيزنطيين - خاضعة بصفة نهائية للسلطة العربية الإسلامية[9].

إذن نلاحظ من خلال هذا العرض السريع لأحداث فتح افريقية من طرف العرب «أنّ جزيرة أبي شريك» التي تهمّنا قامت بفضل مواقعها مثل إقليبية بدور كبير في الصراع العربي البيزنطي، وقد فتحت سنة 59هـ بعد أن قبل البيزنطيون إخلاءها للعرب مقابل توجّههم إلى جزيرة قوسرة.

لكن نابل التي تقع في الجنوب الشرقي لهذه الجزيرة لم يذكرها المؤرخون والجغرافيون إلاّ في فترة متأخرة من العهد الوسيط.

شبه جزيرة أبي شريك في العصر الإسلامي الوسيط

من جملة الجغرافيين العرب الذين اهتموا - في مؤلفاتهم - بشؤون افريقية والمغرب في العهد الوسيط نذكر اليعقوبي صاحب كتاب «البلدان» الاصطخري مؤلف كتاب «المسالك والممالك» وابن حوقل صاحب كتاب «صورة الأرض» والمقدسي مؤلف كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لكن الشيء المؤسف هو أنّهم أهملوا تماماً ذكر «نابل» ولم يتعرضوا في أحسن حال إلاّ إلى ذكر «جزيرة شريك» في العهد الإسلامي.

فهذا اليعقوبي[10] (المتوفى سنة 284/897) يعرّج في حديثه

(5) سعد زغلول عبدالحميد - تاريخ المغرب العربي - الاسكندرية 79 - ص 175 وما بعدها.

(6) خليفة بن خياط - تاريخ 1 ص 215 انظر أيضاً ابن عبدالحكم نفس المصدر ص 198.

(7) المالكي - رياض النفوس -، بيروت 1983، 1 ص 31.

(7 مكرر) ابن عبدالحكم - نفس المصدر ص 198 - سعد زغلول عبدالحميد - نفس المصدر ص 191 وما بعدها.

(8) ابن عبدالحكم - نفس المصدر، ص 200.

(9) انظر هشام جعيط - نفس المصدر بالفرنسية - ص 32 وما بعدها.

(10) اليعقوبي كتاب البلدان - طبعة ليدن، ص 348.

عن القيروان «ومن القيروان إلى الموضع الذي يقال له الجزيرة مرحلة وهي جزيرة أبي شريك موغلة في البحر يحيط بها ماء البحر كثيرة التجارة وفيها قوم من رهط عمر بن الخطاب وسائر بطون العرب والعجم ولها عدّة مدن ليست بالعظام يتفرّق فيها الناس وعاملها ينزل مدينة يقال لها «النواتية» بالقرب من إقليبية التي يركب منها إلى سقلية».

أما الاسطخري[12] فيكتفي بذكر مدن المغرب وافريقية الساحلية المهدية ـ تونس ـ طبرقه إلى جانب مدينة القيروان دون الإشارة إلى الجزيرة ومدنها. ومن جهته يصف ابن حوقل (متوفّى سنة 367هـ/977) الجزيرة بقوله[13] «إقليم له مدينة تعرف بمنزل باشوا واسعة» العمل خصبة أوسع من سوسة على سلطانها دخلاً وأكثر منها جباية وأهلاً ولها كورة تضاف إليه وغير غلّة يعوّل التجار عليها وبها في غير موضع وخمٌ ظاهر الثقل في مياهها ولا يدخلها غريب إلاّ مرض وإذا دخلها السودان صلحوا به وصلحت نفوسهم وطابت بالخدمة قلوبهم وجميع الفواكه بها ولباشوا[14] هذه أسواق في كل شهر تحضر لأيام معروفة».

ويقول المقدسي[15] في حديث عن إقليم المغرب: «وجزيرة أبي شريك في البحر لها اثنا عشر رستاقاً اسم مدينتها منزل باشوا بلاسور بناؤهم مدر وشربهم من آبار منها سقي مزارعهم».

أما البكري (المتوفّى سنة 487هـ/1094) صاحب كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب «وهو جزء من كتاب «المسالك والممالك»، فقد تعرّض بدوره إلى جزيرة أبي شريك[16] وذلك في مناسبتين: الأولى عند حديثه عن تونس وذكر أبوابها «ومنها باب الجزيرة قبلي ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان» والثانية حيث يقول بعد التعرّض إلى المواقع بين تونس وسوسة «وفيما بين سوسة ومدينة تونس جزيرة شريك تنسب إلى شريك العبسي[17] كان عاملاً عليها وأم إقليم جزيرة شريك منزل باشوا وهي مدينة كبيرة آهلة بها جامع وحمّامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب ـ وبجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبيدالله بن سعد بن أبي سرح المغرب وتبادروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها ثم ركبوا منها

---

(11) قام المستشرق روبر برنشفيك بالتعريف بهذه المدينة التي كانت عاصمة الجزيرة في العهد الاسلامي الأول ـ وهي تسمى «نوبة» أو «نوبية».
R. Brunschvic. A propos d'un toponyme tunisien au moyen âge - Nūba. ou Nūbiya - *Revue tunissienne - 1933, pp. 149-153.*
كما ذكرها محمد الطالبي في أطروحته عن **الإمارة الأغلبية** (الطبعة الفرنسية) ص 294 ـ وحدّدها حسن حسني عبدالوهاب (ورقات 1 ص 281) كـ «مرسى حربي في الجهة الغربية من شبه جزيرة شريك ـ كان بالمكان الذي به الآن ضريح سيدي داوود النّوبي وبه المعمل المشهور لصيد سمك التن وتصبيره».

(12) الأصخري ـ **المسالك والممالك** طبعة ليدن، ص 38.

(13) ابن حوقل ـ **صورة الأرض** ـ طبعة ليدن ـ ص 73.

(14) انظر فيما يتعلق بمنزل باشوا دراسة حسن حسني عبدالوهاب في **ورقات 3** ص 327 وما بعدها «**مدائن اضمحلت في البلاد التونسية**» ويحدّد المؤلف مكان المدينة التي خرّبت حسب ما ذكره لنا التيجاني سنة 1186/582 على بعد 7 كلم من الشمال الشرقي لمدينة قرنبالية بين قرية «الأخوين» ومحطة بوعرقوب وتسمى «جديدة»، وقد نشأت المدينة وازدهرت في عهد الدولة الأغلبية ـ ومما يذكر أن منزل باشوا أصبحت عاصمة إقليم الجزيرة مكان «نوبة» التي تبعد عنها 75 كلم جوّا. وذلك في العهد الأغلبيّ لأن نوبة بعيدة عن الطرق الرئيسية في البلاد ولم تعد تلعب دور المرسي الحربي الرئيسي ـ بينما يعتقد حسن حسني عبدالوهاب أن منزل باشوا كانت قرية فلاحية تقع على الجادة الكبرى الرابطة بين الشمال والجنوب فأصبحت عاصمة الاقليم لموقعها الاستراتيجي وصلاحها لأن تكون نقطة مراقبة لطرق المواصلات وهكذا اجتمعت في منزل باشوا الاعتبارات السياسية والاقتصادية والحربيّة ممّا جعل الادارة المركزية تعتمد عليها لمسك زمام الأمور في البلاد». و«كانت توجد قبل قدوم العرب في موقع باشوا مدينة رومانية تسمّى «Ad Marcurium» وظلت باشوا مزدهرة ثلاثة قرون وبدأت في التدهور منذ الغزو الهلالي فأصبحت قوية فقيرة بلا أسوار تحميها».

(15) المقدّسي «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**» ـ طبعة ليدن ـ 228.

(16) البكري ـ **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ـ مكتبة المثنّى بغداد ص 38 و45.

(17) شريك هو والد قرة بن شريك بن مرثد بن حازم العَبْسي القيسي الذي ولي مصر مكان عبدالله بن عبدالملك أخ الخليفة الأموي الوليد سنة 90 (انظر الطبري، تاريخ 4، ص 422 و491) وتوفي سنة 95 أو 96 (طبري 7 ـ 522).

إلى جزيرة قوسرة[18] وهي بين صقلية وافريقية» ويواصل البكري قائلاً: «ومن تونس إلى منزل باشوا هذه مرحلة بينهما كبيرة آهلة كثيرة جليلة مجرّبة النفع».

إذن نفهم من خلال هذه النّصوص الجغرافية التي خصّصها مؤلفوها إلى وصف «جزيرة أبي شريك» أن هذا الإقليم قام بدور هام في فترة الفتح العربي الإسلامي لافريقية حيث إنّ البيزنطيين استعملوه كقاعدة تراجع في البحر أمام تقدّم القوّات العربية الإسلامية وتوغّلها داخل المنطقة.

ومن الناحية العمرانية كانت هذه الجزيرة - في الوقت الذي زار فيه اليعقوبي بلاد المغرب وافريقية - أي في نهاية القرن الثالث الهجري - قبل سقوط الدولة الأغلبية واضطلاع الفاطميين بالحكم في افريقية كانت آهلة بالسكان من مختلف القبائل العربية من قيس ومن اليمن - تبا فيها رهط الخليفة عمر بن الخطاب - وكانت تشمل أيضاً العجم وحتى اليهود[19]. وكانت هذه الجزيرة من الناحية الإدارية والسياسية تحت رعاية والٍ يتبع أمير افريقية، مقرّه مدينة نوبة في القرن الأول والقرن الثاني ثم أصبح في العهد الأغلبي على ما يظهر منزل باشوا. وتذكر لنا المصادر اسم كل من أبي شريك في القرن الأول[20] الذي أعطى اسمه للجزيرة - واسم فضل بن أبي العنبر في العهد الأغلبي في حدود سنة 218[21].

ثم إنّها كانت خصبة وثرية من حيث الإنتاج الفلاحي ونشيطة في الميدان التجاري وهو يرجع إلى موانيها ومراسيها من ناحية وإلى أسواقها في المدن من ناحية أخرى. ونفرض أن نابل كانت ضمن المدن الصغيرة التي اكتفى اليعقوبي بالقول بأنها «مدن غير عظام» بينما قسّم المقدسي الإقليم بكامله إلى 12 رستاقاً[22] لكن أهمّ مدينة في القرنين الرابع والخامس هي بلا شك مدينة منزل باشوا التي لم تكن مسوّرة في عهد البكري رغم أنها كانت آهلة بالسّكان ويوجد بها جامع وحمامات وثلاث رحاب وأسواق[23].

إذن كانت جزيرة أبي شريك - استناداً إلى شهادات كل من المقدسي وابن حوقل والبكري - مزدهرة في العهدين الأغلبي والفاطمي - ويتجلّى هذا الازدهار في مختلف الميادين كما أثبتنا ذلك.

وإذا كانت تسمى هذه المنطقة في القرن الأول «جزيرة أبي شريك» نسبة إلى عاملها شريك العبسي كما أشار إلى ذلك البكري - فالشريف الإدريسي (المتوفّى سنة 560هـ/166) الذي ألّف كتاباً سمّاه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وذلك بطلب من ملك صقلية روجر الثاني - يتعرض في حديثه عن المغرب وافريقية إلى الجزيرة. ويسميها جزيرة باشوا[24] نسبة إلى عاصمتها ويعرّج من ناحيته على ازدهارها مؤكداً بذلك ما ذكره من قبل كل من المقدسي والبكري «وهي أرض مباركة طيبة ذات شجر زيتون وعمارات متصلات وبركات وخيرات وغلّات ومياه ليست بكثيرة الجري على وجه الأرض لكنها ممكنة مياه الآبار وفيها بالجملة نصب زائد وهذه الجزيرة إقليم لها مدينة باشوا ولم يبق الآن منها إلّا مكانها وفيه قصر معمور».

نابل وتطوّرها

يعتبر الجغرافيّ الإدريسيّ أول مؤلف إسلامي ذكر نابل في عرض حديثه عن جزيرة باشوا ووصفها كما يلي: «ومنها قصر

(18) قوسرة هي جزيرة فتحها المسلمون في أيام معاوية بن أبي سفيان وأوّل من غزا قوصرة القائد عبدالملك بن قطن الفهري في ولاية موسى بن نصير لافريقية سنة 707/88 ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة الفهري في مدّة عبدالله بن الحبحاب في حدود سنة 736/118 ويعتقد المؤرخ حسن حسني عبدالوهاب الذي خصّص دراسته عن قوسرة (انظر ورقات 2 - ص 277 وما بعدها) إن هذه الجزيرة المسماة حالياً Bantellarid استولى عليها المسلمون بصفة نهائية سنة 748/130 على يدّ الأمير عبدالرحمان بن حبيب الفهري. وهي تابعة اليوم لايطاليا.

(19) انظر طبقات أبي العرب - ص 69/68 ورياض المالكي جزء 1 ص 336 ترجمة اسماعيل بن رباح حيث جاء «حدّث أبو سليمان ربيعة الجزيري، قال «كنا في الجزيرة على طعام إذ دخل علينا يهودي فدعوناه فجلس يأكل معنا . . . » إلى آخر الحديث.

(20) انظر البكري - نفس المصدر ص 45.

(21) المالكي نفس المصدر جزء 1 ص 335.

(22) المقدسي نفس المصدر، ص 228.

(23) البكري نفس المصدر، ص 45.

(24) الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» انظر الجزء المنشور منه بعنوان «المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» - مطبعة بريل 1864 - ص 118 و 125.

على البحر يسمّى نابل وكان بالقرب من هذا القصر في أيام الرّوم مدينة كبيرة عامرة فخرّبت وبقي الآن مكانها وهي قصر صغير وكذلك قصر توسيهان بالقرب منها أثر مدينة عامرة في أيام الرّوم فخرّبت وبقي مكانها»[25].

نستنتج من خلال هذا الوصف القصير أن نابل القديمة «نيابوليس» كانت من المدن الرومانية الهامة وكانت عامرة إلى نهاية الوجود البيزنطي في أفريقية - أعني إلى نهاية القرن السابع تقريباً - وبداية استقرار العرب في البلاد.

ويُرجع الإدريسي تخريب المدينة إلى فترة الصراع العربي البيزنطي حيث يقول بالحرف الواحد[26]: «ونابل كانت مدينة للرّوم كبيرة جداً عامرة فلما استفتحت الجزيرة في صدر الإسلام استبيحت مصالحها ومحاسنها حتى لم يبق لها رسم ولا أثر إلاّ مكان قصر فقط وبقيت بقايا خرابها دالّة عليها».

إنّ إهمال نابل في المصادر العربية في العصر الإسلامي الوسيط ليس من باب الصدفة بل هو نتيجة خرابها أثناء الفتح، كيف خرّبت المدينة القديمة ولماذا؟ لا تذكر لنا المصادر التاريخية والجغرافية هذا الحدث ولا تبيّن دوافعه - لكن يفهم من رواية الشريف الإدريسيّ:[27] «أن المدينة ربّما خربها البيزنطيون قبل تخلّيهم عنها وعن باقي مدن الجزيرة وارتحالهم إلى جزيرة قوسرة» - وذلك في حدود سنة 59هـ/678 لكنّ هذا الافتراض لا يقبل لأن الروم كان باستطاعتهم تخريب المدن السّاحليّة الأخرى.

إذن بقي احتمال آخر مفاده أن المدينة ربّما خرّبها العرب الفاتحون الذين كانوا يحبّذون الاستقرار في المناطق البعيدة عن السّاحل خشية الأسطول البيزنطيّ الذي ما زال آنذاك يهدّد وجودهم في افريقيّة.

المهم هو أن نابل أصبحت بعد فتح الجزيرة مجرّد قصر على البحر بعد 7 أميال على توسيهان التي كانت بدورها مدينة عامرة ولكنها خربت ولم يبق مكانها في القرن السادس - في عصر الإدريسيّ - إلاّ قصر صغير[28]. وهذا ما يؤكّده لنا ياقوت الحموي (متوفى سنة 1229/626) في معجم البلدان[29] - نقلاً عن السلفي صاحب كتاب «معجم السّفر» (القرن السّابع)[30]: أنشدني أبو العبّاس أحمد بن علي بن عمّار النابلي بالشعر... أحمد هذا كان من أهل القرآن والخير قدم الإسكندرية حاجّاً وقد كتب عني شيئاً من الحديث وسألته عن نابل فقال: إقليم من أقاليم افريقيّة بين تونس وسوسة قال: ومن أهلها ممّن يروي الحديث محمّد بن عبدالحميد النابليّ وأبوه عبدالحميد وعبدالمنعم بن عبدالقادر وأبوه».

ويضيف ياقوت «نابل مدينة قديمة على البحر من الجزيرة بقبلي مدينة تونس حيث كانت مدينة باشوا وكانت عامرة فخربت وبقي منها قصر صغير وأرض كثيرة الخيرات والمرافق»[31].

كيف تحوّلت نابل من مدينة عامرة في العهد البيزنطيّ إلى قصر صغير ثمّ إلى اقليم في العصر الإسلامي؟

إنّ تحوّل المدينة إلى قصر ثمّ إلى إقليم يحمل اسم نابل في القرن السابع/القرن الثالث عشر ربّما له علاقة بالحركة العمرانيّة التي طرأت على كامل المنطقة - جزيرة باشوا - وكان من نتائجها انتشار السّكان واستقرارهم في مختلف المراسي والحصون الواقعة على السّاحل

وفي هذا المضمار نشير إلى ما كتبه التيجاني - عن الجزيرة - أثناء رحلته إلى تونس وطرابلس في بداية القرن الثاني (706-1306-1307/707): «دخلنا بعد الخروج من أرض مرناق في أول أرض الجزيرة المعروفة في القديم بجزيرة شريك[32]... وهذه الجزيرة لم تزل معروفة بالخصب والبركة

(25) الادريسي - نفس المصدر، ص 118.
(26) نفس المصدر - ص 125.
(27) الإدريسي - نفس المصدر - ص 118.
(28) نفس المصدر - ص 118.
(29) ياقوت الحموي - معجم البلدان - بيروت 1957 - ص 249.
(30) السّلفي - معجم السّفر - نشر احسان عبّاس - بيروت 1963، ص 16-17.
(31) ياقوت - نفس المصدر - ص 249.
(32) التيجاني - رحلة - نشر الدار العربية للكتاب - تونس 1981، ص 11 و13.

وهي كما قال الشّريف[33] حين وصفها في كتابه المؤلف للجار: طيّبة مباركة ذات سارات متّصلات، وبركات وخيرات، ومياه وغلّات، وبالجملة ففيها خصب زائد على غيرها من الأرضين. . . » «وكانت جزيرة شريك هذه محتوية على أقاليم كثيرة أعظمها المنزل المعروف بمنزل باشوا وكان بلداً كبيراً آهلاً، به جامع وحمّامات وأسواق عامرة، وهذا المنزل الآن خراب لم يبق منه إلّا مكانه. . . ».

نلاحظ من خلال هذا الوصف أن التّيجاني اتّبع في رحلته - الطريق الرئيسية - الجادة التي تربط بين شمالي وجنوبي إفريقية القديمة وكان يستعملها كلّ من القرطاجنيين والرّومان والوندال والبيزنطيين والعرب[34] - فهو لم يتوقّف في نابل التي تبعد 12 كلم عن بلدة الحمّامات - ولا تقع على طريق الجادّة وهذا هو السبب الأساسي الذي يفسّر سكوت التيجاني عن ذكر نابل كما هو الشأن بالنسبة لبقية الرّحالة مثل العبدوي والحسن الوزّان.

فالعبدري صاحب الرّحلة المغربيّة (حوالى سنة 1289/688)[35] يذكر في طريق عودته من المشرق إلى افريقية وبالتحديد إلى مدينة تونس - بلدة الحمّامات: «وهي مدينة صغيرة مبيضة السّير وليس فيها ما يذكر لفنائها وقلة عمارتها وهي على البحر ولم أدخلها لقلّة تشوقي إليها وما ذكر لي من الضّعف عنها». ولا يتعرّض إلى نابل - أما الحسن الوزّان (توفّي سنة 1550/957) فيتجاهلها هو أيضاً[36].

وبالنسبة للرّحالة المغربي المشهور ابن بطّوطة (متوفّى سنة 779هـ/1377) فهو يذكر - في طريق عودته من مصر إلى تونس حوالى سنة 750هـ/1349 أنه سافر من جربة إلى قابس ثمّ إلى صفاقس ومنها إلى «بليانة» الذي ربّما يكون مرسى نابل كما يُعلّق على ذلك المحقق[37].

إنّ نابل - بعد خرابها في نهاية القرن السابع الميلادي - تحوّلت إلى قصر صغير لا يزال اسمه يطلق على حيّ إلى يومنا هذا، وقد استوجب هذا القصر إنشاء سكني حوله فشيّد أول مسجد أصبح فيما بعد نقطة انطلاق تخطيط المدينة - وممّا يدلّ على تطور نابل العمرانيّ في القرن الثالث عشر الميلادي/القرن السابع - هو شهرة بعض رجالاتها في ميدان علوم القرآن والحديث[38] أحمد بن عمّار النابلي من أهل القرآن والخير - محمد بن عبدالحميد النابلي وأبوه عبدالحميد وعبدالمنعم بن عبدالقادر وأبوه من المحدّثين لكنّ هذا التطوّر تم بصفة تلقائية دون عمليّة تخطيط معيّنة، ويرجع السّبب في ذلك إلى أن نابل تقع في منطقة خصبة غنية من الناحية الفلاحيّة حيث توجد الأشجار المثمرة والزّيتون والغلّات والمياه اللازمة لسقي المزارع - ثم إنها توجد على ساحل البحر قرب نيابوليس القديمة التي وفّرت الحجارة الكافية لبناء البيوت والمنازل والمساجد والأسواق.

إذن أصبح هذا التجمّع البشري في المرحلة الأولى اقرية تطوّرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً فلم تكن نابل إحدى المدن الرئيسية في الجزيرة بل كانت تابعة تدور في فلك عاصمة إقليمية - مدينة نوبة في عصر الولاة تمّ منزل باشوا في العهد الأغلبي والفاطميّ - إلى أن أصبحت في القرن السادس تحمل اسم إقليم - اقليم نابل ممّا يدلّ على أنها شهدت حركة نمو حضاري لا يمكننا - مع الأسف - رسم خطوطه المفصّلة - لقلّة المادّة التاريخية حول ذلك - غير أنه يمكننا أن نستنتج أن الأحياء القديمة هي ما كان بجوار القصر والأحدث هو ما ابتعد عنه.

ويبدو إن نمو المدينة أخذ تدريجياً يتجه غربيّ القصر فأسس حي جديد أطلق عليه اسم «الرّبط» به مسجد جامع عرف عند عامّة الناس باسم «جامع الرّبط» أو «جامع الحنيفة» قد يرجع إلى عهد الدولة الحفصيّة.

(33) المقصود هوالادريسي صاحب نزهة المشتاق، المصدر المذكور أعلاه.
(34) انظر حسن حسني عبدالوهاب ورقات، ص 329.
(35) العبدري - الرحلة المغربية - طبعة الرباط 1968 - ص 239.
(36) الحسن الوزان المعروف تحت اسم Léon L'Africain وصف افريقيا - ترجمة محمد حجّي ومجد الأخضر بيروت 1983.
(37) ابن بطّوطة - رحلة طبعة بيروت 1975 - ص 754.
(38) ياقوت نفس المصدر - ص 248.

ثمّ اتسعت المدينة من الناحية الشرقيّة للقصر وتمّ تشييد مسجد يعرف بالجامع الكبير، وقد استعملت في بنائه مواد جلبت من الموقع الأثري الرّوماني تتمثل في حجارة وأعمدة وتيجان، وفي السنوات القليلة الماضية رمّم هذا الجامع واستبدلت العناصر المعماريّة القديمة بأخرى حديثة، ولم يبق للجامع أي أثر تاريخيّ.

ونظراً لكبر الجامع أحدثت أسواق حوله، أسواق مسقوفة مثل «سوق البلاغجية» وأخرى مفتوحة مثل «سوق الغزل» و «سوق الحدّادين» ويُعَدّ «سوق الجرابة» من أقدم الأسواق على الإطلاق حيث كانت تصنع فيه كل أنواع الأقمشة والملابس والأغطية وهي من الصوف والكتّان.

الخاتمـــة:

يخيّل إلينا أن مدينة نابل في العهد الإسلامي الوسيط - بالرغم من قلّة المادّة التاريخيّة حولها، لها تاريخ حافل بالأحداث والمواقف ربما لا يزال يرقد في بطون المراجع المخطوطة بصفة خاصّة والتي يتعذّر علينا الوصول إليها:

وما هذه الصّفحات إلّا محاولة لإلقاء بعض الضوء عن تاريخ نابل الوسيطي.





الحسن بن عثمان الزيادي
(ت. 242 هـ).
حياته ومكانته العلمية

الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني

قسم الدراسات التاريخية/
معهد الدراسات القومية والاشتراكية
الجامعة المستنصرية

تعد دراسة الرواة الأوائل من المؤرخين العرب من بين الدراسات المهمة في هذا العصر الذي تنطلق فيه الدعوات العربية لإعادة كتابة تاريخ الأمة، لكونهم المنبع الأساسي للمعلومات التاريخية التي أوردتها المصادر التاريخية الكبيرة من طبقة الطبري والذين جاءوا من بعده، ولكونهم كانوا قريبين من رواة أوائل سبقوهم وعاصروا رواة قريبين من الظروف الزمانية والمكانية للواقعة التاريخية التي تحدَّثوا عنها، ولذلك فإن دراسة هؤلاء الرواة تعدّ من بين الدراسات التاريخية الأصيلة والبعيدة عن واقع الدراسات السطحية السردية لوقائع التاريخ، كأنه من خلال معرفتنا لأصل الرواة الأوائل، وشيوخهم وتلاميذهم ومدوناتهم وتوثيقهم نستطيع أن نتعرف على حقيقة المعلومات التاريخية التي أوردوها، والتي وصلتنا من خلال المصادر التاريخية الكبيرة التي في متناول أيدينا؛ ولقد وقع اختياري على موضوع الحسن بن عثمان الزيادي الذي كان من بين المؤرخين الثقات، حيث كان مصدراً مهماً وموثوقاً لعدد من كبار المؤرخين الذين وصلت من خلالهم مروياته، وقد اقتضت ضرورة البحث أن أقسمه الى المباحث الآتية:

1 ـ المبحث الأول: (عصره).

2 ـ المبحث الثاني: (موارد دراسة الحسن بن عثمان الزيادي).

3 ـ المبحث الثالث: اسمه ونسبه.

4 ـ المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه.

5 ـ المبحث الخامس: توثيقه.

6 ـ المبحث السادس: مؤلفاته.

7 ـ وفاته.

وسنتطرق فيما يأتي الى دراسة هذه العناصر الأساسية لترجمة الحسن بن عثمان الزيادي.

أولاً: عصره:

عاصر الحسن بن عثمان الزيادي فترة تاريخية حفلت بأحداث متنوعة ومهمة، حيث عاصر الخلافة العباسية من سنة 160 هـ/776 م، وحتى سنة 242 هـ/858 م، بما في ذلك خلافة المهدي، والهادي، والرشيد وحتى عصر المتوكل على الله، وما رافق ذلك من أحداث سياسية مختلفة والتي شهدت عصر الازدهار الفكري والاقتصادي، وشهدت عصر الاضطراب السياسي المتمثل بالصراع الذي أدّى الى مقتل الخليفة الأمين سنة 198 هـ/814 م[1]، ومن ثم عاصر أكبر أزمة فكرية شهدتها الخلافة العباسية والتي تمثلت بقضية «القول بخلق القرآن» حيث امتحن الحسن بن عثمان الزيادي

---

(1) راجع اليعقوبي، التاريخ، ج2 (بيروت، 1960) 440، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد ابو الفضل ابراهيم، ج 8 (القاهرة، 1976) ص 478-495.

بها سنة 218 هـ، فراوغ في قوله، ولم يعطِ رأياً قاطعاً[2]، كما شهدت الفترة كذلك انتقال العاصمة من بغداد الى سامراء زمن المتوكل على الله (232-247 هـ/847-861 م) وما رافق ذلك من أزمة سياسية تمثلت بتسلط الأتراك على الخلافة، وما نتج عن ذلك من اضطراب سياسي متمثل بظهور ما يسمى بمرحلة السنوات التسع التي ابتدأت بمقتل الخليفة المتوكل، وبداية حكم المنتصر بالله (247-248 هـ/ 861-862 م)، هكذا كان العصر الذي عاصره الزيادي. حيث شهدت السنوات العشر الأخيرة من حياته فترة انتقال مقر الخلافة من بغداد الى سامراء، وما رافق ذلك من تأثيرات عامة وخاصة على مجمل الأوضاع في العراق ومنها الجانب الفكري.

ثانياً: موارد دراسة الحسن الزيادي:

لقد ترجم للحسن بن عثمان الزيادي عدد من المؤرخين، وعلماء الجرح والتعديل، ويتباين حجم تلك المعلومات التي تتحدث عن ترجمته بين الإسهاب والإطناب، كما تتباين من ناحية نوعيتها خاصة وأنها وردت في مصادر متنوعة متباينة، متباينة في زمن تدوينها أيضاً.

ومن أقدم الذين ترجموا له، ابن أبي حاتم الرازي (ت، / 327 هـ)[3] وابن النديم (ت، 377 هـ)، والتنوخي (ت، 384 هـ)[5]، والخطيب البغدادي (ت، 463 هـ)[6]، والسمعاني (ت، 562 هـ)[7]، وابن عساكر (ت، 571 هـ)[8]، والحموي (ت، 626 هـ)[9] وابن الاثير (ت، 630 هـ)[10]، وشمس الدين الذهبي (ت، 748 هـ)[11]، وابن كثير (ت، 774 هـ)[12]، وابن العماد الحنبلي (ت، 1089)[13]، وكتب عنه من المحدثين، الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين[14].

ثالثاً: اسمه ونسبه، ولادته ووفاته:

هو أبو حسَّان الحسن بن عثمان بن حماد بن حسان البغدادي، القاضي وعُرف بالزيادي لكون جدّه تزوج أُمّ ولدٍ كانت لزياد بن أبيه[15] وقال ابن عساكر: «وليس هو من سلالة زياد بن أبيه...»[16].

ولد أبو حسان الزيادي سنة 160 هـ/776 م[17]، وتوفي في شهر رجب سنة 242 هـ/858 م[18]، وبذلك عاش 89 سنة وأشهراً[19].

---

(2) ياقوت الحموي، الإرشاد، باعتناء د. س. مرجليوث، ج 9 (القاهرة، 1925)، 21-24.
(3) ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ج 3 (حيدر آباد، 1952-1956) 25.
(4) ابن النديم، الفهرست (طبعة رضا تجدد، 1971) 123.
(5) التنوخي، نشوار المحاضرة، تحقيق مرغوليوث وآخرون، ج 2 (دمشق، 1930) 234-239، ج 64,65/6.
(6) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 7 (القاهرة، 1349) 356-361.
(7) السمعاني، الأنساب، ج 6 (ليدن، 1912) 146-147، 359-360.
(8) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، نسخة خطية في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، ج 191/4-193.
(9) ياقوت الحموي، المصدر السابق، 18/9-24.
(10) ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، اللباب في تهذيب الأنساب، ج 2، (القاهرة، 1356-1369هـ) 84، الكامل في التاريخ، ج 7 (بيروت، 1965) 82.
(11) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وصالح السَّمر، ج 11 (بيروت، 1982) 496-498.
العبر في خبر من عبر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ج 1 (الكويت، 1960) 437.
(12) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10 (القاهرة، 1358) 344.
(13) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 2 (القاهرة، 1350-1351) 100.
(14) د. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة د. فهمي أبوالفضل، ج 1 (القاهرة، 1971) 506.
(15) الخطيب البغدادي، تاريخ، 356/7، الحموي، الارشاد 18/9، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 416/11.
(16) الحموي، الإرشاد، 24/9، ابن كثير، البداية والنهاية، 344/10.
(17) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 496/11.
(18) الطبري، تاريخ، 208/9، ابن النديم، الفهرست، 123، الخطيب البغدادي، تاريخ، 360/7، الحموي، الإرشاد، 18/9، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 498/11، ابن العماد الحنبلي، شذرات 100/2.
(19) ابن النديم، الفهرست، 123، الخطيب البغدادي، تاريخ، 361/7، الحموي، الإرشاد، 18/9، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 498/11.

رابعاً: شيوخه وتلاميذه:

روى الحسن بن عثمان الزيادي عن عدد من الشيوخ وبالأخص من الكوفة والبصرة، ويبدو أنه زار الشام وذلك من خلال روايته عن عدد من المشايخ هناك وبالأخص في مدينة (دمشق).

ولقد أكد الحموي روايته بالشام عن عدد من المشايخ، عندما قال: «سمع بدمشق عدة من شيوخه»[20].

أما أبرز شيوخه الذين روى عنهم في الكوفة، والبصرة، وواسط، والشام، فيمكن عرضهم كما يأتي:

1 ـ أباه عثمان الزيادي:

أكد ابن أبي حاتم روايته عنه[21].

2 ـ أبو بكر بن أبي الدُنيا:

أكد ابن أبي حاتم روايته عنه[22]، في حين روى هو عن الحسن بن حماد الزيادي، كما أكد ذلك الحموي، والذهبي، وابن كثير[23].

3 ـ شعيب بن صفوان بن الربيع الثقفي الكوفي الكاتب، وهو مقبول[24]، وأكد الخطيب البغدادي، والحموي، والذهبي، سماعه عنه[25].

4 ـ هارون بن عمر الدمشقي، أكد ياقوت الحموي روايته عنه[26].

5 ـ محمد بن اسحاق بن بلال بن أبي الدرداء، أكد الحموي روايته عنه[27].

6 ـ عمر بن سعيد الكوفي (ت، بعد 100) وهو ثقة[28]، وأكد الحموي روايته عنه[29].

7 ـ معروف بن عبدالله الخياط أبو الخطاب الدمشقي (ت، بعد 130) وهو ضعيف[30]، وأكد الحموي روايته عنه[31].

8 ـ حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري (ت، 179) وهو ثقة ثبت[32] وأكد الحموي، وابن العماد الحنبلي سماعه عنه[33].

9 ـ اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزُرقي (ت، 180) وهو ثقة ثبت[34]، وأكد الخطيب البغدادي، والذهبي سماعه عنه[35].

10 ـ الوليد بن محمد الموقري البلقاوي الشامي (ت، 182) وهو ضعيف[36]، وأكد الحموي روايته عنه[37].

11 ـ هشيم بن بشير الواسطي (ت، 183) وهو ثقة ثبت[38]، وأكد الخطيب البغدادي، والحموي، والذهبي

(20) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(21) ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، 25/3.
(22) نفسه، 25/3.
(23) الحموي، الإرشاد، 19/9، الذهبي، سير أعلام، 497/11 ابن كثير، البداية والنهاية، 344/10.
(24) ابن حجر، تقريب التهذيب، 352/1.
(25) تاريخ بغداد، 356/7، الحموي، 19/9، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 497/11.
(26) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(27) نفسه، 19/9.
(28) ابن حجر، تقريب التهذيب 56/21.
(29) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(30) ابن حجر، التقريب، 264/2.
(31) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(32) ابن حجر، تقريب التهذيب، 197/1.
(33) الحموي، الإرشاد، 19/9، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب 100/2.
(34) ابن حجر، تقريب التهذيب، 68/1.
(35) تاريخ بغداد، 356/7، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 496/11.
(36) ابن حجر، تقريب، 335/2.
(37) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(38) ابن حجر، تقريب، 320/2.

سماعه عنه[39].

12 ـ ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزُهري المدني نزيل بغداد (ت، 185) وهو ثقة حجة[40]، وأكد الخطيب البغدادي، والذهبي سماعه عنه[41].

13 ـ عباد بن العوام بن عمر الواسطي (ت، 185) وهو ثقة[42]، وأكد الخطيب روايته عنه[43].

14 ـ جرير بن عبدالحميد الضبّي الكوفي (ت، 188) وهو ثقة صحيح الكتاب[44]، وأكد الخطيب البغدادي، والحموي، والذهبي سماعه عنه[45].

15 ـ إسماعيل بن ابراهيم بن مقسم البصري المعروف بابن عليه (ت، 193) وهو ثقة حافظ[46]، وأكد الخطيب البغدادي سماعه عنه[47].

16 ـ الوليد بن مسلم الدمشقي (ت، 195) وهو ثقة[48]، وأكد الخطيب البغدادي، والذهبي، وابن كثير روايته عنه[49]، في حين أكد الحموي سماعه عنه بدمشق[50].

17 ـ سفيان بن عُيَيْنَة الهلالي الكوفي (ت، 198) وهو ثقة، حافظ فقيه إمام حجة[51]، وأكد الحموي سماعه عنه[52].

18 ـ عمر بن عبدالواحد السلمي الدمشقي (ت، 200) وهو ثقة[53]، وأكد الحموي روايته عنه[54].

19 ـ سعيد بن زكريا القرشي المدائني (ت، بعد 200 هـ) وهو صدوق[55]، وأكد الخطيب البغدادي روايته عنه[56].

20 ـ سليمان بن داود، أبو داود الطيالسي البصري (ت، 204) وهو ثقة حافظ[57]، وأكد الخطيب البغدادي، والحموي روايته عنه[58].

21 ـ محمد بن عمر الواقدي المدني نزيل بغداد (ت، 207) وهو ثقة في التاريخ، متروك في الحديث مع سعة علمه[59]. وأكد الخطيب البغدادي، والذهبي، وابن كثير سماعه عنه[60]، وقال الحموي عن الحسن بن عثمان الزيادي: «كان من أعيان أصحاب الواقدي»[61].

22 ـ الهيثم بن عدي الطائي الكوفي (ت، 209) وهو

(39) تاريخ بغداد، 356/7، الحموي، الإرشاد، 18/9، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 496/11.
(40) ابن حجر، التقريب، 35/1.
(41) تاريخ بغداد، 356/7، سير أعلام النبلاء، 496/11.
(42) ابن حجر، التقريب، 393/2.
(43) تاريخ بغداد، 356/7.
(44) ابن حجر، التقريب، 127/1.
(45) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9، سير أعلام النبلاء 497/11.
(46) ابن حجر، التقريب، 1/65-66.
(47) تاريخ بغداد، 356/7.
(48) ابن حجر، التقريب، 336/2.
(49) تاريخ بغداد، 356/7، سير أعلام النبلاء، 497/11، البداية والنهاية، 344/10.
(50) الحموي، الإرشاد، 19/9.
(51) ابن حجر، التقريب، 312/1.
(52) الإرشاد، 19/9.
(53) ابن حجر، التقريب، 60/2.
(54) الإرشاد، 19/9.
(55) ابن حجر، التقريب، 295/1.
(56) تاريخ بغداد، 356/7.
(57) ابن حجر، التقريب، 323/1.
(58) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9.
(59) ابن حجر، التقريب، 194/2.
(60) تاريخ بغداد، 356/7، سير أعلام النبلاء، 497/11، البداية والنهاية، 344/10.
(61) الإرشاد، 18/9.

ضعيف، وأكد ابن النديم، والحموي روايته عنه[62].

23 ـ يحيى بن ابي زائدة الكوفي (ت، 283) وهو ثقة متقن[63]، وأكد الخطيب البغدادي، والذهبي، سماعه عنه[64].

24 ـ معتمر بن سليمان التيمي البصري (ت، 287) وهو ثقة[65]، وأكد الخطيب البغدادي روايته عنه[66].

25 ـ شعيب بن اسحاق الدمشقي (ت، 289) وهو ثقة[67]، وأكد الخطيب والحموي روايته عنه[68].

26 ـ وكيع بن الجراح الرؤاسي الكوفي (ت، 297) وهو ثقة حافظ عابد[69]، وأكد الخطيب البغدادي، والحموي، وابن كثير، روايته عنه[70].

أما فيما يتعلق بتلاميذه، فلقد روى عنه عدد كبير من الرواة لعلّ من أبرزهم:

اسحاق بن الحسن الحربي، حيث أكد الخطيب، والذهبي، والحموي روايته عنه[71]، ومحمد بن محمد الباغندي، والذي أكد الخطيب البغدادي، والحموي، والذهبي روايته عنه[72]. ومن تلاميذه احمد بن الحسين الصوفي الصغير، والذي أكد الخطيب، والذهبي روايته عنه[73]، وكذلك أبو محمد سليمان بن داود بن كثير، الذي أكد الخطيب والذهبي روايته عنه[74]، وكذلك محمد بن يونس أبو العباس الكديمي، وأكد الخطيب، والحموي، والذهبي، روايته عنه[75]، وكذلك علي بن عبدالله الفرغاني الحافظ، والذي أكد ابن كثير روايته عنه[76].

خامساً: توثيقه:

لقد أشادَ المؤرخون والعلماء بالحسن بن عثمان الزيادي، ولعل من أبرزهم التنوخي (ت، 384 هـ) الذي أشاد به، وبفقهه، وعلمه بالحديث[77]، وقال عنه ابن النديم (ت، 385 هـ): «كان قاضياً فاضلاً ؟بناً ناسباً جواداً كريماً...»[78]، ويعدّ الخطيب البغدادي (ت، 463 هـ) من أبرز الذين أشادوا بالحسن الزيادي، حيث قال عنه: «كان أحد العلماء الأفاضل، ومن أهل المعرفة والثقة والأمانة... وكان صالحاً ديِّناً فهماً، وكانت له معرفة جيدة بأيام الناس... وكان كريماً واسعاً مفضالاً»[79]. وقال ياقوت الحموي (ت، 626 هـ): «كان أديباً فاضلاً نسّابة إخبارياً جواداً كريماً سمحاً»[80]، وأشاد بعلمه الذهبي (ت، 748 هـ)

(62) ابن النديم، الفهرست، 23، الحموي، الإرشاد، 18/9.
(63) ابن حجر، تقريب التهذيب، 347/2.
(64) تاريخ بغداد، 356/7، سير أعلام النبلاء، 497/11.
(65) ابن حجر، التقريب، 263/2.
(66) تاريخ بغداد، 356/7.
(67) تقريب التهذيب، 351/1.
(68) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9.
(69) التقريب، 331/2.
(70) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9، البداية والنهاية 344/10.
(71) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9 سير أعلام النبلاء، 497/11.
(72) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9، سير أعلام النبلاء، 497/11.
(73) تاريخ بغداد، 356/7، سير أعلام النبلاء، 497/11.
(74) تاريخ بغداد، 356/7، السير، 497/11.
(75) تاريخ بغداد، 356/7، الإرشاد، 19/9، الذهبي، تذكرة الحفاظ ج 2 (حيدرآباد، 1955) 193.
(76) البداية والنهاية، 344/10.
(77) نشوار المحاضرة 234/2.
(78) الفهرست، 123.
(79) تاريخ بغداد، 357,356/7.
(80) الإرشاد، 18/9.

فقال: «الإمام العلاّمة الحافظ مؤرخ العصر»[81]، وقال أيضاً: «وكان رئيساً محتشماً جواداً مُمدّحاً كبير الشأن»[82]، وأضاف: «... وكان ثقة إخبارياً مصنفاً كثير الاطلاع»[83]. وقال المؤرخ ابن كثير (ت، 774 هـ): «كان صالحاً ديِّناً...»[84]، وأشاد به ابن العماد الحنبلي (ت، 1089 هـ) فقال: «وكان إماماً ثقة إخبارياً مصنِّفاً كثير الاطلاع»[85]، وأكد ابن العماد منزلته ومكانته العلمية عندما أشار الى أن الإمام الشافعي نزل عليه ببغداد عند زيارته لها[86].

وبذلك يتبين لنا صدق الحسن بن عثمان الزيادي وثقته في ميدان الرواية التاريخية، وهذا مما يؤكد قيمة وأهمية الروايات التاريخية التي أوردها، ويؤكد كونه مصدراً مهماً لعدد كبير من المؤرخين الذين اعتمدوا عليه في رواياتهم.

سادساً: مؤلفاته:

كان الحسن بن عثمان الزيادي من بين المؤرخين الذين صنفوا عدة كتب، وبالأخص في حقل اختصاصهم، ولذلك قال عنه ابن النديم، والحموي: «وكان الزيادي يصنف الكتب، ... وكانت له خزانة كتب حسنة كثيرة، وله عدة كتب...»[87]، وقال الخطيب البغدادي، وابن كثير: «... قد عمل الكتب»[88]، أما الذهبي وابن العماد الحنبلي فقالا: «وكان... مصنفاً كثير الاطلاع»[89].

ان أبرز مؤلفاته كانت في ميدان التاريخ، حيث كان له منهج خاص به، قال الخطيب البغدادي: «... وكانت له معرفة بأيام الناس»[90]، وكان أبو حسان الزيادي يردد ما قاله حسان بن زيد ما نصه: «لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ، نقول للشيخ سنة كم ولدت؟ فإذا أقرّ بمولده عرفنا صدقه من كذبه! قال ابو حسان: فأخذت في التاريخ فأنا أعلمه من ستين سنة»[91].

ومن أبرز كتبه:

1 ـ له «تاريخ حسن» ذكره الخطيب البغدادي، وابن عساكر[92].

2 ـ «التاريخ على السنين» ذكره الخطيب البغدادي، والسمعاني وابن كثير[93].

3 ـ «المغازي» ذكره ابن النديم[94]، ولعلّه رواه عن شيخه الوليد بن مسلم الدمشقي (ت، 195 هـ) والذي تتلمذه عليه وسمع منه، والذي كان له كتاب «المغازي» أيضاً[95].

4 ـ «عروة بن الزبير» ذكره ابن النديم، والحموي[96].

5 ـ «الآباء والأمهات» ذكره ابن النديم، والحموي[97].

6 ـ «طبقات الشعراء» ذكره ابن النديم، والحموي[98].

7 ـ «ألقاب الشعراء» ذكره ابن النديم، والحموي[99].

وبذلك يكون الحسن بن عثمان الزيادي قد ساهم من خلال كتبه بتقديم معلومات تاريخية من خلال اطلاعنا على مرويّاته في المصادر التاريخية العربية، وبذلك قدم خدمة جليلة لمدرسة التاريخ العربي، ولمحتواها الفكري والتاريخي.

(81) سير أعلام النبلاء، 496/11.
(82) نفسه، 497/11.
(83) الذهبي، العبر في خبر من عبر، 437/1.
(84) البداية والنهاية، 344/10.
(85) شذرات الذهب، 100/2.
(86) نفسه، 100/2.
(87) الفهرست، 129، الإرشاد، 9/18-19.
(88) تاريخ بغداد، 357/7، البداية والنهاية، 344/10.
(89) الذهبي، العبر، 437/1، ابن العماد، الشذرات، 100/2.
(90) تاريخ بغداد، 357/7.
(91) نفسه، 7/356-357، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 497/11.
(92) تاريخ بغداد، 357/7، ابن كثير، البداية والنهاية، 344/10
(93) تاريخ بغداد، 357/7، ابن كثير، البداية والنهاية، 344/10.
(94) ابن النديم، الفهرست، 123
(95) نفسه، 284.
(96) نفسه، 123، الحموي، الإرشاد، 18/9.
(97) الفهرست، 123، الإرشاد، 9/18-19.
(98) الفهرست، 123، الإرشاد، 9/18-19.
(99) الفهرست، 123، الإرشاد، 9/18-19.

جوانب من تأثيرات الفكر العربي في الفكر الأوروبي

غانم عبد الله خلف

كلية الآداب - جامعة الموصل

تقديم

لا شك أن وجهة النظر القائلة بأن حضارة العرب التي وضعت الغرب على أعتاب نهضته الحديثة تعرضت لبعض التشويه والتضليل. فقد سعى المتعصبون من متعلمي أوروبا الى إنكار فضل العرب في مختلف نواحي الحياة المادية والفكرية والعلمية. وفي الوقت نفسه كان هنالك العديد من العلماء من اتصفوا بالدقة والموضوعية والرصانة العلمية يطلقون العنان لألسنتهم لكي تقول الحق ولأقلامهم لكي تكتب الحقيقة كما هي.

لقد قرر المنصفون أن الحضارة العربية الإسلامية تعد أول حضارة في تاريخ البشرية اتسمت بالإنسانية إذ جمعت شعوباً مختلفة وجانست فيما بينها فكان عطاؤها الثر في ميادين العلوم والمعرفة على اختلاف فروعها مما أفاد الغرب لاحقاً. وقرر هؤلاء أيضاً أن الغرب تفاعلوا مع المعطيات الحضارية الأخرى وخاصة اليونانية فدرسوها بعلمية ومع الزمن كان لهم دورهم المبتكر المميز الطابع وهكذا قدموا انجازاتهم لاوروبا في العلوم والثقافة والفنون والصناعات وأساليب الحياة اليومية فكانوا كما يصفهم سيديو «اساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة».

إن الرقعة الجغرافية المترامية للدولة العربية الإسلامية والفترات الزمنية الطويلة التي حكمها العرب أتاح لجيرانهم فرصة الاحتكام بهم والتأثر بنمط حياتهم وعطاءاتهم المتنوعة. وفيما يخص أوروبا فإن مناطق الاندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وسواحل الشام كانت بمثابة معابر لها للتفاعل مع ما عند العرب من ثقافة وعلوم وتقاليد وشكلت مدن تولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه واللورين وكولون وغيرها من المدن الأوروبية مراكز مهمة للحضارة العربية التي واصلت انتقالها الى عمق أوروبا.

ولنا أن نقول إن تأثير العرب على أوروبا إنما تم على ثلاث مراحل: الأولى وهي مرحلة التأثير غير المباشر حيث دامت ما يقرب من ثلاثة قرون ابتداءً من القرن الثامن الميلادي وفيها اتصل محبو العلم الأوروبيون بمراكز الحضارة العربية بالأندلس للدراسة والتتبع مثل البابا سلفستر الثاني وتوالت الوفود الطلابية والبعثات العلمية الى الاندلس لتحصيل العلوم والآداب والوقوف على طرق الحياة والتقاليد والعادات العربية كما أن الحكومة الأوروبية سعت الى الاستفادة من العلماء والخبراء العرب لتأسيس المراكز العلمية ونشر المعرفة والثقافة والصناعات العربية فاستقدمت أعداداً كبيرة منهم لهذا لغرض، أما المرحلة الثانية فتتمثل بقيام حركة ترجمة واسعة النطاق للعلوم والآداب من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية وقد استمرت هذه المرحلة ما يقرب من قرنين ونصف ابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر الميلادي حيث شهدت مدن الأندلس وصقلية وسواحل الشام جهوداً كبيرة بذلها العلماء والباحثون والمفكرون الاوروبيون لترجمة كتب العلوم العربية النقلية والعقلية فأصبح معظم التراث العلمي

والفكري العربي في متناول الغرب عن طريق ترجمات لاتينية رصينة. أما المرحلة الثالثة فتمتد حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وتسمى فترة الاستعراب. ففي هذه الفترة تكونت وتطورت أسس قيام حضارة جديدة في أوروبا تمتاز بالمؤثر العربي الواضح حيث غذت العلوم العربية الفكر الأوروبي بدم جديد وفتحت أمامه طريق الانطلاق فكان عصر النهضة الأوروبية والكشوفات الجغرافية فالعصور الحديثة بكل عطاءاتها وإنجازاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية.

أما بحثنا هذا فإنه تناول بعض جوانب الفكر العربي ومدى تأثير هذه الجوانب على الفكر الأوروبي ولنا عودة إن شاء الله لمواصلة البحث في الجوانب الأخرى لكي تكتمل صورة التأثير وحجم العطاء العربي لأوروبا حيث جعلها تتربع على عرش العلوم والمعرفة بكل فروعها وحيث رسم للغرب وللإنسانية جمعاء السبل السليمة والمنهج الرصين لتطوير العلوم والارتقاء بها باستمرار خدمةً للبشرية.

أهمية الترجمة من العربية:

لقد لعبت الترجمة من العربية الى اللغة اللاتينية دوراً مهماً في إغناء الفكر الأوروبي بكافة جوانبه. ولا بُدّ أن نشير الى ان عصر الترجمة هذا كان قد امتد من منتصف القرن الحادي عشر الى أواخر القرن الثالث عشر الميلاديين وأن أول ما اهتم به المترجمون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية والسبب «إن أوروبا كانت قد أقفرت أو كادت من العلم اليوناني وانحصرت بضاعتها العلمية في متون جافة هي تلك التي وضعها مارشيانو كابلا في القرن الخامس أو التي وضعها بوتيوس في القرن السادس في ايطاليا أو تلك التي كتبها القديس أيسيدور في اسبانيا في القرن السابع وأخيراً ما كتبه بيد الموقر في القرن الثامن في بريطانيا. فبقيت الدراسة في اوروبا محصورة في فئة من الرهبان وما كان (لها) ان تغير مجراها إلا إذا أمدها مصدر خصب جديد فكان هذا المصدر هو العلوم العربية بما تنطوي عليه من علوم اليونان...»[1].

إن أولى الكتب العربية التي ترجمت الى اللاتينية كانت الكتب الطبية والعلمية فكان المترجم تونسياً أصبح فيما بعد راهباً في دير مونت كاسينو بعد ارتداده عن الإسلام وتسميته قسطنطين الأفريقي وقد بدأ عمله كمترجم حوالى عام 1070 م واستمر فيه حتى وفاته عام 1087 م وعلى الرغم من أن الترجمات اللاتينية لتلك الكتب كانت غارقة في الفوضى والأغلاط فانها أصبحت بداية لنشاط واسع في ميدان الترجمة حيث نفذ العرب بمعارفهم عن العالم القديم الى الأوروبيين ونقلوا اليهم كشوفهم واختراعاتهم التي أضافوها الى تلك المعارف وبقيت كتب الطب والعلوم نشطة حتى توقفت بعد اكتشافات العلماء الأوروبيين من أمثال كوبرنيكوس وفيزاليوس وباراسيلسوس[2].

لقد شكلت الأندلس معبراً مهماً للعلوم العربية الى أوروبا وخاصة مدينة طليطلة التي ازدهرت فيها الآداب والعلوم أيام الحكم العربي إضافة الى مكتباتها الغنية بمئات المجلدات من الكتب. وعندما أحتل الفونس السادس طليطلة عام 478 هـ/1085 م جعلها عاصمة لمملكته. وقد ساهم في الاستيلاء على المدينة فرسان ألمان وإيطاليون وفرنسيون حيث اندمج الجميع بسكان المدينة العربية. وأصبح لكل مواطن الحرية في اتباع دينه، فكان هذا سبباً مهماً للاهتمام بالحياة العقلية للعرب المسلمين من قبل المسيحيين واليهود الذين لعبوا دوراً وسيطاً في التجارة ونقل العلوم العربية[3].

لقد أسس ريموند (1126-1152م) أسقف طليطلة مجمعا للترجمة وعهد برئاسته الى دومينيك كونديسا لفي (ت 1180) وأسند إليه مهمة إعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية

---

(1) بدوي، عبدالرحمن: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، ط 3 وكالة المطبوعات ـ الكويت 1979 ص 3.

(2) يونغ، لويس: العرب وأوروبا، ترجمة ميشيل أزرق، ط 1 دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ 1979 ص 11-12.

(3) هونكة، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، ط 2 المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بيروت 1969 ص 532.

في الفلسفة والعلوم وهكذا ظهر الكثير من الترجمات للنسخ العربية من كتب أرسطو والشروح والمختصرات التي كان الفارابي وابن سينا قد وضعاها[4]. وكان المترجم الآخر في هذا المجمع جيرارد الكريموني (ت 1187 م) وهو إيطالي قدم الى طليطلة وعمل هناك لفترة طويلة وقد نسبت اليه ما يقرب من مائة ترجمة وكان لديه فرقة من المترجين يعملون تحت توجيهه أشهرهم أحد المسيحيين المضربين يدعى غالب أوغالبيوس[5]. إن أهم ما ترجمه جيرارد عن العربية كتباً لأبقراط وجالينوس، كما ترجم كتابين أصيلين في العربية هما «القانون في الطب» لابن سينا و«التصريف» للزهراوي وفي الفلسفة ترجم كثيراً من مؤلفات أرسطو والكندي والفارابي وثابت بن قرة[6]. ولقد استمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن 13 م حيث أمّها علماء أوروبا الكبار مثل ميخائيل سكوت الذي ترجم لأرسطو وابن سينا وابن رشد والمترجم ماركوس شماس طليطلة الذي ترجم مؤلفات جالينوس الطبية والقرآن الكريم وبعض كتب علم التوحيد والمترجم هرمانوس المانوس الذي ترجم شرح ابن رشد على الأخلاق لأرسطو سنة 1240 م وتلخيصه الخطابة لابن رشد[7]. وفي عهد الفونسو العاشر (1252-1284 م) الملقب بالحكيم انتشرت حركة الترجمة من العربية الى الإسبانية حيث توفر له جماعات من المترجمين والمتحققين بشتى العلوم وقد أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة حيث عرف الغرب في عهده الأعمال العلمية لأبقراط واقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم من العلماء اليونان. كما أمر بترجمة الإنجيل والقرآن الكريم والتلمود وكليلة ودمنة وكتب الألعاب الشرقية ككتاب الشطرنج وصنفت له كتب في علم الفلك حيث قام بنفسه بتنظيم هذه الكتب وتصحيحها فكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقدم الدراسات العلمية في اسبانيا ومنها الى أوروبا بل وفي قيام اللغة الإسبانية[8].

وساهمت مناطق أخرى من الأندلس في أعمال الترجمة في القرن 12 م فكان هو السانتالي الذي ترجم مؤلفات علمية لحساب أسقف مدينة تارازونا وفي نفس الإقليم كان هنالك أثنان من الباحثين يترجمان معاً مؤلفات في الفلك والأرصاد الجوية وبعض المؤلفات في اللاهوت لحساب كبير الرهبان بطرس الجليل وهما هيرمان الدلماشي والآخر انكليزي يدعى روبرت الكيتوني[9]. لقد كان هنالك دافع ديني وراء اهتمام بطرس الجليل في ترجمة بعض الكتب العربية الى اللاتينية فقد أرادت الكنيسة الكاثوليكية أن تحول المسلمين الى المسيحية وأن تربط الكنائس الشرقية بروما بعد توحيدها وللوصول الى ذلك كان لا بد من تعلم اللغة العربية. وقد أثمر هذا الاهتمام أولاً بترجمة القرآن الكريم باعتباره المرجع الأول للمسلمين ويتوجب على الأوروبيين فهمه ولهذا طلب من روبرت الكيتوني الذي كان يدرس الفلك العربي والرياضيات في اسبانيا أن يترجم القرآن الى اللاتينية وقد لقيت هذه الترجمة رواجاً واسعاً[10]. إلا أن أهم دارسي اللغة العربية من رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى هو رامون لل الذي درس العربية تسع سنوات واقنع الملك الأرغواني جيمس الأول بإقامة معهد لتدريس العربية الى جانب الديانة المسيحية. وكان لل يؤمن بالحوار الهادىء مع المسلمين مع اعتقاده المسبق بتفوق المسيحية وقد أبحر الى تونس عام 1291 م لإجراء مناقشة مع علمائها حول أوجه الخلاف بين المسيحية والإسلام حيث أدت المناقشة الى طرده غير أنه عاد من جديد عام 1316 م مما أثار عليه الناس فقتلوه[11].

وساهمت مدينة برشلونة بحركة الترجمة حيث كان فيها باحث ايطالي يدعى بلاتو من مدينة تريغولي وقد ترجم

---

(4) أوليري دي لاسي: إلفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة اسماعيل البيطار، ط 1 دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1972 ص234.

(5) واط، مونتكمري: تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة د. عادل نجم عبو ط 1 مديرية دار الكتب ـ الموصل 1982 ص98.

(6) يونغ: المرجع السابق ص 12.

(7) بدوي: المرجع السابق ص 10.

(8) بالنثيا، آنخل جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط1 مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1955 ص 573 وما بعدها.

(9) واط: المرجع السابق ص 99.

(10) يونغ: المرجع السابق ص 12-13.

(11) يونغ: المرجع السابق 13-14.

مؤلفات في الهندسة والفلك من اللغتين العربية والعبرية وذلك بالاشتراك مع مترجم آخر اسمه ابراهيم بن حيا[12].

أما المركز الثاني الذي لعب دوراً مهماً في التبادل الثقافي العربي مع اوروبا والذي نشطت فيه حركة الترجمة فهو جزيرة صقلية التي حكمها العرب من سنة 212 هـ/827 م - 484 هـ/1091 م حيث استولى عليها النورمان وقد ظل التأثير العربي واضحاً طوال فترة الحكم الجديد الذي تميزت سياسته هناك بالانفتاح على العرب حتى إن القرن 12 م شهد ظهور حضارة جديدة دللت على وجود تعاون حضاري فريد من نوعه في تاريخ العلاقات بين العرب وأوروبا يؤكد هذا «أخذ النورمانديون عن العرب أصول احتفالات البلاط كما أخذوا عنهم أدبهم وعلومهم واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية الى جانب اللاتينية واليونانية وضربت النقود على النمط العربي»[13].

لقد كان عهد روجار الثاني (1096-1154 م) مزدهراً حضارياً وقد تأثر بلاطه بمظاهر الخلافة الفاطمية في مصر فكان يظهر وعليه عباءة فاخرة مكتوب عليها بالحروف الكوفية. وأنشأ اكاديمية عمل فيها علماء مسيحيون ويهود أحسوا مع الزمن بالحاجة الى ترجمة العلوم العربية الى اللاتينية فبدأت حركة ترجمة مشابهة لحركة طليطلة[14].

وفي عهد جيوم الأول، ابن روجار الثاني نشطت حركة الترجمة من العربية واليونانية فقد قام وزيره انريكو رستيو بترجمة «الآثار العلوية» لأرسطو من اليونانية، كما ترجم محاورتين لأفلاطون وترجم بالاشتراك مع يوجينو دي بالرمة كتاب «المجسطي» لبطليموس من العربية الى اللاتينية. وترجم يوجينو أيضاً كتاب «المناظر» لبطليموس من العربية.

واشترك في حركة الترجمة المترجم الايطالي جيرارد الكريموني الذي اهتم بكتب بطليموس الفلكية وخاصة «المجسطي» حيث قام بترجمته الى اللاتينية إضافة الى ترجمة ارستبو. كذلك ترجم أكثر من سبعين كتاباً عربياً في الفلك والجبر والحساب والطب[15].

أما فترة حكم فردريك الثاني (1194-1250 م) فقد شهدت تألقاً حضارياً حيث باشر النفوذ العربي من مختلف مصادره الثقافية والفكرية وترك تأثيره على دولته إذ وجد جواً فكرياً مهيأً لتقبله ورعايته. لقد كان فردريك وابنه مانفريد يعرفان العربية قراءة وكتابة. وقد أنشأ فردريك جامعة نابولي عام 1224 م وجعلها أكاديمية لنقل العلوم العربية وكان للفلاسفة العرب مكانتهم في بلاطه كما قامت علاقات ودية بينه وبين السلطان الكامل (1218-1238 م) وقد تراسلا في أمور فلسفية ورياضية[16]. كما حفل بلاطه بعدد كبير من العلماء أمثال ميخائيل سكوت الاسكتلندي الذي تعلم في طليطلة وساهم في الترجمات العربية الى اللاتينية. وهو الذي نظم الترجمة، إذ قسم العمل على التلاميذ والأعوان وتابع نشاطهم وراجع أعمالهم وبذلك استطاعت صقلية أن تترجم رسائل أحسن مؤلفي العرب وعلى رأسهم ابن رشد وقد حرص فردريك على ان يوزع ترجماته على الجامعات الاوروبية رغبة منه في نشر العلوم وبدافع من منافسة البابا في الغالب[17].

وبعد فردريك الثاني عرفت صقلية عصراً آخر من عصور المعرفة والتقدم تحت حكم شارل انجو (1226-1285 م) الذي اهتم بترجمة المؤلفات العربية. ويرجح أنه كان لديه مؤسسة كاملة لهذا الغرض بما في ذلك مترجمون عرب مثل فرج بن سالم الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي وموسى السالرني ونساخون ومصححون مثل هنري الانكليزي[18].

(12) واط: المرجع السابق ص 99.
(13) يونغ: المرجع السابق ص 121.
(14) بدوي: المرجع السابق ص 9.
(15) بدوي: المرجع السابق ص 9-10.
(16) يونغ: المرجع السابق ص 121.
(17) مجموعة مؤلفين: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، اليونسكو، الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1970 ص 167.
(18) مظهر، جلال: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة ص 521.

وساهمت الحروب الصليبية بقدر متفاوت في نقل العلوم والآداب العربية إلى أوروبا وخاصة بعد خضوع الشام وبيت المقدس للصليبيين لمدة قرنين من الزمان تقريباً. إذ أصبحت هذه المنطقة جسراً للتأثيرات الحضارية في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية. أما في مجالات العلوم والآداب والفلسفة فقد كان التأثير محدوداً قياساً الى المجالات الأخرى. وتعليل هذا أن «الجيوش الصليبية كانت جاهلة للعلماء ولم تكن تبالي بالمعارف العلمية مثل البناء أو الأسلوب الصناعي ولكن هذا لا يعني أن تأثير الصليبيين في تقدم أوروبا العلمي كان معدوماً تماماً وذلك لما بين العلوم والصناعات من صلة وأن الاهتمام بإحداها لا بد وأن يقود الى الاهتمام ولو جزئياً بالأخرى»[19].

لقد اغتنى الأدب الأوروبي بما نقلته الحروب الصليبية الى أوروبا من الفن القصصي والأسطوري العربي مثل كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة وشيء من الشعر الغنائي الذي ابتكر في الأندلس، وهو شعر الموشحات والأزجال حيث انتقل هذا الشعر الى الشرق فتأثر به الصليبيون عند غزوهم للمشرق الإسلامي. ولعب التجار في تلك المرحلة دوراً مهماً في نقل الثقافة العربية الى أوروبا وذلك لصلتهم التجارية من سوريا والبحر الاسود وصولاً الى المدن التجارية مثل جنوة ولوكا والبندقية ومدن اوروبا الأخرى مثل أوكسبورغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها[20].

أما في مجال الترجمة فقد وصلت ترجمات قليلة من الدويلات الصليبية في الشرق أهمها الخلاصة الوافية في الطب لعلي بن عباس والتي ترجمها ستيفان من بيرا أو من أنطاكيا. وقد زار سوريا آديلا رد الباثي الانكليزي الذي درس في فرنسا وصقلية والأندلس ومن المؤكد أنه كان على معرفة بآخر تطورات العلوم العربية وقد تضمنت تراجمه الجداول الفلكية للخوارزمي وكتاب العناصر لأقليدس[21].

تأثير الأدب العربي في الأدب الأوروبي:

إن الحكم العربي الطويل للأندلس قد جعل اللغة العربية تتمتع بمكانة كبيرة عند المسيحيين فاستعرب أغلبهم لغوياً وثقافياً وبدأت اللغة اللاتينية تنحني أمام العربية إعجاباً بعلم العرب وأدبهم. وتأتي شهادة الفارو أسقف قرطبة في القرن 9 م لتؤكد تفوق العربية على سواها من اللغات إذ يقول «كثيرون من أبناء ديني يقرأون أشعار العرب وأساطيرهم ويدرسون ما كتبه علماء الدين وفلاسفة المسلمين لا ليخرجوا عن دينهم وإنما ليتعلموا كيف يكتبون اللغة العربية.. إن كل الشباب النابه منصرف الآن الى تعلم اللغة والأدب العربيين.. لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية بينما تجد بينهم عدداً كبيراً يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم»[22].

وهكذا ترك الوجود العربي في الأندلس وغيرها من المناطق الاوروبية طابعه على اللغة بعمق، والمفردات اللغوية العربية لا تزال متداولة هناك حتى وقتنا الحاضر وتتوزع مختلف نواحي الحياة الدينية والإدارية والحرفية والحربية والتجارية والزراعية والاروائية وغيرها من نواحي الحياة اليومية الأخرى.

أما الشعر العربي فإنه وصل الى أوروبا بفضل تفاعل السكان هناك - وخاصة في جنوب الأندلس وجنوب غرب فرنسا وصقلية - مع المعطيات الأدبية العربية وأنصارهم في بوتقة الحضارة العربية مما سهل عليهم هضم النماذج العربية في فن الأدب والشعر وهكذا تطور هذا الفن في الشكل والمضمون بفضل هذا الشعب الخليط الجديد[23].

ان ما يميز الشعر العربي هو الوزن والقافية في القصيدة وقد التزم الشعراء العرب بهذا الطابع قروناً طويلة وأثروا على الغرب من حيث استخدام القافية والاعتماد على الوزن الى أن

(19) لوبون، غوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر: مطبعة عيسى البابي الحلبي ص 338.

(20) يونغ: المرجع السابق ص 123.

(21) واط: المرجع السابق ص 99.

(22) هونكة: المرجع السابق ص 529.

(23) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 24.

ظهر في الأندلس في أواخر القرن 3 هـ/ 9م لون جديد من الشعر الى جانب القصيدة التقليدية هو المعروف بالموشحة وتفرع عنه لون آخر أكثر إمعاناً في الشعبية هو الزجل وعن طريق هذا اللون الجديد استطاع الاندلسيون أن يتركوا آثاراً عميقة لا في الشعر المشرقي وحده بل كذلك في الآداب الأوروبية[24].

ويعلل خوليان ريبيرا ظهور هذا اللون من الشعر بأن أهل الأندلس كانوا يستعملون العربية لغة رسمية بالإضافة الى استعمالهم لهجة من اللاتينية الدارجة في حياتهم اليومية، ثم إن شعوب اوروبا كانت تستعمل آنذاك اللاتينية بالاضافة الى لهجات أعجمية مختلفة مشتقة من اللاتينية. وكان هذا الازدواج في اللغة هو السبب في نشوء طراز شعري مختلط امتزجت فيه مؤثرات شرقية وغربية تمثل بالموشح والزجل[25].

لقد توصل ريبيرا الى وجود تشابه عجيب بين البنية المقطعية لشعر الموشحات والأزجال مع بعض الأوزان الشعرية لشعراء البروفنسال الجوالين الأوائل أمثال ماركابرو وأكدت هذا الرأي أبحاث اللغوي تيندر بيدال الذي وسع نطاق المقارنة بين الشعرين العربي والبروفنسالي ليشمل المنطقة الناطقة بالإسبانية الشعبية بأسرها وبرهن على وجود أوزان الزجل الشعرية في الشعر الغنائي البرتغالي «أغاني الصديق وأغاني الفونسو للعذراء» وفي اللغة القشتالية «الأغاني الشعبية» وفي اللغة الايطالية القديمة «المدائح الفرنسيسكانية في السيد المسيح والعذراء» وفي لغة شمال فرنسا[26].

إن أقدم شعر غنائي ظهر في أوروبا هو الذي نظمه شعراء التروبادور (الجوالون) في أواخر القرن 13 م في مقاطعة بروفانس جنوب فرنسا حيث كان من رواده الأوائل جيوم التاسع دوق اكتيانيا وسيركامون وماركابرو الذين أصبحوا حلقة الوصل بين التوشيح الأندلسي والشعر الغنائي في أوروبا، ساعدهم في هذا ان خرجة الموشحة كانت بلغة لاتينية دارجة مفهومة في كل أوروبا وخاصة في منطقة بروفانس الفرنسية[27].

إن تأثير الشعر العربي في الشعر الأوروبي لم يقتصر على الشكل بل تعداه الى المضمون أيضاً فالأشعار التي تناولت المرأة أعطتها مكانة رفيعة بعد أن كانت - كما يقول الكاتب الفرنسي برونيتير - قد «أحلت رأسها الى قانون الطغيان والقسوة بدرجة لم تدانها فيها امرأة عاشت أي عصر من العصور أو سكنت أي بقعة من بقاع الأرض»[28].

ومن الموضوعات الشعرية التي تأثر بها الشعر الغنائي الأوروبي مسألة طاعة المحب لحبيبه لأن هذا يدلل على افتخاره بحبه واعتزازه بحبيبته. ومن الموضوعات أيضاً العاذل الغيور والرقيب الذي يتردد في شعر الموشحات والأزجال والوشاة الذين يفسدون بين المحبين والحساد وغيرها من الموضوعات التي تطرق اليها ابن حزم[29] وغيره من الشعراء الأندلسيين. لقد تأثر بهذه الموضوعات ورددها كثيراً شعراء التروبادور الأوروبيون أمثال جيوم التاسع ودانتي متأثرين بابن حزم وابن زيدون وابن عربي وغيرهم وأصبح هذا الاسلوب فناً عالمياً غزا فرنسا وايطاليا وصقلية والنمسا والمانيا[30].

أما في مجال الأدب القصصي فقد كان للعرب روايات في المخاطر والحب والفروسية جمّلوها بخيالهم الساطع وهم الذين لا نظير لهم في هذا الفن. ومثلما كان للشعر العربي دوره المهم في الشعر الأوروبي كان للأدب القصصي العربي ذات الدور في تطور ونشأة الأدب القصصي في أوروبا ابتدأ من القرن 12 م في عدد من المؤلفات وبخاصة «مباحث العلماء أو تعليم العلماء أو محاضرات العلماء» التي ألفها بدرو دي

---

(24) ابن خلدون، عبدالرحمن: تاريخ ابن خلدون، منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت 1971، 518/1، مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 36 وما بعدها.

(25) بالنثيا: المرجع السابق ص 142.

(26) بوزورث، شاخت: تراث الاسلام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت 1978 149-148/1

(28) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 54، هونكة: المرجع السابق ص 533.

(28) ارنولد، توماس: تراث الاسلام، ترجمة جرجيس فتح الله ط 2 دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت 1972 ص 267.

(29) طوق الحمامة في الألفة والالاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، المكتبة التجارية بمصر: ص 53,50,47,42.

(30) هونكة: المرجع السابق ص 521.

الفونسو حيث قام بترجمة ثلاثين قصة من العربية الى اللاتينية[31]. ويبدو أن بدرو قد ألف كتابه من أجل تهذيب النفوس وهداية الأرواح الى طريق الخير والكمال ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء تتحدث بالأمثلة والعظات عن مراقبة الله وخشيته والرياء والعلم ونبل النفس وعن الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقة الملوك برعاياهم. وكل القصص الثلاثين التي أوردها بدرو يعترف بأنها عربية وحتى قرّاءه المسيحيين لم يمتعضوا لهذا النقل. وقد ترجمت هذه القصص الى الفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنكليزية والألمانية وتأثر بها أدباء أوروبيون كثيرون واستوحوا منها أعمالهم القصصية[32].

وظلت عناصر من الأدب الشعبي والموضوعات القصصية تظهر في الأدب الغربي مثل مجموعة قصص الديكاميرون أي «الأيام العشرة أو الليالي العشرة» لبوكاشيو الإيطالي «فان الذي يتأمل هذه المجموعة التي كتبت عام 1349 م لا يسعه إلا ملاحظة التشابه الكبير بينها وبين مجموعات القصص العربية سواء في الشكل العام أو في تفاصيل كثير من الحكايات. أما في الشكل العام فان الذريعة التي اتخذها مبرراً لحكاية القصص المائة تشبه الى حد كبير ما نراه في بعض المجموعات العربية مثل قصة الوزراء السبعة في ألف ليلة وليلة. أما التفاصيل فان هناك قصصاً كثيرة في مجموعة بوكاشيو من مصادر عربية وإن كانت يد الأديب قد تصرفت بها وجعلتها في قالب أوروبي أو إيطالي»[33].

لقد انتشرت مجموعة بوكاشيو في أوروبا بشكل واسع واقتبس منها شكسبير موضوع مسرحيته «العبرة بالخواتيم» كما اقتبس منها لسنغ الألماني مسرحيته «ناثان الحكيم» واقتبس منها شوسر الإنكليزي قصصه المشهورة باسم «قصص كانتربري» ومنها قصة (السيد) التي اقتبس فيها إحدى قصص الف ليلة وليلة واستهلها بالكلام على بلاط خان من خانات التتر أو المغول[34].

ويلاحظ أن نشاط الترجمة في القرن 13 م قد توسع حيث ترجمت مجموعات قصصية عربية أخرى منها مجموعة «كليلة ودمنة» التي ترجمت الى الاسبانية عام 1261 م ثم تلتها ترجمات أخرى الى لغات مختلفة تركت آثارها على الكتّاب الأوروبيين كان اشهرهم كاتبين ايطاليين هما اينولو فيرنزولا وآل دوني. ويظهر تأثير هذه القصص أيضاً في مجموعة بوكاشيو التي تحدثنا عنها[35].

أما قصة «السندباد أو الحكماء السبعة» فقد ترجمت الى القشتالية عام 1253 م وبقيت الترجمة الإسبانية لهذه القصة الى اليوم وفقدت بقية الترجمات. وإن أشهر من تأثر بها الراهب الاسباني خوان دي التاسيلفا عندما وضع مجموعته التي سماها «تاريخ حكماء روما السبعة» وتأثر بها بوكاشيو في مجموعته وأصبحت كذلك مصدراً لعدة ملاحم شعرية أوروبية[36].

وترجمت أقوال الفلاسفة القدماء التي جمعها حنين بن اسحق الى العبرية ثم الى الإسبانية بعنوان «كتاب الأمثال الطيبة». اما الحِكَم التي جمعها المبشر ابن فاتك فقد ترجمت الى الاسبانية عام 1257 م بعنوان «الأقوال الذهبية» بعد ان كانت بعنوان «مختار الحِكَم ومحاسن الكلام». ثم ترجمت الى اللاتينية والبروفنسية والفرنسية والانكليزية وأخذت تسميات مختلفة منها «كتاب الفلاسفة الاخلاقية» و«أقوال الفلاسفة المأثورة»[37].

كذلك ترجم للملك الفونسو العاشر (الحكيم) ملك اسبانيا وصف مطول لعروج النبي الى السماء بصحبة جبريل وقد أثار آسين بلاثيوس عام 1919 موضوع تأثير المعراج على الكوميديا الإلهية التي نظمها دانتي واعتمد بلاثيوس على

(31) بوزورث: المرجع السابق 178/2، لوبون: المرجع السابق ص 448.

(32) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 71.

(33) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 119.

(34) العقاد، عباس محمود: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ط 5 دار المعارف ـ القاهرة 1946 ص 63.

(35) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 74.

(36) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 77.

(37) بوزورث: المرجع السابق 178/2 وما بعدها.

شواهد مقارنة اختارها من الأدب الصوفي الديني[38].

وفي عام 1704 م ظهرت ترجمة «ألف ليلة وليلة» في باريس على يد انطوان جالان وقد حوت هذه القصة نموذجاً فريداً من الأدب العربي دخل ضمن الخيال الأدبي الأوروبي لما اتسمت به من الرقة والرهافة والمرح وقد ظهر هذا التأثير بشكل واسع على أعمال الكاتب الألماني جوته وغيره من القصاصين الأوروبيين ويشهد بهذا كثير من النقاد أمثال هيرمان هيس وهيغو فون هوفما نستال الذي قال: «إن تأثير الثقافة العربية لا يزال مستمراً في الآداب الغربية حتى يومنا هذا بسبب ألف ليلة وليلة...»[39].

لقد استمر تأثير الأدب العربي على الأدب الغربي حتى وقتنا الحاضر حتى إننا لا نجد أديباً أوروبياً خلا شعره أو نثره من بطل عربي أو نادرة عربية أمثال شكسبير وأديسون وبايرون وسوذي وكولدرج وشلي وجيتي وهردر ولسنغ وهيدي وفولتير ومونتسكيو وغيرهم. وما رحلات جليفر التي ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو لمؤلفها دي فو الا تقليداً لألف ليلة وليلة ورسالة حي بن يقظان وكذلك روايات ولترسكوت وأشعار تنسون وبراونينغ وواشنطن ارفنغ[40].

إن التأثيرات الأدبية العربية وسعت النظرة الغربية الى العالم وجعلتها أكثر تنوعاً وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربي بدرجة لا حد لها وكان أحد العوامل التي مكّنت هذا الأدب من التطور في اتجاه نوع من العالمية كان جديداً في تاريخ الإنسانية.

أهمية الفلسفة العربية في تكوين الفكر الفلسفي الأوروبي:

لقد لعب العرب دوراً كبيراً ومزدوجاً في إغناء وتكوين الفكر الفلسفي الأوروبي في العصور الوسطى فعن طريقهم عرفت أوروبا مؤلفات اليونان الفلسفية إضافة لما أبدعه وابتكره العرب في هذا الميدان «فمنذ عام 1125 م وما بعده عثر على ترجمات لبعض مؤلفات أرسطو مثل الأورغانون والطبيعيات والأخلاق والميتافيزيقية وقد اختلطت بهذه المؤلفات نصوص من الأفلاطونية المحدثة ومن ذلك الكتاب المنسوب لأرسطو المسمى أثولوجيا أرسطوطاليس الذي يضم شذرات من تاسوعات أفلوطين وكتاب العلل الذي يشمل شذرات من كتاب الاسطقسات الإلهية لبرقس»[41]. ووصل كتاب الأخلاق لنيقوماخس من المصادر اليونانية ثم من العربية. ونقل بوثييوس الى اللاتينية كتاب ايساغوجي لفرفوريوس والمقولات والعبارة لأرسطو ونقل يوحنا سكوتس كتب ديونيسيوس. ثم حدثت تطورات لاحقة تمثلت بالتعرف على باقي أعمال أرسطو وجميع الأعمال العلمية التي يتكون منها القانون المنطقي وذلك بترجمتها عن العربية وتلت هذه المرحلة مرحلة الترجمة عن الاغريقية بعد سقوط القسطنطينية عام 1204 م على يد اليكسوس حيث سلمت المدينة الى اللاتين. وكانت المرحلة الأخيرة التعرف على الشراح العرب[42].

أما منجزات الفلاسفة العرب فقد ترجمت هي الأخرى الى اللاتينية حيث أفاد منها الفكر الفلسفي الأوروبي. فلقد ترجم اللاتين للكندي (ت 260 هـ/873 م) أربع رسائل هي: العقل، ماهية النوم والرؤيا، الجواهر الخمس، والبرهان المنطقي. وللرسالة الأولى أهمية في الغرب لأنها تدور حول مشكلة المعرفة وأما الثانية فقد كانت من الموضوعات الطريفة في القرون الوسطى لصلتها بالوحي والإلهام وقد عالجها الفارابي وابن سينا بعد الكندي وبنيا عليها نظرية النبوة، ولألبير الكبير بحث في النوم واليقظة يحذو فيها حذو مفكري الإسلام[43].

أما الفارابي (ت 339 هـ/950 م) فقد كان معروفاً لدى الغرب وقد ترجم من كتبه كتابان أولهما «إحصاء العلوم» حيث كان له أثر مهم في تصنيف العلوم في القرون الوسطى، والكتاب الثاني مقالة في العقل. ومشكلة العقل أو المعرفة إحدى مشاكل الفلسفة المسيحية الكبرى التي أسهم فيها الفارابي وابن سينا بنصيب كبير. وإن كبار مفكري أوروبا قد

(38) بوزورث: المرجع السابق 178/2 وما بعدها.

(39) بوزورث: المرجع السابق 178/2، يونغ: المرجع السابق ص 137.

(40) العقاد: المرجع السابق ص 67، يونغ: المرجع السابق ص 139.

(41) بوزورث: المرجع السابق 263/2-264.

(42) أوليري: المرجع السابق ص 235، أرنولد: المرجع السابق ص 359.

(43) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص169، بوزورث: المرجع السابق 264/2.

عـرفـوا الفـارابي وكثيـراً مـا أشـار اليـه البـير الكبـير وروجـر بيكون[44].

وعني اللاتين بابن سينا (ت 428 هـ/1037 م) عناية كبـيرة وترجموا فلسفته على مرحلتين: مرحلة مبكرة في النصف الثاني من القرن 2م، ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة، فترجموا أولاً من قسم منطق الشفاء «المدخل»، وفصلاً من «التحاليـل الثـانيـة». ومن قسم الـطبيعيـات «كتـاب النفس» وقسم «الإلهيات»، ثم أتموا في المرحلة الثانية بقية قسم الـطبيعيات. أمـا قسم الريـاضيات فلم يـترجموه بـالرغم من حـرصهم على هذه الناحيـة. كما تـرجموا لـه شذرات من النجـاة والإشارات وبعض الرسائل الفلسفية الصغيرة. لقد كـان لكتاب الشفـاء أثر عميق في الحركـة الفكريـة الأوروبية وكـذلك الـطبيعيات حيث قـال ابن سينا بكـروية الأرض فمهـد لكـوبـرنيـكـوس وجاليلو وشرح تكوين الجبال والصخور شرحاً اعتمدت عليه نظرية الـبراكين في القـرن 17 م. وعالـج كتاب النفس أمـوراً هامة فعرض للنفس حقيقتها وخلودها وشرح جـانبي المعرفـة الحسي والإشراقي. وبحث كتاب الإلهيات نشأة العالم وطبيعة الإلـه وصلته بمخلوقـاته وحـاول التوفيق بـين العقـل والنقـل فلمس أدق المـوضوعـات التي شغلت «كليـة أصـول الـدين» بباريس زمناً طويلاً[45].

أمـا كـتـاب «مقـاصـد الـفـلاسـفـة» لـلغـزالي (ت 505 هـ/1111 م) فقد ترجم مبكراً وأعان الكتّاب اللاتين على فهم الفلسفة الإسلامية. وترجم كتاب «تهافت الفـلاسفة» في أواخـر القرن 15 م ويعتقـد أن القديس تـوما الأكـويني قد استفـاد منه في كتابه «الخلاصة في الرد على الأمم». والغزالي في إثبـاته لعلم الله وقدرته وإرادته وقولـه بخلق العالم من عـدم قد أثّـر على بعض علماء اللاهوت المسيحيين[46]. وكـان ريمونـد مارتن ـ الذي عاصر توما الأكويني ـ من أشد المتحمسين لقيمة كتاب تهافت الفلاسفة وقد استمـد الكثير من آراء الغـزالي وأودعها كتـابه المسمى «خنجـر الإيمان ضـد المسلمين واليهـود». لقد استهوى اسلوبُ الغزالي العقلي والديني مفكـري الغرب ولقي استحساناً عظيماً من اللحظة التي تيسرت لهم كتبه وما برحـوا يشبعونها دراسة وتدقيقاً[47].

ولقد استوقف ابن باجه (ت 522 هـ/1128 م) اللاتين من خلال «رسالته في الاتصال» التي أشار اليها ألبير الكبير. وهي بـدورهـا تنصب عـلى مشكلة المعـرفـة التي شغلت مفكـري القرون الوسطى. ولم تصلهم رسالتـه «تدبـير المتوحـد» برغم ترجمتها الى العبرية في القرن 14 م على يد موسى النهوني[48].

وكـان لابن رشـد (ت 595 هـ/1198 م) حظ كبـير من الترجمة اللاتينية اذ ترجمت شروحاته مرتـين: الأولى في القرن 13 م وعول فيها على الأصول العربية. والثانية في القرن 16 م وقامت كلها على العبرية. وترجم له كتاب «تهافت التهافت» في القرن 14 م من أصل عـربي مرة وعـبري مرة أخـرى ولهذا أسباب:

1 ـ تعلق فـردريك الثـاني بالعلوم الـطبيعية التي وجـد لها مادة غزيرة في شروحات ابن رشد على طبيعيات أرسطو.

2 ـ تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد وترجمتهم لمصادرهـا الى العـبرية حيث أصبحـوا واسطة نقـل بين الـرشديـة والفلسفة المسيحية.

3 ـ ارتباط ابن رشد بأرسطو حيث إن فريقاً من الدارسين كان يريد أن يفهم أرسطو من خلال ابن رشد[49].

لقـد أحـدث الفـلاسفـة العـرب تـأثيـراً عميقـاً في الفكـر الفلسفي الأوروبي ويعـد ابن سينـا أبـرز هؤلاء الفـلاسفـة وخـاصـة من خـلال إلهياتـه التي فسّر فيـها الكـون ابتداءً من الأول الـذي يصـدر عنه العقـل الثـاني وهكـذا حتى العقـل العـاشر، ومن التعـابـير التي اقتبسهـا الغـرب من ابن سينـا «المعقولات» ومعناها كل ما يدرك بالعقل فهـو معقول وهنـاك نوع من المعقولات المدركة من الشيء أولاً أو بداهة كـالشجرة والمدركة ثـانياً أو منـطقياً لشيء بـالإضافـة الى الإدراك الكوني المجـرد. ومـذهب ابن سينا في أن المنـطق مـوضـوعـه هـو المعقولات الثانية التي ينتقل بهـا المرء من المعلوم الى المجهـول

(44) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 169-170.
(45) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 170-171.
(46) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 172.
(47) أرنولد: المرجع السابق ص 390-391، بالنثيا: المرجع السابق ص 541-542.
(48) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 172.
(49) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 173-174، بالنثيا: المرجع السابق ص 367.

أخـذها منـه ألبير الكبـير[50]. كما أخـذ منه قـولـه بـأن النفس جوهر عقلي وإن كونها صورة للجسم ليس تحديداً لماهيتهـا بل هـو وظيفـة من وظـائفهـا وأنها تستضيء من إشراف العقـل الفعال عليها وهذا العقل الفعال متصل بالعقل العـاشر الذي هو عقل فلك القمر. كما إن اعتقاد ابن سينا أن العقل يوجد مستقلاً عن الجسد وأن فكرته المتطرفة في العقـل بين الجـوهر والـوجـود واكتشـافـه لـلأنـا والـوعي الـذاتي هي من الأمـور التي أثـرت كثيراً في الغـرب[51]. وأبرز من تـأثر بهـذه الفكرة دانس سكـوتس الذي اتخـذ من فلسفة ابن سينـا أساسـاً بنى عليه أقواله فيما وراء الطبيعة وتوما الأكويني الذي اقتبس منه عناصر عدّته من الوسائل والمنهج والمصطلحات وكذلك روجر بيكون[52].

أمـا الفيلسوف العـربي الآخـر الـذي لعب دوراً كبيـراً في التأثير على أوروبا فهو ابن رشد الذي يرى أن الحـركة خـالدة ولكـل حركـة سبب وأنه لا زمن بـلا حركـة وأننا لا يمكن ان نتصـور أن للحركـة بدايـة أو نهاية. ويـرى كذلـك أن وجود المعرفة وتجسيمها قبل الرسل لا يمنع تفسيرها ولا يتعارض مع العقيـدة الدينيـة. ويعترف ابن رشـد بوجـود حقيقتـين الأولى فلسفية والثانية دينية. ويؤكد أنه بـرغم كل تبـاين مادي بـين الفرديات فثمـة دائماً جـوهر روحي مـوحد يجمـع بينها، لقـد أثـرت هذه الأفكـار على فـردريك الثـاني لتجاوبهـا مع ميـوله لـذلك طلب من ميخـائيل سكـوت أن يترجم شروحـات ابن رشـد على كتـاب «الأرض والسماء» لأرسطـو بـالإضـافـة الى تـرجمتـه الجـزء الأول من كتـاب «النفس»[53]، ومن بـين من اعتنق فلسفة أرسطو ومتبنيها ابن رشد هو توما الأكويني الذي «اعتـبر ابن رشد خـير من عرض نصـوص أرسطـو وشرحهـا وسيد المنطق الذي لا يبارى»[54]. والحقيقة أن التقـارب بين الاثنين مبعثه إعطاء العقل مكانته الحرية به والانتفاع بفلسفـة الأقدمين على أساس إخضاع نتائجهـا الى النقد والتمحيص. كـما أن وجوه الاتفـاق بـين الـرجلين كثـيرة أبـرزهـا فـرضيـة الأكـويني التي مؤداها «أن علم الله هـو علـة الأشيـاء» والتي هي ليست إلا نظرية ابن رشد نفسها «العلم القـديم هو علة وسبب للموجود»[55]. ثم إن البرهان نفسه على وجـود الله من الحركة وعلى العناية الإلهية للعالم وفرضية كليهما أن وحـدة الله هي من وحدة العالم وهما يتفقان في فرضهما بضرورة استخدام طريقة التنزيه لأجل التوصل الى إدراك الله وكلاهما استخدمـا طريقة القياس والتشبيه[56].

ومن بـين من أخذ بـآراء ابن رشد ألبـير الكبـير وخـاصـة القـول بصـدور العقـول بعضهـا عن بعض والقـول بتـأثـير الكائنات العليا على العقل الإنساني ومن ذلـك أيضاً آراء ابن رشد عن العلاقة بين العقل الفعّال والعقـل المستفاد (المنفعـل أو المتقبّل)[57] فهناك عقل واحد لجميع البشر وهذا هو أساس القـول بالنفس الـواحدة عنـد ابن رشد. والعقـل الفعال هـو آخـر العقـول السـماوية الـذي يحرك فلك القمـر. أما العقـل المستفـاد فيتلقى من العقـل الفعـال صـور المعقـولات التي جرّدها. لقد دخلت هذه الأفكـار الى كلية الآداب في بـاريس وتبناها سيجر البرانتي (ت 1281 م) غير أن السلطات الدينيـة عارضتها بشـدة لكنها انتعشت مـرة أخرى عـلى يد جـان دي جاندون أستاذ الأدب في كلية نافار وانتقلت الرشدية الى بادوا وبولونيا بإيـطاليا وازدهـرت هناك. حتى القـرن 17 م بفضل ظهـور فن الطبـاعـة حيث طبعت كتبهـا في أكـثر من مـدينـة أوروبية. وفي عام 1473 م أصـدر لويس الحـادي عشر أوامره

(50) أرنولد: المرجع السابق ص 373، بدوي: المرجع السابق ص 31.

(51) يونغ: المرجع السابق ص 95، بدوي المرجع السابق ص 32.

(52) بوزورث: المرجع السابق 267/2.

(53) هونكة: المرجع السابق ص 449-450.

(54) أوليري: المرجع السابق ص 243.

(55) ابن رشد، محمد بن احمد بن محمد: فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال، تقديم وتعليق د. ابـو عمران الشيخ، الشركة الـوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1982، ص 70.

(56) أرنولد: المرجع السابق ص 395 وما بعدها.

(57) بالنثيا: المرجع السابق ص 368.

الملكية التي جاء فيها: إن على المعلمين في باريس أن يعلموا كتب أرسطو وأن يستخدموا شروحات ابن رشد مع غيره من الشراح الأوروبيين وهكذا تمتعت الفلسفة الرشدية بقمة مجدها وكانت إحدى العوامل التي شكلت خلفية فكرية لأعمال جاليلو وتوماس أكويناس وبداية لظهور العلوم الأوروبية الحديثة[58].

وإلى جانب الأعمال الفلسفية لابن سينا وابن رشد لا بد أن نذكر الأثر الذي تركته رسالة «حي بن يقظان» التي ألفها أبو بكر بن طفيل (ت 581 هـ/ 1185 م) ففي هذا النوع من القصة الفلسفية والتي ترجمها الى اللاتينية أدوارد بوكوك تحت عنوان «الفيلسوف المعلم نفسه» أراد المؤلف أن يبين صورة رمزية للاتفاق بين الفلسفة والدين. فالطفل (حي) الذي ولد في جزيرة غير مسكونة أصبح تدريجياً يدرك الحياة وما يحيط به ويتعرّف على قوانين الطبيعة وصولاً الى إثبات وجود الله ويتوصل من جديد الى كل حقائق الدين. لقد لقي هذا العمل نجاحاً كبيراً في الغرب فترجم الى العبرية فاللاتينية ثم ظهرت ترجمات أخرى الى اللغات الأوروبية ويؤكد الباحثون أن دي فو قد استوحى قصته «روبنسون كروزو» من رسالة حي بن يقظان[59].

وأخيراً نقول: إن العرب نجحوا في توجيه أنظار اللاتين الى أرسطو بعد أن كانت نحو أفلاطون والأفلاطونية الحديثة. وأثار العرب مشاكل فلسفية شغلت البيئات الثقافية الغربية مثل: قدم العالم، أسس الميتافيزيقا، المعقولات، النفس وغيرها، كما وجهت الفلسفة العربية الأوروبيين الى الطبيعة والى العناية بالبحث العلمي ووضعت أساس المنهج التجريبي وذلك لصلتها بالعلم وموقف روجر بيكون وفرنسيس بيكون وجامعة بادوا هو المثل الأعلى للمنهج التجريبي الذي قاد أوروبا الى الحركة العلمية الحديثة. وحاول بعض رجال الدين المسيحي أمثال البير الكبير وتوما الأكويني ودانس سكوتس وسيجر البرانتي أن يوفقوا بين العقل والنقل كما فعل العرب مما أضعف سلطة الكنيسة ومهد للإصلاح الديني وحركة البحث والدراسة في عصر النهضة، وأخيراً وجهت الفلسفة العربية أنظار اللاتين الى الثقافة العربية ومنها نفذوا الى الثقافة اليونانية عن طريق الترجمة التي ربطت القرون الوسطى بالتاريخ الحديث، وغذت عصر النهضة بالتراث القديم الذي كان للعرب دور كبير فيه[60].

الأدب الجغرافي العربي وأثره على أوروبا:

تعتبر الجغرافية من العلوم التي أولاها العرب اهتماماً كبيراً وأضافوا اليها الكثير من مجهوداتهم البحثية والعملية وخاصة في مجالاتها الفلكية والوصفية مما جعلها مصدراً مهماً لقيام النهضة الجغرافية الأوروبية بعد احتكاك الغرب بمواطن الحضارة العربية وترجمة الأوروبيين لإنجازات العرب الجغرافية.

لقد قدمت مدرسة طليطلة برئاسة كوند يسالفي الى اللغة اللاتينية عدداً كبيراً من مؤلفات الجغرافيين العرب وغيرهم. فقد قام «جيرارد الكريموني بترجمة كتاب بطليموس «المجسطي» من العربية الى اللاتينية عام 1175 م وكان هذا الكتاب قد ترجم من اليونانية الى العربية على يد الحجاج بن مطر وضاعت النسخة الأصلية فاستعانت أوروبا بالنسخة العربية وترجمتها. أما كتاب بطليموس الثاني «المدخل الى الجغرافية» فقد ترجم الى العربية على يد ثابت بن قرة تحت عنوان «جغرافية» وترجمه كذلك محمد بن موسى الخوارزمي واستفاد منه عند وضع كتابه «صورة الأرض» الذي قيل عنه أنه لا يوجد شعب أوروبي واحد يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن مقارنته بهذا الكتاب الذي يعتبر أقدم أثر في الجغرافية العربية»[61].

ويلاحظ أن كتاب الخوارزمي قد جمع نتائج أبحاث المسلمين في هذا الميدان فضلاً عن أنه يظهر جهات خاصة ومنها تقسيم العالم المسكون الى سبعة أقاليم مما لا نجده لدى بطليموس[63]. ويلاحظ أيضاً أن هذا الكتاب وخاصة ما يتعلق منه بالعروض والأطوال قد وجدت طريقها الى

---

(58) بوزورث: المرجع السابق 269/2، أوليري: المرجع السابق ص 246 وما بعدها.

(59) بوزورث: المرجع السابق 273/2-274، بالنثيا: المرجع السابق ص 350.

(60) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 177-179.

(61) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 320,313.

(62) أرنولد: المرجع السابق ص 133.

«جداول طليطلة» للزرقالي في القرن 11 م وقد ترجمت هذه الجداول الى اللاتينية وتمتعت بصيت عريض في القرن 12 م وما بعده. كما أن رسالة الزرقالي في الاسطرلاب في الترجمة اللاتينية كان لها تأثير لا نظير له على كافة العلم الأوروبي[63].

وقام جيرارد أيضاً بترجمة كتابات بني موسى والفرغاني والنيريزي وابن قرة وشرح البيروني للخوارزمي وزيج جابر بن الأفلح والزرقالي، وكان هنالك مترجمون آخرون أمثال بلاتو التيفولي الذي ترجم زيج البتاني الى اللاتينية عام 1140 م وميخائيل سكوت الذي ترجم «الهيئة» للبطروجي وروبرت أوف شستر وهرمانوس المانوس. وقد درس أديلارد الباثي مؤلفات العرب الرياضية والفلكية وترجم زيج المجريطي الى اللاتينية عام 1126 م. أما ساكروبسكو الإنكليزي فقد تعلم الكثير من المصادر الجغرافية العربية فأفاد مثلاً من قياسات الفرغاني للأقاليم السبعة التي تنقسم اليها الكرة الأرضية. واعتمد روجر بيكون على المصادر العربية في شؤون الفلك والرياضيات والجغرافية وذكر أسماء علماء عرب أمثال البلخي والفرغاني وابن سينا والبتاني وابن قرة والزرقالي[64].

ويعد كتاب الشريف الأدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» أكثر الكتب الجغرافية العربية رواجاً في أوروبا، فقد ألفه عام 548 هـ/1154 م بناءً على طلب الملك الصقلي روجار الثاني الذي كان من هواة الفلك والذي وجد في الأدريسي خير معين له على إشباع رغبته من ذلك العلم. ولكن الثابت أن «أول ترجمة معروفة لكتاب الإدريسي إنما طبعت في روما عام 1619 م وهي مأخوذة عن مختصر ناقص للكتاب الأصلي والمترجم نفسه كان يجهل اسم المؤلف الذي نقل عنه ثم ظهرت ترجمات لاحقة»[65]. ورغم ذلك فان هذا الكتاب تمتع بصيت واسع جداً في أوروبا وأصبح مؤلفه الممثل الوحيد للأدب الجغرافي العربي في الدوائر العلمية الأوروبية يضاف الى ذلك أنه لم يظهر مصنف مماثل له في وساط مثل الوسط الذي ظهر فيه وهو ذلك الوسط الفريد الذي نصفه عربي ونصفه الآخر أوروبي الذي تقدمه لنا صقلية في ذلك العهد[66].

أما مؤلفات أحمد بن ماجد الملاح العربي الشهير والتي تقرب من أربعين كتاباً فقد أفاد منها الغرب كثيراً وخاصة كتابه المسمى «الفوايد في أصول علم البحر والقواعد» الذي نشره المستشرق الفرنسي جبرائيل فيران (1921-1923) فقد ضم هذا الكتاب معظم المعلومات النظرية والعملية للمسائل الملاحية في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو) ومن هذه المعلومات نشأت الملاحة والإبرة المغناطيسية ومنازل القمر والطرق البحرية والأرصاد الفلكية والعلامات الملاحية وتوجيه السفن وقيادتها والسواحل البحرية والجزر ومواسم الإبحار وغيرها. ولابن ماجد مصنفات منظومة شعراً تسمى «الأراجيز» وهي عبارة عن مرشدات بحرية تخصصية ترتبط بالملاحة وعلم الفلك البحري وأهم هذه الأراجيز «حاوية الاختصار في أصول علم البحار»[67].

ويلاحظ فيراند أن كتاب الفوايد قد تناول علم الملاحة، بالصورة التي كان عليها في أواخر العصور الوسطى وأن وصفه البحر والمعلومات التي قدمها عن الرياح الموسمية والمحلية والطرق وخطوط العرض لعبور المحيط الهندي فهي دقيقة مفصلة. ولقد بلغ من انتفاع الناس بهذا الكتاب ان ظلت ذكراه باقية في جزر المالديف وفي السواحل الهندية في النصف الأول من القرن 19 م[68].

وكانت مصنفات سليمان المهري الحضرمي عديدة أشهرها «العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية» و«المنهاج الفاخر في

(63) كراتشكوفسكي، اغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية 1957، 103/1، 111.

(64) أحمد، نفيس: جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة فتحي عثمان، دار القلم ـ القاهرة 1957 ص 206 وما بعدها، كراتشكوفسكي: المرجع السابق 106/1.

(65) بالنثيا: المرجع السابق ص 313، أرنولد: المرجع السابق ص 143.

(66) كراتشكوفسكي: المرجع السابق 279/1.

(67) كراتشكوفسكي: المرجع السابق 574/2 وما بعدها.

(68) أحمد: المرجع السابق ص 135-136.

علم البحر الزاخر» و«تحفة الفحول في تمهيد الأصول» وفيها معلومات عن الفلك والنجوم والطرق والجزر والقياسات البحرية والرياح الموسمية ووصف البحار والسواحل القارية والموانىء والمسافات بين البلدان والتقاويم الشمسية والقمرية وغيرها من المواضيع. وقد احتلت مؤلفاته الى جانب مؤلفات ابن ماجد مكانة مرموقة في الأدب الجغرافي بكل تفرعاته وعكست صورة دقيقة للأوضاع الملاحية في النصف الثاني من القرن 15 م وخاصة في المجال البحري الممتد بين ساحل أفريقيا الشرقي ابتداءً من رأس الرجاء الصالح وبين ميناء الزيتون في الصين ثم إن هذه المؤلفات تعتبر أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التي كانت تحت تصرف العصور الوسطى المتأخرة عن البحار الجنوبية[69].

وأهتم العرب كثيراً بالخرائط وأن جهدهم العلمي في هذا المجال قد حفظ التراث القديم من الاندثار. ثم إنهم قد صبّوا جهدهم في قالب علمي من صنعهم الخاص وكان من السهل على البحارة العرب أن يحلوا مسائل تحديد الاتجاه وتمثيل المسافة لأنهم مجهزون بالبوصلة والاسطرلاب وربع الدائرة على أن مسألة تصميم الخرائط لم تكن يسيرة. والى جانب الخرائط ظهرت الرسوم البحرية التي دعيت «بورتولاني» وكان ظهورها مهماً للكشف عن المناطق المعزولة في المحيط الهندي والشرق الأقصى والتي وصلها العرب عن طريق رحلاتهم البحرية وظهور الكثير من الربابنة المحترفين كأحمد ابن ماجد وغيره. لقد استفاد الأوروبيون كثيراً من هذه الرسوم حتى إن ماركو بولو يقر أنه استقى معرفته بساحل سيلان والمياه المجاورة من الرسوم البحرية العربية، وكذلك هنري الملاح الذي اكتسب خبرته البحرية من الخرائط والرسوم البحرية العربية[70].

لقد كان محمد بن موسى الخوارزمي أسبق الكتّاب العرب عناية بالخرائط فقد أضاف مجموعة منها الى كتابه «صورة الأرض» ووضع أبو زيد البلخي أول أطلس عربي ألحقه بكتابه «صور الاقاليم» وفي زمن الخليفة المأمون وضعت مجموعة خرائط سماها المسعودي «الصورة المأمونية». وكانت خرائط الإدريسي هي الأثر المهم في هذا الميدان بالنسبة لأوروبا قبل القرن 14 م لأن الإدريسي ساهم بشكل علمي في وضع خرائطه المبنية على تعيين الطول والعرض في العناصر الجغرافية المختلفة[71]. حتى قيل إنه وضع سبعين خريطة للمناطق الداخلة في تقسيمه الأقاليم بجانب كرة سماوية وكرة من الفضة قد بينت عليها الأقاليم السبعة تبعاً للتقسيم المناخي بحسب دوائر العرض وتوضح هذه الخرائط القسم الغربي من العالم الإسلامي بصورة أفضل من إيضاحها للقسم الشرقي منه. ويروي باروس أن أحمد بن ماجد قد أطلع فاسكودي جاما على خريطة لساحل الهند مرسوم عليها خطوط الطول والعرض[72].

إن الخرائط العربية أفضل بكثير من خرائط أوروبا التي يغلب عليها الطابع الأسطوري الديني دون الاهتمام بمطابقتها للأفكار العلمية ويظهر هذا في خرائط بزالتر (1200 م) وهيتير فورد (1280 م) ومارينو سانوتو (1321 م) وايست (1459 م). إلا أن أهم خطوة خطتها أوروبا هي تصميم الخرائط الملاحية وفيها أثر واضح للكتابات والرسوم الجغرافية العربية ثم إن الاوروبيين أقدموا على زخرفة خرائطهم لكي تبدو حيوية وجذابة على عكس الخرائط العربية الخالية من الزخرفة والصور بسبب تحريم إظهار الكائنات الحية بالصور[73].

وقطع العرب شوطاً كبيراً في تطوير وضع الأجهزة العلمية الجغرافية والتي استفاد منها الأوروبيون في الفترات اللاحقة. ويأتي في مقدمة هذه الآلات الإبرة المغناطيسية أو البوصلة والاسطرلاب واللبنة وهي صفيحة مربعة لقياس البعد بين شيئين والحلقة الاعتدالية وتكون مدرجة مثبتة على زوايا قائمة فوق سطح دائرة المعدل لقراءة الميل عند الزوال. ومن

(69) كراتشكوفسكي: المرجع السابق 578/2 وما بعدها.
(70) أحمد: المرجع السابق ص 220، 224.
(71) ميلي، الدو: العلم عند العرب، ترجمة محمد يوسف موسى، دار القلم ـ القاهرة 1962 ص 46.
(72) أحمد: المرجع السابق ص 135، 143.
(73) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 326، أرنولد: المرجع السابق ص 138.

ابتكارات العرب المزولة الشمسية وذات الاوتار وذات السمت والارتفاع والحلقة الكبرى والحلقة الصغرى وغيرها من الأجهزة التي جعلت من العرب أعرف الناس بالنجوم ومطالعها ومغاربها واستخدام مجموعاتها في التعرف على الاتجاهات في عرض البحار ولا تزال الأسماء العربية التي وضعوها هي المستعملة في كتب الملاحة الغربية مع شيء من التحريف ومن الأمثلة على ذلك: الدبران Al Debaran القائد Alkaïd المرقب Markab وغيرها[74].

وكان للعرب رأي أكيد فيما يخص كروية الأرض على النقيض من أوروبا التي كانت غير متفقة حول هذا الموضوع حتى إن القديس سان أوغسطين أعتبر كروية الأرض من المسائل التي لا يمكن التسليم بها[75]. فقد ذكر ابن خرداذبة[76]: «إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمح في جوف البيضة» ويقول ابن رسته[77] «إن الله عزَّ وجلَّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً. والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك». إن هذه المعلومات التي قدمها العرب والخرائط التي صمموها هي التي ساعدت كريستوفر كولمبس في كشوفاته إذ تخيل أن الأرض كثمرة الكمثري المستطيلة ترتفع قمتها في الهند وترتفع قمة أخرى مقابلة لها في مكان آخر يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه. وكانت خريطة الكاردينال بطرس الإيلي التي سمّاها صورة الدنيا والتي اعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها في أوائل القرن 15 م هي التي أوحت الى كولمبس بفكرته هذه[78].

وقد عني العرب بدراسة حركة الأرض بعد أن كان الرأي السائد هو اعتبار الأرض ثابتة في مركز العالم لكن الجغرافيين العرب أمثال علي بن عمر الكاتبي وقطب الدين الشيرازي وأبي الفرج الشامي وأبي سعيد السنجاري قد خامرهم الشك في سكون الأرض فأشاروا الى دورة الارض اليومية غير أن هذه الفكرة نبذت لتعارضها آنذاك مع الفهم السائد عن قوانين الحركة الى أن جاء جاليلو وكبلر فأثبتا صحة ما ذهب اليه العرب الذين فتحوا الطريق أمام إصلاح كوبر نيكوس عام 1543 م وأن المرء ليعجب كيف ظل عمل كوبر نيكوس مؤجلاً هذا الوقت الطويل على الرغم من مثل هذا الإرهاص العلمي المبكر[79].

واهتم العرب بدراسة محيط الأرض الذي ثارت حوله محاولات كثيرة وبذلت محاولات منذ أقدم العصور من قبل الإغريق والهنود. فلقد قام العلماء العرب بعدة محاولات لمعرفة أبعاد الأرض وتم ذلك زمن الخليفة المأمون وقد ذكر ابن يونس المصري (ت 399 هـ/1009 م) هذه المحاولات في الزيج الحاكمي الكبير وذكرها أيضاً ابن خلكان (ت 681 هـ/1282 م) في وفيات الأعيان. وكان من نتيجة هذه الدراسات التي أجريت في أماكن مختلفة من الأرض: إن محيط الأرض يبلغ 248 و41 كم وهو رقم لا يختلف كثيراً عن الرقم الحديث والذي مقداره 070 و40 كم وهذا يدل على مدى دقة الدراسة العربية في ذلك العهد باعتبارها أول قياس حقيقي أجري مع كل ما اقتضته المساحة من المدة الطويلة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل فلا بد من عداد ذلك القياس في أعمال العرب العلمية المجيدة والمأثورة[80].

إن الإنجازات الكبيرة التي حققها العرب في ميدان الجغرافية قد ساعد الأوروبيين على التقدم في هذا الميدان وعندما قامت كشوفاتهم الجغرافية في القرنين 14 و15 م كان اعتمادها على المعلومات العربية عن المناطق التي تم اكتشافها.

(74) أحمد: المرجع السابق ص 177, 183.

(75) سارتون، جورج: تاريخ العلم، ترجمة ابراهيم بيومي مدكور، ط 2 دار المعارف ـ مصر 1970, 146/2.

(76) المسالك والممالك، ليدن 1309 هـ، ص 4.

(77) الأعلاق النفسية، مطبعة بريل ـ ليدن 1891, 12/7-13.

(78) العقاد: المرجع السابق ص 47.

(79) أحمد: المرجع السابق ص 193.

(80) المسعودي، علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، دار الصاوي ـ القاهرة 1938، ص 25، نلنو، كارلو: علم الفلك، روما 1911، ص 281.

(81) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق ص 316 وما بعدها.

فقد عرف العرب اوروبا عدا أطرافها الشمالية وعرفوا النصف الجنوبي والشرقي من آسيا وافريقيا الشمالية وسواحلها الشرقية ووصفوا المناطق التي اكتشفوها بدقة فتحدثوا عن الرياح الموسمية في المحيط الهندي ومواعيدها ووصفوا الخلجان والأنهار والجبال والوديان والبحار والمد والجزر وتطرقوا الى الموارد الاقتصادية وكل ما يتعلق بحياة الناس. وظلت هذه المعلومات التي قدمها العرب مصدراً مهماً للغرب أفاد منه الرحالة والرواد الاوروبيون في عصر النهضة أمثال ماركوبولو الذي استقى معلوماته من رسوم المسلمين البحرية في سيلان ومحاولات بارثولمي دياز البرتغالي للوصول الى الهند عن طريق افريقيا عام 1487 م ورحلة فاسكودي جاما الى الهند عام 1498 م حيث استعان هذا الرحالة بالربان العربي ابن ماجد الذي قدم له معلومات ملاحية دقيقة عن رحلته إضافة الى الأجهزة الملاحية التي أهداها له[81].

ونخلص مما تقدم ان الجغرافية الحديثة تدين بالكثير الى جهود العرب الذين حملوا مشعل هذا العلم الوشيك الانطفاء فرعوه بجهودهم العلمية وبعثوا فيه الحياة من جديد حتى إذا تفاعل معه الغرب كان مصدراً ينبض بالحيوية والعطاء خلده التاريخ واعترف بفضله المنصفين من المستشرقين.

الفكر الصوفي العربي وانعكاساته على التصوف الأوروبي:

لقد شكل تأثير التصوف العربي مساحة كبيرة في الفكر الصوفي الأوروبي شأنه في ذلك شأن بقية العلوم الإنسانية والتطبيقية، مع ملاحظة أن هذا التأثير لم يكن محصوراً في الإطار العام وإنما تعداه الى المضمون كذلك. وهنا نعرض الى بعض أوجه التأثير لنستدلّ من خلالها على شمولية وعمق ما تركه التصوف العربي على الغرب من تصورات وهذا ما أكده كبار المستشرقين الاوروبيين أمثال خوليان ريبيرا وآسين بلاثيوس».

فلقد بيّن ريبيرا وبلاثيوس أن رامون لل الصوفي الميورقي (1235-1316 م) كان أحد الذين تأثروا بالمتصوفة العرب وخاصة محيي الدين ابن عربي (ت 638 هـ/1240 م) فهو يلتقي معه في أن العلم واحد وهدفه البحث عن الواحد والعلوم تدرك عن طريق الإيمان أو العقل وعندما يعجز التفكير النظري عن الوصول الى كنهها يكشف الله عن كنوزها لعباده عن طريق الإشراق[82].

وفي بعض الأحيان يكون التشابه بين كتابات الرجلين حرفي مثل قولها «النورين» و«الذوق المريض» وكلاهما عن «الفضائل الخفية لأسماء الله» وقول لك بنظرية «المقامات» وهي ليست الا رجمة للفظ «الحضرات» وهو مصطلح صوفي يعبر عن «كمال اسم الله» ويذكر الرجلين أسماء حضرات مثل: «Senoria الربانية»، «Misericrdia الرحموت» و«Gloria العزة» وغيرها كثير.

وأخذ لُل عن ابن عربي طريقة الرمز بالحروف للتعبير عن آراء ما وراء الطبيعة وأخذ عنه استعمال الأشكال الهندسية لكي يعبر عن حقائق ميتافيزيقية وآلهية بصورة ملموسة كأن يرسم مركز دائرة يرمز بها الى الله مصدر النور ثم يرسم خطوطاً شعاعية من المركز الى محيط الدائرة يرمز بها الى كل الكائنات كناية عن صدورها عن النور الإلهي. أما رسم الأشجار فالغاية منه تفسير وحدة العلم وتفرع الوجود كله عن أصل واحد. كما أخذ عنه مصطلحه الصوفي الخاص لأن الآراء الخاصة بعلوم التصوف الإلهية إنما تتحصل عن طريق الذوق الصوفي لا عن طريق العقل[84].

لقد كتب لُل رسالته المسماة «بلا نكيرنا» وغايتها تنظيم مجمع كرادلة روما إذ جعل لكل كاردينال إسماً اشتقه من ترتيلة «المجد في الأعلى» فهناك كاردينال يسمى «نحمدك» وآخر «نباركك» وهكذا، وهذا تقليد لابن عربي الذي أعطى الأقطاب القاباً اقتبسها من القرآن الكريم مثل «الله محمود»

---

(82) بالنثيا: المرجع السابق ص 544.

(83) للمزيد من المعلومات عن الحضرات الالهية انظر ابن عربي، محيي الدين: الفتوحات المكية، تحقيق د.عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب 1977 الجزء الرابع، بالنثيا: المرجع السابق ص 545.

(84) بالنثيا: المرجع السابق ص 548.

و«الحمد لله دوماً» وهكذا. أما كتاب «الصديق والمحبوب» فيتفق في مبدئه مع ما ذكره ابن عربي في كتابه «ترجمان الأشواق» إذ يقول لُل: «إن الغاية التي يؤدي اليها الحب الروحي هي المطابقة» (المنازلة عند الصوفية) وذلك بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات المحب وأن تكون المطابقة متبادلة فتصير ذات المحب نفس ذات المحبوب كذلك»[85].

أما موضوع ما بعد الحياة الذي شرحته المصادر الإسلامية فقد وصل أوروبا منذ القرن 9 م وظهرت كتابات العلماء ورجال الدين والأدباء الاوروبيين منذ القرن 13 م حتى القرن 15 م وفيها صور عن الحياة الآخرة مع تركيز خاص على الإسراء والمعراج الإسلامي وأبرز من كتب في هذا الموضوع رود ريجو أكزيمنيز ورامون لُل وفاتزبودلي أوبرتي وغيرهم[86].

وفي القرن الحالي قام المستشرق آسين بلاثيوس بدراسة معراج الرسول (ص) كما وردت في المصادر الإسلامية ومدى تأثير هذ المصادر على ما كتبه دانتي في الكوميديا الإلهية وتوصل الى وجود تشابه كبير لم يحدث بشكل عفوي وإنما تم بفعل التصويرات الإسلامية للآخرة وخاصة كتاب محيي الدين أبن عربي عن معراج الرسول (ص). وجاءت الدراسات التي قام بها أنريكو تشيرولي وغيره من الباحثين لتؤكد ما ذهب إليه بلاثيوس من قبل.

إن صور التشابه التي حددها بلاثيوس بين معراج الرسول (ص) وبين الكوميديا الإلهية كثيرة جداً أبرزها أن بطل الرحلة هنا وهناك هو الذي يحكي قصة صعوده الى السماء ليلاً. ومثلما كان جبريل دليلاً لمحمد (ص) في رحلته كان فرجيل دليلاً لدانتي. وأن صور العذاب متشابهة في جحيم دانتي وجهنم المعراج الإسلامي وكذلك الحال بالنسبة لصور الصفاء الروحي في فردوس دانتي ودار النعيم الإسلامية. أما النسر الذي رآه دانتي في سماء جوبيتر فأنه يمثل الديك الذي رآه محمد (ص) وهو يردد ترتيلات دينية. وأخذ دانتي فكرة الليمبو من الأعراف الإسلامية (تل بين الجنة والنار) كما أخذ فكرة الجنة السماوية (الوردة الصوفية أو الوردة الدانتية) من الجنات الثمان التي ذكرها ابن عربي والتي تضم شجرة طوبي، ويسترسل بلاثيوس في تحديد التشابه حتى يصل في بعض الأحيان الى التطابق الحرفي[87].

ولا بد أن نشير الى مسألة مهمة وهي أن كل من ابن عربي ودانتي قد أكدا على المعاني والدلالات الرمزية والأخلاقية لأن الهدف الأخير للحياة هو السعي لرؤية الله ولا يتأتى هذا إلا عن طريق الإيمان والفضائل الإلهية[88].

أما الموضوع الآخر الذي أثر في بعض المتصوفية الغربيين وخاصة الصوفي الإسباني يوحنا الصليبي فهو «القبض والبسط» وفيهما يقول ابن عبادة الرندي[89] أحد اتباع الطريقة الشاذلية: «القبض والبسط من الحالات التي يتلون بها العارفون وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمؤيدين المبتدئين وسببهما الواردات التي ترد على باطن العبد وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الواردات وضعفها.. وكان الجُنيد يقول: «الخوف يقبضني والرجاء يبسطني والحقيقة تجمعني والحق يفرقني، إذا قبضني بالخوف أفناني عني، وإذا بسطني بالرجاء ردّني عليَّ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري فغطاني عنه فهو في ذلك محركي غير مسكني وموحشي غير مؤنسي، فحضوري لذوق طعم وجودي فليته أفناني عني أو غيبني عني فروحني». والعارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل وذلك لأنه مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد خورهم وكثرة لجئهم والقبض أقرب الى وجود السلامة لأنه وطن العهد إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار، إذ هي وطن

---

(85) بالنثيا: المرجع السابق ص 549.

(86) البجيري، دانتي: الكوميديا الالهية، ترجمة حسن عثمان، دار المعارف ـ مصر 1955، 58/1.

(87) بالنثيا: المرجع السابق ص 552 وما بعدها.

(88) انظر ابن عربي: المصدر السابق 83/5، بالنثيا: المرجع السابق ص 564.

(89) شرح الحكم العطائية، المطبعة الكاستيلية ـ مصر 1297 هـ، ص 95-96.

التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العمل بالسابقة والمطالبة بحقوق الله».

وكان أبو الحسن الشاذلي زعيم الطريقة الشاذلية في التصوف يقول إن القبض والبسط قلما يخلو منهما العبد وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار[90]. وهذا التشبيه أخذه يوحنا الصليبي عند كلامه عن «الليلة الظلماء للروح» إذ يميز بين نوعين من الليلة الظلماء: الليلة الحسية والليلة الروحية. الأولى مرّة رهيبة الحواس والثانية أرفع شأناً وهي للصفوة المختارة من الكاملين. وفي الأولى تحاول النفس أن تتطهر من الشهوات ولكنها تسير في طريق مظلم فلا تدري أين تتجه وتنبو عن الرياضة والمجاهدات والتأملات حتى إذا ألقى الله بصيصاً من النور في قلب المريد بدأ يدخل في الليلة الروحية فيظهر من الجهالات ويلهم الله النفس التقوى ويصفيها من أدران الحواس فتكون مستعدة لقبول الغيوضات النورانية من الذات العليا[91].

كذلك يتفق الاصطلاح الفني عند الرندي والصليبي: فكلمة قبض يستعمل لها يوحنا كلمة Anchura وكلمة بسط يقابلها كلمة Aprieto وكلمة تجريد يقابلها كلمة Desnudez والى آخره من المصطلحات. إن تفسير التشابه بين الرجلين مرده أن الطريقة الشاذلية انتشرت في الأندلس في القرنين 14 و15 م ولا بد أنها بقيت بين المسلمين هناك حتى بعد زوال الحكم العربي عام 1492 م وعن هؤلاء تلقى يوحنا الصليبي علمه بالطريقة الشاذلية[92].

أما تأثير الغزالي في باسكال المفكر والرياضي الفرنسي بخصوص موضوع الآخرة فهذا واضح جداً. إن باسكال يوجه خطابه الى من أنكروا الآخرة قائلاً: «إذا كسبتم كسبتم كل شيء وإذا خسرتم لم تخسروا شيئاً وإذا لم يكن هناك آخرة فلن تخسروا شيئاً فالأولى إذن أن يراهن المرء على ما هو مضمون المكسب على كل حال»[93].

هذه الحجة التي قالها باسكال والتي سميت «رهان باسكال» سبق أن ذكرها الغزالي[94] على لسان الإمام علي (رض) فيقول: «يقول الإمام علي (رض) لمن كان يشاغبه ويماريه في أمر الآخرة: ان كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً. وإن كان الأمر كما قلت فقد هلكت ونجوت».

إن تفسير هذا الاتفاق بين الاثنين يقودنا الى واحد من احتمالين: إما أن يكون باسكال قد عرف كلام الغزالي عن طريق مستشرق معاصر لباسكال أو أن باسكال تنبّه الى أسم الغزالي وآرائه عندما أطّلع عليها في كتاب «خنجر الإيمان» الذي ألّفه ريموند مارتن[95].

(90) المصدر نفسه ص97.

(91) بدوي: المرجع السابق ص 26.

(92) بدوي: المرجع السابق ص 26-27.

(93) بدوي: المرجع السابق ص 27.

(94) ميزان العمل، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف ـ مصر 1964، ص 189.

(95) بدوي: المرجع السابق ص 28.



الحياة الاقتصادية في العراق
في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك

أحمد عبد الله عودات

كُلية حوارة ـ إربد

تركت الحياة الاقتصادية في العراق خلال العصر الأموي أثراً واضحاً في حياة الدولة الإسلامية وتاريخها. إذ لا يخفى ما كان للظروف الاقتصادية من أثر كبير في تطور نواحي الحياة، وبخاصة الناحية الاجتماعية حيث إنّ الوجود الاجتماعي أو أسلوب الناس في المعيشة هو الذي يُحدّد طريقة تفكيرهم. وعليه فقد تطوّرت الحياة الفكرية بصورة عامة في هذا العهد فكانت مصدراً لكثير من التيارات التي صبغت حياة الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية بألوان شتى. فحياة المجون واللهو والشعر وغيرها تمثل انعكاساً للتطور الاقتصادي.

كما لعبت التجارة دوراً كبيراً في نشر الدعوات والآراء والمبادىء التي قرّبت الأفكار من بعضها وكانت واسطة لنقل الوسائل الحضارية إلى كثير من المجتمعات والبلدان والأقطار.

لذلك كان لا بدّ من أن نتعرّض إلى الحياة الاقتصادية في العراق في عهد هذا الخليفة. وكيف أحدثت هذه الحياة أثرها في المجتمع.

الزراعة في العراق في عهد هشام بن عبد الملك

شهد العصر الأموي اهتماماً واضحاً بالزراعة، تَمثّل بمسح الأراضي ونقل المزارعين إلى العراق، وحفْر الأنهار وشقّ الترع وتجفيف المستنقعات وإقامة القناطر وإنشاء السدود.

ففي ما يتعلق بمسح الأراضي الذي كان الهدف منه تنظيم ملكيتها وزراعتها من ناحية، وتنظيم الضرائب المفروضة عليها من ناحية أخرى، سار هشام على سياسة من سبقه، ذلك أنّ أراضي السواد المفتوحة بالقوة تُركت بيد أصحابها يؤدون عنها ضريبة الخراج من غير أن تخضع للبيع والشراء، حتى إذا ما أسلم أصحابها رُفعت عنهم الجزية[1]. وتُركت أراضيهم فيئاً للمسلمين[2]، خلافاً لأراضي الفيء التي صولح أهلها عليها. إذ يجوز بيعها ويكون خراجها مقابل إيجارها ولا يسقط خراجها بالإسلام. عكس التي صولح على بقائها لأصحابها والتي يجوز بيعها ويسقط خراجها بالإسلام[3].

أما بالنسبة للأراضي التي لم تكن في يد أحد، والتي أُطلق عليها الصوافي[4]، فقد عولجت بعدة طرق: إمّا أن يعمرها

---

(1) يؤدي الفلاحون الخراج عنها ولو أسلم أصحابها. قال الإمام علي بن أبي طالب: «إن أقمت في أرضك رفعنا عنك جزية رأسك، وإن تحولت عنها فنحن أحق بها». «ابن آدم: الخراج: ص 27».

(2) الفيء: هو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب. أبو يوسف: الخراج: ص 27. الماوردي: الأحكام السلطانية: ص 126.

(3) الماوردي: الأحكام السلطانية: ص 138.

(4) الصوافي: وهي الأراضي التي كانت لكسرى وأهل بيته وأرض مَنْ قُتل في الحرب وأرض مَنْ هرب وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النار والآجام وغيرها حيث اصطفاها عمر وأصبحت ملكاً للدولة الإسلامية (فتوح البلدان: ص 272 ـ يوسف: الخراج: ص 57 ـ ابن آدم: الخراج 63/3).

الوالي ويؤدي عنها إلى بيت المال، أو أن يُنفق عليها ويستأجر مَنْ يقوم بأمرها أو أن يُقطعها أحد المسلمين[5].

ولعلّ نقْل المزارعين إلى الأراضي الزراعية الجديدة في منطقة سواد العراق والذي كان موضع اهتمام الخلفاء[6] - من قَبْل هشام - يُوفّر خبرات وتجارب تساهم في زيادة الإنتاج وتطوير طرق الاستغلال مما يعود بالخبرة والخير على المزارع خاصة وعلى الدولة بصورة عامة.

واختلفت حالات النقل فمنها ما كان عن رغبة واختيار - وهو ما حدث في بداية الفتح عندما هرب فلّاحو السواد - ثم ما لبثوا أن عادوا بعد أن دُعوا إلى ذلك[7] وكذلك ما حدث لمن أسلموا بعد القادسية عندما طلب منهم النزول إلى الكوفة، والبصرة كالديالمة الذين نزلوا الكوفة[8].

ومنها ما كان نقلاً بالقوة: كالذي حدث للسبابجة[9] والزط[10] الذين أتى بهم أبو موسى الأشعري وأنزلهم البصرة[11]، ومَنْ نقلهم معاوية بن أبي سفيان، والوليد بن عبد الملك من الزط والسبابجة إلى سواحل الشام وانطاكية، ومَنْ ألزمهم عبيد الله بن زياد من أهل بخارى على الإقامة بالبصرة والذين نقلهم الحجاج فيها بعد[12] وكذلك ما حدث لجماعات من زط السند التي أتى بها الحجاج وأنزل أفرادها كسكر[13]. وإذا كانت الخبرة واليد العاملة المدرّبة من عوامل تقدم الزراعة وازدهارها، فإن المياه هي العنصر الذي لا تقوم الزراعة إلّا عليه، سواء أكانت أمطاراً أم مياهاً جارية أم جوفية، لذلك أظهر الأمويون اهتماماً بمشاريع الري. حيث تجلّى ذلك في إعادة حفر نهر الأبُلّة من جديد حتى أوصل إلى البصرة[14]. ولم تكن أحداث العصر الأموي لتعيق التوجُّه نحو الزراعة وعلى العكس من ذلك، فقد أولى ولاتهم اهتماماً في هذا السبيل. فلجأوا إلى حفر الأنهار. فبالإضافة إلى الأنهار الكثيرة التي تمّ حفرها منذ عهد معاوية[15]، حُفرت أنهار الصين والنيل والزابي[16]. ونهر عدي[17] وسعيد الخير[18]، كما حُفر نهر آخر بواسط[19].

وتجسَّد هذا الاهتمام بحفر نهر الجامع بالكوفة[20] وحفْر نهر المبارك[21] الذي وصفه الفرزدق وحرص على أن يجعل الخليفة

---

(5) ابن آدم: الخراج: ج 3، ص 63.

(6) الأحكام السلطانية: ص 148.

(7) الطبري: ج 3، ص 589.

(8) البلاذري: فتوح البلدان: ص 449.

(9) السبابجة: قوم من السند والهند كانوا بالبصرة (لسان العرب: ج 2، ص 294).

(10) الزط: جنس من السودان والهنود، وقيل إنهم من بلاد السند (لسان العرب، ج 13، ص 308).

(11) فتوح البلدان: ص 522.

(12) المصدر نفسه: ص 524.

(13) المصدر نفسه: ص 522.

(14) أول من حفر هذا النهر أبو موسى الأشعري بأمرٍ من عمر بن الخطاب، لكنه هُدم. فأعيد حفره في ولاية بن أبيه. (فتوح البلدان: ص 479 - الوزراء والكتاب: ص 19).

(15) حفر معقل بين يسار نهر معقل، وحفر زياد بن أبيه نهر أم حبيب ونهر البنات نسبة إلى بناته، وعبد الله بن عامر الذي حفر نهر الأساورة، ونهر أم عبد الله تخليداً لذكرى أمه. (فتوح البلدان: ص 500 - المعارف: ص 246 - البيان والتبيين ج 1، ص 210).

(16) الزابي: سماه الحجاج زابيا لأخذه من نهر الزابي القديم (فتوح البلدان: ص 408).

(17) تمّ ذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. (المعارف: ص 246 - اليعقوبي: ج 2، ص 306).

(18) حفر هذا النهر سعيد بن عبد الملك. (فتوح البلدان: ص 247).

(19) فتوح البلدان: ص 516.

(20) نهر الجامع: هو نهر بقرب الكوفة حفره خالد القسري.

(21) نهر المبارك: حفره خالد القسري بجهة واسط. قال فيه الفرزدق:

أعطى خليفته بقوة خالد ... نهراً يفيض له على الأنهار

وقال:

كأنّك بالمبارك بعد شهر ... تخوض غموره بقع الكلاب

(فتوح البلدان: ص 408).

هشام بن عبد الملك شريكاً في فضل حفْره[22].

وتجدر الإشارة إلى الجهود الفردية التي بذلها الأشخاص في مجال شق القنوات والتي ساهمت في تقدم الزراعة[23].

ولأهمّية المياه في حياة الدولة، عمل أهل البصرة على تخزين مياه الأمطار بصهاريج يحفرونها لهذا الغرض. فكان نشاط الأمويين في هذا المجال واضحاً[24]. وامتازت أنهار العراق بوجود جزر في وسطها ذات أراضٍ خصبة لكثرة ما تحمله من الطمي ولسهولة ريّها[25] الذي ساعد عليه المد والجزر أيضاً.

ورغم انتشار الأنهار في أنحاء العراق - بالإضافة إلى دجلة والفرات - كنهر الأبله والزاب الكبير والزاب الصغير ونهر الخابور وحولايا، فإنَّ أهل البصرة اعتمدوا على المطر في ريّ أراضيهم[26]. وكانوا يشتكون من ملوحة دجلة ويطلبون من وُلاتهم حفر أنهار عذبة. خلافاً لأهل السواد الذين اعتمدوا على مياه الفرات لري مزروعاتهم[27].

وكان من عناصر تطوير الزراعة في هذا العهد: زيادة مساحة الأراضي المستغلة، وتمثّل ذلك بتجفيف البطائح «المستنقعات»، إذ إنَّ إحياء الأراضي الموات ساهم في زيادة الإنتاج وارتفاع الدخل. فكانت الدولة تسمح لِمَنْ أحيا أرضاً مواتاً أن يمتلكها ويزرعها، أو أنْ يؤجّرها ويحفر الأنهار فيها[28]. كما كانت تنتزع ملكية الأرض من كل من يُعطّل أرضه ثلاث سنوات وتُعطيها لِمن يُعيد إليها الحياة[29]. وعني الأمويون كذلك بإقامة الجسور والقناطر والمسنيات[30] لتسهيل عمليات الزراعة وحركة التجارة وسهولة نقل الإنتاج ومكافحة الفيضانات.

وفي هذا المجال أُقيم جسر كبير في مدينة الكوفة[31] بهدف منع الفيضانات حيث بقي هذا الجسر طوال عهد الأمويين، خاصة وقد أُجريت عليه الإصلاحات من قبل عمر بن أبي هبيرة وخالد القسري ويزيد بن عمر، ثم أُصلحت بعد بني أمية مرات[32]. ولعلّ اهتمام هشام بن عبد الملك بتعمير الأراضي وإحياء الموات منها، وحفر الأنهار وتجفيف المستنقعات نابعٌ مِن رغبته القوية في زيادة إيراداته وحُبّه الشديد للمال حسب ما تقوله الروايات التاريخية[33]. ولم يكن خالد القسري - والي العراقي - والذي شارك هشاماً هذا الاهتمام بجمع المال ليغفل هذا الأمر. فقد اهتم من جانبه بحفر الأنهار أملاً في زيادة إيراداته الخاصة[34]. ولم يلبث هذا الاهتمام أن أعطى ثماره، حيث بلغت إيرادات أراضيه في العراق ثلاثة عشر مليون درهم[35]. وهو مقدار قيل[36] إنه

(22) البلاذري: فتوح البلدان: ص 408.

(23) أوصل فيروز موسى ربيعة بن كلدة الثقفي المياه إلى الأرض التي منحه إيّاها عثمان بن عفان وكذلك فعل العلاء بن شريك الهذلي ومكحول بن عبد الله السعدي وغيرهم.
فتوح البلدان: ص 503-504 - ابن قتيبة المعارف: ص 246.

(24) قام الحجاج بن يوسف بحفر صهاريج للعامة، كما قام بمثل ذلك عبد الله بن عامر وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله من قبل (فتوح البلدان: ص 516).

(25) الطبري: ج 3، ص 73.

(26) أبو الفراء: تقويم البلدان: ص 19. - كان أهل البصرة لا يروُون أرضهم من مياه دجلة وقت المد وإنما يروُونها إذا جزر الماء. «الأصطخري: المسالك والممالك: ص 57».

(27) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: ص 281.

(28) أبو يوسف: الخراج، ص 71.

(29) ابن آدم: الخراج: ج 3، ص 91, 92. «ويذكر البلاذري: فتوح البلدان: ص 310 أنها كانت تُسترد بعد عامين من عدم استعمالها».

(30) المسنيات: السدود: وتتكوّن من قش وتراب في وجه المياه الجارية.

(31) أقام هذا الجسر زياد بن أبيه: - فتوح البلدان: ص 402-403.

(32) فتوح البلدان: ص 402, 403.

(33) المسعودي: مروج الذهب: ج 3، ص 20.

(34) الطبري: ج 7، ص 151, 152.

(35) المصدر نفسه: ج 7، ص 143.

(36) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

أثار الغيرة في نفس هشام مما دفعه إلى عزله عن ولاية العراق.

وإذا صحّت الرواية[37] التي تذكر أنّ خالداً ترك المياه تطغى على ضياع هشام وتُغرقها. فإن ذلك يزيد من الاعتقاد بأنه كان يشعر بالغيرة تجاه هشام لِمَا كان يمتلكه من ضياع.

وهكذا تحظى الزراعة بعناية كبيرة في عهد هشام، وتتجلى باستصلاح الأراضي وحفر الأنهار وشقّ القنوات فيها والتخفيف من أعمال الفلاحين[38]. وقد يكون لامتلاك الخلفاء والولاة للضياع الواسعة في هذا العهد أثر في زيادة الاهتمام بشؤون الريّ مما عاد بالفائدة على الفلاحين بالعراق[39] وهو أمر ترتّب عليه نموّ الثروة الزراعية.

وعَرف العراق في هذا العهد كثيراً من أدوات الريّ: إذ استخدموا الدلو والساقية لاستخراج المياه من الآبار والأنهار[41]. ونصبوا النواعير[42] على الماء مثلما نصبوا الطواحين التي يديرها الماء وتوضع في سفينة تنتقل من مكان إلى آخر في نهر دجلة[42].

وما كانت الزراعة لتُصيب ما أصابته من تقدم وازدهار لولا الخطوات الإيجابية التي اتبعتها الحكومة في مجال تشجيع المزارعين واستغلال موارد الإنتاج وتحسين أوضاعهم. إذ أعفت كثيراً من المحاصيل الزراعية كالأعلاف والبقول والخضروات والقطن والكتان من الزكاة[43]. كما رفعت الخراج عن الأراضي التي لا تصلها المياه والتي تصاب محاصيلها بالآفات والأمراض[44]. ووضعت الخراج والعشر عن ثمار الأودية والجبال[45]. ولم تؤخذ الصدقة عن البقر والإبل للدور الذي تشغله في العمل الزراعي[46]. وهذا ما شجّع الإقبال على العمل الزراعي وتوفير الغذاء للناس والمواد الزراعية اللازمة للصناعة، مما ترتب عليه هبوط الأسعار وزيادة الإنتاج الزراعي.

وتبرز أهميّة البقر في العمل الزراعي من أنّ الحجاج كان قد منع سكان السواد من ذبحه حتى لا يؤثر ذلك على الحرث والري[47]. وقد حدث أن أسْلَفَ مزارعي السواد مبلغ مليوني درهم من بيت المال لإعمار الأرض وتحسينها[48].

كما أنّ الدولة عملت على تقديم المعونة للمزارعين لتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة وخففت الضرائب عن الفلاحين وألغت السخرة في أعمال الأرض[49] وهكذا فقد تضافرت جميع هذه العوامل وساعدت على نمو الثروة الزراعية فزادت مساحة الأراضي بحيث أصبحت خلال الحكم الأموي مائة وخمسة وعشرين مليون جريب[50].

وتَمثَّل نمو الزراعة بالعراق بانتشار البساتين وما حفلت به من الأزهار والنباتات التي تُستخرج منها الروائح العطرية.

---

(37) الجهشياري: الوزراء والكتاب: ص 61.
(38) أبو يوسف: الخراج: ص 72.
(39) الوزراء والكتاب: ص 61.
(40) القزويني: آثار البلاد: ص 459 ـ إبو يوسف: الخراج: ص 29.
(41) الناعورة: دولاب يديره تيار الماء. وكانت منطقة النهروان من المناطق التي تستعمله.
(42) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: ص 309.
(43) الماوردي: الأحكام السلطانية: ص 118.
(44) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي: ج 2، ص 152.
(45) أبو يوسف: الخراج: ص 76 ـ الأحكام السلطانية: ص 118.
(46) الأحكام السلطانية: ص 149.
(47) ابن رسته: الأعلاق النفيسة: ص 105 ـ ابن خرداذبه: المسالك والممالك: ص 15.
(48) معجم البلدان: ج 3، ص 274 ـ الأعلاق النفيسة: ص 105 ـ ابن خرداذبه: ص 15.
(49) فتوح البلدان: ص 515 ـ اليعقوبي: ج 2، ص 306.
(50) الجريب: مكيال قدره أربعة أقفزة ويستعمل في المساحة. وقدره من الأرض ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، وقيل عشرة آلاف ذراع، وقيل مقدار معلوم من الأرض وهو ما يحصل من ضرب ستين ذراع في نفسه (أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي: ص 93 ,94 ـ دار الجيل).

فكان ينمو بالكوفة الأقحوان[51] والشيح[52] والقيصوم[53] والشقائق[54] وقسب العنبر[55].

وكان الورد والياسمين مِمّا امتازت به أرض السواد[56]. إذ لم يَخْلُ بيت في الحيرة طوال العهد الأموي من الرياحين[57].

وانتشرت في العراق زراعة أنواع كثيرة من الفواكه. كان أشهرها التمر الذي فخر بكثرة زراعة أشجاره العراقيون على أهل الشام. فتميزت الأولى عن غيرها بأنواعه المميزة[58]، وكان أوّل نبات زرع في البصرة عند إنشائها[59]. وعرفت العراق أصنافاً متعددة من الكرمة مثل عنب دير العاقول وسروج وحلوان[60]، فقد كانت زراعة الخضروات كالبطيخ والقثاء والخيار والباذنجان والجزر مما أولته الحكومة عنايتها[62].

ولم يقتصر إنتاج العراق في هذا العهد على ما ذكرنا آنفاً وإنّما أنتجت في مناطقه الحنطة والشعير والعدس والجاورس[63].

ومثلما اشتهرت البصرة بزراعة الأرز الذي كان مصدراً رئيسياً لخبز السكان بها[64] امتازت أديرة العراق بأشجارها اليانعة وأزهارها المتنوعة وغلالها الوفيرة وبساتينها التي تجري فيها المياه والأنهار[65].

ويتمثل النشاط الزراعي في العراق فيما نُقل إليها من نباتات ومزروعات لم تكن معروفة من قبل، حيث جيء بها من المناطق الشرقية وزُرع أوّلاً في البصرة ثم انتشرت زراعته في أنحاء العراق، وكثر تواجده في سواحل مصر والشام[66]، حيث المناخ الملائم والبيئة الصالحة للزراعة.

وهكذا نرى أنَّ العراق قد أولى الزراعة اهتماماً كبيراً في عهد الأمويين عامة وفي عهد هشام بن عبد الملك خاصة. وأنَّ مظاهر تقدمها تجلّت فيما كانت تنتجه العراق من الفواكه والخضروات والمحاصيل المختلفة.

ولعلّ ذلك يرجع إلى سياسة هشام وعماله في تشجيع الزراعة وتطوير وسائلها.

الصناعة في عهد هشام بن عبد الملك

لم تتجاوز الصناعة عند العرب حتى العصر الأموي الصناعات التقليدية التي تسُدُّ حاجات الناس الضرورية. إذ لم تكن عندهم صناعة بالمعنى الذي هو عليه في وقتنا الحاضر. غير أن اختلاطهم بالسكان ودخول الخبرات الجديدة والمهارات المتنوعة في الدولة، واختلاف حاجات المجتمع الجديد قد أسهم في تطور هذه الصناعة، فقامت الصناعات

(51) الأقحوان: نبات سهلي فيه رائحة طيبة.
(52) الشيح: نبات سهلي يتخذ من بعضه المكانس وهو من الإمرار له رائحة طيبة وطعم مُر وهو مرعىً للخيل منابته القيعان (لسان العرب 502/2).
(53) القيصوم: نبات سهلي. والقصيمة: سهل من الأرض كثر شجره. والقصيمة: منبت الغضى والأرض أو السلم (ج 12، ص 286).
(54) الشقائق: شقائق النعمان: نبتٌ سميت بذلك لحمرتها على التشبيه بشقيقة البرق. وسميت شقائق النعمان بن المنذر (لسان العرب: 181/10).
(55) قسب العنبر: نبات كان يعيش في بلاد الشرق: (عيون الأخبار: ج 1، ص 211 - فتوح البلدان: ص 390).
(56) العقد الفريد: ج 6، ص 249.
(57) الأغاني: ج 4، ص 25.
(58) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ج 1، ص 221.
(59) معجم البلدان: ج 1، ص 432 - فتوح البلدان: ص 613.
(60) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 122-125.
(61) انظر: فتوح البلدان: ص 613 - معجم البلدان: ج 1، ص 440 - القزويني: آثار البلاد: ص 152 - تجارب الأمم: ج 1، ص 294 ابن خرداذبه: المسالك والممالك: ص 13 ,14.
(62) البلاذري: أنساب الأشراف: ج 5، ص 39.
(63) ابن خرداذبه: ص 13 ,14 - أبو يوسف: الخراج: ص 56 - تجارب الأمم: ج 1، ص 291 الجاورس: حبة الدخن (لسان العرب: ج 13، ص 149).
(64) عيون الأخبار: ج 1، ص 221 - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان: ص 187.
(65) الشابستي: الديارات: ص 171.
(66) المسعودي: مروج الذهب: ج 1، ص 378.

على أيدي الذين دخلوا الإسلام من غير العرب وأصبحوا جزءاً من المجتمع الجديد، فكانوا العنصر المنتج والعامل الذي أدّى إلى تحسينها.

وكان لاتساع الدولة وسهولة انتقال التجار، وموقع العراق المتوسط، وارتفاع دخول الأفراد ـ بسبب امتداد أطراف الدولة ـ أثر في إقبال الناس على المنسوجات وشراء الألبسة، الأمر الذي ساعد على نمو الصناعة وازدهارها[67] ولعلّ صناعة النسيج كانت مِنْ أهم الصناعات التي ظهرت في العراق في القرن الأول الهجري كما أنّها تعتبر مِنْ أقدم الصناعات اليدوية هناك. فكانت حوانيت النسيج هي الصفة الغالبة على الكوفة مثلاً. وأنَّ الحياة جعلت العناية بالملابس أمراً ضرورياً[68].

ومن البديهي أنْ تكون صناعة النسيج أوّل أمرها صناعة بسيطة ذات أغراض محدودة. ولكنها تطوّرت بمرور الزمن. ولعلّ توفّر المواد الخام وخاصة القطن ووجود الأيدي العاملة المدربة ذات الخبرة الطويلة في هذا المجال، هو الذي ساعد على هذا التطور[69]. فكانت صناعة الخز[70] والقطف أكثر رَواجاً من غيرها في عهد الخليفة هشام، فانتشرت في العراق وفي غيره من الأمصار[71].

وتميزت كل مدينة من مدن العراق بنوع معين من الصناعات. فاشتهرت البصرة بجودة صناعاتها التي تمثلت بإنتاج أفضل أنواع الخز والبز والديباج، حتى إنها تفوقت بذلك على الكوفة والشام[72].

ومَهَرت الموصل بصناعة الوشي والمطارف والزرابي والأنماط والثياب المصنوعة من القطن والكتان والثياب الرقيقة[73]. وكان أهلها يُخصّصون لكل صناعة شوارع خاصة تسمى بأسمائها، وعُرف لكل حرفة شعار خاص بها[74].

ومن دراسة تلك الحرف وُجد أنّ اليهود كانوا أكثر الفئات اهتماماً بالصناعة حيث احترفوا الصباغ ونسج الحرير وصناعة الزجاج والسفن[75].

وذاعت شهرة الكوفة بين سائر الأمصار بأنّها تُجيد عمل الوشي والخز[76]. وليس أدلّ على ذلك من قول ابن الفقيه: «إنّ للكوفيين مهارة خاصة في صنع الوشي وفي صنع الخز»[77]. ولاقت هذه المنسوجات رواجاً كبيراً في الأقطار الإسلامية كافة. كما كانت للكوفة شهرة واسعة في صنع العمائم الكوفية المنسوجة من الخز المشهورة بجمالها وجودتها[78]. وكذلك صنعت المناديل الحريرية المستعملة لتغطية الرأس والتي لا تزال تُسمى حتى اليوم بالكوفية[79]. ومن المنسوجات الكوفية أيضاً الثياب أو الحلل النّجرانيّة التي نَقل عرب اليمن صناعتها إلى الكوفة[80].

وتشير المصادر التاريخية[81] إلى أنّ العراقيين كانوا يُصدرون

(67) سيد خليفة: تاريخ المنسوجات: ص 144.
(68) الزبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة: ص 191.
(69) انظر أبو الفرج الجوزي: تاريخ عمر بن الخطاب: ص 132.
(70) الخز: نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير (الزبيدي: ص 191).
(71) المسعودي: مروج الذهب: ج 3، ص 217.
(72) عيون الأخبار: ج 1، ص 217 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 128.
(73) انظر: أحسن التقاسيم: ص 128، 129 ـ ابن رسته: الأعلاق النفيسة: ص 186، 192، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: ص 462.
(74) الزبيدي: مرجع سابق: ص 192.
(75) ترتون: أهل الذمة في الإسلام: ص 205.
(76) عيون الأخبار: ج 1، ص 217 ـ أحسن التقاسيم: ص 128 ـ ابن الفقيه: ص 252 (الوشي: نسيج حرير مطرز، الخز: نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير).
(77) مختصر كتاب البلدان: ص 252.
(78) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 128.
(79) الزبيدي: ص 192.
(80) المرجع نفسه: ص 192.
(81) أحسن التقاسيم: ص 33.

إلى الحجاز الخمور التي تضعها النساء على وجوههن. ذلك أنّ العراق كان أكثر الأقاليم صوفاً وقزّاً.

وكما عَرفت النعمانية[82] ـ بالحيرة ـ والأُبُلّة صناعة الثياب الصوفية والطنافس الحريرية والستور[83]، فقد كانت الأنبار[84] مركزاً لنسيج العباءات، مما يشير إلى أنّ المدن العراقية لم تكن تخلو من الحاكة وممّن يعمل بنسيج الأقمشة[85] وذكر إبن رسته قائلاً[86]: وكانت مدينة ـ قصر بن هبيرة ـ مملوءة بالحاكة ويقصد بها الكوفة.

وصُنع في الكوفة أيضاً «الخُمر» التي تضعها النساء على وجوههن، وكان يُحمل منها بكميات كبيرة إلى الحجاز فتهافتت نساؤه على شرائها[87].

واتخذ الخلفاء الأمويون دوراً للطراز لنسج أسمائهم على الثياب، وقلّدهم في هذا المجال وجوه القوم ومواليهم[88]. ولكن النقش الذي كان على الكسوة بلون مخالف وبخيوط من الفضة[89].

هذا وقد استلزمت صناعة النسيج وجود صناعة الصِّباغة. فقد استعمل العرب الأصباغ النباتية (وهي التي تُستخرج من النباتات لصبغ الأقمشة). فقد تفنن الصبّاغون في الصباغة فأوجدوا ألواناً متعددة وذلك بخلط الأصباغ الأولية بنِسَب معينة لإيجاد مختلف الألوان[90].

وعُرفت الحيرة بصناعة البسط[91] فكان للبسط الحيرية شهرة واسعة في ذلك العهد حيث كان الصوف والوبر من أهم المواد المستعملة في الحياكة، كما كان القطن والكتان يستعمل أحياناً في صنع البسط.

وهناك أنواع جيدة من السجاد كان أهل الكوفة يُتقنون حياكتها، وكانت البسط والسجاد تُستعمل لأغراض مختلفة.

فما كان يفرش منها على الأرض يسمى البسط، وما كان يُعلَّق منها للزينة يسمى «الأنماط»، ونوع خاص للصلاة يُسمى السجاد[92]، وكذلك اشتهرت النعمانية بصناعة البسط، وكانت الرسوم التي ترسم في بسط الحيرة تُقلَّد في النعمانية. حتى إن مصنوعاتها من البسط كانت تسمى البسط الحيرية[93]. كما اشتهرت واسط أيضاً بصناعة السجاد[94].

وكانت صناعة الخيام من الصناعات المهمة في الكوفة. إذ كانت تُصنع من الصوف أو الشعر أو الوبر أو القطن.

وتختلف أسماء الخيام حسب المادة المصنوعة منها وحسب حجمها. فالخيمة المصنوعة من الصوف تُسمى بـ (الخباء)، والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى بـ(الفسطاط) والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بـ (السجاد) والمصنوعة من القطن تسمى بـ (السرداق) وهناك نوع خاص من الخيم يُدعى

(82) النعمانية: بلدة بين واسط وبغداد على ضفة دجلة. كثيرة الخيرات وافرة الغلال بناها النعمان بن منذر. (معجم البلدان: ج 5، ص 294 ـ القزويني: آثار البلاد: ص 469).

(83) ابن رسته: الأعلاق النفيسة: ص 192 ـ المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 33.

(84) الأنبار: مدينة على الفرات غرب بغداد. أوّل مَنْ عمرها سابور بن هرمز وجدّدها السفاح. (معجم البلدان: ج 1، ص 257).

(85) الأعلاق النفيسة: ص 121.

(86) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(87) الأغاني: ج 2، ص 173.

(88) مقدمة ابن خلدون: ص 228.

(89) القلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة: ج 2، ص 230.

(90) كانت الألوان الزرقاء تُصبغ عادة بالنيلة: وهي نبات يزرع في إيران ويستعمل لصنع الألوان الزرقاء ولكن اخذت تُجلب هذه النيلة أخيراً من البنغال. أما اللون الأحمر فكان يستخرج من الفوه: وهو اسم نبات يستعمل لصنع الأقمشة باللون الأحمر والأصفر كان يستخرج من الزعفران وغيرها من الألوان (الزبيدي: ص 194/هامش).

(91) الألوسي: بلوغ الأرب: ج 3، ص 394/393 ـ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي: ص 93.

(92) الأعلاق النفيسة: ص 186.

(93) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي: ص 93.

(94) الألوسي: بلوغ الأرب: ج 3، ص 393-394.

الطراف، يُصنع من نوع خاص من الجلد يستعمله الأغنياء وذوي الثراء[95].

ويمكن القول إنّ صناعة النسيج في العراق كانت تتمثل بما يلي:

1 ـ صناعة المنسوجات الكتانية:

حيث أقبل عليها الناس فنسجوا الملابس الفائقة التي أثارت اهتمام الحكام بصناعتها وجعلتهم يراقبونها في مراكز الصناعة.

2 ـ صناعة المنسوجات القطنية:

إذ ازدهرت في العراق عامة وفي الكوفة والبصرة خاصة، حيث يُعزى ذلك إلى انتشار زراعة القطن في العراق[96].

3 ـ صناعة المنسوجات الصوفية:

وأبرزها البسط التي كانت متركزة في النعمانية والكوفة[97].

ولم يكن الاهتمام بالصناعات النسيجية فحسب وإنما كان أيضاً بالصناعات الخشبية التي تركزت في الموصل ولربّما كان لتوفُّر الأخشاب في منطقة الموصل أثر في تفوقها بذلك على غيرها[98]. وكان لصناعة النجارة مكانة خاصة في الكوفة، كصناعة الأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي. وتطورت صناعة السفن في العراق كثيراً وأُجريت السفن المدهونة بالقير[99].

وعُرفت البصرة والابلّة على أنها من مراكز صناعة المراكب الخشبية[100].

ونشطت الصناعات المعدنية في العراق في عهد هشام وخاصة صناعة الأسلحة التي كانت الكوفة مركزاً هاماً من مراكزها بصفتها قاعدة حربية ومركز تجمع وانطلاق الجيوش. وتمشياً مع رغبة هشام في تطوير هذه الصناعة[101]. أنشأ العراقيون لها مصانع خاصة تُحقق هذه الرغبة وتتلاءم واهتمامه الكبير في ذلك[102]. فاستخدموا عدة معادن في هذه الصناعة مثل الحديد والنحاس والبرونز. وكانت في الكوفة سوق خاص لها تسمى (سوق الحدادين). وكانت للحيرة مهارة في صناعة الأبواب الحديدية ومشكات السلاح والسيوف والرماح. كما صنعوا أواني الطبخ والقدور من النحاس[103].

ولعلّ وجود بعض المعادن كالنفط والقير واللؤلؤ ـ الذي كان يُستخرج من الفرات قرب مصبه[104] ـ هو الذي ساعد على تطور الصناعات المعدنية.

وكانت صناعة استخراج الدهون[105] من البذور من الصناعات القديمة في الكوفة، وكان من أهم الزيوت التي تُستخرج: زيت الزيتون وزيت السمسم ودهن اللوز والخروع، ودهن بذور القطن والكتان. وصار لها سوقاً خاصاً في الكوفة يسمى سوق الزياتين[106]. وكانت الكوفة والبصرة من أشهر المناطق في صناعة العطور فصنعت ماء الورد ودهن البنفسج الذي استخرج من الأزهار التي زُرعت لهذا الغرض.

(95) ريسلر: الحضارة الإسلامية: ص 125.

(96) فريال المختار: المنسوجات العراقية الإسلامية: ص 37.

(97) اشتهرت النعمانية بالنسيج والبسط «الأعلاق النفيسة: ص 186» وعرفت الكوفة صناعة البسط والخيام «الإصطخري: المسالك والممالك: ص 170».

(98) مختصر كتاب البلدان: ص 131 ـ الطبري: ج 7، ص 250.

(99) الأعلاق النفيسة: ص 195.

(100) أحسن التقاسيم: ص 18 ـ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي: ص 103.

(101) مروج الذهب: ج 3، ص 217 ـ الأعلاق النفيسة: ص 87.

(102) معجم البلدان/ مادة (برسكون).

(103) الجماهر في معرفة الجواهر: ص 30.

(104) مروج الذهب: ج 3.
217).

(105) ابن الفقيه: ص 252.

(106) الطبري: ج 7، ص 156.

واشتهرت الحيرة بالصياغة قبل بناء الكوفة فكان صيّاغها يصيغون الذهب والفضة، ويُرصعونها بالجواهر. وبعد بناء الكوفة لاقت هذه الصناعة هناك رواجاً شديداً وإقبالاً كبيراً لزيادة الترف وتطوّر المجتمع السريع. وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة فكان يُصنع للنساء الأكاليل والأساور والخلاخيل والعقود والخواتم وغيرها.

وكان الأغنياء يصيغون بعض أدواتهم من الذهب والفضة لإظهار التفاخر كالأواني والكؤوس[107]. وكان لهذه الصناعة سوق خاصة بها في الكوفة قرب الجامع يسمى سوق الصاغة[108].

وإلى جانب ما سبق ذكره من الصناعات: انتشرت صناعة الأواني الخزفية والفخارية وصناعة الورق والزجاج.

ويبدو ذلك بفضل تأثير الحيرة التي نقلت منها هذه البضاعة إلى العراق وخاصة إلى الكوفة وواسط[109].

هذا وهناك صناعات أخرى عرفت في العراق في هذا العهد مثل صناعة الصابون وصناعة النبيذ والخمور وغيرها.

ونظراً لقلة خبرة العرب في مجال الصناعة يمكن القول إن العناصر غير العربية التي دخلت الإسلام التي عملت في مجال الصناعة وساهمت في تطويرها وتقدّمها، وأشركوا العرب غير المسلمين في ذلك، حتى استطاعوا أن يَمْهروا بها وأن يصِلوا إلى ما وصلوا إليه.

التجارة

وكان من الطبيعي أن يؤدي ازدهار الزراعة والصناعة إلى ازدهار التجارة حيث إنَّ التجارة عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية. ونشاطُها دليلٌ على تقدُّم الدولة وازدهارها وعامل من عوامل ذلك الازدهار[111].

ولعلّ خبرة العناصر غير العربية التي دخلت الإسلام ونزحت من الحيرة إلى الكوفة قد ساهمت في دفع الحركة التجارية إلى الأمام. كما أنّ اقبال العرب على السلع الجديدة ـ وخاصة الملبوسات هو ما شجع التجار على توفيرها وعرضها في الأسواق التي انتشرت في المدن الكثيرة التي أسسها العرب في الأقاليم لهذه الغاية[112]. فراجت التجارة فيها الأمر الذي ترتب عليه هجرة الفلاحين إليها تاركين العمل الزراعي، مما اضطر الحكومة إلى إرغامهم على العودة إلى قراهم والعمل في الزراعة[113].

وبذلك ساهمت جميع عناصر المجتمع العراقي من عرب وأهل ذمة[114] وموالي[115] في تطوير الزراعة. فكان لخبراتهم الطويلة في هذا المجال أثر في تنشيط الحركة التجارية[116].

وتمشياً مع ما أصاب حركة التجارة الداخلية في العراق من تقدم، استخدم الأمويون النظم التجارية المتطورة. فكانوا يتعاملون بالعقود في البيع والشراء، انسجاماً مع التعاليم الدينية[117]. وعرفوا المصارف واهتموا بشروط التجارة وخاصة عقود الرهن والودائع ونظام المقايضة.

وانتشرت المصارف في المدن والنواحي، وربما كانت العناصر المهاجرة من الحيرة إلى الكوفة والبصرة، لتُشكِّل معظم القائمين بهذا الأمر.

وفي هذا العهد ظهرت حوانيت مالية ـ أشبه بالبنوك ـ

(107) الجماهر في معرفة الجواهر: ص 31.
(108) ماسنيون: خطط الكوفة: ص 68.
(109) المعاضيدي: واسط في العصر الأموي: ص 447.
(110) الجاحظ: البيان والتبيين: ج 2، ص 56.
(111) البلاذري: فتوح البلدان: ص 489, 628.
(112) من هذه المدن: البصرة والكوفة وواسط: حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية: ص 19.
(113) انظر: العقد الفريد: ج 3، ص 416 ـ قام بذلك في العراق الحجاج بن يوسف.
(114) ترتون: أهل الذمة في الإسلام: ص 206.
(115) ابن حبيب: المُحبَّر: ص 431, 347.
(116) انظر: ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان: ص 191.
(117) انظر: فتوح البلدان: ص 401.

امتلكها الأغنياء وانتشرت لها فروع في المدن خاصة في الكوفة والبصرة[118].

واستخدم التجار الحوالات وتعاملوا بالشك لدفع النقود[119]. وعرفوا الصكوك عند التداين[120]. وأفادوا منه كوثيقة تملُّك. ويعود الفضل في نشرها إلى العنصر غير العربي الذي عرف المعاملات في دولهم في عهود سابقة. فساهمت هذه العمليات في زيادة المردود الاقتصادي وارتفاع الدخل.

وساعد على تطور التجارة وازدهارها انتشار الطرق النهرية التي قضت على كثير من المشاكل حيث الطرق المائية أسرع وأقل تكلُفة وأكثر أمناً من الطرق البرية، ناهيك عن عدم تعرّض التجارة للتلف بسبب الحرارة الشديدة.

وأشهر الطرق النهرية آنذاك ما كانت توصل إلى البصرة، كطريق أبي الأسد وطريق نهر مرّة وطريق نهر ابن عمر[121]. بالإضافة إلى الجزر التي وجدت في دجلة والفرات واتُخذت كمحطات للسفن[122]، والجسور التي أقيمت لعبور القوافل التجارية[123]. أمّا الطرق البرية: فكانت أكثر انتشاراً من السابقة. إذ ربطت أنحاء العراق مع بعضها البعض فكان هناك طريق بين الكوفة والبصرة وأخرى بين واسط والأهواز[124]، وغيرها بين واسط والمدن العراقية المختلفة[125]. ولعلّ ذلك ما جعل من واسط مركزاً تجارياً هاماً.

ومّما أدّى إلى الازدهار التجاري في العراق سيادة مبدأ حرية التجارة، إذ لم تُفرض على البضائع والحاجيات الولايات قيود. ولم تحتكر الحكومة تجارة أي سلعة فأولت المحافظة على مستوى الأسعار في العراق اهتماماً زائداً، فعاقبوا المخالفين الأمر الذي ساهم في رخص الأسعار وخاصة في مدينة البصرة[126].

ولم تكن الضرائب التي فرضت على التجارة آنذاك باهظة. إذ أُعفي صغار التجار منها تشجيعاً لهم وتخفيفاً من أعبائهم[127]. كما أُعفي منها المواشي والزروع التي ليست للتجارة، وكان الجباة يحصّلون الضرائب على الطرق البرية والنهرية، إلاّ أنهم كانوا يأخذون بأقوال التجار بثقة ودون مناقشة[128]. كما تنوّعت التجارة في هذا العهد حيث عرفت مدن العراق تجارة المواد الغذائية، وانتشرت تجارة الحيوانات، وراجت تجارة الرقيق حيث الحاجة كانت شديدة إليهم للعمل في الزراعة والخدمة في المنازل، إلى جانب تزايد أعداد الأسرى بسبب كثرة الحروب[129].

واشتهرت بعض المدن العراقية بتجارة مواد أكثر من غيرها، فبينما كانت البصرة ميناءً لاستخراج الحلي والعنبر، كانت الموصل المصدر الرئيسي للأخشاب[130]. في حين اشتهرت واسط بالتمر والبنفسج، والحيرة بالفاكهة والرياحين والخمور[131].

أمّا الكوفة فقد راجت فيها تجارة الزيوت النباتية، حتى إنّه كان للزيّاتين سوق خاص بهم، مثلما كان للتمّارين سوق مشابه[132].

(118) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية بالبصرة: ص 295.
(119) البلاذري: أنساب الأشراف: ج 4، ص 132.
(120) الأغاني: ج 3، ص 101 ـ طبعة ساسي.
(121) ابن رسته: الأعلاق النفيسة: ص 185.
(122) أبو يوسف: الخراج: ص 101.
(123) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 118.
(124) الأصطخري: المسالك والممالك: ص 59 ـ الأعلاق النفيسة: ص 187.
(125) البلاذري: فتوح البلدان: ص 407.
(126) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج 1، ص 432.
(127) أبو يوسف: الخراج: ص 143 و147.
(128) ابن آدم: الخراج: ج 2، ص 50.
(129) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ج 2، ص 414 ـ الإمامة والسياسة: ج 2، ص 20.
(130) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان: ص 121.
(131) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 128.
(132) الأغاني: ج 2، ص 35.

وكان مما اتُّجِرَ بِهِ الناس بصورة كبيرة، العمائم من الخز وأنواع البنفسج الجيدة[133]. وبعد أن كان التجار يمارسون مهنهم حيثما شاؤوا، رُؤِي أنّه من الأنسب لهم أن يتجمعوا في أسواق معينة[134]. فكانت الأسواق مراكز للبيع والشراء ومكاناً لعقد الصفقات، وملتقى رجال القبائل ومراكز الحياة السياسية تدبَّر فيها المؤامرات تحت ستار التجارة[135].

وتنوّعت الأسواق في مدن العراق بتنوع الأصناف التي تعرض فيها، وكان أشهر تلك الأسواق، سوق المربد في البصرة، والذي يعتبر أقدم وأهم أسواقها. وقد نشطت فيه التجارة، وكان مركزاً أنشئت فيه بعض المصانع وساحة للمناقشات السياسية والأدبية، غير أنّ أهميته تضاءلت مع الزمن وتحوّل إلى أحياء سكنية[136]. وانتشرت الأسواق في أماكن مختلفة من البصرة، فكان لكل صنف سوق خاص به[137]. وتمثّل الاهتمام بالأسواق في هذا العهد بكثرة ما أنشيء منها في المدن العراقية. فد بنى خالد القسري الأسواق وجعل لأصحاب كل تجارة داراً وطاقة[138]. ومثل ذلك بنى أخوه أسد بن عبد الله سوقاً بالكوفة سُميت سوق أسد، كما أنشئت في البصرة وواسط والموصل أسواق متخصصة[139]. وخضعت الأسواق لمراقبة موظف خاص يعينه الأمير ومعه الأعوان يساعدونه على القيام بواجباته والتي تتمثل بحراستها من اللصوص[140]، ومراقبة المكاييل والموازين[141]. وتمييز الدراهم لمعرفة جيّدها ورديئها ومراقبة عمليات البيع والتلاعب بالأسعار والتحكيم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن[142] وجمع ضريبة الأسواق[143] والإشراف على الصناعات كالصباغة والحياكة مثلاً. فكان لذلك كله أثر في الاطمئنان على العمليات التجارية[144] ودليلاً على أنّ الدولة كانت تولي العملية التجارية اهتماماً كبيراً.

وشملت الأسواق خوانيت لحفظ البضائع، واحتوت على فنادق للتجار وحظائر للحيوانات.

وارتبطت العراق في هذا العهد بعلاقات تجارية مع الأقطار المجاورة. فكان لموقعها الجغرافي ووفرة خيراتها أثر في تطور الحركة التجارية مع هذه الأقطار وازدياد الثروة، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد الطلب على الكماليات التي كان يؤتى بها من خارج البلاد.

ولعلّ شعور الخليفة هشام بن عبد الملك بأهمية الدور الذي تلعبه المواصلات في الحركة التجارية، هو الذي دفعه أنْ يوليها اهتماماً كبيراً. بريّةً كانت أم جوية إذ هيّأ الأمن والاستقرار للقوافل وأصدر أوامره إلى ولاته بتقوية الثغور[145]. فانتشرت الطرق التي كان أهمها ما كانت تصل بين البصرة وواسط، وبين البصرة إلى ثغر الأبله[146].

وإذا كانت الأبله مركزاً للسفن الآتية من الصين والهند ومكاناً تجارياً مربحاً[147]، فقد كانت البصرة مكاناً يوقد فيه

(133) الطبري: ج 7، ص 15.

(134) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: ص 266.

(135) الجاحظ: البيان والتبيين: ج 269.

(136) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: ص 266.

(137) المرجع نفسه: ص 267.

(138) اليعقوبي: كتاب البلدان: ص 310.

(139) انظر: ياقوت الحموي: المشترك وَضْعاً والمفترق صَقْعاً: ص 39 ـ فتوح البلدان: ص 371.

(140) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج 4، ص 53.

(141) الماوردي: الأحكام السلطانية: ص 253, 256 ـ البيان والتبيين: ج 1، ص 110.

(142) الأغاني: ج 1، ص 110.

(143) البلاذري: أنساب الأشراف: ج 5، ص 47.

(144) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج 1، ص 53.

(145) المسعودي: مروج الذهب: ج 3، ص 217 ـ الأحكام السلطانية: ص 224.

(146) فتوح البلدان: ص 497 ـ الأغاني: ج 2، ص 16.

(147) وصف ابن قتيبة الأبلة بقوله: «. . . ما رأينا أرضاً مثل الأبله أقرب مسافة وأعذب نطفة ولا أوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا أخفى لعابد» ـ عيون الأخبار: ج 2، ص 221, 222.

فنار ليلاً لهداية السفن[148]. وانتشرت الطرق البريّة بين المدن العراقية من جهة، وبينها وبين الأقطار المجاورة من جهة أخرى، وكانت الجمال واسطة النقل الهامة بين العراق والشام وعرفت الموصل كمحطة للقوافل بين القطرين[149]. كما ارتبطت العراق مع الحجاز بطرق تجارية كثيرة أهمها ما كان يصل بين البصرة ومكة من ناحية، وبين البصرة واليمامة من ناحية أخرى، وما بين الكوفة ومكة من ناحية ثالثة[150]. فكانت هذه الطرق مساعداً على النشاط التجاري الذي هو انعكاس للرخاء هناك.

ولم يكن ارتفاع الصادرات والواردات إلّا مظهراً من مظاهر النشاط التجاري. وتنوّعت صادرات العراق إلى البلدان المجاورة. فكان أهمها التمور والحبوب والمنسوجات والفواكه واللآلىء والجواهر والعطور[151]. وكان الوشي والخز والفاكهة والأدهان من صادرات الكوفة. كما كانت البصرة مركز تجارة العراق الداخلية والسوق الرئيسي للتزود بالحاجيات، وميناء ترسو به السفن وحلقة وصل بين الميدن العراقية والسوق الذي ترد إليه الغلّات، ومنزل الأعراب أثناء ذهابهم إلى البادية[152]. فأصاب الناس هناك في عهد هشام من الساج والعاج ولبس الديباج والتمتع بالجواري وركوب الخيل ما جعلهم يفخرون على غيرهم[153].

وفي حين كانت الأخشاب من صادرات الموصل الرئيسية، كان التمر والبنفسج من صادرات واسط حيث كان يروّج لتجارتها عن طريق الاحتفالات في مواسم ظهور المحاصيل[154].

وتلبيةً لحاجة الشام إلى كثير مما كان يُنتجه العراق، صدَّر العراقيون إليها القطن والخزّ والديباج والزيت والزجاج والعطور والفواكه والغلات التي لم تكن متوفرة إلّا في العراق[155]. ومع ازدياد السكان في العراق وارتفاع مستوى المعيشة، ازداد استيراد البضائع، كالديباج والأواني الذهبية والفضية والرقيق والجواري والخيول والمعادن والأدوات الحربية والزجاجية والثياب والطيالسة التي كان يؤتى بها من بلاد فارس وخراسان وأقاليمها المختلفة كطبرستان وأصبهان وجرجان[156].

واستورد العراقيون من بلاد الشرق «الهند والسند»: الموز والفيلة والعاج والعقاقير والجواهر والقرنفل والعنبر والخيزران والساج[157]. بينما كان يؤتى بالمسك من التبت[158]. أمّا الزيت والخز والقطن والعطور والفواكه فكانت تجلب من بلاد الشام[159].

مما سبق نرى أن مظاهر التقدم الزراعي والصناعي والتجاري قد تمثلت في ما تمّ من مشاريع اقتصادية وموانىء بحرية وفتح طرق بريّة وازدياد في حركة الواردات والصادرات وفي مستوى المعيشة التي وصل إليه العراق في عهد هشام بن عبد الملك، والذي ذكرناه في سياق الحديث عن جوانب الحياة المختلفة.

---

(148) الأصطخري: المسالك والممالك: ص 61.
(149) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: ص 461.
(150) المسعودي: مروج الذهب: ج 2، ص 243.
(151) مختصر كتاب البلدان: ص 175 ـ أحسن التقاسيم: ص 138.
(153) كانوا يفتخرون بالقول: «... ونحن أكثر الناس ساجاً وعاجاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً وجارية مغناجاً» ـ مختصر كتاب البلدان: ص 131.
(154) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 129.
(155) المقدسي: أحسن التقاسيم: ص 180، 181.
(165) الطبري: ج 8، ص 281 ـ الأصطخري: المسالك والممالك: ص 93 ـ مختصر كتاب البلدان: ص 254.
(157) ابن الفقيه: مختصر كتاب: ص 364 ـ أحسن التقاسيم: ص 481.
(158) اليعقوبي: تقويم البلدان: ص 364.
(159) المصدر نفسه: ص 37 ـ أحسن التقاسيم: ص 181.

فنون القتال عند المرابطين والموحدين والحفصيين

د. صالح محمد فياض أبو دياك

كلية الآداب ـ جامعة اليرموك

ينتسب المرابطون إلى قبيلة لمتونة، وجدالة، ولمط، ومسطوف، وجميعهم من قبائل صنهاجة، فلمت جد لمتونة، وجدال جد جدالة، ولمط جد لمطة، ومسطوف جد مسطوفة، وهم قبائل بدوية اتخذت من الصحراء مقراً لها[1].

ويسميهم بعض المؤرخين بالملثمين، وقد وردت روايات تاريخية متعددة تفسر سبب اختيارهم للّثام، ومهما يكن من أمر فقد أصبح اللثام زيهم المحبب لايفارقهم إلى يومنا هذا حيث يلبسه بعضهم القاطنون في صحراء الجزائر وليبيا[2].

أمّا عن طرق قتالهم قبل تكوين دولتهم، فكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل، وكانوا في معظم قتالهم مترجلين، يقفون على أقدامهم صفاً بعد صف، وكان يحمل الصف الأول منهم القنا الطوال[3].

وتزعمت قبيلة لمتونة قيادة القبائل الصنهاجية، لأن عبد الله بن ياسين زعيمهم الروحي أسند إليها القيادة لما عرف عنها من الاستقامة وحسن الإخلاص للإسلام والمسلمين. وتولى أمر قبيلة لمتونة ومن تبعها من قبائل صنهاجة الأمير يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي الصنهاجي الحميري، وفي إبراهيم يجتمع مع ابني عمه الأميرين اللذين كانا قبله: أبي زكريا، وأبي بكر ابني عمر بن إبراهيم بن تورقيت[4].

وبعد خروجه من الصحراء لقتال قبائل زناتة وتمكّنه من الانتصار عليهم، عمد إلى شراء عدد من عبيد غانا بلغ تعدادهم الألفين سماهم بـ (العلوج) وعدد من علوج الأندلس والصقالبة بلغ تعدادهم مائتين وخمسين وسماهم «الداخليين»[5] وهم ممن اعتنقوا الإسلام أو من المعاهدين، وقد حباهم عطفه، وكان يبذل لمن امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة مختلف الهبات[6]. وبهذا يكون الأمير يوسف بن

(1) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبدالقادر ـ زمامه، دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء ـ المغرب، ط 1، 1979 م، ص 15، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الملايين ـ بيروت، د ـ ت، جـ 6، ص 181 وما بعدها.

(2) العبادي ـ أحمد مختار (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين) مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية. العدد (21) سنة 1967 ص 49، نصر الله ـ سعدون عباس، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت 1399 هـ/1979 م، ص 13.

(3) الحلل، ص 22.

(4) المصدر نفسه، ص 24.

(5) المصدر نفسه، ص 20، نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 70.

(6) الحلل، ص 25.

تاشفين قد أضاف إلى جيشه فرقاً عسكرية جديدة من الرماة والأغزاز والنشاب والسهام[7]، استعان بتكوينها بالمال الذي أخذه من اليهود بفرضه الضرائب الكثيرة عليهم[8].

ويبدو أن بداية تكوين هذه الفرق كان قبل تسلمه الإمارة من ابن عمه أبي بكر الذي أوكل له أمور القيادة أثناء ذهابه لإخماد الفتن التي نشبت بين القبائل الصنهاجية في الصحراء[9]. ولمّا أنجز مهمته عاد فوجد يوسف على هذا الحال من عظمة الملك وفخامة الحجاجة فتنازل عن الإمارة.

ومرّ الجيش المرابطي في عدة مراحل من حيث التكوين والتنظيم، فعمد إلى إصلاح نظام التسليح وطريقة إعداده للقتال. ففي بداية الأمر كانت أسلحتهم تتألف من الدرق اللمطية وسيوف الهند والقنا الطوال إلى جانب الجمال الذين يضعون عليها القتب[10] والخيول والسيوف والخناجر والأطاس[11] أو «الأفطس» والمزاريف[12] ـ وكل هذه الأدوات كانت تصنع محلياً ـ وتصلح لحرب الصحراء[13]. أمّا حرب المدن والحصون فكانت تتطلب وسائل وأسلحة تتلاءم مع الوضع الجديد الناشىء عن حرب الحصار ولهذا ابتكر الأمير يوسف بن تاشفين الخطة العسكرية المعروفة بالتقري[14]، والتقرى لغة مأخوذة من الاستقرار أي المكوث والبقاء في المعركة والصبر على قتال الأعداء مع حسن الانضباط.

ويشير إلى هذا صاحب الحلل الموشية بقوله: ـ وجرت حرب بين الزناتيين والمرابطين حول مدينة فاس فاستخدم قائد الزناتيين (معنصر) أسلوب الكر والفر، واستخدم يوسف بن تاشفين أسلوب التقرى.

وشغف المرابطون بحرب النصارى أكثر من إخوانهم المغاربة، ولعل الأمر يعود إلى عاملين: ديني وعرقي[15].

ويبدو أن دخولهم الأندلس كان التجربة الحربية الأولى التي خاضوها ضد الفرنجة، الأمر الذي دعا الأمير يوسف بن تاشفين إلى تسليح الجيش بمختلف أنواع الأسلحة منها، المغربية كالسيوف، والقنا الطوال، والدرق[16] اللمطية، والأطاس، وأندلسية ونصرانية كالسهام والمطارد والعرادات والدروع والزرد[17] والسيوف والنبال والتروس الحديدية المصنوعة من جلود البقر واللمط، والفيلة المصنوعة من الخشب[18]، مما زاد في تقنيتهم العسكرية. وبالجملة فإن السلاح المرابطي امتاز بحدته ومتانة أشفاره، ويصف أبو يحيى بن اليسع حدة سيوفهم في معاركهم مع الفرنجة بأنها قطّعت الدروع المحصنة مع الجثث[19].

---

(7) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ط (1) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1967 م، جـ 4، جـ 115-116.

(8) الحلل، ص 25.

(9) الحلل، ص 25.

(10) تصنع قتب الجمال من الخشب المستورد من بلاد السودان وتحشى بالقش والحلفا المقطوعة من الواحات، وتوضع فوق سنام الجمال. وتكمن أهمية هذه الصناعة عند المرابطين الصحراويين بسبب الحاجة الماسة إليها، ومن المدن التي اشتهرت بصناعة القتب مدينة نول اللمطية، ثم قامت مقامها في الوقت الحالي مدينة تندوف ـ مشاهدات الباحث.

(11) الأطاس أو الأفطس كما يسمى عند البربر هو خنجر شبيه بالمنجل في اعوجاجه وكان هذا الخنجر إذ ضرب به ترك أثراً عميقاً، وقد استخدمته الفرقة الخاصة لحرس الأمير يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة، راجع، الحلل، ص 61.

(12) نوع من أنواع الأسلحة وهو على شكل اسطواني يضغط عليه بإبهام المحارب فينطلق منه السهم بالاتجاه الذي يريده المحارب ويعرف عند الأندلسيين بقوس الرجل، عنه راجع، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الأندلسي، حلية الفرسان وشعار الشجعان، نشر ـ محمد عبد الغني حسن، القاهرة 1949 م، ص 211.

(13) الحلل، ص 25.

(14) شعيرة ـ عبد الهادي، المرابطون تاريخهم السياسي، ط (1) القاهرة 1969 م، ص 88.

(15) نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 172، ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق: ليفي ـ بروفنسال، تطوان ـ المغرب، جـ 4، ص 166.

(16) مأخوذة من اللمط، وهو نوع من الحيوانات التي تعيش في الصحراء وتمتاز بمتانة جلودها، ولهذا كانوا يستعملونها ويصنعون منها الأدوات الحربية وما شابهها، مثل الدروع بسبب متانة جلودها. .

(17) الزرد، وهي الدروع المزرودة، وهي عبارة عن دروع عادية تزود بقطع معدنية، راجع، الرازي، مختار الصحاح، ص 270.

(18) نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 107.

(19) الحلل الموشية، ص 62.

واستخدم المرابطون إلى جانب أسلحة القتال، أسلحة أخرى تقوم على تدمير المنشآت الاقتصادية، فقاموا بحرق المحاصيل وتقطيع الأشجار المثمرة وتخريب القنوات وغيرها من المرافق.

وإذا ما أراد أميرهم النفير، جهز له من الأسلحة والمؤن قبل الإعلان عنه بسنوات، وتسمى سنوات الاستعداد عندهم بأعوام الاقتناء، وهذا الاصطلاح يشمل اقتناء[20] الأقوات واختيار الرجال وشراء الأسلحة بما يتناسب وطبيعة المحارب ونوعية سلاحه. فالأمير يوسف بن تاشفين عندما أراد محاربة الفونس، بعث وكلاء له ليشتروا أسلحة ومعدات حربية من الأندلس ليحاربه بها، واستنفر أصحاب المهن من نجارين وبنائين وحدادين لحاجة الجيش اليهم[21].

وبلغ تعداد الجيش المرابطي الذي قاده الأمير يوسف لمحاصرة مدينة فاس وفتحها مائة ألف مقاتل، مما يدل على النمو المطّرد للدولة، وعلى بعد نظر الأمير وحُسن اهتمامه بالجيش، لأن قوته وقوة أسرته كانتا مرهونتين بالانتصارات العسكرية التي يحرزها، من هنا كانت قوى الحرس الخاص تشكل من أشجع الجند، ويختار الأمير أفرادها ضمن مواصفات خاصة منها، أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة والقوة، وانتقى الأمير يوسف عدداً من أفرادها من الزنوج ودربهم أحسن تدريب ثم أوكل اليهم المهام الصعبة عند اشتداد المعارك فكانوا ينتزعون النصر من العدو[22]. وأتقن المرابطون الحرب في السهول والصحاري فاعتمدوا على الخيل إلى جانب الجمال، بينما أجاد المصامدة الحرب في الجبال لاعتمادهم على المشاة أكثر من الفرسان لتلاؤمها مع طبيعة الجبال[23]. لهذا السبب كثيراً ما تعرض المرابطون للكوارث الطبيعية أكثر من الموحدين بسبب مواقع قتالهم، ففي حصار الموحدين لمدينة فاس عند عسكرتهم بجبل عفرا المطل على المدينة، عسكر المرابطون في السهل، وعند سقوط المطر ضاعت مؤنهم وقتل عدد كبير منهم، وأصيب من بقي بالمرض والجوع، وكانت خسارتهم أفدح من خسارة الموحدين لعسكرتهم في السهل وعدم صعودهم إلى الجبل لعدم إتقانهم الحرب على قممه[24].

وحرص المرابطون على إعطاء مناصب القيادة لأبنائهم أو أبناء عمومتهم وأهل عصبتهم لأن وطنية المرابطي قبلته، وسبب ذلك يعود إلى قلة عدد الصنهاجيين من عصبة الأمير، فكان لا بدّ من وضع القيادة بأيديهم ومن الاستعانة بالعناصر المغربية والأندلسية والأعلاج من سودانيين ونصارى وصقالبة، وكانت قبائل زناته ومصمود وغماره يطلق عليها اسم الحشم[25] بينما يطلق على الفرق الخاصة اسم الداخليين.

واستطاع الأمير يوسف أن يضم قبائل بني هلال إلى جانبه، وبحكم فطنته وذكائه تمكن من أن يؤلف بين القبائل المتنافرة ويحببها بالنظام الجديد، فقد أغدق عليها العطايا مما أكسبه احترامها له[26].

وكان النظام الذي يقوم عليه جيشه النظام الخماسي، المقدمة وفيها الجنود والمشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان ويتكونان من وحدات الفرسان وحملة القسي

(20) الحلل، ص 25 ,62، نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 171-172.

(21) الحلل، ص 68.

(22) الحلل، ص 122، نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 169.

(23) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ 4، ص 368.

(24) يقول البيذق في هذا: ـ . . . نزل علينا الهواء خمسين يوماً بخمسين ليلة، ولم يفتر، وفيها أكل وادي فاس باب السلسلة. وانشقت جزيرة مليلة. وأكل البحر طنجة حتى الجامع، وأكل وادي سبو مع وادي ورغا أخبية (لمطة) وكان ذلك في عام 536 هـ/1141 م. راجع البيذق ـ أبو بكر الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ـ ليفي بروفنسال، باريس سنة 1928 م، ص 90-91، علام ـ علي عبد الله، الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن، دار المعارف مصر، 1968 م، ص 118.

(25) يرى صاحب الحلل أن أفراد الجيش المنتمين إلى قبائل لمطة وجزولة ومصمودة مع قبائل زناته هم المسمون بالحشم، وهذا اللفظ وجد فيما بعد بالجيش المريني، كما وجد من قبل في جيش الأمويين بالأندلس. راجع. الحلل، ص 33، ج،ف،ب هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب ـ أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس 1980 م، ص 142.

(26) نصر الله سعدون ـ دولة المرابطين، ص 69.

والنبال[27] وكان أكثرهم من أهل الجلد والصبر، ومن أبطال الجيش، وأبطال أهل الثغور من الأندلسيين تتقدمهم الرايات الحمر[28].

أمّا القلب، فكان يتألف من وحدات من فرسان لتمونة وجدالة المزوَّدة بالأسلحة الثقيلة يقودها الأمير أحياناً وغالباً ما يكون لها الفضل في إحراز النصر تتقدمها البنود[29] البيض المكتوب عليه سور من الآيات القرآنية. أما المؤخرة فقد جرت العادة أن يقودها الأمير بنفسه وذلك لهدف مرسوم وهو الإبقاء على حياته وعدم تعريضها للخطر عملاً بقول الخليفة أبي بكر الصديق عندما أوصى خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان بأن يكونا في مأمن من القتال لأن حياة الجيش تتوقف على حياة قائده، فكم من نصر حوّل إلى هزيمة بسبب موت القائد لاسيما إن كان أميراً[30].

وتتألف المؤخرة أو الساقة من صفوة الجند والحرس، المعد لحراسة الأمير ومواد التموين والخيام التي تحملها حيوانات النقل خاصة الجمال وقطعان الماشية التي يقودها الرعاة في أماكن بعيدة نسبياً عن الجيش حرصاً منهم عليها لتوفير اللحوم لأفراده، كما حرصوا على شحن القواعد والحصون بالطعام والسلاح من أجل تدعيم الجيش عند الحصار[32].

وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ولكن هذا النظام كان يتغير أحياناً حسب طبيعة المعركة، ففي معركة الزلاقة سنة 479 هـ/ 1086 م اتخذ الجيش تشكيلة خاصة بسبب اشتراك الأندلسيين معه في قتال الفرنجة، فكان على مقدمة الجيش ابن عباد بجنده، وعلى الميمنة المتوكل ابن الأفطس، وأهل شرق الأندلس في الميسرة، وسائر الأندلسيين في الساقة «المؤخرة» وكان لكل فرقة رايتها الخاصة تسير تحتها عند أول إشارة[33].

وكان لدى المرابطين ديوان سمي بديوان التمييز، يقوم على تمييز الجند عند الاستعراض أو قبل الدخول في المعركة أو عند عودته منتصراً، فكان يتقدم الجيش مشاهير زناته ولفيف من أهل الحشم الذين هم من جزولة ولمطة ومصمودة الذين عرفوا بشدة الضرب يحملون الأعلام الكبيرة والرايات المتعددة وهم ذوو بأس ودراية في الحرب، وتليها رايات أهل الأندلس الحمراء عليها من السور القرآنية والأشكال ذات الرموز الخاصة، يحف بها أهل النجدة والشجاعة منهم، وتليها أعلام المرابطين[34].

وفي هذا يقول صاحب الحلل عند استعراض المعتمد بن عباد للجيش المرابطي: «فرأى عسكرياً نقياً ومنظراً بهياً»[35].

وكان لديهم مجلس حربي يجتمع فيه مختلف قادة الوحدات التي تمثل عناصر الجيش، إلى جانب الفقهاء الذين يؤخذ رأيهم الفقهي في جميع الأمور السياسية والحربية، وكان لآرائهم تأثير كبير في توجيه السياسة الحربية رغم أنهم ليسوا من أهل الحرب، مما جعل بعض المؤرخين يسمون دولتهم بالدولة الفقهية. وعلى الرغم من هذا الانسجام بين الطرفين إلّا أنه وقع خلاف بينهما زمن الأمير علي بن يوسف، بسبب سوء تصرف جنده المرابطين في القلاع والحصون الأندلسية

(27) الحلل، ص 122.

(28) الرايات تعني الأعلام وهي خاصة بالقتال يتولاها صاحب الحرب. راجع، الجراري ـ عبد الله بن العباس الرباطي، **الغاية من رفع الراية**، الرباط 1952، ص 12-14؛ الرازي، **مختار الصحاح مادة (روى)**، ص 265.

(29) البند ـ كلمة فارسية معناها العلم الكبير، **مختار الصحاح**، ص 65.

(30) محمد راكان الأغمي، **التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية**، ط (1) 1404 هـ/1984 م، ص 75، العبادي ـ أحمد مختار، **الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين**، ص 72-73.

(31) يرى صاحب كتاب دولة المرابطين أن وجود رعاة لقطعان الأغنام عند المرابطين ظاهرة جديدة في عملية التموين، والواقع أن هذا الأمر قديماً وجد في الجيوش الإسلامية منذ أمد بعيد، راجع، نصر الله ـ سعدون، **دولة المرابطين**، ص 172.

(32) **الحلل**، ص 126-127.

(33) **الحلل**، ص 48، لسان الدين ابن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق: أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، المغرب 1964 م، جـ 3، ص 258-259.

(34) يفهم من ذلك أن لكل قبيلة راية تدل عليها، وهذا ما طبقه القائد خالد بن الوليد في معاركه في البحرين أثناء حرب الردة.

(35) **الحلل**، ص 34-122، نصر الله ـ سعدون، **دولة المرابطين**، ص 74.

والبالغ عددهم سبعة عشر ألفاً، حيث قام بعضهم بالاعتداء على منازل الأندلسيين بمدينة قرطبة، مما أدى إلى حدوث جفوة بينهم وبين فقهاء المدينة، فقام الأمير علي بن يوسف بتجريد حملة عسكرية ضد سكان المدينة لكنها انتهت بالصلح بين الطرفين[36].

والواقع أنه كان من أبرز صلاحيات المجلس رسم الخطط، وتلقّي الأوامر والملاحظات من أمير الجيش، ففي عهد الأمير تاشفين بن علي، عقد مجلس حربي برئاسته ضم زعماء المرابطين وقبائل زناته والعرب، من أجل محاربة الإسبان، ويفهم من النقاش الذي دار بينهم أنهم كانوا جميعاً يبغون الشهادة ويتسابقون إلى ميدان القتال، فالعرب طلبوا أن ينفردوا بالمعركة وحدهم، والمرابطون رأوا أن الدولة دولتهم والدفاع عنها واجب عليهم، والزناتيون اشترطوا عليه إعالة أيتامهم بعد استشهادهم. ودخلوا المعركة بنفوس تواقة للجهاد ضد الفرنجة وانتصروا عليها في معركة القصر التي اعتبرت من المعارك الحاسمة[37].

وفيها يهنىء الكاتب أبو زكريا الصيرفي[38] الأمير تاشفين على النصر والسلامة ويبين فيها سياسة الحروب فيقول: ـ

يا أيها الملأ الذي يتقنّع[39]
من منكم البطل الهمام الأروع

والليل من وقع السنابك[40] بينهم
صبح على هام الكماة ملمع

خندق عليهم إذ أضربت محله
سيّان تتبع ظاهراً أو تتبع[41]

حصن حواشيها وكن في قلبها
واجعل أمامك منهم من يشجع

لا تبقين النهر خلفك عندما
تلقى العدو فأمره متوقع

اجعل مناجزة العدو عشية
ووراءك الصدف الذي هو أمنع

النعمة العظمى سلامتك التي
فيها من الظفر الرضى والمقنع[42]

وكان من أساليبهم الحربية، استخدام الجوسسة قبل بدء القتال، والكمائن المتفرقة لإشغاله وتشتيت جهوده، والتزام السرية والدقة في التخطيط، وتوزيع السهام والمسؤوليات توزيعاً هادفاً ودقيقاً، والمبادأة في القتال والحذر من كمائنه ومناورته عند الانسحاب مع اختيار الليل ليكون ستراً لهم في انسحابهم[43].

ففي معركة الزلاقة سنة 479 هـ/1086 م استخدم الجيش الأندلسي لخضّ شوكة العدو، وطلائع القوات المرابطية استخدمت للنجدة والمؤازرة، والقلب استخدم لتصعيد الحرب وتأمين فرص النصر، ومع الأسف لم يجهز الأمير يوسف بن تاشفين على العدو رغم ضعفه والحاح ابن عباد في ملاحقته، والسبب الظاهر يرجع إلى ما قاله الأمير يوسف: «الكلب إذا أرهق لابدّ أن يعض، وقد سلم الله المسلمين من معرته ولم يقتل إلاّ القليل، فإن هجمنا على هؤلاء، أبلوا

(36) الحلل، ص 78-86، ص 97-98، ص 101.

(37) الحلل، ص 123-124.

(38) هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي، يكنّى بأبي بكر، ويعرف بابن الصيرفي، وهو صاحب كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية، وكان كاتباً لتاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، راجع، لسان الدين ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص 257-268.

(39) إشارة إلى استخدام اللثام من قبل المرابطين.

(40) جاءت عند ابن الخطيب، أعمال الأعلام، جـ 3، ص 290 الترائك والمقصود فيها البيضات أو الخوذات الناصعة البياض، والملاحظ أن هناك خلافاً بين رواية ابن الخطيب وصاحب الحلل. راجع، الحلل، ص 123-124، ابن خلدون، المقدمة، ط ـ بيروت، جـ 1، ص 489.

(41) الحلل، ص 48.

(42) المصدر نفسه، ص 123-124، لسان الدين، **أعمال الأعلام**، ص 260.

(43) **الحلل**، ص 126-127، عنان ـ محمد عبد الله، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، القاهرة، ط (1) 1387 هـ/1964 م، جـ1، ص 66، مهدي ـ البرجاني، **معركة الزلاقة في الميزان**، دعوة الحق، العدد (10) صفر 1380 هـ/1960 م، ص 86-87.

بلاءً عظيماً ولكن اتركوهم»[44].

لكن يبدو أن عدم ملاحقته كانت تعود إلى سببين أولهما سياسي وثانيهما حربي. أمّا السياسي، فكان لا يود أن يريح ملوك الأندلس منه حتى لا يستغنوا عنه، كما أنه كان لا يأمنهم لاسيما وقد وجد فيهم من المكر والخداع والتعاون مع العدو والتباغض فيما بينهم مما جعله يوجس خيفة منهم، أمّا السبب الحربي، فربما رأى في ملاحقة الفونس الاستماتة من قبله وقبل جنده، ورغم أن النصر كان جزئياً إلّا أنّ نتائج المعركة كانت كبيرة، فقد خمدت الفتن الداخلية في المغرب دون بذل أدنى جهد وذلك لإكبار الأمة لقائدها بطل الزلاقة، كما كسب ولاء الأندلسيين الذين خلصهم من إذلال الإسبان لهم، في غياب العنصر الحربي عند ملوكهم، فما بالك لو تتبع الفونس وقضى عليه وعلى البقية الباقية من جنده[45].

وكان من تخطيطات أمراء المرابطين، ما استخدمه الأمير يوسف بن تاشفين مع ملوك الطوائف في استخدام السياسة لكسب النصر، فقد عزل ابن رشيق خصم ابن عباد عن ولايته وسلّمه لابن عباد موصياً إياه بعدم قتله، وكان يهدف من عمله ضم ابن عباد إلى جانبه باعتباره يملك من القوة العسكرية والنفوذ السياسي ما لا يملكه ابن رشيق فضحى به إرضاءً لابن عباد[46]، واستخدم الأمير يوسف أنماطاً وأساليب عسكرية تقوم على إيجاد مناطق عازلة بينه وبين العدو، فقد أوصى ابنه الأمير علي بالمحافظة على العلاقات مع ابن هود لما لإمارته من أهمية حربية، فكانت حداً فاصلاً بين الفرنجة ومسلمي الأندلس، لهذا كان لا يود الإساءة إليه خوفاً من تحالفه مع الفرنجة[47].

ومن أساليبهم الحربية مع أعدائهم الإسبان، استخدام الضغط على النصارى المعاهدين في المغرب حينما يتعرض مسلمو الأندلس إلى الأذى[48] من قبل الإسبان، فقد حصل في زمن الأمير علي بن يوسف أن قام قائد النصارى ابن رذمير بغزو غرناطة، فأخبره ابن عباد بما حصل للمسلمين من أذى على يديه، فاستشار الفقهاء في الأمر، فأفتوا جميعاً بتغريب النصارى الموجودين بالعدوة المغربية وتشتيتهم في مختلف أنحاء البلاد مما عرضهم إلى السلب والنهب[49] وقتل بعضهم، وربما تجاوز الأمر الضغط السياسي من باب المعاملة بالمثل، إلى إعلان الحرب، فكان يرسل فرقاً حربية تشترك مع فرق الجهاد الأندلسية لتغير على الممتلكات الإسبانية، حيث ترابط فرق الجهاد على الثغور وكان هذا النظام الحربي موجوداً من قبل دخول الأمير يوسف بن تاشفين الأندلس، فقام بتنميته والمحافظة عليه، ومن أشهر زعماء هذه الفرق أيام الأمير علي بن يوسف أبو محمد بدر بن ورقاء الذي كان مرابطاً في مدينة بلنسية يعمل على صد الهجمات ومن ضمنها هجمات ابن رذمير التي كانت تتسم بطابع اقتصادي أكثر من الطابع الديني[50].

أما عن جراياتهم وإقطاعاتهم، فكان راتب كل فارس خمسة دنانير شهرياً مع نفقته وعلف فرسه، ومن برز منهم في ميدان القتال واستبسل أكرمه الأمير بإعطائه إقطاعاً[51] ينتفع بفوائده دون امتلاكه، وقد يصغر هذا الإقطاع أو يكبر حسب درجة الفارس ومهارته في القتال. إلّا أن الأمير علي بن يوسف في آخر عهده امتنع عن إعطاء المزيد من الإقطاعات لجنده بسبب تكالبهم عليها، مما ضاق حال بعضهم حتى أخذوا

---

(44) الحلل، ص 61-62، البيان المغرب، ص 166، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص 258.

(45) نصر الله ـ سعدون، دولة المرابطين، ص 97.

(46) المرجع نفسه، ص 108.

(47) الحلل، ص 68 وما بعدها.

(48) أقام السلطان الناصر محمد قلاوون علاقات دبلوماسية مع ملك أراجون خايمي الثاني وكانت السفارات تتردد بينهما خاصة فيما يخص مسلمي الأندلس والمسيحيين المقيمين في البلاد المصرية والشامية والحجاج الذين يأتون إلى بيت المقدس، فقد تعهد ملك أراغون بحماية المسلمين الأندلسيين وعدم التدخل في شؤونهم الدينية مقابل تأمين التجار والحجاج المسيحيين على أرواحهم وأموالهم وتجاراتهم أثناء مرورهم أو إقامتهم.

(49) الحلل، ص 91/90.

(50) الحلل، ص 91-92.

(51) من الملاحظ أن صاحب الحلل يورد كلمة إنزالات أو إنزال بدلاً من إقطاعات عند حديثه عن أخبار زناته. راجع، الحلل، ص 67.

يكرون دوابهم، كوسيلة لكسب المال[52].

أمّا لباس الجند، فكان يتكوّن من اللثام بحيث لا يستطيعون معرفة قتلاهم إلاّ بعد وضع اللثام، ولبسوا إلى جانبه الغفائر القرمزية، وهي أردية واسعة تعينهم على سرعة الحركة، كما لبسوا العمائم، وكان لباس أميرهم مثل لباس بقية جنده لايتميز عنهم بشيء منه[53]. وأتقن المرابطون حرب الحصون والمدن، إما للدفاع عنها أو الهجوم عليها، فكانوا يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم، فقد أحاطوا بمدينة غرناطة كالدائرة لحمايتها من هجوم ابن رذمير الذي خرج من وادي آش ونزل بقرية درجمة أو رجمة القريبة من غرناطة قصد احتلالها، كما عرف عنهم الصبر على الحصار وتحمّل المحن وتلقي الموت بدون جزع، فقد حاصر الموحدون مدينة فاس مدة تسعة أشهر، ولم يتمكنوا من فتحها رغم استخدام جميع الوسائل وبذل أقصى الجهود ومع هذا لم يتم فتحها إلا بتعاون الفقيه أبو محمد عبد الله[54] الجياني المشرف على باب الفتوح - أحد أبواب فاس - معهم، حيث فتح الباب لجند عبدالمؤمن، فدخلوا المدينة بعد معارك طاحنة مع المرابطين تمكنوا من الاستيلاء عليها[55]، وبرهنوا على صبرهم في الحصار، عندما قام الخليفة عبدالمؤمن بن علي بمحاصرة الحاضرة مراكش للمرة الأولى وفشل في اقتحامها بسبب مهارة الرماة واستخدامهم نوعاً من الرماح القصيرة ساعدتهم على فك الحصار، لذلك كان الرماة العنصر الفعّال عند الحصار، ولم يتمكن عبدالمؤمن وجيشه من أخذها لولا خيانة فرقة الروم التي كانت منخرطة في الجيش، واتفاقهم السرّي مع عبدالمؤمن مقابل منحهم الأمان على حياتهم لما تمكنوا من الدخول إليها، وباستيلائهم عليها وقع في يد عبدالمؤمن الأمير الصبي الصغير إبراهيم بن تاشفين هو وعدد من أشياخ المرابطين ومن بينهم سير بن الحاج، فأخذ الأمير يستعطف عبدالمؤمن، فما كان من سير بن الحاج إلاّ أن تفل بوجهه، وقال له: اصبر صبر الرجال، وقتل الأمير وقتل من معه من شيوخ المرابطين[56].

يستدل ممّا ذكر حرص المرابطين على تحصين الحصون وهذا ما ذكره الصيرفي في قصيدته فأشار إلى اهتمامهم ببناء الحصون وتحصينها وشحنها بالأقوات والمعدات[57]، وحفر الخنادق المسماة عندهم بالحفير حولها[58].

أما أبو بكر الطرطوشي فيورد في كتابه سراج الملوك ص 179، صوراً عن أساليب القتال عندهم فيقول: «فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا - الأندلس - هو تدبير نفعله في لقاء عدونا، أن تقوم الرجالة بالدّرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض. وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تمر سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة ولا يقوم رجل منهم على قدميه. فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فتخرج خيل المسلمين من بين

(52) الحلل، ص 82، ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت سنة 1967 م، جـ 4، ص 102، هوبكنز، النظم الإسلامية، ص 156.

(53) الحلل، ص 126. ، أحمد مختار العبادي، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين، ص 49.

(54) هو أبو محمد عبد الله الجيّاني الذي هنأ عبد المؤمن بانتصاره على المرابطين في فتح مراكش بقوله:

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح ... كأن وجوه الدهر مسودة كنح

فأجابه الخليفة عبد المؤمن بقوله:

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح ... أصاب بين التجسيم من بأسه ترح

راجع، الحلل، ص 157.

(55) المصدر نفسه، ص 136.

(56) الحلل، ص 138-139.

(57) الحلل، ص 126-127.

(58) المصدر نفسه، ص 48.

الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله»[59].

أمّا عن صفات الجيش وسيرة قادته، فكان من عادة مؤسس الدولة الأمير يوسف بن تاشفين أن يصلي صلاة الاستخارة، ويناجي ربه قبل الدخول في القتال، ومن دعائه عندما عزم على العبور للأندلس لمحاربة الفونس قال: «اللهم إن كنت تعلم أنّ جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[60].

ومن عاداتهم أنهم لا يرتضعون كأساً ولا يؤجلون فريضة من فرائض الصلاة حتى في ميدان القتال، فكانوا يصلون صلاة الخائف وهم متنكّبون الأسلحة. ولا يقاتلون غير المسلم إلّا بعد عرض الإسلام عليه أو دفع الجزية، عملاً بالمبادىء الإسلامية التي احترموها وساروا عليها طيلة فترة حكمهم[61].

الأسطول

خاض الأسطول المرابطي أول معركة ضد صاحب سبته معز الدولة بن سكوت البرغواطي سنة 476 هـ/1083 م تساعده سفينة ضخمة أرسلها المعتمد إليه أثناء حربه معه. وكان انتصاره على سكوت حافزاً له في زيادة قطع الأسطول مستعيناً بأهل الخبرة من الأندلسيين الذين ساهموا في إنشاء دور الصناعة وبناء قوة بحرية منظمة، استخدمت إلى جانب أسطول المعتمد في نقل الجند ومواد التموين عند جواز الأمير يوسف بن تاشفين للأندلس سنة 479 هـ/1086 م.

وساهمت قطع الأسطول المرابطي في تحرير شرق الأندلس من الإسبان، وشاركت قطعه إلى جانب قطع الأساطيل الأندلسية في الدفاع عن مدينة بلنسية، وخاض معركة بحرية لاسترداد جزر البليار، وقام بمحاصرة جزيرة ميورقه Palmademollorca لأخذها من الإسبان وإعادتها إلى ديار الإسلام[63]، وكان رئيس الأسطول أبو عبد الله بن ميمون، ومن أتى من بعده من أفراد أسرته الذين كانوا رؤساء جزيرة قادس.

ومن الطريف أنّ أحداث نهاية الدولة، اقترنت ببحريتها عندما حاول الأمير تاشفين بن علي أن يستعين بالأسطول لفراره إلى الأندلس، فرحل إلى ثغر وهران (Oran) بالجزائر سنة 539 هـ/1144 م وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن علي بن عيسى بن ميمون، إلى أن وصل إليه من المرية في عشر سفن حربية، فأرسى قريباً من معسكره، غير أنّ الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي أحاطوا بالمدينة من كل جانب فحاول القفز بحصانه عن صخرة فسقط ميتاً[64].

ونشط المرابطون في بناء سلسلة من الرباطات والمحارس التي انتشرت في أيامهم على طول السواحل المغربية والأندلسية، كما اتخذوا مستشارين لهم من ذوي الخبرة من الأندلسيين أمثال، عبدالرحمن بن أسباط من أهل المرية الذي أشار على الأمير يوسف بأخذ الجزيرة الخضراء من ابن عباد لإقامة قاعدة عسكرية فيها، وبعد أخذها قام بترميم حصونها وشحن أبراجها بالأطعمة والأسلحة وحفر الحفير (الخندق) حولها[65]. وفي هذا النطاق قام المرابطون في بناء محرس سبته ليشرف على كل حركة في المضيق، وأشار إلى أهمية هذا

(59) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ 4، ص 369-370.

(60) السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء ـ المغرب 1954 م، جـ 2، ص 34.

(61) الحلل، ص 94.

(62) نصر الله ـ سعدون، الدولة المرابطية، ص 173.

(63) ابن الكردبوس، كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ـ القسم الخاص بالأندلس، نشر ـ أحمد مختار العبادي ـ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1965 م، ص 123.

(64) السلاوي الاستقصا، جـ 2، ص 64، أحمد مختار العبادي عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة بيروت 1969 م، ص 247.

(65) الحلل، ص 48.

المحرس، أبو القاسم الأنصاري السبتي بقوله[66]: ومنها الطالع الكبير الفذ النظير طالع سبتة الذي بأعلى جبل مينائها المعروف عندنا بالناطور، ابتناه المرابطون هنالك للناظر الراتب، به حصناً وبه قلهرة كبيرة[67].

والخلاصة أن المرابطين كانوا قوماً مجاهدين عرفوا جيداً المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة وفخموا من شأنها إلى درجة أنها أصبحت اسماً علماً لهم، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطي لأتباعه المجاهدين.

أمّا الموحدون فكانوا في بادىء أمرهم طائفة دينية إصلاحية، كونها محمد المهدي بن تومرت المغربي السوسي المصمودي الهرغي في مستهل القرن السادس الهجري، ويتفق المؤرخون على أن مولده كان في الثلث الأخير من القرن الخامس للهجرة ولكنهم يختلفون في تحديد السنة، لأن ابن تومرت ولد في قبيلة جبلية، وقلما يعنى سكان هذه البلاد بتدوين ميلاد أبنائهم خاصة من قبائل السوس لانتشار الأمية فيما بينهم.

ويتحدر ابن تومرت من أسرة بربرية من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة مصمودة الكبرى التي تعتبر أكثر القبائل البربرية عدداً وأشدها بأساً، وكانت أسرة ابن تومرت تسكن قرية «إيجلي أو أيكلي أو أيكلين» وهي لهجات لاسم واحد.

أمّا عبد المؤمن بن علي فينتسب إلى أسرة بربرية قروية تنتمي إلى قبيلة كومية الزناتية. ولد في قرية (تاجرا) من أعمال مدينة تلمسان إحدى مدن المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ. حيث كانت تعيش قبيلة كوميّة في المنطقة المحصورة بين البحر المتوسط وتلمسان، أما مولده فلم يتفق المؤرخون عليه مثلما حصل لأستاذه، للسبب نفسه وهو ندرة التدوين في بيئته القروية وإنما حصروها في الخمس عشرة سنة الأخيرة من القرن الخامس الهجري. واختلف المؤرخون في نسبه، ولكن المرجح أنه بربري، تلقى علومه الأولية في تلمسان، وكان من أساتذته ابن صاحب الصلاة، وعبد السلام البرنسي إمام عصره في علوم الفقه والحديث والتفسير والكلام، وكان يود متابعة دراسته في المشرق، وشاءت الظروف أن يلتقي بأستاذه ابن تومرت السوسي في قرية يقال لها (ملآلة)[68] من أحواز بجاية، ولزم ابن تومرت يطلب العلم على يديه ويشاركه في دعوته إلى التوحيد الكلامي ببلاد المغرب، ويعاني معه مرارة الحرمان والتقشف ومطاردة الحكام، ويمتشق معه الحسام في حرب المرابطين، ثم يخلفه في قيادة الموحدين، ليكمل الجهاد وينشىء دولة الموحدين ومما يدل على بعد نظره وعلو نفسه إلى المجد، ماجرى بينه وبين وزيره أبي حعفر بن عطية من محاورة في أحد مجالسه كشفت عن مزاجه الحربي وحبه لرؤية الجند وهم متنكبون بأسلحتهم[69]، وتجلت عبقريته وحسن إدارته بتعديل نظام مجالس العشر والخمسين والسبعين التي أنشأها المهدي[70].

أما من الناحية العسكرية فقد أدخل على هيكلها القبلي تغييرات طفيفة فجعل قبيلته كومية تأتي في المرتبة الثانية بعد هرغة قبيلة المهدي[71]، وعمل على ضم القبائل العربية إلى جانب الجيش الموحدي ليستعين في حربه ضد النصارى بالأندلس، وينسبون إليه قصيدة دعاهم فيها إلى الجهاد قال:

(66) السبتي، محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط 1969 م، ص 49 وما بعدها.

(67) القلهرة بمعنى القلعة أو البرج، راجع،

Dozy (R): Supplement auxdictionnaires, 2 tomes (Leiden-Paris) 1927, 11, P: 401.

(68) علام، الدعوة الموحدية، ص 43، ص 82، ص 92.

(69) دخل عليه يوماً وزيره أبو جعفر بن عطية وهو جالس في بستانه فأعجب بمنظر الثمار على الأشجار، فقال له السلطان أراك كثير النظر إلى البستان، فقال أبو جعفر هذا المنظر حسن، وبعد ثلاثة أيام أقام عبد المؤمن استعراضاً لجيشه، فقال لأبي جعفر: هذا هو المنظر الحسن لأثمارك وأشجارك. راجع، علام، الدعوة الموحدية، ص 249-250.

(70) علام، الدعوة الموحدية، ص 260.

(71) عبد الله العروي، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، تعريب ـ ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للنشر بيروت ط (1) 1977، ص 183.

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل
وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

ومنها:

بني العم من عليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسل وابن باسل[72]

وضم ما تبقى من أفراد الفرقة الرومية التي كانت في الجيش المرابطي لجيشه وأطلق عليهم بني فرخان وهي على ما يبدو تحريف كلمة «ايفرخان» ومعناها بالشلحية المغربية آفروخ (الشاب)[73].

أمّا البيذق فيرى أنَّ كلمة «إيفرخان» بمعنى مرتزقة النصارى وهذه الكلمة منحوتة من كلمة (FarFanes) التي أطلقت في إسبانيا بعد ذلك بزمن على أعقاب النصارى الذين أعيدوا إلى بلادهم[74]، وممن أنضم إلى الجيش الموحدي قبائل الغز بقيادة قراقوش وبلغ عدد الجيش الموحدي أيام الخليفة عبد المؤمن عند إعلانه الجهاد ضد الفرنجة بالأندلس نصف مليون جندي، وإليه ينسب نظام التربيع في القتال، وهو عبارة عن أربعة صفوف على شكل مربع، وفي القلب القائد أو الخليفة الذي كثيراً ما كان يقود المعارك بنفسه، تحيط به هالة من الفرسان وأفراد الحرس الخاص الذين اتصفوا بالشجاعة والإقدام وحسن الإخلاص للخليفة[75].

وعرف عن الخليفة عبد المؤمن استخدام المرونة في القتال وخاصة مع القبائل المتمرسة فيه. ففي سنة 529 هـ/1134 م خرج لغزو بني ييغر[76] في جبال تينمل، لكنه فوجىء بتخطيط حربي من قبلهم أثار الذعر في صفوف الموحدين، فقد وضعوا حطباً على ظهور الجمال وأضرموا فيها النيران ودفعوها مذعورة في صفوف الموحدين، وهجموا إثر الجمال فهزموا الموحدين، مما اضطر عبد المؤمن إلى الاستعانة برجال من الموحدين تربطهم ببعض رجالها روابط المودة والصداقة مما ساعده على جذبهم إلى صفوف الموحدين[77].

وفي عام 531 هـ/1136 م خرج الى المنطقة نفسها لغزو أراضي جدميوة، فاعترضه الجيش المرابطي بقيادة الأبرتير[78] الرومي وهزمه، لكنه تمكّن من قتله فيما بعد في معركة أخرى دارت بينهما في سنة 539 هـ/1144 م.

ومما تميز به الخليفة عبد المؤمن عن سواه ابتكاره تأسيس المدارس المعدة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والأسطول في مدينة مراكش، فكان يجمع الأولاد الصغار من مختلف أبناء القبائل المغربية خاصة قبائل المصامدة، مع من يأتي من أبناء المدن الأندلسية وبخاصة من مدينتي أشبيلية وقرطبة، ثم يقوم بتقسيمهم إلى فئات حسب أعمارهم فتراهم وكأنهم أبناء ليلة واحدة، ثم يعمد إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض، وتعلم السباحة والقيام

(72) علام، **الدعوة الموحدية**، ص 211.

(73) هوبكنز، **النظم الإسلامية**، ص 145، ص 148.

(74) لعلّ هذه التسمية تشبه التسمية التي أطلقها الفرنسيون على الفرنسيين الذين أعيدوا إلى فرنسا بعد استقلال مستعمراتها وهي ترمز إلى عدم الرضى عنهم واعتبارهم دون الفرنسيين منزلة. (الباحث).

(75) **الحلل**، ص 132، هوبكنز، **النظم الإسلامية في المغرب..**، ص 148-155، 173، علام، **الدولة الموحدية**، ص 260-261.

(76) قبيلة من قبائل الأطلس الكبير على بعد عدة كيلو مترات من تينمل حيث يرقد جثمان المهدي، علام - عبدالله، **الدعوة الموحدية**، ص 112-113.

(77) علام - عبدالله، **الدعوة الموحدية**، ص 112-113.

(78) الربرتير Reveerter أو Reberter هكذا ضبط اسمه دوزي حسب نصوص الحولية اللاتينية للأمبراطور الفونسو السابع. أما المصادر العربية فقد ذكرته بأشكال مختلفة مثل الربرتير والربرتين والأبرتير.. وواضح من اسمه أنه من أصل مسيحي، فقد كان أبوه فارساً قطلانياً من برشلونة ثم وقع أسيراً في يد أمير البحر علي بن ميمون الذي حمله إلى سلطانه علي بن يوسف تاشفين بمراكش. فعيّنه السلطان قائداً على جنده الإسبان الذين هم في خدمته، فقام بمهمته خير قيام وأبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن دولة المرابطين إلى أن قتل في معركة ضد الموحدين بالقرب من تلمسان سنة 539 هـ/1145 م، وقد اعتنق ابنه الإسلام وتسمى أبي الحسن علي بن الربرتير. ولمّا قامت دولة الموحدين دخل في خدمتهم وصار من كبار قوادهم في البر والبحر إلى أن انتهت حياته هو الآخر في المعركة التي دارت رحاها بين المنصور الموحدي وابن غانية بأفريقية عند بلدة عمرة من أعمال قفصه سنة 583 هـ/1187 م عنه راجع، ابن عذارى، **البيان المغرب**، جـ 4، نشر ويثي ميراندا، محمد بن تاويت الطنجي إبراهيم الكتاني، الرباط، **1963**، ص 16، 159، العبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية**، ص 270.

بمناورة بحرية وكأنها حرب حقيقية في قصره الواقع في الحي المعروف بأكدال (المنتزه) وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرنوا فيها على التجذيف وقيادة السفن والوثب على سفن العدو ومزاولة التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية، وكان تعليمهم على نفقة الدولة، وكان لأولاده البالغ عددهم ثلاثة عشر يتعلمون معهم، وقد أشار عليه أشياخ الموحدين بتولية أولاده في الولايات، لكنه تظاهر بالامتناع ثم وافق، وأوكلهم إلى كتّاب يقومون بتدريبهم على أساليب الحكم والإدارة بعد أن نمّى بهم الخصال الحميدة ليهيئهم لقيادة الأمة بعد موته[80].

والملاحظ أن المسميات المستخدمة في الجيش الموحدي كان لكل واحد منها مدلوله الخاص به، فالمرتزقة الجند النظاميون الذين يتلقون رزقاً ثابتاً ودائماً، أمّا الحشود فهم على العكس من ذلك يجندون لحملة معينة، وأما المتطوعة، فهم الذين يعتمدون على الغنائم والمنح الإكرامية، وهم الذين التحقوا في الجيش بأعداد كبيرة أو قليلة لتأدية فريضة الجهاد.

وكلمة الجند عند الموحدين تطلق في العادة على المحترفين الذين يتلقون مرتباتهم أيام السلم والحرب، بمَا فيهم الجند الأجانب من العبيد أو الصقالبة الذي كان ولاؤهم للسلطان لأن الأجنبي لم تكن له جماعة تنصره إن هو فكر في شق عصا الطاعة، وبالتالي كان من مصلحته أن يكرس نفسه لخدمة سيده السلطان، وكان من مصلحة السلطان أن يجزيه على هذا الولاء، وأن يكون في الجند عناصر متباينة غير مندمجة مع بعضها لإثارة المنافسة فيما بينها في الحرب وفي الولاء للسلطان[81].

أما عن الإقطاعات والجرايات، فقد حذا الموحدون حذو المرابطين، وأصبح إقطاع الأراضي طريقة متبعة عند سلاطين المغرب من بعدهم[82].

واهتم الخلفاء الموحدون ببث العيون في صفوف جيش العدو لتثبيط همم أفراده، وفي بث العيون في صفوف جندهم، وما ديوان التمييز إلّا وسيلة من الوسائل التي يتعرف بها الخليفة على مدى إخلاص الأفراد في الجيش له من عدم إخلاصهم خاصة في بداية تكوين الدولة[83].

أما عن الأسلحة، فكان من أبرزها القنا الطوال أو الطوارق المانعة، والدرق اللمطية، والأحربة، والمخالي - المقالع - التي يرمى بها الحجارة، وقوس[84] الرجل، إلى جانب المطايا وأهمها الخيل[85].

التحصينات:

اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الأراضي المغربية، فأنشأ القصور، والقلاع، والرباطات ذات المناور أو الطلائع التي تشعل النار على قممها ليلاً وينبعث منها الدخان نهاراً لإنذار الأهالي في حالة وقوع غارة بحرية معادية. هذا إلى جانب استخدام الطبول الضخمة للغرض نفسه، وهي تقابل الأبواق عند المسيحيين[86]. ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الأطلسي جنوبي الجديدة (مازيغان) بنحو 12 كلم[87]. ويعود بناء هذا الحصن إلى منتصف القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد أما قصبة الوادية الحالية الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي، والتي سمّاها بالمهدية تخليداً لاسم أستاذه المهدي بن تومرت، والتي أجرى لها الماء في قادوس تحت الأرض من عين عبولة التي تقع في جنوب غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلو متراً، كان قد ربطها بمدينة سلا

(79) علام - عبدالله، الدعوة الموحدية، ص 126-127.

(80) نصر الله - سعدون، دولة المرابطين، ص 150-151، عبدالعزيز سالم - المختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 259-260.

(81) هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب، ص 154-155 ,179 وما بعدها.

(82) راجع، المرجع نفسه، ص 156.

(83) سالم، العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 273.

(84) برع بها الأندلسيون أكثر من غيرهم، راجع، ابن هذيل، حلية الفرسان، القاهرة، ص 211.

(85) الحلل، ص 132.

(81) عبدالعزيز سالم، مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 254-255.

(87) Georges Marcais: L'architecture Musulman d'occident, Paris, 1954, P. 222.

المقـابلة لهـا، بجسر من السفن المشـدود بعضهـا ببعض بـالسلاسـل عبر وادي الرمان (أبـو الرقـراق) حاليـاً، وعليها ألـواح خشبية كي تمـر عليها الجيـوش والمعدات المتجهـة إلى اسبانيا. والملاحظ أن آثار الساقية المتفرعة عنهـا مازالت بـاقية للآن[88].

وكان الخليفة عبد المؤمن قد نقش على الباب الشرقي لهـذه القصبـة الآية الكـريمة التي تـرمز إلى جهـاد العدو[89] ﴿يـاأيها الذين آمنوا هـل أدلكم على تجـارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله.. (إلى قولـه) وبشر المؤمنين﴾[90].

ومن أبرز أعمال الخليفة عبد المؤمن العسكـرية التي خلدت ذكراه، المدينـة البحريـة الحصينة التي بنـاها عـلى سفح جبـل طارق سنة 555 هـ/1160 م وسمّاها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القـادمة من المغـرب، ومنذ ذلك الحين صـار جبل طـارق يعرف بجبـل الفتح، وقـد قام ببناء القلعـة البحـريـة عـدد كبير من العـمال والبنّـائـين الأندلسيين. ومن الـطريف أنه حينـما تمّ بناء مـدينة الفتـح، ركب الخليفة عبدالمؤمن سفينـة من سفن أسطولـه وطاف بهـا حـول جبل طـارق ليتفقد حصـون المدينـة الجديـدة، ويعاين أحوال البناء فيها، وهـذا مـا فعله في مدينـة المهديـة بالـطواف حول أسوارها قبل الاستيلاء عليها[91].

واهتم الخليفة أبو يعقوب يوسف اهتمام أبيه بـالتحصينات وأولاها أهمية خـاصة، فقـام بتحصين مـدينة أشبيليـة، وعقد عـلى واديها الكبـير جسراً من السفن يمتـد إلى بلدة أطـريـانـة Triana إحـدى حواضر أشبيلية لإجازة الجيـوش الإسلاميـة المتجهة نحو الغـرب، وقد بـدأ العمل بـه في شهر صفـر سنة 567 هـ/1171 م تحت إشراف الخليفة أبي يعقوب وأمـر بـأن تكون جيوش النجدة المتهجة إلى مدينة بـطليوس المهـددة من قبل العدو هي أول الجيوش التي تعبر هذا[92] الجسر، كذلـك أمر عامله على أشبيلية أبا داود يلول بن جلداسن، ببناء سـور حصين على قصبـة المدينـة بحيث يشمل مسجـد المدينـة ودار صناعة السفن المسماة بالقـطائع والمتصلة بسور القصبة المـطل على الوادي والمنتهي بباب الكحل المطل على سفن الـوادي، هـذا إلى جانب بنـاء القسم الداخـلي والخارجي للقصبـة مـع تـرميم أسـوارهـا المـطلة عـلى الـوادي وتـرميم ثغـورهـا الخارجية[93].

ولم يقتصر التحصـين على مـدينة أشبيليـة بل تعـداهـا إلى المدن الواقعة على الجهة الغربية الساحلية. يقول ابن صـاحب الصلاة بهذا الخصوص: وهو الـذي حمى بطليـوس من الكفر وابتنى لهـا قصبتهـا الشـاهقـة المـانعـة، وسرب المـاء اليهـا من الوادي فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعـدد من الأسلحة والرجال المنتخبة[94].

الأسطول:

وجّه الخليفة عبد المؤمن عنايته نحو إنشـاء وتعمير المـراسي ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والأندلسية ساعده في ذلك توفر المواد الخام من بلاد العـدوتين من خشب وحـديد، وقـد أنتجت دور الصناعـة في عام 557 هـ/1162 م في العدوتين أربعمائة قطعة، منها في وهران وهنين وتونس مائة قطعة، وفي مراسي الأندلس ثمانون[95] قطعة. وإلى جانب دور

(88) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بـالإمامة، نشر - عبد الهـادي التازي ط (1)، بـيروت 1964% جـ 2، ص 218 ,448، السلاوي، الاستقصا، جـ 2، ص 128.

(89) المنوني - محمد، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، تطوان 1950 م، ص 13.

(90) سورة الصف آية (10).

(91) سالم، مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص 258.

(92) يلاحظ أنّ هناك فرقاً بين الجسور والقناطر، فالأولى متحركة والثانية ثابتة، وكانت الجسور عبارة عن سفن بشد بعضها ببعض بـواسطة سـلاسل بعـرض النهر وتوضع ألواح خشبية عليها لمرور الناس والدواب عليها ثم تفتح عند اللزوم لمرور السفن. راجع، **تاريخ البحرية الإسلامية**، ص 265، الحاشية.

(93) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، جـ 2، ص 481.

(94) المصدر نفسه، ص 236.

(95) **A-Julien,** Histoire de L'Afrique denord, P: 124.

الصناعة المذكورة كانت توجد دار صناعة في قصر معمورة التي كانت تبنى فيها مراكب النقل التي يسافر عليها الجنود ومعداتهم إلى الأندلس، ووجدت دار صناعة كبيرة في المكان المسمى اليوم باسم الحبالات (بضم الحاء وتشديد الباء) شرقي فاس عند ملتقى وادي فاس بوادي سبو، وكانت تنشأ بها القوارب والسفن الصغيرة ثم تنساب إلى وادي سبو، وتصعد فيه حتى مصبه في المحيط الأطلسي، وقد أنشأ هذا المصنع الخليفة عبد المؤمن عندما عزم على فتح المهدية 552 هـ/1157 م[96].

ومن مهام القطع البحرية إلى جانب المعارك الحربية، نقل المعدات وآلات الحصار، والتعاون مع القوات البرية في الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية، كثيراً ما أدت مهامها بنجاح. وكان من أبرز أعمالها استرداد مدينة شلب (Silves) والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة قصر أبي دانس (Alcacardesal)، وكان من مهامها حراسة ثمار النصر في المعارك البرية خوفاً من ضياعها، فكانت تقوم على حراسة المضيق وحماية المواصلات ونقل الحشود والمعدات والرقاصين ـ عمال البريد ـ بين العدوتين، ومما يدل على تفوق البحرية الموحدية، خطاب الفونسو الثامن إلى الخليفة المنصور يطلب منه[97] إرسال المراكب والشواني والطرائد والشلنديات لكي تحمل جنده إلى بر العدوة لقتال الخليفة المنصور، شأنه في ذلك شأن الأذفنس الذي طلب من الأمير المرابطي مثل هذا الطلب أو مجيء الأميرالية، واجتاز الأمير يوسف بحر الزقاق، ولقنه درساً قاسياً تمثّل في معركة الزلاقة[98]، كما يروي أحد المغاربة وهو ابن سعيد المغربي المتوفى في القرن السابع للهجرة عن دور المغاربة كفنيين وجند في الأسطول المصري، وإن دلّ هذا على شيء، فإنّما يدل على تفوق البحرية المغربية الأندلسية آنذاك[99].

وهناك دلالة أخرى على تفوق الأسطول الموحدي، استغاثة صلاح الدين الأيوبي بالسلطان يعقوب الموحدي، فقد كتب له كاتبه القاضي البيساني رسالة يطلب منه العون والمساعدة ضد أساطيل البيزنطيين، فتجاهل أبو يعقوب طلبه لأنّه لم يلقبه بأمير المؤمنين[100] علماً بأن الخليفة العباسي كان يعيش في كنف الأيوبيين في القاهرة، وأن بني غانية بقايا المرابطين الموجودين في جزر البليار كانوا يعترفون بالخلافة العباسية ولم يعترفوا بخلافة الموحدين[101]. والملاحظ أن الأسطول الموحدي كان موضع إطراء الشعراء ومديحهم، وكانت قصائدهم تنشد في المناسبات السياسية أو الحربية، وهذا ما أعطاها قيمة تاريخية إلى جانب قيمتها الأدبية. ومثال ذلك القصائد التي أنشدت بمناسبة زيارة الخليفة عبدالمؤمن للقاعدة البحرية (مدينة الفتح) التي بناها على جبل طارق سنة 555هـ/1160م، وحسبنا أن نقتبس منها بعض الأبيات مثل قول الشاعر القرشي القرطبي المعروف بالطليق[102].

يرمي بهم ظهر طرف بطن سابحه
فالبر في شغل والبحر في صخب

وفي هذه المناسبة أيضاً قال الشاعر الأندلسي أبو عبد الله الرصافي:

تسنم الفلك من شط المجاز وقد
نودين: يا خير أفلاك العلا سيري
فسرن يحملن أمر الله من ملك
بالله منتصر في الله منصور

وعرفت بعض القطع بخفتها وسرعة حركتها، وقد أطلق عليها بالأغربة الطيارة.

(96) تاريخ البحرية الإسلامية، ص 256.
(97) تاريخ البحرية الإسلامية، ص 277.
(89) الحلل، ص 43.
(99) تاريخ البحرية الإسلامية، ص 279.
(100) ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، جـ 2 القاهرة ط (3) تحقيق: علي عبدالواحد وافي، ص 693-694.
(101) العروي، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ص 190.
(102) يقال إنه حفيد طليق النعامة الذي أفرج عنه المنصور بن أبي عامر بسبب أسطورة النعامة. راجع، المراكشي ـ عبدالواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ نشر ـ سعيد العريان ـ محمد العربي العلمي ـ القاهرة 1949 م، ص 216-217.

وفي اللقاء الذي تمّ بين ابني الخليفة عبد المؤمن، السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن صاحب مراكش الذي خرج متجهاً نحو الجزيرة الخضراء للقاء أخيه أمير أشبيلية أبي السعيد قال ابن حربون قصيدته المشهورة الذي وصف فيها منظر القطع البحرية الراسية في جبل طارق عند لقائهما قال:

يا من رأى الفلك على الموج طافية
كما كفأت قباباً وسطها العمد
ينساب منهن في أعلى غواربه
أساود سكنت أجوافها أسد[103]

وقال الفقيه أبو محمد[104] المالقي قصيدة يصف فيها الموكب البحري للخليفة أبو يعقوب يوسف عند دخوله الأندلس سنة 580 هـ/1184 م، قال:

أو راكب فوق متن الماء مرتفق
كأنه قيصر والقلع إكليل
فالبر كالبحر تستنّ أدرعها
والبحر كالبر إذ يصطف أسطول[105]

وأورد المقري أبياتاً عديدة في وصف الأسطول الموحدي نقلاً عن شعراء عديدين أمثال ابن الآبار البلنسي، وأبي عمرو يزيد بن عبدالله اللخمي الاشبيلي وغيرهما.

وكان من أبرز قواد الأسطول الموحدي غانم بن مردانيش[106] Mardanish وأخواه أبو القمر هلال، وأبو العلا، وعبد الله بن جامع، وأبو العباس الصقلي الذين خاضوا معارك بحرية شرسة ضد القائد البرتغالي (فواس روبيهنو)، ودخلت عناصر أجنبية تولّت قيادة البحرية الموحدية، أمثال البحار القديم دي روجيه الثاني الصقلي[107] Roger وبالجملة بذل الموحدون جهوداً مشكورة في توحيد المغرب العربي، وفي مساعدة اخوانهم الأندلسيين من غزوات الإسبان، ولو أنّ العلاقة فيما بينهما لم تكن في المستوى المطلوب، بسبب الخلاف المذهبي مابين المالكية والظاهرية ممّا أضعف الثقة وعدم التقارب بينهما إلّا للضرورة[108].

أمّا الحفصيون، فهم ينتسبون إلى أبي حفص عمر بن يحيى بن عبد الله العمري الهنتاتي الملقب بأزناج شيخ جبل المصامدة وكبير قومه فيه وهو الذي دعاهم إلى اتباع المهدي بن تومرت عندما أعلن مهديته سنة 515 هـ/1121 م، وكان يُعد من العشرة المقربين عند المهدي وله مكانة خاصة عنده إذ يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة، وإليه يعود تأسيس الدولة الحفصية[109] التي تأسست بتونس على أثر انهيار دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب[110] سنة 668 هـ/1269 م وسلك الأمراء الحفصيون مسلك الدولة الموحدية في سياستهم الحربية لفكر نظام التربيع في القتال والجوسسة، وتنويع العناصر في الجيش.

أمّا عن الجوسسة، فلم يقتصر عملها على مراقبة الجيش الحفصي بل تعداه إلى بث العيون في المغرب المريني خاصة أيام السلطان أبي زكريا يحيى الأول، فكانوا يختلطون بالناس على مختلف طبقاتهم ليعرفوا أسرارهم وأسرار دولتهم،

---

(103) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص 253 وما بعدها.

(104) هو أبو محمد عبدالوهاب بن علي المالقي، كان خطيب مسجد يعرف برابطة الغبار بمالقة عرف عنه حبه للشعر المطبوع وهيامه بالوجه الحسن. راجع، المقرّي ـ أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968، جـ3، ص 403.

(105) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص 421-423.

(106) هذا القائد هو ابن أمير بلنسية وشرق الأندلس المكنى بأبي عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الذي رفض الاعتراف بحكم الموحدين ودخل في حرب معهم إلى أن مات سنة 567 هـ/1171 م، وقد عوّضهم الخليفة أبو يعقوب يوسف عن ممتلكاتهم بمناصب يتقلدونها أراضٍ تقطع لهم في مملكته، كما تزوج أختاً لهم تدعى الزرقاء المردنيشية وولع بها وتغلبت عليه حتى صار الناس يضربون المثل بحب الخليفة لها، ويلاحظ أن معظم أبناء مردنيش قد أسندت إليهم قيادات في البحرية الحربية. ابن عذارى ـ المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر ـ ميراندا ويثي ومحمد بن تاويت التطواني، وإبراهيم الكتاني، جـ4، ص 95-108، الرباط 1963 م، عبدالعزيز سالم، أحمد مختار العبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية**، ص 266 الحاشية، العروي **تاريخ المغرب**، ص 185.

(107) العروي، **تاريخ المغرب**، ص 185، ص (108

(109) ابن خلدون، **تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب**، الجزائر سنة 1267 هـ/1851 م، جـ2، ص 371، السلاوي، **الاستقصا**، جـ2، ص 216.

(110) مؤلف مجهول، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، نشر ـ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1920 م، ص 99 وما بعدها.

وينقلوها بدورهم إلى مصلحة المخابرات في الجيش الحفصي[111].

لكن هذا النظام أصابه الانحراف والفساد خاصة في أواخر الدولة، ففي زمن السلطان أبي فارس عبد العزيز حدث أن أفشى أحد القواد العسكريين بعض الأسرار العسكرية إلى الكاتلونيين في أثناء حرب السلطان معهم سنة 833 هـ/1429 م، وكادوا يقضون على السلطان وحاشيته لولا شجاعة بعض أفراد الجيش وتداركهم للأمر[112]. وكان للجيش الحفصي مجلس حربي مهمته البت في الأمور الحربية الحاسمة كإعلان الحرب أو الهدنة أو بناء المنشآت العسكرية أو ماشابه ذلك من الأمور الحربية الأخرى. أمّا عناصر الجيش، فكانت تتألف من الموحدين الذين أسسوا الدولة، ومن الأندلسيين، ومن قبائل زناتة المنضمة اليهم فقد برز فيها رجال عرفوا بالشجاعة والمهارة في الحرب، ومن قبائل العرب التي وفدت إلى تونس في عهدهم أو القبائل القديمة التي كانت بتونس أيام الخليفة عبد المؤمن، بالإضافة إلى ألف فارس من المماليك الأتراك الذين ابتيعوا من مصر. ومن الفرنج وهم العلوج الذين لايطمئن السلطان لأحد سواهم، ومنهم ينتقي الفرق الخاصة به (المسماة بعبيد السلطان) والتي تلبس الجلاليب البيضاء، وتتمنطق بالسيوف، وتحمل العلم الأبيض المسمى (بالعلم المنصور)[113]. وكان لكل قبيلة من القبائل الداخلية في الجيش سجل خاص بها يسجل فيه الرجال المحاربون من أبنائها. وكان السلاطين يسقطون من السجل من لم يكن له أصل ثابت في هذه القبائل[114].

أمّا طبقات الجند، فكانت تقسم إلى سبع طبقات:

الطبقة الأولى: وتتألف من شيوخ الموحدين الكبار، وهم بقايا أتباع المهدي بن تومرت، ويقابلهم أمراء الألفيه عند المماليك بمصر.

الطبقة الثانية: وتتألف من شيوخ الموحدين الصغار، ويقابلهم أمراء المئات عند المماليك بمصر.

الطبقة الثالثة: الوقافون، وهم طبقتان: وقافون كبار ووقافون صغار. وكلهم يقفون بين يدي السلطان في أوقات جلوسه وخاصة عند النظر في المظالم ويسكنون معه في القصبة (القلعة).

الطبقة الرابعة: عامة الجند.

الطبقة الخامسة: الجند من قبائل العرب.

الطبقة السادسة: الصبيان، وهم جماعة من الشبان مختصون في خدمة السلطان.

الطبقة السابعة: الجند من الإفرنج ويعبّر عنهم بالعلوج.

أما عن عدد العساكر، فيبلغ عشرة آلاف فيهم عدد كبير من عرب البادية لهم صولة وجولة ومكانة عند السلطان.

أما عن أعطياتهم، فكان لهم ديوان يسمى بديوان العطاء، يعطي كل رجل من رجال القبائل المحاربة كسوة تقدر بثلاثين ديناراً سنوياً، ويمنح شيوخ القبائل وخاصة العربية منها إقطاعات تتناسب مساحتها مع عدد رجال القبيلة المحاربة مع الدولة في أيام الحرب، وقد يصدر السلطان مرسوماً يعفي هذه الإقطاعات من الضرائب حرصاً منه على مودة المشايخ لمساعدتهم إياه في إخماد الفتن الداخلية، أو الحروب الخارجية[115].

أما عن أعطيات كبار الموحدين، فكانوا يقومون بزراعة قطع من الأرض، يأخذون عشر إنتاجها، ويعطي كل واحد منهم زيادة عن هذا العطاء حرث عشرة أزواج من البقر، كل زوج بشعبتين، وكل شعبة عبارة عن رأسين من البقر، فيكون لكل واحد منهم عشرون فداناً أي ما يساوي أربعين رأساً من رؤوس البقر، ولهم مع ذلك راتب يفرق عليهم

---

(111) ابن الشماع - أبو العباس أحمد، **الأدلة البيّنة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية**، ص 46 - الخزانة العامة الرباط تحت رقم (11227).

(112) الزركشي، أبو عبدالله محمد بن ابراهيم، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس سنة 1966، ص 29, 128.

(113) القلقشندي - أبو العباس أحمد بن علي، **صبح الأعشى في كتابه صناعة الإنشاء**، القاهرة د-ت، جـ5، ص 137، العمري - شهاب الدين بن فضل الله، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الخاص بوصف أفريقية**، نشر - حسن حسني عبدالوهاب تونس د-ت، ص 18.

(114) الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 62، ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب القسنطيني، **الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية**، تحقيق: محمد الشاذلي، عبدالمجيد تركي، تونس 1968، ص 160.

(115) ابن قنفذ، **الفارسية**، ص 139.

أربع مرات في السنة، يسمونه بالبركات، ففي عيد الفطر تفرقة، وعيد الأضحى تفرقة، وفي ربيع الأول تفرقة، وفي رجب تفرقة. ويعطي كل واحد منهم في كل تفرقة أربعين ديناراً مساة (ما يعادل ثلاثمائة درهم من الدراهم العتيقة)[116]. وأما السلطان فيأخذ كواحد منهم حرث خمسة من البقر، أي نصف ما للشيوخ الكبار. وأما البركات، فللشيوخ الصغار مقدار ما للشيوخ الكبار، ولعامة الشيوخ، سواء الكبار منهم أو الصغار، والوقافين والجند شيء آخر يفرقه السلطان عليهم يسمى (بالمواساة)، وهي غلة تفرق عليهم عند موسم جمعها ووضعها في إهراءات (المخازن) الخاصة بها، وشيء ثالث يقال له (الإحسان)، وهو مبلغ مالي يفرق عليهم، وسواء المواساة أو الإحسان كلاهما يفرق عليهم جميعاً من السنة للسنة حسبما يرى السلطان وحسب درجات الناس عنده، فمقادير العطاء متفاوتة بتفاوت الدرجات بين مشايخ القبائل ومزاويرهم[117]. وأما الجند الغرباء المنضمون للجيش من غير عصبة الموحدين كالأندلسيين وغيرهم فينفردون بأعطيات خاصة دون غيرهم من الموحدين. أما لباس الجند: فيمتاز عن لباس عامة الناس بصغر العمائم، وضيق في لباس الثياب المفصلة من أنسجة الجوخ والصوف والقطن.

وأمّا الخلع والتشريف في الدولة، فقد جرت العادة على من يتولى أمراً من الأمور أن يعطي حلة أو كسوة من القماش غير مخيطة ولا مفصلة يتصرف فيها كيفما شاء.

الأسطول:

لم يقلّ اهتمام الدولة الحفصية عن اهتمام الدولة الموحدية بالأسطول. فكان لمدينة المهدية أثر كبير في تقوية هذا الأسطول وتنميته، تلك المدينة البحرية التي مارست بحسن موقعها النشاط البحري منذ زمن العبيديين.

واستخدم الأمراء الحفصيون فرقاً بحرية خاصة في أسطولهم الحربي تستدعى حين اللزوم، وكان أبرز قواد هذا الأسطول زيد بن فرحون الذي ذاع صيته حتى استعان به السلطان أبو الحسن المريني في إحدى المعارك الحربية مع الجيش النصراني في أثناء الأخذ بثأر ابنه (أبي مالك) المقتول بأيدٍ نصرانية عندما كان والياً من قبل أبيه على أحد الثغور الأندلسية[118]. فطلب الأمير المذكور من صهره السلطان أبي بكر الحفصي أن يمده بأسطوله، فاستجاب الأخير لطلبه، وفعلاً وصل الأسطول التونسي بقيادة القائد زيد بن فرحون المسمى عند الحفصيين بالملّند إلى جبل طارق، وانضم إلى الأسطول المريني في حربه ضد الأسطول الفرنجي.

ومن قواده أيضاً القائد رضوان الذي كانت له صولات وجولات مع العدو، والذي كلّفه السلطان أبو فارس عبد العزيز بفتح جزيرة مالطة وأمره أن لا يتجاوز في حربه لها ثلاثة أيام فإن لم يستطع فتحها رحل عنها[119].

أما مراكز الأسطول: فكان له عدة مراكز بالمغرب الأوسط علاوة على مراكزه بالمغرب الأدنى، من هذه المراكز، عنابة، بجاية وغيرهما من المراكز الأخرى، وله عدة قطع تختلف أسماؤها باختلاف أشكالها وأحجامها، من هذه القطع، قطع تسمى بالحراريق يركبها الشجعان من الرماة والرؤساء المهرة، يقاتلون العدو على ظهرها، وغالباً ما كان يحالفهم النصر في معاركهم مع العدو. أما الأسطول التجاري: فلم يقلّ أهمية عن الأسطول الحربي بسبب موانئه المفتوحة مع أوروبا مثل المهدية وبجاية وعنابة وغيرها من الموانىء الأخرى التي كان لها

(116) تعادل بنقد مصر والشام بخمسين درهماً.

(117) يسمي ابن خلدون في كتابه العبر حاشية السلطان أبو بكر الحفصي والمقدم عليهم الملقب بالمزوار يسميهم (بالدخلة). راجع، ابن خلدون ـ العبر دار العلم ـ بيروت د ـ ت ـ 338، جـ 6، ص 337. أما المزوار فيسمونه اليوم سكان الجنوب في المغرب الأنفلس والجمع أنفلاس وله صلة بأعمال السحر، فهو أول من يضع يده على المحراث تيمناً بجودة المحصول، ويُحتاج إلى وجوده في ساحات القتال لكسب النصر، وكان يطلب منه في الماضي أن يبدي رأيه في المسائل السياسية، عنه. راجع، هوبكنز **النظم الإسلامية**، ص 173.

(118) العمروي ـ العربي، الزواج السياسي (**توأمة فاس والقيروان**)، مجلة المغرب عدد 3، الرباط 1965، ص 41-47.

(119) الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 127.

الأثر الأكبر في ازدهار الاقتصاد في الدولة[120] وبتخصيص وزارة خاصة به سميت (ديوان البحر)، التي امتزت بكثرة ريعها، فعينوا لها وزيراً خاصاً بها سمي بوزير البحر، من هؤلاء الوزراء ابن تافراجين، الذي جمع مالاً وفيراً من جباية السفن[121]. ولكنهم فيما بعد فقدوا قوة هذا الأسطول، وذلك لعدم اهتمامهم به وبالقائمين على شؤونه، وبخاصة من الأسر الأندلسية التي كان لها الخبرة أكثر من غيرها بحكم ممارستها لهذه المهنة من قبل[122].

الخاتمة:

من الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولتين المرابطية والموحدية، انشغالها بحرب الأندلس، فقد أدرك المغاربة منذ زمن بعيد أن سقوط الأندلس يعني سقوط الجزء الشمالي من المغرب وبالتالي سقوط المغرب كلها، ويذكر التاريخ قديمه وحديثه أن أية قوة تجتاح إحدى ضفتي البحر على مضيق جبل طارق، يعتبر اجتياحها اجتياحاً للمنطقة الثانية، فالونـدال لما وصلوا إلى الأندلس اجتاحوا بلاد المغرب، والعرب عندما فتحوا المغرب الأقصى توجهوا إلى الأندلس واستولوا عليها، وفي التاريخ الحديث عندما قام الإسبان بطرد العرب المسلمين من الأندلس اجتاحوا المغرب ولا تزال مدينتا سبتة ومليلة تحت الحكم الإسباني. هذا على المستوى الخارجي، أما على المستوى الداخلي فهناك الكثير من الأسباب التي أثرت على البنيان الحربي للدولتين، فالمرابطون مالوا إلى حياة الدعة والترف مما أفقدهم الصفات العسكرية التي كانوا يتمتعون بها أيام وجودهم في الصحراء، ومحاربة الجندي المرابطي على أكثر من جهة في الداخل والخارج والفتن التي اشتعل أوارها بين قبائل صنهاجة مما قلّل من شأنها أمام القبائل المغربية الأخرى.

يضاف إلى ذلك اعتماد الدولة المرابطية على الفروع دون الأصول، والاكتفاء بمذهب مالك دون غيره من المذاهب أدى إلى غلق باب الاجتهاد وقول أربابها بالتجسيم معتمدين على تفسير ظواهر الآيات القرآنية، كل هذا ساعد مناوئيهم الموحدين على اتهامهم بالكفر وجواز قتالهم.

أما الموحدون فقد استنفذت البلاد الأندلسية قواهم، وانشغلوا بالصراع الداخلي فيما بينهم للوصول إلى العرش، مما أدى إلى انقسامهم وضعف قوتهم، بالإضافة إلى اعتمادهم على المذهب الظاهري وما به من نقاط خلاف بينه وبين المذهب المالكي مما أدى إلى ضعف الثقة بينهم وبين الشعب وعدم التقارب بينهما إلّا للضرورة. أما الحفصيون، فقد شاهدوا ما شاهده الموحدون من صراع بين أفراد الأسرة الحاكمة للوصول إلى العرش، واعتماد البعض منهم على الدول المجاورة في تحقيق مطامعهم ضد إخوانهم مثل الدولة المرينية بفاس ومع أنّهم لم يلتزموا بالمذهب الظاهري الالتزام الذي التزم به الموحدون نفسه إلّا أن ارتباطهم به جعل بينهم وبين علماء المالكية بالقيروان جفوة، يضاف إلى ذلك ما صاحب الدولة من استيلاء الإسبان على الأندلس وطرد العرب المسلمين منها واجتياح البرتغاليين والأسبانيين البلاد المغربية كلها، كلّ هذا أضعف قوة الدولة والأمة وانعكس هذا الضعف على الوضعين الاقتصادي والسياسي للبلاد فأدى إلى زوال كيانهم السياسي والعسكري.

(120) دائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية، مادة الديوان.

(121) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 93.

(122) ابن خلدون، المقدمة، جـ2، ص 694.

المصادر والمراجع

الأغمي ـ محمد راكان: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية ط (1) 1404 هـ/1984 م.

البيذق ـ أبو بكر الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ـ ليفي بروفنسال، باريس 1928 م.

الحراري ـ عبد الله بن العباس الرباطي: الغاية من رفع الراية، الرباط 1952 م.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ط)1) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1967، جـ 4.

أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الأندلسي: حلية الفرسان وشعار الشجعان، نشر ـ محمد عبدالغني حسن، القاهرة 1967 م.

ابن خلدون ـ عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الملايين ـ بيروت د ـ ت، جـ 6.

تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، الجزائر 1267 هـ/1851 م. المقدمة، القاهرة ط (3) ـ تحقيق: علي عبدالواحد في، جـ 2، ص 3.

ابن الخطيب ـ محمد: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، المغرب 1964 م، جـ 3.

دائرة المعارف الإسلامية باللغة الفرنسية (مادة الديوان).

الزركشي، أبو العباس أحمد: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس 1966 م.

السبتي ـ محمد بن القاسم الأنصاري: اختصار الأخبار كما كان بثغر سبتة من شتى الآثار، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط 1969 م.

شعيرة ـ عبد الهادي: المرابطون تاريخهم السياسي ط)1) القاهرة 1969 م.

ابن الشماع أبو العباس أحمد: الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ـ الخزانة العامة ـ الرباط رقم (11227).

ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، نشر ـ عبد الهادي التازي ط (1)، بيروت 1964، جـ 2.

عنان ـ محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ط (1) 1287 هـ/1964 م جزءان.

العبادي ـ أحمد مختار: «الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين» مجلة كلية اداب، جامعة الإسكندرية، العدد 21، سنة 1976 م.

عبدالعزيز ـ سالم، والعبادي مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة، بيروت 1969 م.

العروي ـ عبد الله: تاريخ المغرب محاولة في التركيب، تعريب ـ ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للنشر، بيروت ط (1) سنة 1977 م.

العمري ـ شهاد الدين بن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الخاص بوصف أفريقية ـ نشر ـ حسن حسني عبدالوهاب، تونس د ـ ت.

العمروي ـ العربي: الزواج السياسي (توأمة فاس والقيروان) مجلة المغرب عدد (3)، الرباط 1965 م.

علام ـ علي عبدالله: الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن، دار المعارف ـ مصر ـ 1965 م.

ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال ـ تطوان، المغرب، جـ 4.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر ـ ميراندا، ومحمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني، الرباط 1963 م، جـ 4.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان ـ عباس، بيروت 1967، جـ 4.

عبد الواحد ـ المراكشي: العجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر ـ سعيد العريان، محمد العربي العلمي، القاهرة 1949 م.

القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشاء في كتابه صناعة الإنشاء، القاهرة د ـ ت، جـ 5.

ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي، عبدالمجيد التركي، تونس 1968 م.

ابن الكردبوس: كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ـ القسم الخاص بالأندلس ـ نشر ـ أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1965 م.

مهدي ـ البرجالي: معركة الزلاقة في الميزان، دعوة الحق، العدد (10)، الرباط 1380 هـ/1960 م.

مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبدالقادر، زمامة، دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء، المغرب ط)1)، 1979 م.

مؤلف مجهول: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشر ـ محمد بن أبي شنب، الجزائر 1920 م.

المقري ـ أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 م، جـ 3.

المنوني ـ محمد: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، تطوان 1950 م.

THE ART OF COMBAT AMONG THE ALMORAVIDES, ALMOHADES, AND ḤAFṢEANS

Dr. Ṣaliḥ Muḥammad Fayy^adh Abu Diyâk
Asst. Prof. of Andalusian and Maghribi History
Yarmouk University, Department of History
Irbid — Jordan

SUMMARY

The article explores into the formations of the Almoravid army along with the transfer of leadership from Amir Abu Bakr to his cousin Amir Yûsuf bin Tashfîn. It discusses the weapons used during the early stages of the formation of the state, and points to the technical developments that occurred in the course of time concerning the weaponry. The article also discusses the policy observed by Amir Ŷsu bin Tashfîn to attain the friendship of the local rulers or to eliminate them with the purpose of maintaining his control over Andalusia and protecting it against Spanish attacks. Yûsuf bin Tashfîn's concern for the legists, the effectiveness of their opinion, the biographies of Yûsuf bin Tashfîn and other leaders, and the commandable characteristics and peculiarities of the Almoravid army are also covered.

As for the Almohades, the article surbeys the purwuits of their spiritual leader al-Mahdi bin Tûmart and political leader 'Abd al-Mu'min bin Alî, and the latter's efforts to improve the state administratively and militarily. In addition, the article discusses the Almohadean rulers' endeavor to salvage Andalusia from the destruction caused by external wars against the Christian Spanish states and internal conflicts. They made earnest efforts to unify the Maghrib and to further strengthen their fleet, whith was distinguished for its might among the fleets of the neighboring Muslim states. Ultimately, however, the struggles within the ruling class for ascendance hastened the downfall and dissolution of the state.

As for the Ḥafṣeans, they en joyed a remarkably greater economic prosperity than the Marîneans and the Ziyâneans. This prosperity is traceable to the fact that the Ḥafṣeans dit not get directly and protract edly involved in the Andalusian wars just as they had inherited the military or ganization of the Almohads. But internal struggles for power, their preoccupation with themselves and the neighboring Maghribi states, coupled with the propulsion of the Portuguese into the Maghrib by the Spanish hastened the downfall of the Ḥsfeans.



الفكر الجغرافي عند الرازي

سالم سعدون المبادر

كلية التربية ـ جامعة البصرة

لقد اتبع الجغرافيون الأندلسيون منهجاً مستقلاً خاصاً بهم فلا نحس في مؤلفات الأندلسيين الجغرافية (هندية كانت أم فارسية أم يونانية)، ذلك التأثير البعيد بالنظريات الشرقية الذي يمكن ملاحظته في المؤلفات الجغرافية في المشرق.

لقد استفاد الاندلسيون مما كتبه الإغريق واللاتين ومن أخذ عنهم من الإسبان في العهد القوطي، فقد استفادوا من الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية، كما أستفادوا منهم في تحديد المواقع وتقدير المسافات ومن تاريخ شبه الجزيرة، ولكنهم لم يتقيدوا بهم في برنامجهم في التقييم الجامد الى أقاليم ذات خصائص فلكية أو علاقات ذات صلة ببروج الفلك.

فقد أشار ابن حزم الى أثر الأقاليم التي يقع فيها الأندلس[1] في سلوك أهله وملكاتهم في رسالته المعروفة في «فضل الأندلس» وكان ذلك في معرض المفاضلة بين الأندلس وأهل المشرق.

لقد تأثر الأندلسيون بالتقسيم البطليموسي، وهو إجماعهم على أن الأندلس تقع في الإقليم الرابع والخامس والسادس، وقد حددوا بذلك شبه جزيرتهم من «أطلس الإسلام» أي تحديد هذا الموقع بالنسبة لبقية البلاد الاسلامية ولا يذهبون إلى أبعد من ذلك.

لقد أنجبت الأندلس علماء في الجغرافية أفادوا العالم عن أحوال بلادهم، كتبوا عنها بكل إخلاص وأمانة. وكان من أبرزهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي الكناني، فهو وإن نبغ في الجغرافية فقد كان مؤرخاً في الوقت نفسه.

وإذا كان الاغريق يفتخرون بالعالم أيرتوسثينس Eratosthenes (276-196 ق. م) وسموه بالجغرافي الأول وأبا الجغرافية الأول،

فيحق للعرب أن تفتخر وتسمي أحمد بن محمد الرازي بالرائد الأول للجغرافية والتاريخ في الأندلس.

يعتقد البعض أن الجغرافيين العرب قد ترجموا مؤلفات الإغريق والرومان واستفادوا منها في أبحاثهم، لا شك أن العرب كغيرهم من العلماء الآخرين قد استفادوا من الذين سبقوهم وأفادوا من لحقوا بهم، ولكن هناك فروقاً رئيسية بين وجهات النظر، وهذا ما ظهر عند الجغرافيين الأندلسيين، فوجهة النظر اليونانية الرومانية من ناحية، والعربية الأندلسية من ناحية أخرى، وهي أن أصحاب الرأي الأول يكتبون عن بلاد أجنبية لا تربطهم بها سوى مصالح ذاتية كان هدفهم احتلالها واستغلالها، لذا كانت كتاباتهم ضيقة من الناحية العلمية، بينما الاتجاه الأندلسي المتمثل في الرازي وشيوخه وطلابه كانت كتاباتهم شاملة عامة لجميع فروع الجغرافية، فهم يكتبون عن وطنهم الذي التصقوا بتربته ومائه، فكانت تلك الكتابات نابعة عن صدق وإيمان، بعيدة عن الأغراض السياسية، فهم وصفوا جبالها وسهولها وأنهارها وعلاقتها

(1) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس/ ص 12 منشورات معهد الدراسات الاسلامية في مدريد 1386 هـ ـ 1967 م ص 12.

بالأنشطة الاقتصادية وخاصة الزراعة والرعي.

كما أن الرأي الأول كان مبنياً على السماع ولذا، فقد حفل بالأخطاء والتصورات البعيدة عن الواقع العلمي، ولذا فقد قلّت أهميته العلمية كلما امتد به الزمن.

أما رأي الأندلسيين العرب فكانت مبنية على المشاهدة والدراسة الميدانية، لذا جاءت صادقة في أبحاثها، علمية في أهدافها، غزيرة في مادتها، وطنية في أصولها، حتى أصبح مرجعاً يرجع اليه الباحثون والمهتمون بالنواحي الجغرافية لصدق مادته العلمية ورصانتها.

الفكر الجغرافي عند الرازي

قبل التحدث عن حياة الرازي لا بدّ من الإلمام - ولو بشكل موجز - بجانب من حياة معلمه الأول قاسم بن أصبغ البياني[2].

ولد قاسم بن أصبغ البياني في بلدة بيانة التي ينتسب اليها وذلك في 20 ذي الحجة سنة 244 هـ/2 تشرين الثاني 859 م ويعتبر من المعمرين إذ امتد عمره حتى جاوز السادسة والتسعين ونصف السنة، اذ توفي في 15 جمادى الأولى سنة 340 هـ/20 تشرين الأول 1951 م أيام عز العرب في الأندلس وعصرها الذهبي، وقد عاصر خمسة من أمراء الأندلس كان آخرهم عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر.

يعتبر قاسم بن أصبغ البياني علماً من أعلام العلم والمعرفة وحجة في الأدب والعلوم الأخرى، وهو من الرحالة الأوائل الذين جابوا المشرق والمغرب وحمل معه كنزاً من العلم والأدب، ولطول عمره سمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ولحق الصغار الكبار في الأخذ عنه[3]. رحل إلى المشرق مع محمد بن عبدالملك بن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبدالأعلى سنة 274 هـ. تعتبر مساهمته في ترجمة تاريخ هروشيش نقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافي، فكتاب هروشيش يبدأ بمقدمة جغرافية وافية حيث يوجز فيها وصف المعمورة على أيامه، وقد تناولت هذه الترجمة والدراسة الشيء الكثير عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية حتى أصبحت هذه الدراسة أساساً من أسس الوصف الجغرافي لشبه الجزيرة الأندلسية، وهذا ما سنراه عند دراستنا للرازي.

لقد تجول قاسم بن أصبغ في كثير من أنحاء المشرق العربي ومغربه فمر في مصر والحجاز وبلاد الشام والعراق وأخذ من شيوخها وأدبائها وعلمائها الكثير، منهم إبراهيم بن عبدالله القصار، وفي الكوفة إبراهيم ابن أبي العنبسي، وسمع ببغداد من القاضي اسماعيل بن اسحق، وفي مكة من محمد بن اسماعيل الصائغ وغيرهم من أهل العلم والمعرفة.

ثم عاد الى الأندلس بعلم وفير، وتتلمذ عليه العديد من طلبة العلم وكان الرازي واحداً منهم.

إن الذي تميز به قاسم بن أصبغ في ترجمته لكتاب هروشيش هو عدم تمسكه بطريقة هروشيش التي كانت جامدة وجافة في تفسيره وسرده لأسماء المواضع وحدودها على طريقة بطليموس، بل إن قاسماً كان يعرب الأسماء الجغرافية والتاريخية ويبعث فيها الحياة، وقد غرس هذا الاتجاه الجغرافي في نفس الرازي الذي يعتبر بحق مؤسس الفكر الجغرافي العربي في الأندلس الذي تناقله طلبته من بعده ثم نشروه خارج شبه الجزيرة الايبرية.

ومن مؤلفات قاسم بن أصبغ كتابه (المجتنى) واختصره وجعله باسم الحكم المستنصر[4].

الرازي... مولده ونشأته

هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازي الكناني الملقب بأبي بكر، كانت ولادته يوم الاثنين 10 ذي الحجة سنة 274 هـ ووفاته سنة 344 هـ يوم الخميس لعشر خلين[5] من شهر رجب. وقد أخذ أحمد عن أبيه ميله الى التاريخ والاهتمام بالتأليف والترجمة[6]، فقد قام مع

---

(2) مؤنس، حسين: المصدر السابق ص 30.

(3) المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب ص 47 دار صادر/بيروت 1968.

(4) المقري: المصدر السابق ص 48.

(5) الزبيدي، ابوبكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين 379 هـ ص 327.

(6) الضبي، أحمد بن يحيى - 599 هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس الطبعة الأوروبية مجريط 1884 ص 140.

الوليد بن خيزران بترجمة كتاب (هروشيش).

لقد نشأ الرازي في بيئة علمية فريدة من نوعها تلك هي البيئة الأندلسية التي كانت تزخر بالتأليف والترجمة وطلب دؤوب للعلم والمعرفة، مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي مركزاً من مراكز القيادة والإشعاع للحضارة في العالم أجمع.

وولد أحمد في الأندلس في البيئة التي ذكرنا مكانتها العلمية وترعرع بين أحضان علمائها وأدبائها ومؤرخيها، فأخذ عنهم الشيء الكثير. فإلى جانب اهتمامه بتاريخ الأندلس وأخبار ملوكها وخدماتهم وغزواتهم ونكباتهم، اهتم أيضاً بالجانب الجغرافي وله عدة كتب في هذا المجال، تناول فيها مختلف فروع الجغرافية الحديثة والمعاصرة.

فله في وصف قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها. مؤلف كان مرجعاً يعتمد عليه في الشرق والغرب.

فالرازي لم يكن جغرافياً فحسب بل مؤرخاً أيضاً، فما يسمى (بمسالك الأندلس ومراسيها. . .) هو مقدمة الجغرافية لتاريخ الرازي الكبير[7].

فالفكر الجغرافي عند الرازي هو تناوله للجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ، وقد أوضح ذلك في مقدمة كتابه «أخبار ملوك الأندلس».

لقد تأثر بفكر الرازي الذين جاءوا بعده بعدة قرون فكانوا يسلكون سبيله ويتبعون منهجه عندما يكتبون في التاريخ وفي الجغرافية.

وقد أورد (بيتر هابلين) في كتابه «ميكرو كوزميس» (الكون الصغير) عبارة تقول: (التاريخ بغير الجغرافية كالجثة الميتة. . .)[8] وكان ذلك منذ سنة 1621 م.

وقد عبر ميشيليه في كتابه (عن تاريخ فرنسا عام 1833 م، ـ أن التاريخ تطور جغرافي ـ).

هذا وقد حذا المؤرخون الفرنسيون حذو ميشيليه إذ يجعلون لدراستهم التاريخية مقدمة جغرافية، ومن هؤلاء (فيدال دي لابلاش Vidal de LaBlache) عن جغرافية فرنسا عام 1911 م.

ومن مشاهير من كتبوا «الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة» جورج آدم سمث 1894 م، وفي أمريكا الاستاذ سمبل «التاريخ الأمريكي وملابساته الجغرافية».

والمؤثرات الجغرافية في التاريخ الأمريكي للاستاذ برجهام 1903 م. وهناك شواهد كثيرة وكثيرة جداً تثبت العلاقة الوثيقة بين الموضوعين «الجغرافية والتاريخ» ويرجع الفضل في كشف هذه العلاقة لأبي الجغرافية والتاريخ معاً أحمد بن محمد بن موسى الرازي. فقد أوضح ذلك قبل ألف سنة تقريباً، والمحدثون الذين تكلمنا عنهم ينهلون من بحر علمه وساروا على دربه وأثبتوا صحة منهجه في الفكر الجغرافي الأندلسي.

والرازي أول من أدخل نموط الجغرافية الاقليمية الى الأندلس، وكان يعرف في أوروبا Elmote Elrasis[9]. ولعل من أشهر ما كتب الرازي في الجغرافية كتابه (مسالك الأندلس ومراسيها) وهو المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازي الكبير.

تناول الرازي الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ فكان اهتمامه منصبّاً على وصف الأندلس.

لقد سلك الرازي في جغرافية الأندلس طريقاً لا نجد له شبيهاً فيما سلكه الجغرافيون المشارقة، فقد بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الاقاليم، ووضعها في الاقليم الرابع، ثم تحدث عن شبه الجزيرة فقال عنها هيئة «مركنة» ذات ثلاثة أركان، أي أنها مثلثة الشكل فهو بذلك متأثر بهروشيش Hispemiatrigona.

إن تحديد المكان هذا يطلق عليه الآن بالموقع الجغرافي الذي أبرز مكانة شبه الجزيرة بالنسبة لما يجاورها.

(7) مؤنس، حسين: المصدر السابق ص 58-59.

(8) غلاب، سيد، وابو الليل، محمد مرسي: الجغرافية في القرن العشرين جـ 2 القاهرة/ 1975 ص 441.

(9) كراتشوفسكي، أغناطوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله للعربية، صلاح الدين عثمان هاشم، ترجمة أيقور بليانوف القسم الأول جامعة الدول العربية 1957 ص 169.

ثم درس مناخ شبه الجزيرة بادئاً بعبارة «... والأندلس[10] أندلسان».

فالرازي قسّم الأندلس «إسبانيا» إلى إقليمين مناخيين متباينين على خلاف تقسيم هروشيش السياسي المأخوذ من الروماني.

فقد تناول الرازي الرياح واتجاهاتها «مواقعها وأمطارها، فهو بذلك عالم مناخي.

فقد وصف أحوال الأندلس المناخية والصفات الطبيعية الأخرى حيث يقول: بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجنان، منبجس الأنهار الغزار، والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسطه من الحال لا يتولد في أحدها فضل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة... أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكورة. وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كل حين... وله خواص في كرم النبات توافق في بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره... وللأندلس المدن الحصينة، والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة[11]...

فالرازي بهذا قد أفدنا الكثير عن هذا البلد الغني بخيراته، ومخزونات ثرواته.

فلم تقتصر جهوده الجغرافية على هذا الجانب بل تقدمه الى جوانب أخرى، ففي الجانب الطبيعي تناول أنهار الأندلس واتجاهاتها[12] وجريانها وغزارة مياهها، وبذلك قسّمها الى أندلس غربي وأندلس شرقي، فالغربي منها ما جرت أنهاره نحو المحيط الغربي (ويقصد به المحيط الأطلسي)، تتأثر أمطاره بالرياح الغربية (العكسية). أما الحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى فتجري أودية أنهاره نحو الشرق وتغذيه الأمطار الشرقية.

لقد أهتم الرازي كثيراً بأنهار الأندلس بما يفوق أهتمامه في الجوانب الطبيعية الأخرى فلم تقتصر دراسة الأنهار على الوصف العام كما فعل الإغريق والرومان الذين انصب اهتمامهم لها لما تخدم أغراضهم كمستعمرين. بل انصب اهتمام الرازي لها كأحد أبنائها، لذا اهتم بالجانب الاقتصادي لهذه الانهار وخاصة من الناحية الزراعية التي عرف العرب بها حيث أدخلوا معهم أساليب حديثة في الري وكذلك أدخلوا أنواع جديدة من المزروعات لم تكن تعرفها الأندلس قبل دخولهم لها.

ومن أقوال الرازي عن نهر السوادي الكبير «من الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس نهر قرطبة ويعرف بنهر بيطي (Bactis) مخرجه من ناحية ريمه (Remon, Reymon) ومن منبعه الى موقعه في البحر بعد أشبيليه ثلاثمائة ميل وعشرة أميال ويقع فيه سنجيل (شنيل)، وهو ينبعث من الثلج من جبال البيرة وعليه مدينة أستجه.

لم يكتف الرازي بالوصف العام لهذه الأنهار، يذكر روافدها وما يقع عليها من مدن وغيرها. وهكذا في بقية أنهار الأندلس الأخرى.

أما اهتمامه في الجانب السياسي والبشري فيعتبره على جانب كبير من الأهمية، فقد ركّز في دراسته على المدن الأندلسية تاريخياً وجغرافياً فهو بذلك يعتبر واضع حجر الأساس لجغرافية المدن، فقد وصفها وصفاً دقيقاً ودرسها دراسة ميدانية أوضح كل شيء فيها.

قسّم الأندلس الى كور ومدن[13]، والمدينة الأندلسية تمثل قسماً ادارياً، والكورة لها زمام واسع تقع فيها مدن وقرى وحقول واسعة ويمكن أن يكون أشبه بالاقليم، والمدينة في العرف الأندلسي هي القسم الاداري الواقع على الحدود أو

(10) أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية جـ 1 ط 1/ دار الطبع والنشر بالمغرب ـ 1355 هـ ـ 1936 م ص 178.

(11) المصدر نفسه، ص 162.

(12) أرسلان، شكيب: المصدر السابق ص 163.

(13) أرسلان، شكيب: المصدر السابق ص 162.

المحيط بالعاصمة، ويكاد أن يكون هذا التقسيم معمولاً به حالياً في بعض الأقطار العربية، التي يطلق عليها المحافظة، وهي تعني مساحة من الأراضي تضم تقسيمات إدارية (وهي الأقضية والنواحي وهذه تتبعها قرى)، فالمحافظة أكبر جزء في التقسيم الإداري ومركزها يدعى المدينة كما في العراق وسوريا ومصر واليمن الديمقراطية، فالرازي الذي عاش قبل أكثر من ألف سنة أوضح هذا التقسيم واهتم به ووضعه أساساً لدراسته وهذا نموذج لكلام الرازي عند دراسته لمدن الأندلس.

«كورة بلنسيا»[14] ويتصل بحوز* كورة تدمير حوز كورة بلنسيا، وهي شرق من تدمير وشرق من قرطبة ولخطة بلدها مسافة بعيدة، منافعها لأهلها عظيمة، وحصون قديمة فمن مدائنها مدينة بلنسيا وهي المعروفة بمدينة التراب ولها حصن ارغيره ودانية وعلى ضفة البحر ولها أقاليم كثيرة متسعة ومرساها من أعجب المراسي وجميع اقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم واشجار التين والزيتون، ومدينة الجزيرة ومبتناها على نهر شقر.

فالحوز عند الرازي هو زمام الكورة كله أي ما يتبعها من الأراضي والبلاد، وخطة البلد هي المسافة التي تغطيها المدينة نفسها وما يتبع حكومتها من الأراضي والقرى.

ثم يسترسل الرازي في جغرافية المدن ويفصلها تاريخيا من حيث نشأتها وبناء عمائرها، وهذا ما أخذه العذري من الرازي واضافه الى جغرافيته.

لقد استفاد أهل ذلك العصر من هذه الدراسة، فأهل بلنسيا أخذوا ما يحتاجون اليه من معلومات عن كورتهم، فقد حددوا الموقع والمدن والحصون، وذكر الميزات الخاصة من الموقع على البحر والاتصال بالسهول والأنهار، ثم يذكر الحاصلات سواءً كانت زراعية أم معدنية، وهو لم يترك الحصون وأهميتها الدفاعية والأمنية، كذلك بيّن الكثير من المدن العسكرية كالمنطقة التي تقوم فيها عاصمة الخلافة قرطبة.

بينا أن الرازي لم يترك شيئاً في المدينة إلا وذكرها حتى إنه كان يهتم بالمسافات بين هذه المدن. فقد ذكر «[*... ومن تطيلة الى سرقسطة 30 ميلاً، ومن قلعة أيوب الى تطيلة 25 ميلاً**، ومن مكرة الى تطيلة 12 ميلاً، ومن تاجرة الى تطيلة 50 ميلاً، ومن بقيره الى تطيلة 33 ميلاً، ومن أرنيط الى سرقسطة 80 ميلاً، ومن جرلونه الى تطيلة 12 ميلاً]».

يلاحظ من هذا النص أهمية مدينة تطيلة إذ اتخذها الرازي مركز الاتصالات بينها وبين المدن الأخرى، وجاءت أهميتها هذه من موقعها العسكري حيث تشكل منطقة ثغرية ولذلك يكثر الرازي من ذكر القلاع والميزات الحربية لها حيث ظاهرة ذلك العصر.

لقد وضع الرازي نظرية كبرى تبناها الإسبان فيما بعد فأمنوا بانقسام إسبانيا الى إسبانيتين: متوسطية وأطلسية، هذه النظرية توسع فيها (رامون منرد بيدال) في مقدمة الجزء الأول من تاريخ إسبانيا.

لقد وضع الرازي الأساس السليم الذي حدد مفهوم الجغرافية الطبيعية والبشرية في أذهان الناس، حتى أصبح هذا الأساس طريقاً ممهداً للذين جاءوا بعده أمثال أحمد بن عمر بن أنس العذري الذي سار على منهجه وتوسع فيه، فقد أطال في الجغرافية البشرية وفي التقسيم الإداري بالذات، فلم يكتف بالوصف العام بل فصّل الوصف تفصيلاً علمياً حافلاً بالمعلومات، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة، لم يترك لها شاردة أو واردة إلا ذكرها، كذلك تناول نشأة إسبانيا وتسمياتها المتعددة.

فاذا كان الوصف الدقيق لجغرافية الرازي هو أنها من طراز البلدان فقط فان جغرافية العذري ضمن البلدان والمسالك والممالك[15].

* الحوز مصطلح عربي معمول به في محافظة البصرة، جنوب العراق وكذلك في اقليم الأحواز وعربستان، وهي مساحة من الأرض محصورة بين جدولين يتصلان بشط العرب، وجاء هذا المصطلح من الحيازه والتملك. انظر قضاء الفاو دراسة في الجغرافية الزراعية/سالم المبادر.

(14) عبد البديع، لطفي: مجلة معهد المخطوطات العربية، م 1 جـ 2 ص 285.

* مأخوذ هذا النص من الترجمتين الأسبانية والبرتغالية.

** الميل العربي يساوي 1972,2 متراً وقد استعمل مصطلح كيلا، والميل العربي يساوي 0,506 من الكيلة، والكيلة تساوي ألف متر.

(15) مؤنس، حسين: المصدر السابق ص 64.

لقد كان الرازي يتحرر من أسر القيود التي وضعها بطليموس على علم الجغرافية فينقل من جداول فلكية تحشد فيها البلاد على صورة جافة الى دراسة إنسانية تتناول الأرض ومن عليها من الناس وعلاقة هؤلاء بهذه الأرض، ثم يجيء العذري فيضيف حشداً من المعلومات الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد.

ولو رجعنا الى علماء الجغرافيين المعاصرين وما جاءوا به من نظريات أمثال العالم الفرنسي (فيدال دي لابلاش Vidal de LaBlache) الذين حملوا لواء المعارضة والتصدي لكل أولئك الذين انحدروا الى حضيض الحتم الجغرافي[16] وسخروا من تجاهل قدرات الإنسان أو امتهانها، لو رجعنا اليهم لوجدنا الرازي سبق فيدال دي لابلاش ومن عاصروه في هذا المضمار، فهو لم يكرّس كل جهوده الجغرافية على الجانب الطبيعي بل أعطى الكثير من اهتماماته الجغرافية الى الجانب البشري المتمثل في الزراعة وتخطيط المدن، وبحق فإنه لم يغفل دور الإنسان على الطبيعة، وقد وفق في التقريب بين الحتمية والبشرية.

إذاً يمكن أن يقال إن الجغرافيين المعاصرين قد اطّلعوا على آراء الرازي وبحوثه الجغرافية وصقلوها بأسلوب حديث ومعاصر.

فالرازي يعتبر المعلم الاول للذين جاءوا بعده وأكملوا ما بدأ به، فقد أولى الرازي جلّ اهتمامه للإنسان وقد أعطاه دوراً كبيراً على كوكبه. وقد لوحظ ذلك من الموضوعات الجغرافية التي تناولها الرازي فقد أعطى الجانب البشري اهتماماً كبيراً ولم يقتصر في بحوثه على الوصف الجغرافي لطبيعة الأندلس كوصف جبالها وسهولها وأنهارها بل تناول الفروع الجغرافية الاقتصادية المتعددة كالزراعة وجغرافية المدن وجغرافية السكان وأحوالهم، وجغرافية المعادن، وحتى الجغرافية العسكرية المتمثلة بالقلاع والحصون، وقد تأثر بهذه الدراسة الجغرافيون الأندلسيون الذين خلفوا الرازي واتخذوه معلماً لهم أمثال ابن الخطيب، فعلى الرغم من التباعد الزمني بين الرازي وابن الخطيب تتجاوز الأربعة قرون تقريباً نجد التأثير واضحاً في التقليد فظلت عادة الأندلسيين في التقديم للتاريخ بالجغرافية. وقد حرص ابن الخطيب على ذلك في مقدمة (الإحاطة في أخبار غرناطة) مطولاً للمنطقة التي شملها سلطان مملكة غرناطة. فمن ملاحظة دراسة ابن الخطيب في جغرافية المدن والسكان وأحوالهم أنها جغرافية متكاملة وناضجة لما قام به الرازي.

كان الرازي إقليمياً في كتاباته الجغرافية فهو شديد التحمس لبلده ومسقط رأسه وجنة أحلامه فكتب عنها بصدق وحب وأمانة وقد تأثر ابن الخطيب بهذا الاتجاه الذي سلكه الرازي، فنجد ابن الخطيب في وصفه للأقاليم (مملكة غرناطة) سمّاها (الوطن الشريف)، وهذا يدل دلالة واضحة على اعتزازه بوطنه الاندلس. وهذه الوطنية تعتبر من خصائص ابن الخطيب وغيره من الاندلسيين كالرازي وابن سعيد والمقري الذي بيّن هيئة الأندلس وأبعادها في نفح الطيب، كذلك سلك ابن سعيد الطريق نفسه في الكلام في هذه المقدمة[17].

ومن الجغرافيين الأندلسيين البارزين الذين انتهجوا منهج الرازي ونهلوا من معينه وساروا على دربه جمهرة من الجغرافيين والأدباء والمؤرخين كان منهم عبدالله بن عبدالعزيز المعروف بـ (أبو عبيد البكري)[18] الذي أغنى المكتبة العربية بثروة علمية وأدبية كبيرة كان من أبرزها الكتابان الجغرافيان البارزان (معجم ما استعجم والممالك والمسالك).

فمن قراءة ما كتبه البكري في هذا الباب يلاحظ أنه كان متأثراً الى أبعد الحدود بأبي الجغرافية الرازي. ومما يمتاز به البكري دقته في رسم الأعلام وحرصه على التثبت منها وهذا ما لوحظ عنه في كتاباته عن شبه جزيرة أبريا وهي في فاتحة الجزء الخاص بالأندلس وخاصة في الأسماء الخاصة بتسمية الأندلس التي أثبتها البكري في معجمه وهو يتفق مع الرازي في هذا المجال لأن نفس النصوص والأسماء سبق للرازي ذكرها حينما كان يكتب عن وطنه الأندلس، وهذه دلالة

(16) الشامي د. صلاح الدين: الفكر الجغرافي سيره ومسيره/ الكتب الجغرافية 45 منشأة المعارف بالاسكندرية 1980 م ص 328.

(17) مؤنس، حسين: المصدر السابق ص 481.

(18) الغنيم، عبدالله يوسف، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي/ذات السلاسل الكويت 1974.

واضحة تبين مدى تأثر البكري بمعلمه الأول (الرازي) على الرغم من البعد الزمني بينهما الذي يقارب القرن والنصف، والى جانب هؤلاء العلماء الذين اتخذوا من الرازي معلماً ينتهجون في كتاباتهم منهجه هناك جمهرة أخرى من الجغرافيين يطول البحث فيهم كعبدالله بن ابراهيم الحجاري* الذي تتلخص طريقته في الإتيان بشيء من وصف البلد (الأندلس معتمداً بذلك على الرازي حيث ذكروا أن طول الأندلس من الحاجز الى المحيط ألف ميل وأن عرضها في وسطها عند طليطلة (16 يوماً)، لذلك يؤخذ عن الرازي كلام عن أركان الجزيرة[19]، وخلاصة ما جاء في هذا البحث هو أن الرازي يعتبر واضع أساس الفكر الجغرافي وممهد السبيل للجغرافيين الأندلسيين الذين سلكوا طريقه وساروا على دربه، وقد خلف الرازي وراءه ثروة علمية (جغرافية) أغنى بها التراث العربي والمكتبة العربية. وبحق فهو المرجع للباحثين والساعين لتطوير الفكر الجغرافي ولقد حفظ لنا مصنفه التاريخي في ترجمة قشتيلية* ترجع الى عهد متأخر ومنهم العلامة الشهير كراتشكوفسكي حيث قال: «إن الرازي أول من أدخل نمط الجغرافية الإقليمية الى الأندلس».

---

* سمي بالحجاري نسبة الى وادي الحجارة في الأندلس.

(19) مؤنس، حسين: المصدر السابق ص 158.

* عثر على الترجمة البرتغالية بعد فقدانها، كما تم العثور على شذور من كتاب الرازي لدى بعض المؤلفين المغاربة. راجع ما كتبه ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية.



فهرست المصادر

1 ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك - 578 هـ، الصلة/نشره عزة العطار الحسيني/القاهرة 187/1955.

2 ابن عذاري المراكشي - 706 هـ: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسا (جـ 1 جـ 2، جـ 3 - تحقيق بروفنسال. جـ 4 - تحقيق د. احسان عباس/دار الثقافة بيروت 1967.

3 أحمد بن يحيى الضبي - 599 هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس الطبعة الأوروبية مجريط 1884.

4 أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، دار صادر/بيروت 1968.

5 ابن الفرضي، عبدالله بن محمد الأزدي - 403 هـ: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس جـ 1، جـ 2.

6 أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة: المسالك والممالك مكتبة المثنى - بغداد.

7 د. حسين مؤنس: فجر الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة 1976.

8 د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس منشورات معهد الدراسات الاسلامية في مدريد 1386 هـ - 1967 م.

9 حسين محمود حسن: أدب الرحلات عند العرب/المكتبة الثقافية، القاهرة 1976.

10 الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم/القاهرة 1954.

11 سيد غلاب ومحمد مرسي أبو الليل: الجغرافية في القرن العشرين جـ 2/ القاهرة 1975.

12 شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ط ط1 دار الطبع والنشر بالمغرب 1355 هـ - 1976 م.

13 صلاح الدين علي الشامي: الفكر الجغرافي سيره ومسيره/الكتب الجغرافية. 45 منشأة المعارف بالإسكندرية 1980.

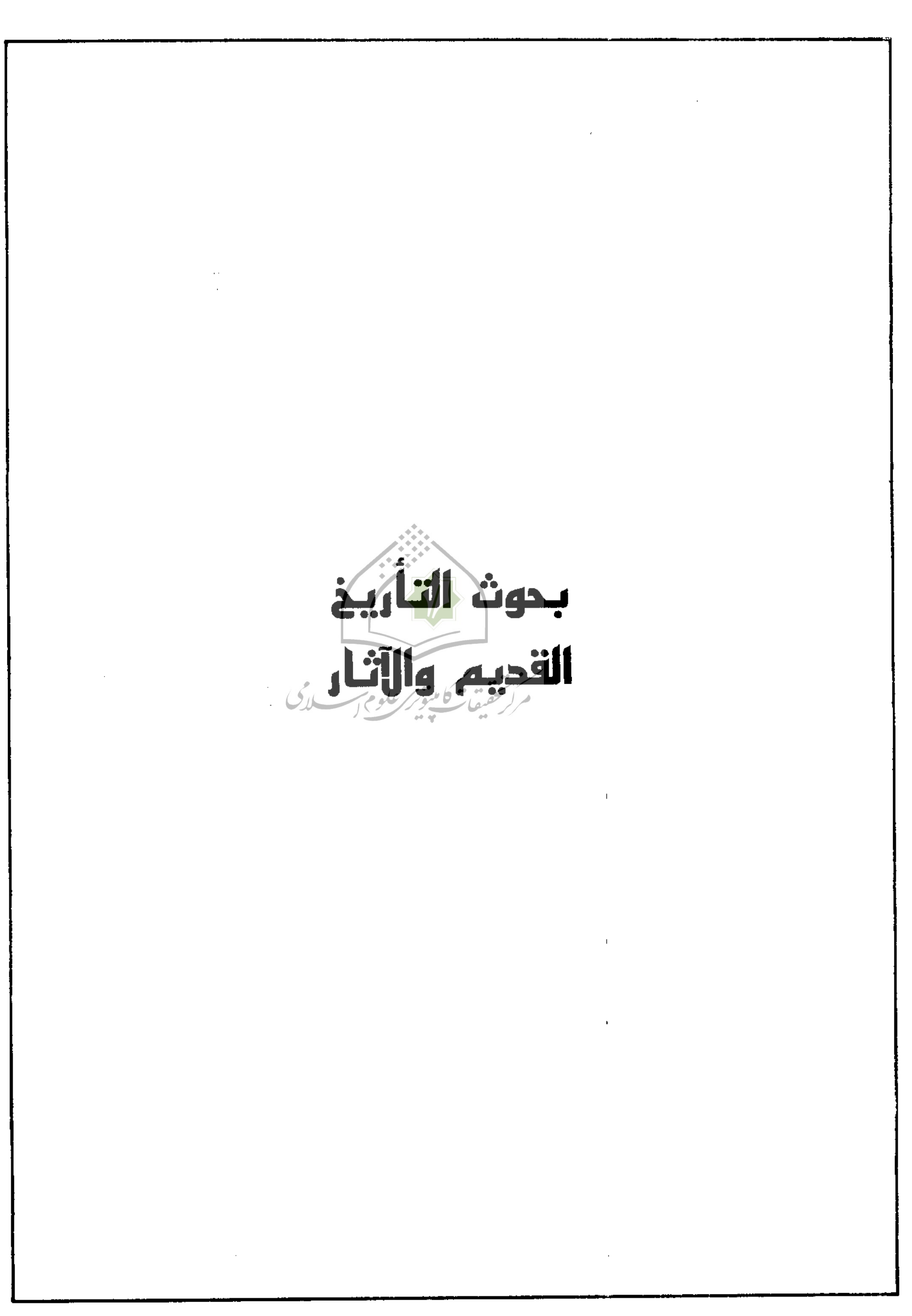
14 عبدالله يوسف الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي/ذات السلاسل، الكويت 1974.

15 علي بن محمد بن سعيد بن حزم (أبو محمد): رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، من كتاب نفح الطيب للمقري. تحقيق د. إحسان عباس/تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة/دار الثقافة بيروت 1978 م.

16 كراتشوفسكي، أغناطوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله للعربية، صلاح الدين عثمان هاشم، ترجمة ايغور بليانوف القسم الأول جامعة الدول العربية 1957.

17 لطفي عبد البديع: مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الأول جـ 1.





بحوث التأريخ القديم والآثار

القانون في الحضر
في ضوء الشرائع العراقية القديمة

د. واثق اسماعيل الصالحي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

يمثل تشريع القوانين والأنظمة القانونية وتدوينها مقياساً في تقويم تقدم المستوى الحضاري ومؤشراً على حسن التنظيم الاجتماعي لتلك المدينة أو الدولة صاحبة التشريع. وللعراق القديم تأريخ عريق ومتميز في هذا المجال ففي ربوعه وضعت اللبنات الأولى لأصول التشريع القانوني، كما اثبتته الدراسات التأريخية المقارنة المستندة على الوثائق المكتوبة التي وصلتنا من خلال التنقيبات الأثرية في مدن العراق القديم. واشتملت الوثائق على التشريعات والقوانين والمستندات القانونية التي بموجبها نظم العراقيون القدماء مفردات مجتمعاتهم ومن خلال دراستها التفصيلية استطاع الباحثون تتبع تطور النظام القانوني وطريقة استنباط الأحكام، وقد تأثرت الدول المجاورة بالتقدم الذي أحرزه العراقيون القدماء في هذا المضمار الحيوي، إضافة الى تأثرهم بالجوانب الحضارية الأخرى والذي انعكس في سن تشريعات وقوانين والقيام بإصلاحات قانونية مشابهة. واعتقد العراقيون القدماء ان الملوك والحكام الذين وضعوا تلك القوانين هم ممثلو الآلهة على الأرض وكانت مهمتهم تطبيق الإرادة الإلهية في العدالة وألّه البعض منهم أنفسهم أو ادّعى قرابة ونسباً الى الآلهة، ولهذا اتسمت القوانين العراقية القديمة بأنها انما شرعت بتفويض من الآلهة وانها منذ أول تشريع أو إصلاح قانوني ارتبطت بالآلهة وبأحكامها، فيذكر أوروكا جينا حاكم مدينة لجش «وعندما منح الاله ننكرسو وأمسكت بيده من بين الجموع... تمسك أوروكا جينا بالكلمة التي قالها له ننكرسو...»[1] أما أورغو، مؤسس سلالة أور الثالثة، فيذكر في مقدمة قوانينه بأنه «استطاع وبقوة الإله ننا، سيد مدينة أور بأمر الإله أوتو (شمش) الحق أن يوطد العدالة في البلاد ويزيل البغضاء والظلم والعداوة من خلال القضاء على المفاسد التي كانت تعم البلاد»[2]. ولبّت عشتار، أحد ملوك ايسن الذي حكم في الفترة بين 1934-1924 ق.م فيذكر في مقدمة قوانينه كيفية اختيار الآلهة له ويصف نفسه بالراعي الحكيم و«فوّضته الآلهة لنشر العدل في البلاد»[3]. وتتوضح هذه الظاهرة في أبرز وأهم مثال هي قوانين حمورابي ملك بابل الذي حكم في الفترة بين 1792-1750 ق.م فقد جاء في مقدمتها «انتدبني ـ آنذاك آنو وأنليل، أنا حمورابي، الأمير الكريم عابد الآلهة ـ لأنشر العدل في البلاد»[4].

لقد وَصَلنا من مدينة الحضر عددٌ من النصوص الكتابية

(1) عامر سليمان، **القانون في العراق القديم**، الموصل، 1977، ص 145.

(2) فوزي رشيد، **الشرائع العراقية القديمة**، بغداد، الطبعة الثانية، 1979 ص 26-27. وسليمان، المصدر السابق، ص 193.

(3) رشيد، المصدر السابق، ص 58.

(4) حول قوانين حمورابي تراجع المصادر التالية:
محمود الأمين ـ «قوانين حمورابي والقوانين البابلية الأخيرة» **مجلة كلية الآداب**، العدد الثالث، بغداد 1961. وفوزي رشيد، المصدر السابق، وعامر سليمان، المصدر السابق ورضا الهاشمي «القانون والأحوال الشخصية» في **حضارة العراق**، الجزء الثاني ص 63-108 وبهيجة خليل اسماعيل، **مسلة حمورابي**، بغداد، 1980. وكذلك

محفورة على أحجار كبيرة تلقي ضوءاً على بعض الأحكام القانونية والأعراف التي كانت سائدة فيها وخاصة تلك التي تتعلق بالسرقة والعقوبة الصادرة بحق مرتكبيها. وقد عثر على هذه الكتابات خلال أعمال التنقيبات التي اضطلعت بها دائرة الآثار والتراث في مواسم مختلفة من عملها في المدينة الذي بدأ منذ ربيع عام 1951 واستمر لسنوات طويلة حتى توقف في بداية هذا العقد، وقد صاحبت الحفائر الأثرية أعمال الصيانة للأبنية والمرافق المكتشفة. ويتضح من خلال الدلائل الآثارية والتأريخية أن فترة انتعاش المدينة امتد من حدود القرن الأول ق.م حتى قبيل منتصف القرن الثالث الميلادي، وهناك عوامل وحوافز وراء ذلك أبرزها الأهمية الدينية التي اكتسبتها المدينة بكونها مركزاً للقبائل العربية التي سكنت في منطقة الجزيرة والتي ورد ذكرها في الكتابات الآرامية باسم عربايا[5]، حيث أقامت معابدها ووضعت فيها تماثيل آلهتها ودفنت فيها أمواتها. وكان للعامل العسكري دور في ازدياد أهمية تلك القبائل أثناء الحروب الطاحنة التي حدثت مع الرومان إضافة الى أن موقع المدينة السوقي يتصف بصفات ذات أهمية بالغة في السيطرة على الطرق والمسالك البرية التجارية والعسكرية المحاذية لنهري دجلة والفرات والتي انشغلت في نقل البضائع الشرقية من الهند والجزيرة العربية الى الأسواق الغربية عبر قنوات كانت القبائل العربية تتعامل بها وتحميها[6]. لقد بلغت مدينة الحضر أوج ازدهارها خلال القرن الثاني للميلاد ولذلك أصبحت مطمعاً للرومان الذين حاولوا السيطرة عليها بشتى الطرق والوسائل الحربية ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع بسبب مناعة تحصيناتها وبسالة أهلها الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الحفاظ على إبائها وعنفوانها وعدم تدنيسها من قبل الأباطرة الرومان المتغطرسين. وامتد نفوذها ليشمل مناطق واسعة، وازدادت عظمة، ولا بد أن وراء ذلك الانتعاش والازدهار الحضاري أسباب عديدة قد تبدو معقدة ولكنها تشمل بالضرورة تنظيم حياة المدنية في جوانبها المختلفة وينعكس على الجانب الاجتماعي الذي جعلها تتميز بواقعها المتآلف ووحدتها المتماسكة وترسم حدود مجتمعها وتضع قاعدة التعاون في نطاق التشريعات والقوانين التي كفلت لها تضامن أبنائها وتماسكهم على وفق ضوابط أساسها احترام قادتها ورعاية أبنائها وما ورد عند المؤرخين العرب الاقدمين والكلاسيكيين من وصف لصمودها الرائع فإنه استذكار بأهمية المكانة الموقرة التي حظيت بها والاهتمام والاحترام التي كانت تتمتع به بين مثيلاتها من المدن المعاصرة. لقد ادركت القبائل العربية التي اتخذت من الحضر مركزاً لها في حدود تصورها وطبيعة حياتها أن الأرض التي تعيش عليها وتدافع عنها هي أرض مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتلك المدينة والتي يجب أن تستميت في الدفاع عنها وتضحي من أجلها باستبسال وتعيش عليها بكرامة ولا بد أن تدفعها هذه العوامل الى أن تبذل جهودها من أجل التعاون والتكاتف والتوحيد وأصبح انتماؤها أساساً في توفير سبل الحياة الكفيلة برعاية أبنائها وهذا ما جعل أواصر الشد محكمة وعوامل الارتباط متماسكة ومتشابكة ولهذه الاسباب وغيرها مجتمعة وضعت قوانين الحضر لتعبر عن استيعابها لحاجات المجتمع ولتلبي نوازع سكانها الذين آمنوا بأسباب وجودها وعزتها ومنها استمدوا مقومات حياتهم ومن أجل هذه الحقيقة جاءت تلك القوانين متميزة لغرض أن تبقى حياتها الداخلية سليمة وهي تتصدى لقوى البغي والعدوان.

لقد جاءت قوانين الحضر تلبية لمتطلبات الحياة القاسية وهي لا تبتعد كثيراً عمّا الفته المجتمعات القديمة فمن خلال الاطلاع على معظم الأحكام القانونية في العراق القديم يبدو أنها تضمنت فقرات مهمة ومتعددة حول السوقه مما يدل على أن الأموال المنقولة كانت ذات قيمة أغلى من قيمة الأرض لأن لدى المجتمع أو الدولة أراض كثيرة تكفي للزراعة ولذلك اعتبرت سرقة الممتلكات أياً كان نوعها (كالعبد أو الحيوان المدجن أو آلة أو أداة) جريمة يعاقب عليها القانون

G.R. Driver and J.C. Miles, *The Babylonian Laws*, vol. I, Legal Commentary, Oxford, 1952.

(5) فؤاد سفر، «كتابات الحضر»، سومر، المجلد (17)، (1961) ص 3-9 الكتابة المرقمة [79]، واثق الصالحي «كتابات الحضر»، سومر، 34 (1978)، ص 69-71، [336].

(6) واثق الصالحي «تطور ونشأة مملكة ميسان» المورد، 15 ,3 ,1986 ص 14.

(7) سليمان، المصدر السابق، ص 142.

وتعتمد العقوبة على نوع المادة المسروقة وظروف وقوعها وحتى أوقاتها وتراوحت بين عقوبة الموت أو الإعدام لمرتكبيها أو تشويههم أو فرض عقوبة الجلد أو دفع تعويضات، بعد إعادة الممتلكات المسروقة، تضاهي قيمة المادة إضافة الى غرامات أخرى أو قد تتطلب السرقة فرض مضاعفات المبالغ المسروقة أو الاكتفاء بالتعويض بالمقابل.

من أقدم الإشارات التي وردتنا المتعلقة بالسرقة هي تلك التي تذكرها نصوص إصلاحات أوروكاجينا التي تقود بتأريخها الى حدود القرن الرابع والعشرين ق.م بأن السارق يرجم بالحجارة التي كتب عليها «نيته الشريرة»[7]. أما النصوص القانونية المتعلقة بالسرقة والتي من الضروري أن تتضمنها قوانين أورنمو (2113-2095 ق.م) والتي تعتبر أقدم قوانين مكتشفة، فإنها لم تصلنا لحد الآن لوجود نقص في النص المكتشف في بداية المواد القانونية ووسطها ونهايتها[8]، ومن المؤكد أنها قد عالجت الجرائم الخاصة بالسرقة. وجاءت بعض نصوص فقرات قانون لبت عشتار مخصوصة بالسرقة، أما قانون مملكة أشنونا والتي يعود تأريخها الى بداية العصر البابلي القديم فقد ميَّز بين السرقة التي تحدث في النهار أو في الليل فالمواد القانونية الخاصة بذلك تشير الى أن السرقة إذا حدثت في أثناء النهار فالسارق يدفع تعويضاً أما إذا قبض على السارق وهو متلبّس بالسرقة ليلاً فيحكم عليه بالموت[9].

وفي قوانين حمورابي الموت هو عقوبة سارق أموال القصر (الدولة) أو المعبد[10] أما إذا وقعت السرقة على أموال منقولة للمعبد أو القصر خارج حرم المعبد أو القصر فعلى السارق أن يدفع غرامة تعادل ثلاثين ضعفاً من قيمة المسروقات، وإذا لم يكن لدى السارق المال الكافي لدفع الغرامة فإن عقوبته الإعدام[11]. واعتمد الملوك الآشوريون على أحكام القوانين العراقية السابقة لعصرهم وفي مقدمتها قانون حمورابي، ولم يصدروا قوانين جديدة خاصة بهم[12].

ووصلت إلينا بعض نصوص قانونية من الفترة الآشورية الوسيطة تتعلق بعقوبة المرأة السارقة ـ متزوجة كانت أم غير متزوجة ـ والمتهمة بسرقة حاجة من المعبد وقبض عليها متلبسة بجريمتها فعقوبتها استرجاع ما سرقته، ويقام الاتهام ضدها ويستعلم رأي الإلّه في تحديد العقوبة[13]، أي الى كهنة المعبد الذي سرقت منه، ولا يمكن معرفة العقوبة التي يفرضها الكهنة وإذا ما قورنت مع ما جاء في قوانين حمورابي فإن العقوبة صارمة جداً[14] وتشير مواد قانونية أخرى إلى أن عقوبة جرائم السرقة قد تباينت بين الإعدام إلى الغرامات المادية وحتى التشويه الجسدي.

لقد حاولت في هذه المقدمة أن أوضح أبرز السمات الخاصة بجرائم السرقة في القوانين العراقية القديمة قبل أن أتناول قوانين الحضر التي تعتبر استكمالاً للتفكير الذي ألفه الناس وخضع له العرف والتزمت به التقاليد وواكبته مسيرة المجتمع وعرفه السلوك الاجتماعي.

فعلى لوح من حجر حلان طوله 98 سم وعرضه 50 سم نقشت كتابة تتألف من 12 سطراً (شكل 1). وكان قد عثر على اللوح على عمق 1,20 م تحت أرضية الإيوان الجنوبي من معبد العجول الذي يؤلف الوحدة الثالثة من الأواوين المتسقة ويبعد عن عتبة فتحة الإيوان بحوالى 1,5[15]. من المحتمل ان اللوح لا يتعلق بالبناية التي عثر عليه فيها، كما اعتقد سابقاً وانما للبناية المجاورة لها من جهة الجنوب والتي كانت مخصصة لعبادة الإلّه برمرين، استناداً الى دلائل كتابية أخرى، وقد تم دفنه بعد الانتهاء من تشييد آخر مراحله البنائية. وربما يكون هذا اللوح موضوعاً في محل بارز لكي يقرأه جميع الذين يترددون أو يمرون بالقرب من المعبد الذي يجري تشييده والمخصص أصلاً لعبادة برمرين أحد آلهة التثليث الحضرية، وعلى أحد أوجه اللوح الطويلة حفرت الكتابة التالية:

1 ـ ب ج ن م ر ن وم رت ن
2 ـ وب رم ري ن ع ل م ن دي
3 ـ ل ن س ب م ش ك ن ا ا و[16]

(8) المصدر السابق، ص 193.

(9) رشيد، المصدر السابق، ص 87.

(10) المصدر السابق ص 11٪ المادة السادسة من قانون حمورابي.

(11) المصدر السابق ص 120 المادة الثامنة.

(12) سليمان المصدر السابق، ص 276.

(13) رشيد، ص 182.

(14) سليمان، ص 281.

(15) فؤاد سفر، «كتابات الحضر»، سومر، 27 (1971) ص 3-5 [281].
Francesco Vattioni, *Le Iscrizionidi Hatra*, Napoli, 1931, p. 90-91.

(16) لم يقرأها فؤاد سفر في مقالته السابقة الذكر.

4 - ح ط م ا   ا و   م ر ا
5 - و ن ر ج ا   و ك س ي ر (د) ا
6 - و ج ب ل ي ت ا   و م ك ل ا
7 - و ح ص ن ا   م ن   ع ب د ا
8 - د ي   ب ر م ر ي ن   و م ن   د ي
9 - ل ن س ب   ح د   م ن   ج ر ب ا
10 - هـ ل ي ن   م ن   (ع ب د ا)[17]   ديب ر م ر ي ن
11 - ح و ي   ح ل م ا   د ي
12 - ا ر ج م ي ت   م ر ج ي م

الترجمة

1 - لعنة الآلهة مرن (سيدنا) ومرتن (سيدتنا).
2 - وبرمرين (ابن سيدينا أو ساداتنا) على كل من
3 - يأخذ (يسرق) خيمة أو
4 - مظلة (سقيفة) أو مَرّاً
5 - وفاساً ومعولاً
6 - وطشتاً ومخلاً (هيباً)
7 - وفأسة (صغيرة) من العمل الخاص (من معبد)
8 - العائد لبرمرين وعلى كل من
9 - يأخذ (يسرق) واحدة من قرب (الماء)
10 - هذه من (العمل الخاص) العائد لبرمرين.
11 - لقد بيّن (اظهر) الحلم أن الذي
12 - لعنته سوف يرجم

لهذه الكتابة أهمية بالغة فإنها تلقي ضوءاً على الأحكام القانونية بحق من يقوم بسرقة الأموال المنقولة العائدة لمعبد الإله وهي تتطابق مع المادة السادسة من قانون حمورابي لأنها تتضمن تدنيساً أو انتهاكاً لقدسية المعبد والتي تكون عقوبتها الإعدام. إلا أن صيغة محتوى هذه الكتابة تبدو وكأنها تفصل بين نوعين من السرقة والعقوبة المترتبة عليها فإن سرقة خيمة العمل أو المظلة التي يستظل تحتها عمال البناء العاملين في معبد برمرين أو أدوات العمل الأخرى التي تتضمن المر (المجرفة) والفأس والمعول والطشت والمخل والفأسة الصغيرة فستنزل العقوبة على مرتكبيها وهي اللعنة المسلطة من الآلهة وهي مشابهة للعقوبة التي وردت في القوانين الآشورية الوسيطة بشأن استعلام رأي الآلهة في تحديدها والتي ربما تكون جسيمة حتى الموت. أما العقوبة الأخرى التي تفرضها أحكام هذه الكتابة فهي الرجم لأي شخص يسرق أو يأخذ إحدى قِرَب الماء العائدة لمعبد برمرين وهذا النص يتفق مع ما ورد في مخطوطة S.Nau لكتاب «شرائع البلدان» الذي ينسب الى برديصان الراهب السرياني والتي جاء فيها أن القانون في الحضر ينص على «ان كل من يسرق وعاءً صغيراً، ولو للماء، يستحق الرجم» وقد صححت بعض فقرات المخطوط وسنأتي على ذكرها لاحقاً.

وعثر في الباب الشمالي من السور الرئيس للمدينة وعلى الجدار الذي يواجه الشخص الداخل للمدينة في باحة المدخل الأول على كوة مبنية من الحجر ومغطاة بطبقة سميكة من الملاط وفي داخلها وضعت لوحة مهمة تتألف من جزءين، على القسم العلوي منها نقش لنسر باسط الجناحين بالنحت البارز، أما في القسم السفلي فقد حفرت كتابة بقي منها أحد عشر سطراً وطرأ تلف على أسطرها الأربعة الأخيرة[18] (شكل 2). واكتشفت نسخة أخرى من هذه اللوحة في الباب الشرقي وبوضعية مشابهة وهي بحالة جيدة (شكل 3) حيث وصلتنا وأسطرها كاملة. ووضعت هاتان اللوحتان في مداخل الأبواب الرئيسية لغرض تنبيه الشخص الداخل للمدينة بفحوى الأحكام القانونية التي تتضمنها الكتابة وهي بذلك لا تختلف عن أخواتها من مدن العراق القديم مثل بابل ونينوى وغيرها في هذا المضمار حيث جرت العادة على إطلاع الشخص الداخل للمدينة على قوانين المدينة بوضعها في أبوابها الرئيسة، وفي أدناه قراءة وترجمة النص.

(17) يعتقد بأنها قد سقطت ويعزى السبب الى الكاتب.
(18) واثق الصالحي «كتابات الحضر»، سومر، 34 (1978) ص 69-71 [336] وينظر كذلك Vattioni ص 102.
(19) جابر خليل ابراهيم «نصان قانونيان» سومر، 38 (1982) ص 122/123 [343].

1 ـ ب ي رح ك ن و ن د 4 ×100 +20 +20 +20 +1 +1 +1

2 ـ ب م ل ك ا دي ال هـ ا اص ط ب و

3 ـ ش م ش ب ر ك ر ب ي ت ا ب ح ط ر ي ا

4 ـ ق ش ي ش ا و د ر د ق ا و ع ر ب ي ا

5 ـ ك ل هـ و ن و ك و ل دي ع ل و ن ف و ق

6 ـ ل ح ط ر ا و ك و ل دي ع م ر ب ح ط ر ا

7 ـ و هـ ك و ن ف س ق و دي ك و ل د ل ج ن و ب

8 ـ ل ج و م ن م ل ا هـ د و ن و ل ج و م ن

9 ـ ب ش و ر ا ب ر ي ا اي ن ج ب ر ا

10 ـ ح د ج و ي ا ل ق ط و ل ب م و ت ا دي

11 ـ ال هـ ا و اي ن ج ب ر ا هـ و ب ر ي ا

12 ـ ل ر ج ي م

التزجمة

1 ـ بشهر كانون من (سنة) 363 (152/151 ميلادي).

2 ـ بمشيئة الآلهة اختير (انتخب)

3 ـ شمشبرك سادناً للحضريين (أو بين الحضريين)

4 ـ شيباً وشباناً وللعرب

5 ـ كلهم ولكل من مَرّ

6 ـ بالحضر ولكل من سكن (استوطن) بالحضر.

7 ـ ومن أجل ذلك قرروا أن كل من يسرق

8 ـ من داخل هذه المخازن ومن داخل (المخازن)

9 ـ في السور الخارجي، إن كان رجلاً.

10 ـ واحداً من المجتمع الحضري (الداخلي)، فإنه سيقتل بالموت الذي

11 ـ يسلطه الإله وإن كان الرجل هو أجنبياً (خارجاً عن الحضر أو غريباً).

12 ـ فسيرجم

يحمل هذا النص القانوني تحذيراً الى جميع سكان المدينة والى القبائل العربية التي اتخذت من الحضر مركزاً لها والى قاصديها وزائريها والى الجاليات التي استوطنتها بأن اختيار شمشبرك للقيام بمهام السدانة فيها والإشراف على إدارتها وتطبيق قوانينها على المخالفين انما جاء بتفويض من الإله «بملكا دي ألها» «بمشيئة الآله وملكوته» وهذه صفة مشابهة تتطابق مع قوانين العراق القديم حيث وكما مرّ بنا بأن مُشرعي تلك القوانين أمثال أورنسمو وحمورابي ذكر بأنها وضعت استجابة لنداء الآلهة في نشر العدل بين الناس. وتتطابق أحكام هذا النص القانوني مع ما ورد في المادة السادسة من قانون حمورابي بشأن السرقة من القصر أي من بيت الملك، بمعنى أنها من ممتلكات الدولة، ويتوافق مع السرقة في مخازن المدينة وخاصة تلك التي في السور الرئيس الذي يضم العديد من الأبراج الحاوية على غرف استعملت لخزن العتاد والمواد العسكرية الأخرى والذخيرة التي يتطلبها الدفاع عن المدينة. وتتفق العقوبة المفروضة على العربي والحضري المتهمين بالسرقة من مخازن المدينة وهي «الموت الذي يسلطه الآله مع ما ورد في النص السابق وكذلك مع القوانين الآشورية الوسيطة. وجاءت نفس العبارة ضمن نص آخر محفور على لوح كبير عثر عليه بالقرب من كوة هرقل في باحة مدخل الباب الشمالي[20]، لم نستطع قراءتها كاملة بشكل جيد بسبب النقص الذي أصابها نتيجة تعرضها لضربات البناء أثناء اعادة استعمال اللوح حجرة بناء. ولا بد أن تلك الكتابة تتعلق بأحكام قانونية مشابهة لأنها تشير الى ملك الحضر «سنطروق» والى العقوبة المسلطة من قبل الإله.

وعلى لوح مشابه (شكل 4) اكتشف في باحة مدخل الباب الشرقي ضمن الجزء الأيمن من كوة النسر، حفرت كتابة مهمة تلقي أضواءً جديدة على الأحكام القانونية وتضيف الى ما ورد في الكتابات السابقة معلومات في غاية الأهمية[21]. وفيما يلي قراءة الكتابة وترجمتها.

1 ـ ب م ل ت ش م ش ح د ي (ت)

2 ـ و ح ف ي ز ي ق ش ش و ح ط (ر ي ا)

---

(20) واثق الصالحي، «كتابات الحضر» سومر 37 (1981) ص 143-145 [342].

(21) جابر خليل ابراهيم ـ ص 124-125

3 ـ ك ل هـ و ن   هـ ك ي ن   ف س ق و
4 ـ ش ل هـ ي   ا ن ش د   ل ز ب ي ن
ل ك ف(ا)
5 ـ و ل ك ص ر ا   و ل ج ص ا   م ن   ح د
6 ـ ع ج ل ا   د ي   ب ي ت   ا ل هـ ا
7 ـ م ن   ط ل ت   د ي   ن س ي ب و   ا ج ر
8 ـ ب ر ي هـ و ن   م ن   ب ي ت   ا ل هـ ا
9 ـ و ا ي ن   ل ز ب ي   م ن   هـ و ن   ك ف ا
10 ـ ا و   ك ص ر ا   ا و   ج ص ا
11 ـ ا و   ج ص ا   ا ل ج ر   م ن   هـ و ن
12 ـ ع ج ل ت ا   ل م و ت   م و ت ا
13 ـ (د ي) ا ل هـ ا

الترجمة

1 ـ بأمر شمشحديت
2 ـ وحفيزو الشيخ والحضريين
3 ـ كلهم، هكذا قرروا
4 ـ أي شخص فقير (؟) يسرق (يحمل خلسة) حجراً
5 ـ وتبناً وجصاً (و) إحدى (أي واحدة من)
6 ـ عربات (البناء) العائدة الى بيت الإله (المعبد)
7 ـ على أساس أنها أُخذت (سرقت) لقاء مكافأة (أو أجر)
8 ـ من خارج بيت الاله (المعبد)
9 ـ وإذا باع من هنا حجراً
10 ـ أو تبناً أو جصاً
11 ـ أو جصاً لقاء مكافأة (أو أجر)
12 ـ حالاً سيموت (با)لموت
13 ـ (الذي يسلطه) الإله

إن الأحكام القانونية التي تتضمنها هذه الكتابة وهي سرقة أموال منقولة وعلى الأخص مواد البناء من المعبد الرئيس في المدينة إما لغرض استعمالها أو بيعها فإن عقوبتها ستكون الموت الذي يفرضه الإله وهي تتفق أيضاً مع ما جاء في المادة السادسة من قانون حمورابي المشار إليها سابقاً.

نستخلص من هذا الاستعراض أن المواد القانونية المتعلقة بالسرقة قد بقيت في إطارها العام وتفاصيلها مستمدة من القوانين العراقية الأقدم عهداً وهو ما ألفه المجتمع الحضري والتزم به حكامها وإداريوها لأنها قد كفلت لأبنائها وأهلها ومستوطنيها حياة آمنة مزدهرة. لقد ورد ذكر هذه القوانين وصرامتها عند الكاتب والمؤلف السرياني الراهب «برديصان» الذي ولد في الرها (اديسا) وعاش في الفترة بين 154-222 ميلادي في مؤلفه الموسوم «شرائع البلدان»[22] الذي ينسبه بعض الباحثين الى تلميذه فيليب والذي ربما كتبه خلال الأعوام 196-229 ميلادي[23]. ويعتقد بعض الباحثين، استناداً الى المصادر الكتابية، بأن «برديصان» كان شاعراً وفيلسوفاً واهتم بالفلك والنجوم وأوضح في مؤلفاته تأثيرها في أجسام البشر لا على أرواحهم. ومما يذكر عن أعمال «برديصان» بأنه «ألف 150 فصلاً وشخّص سبعة كواكب وتكهّن بساعة ولادة الأفلاك وترك إرثاً لتلاميذه»[24] ولكن لم يبق منها سوى كتابه الآنف الذكر.

وتطرق «برديصان» في حديثه عن القوانين التي كانت سائدة في تلك الفترة الى القانون في الحضر وقال «فرض قانون في الحضر أن كل من يسرق شيئاً صغيراً ولو كان زهيد الثمن، يستحق الرجم»[25] وورد في نسخة أخرى للمؤلّف نفسه «ان كل من يسرق وعاءً صغيراً، ولو للماء، يستحق الرجم»[26]. ويتضح لنا من خلال دراسة النصوص الحضرية السالفة الذكر أن هذه الإشارات وان بدت متباينة فإنها قد وردت فعلاً في الكتابات. فالكتابة المرقمة [281] تذكر عقوبة سرقة إحدى قِرَب الماء وعدة البناء، في حين تشير الكتابة المرقمة [344] الى الأحكام القانونية بشأن سرقة مولد البناء

(22) Bardesane, *Le Livre des Lois Pays s*, S.Nau, Paris, 1931.
(23) Rainer Degan, A note on the law of Hatra», *Annali*, vol.37, 4, Napoli, 1977, p. 486 ff. *Bardesan, op. cit.*
(24) المصدر السابق.
(25) *Degan op. cit*, p. 487 S.Nau, Partrologie Syriaca, vol. I, part II, Paris, 1907, Col. 591, Col. 591. Line 12-14.
(26) أود أن أشكر كل من د. يوسف قوزي والأب البير أبونا على قراءتها للنص السرياني.

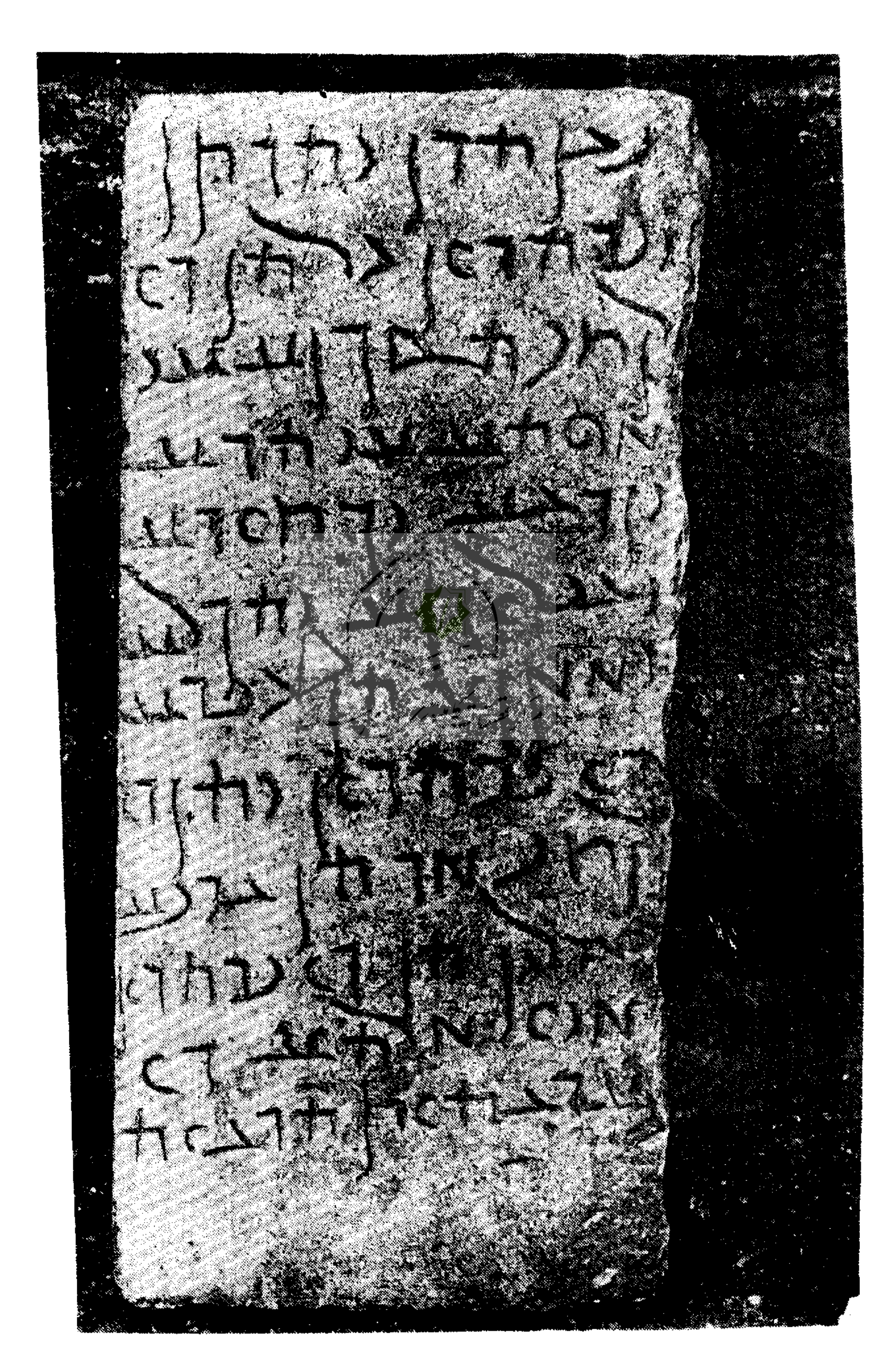
من جص وحجر وتبن بينما لم تتحدد نوعية الأموال المنقـولة في الكتـابتين [343, 336] وانمـا جاءت عقـوبة السرقـة مطلقـة. ويبدو أن هذه الإشارات الواردة في «شرائـع البلدان» قد تـأثر بهـا يوسيبـوس Eusebius الذي كتب بـالإغـريقيـة في مؤلفـه Praeparatio Evangelica حيث يشـير «في الحضر، سـارق قطعة نقد صغيرة (أبول) سوف يـرجم»[27]. ولكن ترد إشـارة عابرة صغيرة في «برديصان» تبدو متنـاقضة مـع ما ورد سـابقاً بشـأن عقـوبـة السرقـة في الحضر حيث يقـول «ولا الـذين في الحضر[28] يـرجمـون السرّاق»[29] ولكن لم يـردنـا تفسـير في «برديصان» بشأن أسباب التناقض ولم تردنـا أية دلائـل كتابيـة أخرى تؤكد تطبيقه في الحضر.

لقد وصلتنا كتابة عثر عليها في أحد المعابد الصغيرة الـذي كان مكرساً لعبادة الإلَه هرقل-حبذا!! إلـه الحظ إشارة قصـيرة الى عرف اجتماعي له مدلـولات دينية بشـأن استعمال الغـرف والاواوين التي كـانت تحيط بخلوة ومـصـلّى ذلـك المعبـد (شكل 5)، فقد ذكرت الكتابة بأن «. . . . على السيد نـزيل الأواوين والغـرف أن يرحمهـا. . .» اذا ما تعـرضت للتصـدع لقاء استعمالـه لإحداهـا[30] ويبدو أن الأعـراف الدينيـة كانت تسمـح باستعـمال ملحقات المعبد دون أن يدفـع النزيـل أي مقابل ولكن شرط المحافظة عليها أصبح لزاماً عليه.

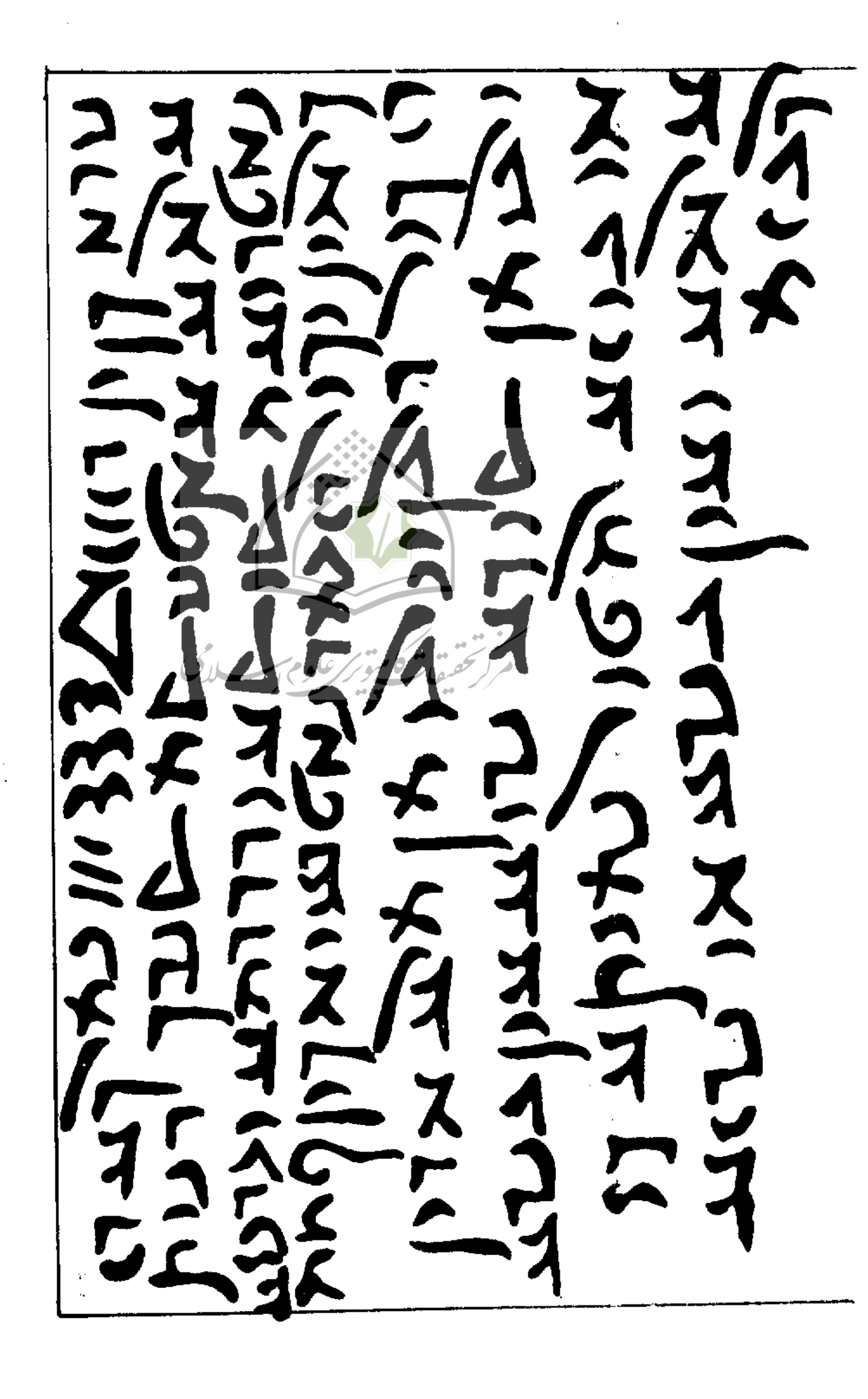
ومهما يكن من أمر فإن النصوص القانونية المكتوبة التي عثر عليهـا في التنقيبات في المـدينة تشـير الى التواصـل الحضـاري لمجتمـع وادي الرافـدين منذ أقـدم العصور وتؤكـد في الوقت نفسه ان جسور النقل الحضاري كانت قائمـة وأن الإشارة في «بـرديصان» عن قـانون السرقـة في الحضر تعتـبر من أوثق مـا وصلنا لأنها تشير الى قضايا معاصرة أكدتهـا الدلائـل الآثاريـة أيضاً.



(27) Degan, *op.cit*, p.487 f.
(28) لقد ورد اسم الحضر (حَطْرا) بصيغة مختلفة (حُطْراً) في هذه الإشارة ويعزى هذا الاختلاف الى خطأ في المخطوط.
(29) Bardesan, *op.cit*, p.29.
(30) واثق الصالحي، «كتابات الحضر» سومر، 44 (1985-1986) ص 99-102 [408].



شكل (2)



شكل (3)

شكل (4)

شكل (5)

قراءة في كتابة التأريخ عند العراقيين القدماء

أكرم محمد عبد كسار

كلية الآداب ـ جامعة صلاح الدين

تعريف مصطلح التاريخ

التاريخ وثيقة لأحداث الماضي ولأحواله السابقة مكتوبة بعد سلسلة من التحقيقات المسماة بالبحث التاريخي. والتاريخ (بالألف اللينة) والتأريخ (بالهمزة) والتوريخ يعني الإعلام بالوقت وقد يدل تاريخ الشيء على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه ويلتحق إليه ما يتفق من الحوادث الجليلة، والتاريخ فن يبحث وقائع الزمان ومسائل أحواله المفصلة للجزئيات ضمن نواحي المكان والوقت ويهتم بالإنسان وأحواله[1] وأن التأريخ (بالهمزة) هو دراسة الماضي بينما التاريخ يعني الماضي نفسه[2]، ويرى المرحوم الأستاذ طه باقر أن التأصيل الصحيح لمادة أرّخ، يؤرخ بمعنى عيّن الزمن وحدوده، ومنها تاريخ وتوريخ وأنها من المفردات الأكدية warhum أو arhum ومنها وردت كلمة تأريخ لتعيين وتحديد الزمن[3].

ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي كما يدل ذلك لفظ Historia المستمد من الأصل اليوناني القديم، أي كل ما يتعلق بالإنسان منذ أن بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض[4] ومن ثم بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي ألمت بالشعوب والأفراد، وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب والتي وقعت منذ أقدم العصور واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر[5].

إن مفهوم التأريخ في ضوء نظريات التطور وعلم الاجتماع اتسع من بعد أواخر القرن الثامن عشر مكتسباً مدلولات حضارية وتطورية بحيث أصبح في مفهومه الحديث دراسة أحوال المجتمعات الماضية أي دراسة تطور الإنسان وما أنتجه من منجزات حضارية وما تركته هذه المنجزات من تأثيرات في تطور الحضارة المعاصرة، وبعبارة أخرى الوقوف على تطور الإنسان لمعرفة ما هو الإنسان وما هي القوانين التي تسيّر تطور المجتمعات وتتحكم في سيرها التاريخي من نشوء ونمو وازدهار وتدهور وانحلال[6]، إضافة إلى دراسة الطبيعة البشرية وحدود إمكاناتها وخصائصها والقوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تسيّر الإنسان في المجتمع[7].

---

(1) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، لمن ذم التأريخ، القاهرة 1349، ص 7.

(2) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، بيروت 1959، ص 13-14.

(3) طه باقر: من تراثنا اللغوي القديم، بغداد 1980، ص 36-37.

د. فاروق ناصر الراوي: العلوم والمعارف من كتاب حضارة العراق الجزء الثاني، بغداد 1985 ـ، ص 270.

(4) Oman, Chr. on The Writing of History, London, 1939, p. 2.

(5) هرنشو، ف: علم التاريخ ترجمة وتعليق عبدالحميد العبادي، القاهرة 1937، ص 8.

د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، مصر 1967، ص12

(6) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد: طرق البحث العلمي في التأريخ والآثار، الموصل، 1980، ص 8.

(7) المصدر السابق نفسه، ص 12.

مبررات دراسة التاريخ

ندرس التاريخ من أجل أن نصل إلى تفهم أحسن لأنفسنا، فالطبيعة البشرية لم تتغير واستجاباتنا الأساسية لمختلف الظروف هي هي، ويعطينا التاريخ إضاءة طيبة لمجريات الأمور ومختلف النظريات والأفكار التي كوّنت وسيّرت ركب الأحداث. فكما في الرياضيات نبدأ بفهم المشكلة أولاً من بداياتها منفرين من التاريخ القديم الأمور الأساسية لرغبات الإنسان وأحوال اقتصادياته وتطورات دينه مما تعيننا في معرفة الطريق الذي يعمل به فكر الإنسان ومختلف المراحل التي مرّ بها في تطوره. وموضوع التاريخ واسع متشعب وكل ما فيه له علاقة مباشرة مع أوضاع الإنسان في الوقت الحاضر، فنعرف من دراسة الماضي الأوضاع الحاضرة ويمكن حتى التنبؤ أحياناً بالمشاكل المقبلة، مثلها في ذلك مثل البناية كل حجر فيها مستند على الحجر الذي قبله، وفهم التاريخ في غاية الأهمية لتفهم سير الأوضاع والأحداث، فمعرفة الأساس له أهمية في العلم بأحوال البناية وفي قوته قوتها[8].

إن حاجات الإنسان منذ البداية هي الإدراك والتنبؤ والسيطرة على البيئة واخضاعها، والتاريخ هو سجل أعمال الإنسان على الأرض لآلاف السنين وهو حجر الزاوية في عملية معرفة وضبط حالات البشر والطبيعة فمشاكل وأحداث الحاضر والمستقبل أخذت شكلها بواسطة الماضي، فمن التاريخ نحصل على العبر والدروس في نشوء واضمحلال الكثير من الحضارات وأسباب ذلك[9].

ومن التاريخ القديم على سبيل المثال نتعرف على تطور الكثير من العادات والممارسات. وهناك قدرة عند بعض الباحثين لأن يتابعوا التأثيرات والتغيرات النفسية للكثير من الطقوس البدائية والديانات الأولى لمعرفة القيم والأسس عند البشر في مختلف عصورهم، ولكل هذه أهمية قصوى في معرفة حاضر الإنسان[10].

ومن الدروس التي يجب أن نتعظ بها من دراسة التاريخ هي أن نتجنب أخطاء الماضي وعثراته وما أحق القول (كتب على الأمة التي لا تاريخ لها أن تعيده بأخطائه ونكساته). وأن نتفهم مشاكل العصر الحالي بمقارنتها مع حالات متشابهة وقعت في الماضي، ومن خلاله نتذوق حضارات الأمم الأخرى وما لديها من ثروات فكرية وتراث، فنتعرف على ما لديهم من تراث وأفكار ومثل وأنواع حكومات وعظات وفلسفة وأدب وما إلى ذلك، مما يغني حضارتنا الفكرية ويوسعه، وبذلك نشعر بأننا نسير على هدى شموع الخبرات المتجمعة[11]. ويكون التاريخ حاصل الممكنات الحاصلة التي تحققت، فالطبيب لا يتحكم بتطورات كل مرض وهو يجهل النواميس التي تدور عليها دقائق التطورات وأن خبرته في آلام الناس توحي إليه بنصائح نافعة وعلاج شاف. والتاريخ مدونة الماضي لجلاء الحاضر، فالإنسانية ترتبط بماضيها ارتباطاً وثيقاً أو كما قيل إن التاريخ كله تاريخ الحاضر، فغايتنا من دراسة التاريخ التعرف على الإطار الذي نعيش فيه وأحوال المجتمع الذي نحياه[12].

ونستمد من التاريخ العبرة فحوادث السنين لا تتصل نتائجها بمقدماتها إلّا بعد مرور قرون ولا تكتمل عدتها إلّا بعد توالي الأجيال، والحادثة الواحدة قد تنطوي على عدد ليس بالقليل من العظاة وقد يتناولها الناس في كل عصر فيجد كل منهم معنى مخالفاً وجده سواه من معانيها، فبدون التاريخ لا تستطيع أية مجموعة بشرية التعرف على شخصيتها، ولا يتكون عندها وعي يجمع تراثاً مشتركاً جديراً باهتمام الناس ولا يقي هؤلاء النسيان سوى التاريخ الذي بدونه لا تنسجم الأجيال المتعاقبة كأنها رجل واحد تلقنه الدهور دروساً دائمية[13].

وما التاريخ في الواقع إلّا قطعة من البيولوجيا، وقوانين علوم الحياة هي الدروس الأساسية للتاريخ وذلك لأننا خاضعون لعمليات مستمرة من التطورات البيولوجية وتحت تأثير قانون تنازع البقاء وبقاء الأحسن. فأول درس تاريخ لعلوم البيولوجيا هو أن الحياة منافسة واختبار للأحسن، ففي الصراع من أجل البقاء أو القوة فإن بعض الأجزاء تتغلب

(8) د. سامي سعيد الأحمد: العراق القديم، الجزء الأول، بغداد 1978 ص 10-11.
(9) المصدر السابق نفسه، ص 11.
(10) المصدر السابق نفسه، ص 11.
(11) المصدر السابق نفسه، ص 12.
(12) المصدر السابق نفسه، ص 14-15.
(13) المصدر السابق نفسه، ص 15-16.

وأخرى تفشل وتتلاشى، وفي صراع البقاء فإن بعض الأفراد نراهم متسلحين أكثر من الآخرين لمواجهة امتحانات البقاء[14].

وبذلك نرى العلاقة في التاريخ، قائمة بين سطحين مستويين للإنسانية الماضي المرئي بواسطة الناس القدماء، والحاضر الذي يتطور فيه الجهد لاستعادة ذلك الماضي بفضل الإنسان[15].

أهمية التاريخ ومكانته

لقد أصبح للتاريخ اليوم أهمية كبيرة في حياة الأمم والشعوب، وأصبحت له مكانة عظيمة في مناهج المدارس على اختلاف مراحلها، ولعل سبب ذلك هو التغير والتقدم الشاملان اللذان عمّا جميع نواحي الحياة البشرية.

فلقد تطورت البشرية تطوراً جوهرياً في حياتها، فبعد أن كانت الأمم تعيش منعزلة بعضها عن بعض أصبحت اليوم تحيا حياة تعاونية متشابكة الصلات والمصالح ولم يعد هناك للحواجز الجغرافية والمساحات الشاسعة ذلك التأثير الفاصل الذي كان لها من قبل، وارتقت العلوم والفنون التكنولوجية والانسانية ارتقاءً لم يشهده العالم سابقاً. وزاد الاهتمام بالتاريخ نتيجة للتغير الكبير الذي عمّ العالم كله بمختلف جوانبه الاجتماعية، الاقتصادية الفكرية والتربوية باعتباره موضوعاً حيوياً لذاته ولخطورته الخاصة بين حقول المعرفة[16]، وبذلك فالتاريخ تفكير في العوامل الواقعية والمؤثرة في الحياة الإنسانية[17].

والإنسان من حيث علاقته بالتاريخ نتاج الماضي وذلك لأن طابع الحياة البشرية الاستمرار، فكل لحظة ترتبط بالأخرى لتكون وحدة متكاملة، ففي الحياة الإنسانية التغير والتنوع، ففيها يختار وفيها يقرر طابع الجدة الدائمة تفهم الحياة الإنسانية إذن في ضوء الاستمرار والتنوع والتغير في الزمان، ومن ناحية أخرى فإن حاضر الإنسان مشحون بالماضي، كما أن الحاضر مشحون بتوقعات المستقبل ولذا، نجد الزمان لدى الإنسان في ديمومة واتصال مستمر[18].

ويمثل التاريخ مكانة متميزة وسط العلوم الإنسانية، لأنه سجل حياة الأمم فهو يدون أحداث هذه الحياة في تسلسلها وتعاقبها، كما يوضح التطور الذي طرأ على حياة الأمم في نوعه وطريقته وأسبابه وعوامله، فهو دراسة الحاضر عن طريق دراسة الماضي[19]. ولقد أصبح التاريخ علم دراسة حركة الزمن ورصد اتجاهات التطور، وأصبح من أدوات المجتمعات في معركة التطور والرقي، وهكذا أصبح التاريخ اليوم «ليس علم الماضي ولكنه علم ربط الماضي بالحاضر بقصد توضيحه، وربط المستقبل بالحاضر عن طريق بيان اتجاهات التقدم والتطور التي يجب أن تتحقق فيه»[20]. و«التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة علم على مجموعة من المعارف المنظمة أو المحصلة عن طريق منهج وثيق البحث في نوع واحد معين من الوقائع، فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في مجتمع خلال توالي الأزمنة في الماضي»[21] ويبحث التاريخ عن أسباب تسلسل الظواهر كما وقعت، ويحاول ربطها وتعليلها تعليلاً يقبله العقل[22] وبذلك فهو ليس مجرد وثائق ومستندات، إن مجرد تجميع المادة التاريخية يجعل من التاريخ عملاً من أعمال (القص واللصق) ومن المؤرخ مجرد كاتب حوليات ككاتب

---

(14) Will and Ariel Durant, The Lessons of History, New York, 1968, pp. 18-19.

(15) مارو، هـ. أ: من المعرفة التأريخية، ترجمة جمال بدران، القاهرة 1971، ص 30.

(16) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب، بيروت 1960، ص 7.

(17) فرانز روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين ترجمة د. صالح أحمد العلي، بغداد 1963، ص 39.

(18) د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، الإسكندرية 1975، ص 30.

(19) د. أبو الفتوح رضوان: التاريخ وفكرة التفاهم العالمي، القاهرة 1954، ص 11-12.

(20) هنري جونسون: تدريس التاريخ ترجمة وتقديم أبو الفتوح رضوان، القاهرة 1965، ص ن.

(21) الانجلواوسنيوبوس: النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، القاهرة 1963، ص أ.

(22) جوزف هورس: قيمة التاريخ، ترجمة نسيب وهبة الخازن، بيروت 1964، ص 94-95.

(الأرشيف)، إن المؤرخ لا ينظر إلى الحادثة التاريخية نظرة برانية وإنما ينظر خلال الوقائع ليكشف الفكر الذي يتبطنها ويحركها ويكشف الفكر الكامن وراء ما تسرده الوثائق بأن يتمثل الماضي في ذهنه أي أن يعيد التفكير فيه على النحو الذي وقع[23].

وقديماً، كان التاريخ فناً من الفنون أو فرعاً من فروع الأدب، وهناك من يرى أن المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotos 485-425ق.م هو أول المؤرخين الذين بذلوا عناية في الوصول إلى الحقائق وتدوينها من خلال قيامه بالأسفار وجمع الأخبار فكان مجهوده أول خطوة في سبيل البحث التاريخي[24]، إلّا أننا نرى أن العراقيين القدماء منذ العصر السومري اهتموا بتدوين التاريخ واستمر ذلك حتى نهاية الحكم الوطني في العراق 539 ق.م وذلك من خلال استعمال طرق مختلفة.

ولعلنا نجد أن أول محاولة جادة وشاملة في مجال تفسير التاريخ تتضح عند العلامة ابن خلدون 1333-1406م الذي يعتبر من أوائل من اهتموا بالتعليل في التاريخ[25]، فالتاريخ عند ابن خلدون (ظاهر) و (باطن) إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها بدقة، وعلم بكيفيات الواقع وأسبابها بعمق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وكانت العوامل التي تفسر سير واتجاه التاريخ عند ابن خلدون متعددة مثل البيئة الجغرافية والعمران البشري والمجتمع، وهذا ما يعطي تفسيره طابع الشمول.

تدوين التاريخ في العراق القديم

كان من أبرز الانتاجات الفكرية العراقية القديمة كتابة التاريخ، إذ يرى سبايزر Speiser أن المؤرخ العراقي القديم اعتبر التاريخ «نتاجاً لعوامل سابقة عليه، وقوة فعالة في الحاضر وفعلا لتشكيل المستقبل»[26] وعدَّ العراقيون الأوائل أنفسهم ورثاء ماضٍ مجيد متقادم في العهد تخيلوه على هيئة (عصر ذهبي) كان السلام والخير يسودان الأرض فيه فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الإنسان البقاء[27] كما ورد ذلك في أحد الأساطير السومرية والتي تعرف بأسطورة العصر الذهبي[28].

في تلك الأيام، لم تكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع.
لم يكن هناك أسد ولا كلب شرس ولا ذئب.
لم يكن هناك خوف ولا رعب
لم يكن للإنسان من منافس.
في تلك الأيام كانت (شوبور) أرض المشرق أرض الوفرة وشرائع العدل.
وسومر أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية.
و (أوري) أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها الإنسان كل حاجته.
و (مارتو) أرض الغرب، أرض الدعة والأمن.
وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام.
وبلسان واحد يسبح الكل بحمد أنليل.

لقد بدأ التدوين التاريخي في حضارة وادي الرافدين منذ اخترع سكانه الخط المسماري وتدوينهم لشؤون الحياة المختلفة ومنها أحداث الماضي، وتميز تدوينهم بما يعرف بـ «الحس التاريخي»[29] أي الاهتمام بتدوين الأحداث المهمة ومحاولة تفسيرها، وهنالك أمثلة وردت في ملحمة جلجامش توضح ذلك[30] فنقرأ فيها[31]:

هو الذي رأى كل شيء فغنى بذكره يا بلادي
وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد أبصر الأسرار وكشف عن الخفايا المكتوبة
وجاء بأنباء ما قبل الطوفان

---

(23) د. احمد محمد صبحي: مصدر سابق، ص 34 ود. فاروق ناصر الراوي، مصدر سابق ص 269.
(24) للمزيد من التوسع ينظر: طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد 1956، ص 600-601.
(25) عبدالرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، القاهرة 1957، ص 208.
(26) د. فاروق ناصر الراوي: مصدر سابق، ص 270.
(27) طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد 1976، ص 35.
(28) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، بيروت 1981، ص 191.
(29) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد، مصدر سابق ص 17، ص 19.
(30) د. فاروق ناصر الراوي: مصدر سابق، ص 271.
(31) طه باقر: ملحمة جلجامش، الطبعة الرابعة، بغداد 1980، ص 73.

لقد سلك طرقاً بعيدة متقلباً ما بين التعب والراحة
فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وخبره
ثم نقرأ[32]:
ابحث عن اللوح المحفوظ في صندوق الألواح النحاس
وافتح مغلاقه المصنوع من البرونز
واكشف عن فتحته السرية
تناول لوح حجر اللازورد واجهر بتلاوته.

ولم ينتج السومريون طرق تدوين التاريخ بالمعنى المقبول لهذا المصطلح كما يفهمه المؤرخون المحدثون، لقد كان المفكر السومري، يرى الأحداث التاريخية وكأنها وقعت وهي جاهزة الصنع، مهيئة سابقاً، وهي كاملة النمو والنضج في مشهد العالم، وليس على أنها نتاج متدرج بطيء جاء نتيجة لتفاعل الإنسان مع بيئته[33]، واتباعهم أساليب شتى في كتاباتهم التاريخية دون أن يكون لهم أسلوب خاص مفصل فيها[34]. إضافة إلى تأكيد الملوك الأشوريين اللامتناهي على حفظ كتاباتهم وما يدون عن مجريات الحوادث في عهودهم لاطلاع الأجيال القادمة. كما نتبين أهمية دراسة التاريخ من خلال اهتمام الملك الأشوري اشوربانيبال بالمكتبات والأرشيفات وتنظيمها وفهرستها، أو ما قام به الملك نبونائيد من تقصي أخبار الملوك الماضين واستنساخه النصوص القديمة وتقصي أخبار الماضي وجمع البقايا القديمة. وهناك عدة أنواع من النصوص التاريخية اختلفت بحسب الفترات الزمنية وتمثلت عملية التدوين بأساليب مختلفة وهي:

أولاً ـ المعاهدات

تعتبر المعاهدات من أقدم النصوص التاريخية، فالمعاهدة

---

(32) المصدر السابق نفسه، ص 75.

(33) صموئيل نوح كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مصر 1957، ص 89.

(34) د. سامي سعيد الأحمد: مصدر سابق، ص 395.

فعلى سبيل المثال من عصر الأمبراطورية الأكدية هنالك نصوص تاريخية أمر بتسجيلها الملوك لتخليد ذكراهم ومآثرهم، ولينخذ خلفاؤهم منها العبرة، ودونت بأسلوب أدبي امتزج فيه الطابع التاريخي بالجانب الأسطوري من ذلك ما تعرف بأسطورة سرجون التي جاء فيها:

أنا البستاني أجتني الآلهة عشتار هكذا وخلال
خمسين سنة مارست الملوكية.
نعم لقد حكمت وقدت ذوي الرؤوس السود
بمعاول البرونز هدمت الجبال القوية الجبال العالية، سجلت عليها نقش، أينما وجدت الجبال السهلة البسيطة سلكتها
قمت ثلاث مرات بالدوران حول الأرض (عبر البحار)
بيدي غزوت (دلمون) (اتجهت) نحو (دير)
الأكبر وأخضعته (؟) غلبت كل من كان متعالياً علي (؟)

وفي نص آخر يعرف بنص نرام سين الذي خلّده بمناسبة ذكرى انتصاره على القبائل اللولوبية في جبال عرداغ في المنطقة المسماة (دربندي ـ كاور) في الطريق الواصل ما بين كركوك إلى السليمانية، لقد جسد الفنان في النص انتصار نرام سين وهو يطأ بقدميه جثث الأعداء مبرزاً تجاربه لتبقى شامخة يقتدى بها من يأتي بعده.

(أنت الذي تأتي) أقرأ لك ما في هذا النصب
(أنا نرام ـ سين) الذي جاء بعد ابن سرجون
(كتبتها وتركتها) للزمان المقبل
(امركار) الملك القديم الذي اختفى إلى الأبد
(امركار) ملك أورك الذي اختفى إلى الأبد
(الذي كان آنذاك) راعي البلاد
والآن بعد مرور (مائة عام)
وبعد ما مرت (مائة عام)

بعد ذلك يتحدث في النص عن عدد الجنود الذين وقفوا بوجه اللولوبيين ثم يستمر في سرد النص.

د. خليل سعيد: معالم من حضارة وادي الرافدين، الدار البيضاء 1984، ص 238-239.

المعقودة بين لجش وأوما[35] التي تم العثور عليها من عصر فجر السلالات من مدينة لجش وثيقة بارزة الأهمية لما تتميز به في وصفها المفصل ووضوح المعنى فيها، دونت في عهد انتمينا، خامس حكام سلالة لجش وكان الغرض الأساسي من تدوينها تسجيل إعادة حفر خندق الحدود بين لجش وبين أوما الذي دمر في أثناء النزاع والحرب بين المدينتين. ولكي يوضح ذلك الحدث في إطار تاريخي وصف فيه الكاتب المقدمات التاريخية التي سبقته منذ الأزمان التي استطاعت أن تصل إلى حوادثها السجلات المتيسرة له، أي منذ أيام الملك المسمى ميسلم، إلا أنه في روايته هذه لم يستعمل طريقة سرد الحقائق وسوقها مساق الرواية التاريخية على ما هو متبع لدى المؤرخين، إنه بدلاً من ذلك سعى إلى وضع الحوادث التاريخية في الإطار المقبول المسلم به وفق وجهة النظر (الثيوقراطية) الخاصة بعالمه، وبذلك ولد أسلوب أدبي فذ يحبك دوماً بين أعمال البشر وأعمال الآلهة، وكثيراً ما أخفق في التمييز ما بينهما، مما نجم عنه أن لا تكون الوقائع التاريخية الحقيقية واضحة جلية بالاقتصار على نص الوثيقة بل ينبغي استخلاصها بجهد ومشقة وتكميل معناها تكميلاً حصيفاً بالاستعانة بالمعلومات الخاصة الأخرى المستخلصة من المصادر السومرية الأخرى، وفي حالة تجريدها من ردائها اللاهوتي نجدها تسجل سلسلة من الحوادث السياسية في تاريخ بلاد سومر ويمكن التحقق من ذلك من سبر هذه الحوادث بالرجوع إلى المصادر السومرية الأخرى المتيسرة.

وهنالك نصوص مسمارية تتحدث عن الأحلاف والمعاهدات من العهد البابلي القديم ومن العهد الكاشي[36]. وفيما يتعلق بالمعاهدات بين بلاد أشور وبلاد بابل من وجهة النظر الأشورية تزودنا بكشف هام للعلاقات السياسية التي انعكست على تنظيم الحدود منذ بداية القرن الخامس عشر حتى بداية القرن الثامن ق.م، وهذا يدلّ على اهتمام أكيد بتاريخ فرضته الضرورات السياسية[37]. أما في العصر الأشوري الحديث فتكون المعلومات المتوافرة عن المعاهدات كثيرة ومفصلة عقدها الملوك الأشوريون مع ملوك وحكام الدول الأجنبية التابعة لهم أو القريبة منهم[38]، ويبدو أنها كانت على نوعين:

النوع الأول - يشمل المعاهدات التي كانت تبرم مع الدول المتكافئة للدولة الأشورية من حيث القوة والمركز.

النوع الثاني - المعاهدات مع الدول والممالك والأقاليم التابعة للنفوذ الأشوري والواقعة ضمن الفلك الأشوري.

وقد عثر على نصوص بعض هذه المعاهدات مثل معاهدة آشور أدنيراري الخامس 754-745ق.م مع ماتع أيلو حاكم مدينة أرفاد ومعاهدة أسرحدون 680-669ق.م مع بعل حاكم مدينة صور ومعاهدة أسرحدون مع رماتايا حاكم إحدى المقاطعات الميدية في إيران[39]، وتكشف هذه المعاهدة عن تاريخ العلاقات السياسية في الدولة الأشورية.

ثانياً - الكتابات النذرية

لعل أقرب ما يمكن تسميته بالتاريخ ما يعرف بالكتابات النذرية المنقوشة على التماثيل والمسلات والمخاريط الطينية والأساطين المنقوشة على التماثيل والمسلات والمخاريط الطينية والأساطين والأوعية وألواح الطين، إلاّ أن الحوادث التاريخية الواردة فيها إنما ذكرت على أنها نتاج عرضي بالنسبة إلى الغرض الأساسي من كتابتها، وذلك هو التماس رضا الآلهة والحظوة لديها، وفوق ذلك فإن مثل هذه النقوش الكتابية إنما تدون في الأغلب حوادث معاصرة ومنفردة ذكرت في غاية

(35) صموئيل نوح كريمر: من ألواح سومر، ص 93.

(36) د. عامر سليمان: موجز تأريخ العراق القديم من كتاب محاضرات في التاريخ القديم. الموصل 1978، ص 176.
ونقرأ عن معاهدة بين الملك الكاشي في بابل وامنحوتب الثالث ينظر:
د. سامي سعيد الأحمد: الاتفاقيات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم، من بحوث المؤتمر العلمي الأول لجمعية المؤرخين والآثاريين في العراق، 22-26 أيلول 1981، ص 8.

(37) ليواوبنهايم: بلاد ما بين النهرين ترجمة سعدي فيضي الرويشدي، بغداد 1981، ص 179.

(38) د. سامي سعيد الأحمد: كتابة التاريخ عند الأشوريين في العصر السرجوني 747-612 ق.م مجلة سومر، المجلد 25، 1969 ص 437.

(39) د. عامر سليمان: مصدر سابق، ص 175-177.

الإيجاز والاختصار ولكن هناك عدداً من تلك الوثائق تروي لنا حوادث وأحوالاً سابقة على زمن كتابتها، فتكشف لنا مثل هذه الوثائق من إدراك لتفصيل الحوادث التاريخية[40]، إضافة إلى أنها تعاصر تقريباً الأحداث التي تسجلها والتي أثبتت على أنها مصدر رئيسي لتاريخ بلاد سومر السياسي[41].

ثالثاً ـ الوثائق الخاصة بالمعابد والقصور

دوّن الموكلون بحفظ الوثائق الخاصة بالمعابد والقصور شتى أنواع الحوادث المبهمة في الحقل السياسي والعسكري والديني ولكن لم يوصلهم إلى كتابة تاريخ منسق مترابط مفهوم، وبما أن الكاتب السومري كان جاهلاً بأسلوب التصميم الشامل المتبع في التاريخ فلم يكن بمقدوره أن يسير في طريقة كتابة التاريخ بمقتضى وجهة النظر الحديثة بمصطلح التاريخ[42].

إن إعادة تشييد المعابد وتجديدها المستمر وفق نفس المخطط ولطبقات كثيرة مع ذكر من قام بذلك من الملوك أو الحكام ما هو إلّا دليل على شعور العراقي القديم بالفكرة الرمزية للتاريخ[43]. ومن أشهر هذه النصوص (نص تومال) الذي يُعدّ من المصادر المهمة لمعرفة عدد من حكام عصر فجر السلالات وأزمان حكم بعضهم بالنسبة للبعض الآخر، وما قاموا به من تجديد للمعبد المسمى (تومال) والذي خصص للآلهة (ننليل) زوجة الإله (أنليل)[44] ويعتبر من أهم المدونات التاريخية المتوفرة حالياً[45]، ونصه[46]:

«اينجي اجيس»، الملك
في هذه المدينة نفسها (أي نفر) شيد بيت «أنليل»
«آجاء» ابن «اينمبراجيس»
جعل «التومال» مبجلا،
جلب «ننليل» إلى «التومال»
لأول مرة تهدم «التومال»
«ميس آينبادا» شيد يورشوشوا» بيت «أنليل»
«ميسكي آجنونا» بن «ميس آينبادا»
جعل «التومال» مبجلاً
جلب «ننليل» إلى «التومال»
للمرة الثانية تهدم «التومال»
«جلجامش» سيد «نومونبوا» بيت «انليل»
«أورلوجال» بن «جلجامش»
جعل «التومال» مبجلاً
جلب «ننليل» إلى «التومال»
للمرة الثالثة، تهدم «التومال
وشيد «نانا»، «المنتزه العظيم» لبيث «ننليل»
«ميسكي آ. ج ـ نانا» بن «نانا»
جعل «التومال» مبجلاً
وجلب «ننليل» إلى «التومال»
للمرة الرابعة تهدم «التومال»
«أورنامو» شيد «أيكور»
«شولجي» بن «أور ـ نامو»
جعل «التومال» مبجلاً
وجلب «ننليل» إلى «التومال»
للمرة الخامسة، تهدم «التومال»
ومن سنة «أمار ـ سين»
حتى (السنة التي كان فيها) «أبي ـ سين» الملك
«ابتاجلانا» لـ (أين «سيد») لـ «الوركاء».
قد انتخب

(40) صموئيل نوح كريمر: من ألواح سومر، ص 91-92.
(41) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ترجمة د. فيصل الوائلي، الكويت 1973، ص 47.
(42) المصدر السابق نفسه، ص 91.
(43) د. فاروق ناصر الراوي، مصدر سابق، ص 273.
(44) وجدت منه نسخة في نفر من العصر البابلي القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) وهو يسجل أسماء الحكام والملوك الذين قاموا بتجديد هذا المعبد. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، بغداد 1973، ص 296.
(45) د. سامي سعيد الأحمد: العراق القديم، الجزء الأول، ص 395.
(46) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ص 63, 65.

وجلبت «ننليل» إلى «التومال»
ووفقاً لكلمة «لو - إينانا»، «أشجاب - جال» «أنليل»
شيد «أشبين - ايرا» «إيكور أجيجال»
مستودع «انليل».

أما حولية معبد أيساكلا[47] فتغطي فترة أربعة قرون تقريباً توالت خلالها مجموعة من السلالات الحاكمة منها سلالة ألشاك وكيش، أكد، أورك ويتضح من خلال هذه الحولية تعاقب سلطة باختفاء الأخرى ويظهر خلالها دور الآلة مردوخ كحاكم وإله قوي يحاسب حاكم هذه السلالة ويعاقب حاكم سلالة أخرى ويمنع الملكية لثالث.. لأنهم أهملوا شعائر معبده الكبير (إيساكلا) في بابل.

رابعاً - الرسائل

ويمكن معرفة الأحداث التاريخية من خلال الرسائل المتبادلة بين الحكام وموظفيهم والتي تكشف عن الدوافع والإغراءات والخصومات والرسائل التي كانت تجري من وراء الستار[48]. فعلى سبيل المثال هنالك رسالة تتعلق بغارة شنها العيلاميون على بلاد سومر دُوّن عليها مرسلها «لوأينا» إلى «أنتارزي» أنه دمّر الأعداء ثم أحصى الغنائم[49] ونصّها[50]:

رسالة من «لوأينا» إلى «انتارزي»

إلى «انتارزي». «سانجا» «ننجرسو»، قل: هذا ما يقوله «لوأينا» «سانجا» (الآلهة) نينهارا».

أن «لوأينا» «السانجا» قاتل 600 عيلامي كانوا يقومون بنقل أتاوة (حرفياً: بضائع منقولة) من الجش إلى «عيلام» لقد دحر العيلاميون و (أسر 520 عيلامياً) كان من بينهم «أور - باو» الرجل الموكل بعبيد الـ (شومنور) (؟). و «نيجلونوتوم» «أوجولا» صناع المعادن - وأنهما موجودان في الـ «أي نيناري».

لقد (استرجع) (؟) «لوأينا» (؟) منهم 5 أواني (؟) من الفضة الخالصة، و20...، وخمس خلل ملكية، و15 جلداً من جلود الأغنام المخصصة للطعام (أي الأغنام التي تربى لتؤكل ولا تربى لغرض صوفها).

ما بقي... إنسي «الجش» حياً وما بقي «ايناتاتوم - سيباد - زي الـ «جريح» حياً فإن... ستجلب إلى «نينار».

وهنالك عدد كبير من الرسائل تعود إلى مختلف العصور مثل العصر البابلي القديم وبالتحديد إلى عهد سلالة بابل الأولى ولزمن حمورابي تكشف لنا عن طبيعة الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك[51].

وكانت أكثرية الرسائل تقارير والتماسات أرسلت إلى الملوك الآشوريين من العصر السرجوني أو إلى بعض أفراد عوائلهم الحاكمة أو أوامر وإجابات مقتضبة أصدرها الملوك أنفسهم أو أولياء العهد إلى موظفي الدولة أو أشخاص ذوي أهمية أو لرؤساء قبائل[52].

وهنالك نوع آخر من الرسائل أرسلت من قبل الملوك الآشوريين أنفسهم إلى الآله أشور. وخير مثال على ذلك رسائل الملك سرجون الثاني 724-705ق.م وتقسم بالتفصيلات الحقيقية للواقعة أو الحملة التي هي موضوع رسالته والصعوبات التي يلاقيها، وتمت كتابتها من أجل الاحتفاظ بها للعصور التالية ولتخليد الملك الذي دونت في زمنه[53]، وكان هذا النوع من الرسائل نادراً[54].

---

(47) د. خليل سعيد: مصدر سابق، ص 245-246.
(48) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ص 48-49.
(49) دولابورت، ل، بلاد ما بين النهرين، تعريف مارون الخوري، بيروت 1971، ص 233.
(50) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ص 478-479.
(51) د. سامي سعيد الأحمد: العراق القديم، الجزء الثاني، بغداد 1983، ص 201-205.
(52) د. سامي سعيد الأحمد: كتابة التاريخ عند الأشوريين، ص 46.
(53) المصدر السابق نفسه، ص 46.
(54) جورج كونتينو: الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، بغداد 1979، ص 354.

خامساً ـ نصوص الفأل والتنبؤ Omen Texts

ويرد فيها إشارات تاريخية مهمة إذ يذكر المتأخر منها الثورات الداخلية والخارجية التي قامت في أواخر حكم سرجون الأكدي[55]. ويسجل فأل خاص بخسوف القمر في الرابع عشر من شهر (تموز) البابلي واقترانه بنشوب ثورة على الكوتيين وسقوطهم، وهذه أول ثورة تموزية في تأريخ العالم[56]، إذ نقرأ ما نصه «إذا كسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز فهو نذير للملك الكوتي: سوف يسقط الكوتيون في المعركة وتتحرر البلاد»[57] ولقد كان انتصار السومريون على الكوتيين وتحرير البلاد منهم حدثاً عظيماً بالنسبة للسومريين أنفسهم حتى أنهم أرّخوا به الحوادث[58].

وبشكل عام وفّرت لنا نصوص هذا النوع مادة تاريخية خالصة وخاصة فيما يتعلق بسقوط ملك أو ارتقاء آخر العرش وما يحققه من انتصارات[59] وقد عثر على نماذج متنوعة منها تعود للعصر البابلي القديم[60].

سادساً ـ جداول إثبات الملوك

تم العثور خلال الحفريات التي تمت في العراق القديم على عدد من جداول إثباتات الملوك ومن فترات زمنية مختلفة وحسب تسلسلها.

1 ـ إثبات الملوك السومرية[60] Sumeria King-list

واحدة من أثمن الوثائق السومرية التاريخية تسجل أسماء أغلب ملوك بلاد سومر ومدد حكمهم ابتداءً من الفترة التي كانت بالنسبة للسومريين بداية التاريخ[61] وهي مطولة ومفصلة شملت الملوك الذين حكموا البلاد في عهد ما قبل الطوفان ثم السلالات التي حكمت من بعد ذلك الحدث إلى الزمن الذي جمعت فيه تلك الاثبات، ووجدت منها جملة نسخ آخرها النسخة التي دونت في عهد سلالة آيسن 2017-1794ق.م حيث تنتهي حكم هذه السلالة[62]، أما زمن أول جمع لها فيرجّح أنه دوّن في عهد سلالة أور الثالثة 2112-2004ق.م[63]، ورتب ذلك الإثبات بقسمين رئيسيين[64]:

(أ) سلالات حكمت قبل الطوفان في خمس مدن مجموع ملوكها ثمانية ملوك ومجموع سنين حكمهم (241000) عام.

(ب) وبعد الطوفان هبطت الملوكية من السماء وحلّت في مدينة (كيش) فتعدد أسماء ملوكها وسني حكم كل منهم ثم يعقب ذلك عشرون سلالة، عدد ملوكها نحو (140) ملكاً إلى آخر ملوك سلالة (آيسن).

2 ـ إثبات الملوك البابلية[65] The Babylonian king-list

نظم الكتبة البابليون في العهود القديمة والوسيطة من تاريخ بلاد بابل جملة إثباتات بأسماء السلالات البابلية الحاكمة، ووجدت منها عدة نماذج، بعضها على هيئة أجزاء غير كاملة، منها:

(أ) ثبت الملوك البابلي ـ أ: حيث وصلت آخر نسخة منه من العهد البابلي الأخير (القرن السادس ق.م) ويتضمن أسماء السلالات البابلية الحاكمة من سلالة بابل الأولى

---

(55) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، الجزء الأول، ص 362.

(56) المصدر السابق نفسه، ص 360.

(57) د. فاضل عبدالواحد: على أقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ، مجلة سومر المجلد 30، 1974، ص 47.

(58) المصدر السابق نفسه، ص 56.

(59) د. فاروق ناصر الراوي: مصدر سابق، ص 275-276.

(60) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، الجزء الأول، ص 443.

(61) للمزيد من التوسع ينظر:

Rowton, M.B. «The Date of the Sumerian Studies, King-list» in journal Near East studies, 1960, p. 156 FF.

(62) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ص 48.

(63) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، ص 145.

(64) د. فاضل عبدالواحد علي: الطوفان، بغداد 1975، ص 18-19.

(65) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، ص 146.

1894-1595ق. م إلى عهد الحاكم الأشوري في بابل المسمى قندلانو 627ق. م.

(ب) ثبت الملوك البابلي ـ ب: إذ يكمل معظم النواقص الموجودة في ثبت الملوك البابلي ـ أ، ويتضمن أسماء ملوك سلالة بابل الأولى وملوك السلالة المنسماة «سلالة القطر البحري» ولكنه غفل من أرقام السنين الخاصة بحكم الملوك.

(ج) ثبت الملوك البابلي ـ ج: لم يبقَ منه سوى أسماء سبعة ملوك من سلالة بابل الرابعة.

3 ـ جداول إثبات الملوك الأشورية The Assyrian king-list

خلف الكتبة الأشوريون جملة جداول أو إثباتات بأسماء ملوك بلاد أشور منذ أقدم أزمان تاريخهم ومن هذه الإثباتات:

(أ) ثبت خرسباد[66]

يعتبر وثيقة تاريخية مهمة بالنسبة إلى التأريخ الأشوري بوجه خاص وتأريخ العراق القديم بوجه عام، إذ وجد ثبتاً مطولاً وكاملاً يتضمن ملوك بلاد أشور من حكم الملك شمش أدد الأول 1813-1781 ق. م وينتهي بحكم الملك الأشوري أشور نيراري الخامس 753-746ق. م ويتضمن حكم 69 ملكاً.

(ب) إثبات الملوك المتعاصرين Synchronistic king-lists

طور الكتبة الأشوريون أسلوب تدوين جداول الملوك والسلالات إلى ما يعرف لدى الباحثين بمصطلح التاريخ التعاصري Synchronistic History وهو عبارة عن موجز العلاقات السياسية[67] وقد اشتقت هذه الاسم من حقيقة أن الوثيقة تذكر كأساس لإقرار السلام موجزاً لتاريخ المنازعات على الحدود بين القوتين الأشورية والبابلية[68] إذ رتب في لوح طيني بعمودين من الكتابة أحدهما بجانب الآخر يذكر العمود الأول (82) ملكاً أشوريا ابتداءً من الملك الأشوري (ايرشم) ابن الملك (أيلوشوما) مطلع الألف الثاني ق. م وينتهي بالملك أشوربانيبال 668-627ق. م، ويذكر في العمود الثاني (98) ملكاً من الملوك البابليين المعاصرين للملوك الأشوريين ابتداءً من الملك الثاني من ملوك سلالة بابل الأولى (سوموائيل) وينتهي بحكم الملك (قندلانو)[69].

سابعاً ـ التأريخ بالحوادث المشهورة Date Formulae

ويتم التدوين بها بحسب سني حكم الملوك وجاء من هذه الاثباتات نماذج كثيرة من العهد البابلي القديم، فقد اشتق اسم لكل سنة من حادثة وقعت في السنة التي سبقتها[70] منها قوائم الحوادث المؤرخ بها، الخاصة بحكم ملك واحد، وبعضها جداول بالسنين المؤرخ بها الخاصة بحكم سلالة خاصة من الملوك، ولها قدر كبير من الأهمية حيث سجلت تسلسل ملوك السلالات، والحوادث المتخذة للتأريخ ذات أهمية خاصة في معرفة تأريخ العصر، ففيها حملات الملوك الحربية وفتوحهم الخارجية وعلاقاتهم مع غيرهم من الملوك والحكام إضافة إلى أعمالهم العمرانية[71]. واتبع هذا الأسلوب منذ أقدم الأزمان وحتى العصر الكاشي.

ثامناً ـ طريقة (اللمو) الأشورية Limmu

وهي مجموعة من الوثائق ذات الأهمية في تثبيت تسلسل التاريخ الأشوري ففي بداية عهد كل ملك، كان الملك يرعى احتفال عيد رأس السنة في العاصمة، أما في السنوات التالية فكان الاحتفال برعاية كبار الموظفين الملكيين بالتعاقب[72] إلى أن ينتهي حكم الملك فيبدأون بدورة جديدة

(66) Poebel, «The AssyrianKing-list from Khorsabad»in Journal Near East studies, 1942, p. 247 FF; 1943, p. 56 FF.

(67) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، الجزء الأول، ص 147.

(68) هاري ساكز: عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان، الموصل 1979، ص 110.

(69) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد، مصدر سابق، ص 22.

(70) ليواوبنهايم: مصدر سابق، ص 178.

(71) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، الجزء الأول، ص 443.

(72) هاري ساكز: مصدر سابق، ص 110.

تخصص لعهد الملك الذي يخلفه وهكذا، وعلى هذا تكون الفترة الزمنية بين تولي ملك ما وظيفة (اللمو) وتولي خليفته لهذه الوظيفة المدة التي استغرقها حكم الملك الأول، وخلف الكتبة الأشوريون إثباتاً مطولاً باللمو وهي إثبات متممة لإثبات الملوك والسلالات الحاكمة، وكانت مصدراً أساسياً لأولئك الكتبة في تنظيم إثبات الملوك[73] ولم يقتصر جامعو إثبات (اللمو) على مجرد تعداد سنيّ حكم الملوك بل كانوا يذكرون في كثير من الأحايين بعض الحوادث المهمة التي تقع في أثناء سنة (اللمو)[74].

تاسعاً ـ الحوليات Annals

اتبع النظام الحولي من قبل الكتبة الأشوريين في تدوين أخبار ملوكهم ولاسيما الحربية منها[75]، حيث تسجل الوقائع البارزة حسب التسلسل الزمني التاريخي[76]، وتذكر الحوادث عاماً بعد عام عند تدوين أخبار الملوك والتي تبقى إحدى أبرز الشواهد على اضطلاع العراقيين بمعرفة التاريخ وتدوينه، وقد بلغ مرحلة نضجة خلال العصر الأشوري الحديث من خلال ما خلفوه من نصوص مطولة تخص أعمالهم العمرانية والحربية[77].

وألف الكتبة البابليون تواريخ ومدونات من الماضي ضمن أشهر الأحداث التاريخية لبلاد بابل وأشور منذ القرن الثامن ق.م إلى حكم الملك السلوقي (سلوقس الثالث) 225-223ق.م اتبع في رواية الحوادث الطريقة الحولية[78].

عاشراً ـ كتاب بيروسس Berossus

ألّف بيروسس[79] باليونانية كتاباً ضمنه تاريخ بلاد بابل منذ الخليقة وحتى حكم الاسكندر وعنونه بعنوان بلاد بابل Babyloniaca أو بلاد كلديا Chaldaica وقصد من ذلك أن يقدم إلى اليونان تاريخ بلاد العريق في القدم[80] وذلك في عام 275ق.م.[81] زمن الملك السلوقي (أنطيوخس الأول) 279-211ق.م. ومما يؤسف له الكثيرين من اليونان والرومان من أمثال الاسكندر بوليهن القرن الأول ق.م. ويوسييوس 265-340ق.م وسنكليوس القرن الثامن الميلادي والمؤرخ اليهودي جوزيفس 37-100 ميلادية[82].



(73) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، الجزء الأول، ص 144.

(74) المصدر السابق نفسه، ص 144.

(75) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد: مصدر سابق، ص 23.

(76) دولابورت، ل: مصدر سابق ص 350، وجورج كونتينو، مصدر سابق، ص 354.

(77) د. فاروق ناصر الراوي: مصدر سابق، ص 277.

(78) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد: مصدر سابق، ص 23.

(79) بيروسس أحد كهنة مدينة بابل، ويحتمل أنه كان كبير آلهتها (مردوخ) في القرن الثالث ق. م وقد اقتصرت معرفتنا به على المصادر الكلاسيكية ولا يعرف بالضبط اسمه البابلي ولعله (بروعوثا أو بروخوشا) قد عاش فترة من الزمن في بلاد اليونان في جزيرة كوس Cos وأسس فيها مدرسة للتعليم، ويروى نقلاً عنه أنه عاصر الاسكندر الكبير. ينظر: طه باقر، ملحمة جلجامش، ص 209.

(80) طه باقر: ملحمة جلجامش، ص 209.

(81) فراس السواح: مصدر سابق، ص 142.

(82) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد: مصدر سابق، ص 24.

مصادر البحث

أ ـ المصادر العربية

(1) أبو الفتوح رضوان: التاريخ وفكرة التفاهم العالمي، القاهرة 1954.

(2) د. أحمد محمد صبحي: في فلسفة التاريخ، الاسكندرية 1975.

(3) جورج كونتينو: الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبدالتكريتي، بغداد 1979.

(4) جوزف هورس: قيمة التاريخ، ترجمة نسيب وهبة الخازن، بيروت 1964.

(5) د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، مصر 1967.

(6) د. خليل سعيد: معالم من حضارة وادي الرافدين، الدار البيضاء 1984.

(7) دولابورت، ل: بلاد ما بين النهرين، تعريف مارون الخوري، بيروت 1971.

(8) د. سامي سعيد الأحمد: كتابة التاريخ عند الأشوريين في العصر السرجوني 747-612ق. م، مجلة سومر، مجلد 25 ,1969، ص 45-79.

(9) د. سامي سعيد الأحمد: العراق القديم، الجزء الأول، بغداد 1978.

(10) د. سامي سعيد الأحمد: الاتفاقيات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم، من بحوث المؤتمر العلمي الأول لجمعية المؤرخين والأثاريين في العراق 22-26 أيلول 1981.

(11) د. سامي سعيد الأحمد: العراق القديم، الجزء الثاني، بغداد 1983.

(12) شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القاهرة 1349.

(13) صموئيل نوح كريمر: السومريون، ترجمة د. فيصل الوائلي، الكويت 1973.

(14) صموئيل نوح كريمر: من ألواح سومر ترجمة طه باقر، مصر 1957.

(15) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد.

(16) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، بغداد 1973.

(17) طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد 1976.

(18) طه باقر: ملحمة جلجامش، بغداد 1980.

(19) طه باقر: من تراثنا اللغوي القديم، بغداد 1980.

(20) طه باقر ود. عبدالعزيز حميد: طرق البحث العلمي في التأريخ والأثار، الموصل 1980.

(21) عامر سليمان: موجز تأريخ العراق القديم من كتاب محاضرات في التاريخ القديم، الموصل 1978.

(22) عبدالرحمن بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، القاهرة 1957.

(23) عبدالعزيز الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت 1960.

(24) د. فاروق ناصر الراوي: العلوم والمعارف من كتاب حضارة العراق، الجزء الثاني، بغداد 1985.

(25) د. فاضل عبدالواحد علي: أقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ، مجلة سومر المجلد 30، 1974، ص 47-57.

(26) د. فاضل عبدالواحد علي: الطوفان، بغداد 1975.

(27) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، بيروت 1981.

(28) فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، بغداد 1963.

(29) قسطنطين زريق: نحن والتأريخ، بيروت 1959.

(30) لانجوا وسنيوبوس: النقد التاريخي، ترجمة عبدالرحمن بدوي، القاهرة 1963.

(31) ليواوبنهايم: بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي الرويشدي بغداد 1981.

(32) مارو، هـ. أ: من المعرفة التاريخية، ترجمة جمال بدران، القاهرة 1971.

(33) هاري ماكز: عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان، الموصل 1979.

(34) هنري جونسون: تدريس التاريخ، ترجمة وتقديم أبو الفتوح رضوان، القاهرة 1965.

(35) هرنشو، ف: علم التاريخ، ترجمة وتعليق عبدالحميد العبادي، القاهرة 1937.

ب ـ المصادر الأجنبية

1 - Oman, Chr. «On the Writing of History», London, 1939.

2 - Poeble, J. «The Assyrian king-list From khorsabad» in Journal Near East studies, 1942. pp. 247-306.

3 - ———— «The Assyrian king-list From khorsabad» in Journal Near East studies, 1943. pp. 56-90.

4 - Rowton, W.B. «The Date of Sumerian king-list» in Journal Near East studies, 1960. pp. 156-162.

5 - Will and Ariel Durant, «The Lessons of History», New York, 1968.

تكريت
من خلال المصادر الأثرية

د. جابر خليل ابراهيم

كلية التربية ـ جامعة الموصل

مقدمة

يهدف البحث إلى توضيح الخصائص الجغرافية التي تميّز بها موقع تكريت وأثرها في سير الأحداث التي مرّت بها هذه المدينة عبر العصور، معتمدين على الدلائل الأثرية التي وفرتها الأعمال الميدانية من مسوحات وتنقيبات، والنصوص المسمارية والمصادر التاريخية.

وسنتناول المواضيع التالية:

1 ـ التسمية
2 ـ التنقيب في المدينة
3 ـ التاريخ
4 ـ وصف المدينة الأثرية
5 ـ موقع المدينة الجغرافي
6 ـ الأهمية السوقية.

1 ـ التسمية

ذكرت تكريت في النصوص المسمارية التي يرتقي زمنها إلى العصرين الأشوري والكلدي وكتبت بالطريقة المقطعية: تك ـ ري ـ اي ـ تا (تكريتا). فالرقم الطينية الثلاث[1] التي اكتشفت خلال التنقيبات التي أجرتها دائرة الآثار والتراث في القسم الجنوبي من مدينة أشور (قلعة شرقاط حالياً) في مواسم 1980/1979 تمثل ثلاثة عقود بيع جرت بين أشخاص من تكريت (تكريتا) وآخرين من سكان مدينة أشور تعود أزمنتها ما بين 648-162 ق.م.

كما ورد اسم تكريت في الحملة التي قادها الملك الكلدي نبوبلاصر للهجوم على مدينة أشور عام 615 ق.م[2]، وكذلك في النص الذي يعود للملك نبوخذنصر الثاني (604-562 ق.م)[3]. وقد ذكرت هذه المدينة في المصادر السريانية بصيغة «تجريت»[4]. ووردت في المصادر العربية بهيئة «تكريت»[5]. وبقيت تسمية تكريت وأسلوب لفظها من بين الرواسب اللغوية التي يمكن ملاحظتها في اللهجات الدارجة والتي تبين الارتباط بالتراث اللغوي[6].

---

(1) هذه الرقم الطينية الثلاث هي من بين نصوص غير منشورة أطلعني عليها مشكوراً الدكتور علي ياسين أحمد الذي يعد دراسة عنها الآن وقد وضع عليها الأرقام التالية: 16, 15,4 قبل أن يثبت المتحف العراقي عليها الأرقام بشكل نهائي.

(2) Luckenbill, D. «*Ancient Records of Assyria and Babylonia*» Chicago, 1926, Vol. 2, P. 128.

(3) طه باقر، «من تراثنا اللغوي القديم» بغداد 1980، ص 170.
بشير فرنسيس وكوركيس عواد، «نبذة تاريخية في أصول أسماء الأمكنة القديمة» سومر م 8، جـ 2، 1952، ص 258.

(4) بولس بهنام، «تكريت في التاريخ» مجلة المشرق، العدد الأول، حزيران 1946، ص 36، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد الخامس، ص 435.

(5) تلفظ وفق ما جاء في بعض المعاجم اللغوية بكسر التاء أو فتحه. انظر: الزبيدي «تاج العروس»، جـ 1، ص 532، الفيروزآبادي «القاموس المحيط»، جـ 1، ص 155، ابن منظور «لسان العرب»، جـ 2، ص 78. وذكر أبو عبيدالله البكري أنها بفتح التاء وسكون الكاف وكسر الراء «معجم ما استعجم» جـ 1، ص 317. إلّا أن ياقوت قال انها بفتح التاء لكن العامة يكسرونها «معجم البلدان» جـ 3، ص 399.

(6) انظر حول ذلك، د. عامر سليمان «التراث اللغوي» في حضارة العراق، ، جـ 1، بغداد 1985، ص 317.

أما معنى تكريت الوارد في النصوص المسمارية فما زالت الدقة العلمية فيها بحاجة إلى أدلة لغوية لتوضيحها على الرغم من المحاولات التي جرت لتفسير هذه التسمية. فقيل إنها تعني «المتجر» لاشتهار أهلها بالتجارة(7)، كما قيل إنها كلمة رومانية مأخوذة من الكلمتين اللاتينيتين Meonia Tigrides التي تعني قلعة دجلة(8). وذكرت المصادر العربية أن المدينة سميت باسم فتاة عربية تدعى تكريت بنت وائل التي استوطنت قبيلتها قلعة تكريت ومن ثم الربض المحيط بها(9).

2 ـ التنقيب

قد يكون التعاقب السكني في تكريت الذي استمر منذ فترات طويلة عاملاً عرَّض الأطلال الأثرية فيها إلى الحفر غير المشروع. وقد لازم هذا التعاقب توسع في احيائها السكنية الخاضعة لتخطيطات حفرية. وعلى الرغم من أن هذا التوسع كان حاجة طبيعية للمدينة بسبب الزيادة السكانية فيها إلّا أنه أضرَّ بالمباني الأثرية الشاخصة وبالمخلفات الحضارية التي تبطنها أراضيها. وكان لعامل البحث عن التحف الثمينة المدفونة في تلك الأطلال واستخراج مواد البناء لإعادة استخدامها في المباني الجديدة، أثر كبير في طمس معالم تراث هذه المدينة.

ويذكر جراح المقيمية البريطانية في بغداد الدكتور روس Ross الذي مرَّ بمدينة تكريت عام 1836 و1837 م وهو في طريقه نحو الحضر، إنه شاهد آنيتين فخاريتين كبيرتين، إحداهما خالية من الزخرفة والأخرى التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، عليها نقوش تمثل أشكالاً آدمية متصلة ببعضها بشريط مجدول معمولة بالطريقة المعروفة بالباريوتين، وقد أشار Ross إلى أنهما اكتشفتا في الخندق الذي حفره سكان تكريت حول قصبة مدينتهم تحسباً من غزوٍ كان يبيته صفوك شيخ البدو (قبيلة شمر) على المدينة في السنة ذاتها. وقد حاول Ross الحصول على هذين الأثرين إلّا أنه لم يفلح. كما أشار الجراح المذكور إلى وجود أربعة كسر من طابوق عليها كتابات منقوشة بشكل بارز بنيت في جدار بيت ذلك الرجل الذي يمتلك الجرتين الفخاريتين(10).

وكان من نتائج الحفريات المستمرة في الأكمات الأثرية في هذه المدينة، اكتشاف مسكوكات معدنية وقطع خشبية وألواح عليها كتابات(11)، وصل الكثير منها إلى المتاحف الأجنبية. ففي متحف بناكي بأثينا يوجد باب كامل وقطع أخرى من أبواب ومنابر خشبية عليها زخارف نباتية وهندسية نفذت بأسلوب دقيق وبمهارة فنية عالية، ينسبها المختصون إلى نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وأنها كانت من صناعات مدينة تكريت(12). وفي متحف المتروبوليتان في نيويورك تعرض قطع خشبية مصدرها تكريت أيضاً وهي متشابهة من حيث الأسلوب الفني مع قطع متحف بناكي(13).

ومازال المسنون من سكان تكريت يروون قصة ذلك الرجل الغريب الذي قدم مدينتهم في أوائل هذا القرن وعمل حفريات في أماكن مختلفة في المدينة وفي تل هاطره (هاطري)(14) الذي يبعد ثمانية كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من تكريت. ولم يُعرف شيء عن ذلك الرجل ولا عن مصير الآثار التي اكتشفها.

وأول حفريات أجرتها الآثار في تكريت كانت في سنة 1936 بعد أن مسحت بعثتها الآثارية هناك سور المدينة وقلعتها. وكشفت هذه الحفريات التي أجريت في أماكن مختلفة مابين قصبتها آنذاك وسورها القديم عن وحدات سكنية

---

(7) انظر الهامش رقم (4).

(8) وعبد الرزاق الحسني، «العراق قديماً وحديثاً»، ص 110.
Fiey, J. «Tagrit» *Lorient Syrien*, Vol. 108, 1963, P. 293.

(9) ياقوت الحموي، معجم البلدان، قاهرة، 1906، جـ2، ص 399.

(10) Ross, J. «Notes on two Journeys from Baghdad to the ruins lf Al-Hadhr in Mesopotamia in 1836 and 1837». The *Royal of the Geographical Society of London*, Vol. 9, 183, PP. 448-449.

(11) توما ماروثا حكيم، «آثار قديمة في تكريت، لغة العرب م 3، 1913، ص 42.

(12) د. زكي محمد حسن، «اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية»، قاهرة 1957، الأشكال 273-279، ص 88-89.

(13) ديماند، «الفنون الإسلامية»، ترجمة أحمد محمد عيسى، قاهرة 1958، الطبعة الثانية، ص 115-118.

(14) «معجم البلدان»، جـ8، مصر 1906، ص 440.

متجاورة لعدة طبقات بنائية متعاقبة تعود جميعها إلى العصر الإسلامي. وكانت أكثر المخلفات البنائية المستظهرة وضوحاً هي المساكن المشيدة من الحصى والجص والممتدة على طرفي شارع عريض يمثل حياً سكنياً لأصحاب المهن من النساجين والخزافين[15].

وكان للتوسع الحاصل في قصبتها وبشكل خاص في جهتيها الشمالية والغربية ان تعرضت أقسام مهمة من الاطلال الأثرية وسورها القديم إلى نبش واسع النطاق. وأكثر التجاوزات تدميراً هو إزالة القسم الغربي من سور المدينة من قبل الجهة المسؤولة عن تبليط الشارع الموصل ما بين سامراء وبيجي في عام 1956 على الرغم من أن الشارع المذكور لا يتعارض مساره مع هذا القسم من السور إلاّ أنه استفيد من أنقاضه في عمليات التسويات المترابعة. وقد تسببت هذه العملية بمحو معالم البوابة الغربية لهذا السور التي كانت قائمة يومذاك. وقد أدى الزحف العمراني الذي شهدته المدينة في أوائل الستينات من هذا القرن إلى إزالة معالم أجزاء أخرى من السور في تلك الجهة.

وفي عام 1964 قامت دائرة الآثار بحفريات واسعة في عمارة الأربعين الكائنة إلى الغرب من قصبة تكريت وكشفت مرافق بنائية لغرفٍ وقاعاتٍ ومسجدٍ للصلاة تحيط بفناء مربع. وقد وفّرت الدلائل الأثرية أن بناية الأربعين التي تعود إلى القرن الخامس الهجري تمثل أقدم نموذج لمدرسة دينية اسلامية في العالم[17].

وشملت التنقيبات التي أجريت في تكريت في أيلول من عام 1969 موقعين أثريين هما تل محيسن (مزارة محيسن) ومساحة من القسم الغربي من سور المدينة، كانا من بين لأماكن التي زحف إليها العمران الحديث، فاقتطع أقساماً من الموقع الأول، أصبحت عدداً من الدور السكنية ملاصقة أو على مسافة قصيرة من السور المذكور.

وأظهرت الحفريات بناية في تل محيسن تعود إلى فترتين أقدمها القرن الثالث الهجري حسبما تشير المواد الأثرية من قطع الخشب المزخرفة ومواد خزفية، وتعود الطبقة الأحدث إلى العهد الأتابكي الذي نمت وازدهرت فيه تكريت. أما مخطط هذه البناية وبقايا عمارتها من مسجد القسم القبلي منها وقاعة مستطيلة وميضأة وعدد من الغرف الصغيرة في قسمها الشمالي فقد يوحي بأنها مدرسة إسلامية أيضاً، ويحتمل أنها كانت معاصرة لفترة الأربعين[18]. وعثر في طبقات هذه البناية على مواد فخارية، البعض منها مزججة بألوان جميلة والأخرى ساذجة وكلا النوعين لهما شبه واضح بمثيلات كشفتها حفريات زره وهرتزفلد في سامراء في أوائل هذا القرن[19].

أما سور تكريت فقد كشفت الحفريات في القسم الغربي منه وعلى امتداد مائتين وثمانين متراً عن تفاصيل الاستحكامات الدفاعية التي احتواها في وجهيه الداخلي والخارجي، والمادة المستخدمة في بنائها. وكان الوجه الخارجي مدعماً بأبراج نصف اسطوانية صغيرة وكبيرة حيث إن كل برجين صغيرين ينحصران بين كل برجين كبيرين. يبلغ قطر الكبير 3,70 متراً ويبرز 5,15 متراً عن مستوى الجدار. أما الصغير فيبلغ قطره 2,90 متراً ويبرز بمقدار 1,95 متراً عن الجدار المذكور. والمسافة بين برج وآخر تتراوح بين 20-22 متراً. (لوح 3).

ويحتوي الوجه الداخلي من السور (وهو الأقدم) على أبراج صغيرة نصف اسطوانية تبرز عن مستوى الجدار بمقدار متر ونصف المتر، بنيت على الأرجح كمساند لتقوية هذا الجدار وشيدت بجانب عدد من هذه الأبراج سلالم يُرقى بواسطتها إلى الأقسام العلوية من السور. وعلى ما يبدو أن من بينها مايعود لأزمنة لاحقة عن فترة البناء. وقد أوضحت التنقيبات أن السور شُيِّد في ثلاث فترات زمنية ويتكوّن من ثلاثة جدران سمكها الكلي أربعة أمتار ونصف، أضيفت عند تآكل

(15) جابر خليل، «تنقيبات الموسم الأول في تل محيسن في تكريت». سومر م 36، سنة 1980، ص 292-293.

(16) المصدر السابق.

(17) د. عبد العزيز حميد، «عمارة الأربعين في تكريت». سومر م 21، 1965، ص 123-156.

(18) جابر خليل، المصدر السابق.

(19) فريدريش زره، «تنقيبات سامراء، ج 2، فخاريات سامراء المزججة، ترجمة د. يحيى علي منصور، مطابع جامعة الموصل 1985.

بعضها لتوفير حماية للمدينة عند تعرضها لهجومات خارجية، (لوح 2,1). والجدار الأول من الداخل هو الأقدم كما أشرنا، بينما يمثل الوجه الخارجي لهذا السور جدارها الثالث الذي هو أحدثها عهداً (لوح 2 ب، 4). وما تبقّى من ارتفاع هذه الجدران يتراوح ما بين ثلاثة أمتار وأربعة حيث تهدمت الأقسام العلوية من السور، حتى أصبحت معرفة تفاصيل التحصينات فيها غير ممكنة. أما المواد المستخدمة في بناء السور والأبراج فهي بين طابوق وحصى وجص ولبن وطين. إلاّ أن الملاحظ أن المواد التي شيد بها الوجه الخارجي (الجدار الأحدث) هي أكثر جودة وأحسن اتقاناً من المواد المستخدمة في بناء الجدارين الآخرين وربما كان ذلك دليلاً على امكانيات المدينة المادية والفنية والبشرية وتوظيفها في إحكام دفاعات المدينة.

ويحيط بالسور من الخارج خندق تشير إليه حفرة جس كانت أبعادها 8,5×2,5 متراً مربعاً، لكن الأدلة غير كافية عن عرض هذا الخندق وعمقه، وهو بدون شك كان أول حلقة من تحصينات مدينة تكريت.

وخلال هذا الموسم التنقيبي أجريت تحريات في إحدى التلال الطولية المحصورة بين سور تكريت والموقع المسمى «دير البنات» الكائن إلى الشمال من قصبة المدينة فكشفت أن كل سلسلة من هذه التلال تحتوي على صف من غرف صغيرة أظهرت التنقيبات غرفتين صغيرتين متجاورتين متشابهتين من حيث التخطيط والمقاسات. وكل واحدة منها ذات مدخل واطىء يؤدي إلى ممر ومن ثم إلى مساحة صغيرة مقباة في كل جهة منها حنية، لاتصلح للسكن إلاّ أن وجود أعداد كبيرة منها بهيئة صفوف متسقة يرجح أنها بنيت لأغراض الرهبنة لاسيما وأن موقع دير البنات قريب منها وربما تكون الصلة بينهما وثيقة[20].

وفي عام 1971 شمل التنقيب أقساماً أخرىٰ من سور المدينة في الجهة الشمالية من تكريت والأراضي المجاورة لها والمحصورة ما بين كتف القائم الكبير وجدار هذا السور. فكشفت عن مساكن ولقىٰ أثرية ثمينة. وفي العام نفسه أجرت الهيئة المكلفة بالعمل في سور تكريت تحريات في المنطقة المسماة بالخسفة (الأرض الهشة) المقابلة لقلعة تكريت من جهة الغرب عبر الخندق المحيط بها، كشفت فيها أعداداً من آنية نحاسية مخزونة في غرفة تعود معظمها إلى فترة قبيل الإسلام[21]. وتوصلت البعثة الأثرية في الموسم المذكور من حفر خنادق اختبارية في تل المبدد الكائن على السفوح الغربية لجبل حمرين وأظهرت جدران من لبن ولقىٰ فخارية تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد.

ولا ينكر ما للأماكن المنقبة في تكريت والوارد ذكرها من أهمية علمية في إلقاء الضوء والكشف عن جوانب تاريخية وحضارية. إلاّ أن الباحث مازال بحاجة إلى مزيد من الدلائل الأثارية الأخرى عند الكتابة عن هذه المدينة عبر عصورها المختلفة مستنبطة من تنقيبات موسعة تجري في قلعتها وفي الأقسام التي كانت مأهولة من قصبتها للوقوف على أقدم طبقات الاستقرار فيها تكمل ما ورد عنها في الكتابات المسمارية والمدونات العربية.

3 ـ التاريخ

إذا تحرينا عن أقدم نشاط للإنسان في تكريت وما حولها نجد أن المنطقة السهلية الخصبة الكائنة إلى الشرق منها كما تبدو كانت ملائمة لقيام تجمع بشري استوطن ضفاف الوديان المنحدرة من جبال حمرين والمنتهية في نهر دجلة منذ العصر الحجري الحديث، حيث كشفت الأعمال الأثارية في المنطقة مستوطنات تعود إلى العصر الحجري الحديث وأوائل العصر

(20) جابر خليل، المصدر السابق، ص 314.

(21) د. عيسى سلمان، سومر م 27، 1971، المقدمة.

وتجدر الإشارة ان في منطقة «الخسفة» أقدم مقبرة تقع إلى الشمال من مدينة تكريت يوم كانت قصبتها حتى عام 1936 لاتشكل مساحتها إلاّ نسبة قليلة من المدينة الأثرية المحاطة بالسور. وهناك مقبرة أخرى كانت بالقرب من البوابة الغربية من سور تكريت تعرف باسم «مقبرة الثبوت»، بالإضافة إلى المقبرة الحالية الكائنة إلى الغرب من المدينة التي فيها اضرحة مثل عمارة الأربعين ومحمد البدر... الخ. ويحتمل أن ترك المقبرة الأقدم واستخدام الأحدث لدفن الموتى قد تزامن مع توسع القطاعات السكنية في هذه المدينة.

انظر حول ذلك جابر خليل، تنقيبات الموسم الأول في تل محيسن في تكريت، سومر م 36، 1980، خارطة مدينة تكريت المنشورة في الصفحة 290.

الحجري المعدني[22] وهي شلفحت[23] والناعور[24] والمبدد[25]. ويعد تل الصوان في جنوب سامراء أبعد ما وصلت إليه حضارة تلك الأطوار في الألف السادس ق.م. وإلى جانب ذلك فإن عدداً من كهوف قائمة في المرتفع الذي يعلو نهر دجلة من جهة الغرب إلى الشمال قليلاً من تكريت، ربما كانت ملاجيء للإنسان في المراحل التي سبقت استقرار الإنسان في القرى بعد اهتدائه إلى الزراعة.

إن موقع تكريت، كما توحي الدلائل الأثرية كان محطةً قائمة على الطرق القديمة أو على مقربة منها والتي سكنها الأقوام منذ عصور ماقبل التاريخ أثناء انتقالها من مناطق المقدمات الجبلية وهضابها في أعالي العراق إلى وسطه وجنوبه حيث إن المواقع الأثرية المشار إليها تبدو أنها ذات علاقة بمستوطنات من الفترة ذاتها كانت قائمة على وادي الثرثار مثل تلول سفره والميمون والصواجع وأم تليل[26]... الخ. وبذلك كانت هذه المواقع تشكل حلقة وسطية لانتقال أقدم ثقافات العصور الحجرية إلى وسط بلاد وادي الرافدين وجنوبها.

أما تاريخ أقدم استيطان لتكريت فلا يمكن البت فيه بشكل نهائي في الوقت الحاضر لعدم إجراء حفريات تصل إلى تربتها البكر، لكن المواطن الأثرية العائدة لفترة ما قبل التدوين والواقعة على الطرق المؤدية اليها قد تعطي دليلاً بشكل غير مباشر على أن موقع تكريت وخصائصه قد استقطب الإنسان للاستقرار فيه منذ عصور مبكرة في القدم. فقد كانت هذه المدينة تشكل حلقة وصل بين المراكز الحضارية التي كان لها شأن في العصور السومرية والأكدية والبابلية القديمة مثل مدينة أشور (قلعة شرقاط) ونوزي (يورغان تبه) ونينوى والمدن الأخرى الواقعة على وادي الثرثار مثل تل عجري وتلول السكريات بالإضافة إلى مدن الفرات مثل هيت وعنه...

وأول ذكر لتكريت جاء في المدونات الخاصة بالملك الأشوري توكولتي ننورتا الثاني[27] (980-884 ق.م) الذي أصبحت هذه المدينة في عهده كما قيل الحد الجنوبي من المملكة الأشورية[28].

وعرفت تكريت أيضاً باسم «برتو» أو «برتل» التي تعني في اللغة الأكدية القلعة المحصنة حيث ورد ذكرها بهذه الصيغة في حملة كل من الملك الأشوري اشورنا صربال الثاني (883-859 ق.م) المتوجهة إلى اقليم زاموا[29] والملك شلمنصر الثالث (858-824 ق.م) الذي فتحها عام 843 ق.م وهو في طريقه إلى ذلك الإقليم. وذكرت مدينة برتو أيضاً في كتابة تعود إلى حوليات الملك تجلاتبليزر الثالث (745-827 ق.م). كما وردت الإشارة إليها في رسالة حاكم مدينة في مقاطعة ببلاآشور تعود للفترة ما بين حكم الملكين الأشوريين سرجون (721-705 ق.م) وأشور بانيبال (668-627 ق.م)[30]. وذكرت «برتو» في التقرير المرسل إلى الملك سرجون الأشوري بشأن الاستعدادات المتخذة لمقاتلة مردوخ بلدان في بلاد بابل والذي جاء فيه أن «طاب

---

(22) Yasin, W. «A note on the Samarra - Halaf Sites in the Tekrit Area» *Sumer,* 24, 1968, PP. 117-119.

(23) شلفحت، مستوطن دائري، يبلغ قطره حوالى خمس وعشرين متراً، ولا يزيد ارتفاعه عن خمسة أمتار، ويلاحظ قلة اللقى السطحية على سفوحه، المؤرخة بعصر حلف وما قبله.

(24) يقع هذا التل على الحافة الشرقية لنهر مندرس قريب من نهر دجلة، بيضوي الشكل، يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار وتميز الكسر الفخارية المنتشرة على سطحه بكثرتها وتنوعها، منها ما يعود إلى سامراء القديم وإلى العصر البابلي القديم.

(25) المبدد يقع في النهاية الشرقية للسهل الخصب الذي يقع قبالة تكريت، دائري قطره ماي قرب من خمس وأربعين متراً، وارتفاعه يتراوح ما بين أربعة وستة أمتار وتعود ملتقطاته إلى عصري حسونه وسامراء.

(26) Ibrahim, J.K. *Pre-Islamic Settlement in Jazirah,* Mosul, 1986, P. 43 45.

(27) طه باقر وفؤاد سفر، **المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة**، الرحلة الثالثة بغداد 1966، ص 26. ومما تجدر الاشارة إليه أننا لم نوفق في الحصول على مصدر بهذا الخصوص.

(28) Roux, G., *«Ancient Iraq»,* London 1964, P. 257.

(29) Levine, L.D., *«Contributions to the historical Geography of the Zagros in New Assyrian Period»,* Michigan, 1974, P. 85.

(30) Ebeling, E. Und Meissner, *«Reallexikon der Assyridogie»* Zweiter band, Leipzig, 1938, P. 32.

شار أشور» المعمار في القصر (الملكي) أصدر أمره إلى فرق العمل التي يشرف عليها أن تذهب إلى مدينة «برتو» لبناء عبّارة هناك إلّا أن فيضان دجلة كما يبين التقرير لم يمكنهم من المباشرة بالعمل. ويبدو أن حاجة الموقف العسكري تطلب بناء جسر هناك لكي يعبر الملك من فوقه[31].

وفي أواخر العصر الآشوري الحديث وبالتحديد من 648-612 ق.م كانت تكريت على درجة عالية من النشاط التجاري، ألقت الضوء عليها ثلاثة نصوص مسمارية اكتشفت في القسم الجنوبي المجاور لإحدى بوابات سور مدينة أشور (قلعة شرقاط). اثنان منها يمثلان عقد بيع جرى بين شخص من مدينة تكريت اسمه (ناديني ابن زماتي اشيش) وشخص آخر من مدينة آشور، ويمثل النص الثالث عقد قرض بين شخصين من هاتين المدينتين[32]، من يشير إلى العلاقة التجارية المزدهرة بين كل من تكريت وآشور.

وخلال فترة الصراع بين الآشوريين والكلديين وبشكل خاص بعد استقلال بابل وانتقالها من دور الدفاع إلى الهجوم بعد أن تولىٰ زعامتها بنوبلاصر في تشرين الثاني عام 626 ق.م، كانت تكريت احدىٰ العقد المهمة التي تنافست على التمركز بأرضها هاتان القوتان. فبعد الهجمات المتكررة التي شنها الكلديون على الآشوريين الذين حققوا فيها بعض الانتصارات العسكرية، تقلصت رقعة الدولة الآشورية حتى أصبح نفوذها السياسي لايعدو أسوار مدنها الرئيسة. فتذكر احدى المدونات المسمارية تفاصيل الأحداث التي وقعت بين هذين الجانبين في تكريت عام 615 ق.م والتي كان من نتائجها تمركز جيشي نبوبلاصر الذي لُقب بالملك الأكدي[33] في قلعة تكريت بعد انسحابه الفاشل من مدينة آشور التي حاصرها لمدة شهرين. إلّا أن الآشوريين بقيادة ملكهم سن شار - أوشكن تعقبوا الكلديين وضربوا الحصار على قلعة تكريت «Birtu» الذين تحصنوا فيها، وحاولوا انتزاع هذا الهدف الستراتيجي، فهم بعد الهجمات التي شنوها عليهم عادوا إلى بلادهم بعد أن عجزوا عن تحقيق أي نصر عسكري[34].

وبعد سقوط الدولة الآشورية هجرت المدن الرئيسة ومنها نينوى وأشور وكالحو وخورسباد وتربيصو وتل الرماح. . . ، ولم تستوطن مرة ثانية إلّا في العصور السابقة للإسلام. ويبدو أن الاستيطان قد قلّ في بلاد آشور بالاستناد إلى نتائج الأعمال الأثارية من المسح والتنقيب[35]. وعلى الرغم من ذلك فقد ورد ذكر تكريت (تكريتو) في نص يعود إلى عهد الملك الكلدي نبوخذنصر[36] (604-562 ق.م). كما ورد الاسم الثاني لتكريت «برتو» في عقد يعود إلى العصر الكلدي (البابلي الحديث)[37] مما يشير إلى استمرار احتفاظ هذه المدينة وقلعتها باسميها وبأداء وظيفتيها العسكرية والتجارية خلال تلك الفترة.

وعلى الرغم من من وقوع العراق (بلاد بابل وآشور) تحت الاحتلال الأخميني الفارسي منذ سقوط بابل عام 539 ق.م، وما أصاب تلك المنطقة من قلة ملحوظة في مستوطناتها، استمرت إلى القرن الأول قبل الميلاد، إلّا أن تكريت كما يبدو كانت محتفظة بدورها التجاري آنذاك كما يشير إلى ذلك عقد ورد ذكره في كتاب ستراسمير[38].

---

(31) Olmstead, A.T. «*History of Assyria*» Chicago, Reprint 1975, P. 253.

(32) الهامش رقم (1).

(33) لقب نبوبلاصر بالملك الأكدي تيمناً بتلك السلالة التي أسسها سرجون الذي اتخذ مدينة «أكد» أو «أكادة» عاصمة لهم.

(34) Luckenbill, D. «*Ancient records of Assyria and Babylonia*» Chicago, 1926, P. 418.

(35) Ibrahim, J.K. «*Pre-Islamic Settlement in Jazirah*», Printed at University of Mosul, 1986, P. 87, 95.

د. جابر خليل ابراهيم «الفخار بين العصر البابلي الحديث (الكلدي) والعصر الإسلامي المنشور في **موسوعة حضارة العراق**، جـ3، ص 48-49، بغداد 1985.

(36) طه باقر، المصدر السابق، هامش (3).

وانظر أيضاً بشير فرنسيس وكوركيس عواد، **سومر** م 9، 1952، ص 258.

(37) *Reallexikon der Assyriologi*، المصدر السابق هامش (30).

(38) المصدر السابق هامش (30).

واستمر الاسم «برتو» يطلق على تكريت حتى أن الجغرافي بطليموس سمّاها «برثه» نسبة إلى التل الضخم الذي تقوم عليه القلعة[39].

وخلال فترة الصراع بين الغرب المتمثل بالرومان والشرق المتمثل بالفرثيين كانت بلاد وادي الرافدين مهددة من قبل الرومان الذين أخذوا بالتوسع نحو الشرق لضمان ولائها لهم، كما حاول الفرثيون استمالة سكان أعالي تلك البلاد للوقوف إلى جانبهم وبشكل خاص بعد أن أصبحت سوريا تابعة للرومان في سنة 64 ق.م. فكان للعرب المنتشرين في المنطقة بين السفوح الجنوبية لجبال طوروس شمالاً والسهل الرسوبي في العراقي جنوباً، والتي أطلقت عليها المدونات القديمة اسم بلاد عربايا (بلاد العرب)، دور كبير في توحيد صفوفهم تحت قيادة منطلقة من قاعدتهم السياسية والعسكرية في مدينة الحضر. حيث كانت تلك الأقسام من بلاد وادي الرافدين موطناً للقبائل العربية التي استقرت بها منذ العصور الأشورية، مثل قبيلة أوتع وسلماني وماساي وأتالي[40]. وكانت تكريت التي تربطها مع الحضر خطوط مواصلات واقعة ضمن نفوذ ملوكها السياسي طيلة فترة ازدهارها[41].

وبعد سقوط الحضر على يد الملك الساساني سابور بن اردشير عام 241 م امتد الخراب إلى عموم أعالي بلاد وادي الرافدين بعد زوال نفوذ العرب السياسي عنها. وحاول الفرس بعد احتلالهم تكريت من زيادة الاستحكامات الدفاعية في قلعتها لتكون نقطة مواجهة للرومان الذين كانت قواتهم مرابطة في سنجار. وقد عيّن سابور بن أردشير عليها مرزباناً لإدارتها وقائداً عسكرياً عليها كما تشير إلى ذلك بعض المصادر العربية[42]. ويبدو أن تكريت قاومت الاحتلال الساساني بعدئذٍ حتى أن سابور الثاني قد فشل في إعادة احتلالها[43]، مما يؤكد على قوة تحصيناتها وشجاعة مقاتليها من القبائل العربية التي استوطنتها بعد أن تركت منازلها في بادية الجزيرة ومنها الأنمار وتغلب وأياد. وتشير الروايات أن الديانة المسيحية دخلت هذه المدينة عن طريق المبشرين النساطرة الذين نشروا تعاليمهم بين سكانها، وأقاموا الكنائس فيها. إلاّ أن دخول أساقفة من المذهب اليعقوبي فيها قد أثر في استمالة البعض من سكانها إلى مذهبهم. فأصبح سكان تكريت ما بين نساطرة ويعاقبة لكن كفة النساطرة كانت الراجحة بعد تدخل الساسانيين في إعادة الكنائس والأديرة إليهم في محاولة لإبعاد اليعاقبة من أنصار الروم عن المنطقة. وعلى الرغم من ذلك كان التحول إلى اليعقوبية في تكريت قد اكتمل في القرن السادس الميلادي واستمرت تحتفظ بكرسي اليعاقبة حتى عام 1155 م[44]، حيث ضمت هذه الأسقفية إلى أسقفية الموصل. وفي حكم الأمبراطور الروماني جستنيان (527-565 م) الحقت تكريت بالإمبراطورية البيزنطية[45].

وعلق الروم آمالهم في أن يصبح موقع تكريت الحصين مصداً مانعاً لتقدم جيوش العرب المسلمين بعد انتصارهم في معركة القادسية عام 16 هـ/637 م حينما أرسلوا الانطاق كما تذكر ذلك المصادر العربية على رأس جيش قوامه 20,000 مقاتل ضم جنوداً من العجم وجنوداً من الروم وفصائل من عرب الجزيرة من قبائل اياد وتغلب والنمر ومن الشهارجة[46]، تحصنوا بقلعتها واحتموا بخندقها وبأسوارها المنيعة. لكن الجيش الإسلامي الذي أرسله الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) بقيادة عبدالله بن المقتم لايتجاوز عدده الخمسة آلاف مجاهد قطعوا المسافة بين المدائن وتكريت بأربعة أيام، وتمكنوا

(39) دائرة المعارف الاسلامية، جـ 5، ص 435، مادة (تكريت).

(40) المصدر السابق، ص 94 هامش (26) Ibrahim وفؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس، بغداد 1974، ص 20.

(41) Lloyd, S. «*Twim Rivers*», Oxford, 1947, P. 141.

(42) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ 2، ص 399، مصر 1906.

(43) Reade, J. «El-Mutabbaq and Umm Rus, *Sumer*, 20, 1964, P. 86.

(44) دائرة المعارف الاسلامية، م 5، ص 435.

(45) المصدر السابق هامش (44).

(46) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ 4، ص 186، مصر، وانظر أيضاً أحمد عادل كمال، فتوح الشرق بعد القادسية، بيروت 1393 هـ 1974 م، ص 120

Rawlinson, *The Sixth great Oriental dynasty*, London 1873, P. 568.

بعد حصار دام أربعين يوماً من تحرير المدينة بعد أن وقف العرب من سكانها مع المسلمين ليلتشذ والذين كانوا مع الأنطاق. وأصبحت تكريت بعد هذا الانتصار قاعدة لجيوش العرب المسلمين المتجهة نحو الموصل والجزيرة عام 16 هـ[47].

وكانت تكريت إحدى المدن المهمة في المنطقة خلال فترة الحكم الأموي والعباسي وأنها كانت كورة تابعة إلى الموصل في إقليم الجزيرة كما يشير إلى ذلك ابن الفقيه الهمذاني[48] وابن حوقل[49] والأزدي، وأصبحت منذ زمن المقدسي واقعة ضمن اقليم العراق الذي يمتد طولاً من البحر إلى السن[50].

وعلى الرغم من تأثر تكريت بالأحداث السياسية التي مرّت بها أيام الأمويين والعباسيين مثل ثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وثورة المختار الثقفي في الكوفة وثورة الخوارج الصفرية، وبمن التجأ إليها من ولاة الموصل يومذاك ومنهم عبدالرحمن بن سعيد، ومحمد بن الأشعث بن قيس وعبدالله بن الحر وشبيب بن يزيد الشيباني زعيم الخوارج الذي قتل عام 77 هـ[51]، ورضوخها إلى حكم ولاة مستقلين حتى استيلاء طغرل بك السلجوقي عليها وعودتها بعد ذلك إلى النفوذ العباسي عام 1190هـ، إلّا أنها كما يبدو تجاوزت الآثار السيئة التي تركتها هذه الحركات السياسية عليها. فيشير المسعودي إلى الحركة الثقافية التي كانت فيها[52]. كما يصفها الرحالة ابن جبير الذي زارها عام 580هـ بأنها «مدينة كبيرة واسعة الأرجاء فسيحة الساحة حافلة بالأسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من بغداد ودجلة منها في جوفها ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعة ويحيط بها سور قد أثر الوهن فيه وهي من المدن العتيقة المذكورة»[53]. ويصف المدينة المذكورة الرحالة ابن بطوطة بوصف لا يختلف عمّا ذكره ابن جبير الذي سبقه بحوالى مائتي سنة[54].

إلّا أن ما أصاب المدن العراقية أصاب تكريت في غزو المغول قبل وصولهم إلى بغداد، حيث يذكر أن على مقربة منها وقعت معركة كبيرة بين جيش العباسيين وجيش المغول. وأصاب هذه المدينة الخراب والاضمحلال بعد أن احتلها تيمورلنك.

4 ـ وصف المدينة الأثرية

بنيت تكريت على مرتفعين كبيرين طوليين، قائمين على كتف صخري ممتد على طول نهر دجلة الذي يجري في أسفلهما، يمثل الأول قلعتها، والثاني قطاعاتها السكنية. ويحيط بهذين القسمين سور يطوقه خندق من الخارج (لوح 1, 5).

فالقلعة بيضوية الشكل تمتد من الشمال إلى الجنوب، طولها 435 م وعرضها 114 م وتعلو نهر دجلة بما يقرب من ستين متراً[55]. ويحيط بها عدا جهة الشرق خندق عميق عرضه سبعة وعشرون متراً[56]، يتصل طرفاه بنهر دجلة حيث كان يملأ بالماء بواسطة نواظم مقامة عند طرفه الشمالي، كانت تفتح في الأوقات التي كانت تتعرض فيها المدينة إلى الحصار، وتصبح القلعة عندها وكأنها جزيرة محاطة بالمياه[57]. ويقوم فوق الحافات العليا للقلعة سور كانت أسسه واضحة في أواخر الستينات من هذا القرن. وفي الطرف الجنوبي الغربي

---

(47) الطبري، المصدر السابق.

(48) ابن الفقيه الهمذاني، «كتاب البلدان»، ليدن 1302، ص 129.

(49) ابن حوقل، «صورة الأرض»، ليدن 1929، ص 208.

(50) المقدسي، «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ليدن 1909، ص 134، الذي انفرد في أن مدينة السن واقعة إلى الغرب من الزاب الأسفل الذي يلتقي عندها بنهر دجلة في حين يذكر معظم الجغرافيين العرب أن هذه المدينة واقعة شرقي الزاب الأسفل عند مصبه في دجلة.

(51) الطبري، «تاريخ الرسل والملوك»، جـ7، ص 635، جـ8، ص 774، ابن الأثير الكامل، جـ2، ص 241 و287 ,400-401، جـ4، ص 400.

(52) «التنبيه والاشراف»، قاهرة 1938، ص 138.

(53) ابن جبير، «رحلة»، ص 211.

(54) ابن بطوطة، «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، جـ1، مصر 1938، ص 148.

(55) Rich, J., *Narrative of residence in Koordistan,* London, Vol. 2, 1836, P. 143.

(56) Fiey, J., «Tagrit» *L'Orient Syrien,* Vol. 3, 1963, P. 292.

(57) Ross, «Notes on two Journeys from Baghdad to the ruins of Al-Hadhr in Mesopotamia, in 1836 and 1837» *Journal of the Royal Geographical Society of London,* Vol.9, 1839, PP. 443-470.

من قاعدة القلعة كانت بوابتها الوحيدة من الخارج، والمؤلفة من مدخل في كل ركن منه برج ذو شكل نصف أسطواني مقام على قاعدة مربعة بنيت بالطابوق والجص[58]، ينفذ بواسطته إلى باحة مربعة الشكل. وإلى الشمال منها مدخل آخر مطابق في مقاساته للمدخل الخارجي (لوح 6)، كان في الأصل متصل بسلم يُرقى بواسطته إلى الأقسام العلوية من القلعة، حيث كانت بقاياه واضحة في عام 1836 م[59]. وبالإضافة إلى البوابة المذكورة هناك نفق أو ممر معقود بالقرب من الركن الجنوبي الشرقي للقلعة يصل ما بين قمتها ونهر دجلة ربما يكون أحد المنافذ السرية فيها. وفي القسم الجنوبي من القلعة كشفت التأثيرات الطبيعية عن مقطع عمودي، تشاهد فيه طبقات بنائية لجدران مشيدة بالحصى والجص ومداميك من حجارة كلسية مكعبة تشبه في شكلها الأحجار المهندمة المستخدمة في أسوار المدن الآشورية ومنها نينوى. ويرجح أن المداميك المكشوفة هي قسم من جدران حجرية مكينة كانت تحيط القلعة من الخارج.

أما تاريخ القلعة فليس هناك من دلائل في الوقت الحاضر تشير إلى تاريخ أقدم طبقاتها البنائية بسبب عدم إجراء تنقيبات آثارية فيها. إلّا أن ذكرها ورد في نصوص مسمارية من العصور الآشورية والكلدية كما أشير إلى ذلك من قبل. ويبدو حسبما توحي إليه المصادر التاريخية أن القلعة المذكورة استمرت مأهولة حتى الفترات المتأخرة من العصور الإسلامية.

ويحيط بالمدينة سور طوله أربعة أميال[60] وقطره لا يزيد عن الميل الواحد تقريباً[61]، يبتدىء من فوق الجرف القائم على نهر دجلة إلى الشمال من قصبتها في منطقة شائكة المسالك تعرف لدى سكانها بالقائم الكبير وينتهي النهر في القسم الجنوبي من هذه المدينة، مكوناً شكلاً هلالياً غير منتظم قد تخلو الأرض التي شيد عليها من الانخفاضات والوديان، ونتج عن ذلك أن مساره أصبح ما بين جدار مستقيم ومنحنٍ ومتكسر (لوح 1 ,5). ويلاحظ من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها دائرة الآثار للقسم الشرقي من تكريت عام 1937، أن ذلك القسم كان مسوراً أيضاً، وتسنده من الخارج أبراج نصف دائرية، وإن المنطقة المنخفضة فيه والمسماة بباب القلعة تشير إلى وجود مدخل في سور المدينة من الجهة الشرقية المطلة على نهر دجلة ربما تهدّم وزالت آثاره.

وكان للسور عددٌ من البوابات تتوزع في الجهات الشمالية والغربية والشرقية والجنوبية منه أشهرها البوابة الغربية المتجهة نحو البادية أو مدن الفرات. وهذه البوابة تتألف من مدخل على كل جانب منه غرفة بينهما ممر مستطيل، أزيلت جدرانها الشاخصة مع أجزاء أخرى من السور لاستخدامها في أعمال الشارع العام الرابط بين مدينتي بغداد والموصل في ربيع عام 1956 م، وكان هذا القسم من سور تكريت خارجاً عن مساره وكان للزحف العمراني الذي شهدته هذه المدينة منذ أوائل الستينات من هذا القرن أثر في تهديم أقسام كبيرة منه.

وقد وفّرت التنقيبات التي أجرتها دائرة الآثار والتراث في الأقسام الشمالية الغربية من السور في عام 1969 والسنوات القليلة اللاحقة معلومات قيّمة عن تفاصيل للاستحكامات الدفاعية التي زود بها هذا السور[62]. ونذكر الملاحظات عنها بقدر ما يسمح لنا موضوع هذا البحث. فالمساحة التي اختيرت كبداية للتنقيب في القسم الشمالي الغربي من السور كان طولها مائتين وثمانين متراً، اسَتظهرت فيها ثلاثة جدران متلاصقة بني الواحد منها بجانب الآخر أقدمها الجدار الأول المواجه للقسم الداخلي للمدينة ويمثل الوجه الخارجي للسور الحالي أحدثها عهداً. ويبلغ سمك الجدران الثلاثة أربعة أمتار ونصف وارتفاعها المتبقي يتراوح بين ثلاثة وأربعة أمتار (لوح 2). ويحتوي الوجه الداخلي (الأقدم) على أبراج صغيرة

(58) جابر خليل، تنقيبات الموسم الأول في تل محيسن في تكريت، سومر م 36، 1980، ص 286, 288.

(59) Ross, P. 248، المصدر السابق.

(60) Young, G., *Iraq Land of two Rivers*, London 1980. P. 97.

وانظر أيضاً بولس بهنام، مجلة المشرق، حزيران 1946، ص 36.

(61) Ross, P. 249، المصدر السابق هامش (49)، وانظر أيضاً، عبد الكريم الألوسي وحسين الكافلي، تكريت في التاريخ والأدب، بغداد 1971، ص 15.

(62) د. عيسى سلمان، سومر م 25، 1969، المقدمة.

شبه دائرية تبرز إلى الداخل بمدار متر ونصف المتر بنيت على ما يرجح كمساند لتقوية هذا الجدار. وشيدت بجانب عدد منها سلالم تؤدي إلى أعلىٰ السور في القسم المواجه للمدينة من الداخل. ويبدو أن هذه السلالم قد شيدت في أزمنة مختلفة بالاستناد إلى الدلائل الأثرية. أما الوجه الخارجي من السور فزوّد بعدد من أبراج كبيرة وأخرىٰ صغيرة ذات أشكال شبه دائرية، قطر الكبير منها عشرة أمتار وخمسة وثلاثون سنتمتراً وبروزه متران وتسعون سنتمتراً. وبنيت هذه الأبراج بشكل رتيب بحيث إن كل برجين كبيرة بينهما برجان صغيران والمسافة بين برج وآخر تتراوح بين عشرين واثنين وعشرين متراً. أما المواد المستخدمة في بناء السور والأبراج فهي من طابوقٍ ولبنٍ وحصى وجص وطين. والملاحظ أن المواد التي شيد بها الوجه الخارجي من السور هي أكثر جودة وأحسن اتقاناً من المواد المستخدمة في بناء الجدارين الآخرين من السور، ربما كان ذلك دليلاً على امكانيات المدينة المادية والفنية والبشرية واستخدامها بالشكل الأفضل لإحكام دفاعات المدينة في أبرز حلقتين منها وهما الخندق والسور[63].

ويستنتج من خلال الإشارات الواردة عن المدينة في المدونات الآشورية والبابلية الحديثة (الكلدية) وفي المصادر العربية ومنها كتب الرحلات أن السور كان قائماً منذ العصور الآشورية، وكان دوره واضحاً في الحصار الذي ضربه الآشوريين على جيش نبوبلاصر الكلدي في قلعة تكريت عام 615 ق.م[64]. وصدَّ هذا السور جيش سابور الثاني الملك الساساني (309-379 م) في حصار تكريت دون أن يحقق أي نجاح. واحتمى بهذا السور القائد الروماني الذي عرف في المصادر العربية باسم «الأنطاق» ليجعل منه مصداً أمام تقدم جيوش العرب المسلمين التي دخلت مدينة تكريت بعد أن طوقتها مدة أربعين يوماً كما أشرنا من قبل. ونقل لنا ابن جبير الذي زار المدينة عام 580 هـ أن سورها قد أثر الوهن فيه[65] ويكرر الرحالة ابن بطوطة المعلومات التي أوردها ابن جبير[66].

وبالإضافة إلى القلعة وسور تكريت هناك أماكن أثرية شاخصة في المدينة وأخرى مندرسة كانت تغطي مساحات كبيرة من المدينة قبل أن يزحف إليها العمران الحديث الذي أضاع الكثير من معالمها. فمن بين الخرائب الأثرية في تكريت الكنيسة الخضراء الواقعة إلى الجهة الجنوبية من المدينة، التي مازالت أقسام من أبراجها قائمة. ويذكر أن المغريان مادوثا المتوفى عام 639 م شيّدها لتكون احدى المراكز الدينية والثقافية في المنطقة. ويشير المسعودي المتوفى عام 345هـ، أنه حضر مناظرات دينية في هذه الكنيسة[67].

وفي الطرف الغربي من مدينة تكريت تقع بناية مربعة بشكلها العام تعرف لدى سكانها بالأربعين، تتألف من غرف وقاعات ومسجد للصلاة، تتوزع حول فناء في الوسط. وأبرز هذه المرافق البنائية غرفتان مربعتان تعلو كلاً منها قبة نصف كروية، تضم الأولى ضريحاً. ويدخل إلى فناء هذه البناية من بوابة واقعة تتوسط ضلعها الشرقي. وتمتاز عمارة الأربعين بعناصرها المعمارية ومنها الأعمدة المندمجة والعقود المنصصة المستخدمة في العمائر الإسلامية المبكرة. فاستخدمت الأولى (الأعمدة المندمجة) في مداخل الغرف والأواوين والقاعات وفي الأقسام الداخلية للغرف المربعة الواقعة في أركان البناية الأربعة. أما العقود المنصصة فإنها أقرب في شكلها إلى الولايات المستخدمة كثيراً في العمارة الإسلامية. أما تاريخ بناية الأربعين فتشير الدلائل المعمارية والتخطيطية إضافة إلى النص الكتابي المؤرخ بسنة هجرية أنها مدرسة دينية من القرن

(63) من خلال حفرة جس مستطيلة الشكل أجريت أمام الوجه الخارجي من السور تبين أن السور المذكور كان محاطاً بخندق عميق لم تتوفر الدلائل بعد عن عرضه. ولا يعرف على وجه التحديد ما إذا كان هذا الخندق هو الذي حفره سكان تكريت في عام 1835 م لزيادة تحصين مدينتهم أمام الهجمات التي كان يبيتها البدو كما أشير إلى ذلك من قبل.

(64) Luckenbill، المصدر السابق هامش (34).

(65) ابن جبير، رحلة، ليدن 1907، ص 233.

(66) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت 1964، ص 234.

(67) المسعودي، التنبيه والاشراف، قاهرة 1938، ص 138.

الخامس الهجري[68].

والبناية الثانية القائمة تعرف عند السكان المحليين باسم «تـل محيسن»، التي سبقت الإشارة إليهـا، تقع في القسم الجنوبي الغربي من قصبة تكريت. وآثارها مختلفة الأبعاد، متباينة الارتفاعات، بسبب تعرضها إلى الهدم والتخريب من جراء الأبنية الحديثة التي اقتطعت أجزاء منها. تضم هذه البناية المشيدة بالحصى والجص والطابوق المستخدم على نطاق محدود، غرفاً وقاعات في الطابق الأرضي، مازالت أقبية القليل منها باقية، من بينها غرفة صغيرة في الركن الجنوبي الغربي منها، وجد على أرضيتها رفات شخص كانت موضوعة في صندوق خشبي عثر على قطع منه تحمل زخارف نباتية نسبت إلى القرن الثالث الهجري. ويشغل القسم الجنوبي في الطابق العلوي من البناية بيت للصلاة، مستطيل الشكل طوله 20,58 م وعرضه 4,60 م، يتكوّن من اسكوب واحد تقطعه ثلاث بلاطات، الوسطية بينها أكثر طولاً من البلاطتين الجانبيتين المربعتين. ويتوسط جدار القبلة في بيت الصلاة محراب نصف دائري.

وفي بناية تل محيسن خصائص تخطيطية وأخرى عمارية يمكن مقارنتها بعمارة الأربعين الوارد ذكرها، ومنها وقوع غرفة الضريح في الركن الجنوبي الغربي في هاتين البنايتين، ووجود مسجد يحتل القسم الجنوبي من العمارتين، وقاعات طولية ومداخل خارجية متجهة إلى الشرق بالإضافة إلى وجود الأعمدة المندمجة في كلتيهما مما يؤهل كون بناية تل محيسن مدرسة دينية أيضاً. وتوحي اللقىٰ الأثرية المكتشفة أثناء التنقيب مثل المواد الفخارية والقطع الخشبية أن البناية كانت قائمة منذ القرن الثالث الهجري[69].

ومن الأبنية الأثرية الشاخصة الأخرى موقع «الخمس أصابع» الكائن إلى الشمال من سور تكريت، الذي يضم سلاسل متسقة من الغرف الصغيرة التي لاتصلح للسكن في الأحوال الاعتيادية. كل غرفة مقباة لها مدخل واطىء، بنيت بالحصى والجص. ولم تتوفر الأدلة الأثرية لتاريخ تلك الغرف بسبب قلة اللقى الفخارية فيها[70].

5 ـ موقع المدينة الجغرافي وأهميته

يتوسط موقع تكريت من الناحية الجغرافية أبرز المراكز الحضارية في بلاد وادي الرافدين مثل نينوى وأشور وكلحو شمالاً وسبار وبابل جنوباً وأربخا (كركوك) ونوزي (يورغان ثبه) شرقاً وخندانو (العنقاء والجابرية) ومدن الفرات الأخرى غرباً. وقد عاصرت هذه المدينة الحضارات التي شهدتها هذه المدن في العصور المختلفة في العراق القديم. وتوسطت تكريت الحواضر العربية التي كان لها شأن في العصور العربية الإسلامية مثل الموصل وسامراء وبغداد الأنبار، حتى المسافة بين تلك الحواضر وتكريت قد ذكرها الجغرافيون العرب فقيل إن تكريت على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد، وإن المسافة من «سرّ من رأى» إلى تكريت كانت مرحلتين[71]، وأنها تتوسط المسافة بين الموصل وبغداد[72]. وكان لموقع هذه المدينة على الطرق الرابطة بين تلك الحواضر من أثر في ازدهارها.

أما بالنسبة إلى موقعها الفلكي فيذكر ياقوت الحموي نقلاً عن كتاب الملحمة المنسوب إلى بطليموس أن «مدينة تكريت طولها ثمانٍ وتسعون درجة وأربعون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون درجة ونصف، تبديل نهارها ثمان عشرة درجة وطول نهارها أربع عشرة ساعة وثلث»[73]. ويشير المسعودي أن الرياح في بغداد تهب من الشمال «مما يلي سرّ من رأىٰ تكريت وبلاد الموصل فتقطع السحاب» ويطلق على الأيام التي تهب فيها هذه الرياح اسم التوارح في حزيران[74].

تقع تكريت على الحافة الشرقية للقسم الجنوبي من بادية

(68) د. عبد العزيز حميد، عمارة الاربعين في تكريت، سومر م 21، 1965، ص 123-155.
(69) جابر خليل، المصدر السابق الهامش (50).
(70) المصدر السابق نفسه، ص 314.
(71) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 229.
(72) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ 1، ص 399.
(73) ياقوت الحموي، المصدر السابق.
(74) المسعودي، التنبيه والاشراف، ليدن 1928، ص 19.

الجزيرة، وتعد منطقتها من الناحية التضاريسية منطقة انتقال بين المقدمات الجبلية ومنطقة السهل الرسوبي. وتربة أراضيها إما كلسية مثل التي في بادية الجزيرة أو كثبان رملية متنقلة خالية من النباتات، وقليلة المياه تكثر في منطقة بيجي إلى الشمال من تكريت. وفيها أراضٍ منبسطة زراعية تتوزع بين سلسلة جبال حمرين ونهر دجلة، وعلى الشواطىء الغربية للنهر المذكور محاذية لمرتفعات «الخرينية» التي تنتهي عند تل ابراح إلى الجنوب من بيجي.

وتمتاز الأراضي الواقعة على جانبي نهر دجلة إلى الشرق من تكريت وجنوبها بانبساطها وانسيابيتها نحو جهة الجنوب، الأمر الذي دفع بالقدماء إلى حفر أنهار فيها تتمون المياه من نهر دجلة، ومنها نهر الاسحاقي الذي حفره الخليفة العباسي المعتصم بالله كما تشير إلى ذلك المصادر العربية لإرواء الأراضي الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة سيحاً، حيث تؤخذ الماء من دجلة في نطقة تقع على نحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب من تكريت، ويروي الأراضي ما بين تكريت وسامراء بما فيها الطيرهان[75]. وينتهي هذا النهر بمنخفض عقرقوف. وتقع على كتفيه تلول أثرية منها تلول جمعان وحويصلات وتل الصخر التي تشير اللقى الأثرية الملتقطة من سفوحها من كسر الفخار أن تلك المواقع كانت مدناً وقرى في العصور العربية الإسلامية. ويستنتج من المدونات المسمارية لحملة الملك الأشوري توكولتي ننورتا الثاني، التي سيمر ذكرها، أن جيشه قطع جداول في منطقة يمكن تحديدها بأطلال مدينة مسكن بالقرب من بلدة الدجيل ربما كانت قنوات لنهر قديم أعاد إحياءه الخليفة المعتصم بالله حينما كان في عاصمته الثانية سامراء.

أما النهر الثاني الذي أحياه الخليفة المتوكل فهو الجعفري الذي تقع بدايته إلى الشمال من تكريت بأربعين كيلومتراً في المنطقة المعروفة عند السكان باسم «نايفة». ويتجه هذا النهر جنوباً بمحاذاة نهر دجلة حتى مدينة المتوكلية الكائنة على مسافة ستين كيلومتراً من صدره ليموّن بالماء بركة القصر الجعفري والسواقي التي على جانبي الشارع الأعظم وجامع أبو دلف بالإضافة إلى إرواء مساحة كبيرة من المزارع والحقول الواقعة إلى اليسار من نهر دجلة. وتذكر المصادر العربية أن البداية في حفر هذا النهر كانت في شهر ذي الحجة سنة مائتين وأربع وخمسين للهجرة واشتغل فيه اثنا عشر ألف عامل، وبلغت كلفته مليون دينار ونصف المليون[76]. وتجدر الإشارة إلى الدلائل الأثرية التي توحي أن عقيف هذا النهر كان موجوداً قبل أن يتولى الخليفة المتوكل إحياءه حيث إن المتارب المستخرجة من قاعه موضوعة على بعد بضعة أمتار من متارب قديمة يحتمل أن الأشوريين أول من حفر هذا النهر[77]، الذين اشتهروا بحفرانها - كثيرة أوصلوها إلى مدنهم وإلى المزارع والحقول.

وإلى جانب هذه الأنهار هناك إشارات أوردها الجغرافيون والمؤرخون العرب لأنهار في المنطقة لا وجود لها في الوقت الحاضر مثل الحشاك والكحيل والمرج والمثقب، ويحتمل أن هؤلاء الكتّاب قصدوا الوديان التي تصب فيها السيول المنحدرة من المرتفعات القريبة منها في مواسم الأمطار حتى يصبح كل منها ما يشبه النهر.

وكان لوجود الأراضي الخصبة في منطقة تكريت التي تسعى من هذه الأنهار سيحاً أثر كبير في زيادة إنتاجها الزراعي، فأصبحت تكريت بفضل ذلك معدن السمسم[78]، وأن البطيخ يزرع فيها ثلاث مرات في السنة وهو من أجود الأنواع[79]. وبلغ خراج تكريت تسع مائة ألف درهم في سنة 273هـ[80]، مما يدل على قوة إنتاج أراضيها والإمكانيات

(75) الطيرهان مقاطعة واقعة إلى الغرب من نهر دجلة بين تكريت وسامراء كانت في بادىء الأمر من أعمال الموصل لكنها أصبحت بعدئذٍ تابعة إلى تكريت. انظر ياقوت الحموي، جـ 8، ص 195 وابن الفقيه، كتاب البلدان، ليدن 1302، ص 131.

(76) د. أحمد سوسه، ري سامراء، جـ 2، ص 317.

(77) سوسه، المصدر السابق.

(78) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن 1904، ص 123.

(79) المصدر السابق.

(80) قدامة بن جعفر، كتاب الخراج، بغداد، ص 250.

البشرية العاملة في مزارعها آنذاك فكثرت قراها واتسعت المدن التابعة لها.

أما البادية الواقعة إلى الغرب منها، التي كانت موطن القبائل العربية مثل أياد وتغلب والنمر وقيس وربيعة التي كانت منازلهم على امتداد وادي الثرثار بين الكحيل وتكريت، فقد توزع أفرادها بين الاستقرار في المدن ومنها تكريت وما بين الاستمرار في التنقل طلباً للكلأ والماء في تلك البادية. فكانت تكريت أهم المراكز الحضرية التي يلتقي بها سكان البادية لبيع نتاجات ثروتهم الحيوانية كالصوف الذي اشتهرت تكريت بصناعته[81]، وسكان القرى الزراعية لبيع غلتهم. ويصور لنا الرحالتان ابن جبير وابن بطوطة الحالة الاجتماعية والاقتصادية لتلك المدينة[82].

وإلى الشمال من تكريت وجنوبها بمسافة يسيرة وديان وشعاب تنحدر نحو الشرق تنتهي عند دجلة، يطلق على الأولى «شعوب رومية» وعلى الثانية «شيشين». وكان لتلك الوديان أثر في تصريف سيول الأمطار عن تكريت. ولأرض مدينة تكريت انحدار عام نحو الشرق يتركز في ثلاثة محاور تنحدر جميعها نحو نهر دجلة. يتكوّن المحور الأول من شعاب تنساب من شمال تكريت وغربها وجنوبها وتلتقي مع بعضها عند «وادي الخر» الذي ينتهي مع المنحدرات الأخرى الآتية من غرب المدينة أيضاً في نهر دجلة بجوار باب القلعة. وكان لهذه المنحدرات أهمية في تصريف مياه الأمطار والمياه الثقيلة في مدينة تكريت.

أما مواد البناء الأولية المستخدمة في مباني تكريت فأهمها الحصى والجص، فالمادة الأولى متوافرة بكميات كبيرة بين الشاطىء الغربي من دجلة والكتف الصخري الذي تقوم فوقه المدينة. ويصنع الجص بنوعية جيدة من تربتها الكلسية في شمال المدينة وغربها. وأصبحت هاتان المادتان صفة مميزة للأبنية بين الزاب الأسفل والحويصلات إلى الشمال من سامراء.

ومنحت هذه الخصائص الجغرافية تكريت قديماً وحديثاً موقعاً هيمن على الطرق البحرية والنهرية المارة عبره (لوح 7، 8). حتى إن معظم هذه الطرق شيد على جانبيها قلاع واستحكامات دفاعية تعود لأزمنة مختلفة ظلت تؤدي دورها في حماية تلك الطرق وفي نشر الأمن والاستقرار في المناطق التي حولها مثل قلعة العشيش القائمة على إحدى روابي جبل حمرين إلى الشرق من تكريت وقلاع أخرى شيدت فوق المرتفعات المحاذية لشاطىء دجلة الغربي إلى الشمال من تكريت مثل الجبرانية ورياش وإبداح والجبار والبنت، بالإضافة إلى المباني المحصنة الأخرى الواقعة على الطريق الممتد مع شاطىء دجلة الشرقي حتى مدينة السن عند ملتقى الزاب الأسفل بنهر دجلة مثل الربيضة وتلول الخان وخان اللقلق.

وكان لموقع تكريت أهمية خاصة من الناحية الطوبوغرافية ساعدت على ازدهارها التجارة المارة عبرها حيث تلتقي عند هذه المحطة الطرق التي تربط شمال العراق بجنوبه في العصور المختلفة، وتربط أيضاً المناطق المتباينة في اقتصادها ومنها البادية بالأراضي الزراعية.

6 ـ الأهمية السوقية

إضافة إلى الموقع الطبيعي الحصين الذي تميزت به مدينة تكريت فقد ازدادت قوتها بالاستحكامات الدفاعية من قلعة عالية وخندق محكم وأسوار مكينة، ومنحدرات طبيعية عزلت وحداتها السكنية، بالإضافة إلى الوديان الممتدة في شمالها وجنوبها مما اكسبت المدينة قوة ومنعة. وكان لسلسلتي حمرين ومكحول من جهتي الشمال والشرق ووادي الثرثار وأرض البادية في الغرب الأثر في جعل منطقة تكريت محمية بمعوقات طبيعية.

وتميزت المنطقة المذكورة بالاكتفاء الذاتي بتأمين غذاء سكانها من الحاصلات الزراعية الواردة من الحقول المروية بقنوات وجداول في سهوله شرقي المدينة وجنوبها والتي تكفي لإعاشة عدد كبير من السكان، ومن الموارد التجارية المعتمدة على النقل النهري.

(81) المصدر السابق.

(82) ابن جبير، المصدر السابق، وابن بطوطة المصدر السابق.

وكان لهذه الخصائص أثرها في جعل مسارات الطرق التجارية والعسكرية المتجهة نحو شمال الطرق وجنوبه تمر عبر المدينة أو بالقرب منها، حتى أصبحت كما يستنتج من النصوص المسمارية والإشارات التاريخية القاعدة الرئيسة للجيوش المتقدمة نحو أعالي العراق أو المنسحبة منه خلال العصور المختلفة.

ومن الأحداث التي لها علاقة بهذا الموضوع والتي يستخلص منها عدم صلاحية مسار وادي الثرثار كطريق للحملات العسكرية، الحملة السادسة للملك الأشوري توكولتي ننورتا الثاني (890-884 ق.م) على بلاد بابل والتي جاء فيها[83]:

«في اليوم السادس والعشرين من شهر نيسان وفي لمو نادي - بلو، تحركت من (مدينة) آشور إلى الصحراء (؟). قضيت الليل. من [هذا المكان وصلت إلى.. وقفت] الليل. مثل..... حفر للحصول على الماء 470 بئراً حفرت. على الأقدام تقدمت قتلتهم. في القوم الثاني بالرغم من أنني وفرت الماء العذب من النهر، استمريت بالتقدم في الصحراء. وعلى جانبي ترتارا (الثرثار) قتلت تسعة ثيران وحشية. وعند نهايات الثرثار تقدمت من خلال خامات h-amat المنطقة المقفرة. في منطقة ماركاني Margani وجدت جداول، وعلى كلا الجانبين (منها) حفر (الجند) آباراً ووجدوا ماءً كافياً لكل النهار والليل. وتقدمت إلى مقتربات دجلة. المستوطنات في بلاد أوتع قبور مدنهم الواقعة على دجلة. احتليت وذبحت سكانها. كميات كبيرة من أسلابهم غنمت، وقضيت الليل في مدينة أسوسي....».

ومما لا شك فيه أن هذه الصعوبات التي واجهت جند الملك توكولتي ننورتا الثاني قد تركت أثرها على قوتهم وأضعفت معنوياتهم، لكن الملك نفسه قد تغلب عليها بتراجعه من وادي الثرثار إلى نهر دجلة في المنطقة الكائنة إلى الجنوب من تكريت حيث المياه العذبة والمؤن اللتان لايمكن الاستعاضة عنها عند الاستعداد للقتال.

وكان الطريق الذي يربط مدينة أشور (قلعة شرقاط) بمدينة سوسه (الشوش) كما كشفت عنه الدراسات الآثارية يحاذي الأقسام الشرقية من جبل حمرين، وتتصل به طرق أخرى ومنها الطريق الذاهب إلى اقليم زاموا[84] في منطقة السليمانية الذي يحاذي نهر العظيم إلى الجنوب من تكريت وطريق آخر ينفذ إلى بلاد بابل[85].

ولكون تكريت إحدى العقد المهمة في الحركة الآشورية العسكرية منها والتجارية لهيمنتها على الطرق المحاذية لجبل حمرين والمسالك الأخرى الممتدة مع طول نهر دجلة ووادي الثرثار كما مرّ بنا ذلك من قبل. وقد أوضحت هذه الأهمية رسالة موجهة إلى سرجون الملك الآشوري (705-681 ق.م) تضمنت أن «نابو - خاماتو» (حاكم مقاطعة أو قائد في الجيش) ذهب مع جيشه إلى (مدينة) ليتامو ومن ثم إلى مدن داكورو... وجاء في الرسالة أيضاً أن العبّارة العائدة إلى «طاب - صل - ايشارا» حاكم مقاطعة أشور موجودة في «باب بتقىٰ وتستخدم من قبل «الأبروكو» (ربما حاكم؟) لجلب الفضة. أما عبّارة حاكم مقاطعة أرانجا (كركوك) فتستخدم في (مدينة) أوبس[86] لنقل الدهن (الزيت) والتبن والعلف. ويقترح (حاكم آشور) أن يتبادلوا الأمكنة وبشكل خاصة بالرجال الذين هم في خدمة حاكم أرانجا الذين يعملون كعبّارين في باب بتقىٰ. وفي الرسالة أيضاً إشارة أن «طاب - شار - آشور» المهندس المعماري كتب من القصر (الملكي) يقول:

«دعهم يعبرون الأنهار، دعهم يذهبون إلى (مدينة) برتو[87]، دعهم يبنون عبارة». وان «أربائيلي» (حامل

(83) Luckenbill, Vol. 1, P. 128، المصدر السابق.

(84) انظر طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد 1986، ص 502.

(85) عن تفاصيل الطريق الذي سلكته حملات الملوك الأشوريين للوصول إلى عيلام ينظر:

Postgate, J.N. «The Historical Geography of the Hamrin Basin, *Sumer*, 40, 1984, P. 150.

(86) عن اوبس وموقعها انظر فؤاد جميل «اوبس... أين تقع» سومر م 23، 1967، ص 157-176.

(87) انظر عن برتو او برتا *Assyrian dictionary*, Chicago, 1965, 261, Birtu, Birtna، والتي تعني القلعة أو القسم المحصن من المدينة.

الرسائل) قد وصل ومعه الأخبار التي تقول أن نهر دجلة فاض حتى لم يكن بمقدوره أن يجلب خيولاً. ويطلب منهم (المهندس) أن يبنوا جسراً هناك (أي في برتو) وينصبوا خياماً في الأرض ذات الكلأ والتي يقترحها «أربائيلي» ليكتمل الجسر حتى يعبر عليه الملك[88].

وقد اتخذت هذه الاستعدادات كما يفهم من الرسالة المذكورة لاستمرار رفد الجيش الآشوري بما تتطلبه المعارك التي خاضها ضد مردوخ بلدان في بلاد بابل. ويبدو أن تكريت كانت احدى الحلقات الآشورية الدائمة الحركة في تلك الحرب.

ولعب موقع تكريت المحصن دوراً مهماً في الأحداث التي وقعت بين الكلديين والآشوريين كان من نتائجه حماية بلاد بابل بعد استقلالها من زحف جيوش الآشوريين ومحاصرتها للجيش الكلدي الذي تحصن في قلعتها. فيذكر النص المؤرخ في سنة 615 ق.م. أن نبوبلاصر الملك الكلدي قاد جيشاً في آذار من السنة المذكورة من بابل، سالكاً الطريق المحاذي لنهر دجلة، وبعدها اتجه نحو أرانجا(كركوك) حيث وقعت هناك معركة بينه وبين الجيش الآشوري، كانت الغلبة فيها لنبوبلاصر، اضطر الجيش بعدها إلى الانسحاب عابراً نهر الزاب الأسفل والعودة إلى مدينتهم آشور للتحصن فيها ويذكر النص:

«في السنة الحادية عشرة جهز الملك الأكدي[89] جيشه. وتقدم مع ضفة (نهر) دجلة. وفي شهر أيار عسكر بالقرب من مدينة آشور. في اليوم.. من (شهر) سيمانو (حزيران) هاجم المدينة، لكنه لم يفلح باحتلالها. فجهز الملك الآشوري جيشه وصدَّ الملك الأكدي عن آشور، وتعقبهم بمحاذاة دجلة حتى مدينة تكريتين. وضرب الملك الآشوري وجيشه حصاراً على الملك الأكدي في تكريتين. وهاجمهم لعدة مرات لكنه لم يفلح باسترداد المدينة. واستطاع جيش الملك الأكدي المحاصر في القلعة أن يوقع خسائر كبيرة بالآشوريين. وتخلى الملك الآشوري وجيشه عن (الهجوم) وعاد إلى بلاده»[90].

وبعد أن تمسك الكلديون بتكريت بدأوا يضيقون الخناق على الآشوريين وخاصة بعد أن وجدوا لهم حليفاً وهم الميديون، فتحركت جيوشهم المتحالفة نحو المدن الآشورية وضربت الحصار عليها دون أن يبدي الآشوريون أي مقاومة خارج أسوار مدنهم.

وبسقوط الدولة الآشورية تأثرت معظم مدن أعالي الطرق بعد أن هجرت العواصم الآشورية مثل آشور ونينوى وكالحو وتعطلت طرق التجارة، ولم تردنا عن تكريت إلّا إشارة وردت في حملة الملك الكلدي نبوخذنصر كما ذكرنا[91]، حتى أن آثار هذه الفترة لا تبدو واضحة في الأماكن المنقبة من المدن الآشورية. ويستفاد من رحلة زينفون الذي سار مع الجيش الإغريقي المنسحب مع محاذاة الجهة اليسرى من نهر دجلة تقريباً حيث يذكر أن الخبز واللبن والنبيذ جلب للجيش المذكور على اكلاك كانت تطفو فوق الجلود من مدينة يقال لها Canenae التي مازال الشك في نسبتها إلى تكريت[92]. ويرجح أن هذه المدينة كانت الكحيل الواقعة على ضفة دجلة اليمنى بين الزابين فوق مدينة تكريت على ما تذكره المصادر العربية[93].

وعلى ما يبدو أن الطريق الذي سلكه الاسكندر الكبير للوصول إلى مدينة بابل بعد النصر الذي حققه على الجيش الأخميني في معركة كوكميلا في سهل أربيل عام 331 ق.م، كان محاذياً للسفوح الشرقية من جبل حمرين قاطعاً نهر دجلة في المنطقة الكائنة إلى الجنوب قليلاً من سامراء[94]، وذلك لوفرة المؤن لجيشه.

---

(88) Olmstead, P. 253، المصدر السابق.

(89) لقب نبوبلاصر بالملك الأكدي تيمناً بتلك السلالة التي أسسها الملك سرجون.

(90) Luckenbill, D. «*Ancient records of Assyria and Babylonia*, Chicago, 1926, P. 418.

(91) انظر الهامش (36).

(92) فؤاد جميل، زينفون في العراق وحملة العشرة آلاف اغريقي، سومر م 20، 1964، ص 253-254، د. سامي سعيد الأحمد، «العراق في كتابات اليونان والرومان، سومر م 26، 1970، ص 118.

(93) ياقوت الحموي، معجم البلدان، قاهرة، 1906، ص 220.

(94) انظر عن الطريق الذي سلكه الاسكندر الخارطة المنشورة في *Cambridge Ancient history* Vol. VI, map. 8.

وبظهور مدينة الحضر في جزيرة الطرق كمركز رئيس للقبائل العربية في اقليم عربايا (بلاد العرب) كما تشير إلى ذلك الكتابات المكتشفة في هذه المدينة والتي كانت تكريت واقعة ضمن النفوذ السياسي لذلك الإقليم، عاد نشاط الطرق التجارية والعسكرية التي تربط بين انطاكيا على نهر العاصي وطيسفون (المدائن) حيث تلتقي إلى الشمال من تكريت طريقان رئيسيان، أحدهما يبتعد عن دجلة باتجاه الغرب ويتماشى الثاني مع وادي الثرثار. ويبدو أن الطريق الأول كان أقل أهمية من الثاني في تلك الفترة بسبب امتداد منحدرات جبل مكحول الغربية لمسافة طويلة والتي تميزت بكثرة ودياتها وقلة المياه فيها. ويرجح أن جيوش الرومان الزاحفة نحو طيسفون وسلوقيا تجنبت هذا المسلك بسبب تلك الصعوبات واتخذت الطريق المجاور للضفة الشرقية لنهر دجلة بعد عبورها النهر المذكور بالقرب من مدينة أشور التي ذكرتها المصادر الرومانية باسم «لبي»[95]. ويلقي وصف ابن جبير في رحلته من تكريت إلى الموصل الضوء على عدم صلاحية هذا الطريق وخاصة ما بين أشور وشمالي تكريت لقلة مصادر المياه فيه. فيذكر ابن جبير أنه غادر تكريت بعد العشاء ووصل في الصباح التالي مكاناً يمكن تعيينه بتل ابداح الذي كان نهر دجلة آنذاك يجري من تحته ومن ذلك المكان تموّن ابن جبير بكمية من الماء تكفيه ليوم وليلة وما إن وصل ذلك الرحالة نهر دجلة في القرية التي سماها «العقر»[96] حيث يطابق وصفه مكان آشور (قلعة شرقاط)، كان الطريق إلى الموصل لايبتعد كثيراً عن نهر دجلة وتكثر المزارع على جانبيه. وبسبب هذه الصعوبات التي تواجه القوافل التجارية والحملات العسكرية أصبح الطريق الذي يحاذي وادي الثرثار بين مدينتي الحضر وتكريت هو البديل لمسلك وادي دجلة. وكان لنشاط حركة النقل على هذا الطريق أثر في نمو عدد من المدن على هذا الوادي مثل تل العجري والتمري وتلول السكريات في منطقة بكمه وتل ابداع على نهر دجلة إلى الجنوب قليلاً من بلدة بيجي.

وقد وضع الرومان خرائط للطرق التي تسلكها جيوشهم وقوافلهم التجارية عرفت باسم Tabula Peutingeriana[97] ثبتت عليها أسماء المدن والمحطات والمسافات بينها بالأميال، وكانت من بينها المدينة Peolirica التي عنيت بأنها تكريت[98]، الواقعة على الطريق الموصل بين الحضر وطيسفون حيث كان تركيز الرومان على الطرق التجارية المحاذية لنهر دجلة للوصول إلى بلاد بابل بعد أن أصبح

---

(95) هناك عدة آراء بشأن موقع لبي أو لبانا والراجح أنها مدينة اشور فيذكر Mortiz أنها مدينة برتو Birtu بينما يشير هرتسفلد انها مدينة Cananae. أما Kiepert فيعنيها بخرائب اسكي موصل. وتذكر المصادر العربية أن لبي كانت قرية على شاطيء دجلة بين تكريت والموصل، وفي ذلك المكان أيضاً دير يعرف بدير لبي فقد وردت الاشارة اليها (القرية والدير) عند ذكر المعارك التي وقعت بين قبيلتي تغلب وقيس على وادي الثرثار وبالتحديد بين رأس الأثل (ربما المنطقة المعروفة حالياً بالثيليات إلى الجنوب من الحضر) والكحيل (يحتمل أن تكون قلعة جبار الواقعة في جبل مكحول إلى الجنوب من آشور) في العصر الأموي.

Lepper, «*Trajan Parthian War*», Oxford, 1948, P. 116.

Kiepert, «*Atlas Antiqus*», Berlin, map. iv, Fs.

انظر عن لبي:

د. سامي سعيد الأحمد، الهامش (92) والبكري **معجم ما استعجم**، جـ 1 قاهرة 1945، ص 595، الحموي، المعجم، جـ 4، ص 167، الأصفهاني، كتاب الأغاني، جـ 21، قاهرة 1928، ص 207.

(96) الغالب ان ابن جبير قصد اطلال مدينة أشور وليس الموضع الذي يعرف حالياً تلول الصقر الواقعة على الجانب الشرقي من دجلة قبالة آشور. انظر الرحلة، ص 211.

(97) ان خوارط الطرق الرومانية ربما وضعت في القرن الثاني للميلاد وهناك نسخة مؤرخة بسنة 365 م. وتجدر الإشارة أن الأعمال الأثارية في العراق كشفت عن محطات ذكرت أسماؤها في تلك الخوارط وخاصة في المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال سنجار واطلال مدينة أشور مثل فيكات *Vicat* (تلول العبرة الصغيرة) سالم الألوسي، اكتشاف مهم في تلول العبرة الصغيرة سومر م 10، 1954، ص 145-148. و*Zaguraea* (عين سينو).

Oates, D. and J. «Ain Sinu, a Roman Frontier Post in Northern Iraq, *Iraq*, 20, 1959, PP. 207-242.

Stein, F., «The Ancient Trade route: *Ad Herculem* Past Harta and ist Roman Post», *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1941, Part 4, PP. 299-316.

Ibrahim, J.K. The excavation of Khirbet Jaddalah, *Sumer*, 36, 1980, PP. 163-168, *Sumer* 39, 1983, PP. 217-234.

(98) Miller, K. *Die Peutingersche Tafel* Stuttgart, 1962, P. 743, 772.

الفرات الحد الفاصل بينهم وبين الفرث[99].

وبسقوط مدينة الحضر على يد سابور بن اردشير عام 241 م أصبحت مدن بلاد وادي الرافدين من بعدها ومنها تكريت واقعة ضمن الاحتلال الساساني[100] وتعطل نتيجة لذلك طريق وادي الثرثار بعد أن هجرت مدينتا الحضر وآشور والمدن الأخرى الواقعة إلى الغرب من نهر دجلة بسبب فقدان الأمن والاستقرار في تلك المنطقة. وبدأ تحول الطريق تدريجياً إلى الضفة الشرقية لنهر دجلة، واحتفظت تكريت بدورها التجاري بعد زوال مملكة الحضر. ونمت إلى جانبها مدن أخرى جديدة على امتداد هذا الطريق مثل جبلتا[101] وبارما[102] والسن[103] والحديثة[104].

واستمرت الطرق المارة بتكريت أو بالقرب منها العسكرية منها والتجارية تؤدي وظيفتها خلال تلك الفترة. وكان لأحداث الحرب بين الساسانيين والرومان المنسحبين بقيادة جوفيان عام 363 م التي وقعت إلى الجنوب من تكريت ما يلقي الضوء على استمرار أهمية هذه المنطقة من الناحية السوقية. فقد أفلح خمسمائة جندي من الجيش الروماني من عبور نهر دجلة سباحة. وبعد أن وصلوا إلى الجهة الثانية المقابلة للدور ليلاً قتلوا ألفاً وخمسمائة جندي ساساني كانوا من بين القطعات العسكرية الأخرى المعقبة للرومان. وعند هذا المكان أرسل ملك الفرس سابور الثاني إلى الرومان ينشد الصلح إلّا أن شروطهم كما يذكرها المؤرخ الروماني أميانوس مرسلينوس كانت عسيرة «لم يأبهوا بمعاني الانسانية» ومن هذه الشروط تسليم خمس مقاطعات للفرس مع سكانها وهي بازبدا قرب جزيرة ابن عمر وديار بكر والرها وسنجار ومعسكرات على نهر الفرات.

وعلى الرغم من موافقة الامبراطور الروماني جوفيان على هذه الشروط إلّا أن المؤرخ المذكور يقول: «كان الأجدر أن نحارب عشر معارك ولا نسلّم في واحدة منها». وما إن وقعت المعاهدة بين الطرفين حتى سارع جيش الرومان لعبور دجلة على قوارب عند الدور في الوقت الذي كان الفرس يخططون للتنكيل بالروم من خلال جسر كانوا يقيمونه إلى الشمال من منطقة عبورهم لمهاجمة الجيوش المنسحبة لكن مخططهم فشل بعد أن علم الروم به[105].

ويبدو من وصف اميانوس للمنطقة التي سارت فيها جيوش الرومان المتقهقرة، الواقعة إلى الغرب من تكريت بأنها صحراء قاحلة في وسطها مدينة الحضر التي كانت مهجورة آنذاك.

وبموجب المعاهدة المعقودة بين الفرس والرومان، فرض الساسانيون سيطرتهم على مدن أعالي وادي الرافدين المار ذكرها إلّا أن سابور الثاني لم يتمكن من احتلال تكريت القلعة العربية المستقلة رغم محاولاته المتكررة[106].

وما ان انتهى نفوذ الساسانيين في العراق بعد معركة القادسية عام 16 هـ/637 م حتى سارع قائد الروم الذي سمّته المصادر العربية بالانطاق (ربما انتاكيوس) نحو تكريت بجيش قوامه عشرون ألف جندي مؤلف من العجم والروم وقوات من قبائل عربية استوطنت الجزيرة مثل اياد وتغلب والنمر ومن الشهارجة، لتكوين جبهة ثالثة بعد جبهتي جلولاء والإبلة تهدف إلى تطويق الجيوش العربية الإسلامية المنتصرة وتحديد حركتها. وبعد أن وصل تكريت تحصن بها[107]. ولما وصلت أخبار الانطاق إلى عمر بن الخطاب

(99) Lepper, P. 116-117، المصدر السابق هامش (95).
Wheeler, R. «The Roman Frontier in Mesopotamia in Birley, *Congress of Roman Frontier Studies, 1949,* Durham 1952, P. 112.

(100) Ibrahim, J.K. *Pre-Islamic Settlement in Jazirah,* Mosul, 1986, 85, 88.

(101) جبلتا بلدة واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة شمالي تكريت كانت داراً لضرب النقود عام 304 هـ/916 م.

(102) يمكن تعيين موقعها بخرائب بريج عند الفتحة، انظر جابر خليل، مواقع أثرية جديدة في منطقة الفتحة، سومر م 28، 1972، ص 233-239.

(103) السن واقعة على ميل تحت ملتقى الزاب الأسفل بدجلة عند معظم الجغرافيين، ويحتمل أن يكون موقعها في خرائب شجرة.

(104) واقعة عند مصب الزاب الأعلى بدجلة، وكانت موجودة أيام الساسانيين باسم نوكرد ومعناها البلدة الحديثة.

(105) اميانوس مرشيلنوس، «العراق في القرن الرابع للميلاد»، ترجمة فؤاد جميل وتعليق سالم الألوسي، سومر م 17، 19612، ص 171-172.

(106) Reade, J. «El-Mutabbaq and Umm-Rus, Sumer, 20, 1964, P. 86.
Lloyd S. «Twin Rivers, Oxford, 1947, P. 126, 141, 180.

(107) Rawlinson، المصدر السابق، هامش (46). ويذكر ياقوت الحموي ان الانطاق ناحية قرب تكريت لها ذكر في الفتوح سنة 16 هـ (معجم م 1، ص 353).

(رض) كتب إلى سعد بن أبي وقاص «سرح إلى الانطاق عبدالله بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفضل العنزي وعلى ميمنة الحارث بن حسان الذهلي وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلي وعلى ساقته هاني بن قيس وعلى الخيل عرفجه بن هرثمة فإن هزموا عدوهم فأمر عبدالله بن المعتم بتسريح ابن الأفضل العنزي إلى الحصيني»[108].

كان اختيار الخليفة عمر بن الخطاب عبدالله بن المعتم قائداً للجيش المتجه نحو تكريت لخبرته كقائدٍ لميمنة الجيش الذي حارب في أكبر المعارك بالقادسية كما أن اختيار عمر (رض) لقادة التشكيل الذين سبق لهم رقاتلوا مع ابن المعتم من أثر في تكوين وحدة العناصر المقاتلة[109].

فتحرك عبدالله بن المعتم في خمسة آلاف مقاتل ووصل تكريت بعد مسيرة أربعة أيام، فحاصر الانطاق والذين معه من أجناس مختلفة والذين احتموا وراء الخندق الذي حفروه لأربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين مرة. فلما طال الحصار لجأ ابن المعتم إلى الأسلوب السياسي في استمالة القوات العربية التي كانت مع الانطاق ويدعوهم إلى الوقوف معه لنصرة جيشه على الروم فنجح القائد المذكور في تفكيك حلفاء الانطاق، ونجحت الخطة التي وضعها بالتنسيق مع الفصائل العربية التي استجابت له وأسلمت في ليلة الهجوم. ودخلت قوات ابن المعتم أبواب سور تكريت وقتلت الانطاق ومن معه إلّا من هرب من المعركة[110].

وكان من نتائج التحرير العربي الإسلامي لمدينة تكريت أن الجيوش المحررة انطلقت نحو الموصل التي لم يلق المسلمون مشقة في فتحها[111].

وفي التاريخ الإسلامي والحديث الكثير من الحوادث التي وقعت فيها وكان لها الأثر في التاريخ، لكون هذه المدينة تشكل أحد العقد المهمة أمام الجيوش الزاحفة نحو بغداد أو الموصل، سنقتصر ذكر أمثلة من تلك الحوادث آملين أن نفرد بحثاً مستقلاً لمجمل ما وقع فيها من أحداث فترتي الأمويين والعباسيين.

فيذكر أن عماد الدين زنكي صاحب الموصل والجزيرة حينما تقهقر جيشه بعد معركة وقعت بينه وبين حاكم بغداد إلى موضع يقابل تكريت الذي كان حاكمها (المسمى الدزدار) آنذاك نجم الدين بن أيوب بن شادي والد صلاح الدين، الذي أعدّ المعابر لجيش عماد الدين للعبور إلى تكريت لينطلق منها إلى الموصل[112].

وكانت تكريت الهدف الأول أمام جيوش المغول للوصول إلى بغداد لاحتلالها، فقد وجه إليها هولاكو عسكراً بقيادة باجو فعبروا من هناك إلى الجانب الغربي بقصد تطويق بغداد من الجهة الغربية في عام 656هـ[113].

وقد شكلت تكريت خطاً دفاعياً أمام تقدم جيوش تيمورلنك إلى الجزيرة بعد احتلاله بغداد، فلم تتمكن جيوشه التي أرسلها ومن بعدها التعزيزات العسكرية لاستبسال مقاتليها، حتى سار اليها الغازي تيمور على رأس جيش واحتلها وعمل السيف في أهلها بعد حصارها لأربعين يوماً وذلك في سنة 795هـ[114].

وبقصد تطويق بغداد وإحكام الحصار عليها وقطع الإمدادات عنها حينما هاجمتها جيوش نادر شاه الإيراني في عام 1145هـ، لجأ هذا المحتل إلى إرسال جيوش لمهاجمة تكريت والعبور إلى الجانب الغربي للوصول إلى بغداد وأطرافها لتطويق أسوارها حيث تذكر إحدى المصادر[115]:

(108) الطبري، الهامش (46).

(109) أحمد عادل كمال، فتوح الشرق بعد القادسية، بيروت 1393 هـ/1974 م، ص 117-120.

(110) الطبري، المصدر السابق.

(111) محمود شيت خطاب، قادة فتح العراق والجزيرة، بيروت 1964، ص 353.

(112) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»، ج 1، حققه د. جمال الدين الشيال، مطبعة فؤاد الأول، 1953، ص 485.

(113) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، نقلاً عن د. أحمد سوسه. ري سامراء، ص 502.

(114) بولس بهنام، المصدر السابق، ودائرة المعارف الإسلامية، المصدر السابق.

(115) الشيخ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، نقله عن التركية موسى كاظم نورس، بيروت، ص 30.

«وفي تلك الأثناء وردت الأخبار عن هجوم الجيوش الإيرانية على تكريت والعبور إلى الجانب الثاني فتصدى لها مصطفى باشا بجنوده يشاركهم السكان الغيارى على أعراضهم ودينهم ودارت بينهما حرب ضروس تمكّن فيها من دحر الأعداء ولكنهم عادوا والتحموا ثانية وأبدى كل منهما من الضراوة ما أثار الاعجاب، وبسبب ثبات الجيوش العثمانية والأهلين لم يرَ الأعداء مفراً من التراجع وعادوا من حيث أتوا».

الخاتمة

لاحظنا كيف أن الخصائص الطبيعية أكسبت تكريت موقعاً منيعاً محصناً، أبعد عنها خطر الفيضان وجعلها صعبة المنال لمن أراد احتلالها. ووفرة مواد البناء في أطرافها كالحصى على شواطئها والتربة الكلسية على حافاتها قد يسّرت أعمال البناء فيها دون عناء. وكان لهذه الأهمية الأثر في استمرار الحياة فيها بشكل متواصل محتفظة بمركزها كوسط تجاري وموقع عسكري على مر العصور بالرغم من الحوادث التي وقعت في أراضيها أو بالقرب منها والتي كان لها أثر في مجرى التاريخ، وأيضاً كان للنشاطات العسكرية تأثير خطير على سكانها وخاصة أيام ضرب الحصار على هذه المدينة، لاسيما وأن المواد المعاشية كانت تنقل إليها من أطراف المدينة باستثناء الماء المتوافر في آبارها المحفورة في قلعتها وفي أطراف مختلفة من المدينة.

وزالت معالم الكثير من أقسام المدينة وخططها وزالت أيضاً معالم الكثير من الأماكن القريبة منها مثل جبلتا وبارما والسن والبوازيج المار ذكرها ولم تبقَ إلّا أسماؤها والإشارات التي أوردتها المصادر التاريخية والجغرافية وأصبحت تكريت أحد النقاط الدالة والإحداثيات الأساسية لتحديد تلك الأماكن.

واستمرت أهمية هذه المدينة في الفترات الحديثة، وفي كتب الرحالة الأوروبيين نجد المعلومات المهمة، نذكر منها ما يناسب هذا الموضوع. فمن هؤلاء تافرنيه الذي توقف عندها في سنة 1652 م نذكر بعض الملاحظات عن أبنيتها وأطلالها وقلعتها(116).

وأشار ثغينو الذي زارها في أواسط القرن السابع عشر إلى أنها الموطن الآمن للقوافل بعد الموصل(117).

ويذكر Rich الذي وصلها في عام 1820 عن طريق النهر أنها محطة تجارية رئيسة، تنطلق منها القوافل المتجهة نحو كركوك والتي تقضي ليلتها الأولى في جبل حمرين وتصل في اليوم الثاني المكان المقصود. وأبدى Rich ملاحظات عن بيوتها البالغ عددها ستمائة آنذاك وعن مادة بنائها وعن سكانها وعن واردات محاصيلها الزراعية البالغة 22,000 قرش في السنة ذاتها(118).

وتوقف الدكتور Ross في تكريت في السنتين 1836 و1837 وهو في طريقه إلى مدينة الحضر فوصف بقاياها الأثرية كما أشرنا إلى ذلك من قبل والذي ذكر أنها المحطة التي تتوقف عندها القوافل والأكلاك المتجهة إلى بغداد(119).

ويؤكد المنقب Layard الذي وصلها بعد ثلاثة أيام من مغادرته بغداد، أنها المستوطن الوحيد والمهم بين بغداد والموصل وأن سكانها يمارسون التجارة النهرية، وأن الأكلاك الآتية من الزاب الأسفل الذاهبة إلى بغداد يدفع أصحابها ضريبة إلى حاكم تكريت(120).

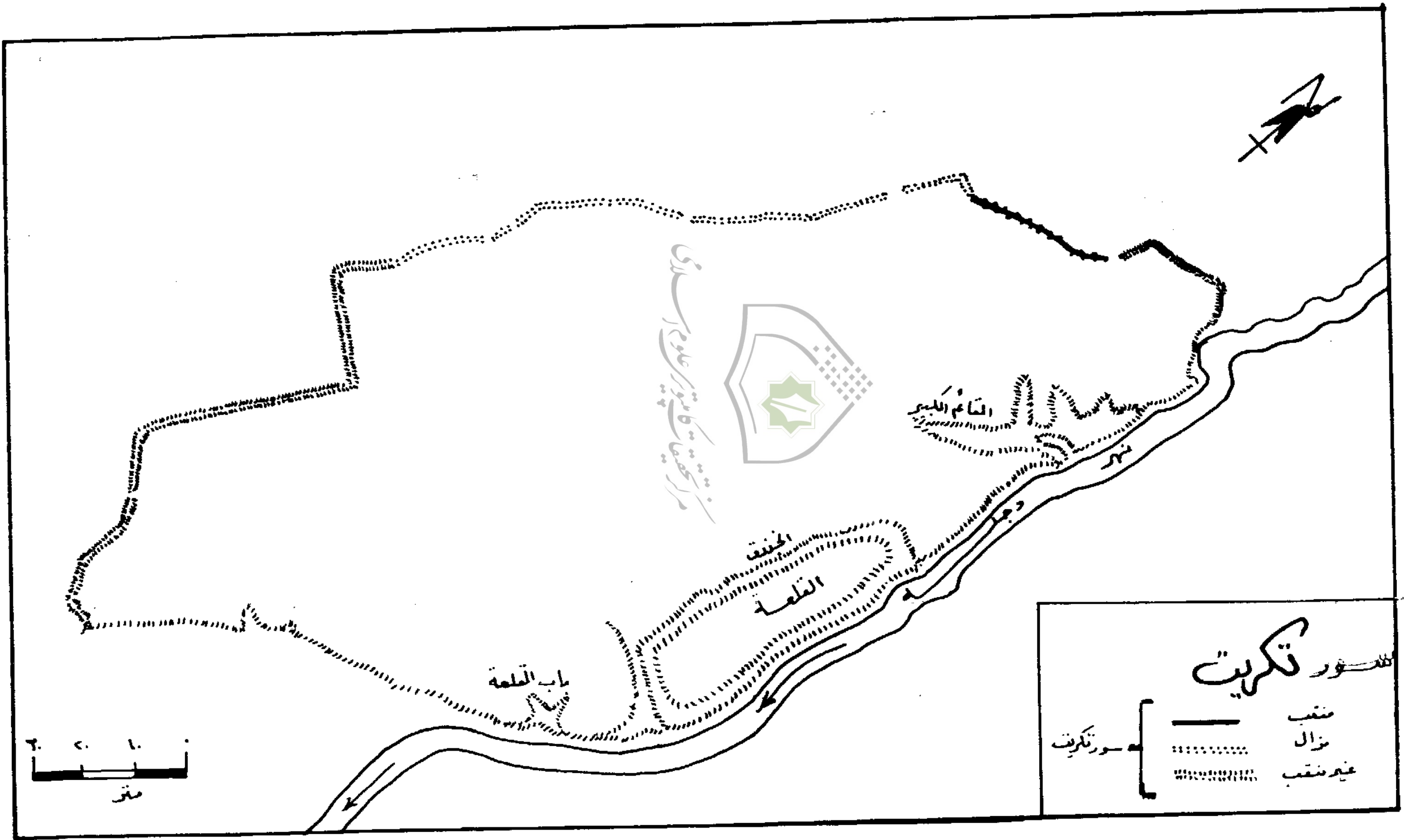
(116) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنيه، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد 1944، ص 74.

(117) Thevenot, Suite du voyage de a Levant Vol. 4, Paris, 1686, PP. 202-203.

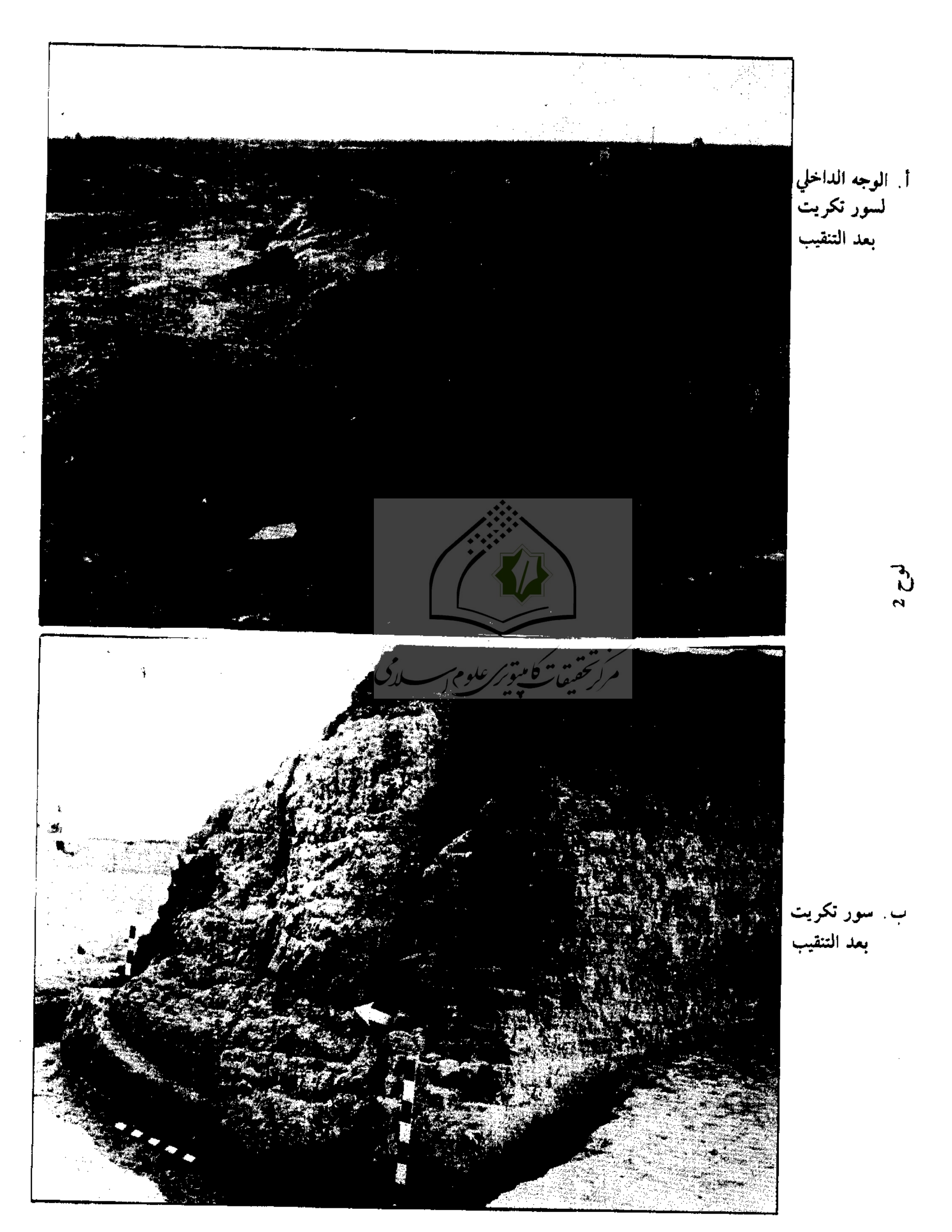
(118) Rich، المصدر السابق.

(119) Ross، المصدر السابق.

(120) Layard, A.H., «*Discovery in the ruins of Nineveh and Babylon,* London, 1853, P. 467.


سور تكريت
منقب
مزال
غير منقب
سور تكريت
الجامع الكبير
نهر دجلة
الخندق
القلعة
باب القلعة
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠
متر

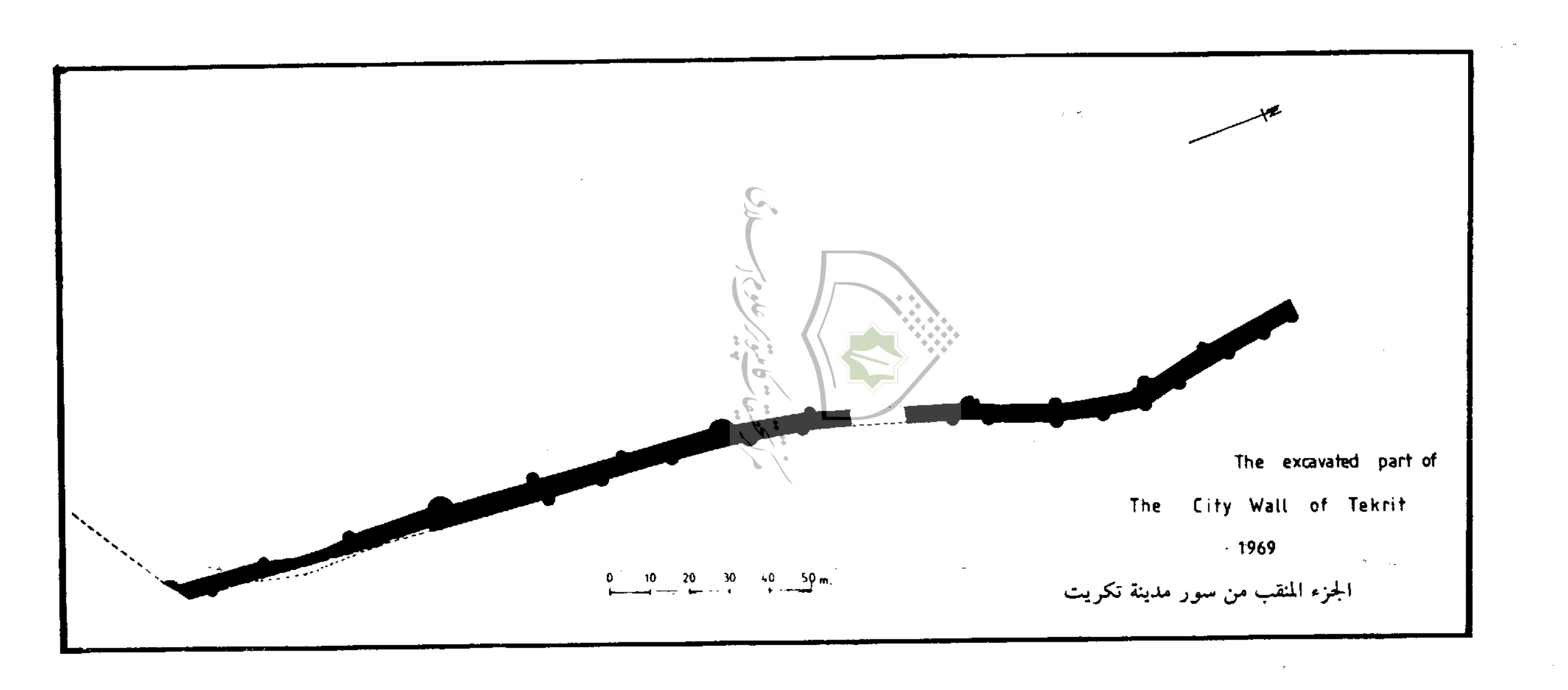
لوح 1



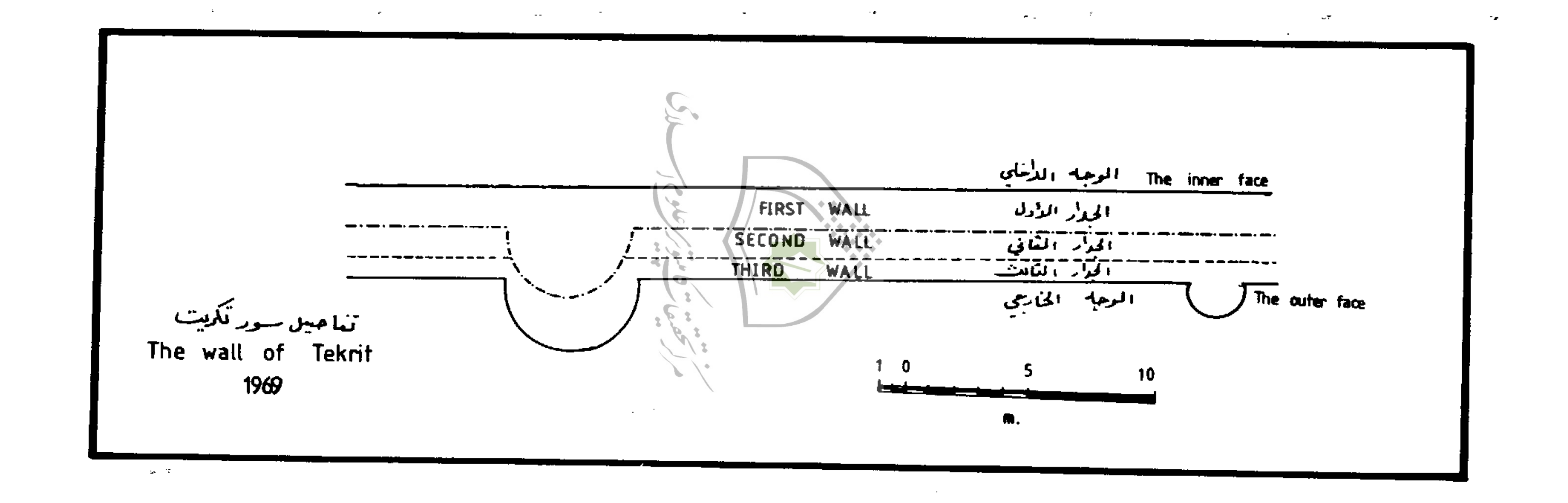
أ. الوجه الداخلي لسور تكريت بعد التنقيب

ب. سور تكريت بعد التنقيب

لوح 2

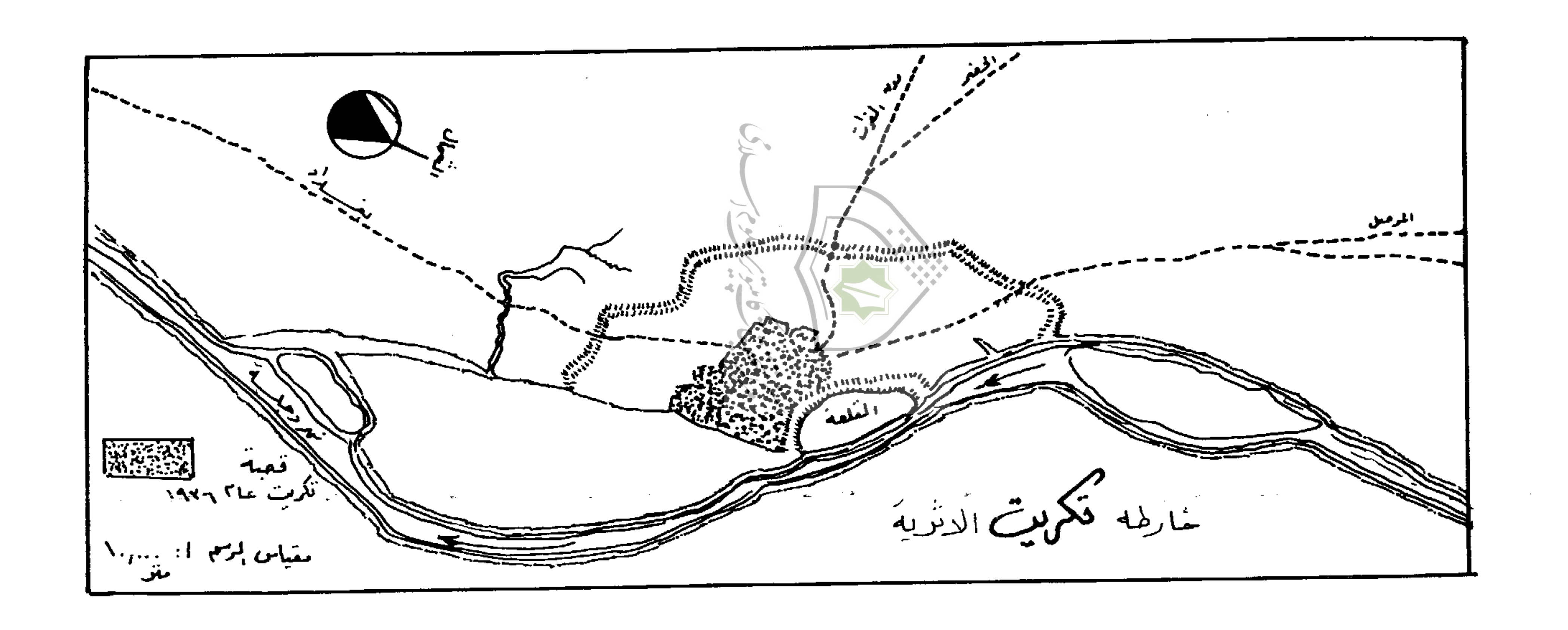

The excavated part of
The City Wall of Tekrit
1969
الجزء المنقب من سور مدينة تكريت
0 10 20 30 40 50 m.

لوح 3



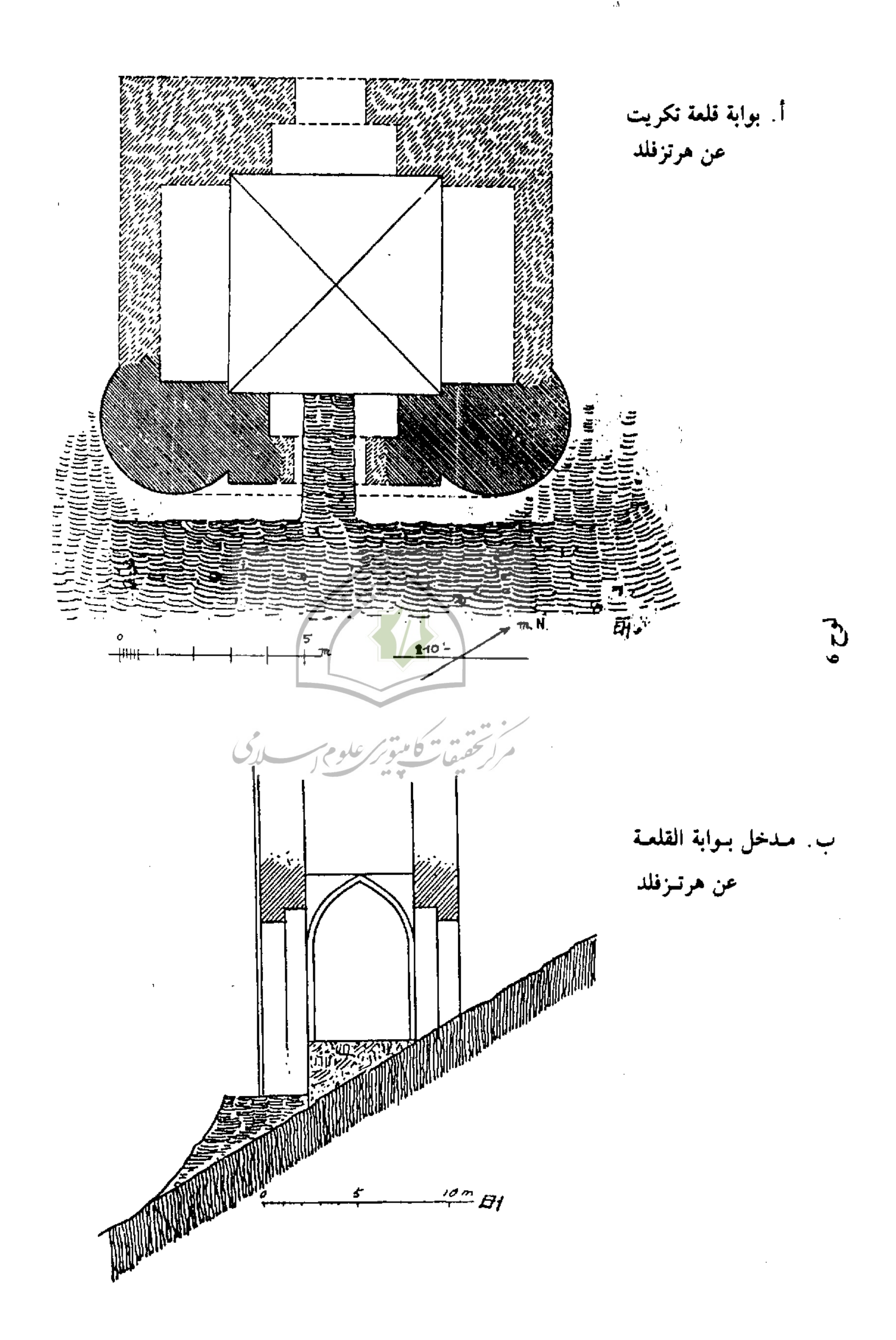
تفاصيل سور تكريت
The wall of Tekrit
1969

لوح 4



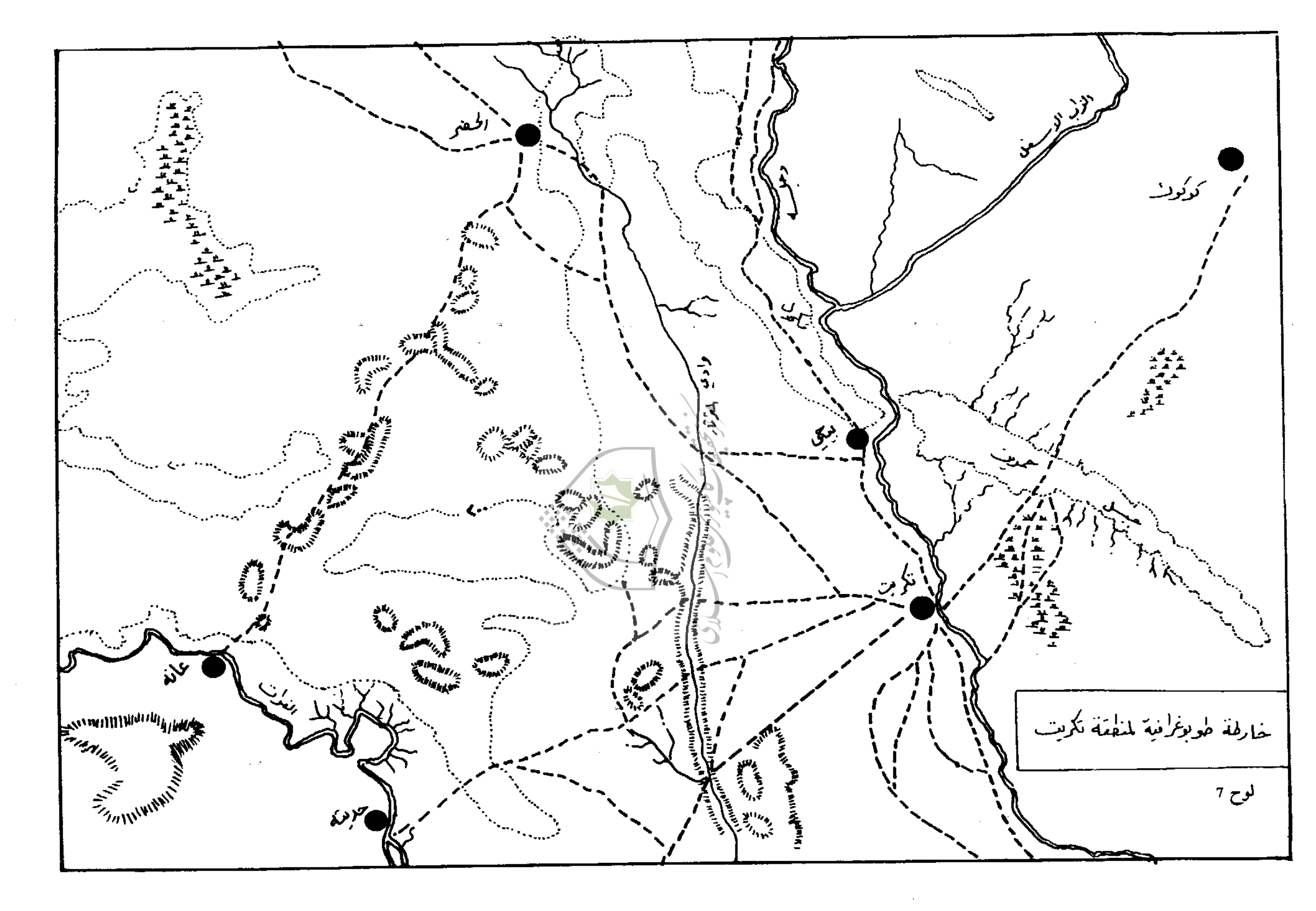
خارطة تكريت الأثرية
القلعة
الموصل
الشمال
بغداد
نهر دجلة
قصبة
تكريت عام ١٩٢٦
مقياس الرسم ١ : ١٠,٠٠٠
متر

لوح 5

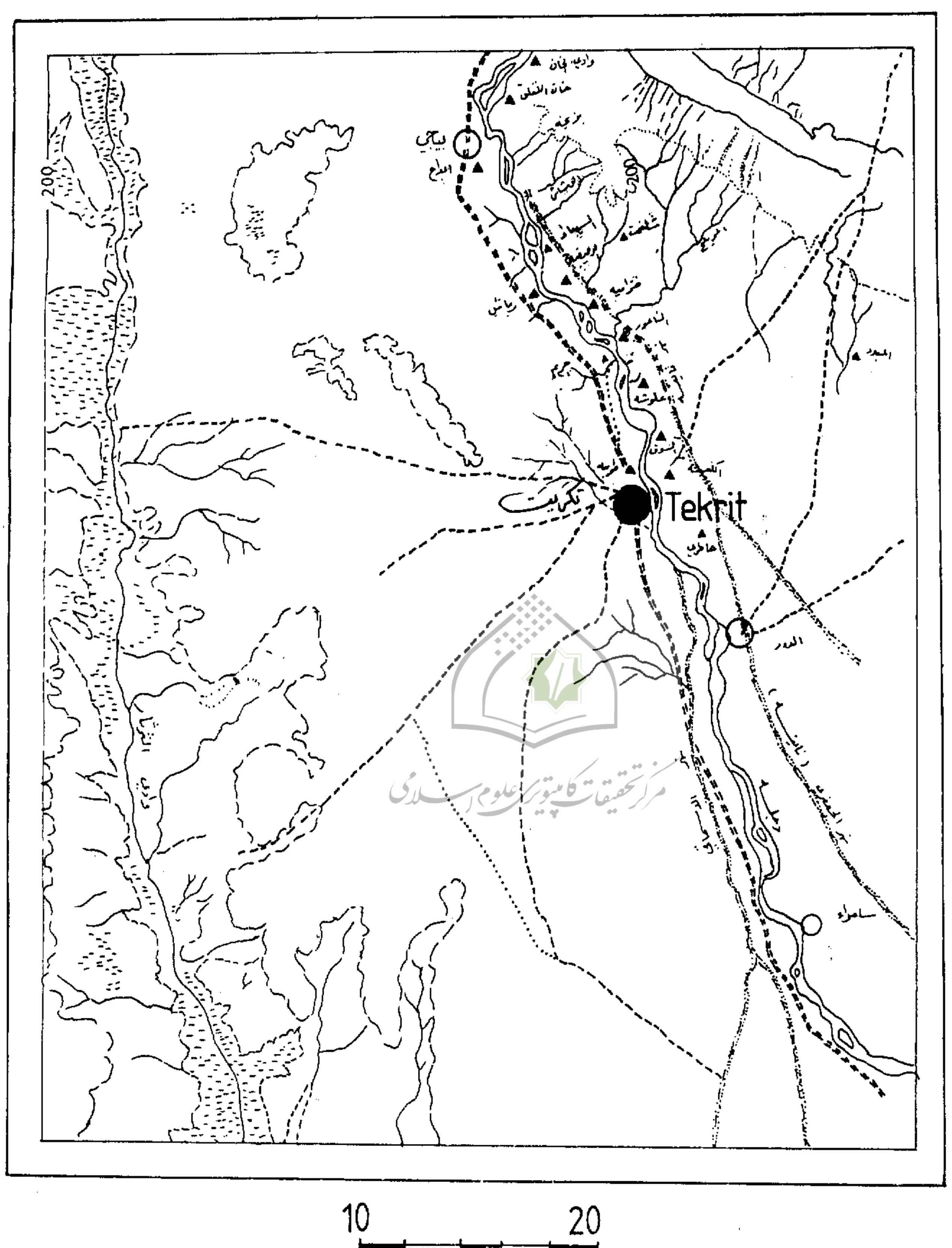


أ. بوابة قلعة تكريت
عن هرتزفلد

ب. مدخل بوابة القلعة
عن هرتزفلد

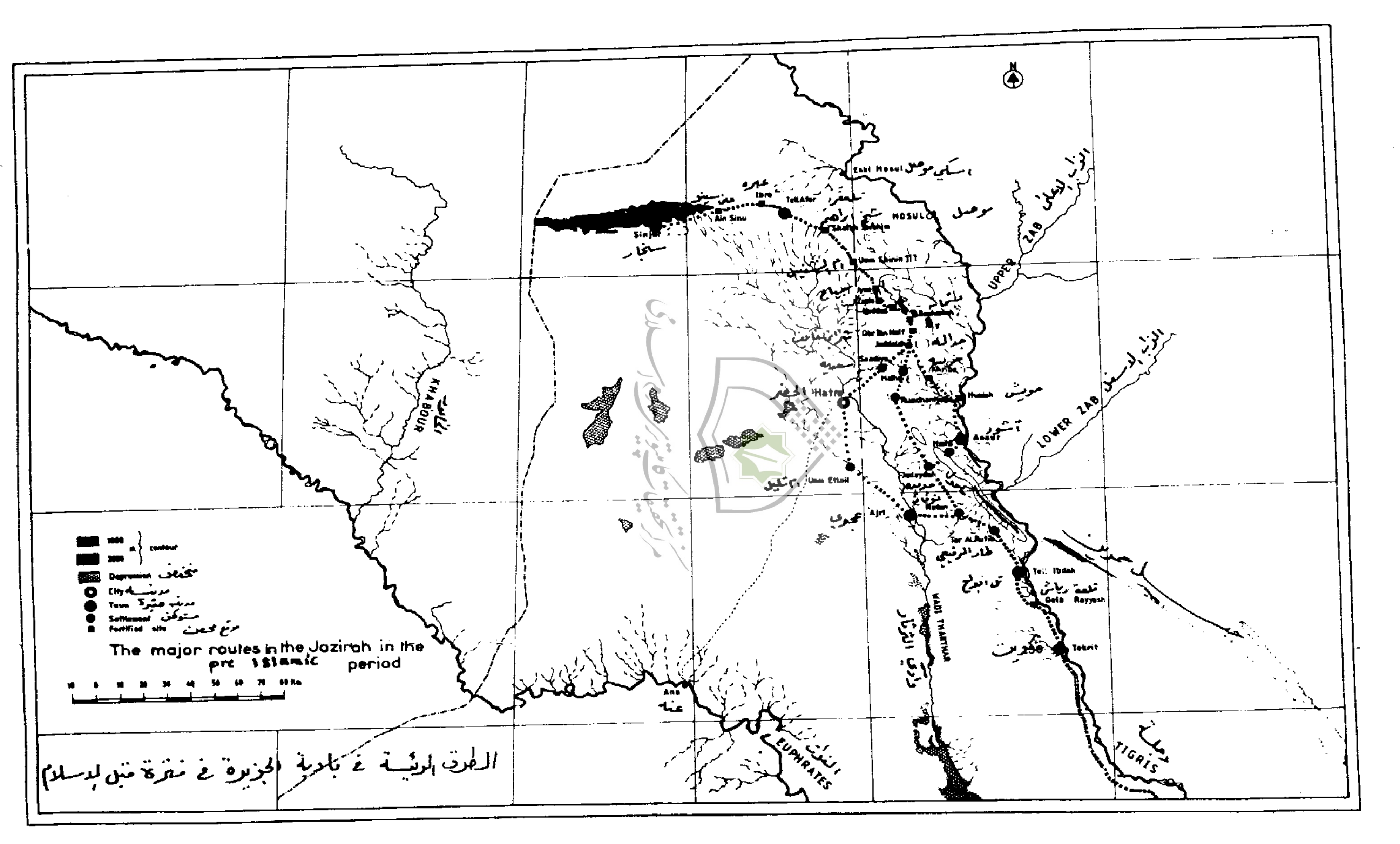


خارطة طوبوغرافية لمنطقة تكريت
لوح 7
الحضر
كركوك
الزاب الاسفل
بيجي
تكريت
حمرين
وادي الثرثار
عانة
الفرات
حديثة



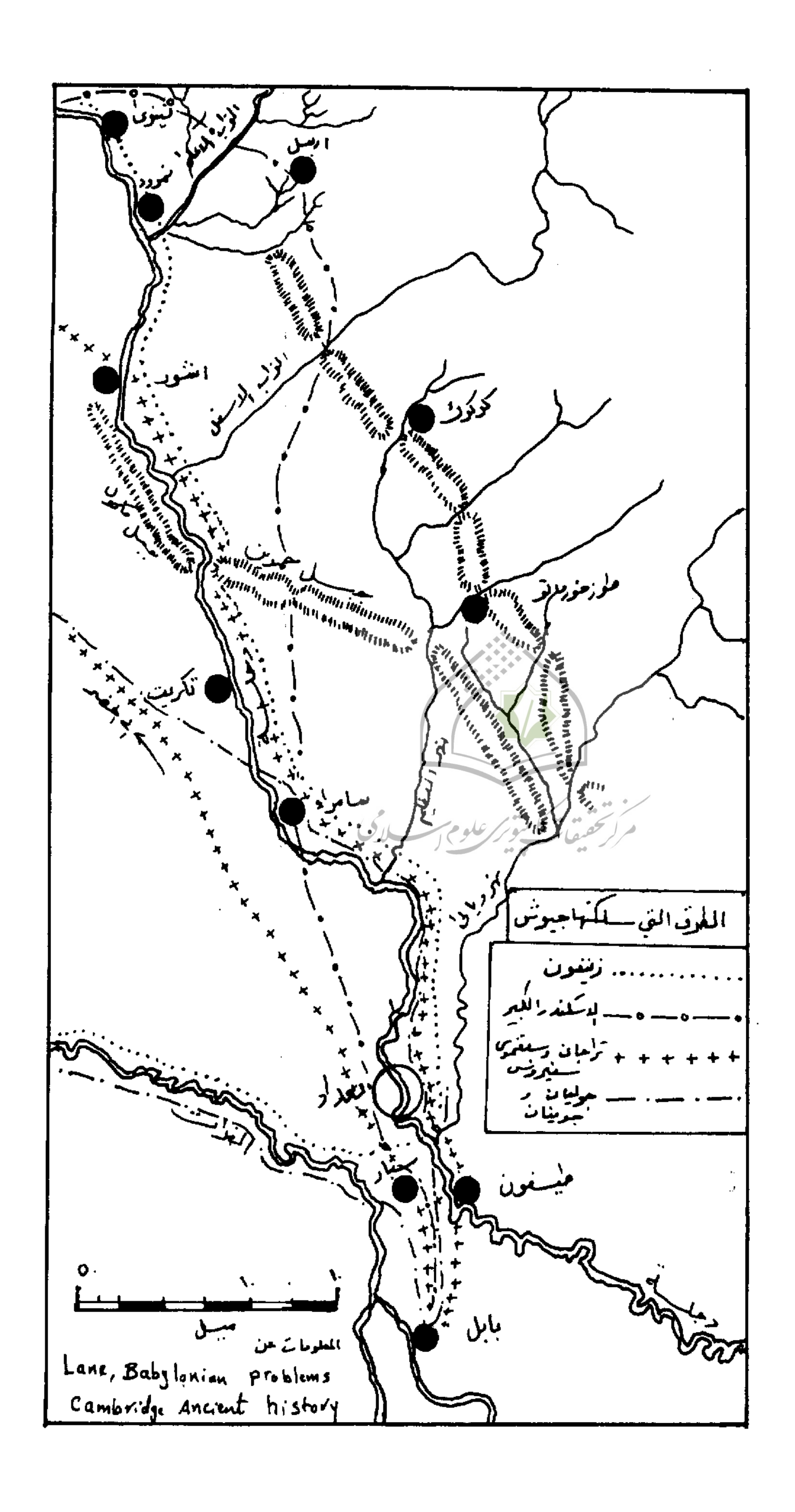
لوح 8

خارطة منطقة تكريت مثبتاً عليها أشهر المواقع الأثرية



The major routes in the Jazirah in the pre Islamic period
الطرق الرئيسة في بادية الجزيرة في فترة قبل الإسلام
Depression
City
Town
Settlement
Fortified site
contour
KHABOUR
EUPHRATES
TIGRIS
WADI THARTHAR
UPPER ZAB
LOWER ZAB
MOSUL
موصل
Eski Mosul
اسكي موصل
Tell Afar
Ibra
Ain Sinu
Sinjar
سنجار
Umm Shenin
Hatra
الحضر
Umm Ettail
Ajrt
Ana
عانة
Tell Tbdah
Qala Rayyash
قلعة رياش
Tekrit
تكريت

لوح 8



الطرق التي سلكتها جيوش
زنفون
الإسكندر الكبير
نينوى
اربيل
نمرود
اشور
كركوك
تكريت
سامراء
بغداد
بابل
ميل
المعلومات عن
Lane, Babylonian problems
Cambridge Ancient history

لوح 10




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



البحوث الوثائقية

مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي المنشأة - والأمانة المستقبلية

إعداد: عامر الجميلي

إن أهمية التطور الحضاري والتقدم العلمي مرتبطة أساساً بأهمية إعداد المعلومات وتنظيمها واسترجاعها إذ أصبحت عملية توثيق المعلومات لها أثرها في كافة الحقول والجوانب وشتى مجالات المعرفة.

من هنا كان قيام مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج تعبيراً عن الإيمان المتزايد بأهمية المعلومات وتوثيقها.

وقد عبّر وزراء إعلام هذه الدول منذ مؤتمرهم الأول الذي عقد في أبو ظبي عام 1976 عن أهمية إنشاء هذا المركز، كمؤسسة علمية وأداة فعالة لدعم وإنجاح المشاريع والدراسات الإعلامية الخليجية وليصبح حلقة وصل بين المنطقة وأنحاء العالم في تبادل المعلومات المطلوبة.

وله دوره في التعاون والتنسيق مع مؤسسات الإعلام المختلفة في دول الخليج العربي. ونظراً لأن المؤسسات الإعلامية بحاجة دائمة إلى المعلومات المقننة والمنظمة ولكي تستطيع النهوض بالعمل الإعلامي إلى المستوى المطلوب كان لا بد من تأسيس هذا المركز.

كما أن غزارة وتنوع مصادرها وتعددها وضخامة وتشتت النتاج الفكري جعلت من الصعوبة على أي مركز أن يكون قادراً على تلبية احتياجات مستفيديه.

إن هذه الحالة فرضت الحاجة إلى التعاون بين مراكز التوثيق والمعلومات الإعلامية فقامت شبكات بحوث وإعلام واتصال على المستويات الإقليمية والعربية والدولية. فالمركز عضو في الشبكة العالمية لمراكز التوثيق لبحوث الاتصال والسياسات المعروفة (كومنت) وكذلك فإن المركز عضو مؤسس في الشبكة العربية لمراكز التوثيق في مجال بحوث وسياسات الإعلام المعروفة (عرب كومنت) بالإضافة إلى كونه نقطة ارتكاز لشبكة المعلومات العربية التي تتخذ من مركز التوثيق والمعلومات في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في تونس مركزاً رئيسياً لها. وقطع المركز أشواطاً في سبيل إقامة شبكة المعلومات الإعلامية في دول الخليج العربي حيث قامت وزارات الإعلام في عدة دول خليجية بتأسيس مراكز للتوثيق الإعلامي فيها لتكون نقاط ارتكاز لهذه الشبكة وليكون مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي /مركز الشبكة/ بدوره كمنسق لنقاط الارتكاز هذه وباستكمال إنشاء بقية المراكز في الدول التي لم تقم بتأسيس مثل هذه المراكز بعد، تكون الأدوات والعناصر الرئيسية للشبكة قد تكاملت.

تتكون شبكة المعلومات الإعلامية في دول الخليج العربي من:

أ) المركز الرئيسي للشبكة والمتمثل في مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي.

ب) مراكز التوثيق الإعلامية الوطنية في وزارات الإعلام بدول الخليج العربي السبع والتي تمثّل نقاط الارتكاز للشبكة.

كما أن لهذه الشبكة علاقات وثيقة مع مراكز التوثيق الإعلامية العربية والدولية إضافة إلى مراكز المعلومات الوطنية والإقليمية والعربية والدولية.. وتخدم الشبكة المخططين وصانعي القرارات في المؤسسات والأجهزة الإعلامية الخليجية

الوطنية والإقليمية بالإضافة إلى الخبراء والمتخصصين والدارسين في مجالات الإعلام وشؤون الخليج العربي.

ولقد حددت لشبكة المعلومات الإعلام في دول الخليج العربي وظائفها ومهامها في ضوء الدراسات الخاصة باحتياجات المستفيدين المعلنة والمتوقعة ولعل أبرز هذه الوظائف والمهام:

خدمات الإحالة.. خدمات ببليوغرافية.. خدمات توريد الوثائق.. خدمات التكشيف والاستخلاص.. خدمات الإحاطة الجارية.. خدمات الإجابة على استفسارات المستفيدين.. خدمات التدريب لتطور كفاءة العاملين وخدمات قواعد البيانات.

ولغرض استكمال الخطوات اللازمة لتنفيذ مشروع الشبكة تمّ عقد ندوة خاصة في بغداد للفترة من 3-1987/10/4 نوقشت خلالها ورقة عمل أعدت لهذا الغرض تضمنت الجوانب الفنية للشبكة ومكوناتها ووظائفها والمشاكل والمعوقات التي تواجهها فضلاً عن المقترحات والمعالجات لتلك المشاكل.

ومن ضمن إنجازات المركز صدر العديد من المطبوعات في مجال النشر العلمي. وفي مجال الأدلة أصدر المركز العديد من الأدلة لعل أبرزها:

- دليل الناشرين في دول الخليج العربي.
- دليل مراكز التوثيق والمعلومات في دول الخليج العربي.
- دليل المصغرات الفلمية.
- دليل الموارد السمعية والبصرية.

كما يصدر المركز سلسلة توثيق أحاديث قادة دول الخليج العربي والتي تتناول تجميع وتنظيم وتحليل أنشطة قادة دول الخليج العربي وجعلها في متناول الدارسين والإعلاميين.. وقد صدر من هذه السلسلة العدد الأول الخاص، بتوثيق أحاديث رئيس الجمهورية العراقية صدام حسين كما أنجز المركز العددين الثاني والثالث من هذه السلسلة والخاصين بأنشطة أحاديث كل من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز وسمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان كما ويجري العمل الآن لاستكمال توثيق أحاديث وأنشطة بقية قادة دول الخليج العربي.

وفي مجال توثيق المعلومات الصحفية والاعلامية، وفّر المركز ملفات المعلومات التي تحوي على مجموعة من القصاصات الصحفية المختارة والمصنفة.. حيث تتناول الموضوعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في شتى حقول المعرفة المتعلقة بدول الخليج العربي وعلاقتها مع الدول العربية ودول العالم، بالإضافة إلى مجموعة من الملفات عن المؤسسات والمنظمات الإعلامية والخليجية والمنظمات العربية والعالمية.

ويستفيد منها أعداد كبيرة من الباحثين والدارسين كما أنها في نمو متزايد وذلك لما يضاف إليها من المعلومات يومياً من مصادر المعلومات الخليجية والعربية والأجنبية.. ومن ثم يتم تصويرها في شعبة المصغرات الفلمية لتحوّل إلى أشرطة أو بطاقات فلمية وذلك لتلافي التوسع اللامحدود.

ومن ضمن النشاطات الأخرى في هذا المجال إعداد الملفات عن الأحداث الساخنة والمتميزة التي تظهر على الساحة الدولية والعربية وتصويرها على المايكروفيش وتوزيعها على المؤسسات الإعلامية في فترة زمنية قياسية.. إضافة إلى أرشيف الشخصيات الذي يهتم بتجميع المعلومات الأساسية عن الشخصيات الخليجية والعربية وتنظيمها في بطاقات خاصة. ومن ضمن سلسلة الملفات للأحداث الساخنة تم إعداد الملفات التالية:

- الخليج والبحث عن الاستقرار الاستراتيجي.
- الحرب العراقية ـ الإيرانية.
- رحلة ديسكفري.
- القمة السادسة لدول مجلس التعاون الخليجي.
- القمة السابعة لدول مجلس التعاون الخليجي.
- القمة الخامسة للدول الإسلامية.
- جزيرة خرج.

وعلى صعيد الإثراء المكتبي هناك مكتبة المركز المتخصصة بالدرجة الأولى بموضوعات الإعلام والصحافة والتوثيق والاتصالات بالإضافة إلى شؤون الخليج العربي وباللغتين العربية والإنكليزية.. ونجد كذلك مجموعة المراجع العامة كدوائر المعارض والأدلة والمعاجم والكتب المتخصصة

بموضوعات الخليج العربي.. وقد أجريت عليها إجراءات الفهرسة والتصنيف وإعداد البطاقات الخاصة بها وتنظيمها في الفهرس العام حسب المداخل المثبتة عليها.

ويعمد المركز إلى استخدام المصغرات الفلمية.. فقد قام المركز بتصوير عدد من المطبوعات الدولية التي تصدر في دول الخليج العربي بأجهزة المصغرات الفلمية المتوفرة في المركز بحجمها 16 ملم و35 ملم ونوعها البطاقي (مايكروفيش..

ومايكروفلم) وذلك لتسهيل عملية خزن المعلومات وحفظها واسترجاعها.. وهناك الاتصالات اللازمة مع عدد من المؤسسات المعنية بصدد التنسيق في مجالات التصوير وفي مجالات توفير مثل هذه المصغرات. هذا بالإضافة إلى تصوير المطبوعات المهمة والأطروحات الصادرة في موضوعات الخليج العربي وتصوير المقالات والبحوث التوثيقية والإعلامية وفي موضوعات تخص دول الخليج العربي.. وملفات المعلومات.

ومن الجدير بالذكر أن المركز يتبع أحدث الأساليب في التعامل مع المعلومات حيث يستخدم الحاسب الآلي وفق الخطة المرسومة له من قبل معالي وزراء إعلام دول الخليج العربي وقد أنجز المراحل الرئيسية من هذا المشروع بنجاح وتضمنت تكوين قواعد متعددة للسياسات مثل:

أ) قاعدة الشخصيات العربية الخليجية.

ب) قاعدة الصحف والمجلات الصادرة في المنطقة.

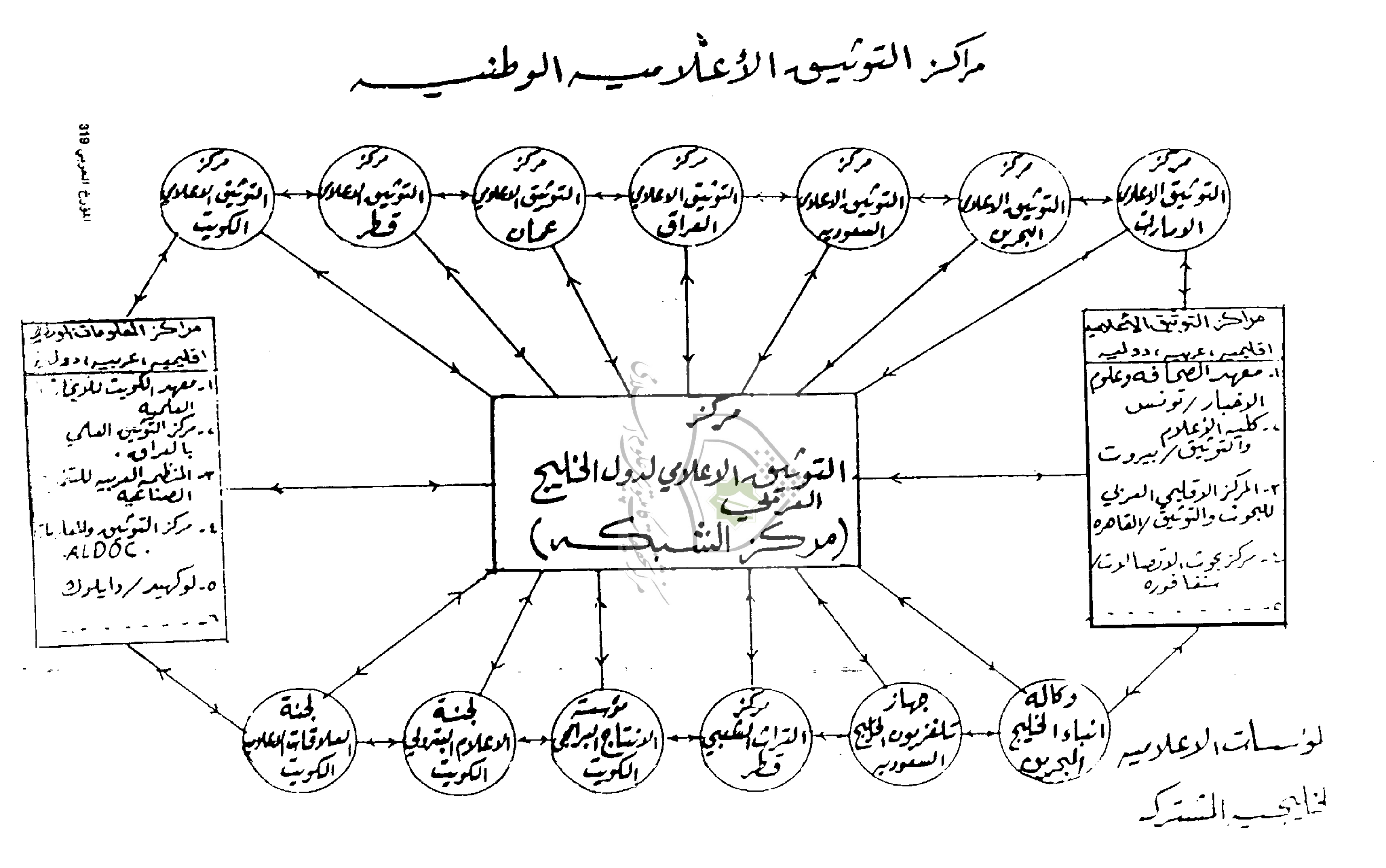
ج) دليل الناشرين في دول الخليج العربي.

د) قاعدة الكشافات.

هـ) قاعدة المؤسسات الإعلامية في دول الخليج العربي.

و) أحاديث قادة دول الخليج العربي.

ز) موسوعة الأحداث والمناسبات من العام الأول الهجري من 1هـ لغاية 1400هـ.



(شكل رقم 2)

رسم تخطيطي لشبكة المعلومات الاعلامية في دول الخليج العربي

الصور الفوتوغرافية كمصدر لدراسة تاريخ القرن التاسع عشر من خلال أرشيف مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بأستانبول

من المعلوم أن اختراع آلة التصوير حدث في أغسطس عام 1839 على يد الرسام الفرنسي داغير Daguerre. ومنذ ذلك التاريخ بدأ ذلك الفن ينتشر بسرعة فائقة على مدى قرن ونصف في شتى أنحاء العالم. وقد وجد هذا الاختراع عند العثمانيين عناية في التطبيق سايرت العناية التي حظي بها عند الأوروبيين. فمن المعروف أن أكاديمية العلوم الفرنسية أخذت عام 1839 بأصول التصوير عند داغير ثم تم إعلانها في الدولة العثمانية بعد سبعين يوماً، أي في 28 اكتوبر 1839 (19 شعبان 1255هـ) وأطلع عليها الرأي العام العثماني، إذ بدأت جريدة «تقويم الوقائع» التركية الصادرة في تاريخ ذلك اليوم تنشر المعلومات التي أوردتها الجرائد الأوروبية حول هذا الموضوع بعد فترة قصيرة من ظهور الاختراع في أوروبا. وبعد عامين نشرت (جريدة حوادث) التركية في عددها الصادر في 15 أغسطس 1841 (26 جمادى الأخرة 1256هـ) أن كتاب فن التصوير الذي ألفه داغير الفرنسي قد وصل تركيا وتمت ترجمته إلى اللغة التركية. وبعد هذا التاريخ بعام واحد نشرت نفس الجريدة في عددها الصادر في 17 تموز/يوليه 1842م (8 جمادى الأخرة 1258هـ) إعلاناً شد انتباه الجميع إذ جاء فيه أن المسيو قومبا أحد تلامذة المسيو داغير قد وصل استانبول، وأن سعر تصوير الشخص أو عدة أشخاص معاً يتراوح بين 100 و175 غرشاً، وأن سعر تصوير أحد الأماكن يتراوح بين 125 إلى 1000 غرشاً تبعاً لحجم الصورة، وهكذا بدأ المصورون أعمالهم في استانبول وشرعوا يبحثون عن زبائنهم على صفحات المجلات والصحف.

وعلى الرغم أن بعض المصادر تذكر أن أول معمل للتصوير قد فتحه من يدعى بسكال سباه عام 1857 في حي (بك أوغلي) في استانبول، وأن معمل التصوير الذي أقامه الأخوة عبدالله قد أعقب ذلك مباشرة. إلّا أننا نرى على ظهر ورق مقوى لأحد الصور التي سحبت في استوديو قارغو بولو (Kargo Poulo) أنه تأسس في استانبول 1850.

ومنذ ذلك بدأت تتزايد معامل التصوير، وتزايد العاملون في هذا الفن حتى اتجهت إليهم أنظار السراي العثماني، فكان المصورون الذين ينالون إعجاب السراي يحصلون على ألقاب مثل «رسام ومصور الذات الشاهانية» يكتبونها بحروف الذهب خلف الصور التي يلتقطونها. بل وقام الأخوة عبدالله بفتح فرع لهم في القاهرة بتشجيع من خديوي مصر.

وفي عام 1867م أقام الأخوة عبدالله هؤلاء جناحاً في معرض باريس الدولي عرضوا فيه صورهم تحت عنوان «مناظر استانبول من خلال الصور، والأسلحة التركية التاريخية» فحازت هذه المجموعة إعجاب وتقدير الجميع.

ولم ينحصر اهتمام السراي العثماني على معامل التصوير القائمة في استانبول فحسب، بل نعلم أيضاً أن بعض الرحالة الأوروبيين قدموا البومات للسراي، وأن هذه الألبومات حازت إعجاب السلاطين. وهكذا فإن مجموعة الصور التي بدأت تتكون داخل السراي مهدت السبيل لإنشاء معامل للتصوير داخل بعض المؤسسات الحكومية، وخاصة في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، إذ أصبح التصوير على درجة من الأهمية جعلته يحتل مكاناً بارزاً في كثير من المرافق الرسمية. فرأينا معامل للتصوير في كثير من الدوائر الحكومية، وعلى رأسها الأركان الحربية والقيادة

العسكرية العليا ونظارة البحرية والمهندسخانة البرية وقيادات الجيوش ودار العجزة وغيرها. ويمكننا التعرف على نشاطات هذه المؤسسات في مختلف بلدان الدولة العثمانية من خلال الصور التي التقطت وأعدت في معامل هذه المؤسسات. كما تم تشكيل هيئات في بعض الوزارات والمؤسسات طافت أنحاء الأناضول وولايات الدول العربية والأوروبية المختلفة وسجلت ملاحظاتها من خلال الصور.

وعلى سبيل المثال يمكننا التعرف على مختلف النشاطات والتطورات التي جرت في ساحة العمليات أثناء الحرب التركية اليونانية عام 1897م، وذلك من خلال الصور التي التقطها الجنود المصورون تنفيذاً للإرادة السلطانية. كذلك كانت تقوم الإدارات المحلية في ذلك العهد بحصر وتوثيق أعمالها وخدماتها عن طريق البومات الصور.

كذلك قام من يدعى أبو بكر حازم تبيران أحد رجال الدولة العثمانية بتسجيل المهام التي أنجزها عندما كان متصرفاً على (دده أغاج) (1896-1898) من خلال مجموعة من الصور التقطها بنفسه وجعل منها ألبوماً قدمه للسراي العثماني، فلقي الألبوم استحساناً عظيماً وحظي صاحبه بتقدير السراي.

وقد أقيم في عهد السلطان عبدالحميد الثاني معمل للتصوير داخل سراي يلديز بمقتضى إرادة سلطانية، تم فيه تصوير العائلة والمنسوبين للسراي والعاملين فيه.

وإلى جانب هذه الألبومات التي ظهرت من خلال السبل التي ذكرناها فقد كان هناك البومات يهديها ملوك ورؤساء الدول الأجنبية للسراي العثماني، وألبومات أخرى يتم الحصول عليها بغرض تتبع التطور الصناعي والتقني في أوروبا على وجه الخصوص، حتى تكونت منها جميعاً مجموعة ضخمة من الألبومات عرفت بألبومات سراي يلديز.

ولم يكن العثمانيون يستخدمون الصورة مصدراً للمعلومات من أجل أنفسهم فحسب، بل أعدت في نفس الوقت ألبومات أرسلت خارج حدود الدولة لمقاصد مختلفة، فكان القصد من إعداد ستة وثلاثين ألبوماً وإرسالها إلى مكتبة الكونجرس الأمريكي بواشنطن عام 1893م هو التعريف بالدولة العثمانية وإبراز جوانبها السياحية ومساعدة الباحثين في استجلاء تاريخها.

ومجموعة ألبومات سراي يلديز تضم صوراً تم التقاطها من عام 1865 حتى عهد الدستور الثاني على أيام السلطان عبدالحميد الثاني. وإن أقدم هذه الألبومات هي التي تضم صوراً للقدس وتحمل تاريخ 1865م، وصوراً عن جبل لبنان تحمل تاريخ 1866، وصوراً عن مصر وسورية، وصور معرض باريس الدولي عام 1867م، والصور الخاصة برحلة السلطان عبدالعزيز عام 1867 إلى أوروبا وهو يتابع تدريبات «إقامة المعابر» على ساحل نهر الطونة في النمسا.

وقد انتقلت مجموعة البومات يلديز هذه إلى مقتنيات المكتبة المركزية لجامعة استانبول عام 1924 ثم آلت إلى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الموجود حالياً داخل قصر يلديز، فكأنما عادت إلى بيتها الأول، وذلك بموجب اتفاقية خاصة بحق تجديد وفهرسة ونشر هذه المجموعة الفوتوجرافية الفريدة التي يبلغ عدد صورها 35,000 صورة تمثل مادة أرشيفية ثرية خدمت الباحثين داخل شروط معينة في المكتبة المركزية لجامعة استانبول من عام 1924 حتى عام 1983.

هذا بالإضافة إلى عدة مجموعات أخرى خاصة بالمركز قام بضمها لهذه المجموعة الأساسية سواء كان عن طريق الصور الأصلية التي حصل عليها أو عن طريق الطبع عن الصور الأصلية. وعلى سبيل المثال فإنه يوجد بين الصور التي أضافها المركز إلى مجموعة يلديز الأساسية صور المرحوم فخر الدين باشا الذي كان قائداً للجيش العثماني في الحجاز، وهي الصور التي التقطها المرحوم بنفسه، وأهداها للمركز ولداه الجنرال المتقاعد سليم ترك قان وأخوه الجنرال المتقاعد أيضاً أورخان ترك قان.

ويمكننا تقسيم موضوعات أرشيف الصور الفوتوغرافية التاريخية بالمركز إلى الخطوط الرئيسية الآتية:

1 ـ مناطق سكنية متعددة تصل حتى القرى والنجوع داخل حدود الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة.

2 ـ مباني الخدمة العامة والآثار التاريخية والمؤسسات الصناعية والزراعية، وصور الحياة التجارية، وغير ذلك من موانىء وأرصفة وسكك حديدية.

3 ـ مؤسسات تعليمية وصحية.

4 ـ أعمال البناء والترميم.
5 ـ صور الأشخاص.
6 ـ صور مختلفة تخرج عن الموضوعات السابقة.

واستناداً على هذه الاتفاقية الخاصة التي تمت بين المركز ومكتبة جامعة استانبول، فقد أقام المركز معملاً فوتوغرافياً بالإضافة إلى تأسيس وحدة خاصة للفهرسة والتصنيف، بدأت بتقويم هذه المجموعة بالأسلوب العلمي الصحيح. وقد درست وقومت حتى اليوم 25% تقريباً من صور هذه المجموعة.

يضم هذا القسم الذي قمنا بالدراسات الأولية عليه، 41 ألبوماً و 1850 صورة، خاصة بالولايات التابعة للدولة العثمانية، والتي تشكل البوم العالم العربي.

قامت هذه الدراسة أساساً على الصور التي حدثنا عنها سابقاً. وإن موضوعات هذه الصور التي تعود إلى الأعوام 1867-1910 مختلفة متباينة، وتعتبر مصادر أصلية لدراسات أكاديمية متنوعة. وبصورة خاصة أن الحياة الاجتماعية وبعض الأحداث في بلاد الشرق وشبه الجزيرة العربية، وقد وثقت بهذه الصور. إن بعضاً منها في القسم الذي تم فهرسته في المركز، يصور الأبنية الرسمية والأهلية. وإن قسماً من هذه الأبنية صار بمثابة آثار تاريخية، والقسم الآخر يصور الثكنات العسكرية ومراكز الشرطة والمدارس والمستشفيات والقصور والجوامع والأضرحة والتكايا والخانات والحمامات والأسواق ومحطات القطارات ومباني البرق والبريد، ودوائر الدولة الرسمية. وقد التقطت هذه الصور خلال تشييد أو ترميم هذه الأبنية. وهناك قسم آخر منها يعتبر وثائق لحركات الإعمار العامة. والمثال على ذلك: مجاري المياه والقنوات والأسبلة والمراسي والموانىء والسكك الحديدية وأسلاك البرق.

ويمكننا أن نذكر هنا مختلف المؤسسات الصناعية الصغيرة والكبيرة التي كانت تقوم بنشاطاتها آنذاك، كما يلفت النظر أيضاً عدة موضوعات أخرى أمكن تسجيلها بالصورة، نذكر منها على سبيل المثال النباتات الطبيعية ومواسم الحصاد والآلات والأدوات الزراعية والمنتوجات الصناعية والمعارض المختلفة التي ضمت هذه المنتوجات.

ونرى من الفائدة بمكان أن نشير هنا ضمن هذه المجموعة الضخمة من الصور التي سجلت إلى مسار الحركة في زمانها إلى قسم من الصور في موضوع آخر في الحياة اليومية وهو: صور المناظر الخاصة بالمدن والقرى. فهذه الصور مصادر على درجة كبيرة من الأهمية، يمكن بعد دراستها بدقة أن نتعرف على شكل الحياة الاجتماعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

إذ يمكننا من خلال النظرة الأولى في صورة لسوق صغيرة في زقاق، أن نتعرف على طبيعة الزي آنذاك، وعلى بائعي الملابس وطريقة عرض البضائع، وبعض المعلومات عن جانب من الحياة في ذلك الزقاق. كما يمكننا من خلال مثل هذه الصور التعرّف على أماكن النزهة وبعض الألعاب وغيرها من أنماط الحياة في المجتمع.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بحوث باللغة الانكليزية



(radio carbon date 1190 B.C.)»[7]. By the King Sennacherib, «in 689 B.C. tells how he floated down the Euphrates and reached Dilmun, whose King hastened to reaffirm his loyalty»[8], also another King of Dilmun,»... heard of the might of my sovereignity and sent his gift»[9], and that was about 709 B.C., finally the City IV, «with wall... it is the period of the Assyrian Empire, about 900-600 B.C.»[10] some of the wall such as in case of City IV, «The wall had been extensively repaired in the middle of the Babbar Period»[11], by agreeing or disagreeing with the Bahrain National Museum's dates and datas, the fact is that Dilmun did have cities with fortifications of massive walls as early as 1190 B.C., and that is according to a single radio carbon dating. There are a few records from Mesopotamia in which their Kings, did include Dilmun as part of the area under their control, and were receiving tribute from the King of Dilmun. Once and only once, details have been recorded about Dilmun's soldiers, when King Sennacherib in his campaigns in the delta region CA. 705 B.C., tells us that «Soldiers from Dilmun were sent to assist in the destruction of the city (Babylon)»[12].

Archaeologist found supporting arti-facts -weapons-, in Bahrain, such as the cases of, Captain Mackay in 1927 where he found «One copper/bronze spearhead and a pair of arrowheads, all three slightly damaged»[13]. Mackay informs us that, on the subject of the spearhead, according to his opinion, «There is no doubt that it was cast»[14]. The Arabian expedition found «Few arrowheads and socketed spearheads, a 27cms long dagger with a 90° curved handle was found... another one is close to the size of a small sword... the original length should have been over 40cms».[15]. All are made of bronze[16].

Dr. Mughal's excavations increased our knowledge of Dilmun's weapons, «Among the weapons, socketed spearheads were found... they were made up of two separate parts... one complete dagger was found, lying over a red Babbar vessel in an alcove... also made up of parts. Another specimen which is grouped under spearheads because of its central rib. The knives are recognised by the difference in the thickness of edges and a tang provided along the thickness side. Other fragments which could be knives or daggers[17]; in total seven spearheads, seven knives and one dagger were found. Finally, and according to archaeologist on the Hamad Town site in Bahrain, they found four spearheads and three daggers.

The archaeologists did record their findings of the military aspect of Dilmun such as walls of cities and weapons, but as a minor point in their reports. The seals of Dilmun tell us another tale, and more extensive and impressive epic of Dilmun's military life, or as this paper is titled «The forgotten army of Dilmun».

II. DILMUN WEAPONS

Dilmun seals inform us by their inscriptions that the weapons that were in use by Dilmun or were known to them are as follows:-

Swords, which have been found in two types, spears, of which they had five types, shields, of which they had a very impressive large collection of, coming in five types, from a small size to very large sizes, in

(7) Ibid, p. 11.
(8) Welcome to Bahrain, P. 74.
(9) Looking for Dilmun, P. 57.
(10) Antiquities of Bahrain, P. 12.
(11) Looking for Dilmun, PP. 370-71.
(12) Holocence Land use, P. 65.
(13) The Journal of Oman Studies, P. 82.
(14) Dilmun discovered, P. 153.
(15) Excavations of the Arab expedition, P. 35.
(16) For more detail illustration and archaeological information reed P. 80, fig. 47/1, 2, 3, 4, 5 & 6 and P. 156 fig. 47, from Excavation of the Arab Expedition.
(17) The Dilmun burial complex at sar, P. 68.

THE FORGOTTEN ARMY OF DILMUN

BY: ALI AKBAR H. BUSHIRI

I. INTROCUTION

We always seem to imagine Dilmun culture as an ancient trade culture only, «Dilmun was an intermediate trade centre between cultures from as Far-East as the Indus Valley, as far north as Mesopotamia (and Syria), north-east to Kurman in Iran and Baluchistan, west to the western coast of the Gulf, UAE (and possibly Egypt) and south to Makan (Oman).»[1] Dilmun involvement in trade was in an impressively vast area and they traded in more than 42 different products.[2]

This paper will cover an aspect of Dilmun life that has never been researched, and more than that, it has not been even thought of. Dilmun was more than a trading centre, or, a culture existing only on trade. They were a military culture also, and with their own very impressive collection of weapons, in a large number of styles of such a manner that we have to believe that their military life was an important aspect of their culture.

By looking at the inscriptions on the Dilmun seal photos in my possession, nearly, 700 seals, I chose only 49 seals to be used as examples in this paper. The Dilmun weapns found on the seals are as follows:- Swords, spears, shields, harpoon, bows and ships, thus a total they had 30 types and styles of weapons, and that is impressive for a so-called trade culture such as Dilmun.

The archaeologists have supplied us with some data about Dilmun's military life. The King Ur-Nanshe, King of Lagash by 2520 B.C., recorded «The ships of Dilmun, from the foreign lands, brought me wood as a tribute»[3], a tribute for being included as part of his region of authority and how did it come to be so. Was it by a military action? or, only as a way not to be ravaged by the King Ur-Nanshe? The earliest city in Dilmun that we know of, city-I, was a city without a wall, which supports the theory that Dilmun never experienced any military action from a foreign power, and according to the Bahrain National Museum it was «sacked and burnt about 2300 B.C. ... the period of... Sargon of Akkad»[4], and before city-II was built which was about «2300 B.C.»[5], but city-II had more to tell us about the military side of its culture, since it was «fortified, with a massive wall»[6], and «was burnt

VII - FOOTNOTES

(1) ESOP, vol. 9, part 2, p. 207
(2) Read the researcher's paper «Dilmun Trade» for more details on this aspect of Dilmun.
(3) Looking for Dilmun, p. 63.
(4) Antiquities of Bahrain, p. 12.
(5) Looking for Dilmun, p. 165.
(6) Antiquities of Bahrain, p. 11.

had a very large spearhead, the length of the spears was from 5½ to 6 feet, and spearheads were from 1 to 1½ feet[36].

The fourth type of spear was found on three seals[37], and it was the largest spear found on Dilmun seals, nearly 6 feet, and it was of a different shape, «The spears carried by these cavalrymen were longer than those of the infantry and, in some cases, were over 9 feet long»[38]&[39]. This type of spear had on its lower end a circular object, and it looks as if the ciruclar object was of some weight. This spear was represented on the seals in an unusual way. There are sharp edges on the spear's stick located on both sides of the edge, and in the second example the sharp edges were on the lower part of the stick, and near the circular object[40]. This could mean that perhaps they had three different styles of this type of spear, the researcher cannot be sure one way or another, until more seals have published by the Bahrain National Museum.

The fifth and final type of spear, was found only once 410, and it was about 5 feet long, with two sharp ends at it's lower end, and could be called a double edged spear[42], this type of spear could be very effective in war, because, it could inflict a bigger wound to the enemy soldier. This unusual type of spear was used only in Dilmun, no record of this type of spear having been found in Mesopotamia, Egypt or Indus Valley.

C - Harpoons

A harpoon is «A throwing spear whose head, usually of bone or antler, consists of a pointed shaft with one or two rows of back-ward pointing barbs. It was often loosely shafted so that it would separate from its shaft after the point had struck home. A line attached to it would prevent the quarry escaping»[43]. The harpoons was used in a very early period of human history during the upper palaeolithic and mesolithic periods but Dilmun used it in a much later period, near 2000 B.C. This weapon was found only once, on a single seal[44], and it had been carved as a spear with about seven sharp edges or teeth on one side[45], by which it could be a very harmful or deadly to the enemy soldier, and according to the seal carving the harpoon did not had a long stick, or, any other stick with it. This may be because they did not carve the stick on this seal for some reason[46 & 47].

D - Bow

Bow is «An offensive weapon with long history in hunting and war»[48], and is «made of a strip of wood, metal, or other flexible material with a cord which connects the two ends so as to hold the strip bent in an arc under tension and this is used to propel an arrow»[49].

This type of weapon was found only once on a single seal[50], held by a soldier on a military ship with two other soldiers and showing other types of weapons. There is nothing unusual about this type of bow, but one point we have to keep it in our mind is that the bow was used in a sea battle and this is according to our single seal example[51]. This type of bow was in use by most, it not all ancient cultures, Mesopotamia being was one of them[52].

E - Shields

A shield is «A piece of armour carried in the hand or on the arm, usually the left, to ward off offensive weapons»[53].

Shields hold an important place in the Dilmun weapons collection in view of the large number of types, styles, size and use. I have divided the Dilmun

(36) Illustrion, B-III.
(37) Researcher's seals No. 424, 440 & 505 from Bahrain.
(38) Armies and Enemies, P. 65, fig. 83.
(39) Illustrion, B-IV.
(40) Illustrion, B-IV.
(41) Researcher's seal No. 148 from Kuwait.
(42) Illustrion, B-V.
(43) Archeology, P. 101.
(44) Researcher's seal No. 144 from Kuwait.
(45) Illustrion, C-I.
(46) Archeology, P. 101, fig. 83, Illustrion C-II.
(47) Kumal 1975, P. 19, fig. 3, Illustrion C-III.
(48) Archeology, P. 41.
(49) Webster's dictionary, P. 261.
(50) Researcher's seal No. 246 from Kuwait.
(51) Illustrion, D.
(52) Illustrion, D, from armies and ememies, P. 61, fig. 72.
(53) Archeology, P. 210.

total they had 16 different types. Harpoons, of which existed only one type, bow, also they had only one type. Finally, ships, of which there existed 6 types, and so Dilmun's weapons included six different items, in 20 types and 31 styles. I believe this is very impressive.

A - Swords

A sword is «A weapon of war and prestige, made of bronze or iron, characterized by a blade for slashing, thrusting or more generally both»[18]. There has been found two different types of swords inscribed on the Dilmun seals, the first type was a long sword, about 2 to 2½ feet in length with a middle size handle. This sword was curved in shape[19], and was found on a single seals from Kuwait, on which a soldier was holding this sword and he was in a party of three soldors on a military ship[20].

The second sword, is of Mesopotamian origin, and was in use during the Akkadian period[21] &[22], and it was shaped in a very uncommon style for a sword, being curved only on the second half of its upper part[23]. It was about 2½ to 3 feet in length, and very impressive in its styleand shape. It is found only once on a single seal from Bahrain[24].

B - Spears

A spear is «A thrusting blade mounted on a long shaft used as a weapon for war or hunting»[25], the other part of a spear, i.e. the stick is, «A device which increases the power with which a spear can be hurled. The implement consists of a stick or narrow board... with finger grips at one end»[26]&[27].

There are five different types of spear found on Dilmun seals, in different sizes and styles; these are found on 14 seals.

The first type has been found on five seals[28], and they are in the shape of a long stick, with a sharp edge, and in all the examples of this spear, the length was between 2½ to 3 feet[29], and on all five seals the spears were held by a soldier, in some cases accompanied by other soldiers or shown with other types of weapons such as harpoons, shields and ships. This type of spear was very common in most of ancient cultures, and was used by the Sumerians[30].

The second type of spear was found on six seals[31], it is of the same type as our example No. 1, with the addition of a noticeably sharp spearhead at its end, and the lengths were varied being between 2 to 3½ feet long[32], this type was very common in most ancient cultures, and Mesopotamia for example used them[33]&[34].

The third type of spear was found on two seals[35], and it was of a very similar type as the second example, with a single difference, and that is that it

(18) Archaeology, P. 224.
(19) Illustrion A-I.
(20) Researcher's seal no. 246 from Kuwait.
(21) , P. 274.
(22) Illustrion A-II.
(23) Illustrion A-II.
(24) Researcher's seal No. 443, and Dr. M. Ibrahim's No. 5 Fig. 49.
(25) Archaeology, P. 215.
(26) Archaeology , pp. 215-16.
(27) Illustrion, from lovre, A-II.
(28) Researcher's seals No. 61, 128, 144 & 567 from Kuwait and 473 from Bahrain.
(29) Illustrion B-I.
(30) , P. 184, fig. 163.
(31) Researcher's seals No. 57, 158 & 285 from Kuwait and Nos. 424, 473 & 567 from Bahrain.
(32) Illustrion, B-II.
(33) Armies and enemies, P. 61, fig. 69.
(34) Illustrion from enemies, P. 61, fig. 69, B-II.
(35) Researcher's seals No. 134 & 318 from Kuwait

protection against overhead missiles. These shields were of wicker but still very heavy so they were always rested on the ground. The shield bearer was armed with a sword and carried arrows for the archer»[72]. This type of shield was used by the Mesopotamian and Assyrian army[73], but have been found only once on the Dilmun seals[74].

These two types of shields were very heavy for a single soldier to move around, so it was used as stationary protection device.

The third and final group of Dilmun shields, are a possible gerrhon shield, a possible, because, the ancient cultures did not use a similar type; cultures like Mesopotamia, Egypt, or Indus Valley; and possibly, because, it has been carved with other weapons, mainly other gerrhon shields, and it has been carved in a method as to suggest that it was a shield.

They been found on three seals[75], and in sizes of between 5½ to 8 feet, the same size as our gerrhon shield, and they were held by hand also. It was a smaller style than the gerrhon type with the addition of a second long part, made of the same material, as the «shield», located on the middle of the shield, at 90°[76], in one case it was carved with another gerrhon.

The other possible gerrhon shields are both found on a single seal[77], both examples had a sharp edge on top of it, rather like a spear, this type of «Shield» had other three parts positioned at 90° to the top part of «Shield», and appears rather like a military flag![78]. The third style has four sharp edges which look like spears, but with three uncompleted carved lines on its side. What could it be? This is not clearly understood.

(72) Armies and Enemies, P. 65.
(73) Armies and Enemies, Illustrion, E-V, P. 63, fig. 81.
(74) Pesearcher's seals No. 40 & 126 from Kuwait.
(75) Researcher's seals No. 104, 126 & 162 from Kuwait.
(76) Illustrion, E-VII.
(77) Researcher's seal No. 504 from Hamad Town, Bahrain.
(78) Illustrion, E-VIII.
(79) Illustrion, E-IX.
(80) The Seacraft of Prehistory, P. 175.
(81) Dilmun, vol. 10, P. 10.
(82) The tigiris expeditions, P. 14.

These two styles of possible shield are unusual carvings, but they are very possibly a shield or at most a new style of spears. The seal is a fine example of a military seal, in all its aspects[79].

The only way of understanding this type of «Shield», is to find another seal or more, with a similar object or shield, carved on it for study in more detail and our best chance for such a find is the Bahrain National Museum collection of unpublished seals.

F - Ships

There are seven seals with carvings of ships on them, and the ships are divided into three groups according to their carving on the seals, i.e. the «Reed Bundle», «freeboard with sail» and «freeboard without sail». The ships are not all carved as military ships, only two of the seven inscriptions were of military craft, and this depends upon the weapons carved with the ship, another ship could be a military craft, but we cannot be sure, because the upper part of the seal was damaged. The remaining four crafts were not military ships, but that does not suggest that they could not be so used. In ancient times and in our modern 18th and 19th century A.D. ships used for a sea trade or diving and other work could be transformed into military ship if so needed. What the researcher is suggesting is that the carving of ships on Dilmun seals could be included as a military craft, because they could have been used if so required.

The Dilmun ships could sail long distances with a full load of goods, and it has been suggested that they went as far as Egypt,»... what seems more likely is that reed craft were widespread then on all the Arabian and red sea coasts and that therefore these, or their wooden successors, would have been prominent in the mind's eye of observers on the land route from the red sea to the Nile»[80]. «Sea routes existed for voyages between ancient cultures. Voyages occurred much earlier than had been previously believed»[81], and as it has been written «Summerians came by ship. They came sailing in through the Gulf... They came as mariners to the coast of the twin river valley where they founded the civilisation»[82].

collection of shields into three groups, according to their size and types; the first group of shields, the small size, able to be carried by hand easily, the second group of shields are the gerrhon type, and were very large in size. They are found on seals in different types and styles. Finally, the third group of shields, which I call possible gerrhon shields.

To understand the shields of Dilmun better, the group of shields are of small size and have been found carved on 26 seals, and in four types. Type 1, is in shape[54]&[55]. «Straight at the bottom, and curved to a point at the top»[56] &[57], and on the seals has been carved in same style, but with some differences in shape, they appear 8 times on the seals and sizes have been between 3 to 4 feet[58]. This type of shield is found on six seals only[59]. The culture that influenced Dilmun culture, also influenced them again in this matter, i.e. Mesopotamia, used the same type of shield.

Shield types, is made of the same wooden material as our shield type 1, but it is much larger in size[60], and is found carved on 15 seals[61], appearing 16 times. This type of shield has been carved in a single style, but with some differences. The differences are minor, but they are divided into three minor styles. Sizes are different also, but not to the limit, the smallest was 2 to 2½ feet, and the largest was 5 feet. This type of shield was in use in Mesopotamia or even Egypt and Indus Valley.

Shield type 3 has been carved on five seals[62]. Its shape is in the style of copper ingots as used by ancient cultures from Cyprus, and even Dilmun. This type is in the shape of letter 'H'[63], all the shields sizes were 2½ feet except one with a size 4-4½ feet.

Shield type 4, has been found on a single seal[64], and was very small in size, and possibly it was made of copper, it was very thick with a big handle, «The convex round shield had raised outer run and a central boss. The handle was rivetted to the body. This type of shield was apparently carried by royal attendants»[65], and this type was in use in Mesopotamia[66].

The second group of Dilmun shields are in the gerrhon style, which Dilmun had two types of. These types of shields were very large in height[67], and «The gerrhon has, in this case, a brickwork design but does not have an angular projection at the top. No front view of the gerrhon is shown on the reliefs but it must have been very wide to offer complete protection to 2 or 3 men»[68]. This type of shield was in use in Mesopotamia[69], and has been found on two Dilmun seals[70]. The other gerrhon style was similar to the first type, with an addition to it[71], «The gerrhon, of wicker, was as tall as a man and, in this case, was rectangular with a horizontal projection at the top as a

(54) Armies and Enemies, P. 60.
(55) Ibid, Illustrion, P. 61, fig. 67.
(56) Ibid, P. 71.
(57) Ibid, Illustrion, P. 73, fig. 101.
(58) Illustrion, E-II.
(59) Researcher's seals No. 111, 128, 148, 238, 245 & 559 from Kuwait.
(60) Illustrion, E-III.
(61) Researcher's seals No. 6, 45, 144, 146, 161, 183, 202, 216, 237, 248, 285, 293, 134, 236 & 145 from Kuwait.
(62) Researcher's seals No. 90 & 261 from Kuwait and No. 403, 417 & 473 from Bahrain.
(63) Illustrion, E-IV.
(64) Illustrion, E-VI.
(65) Armies and Enemies, P. 62.
(66) Armies and Enemies, Illustrion, E-VI, P. 61, fig. 72.
(67) Researcher's seal No. 413 from Bahrain.
(68) Researcher's seal No. 227 from Kuwait.
(69) Armies and Enemies, P. 74.
(70) Illustrion, Armies and Enemies, P. 75, fig. 106.
(71) Illustrion, E-V.

considered about Dilmun soldiers is the most unusual one. Their soldiers are found naked on nearly 40% of total seals used in this paper, without any kind of dress. This point was, and still is, a very unusual one to understand, because none of the ancient cultures which Dilmun had any relation with or had been influenced by, show their soldiers naked, not even as a carving on their seals or other objects. Cultures such as Mesopotamia, Egypt and the Indus Valley, and even cultures which had little or no relation to Dilmun, such as ancient Greek, Phincian and Hittian did not have their soldiers naked. The only example we do have of a naked man is the Libyan sailor on their vessel which «Show the mariners nude, indicating that voyages were only performed in the summer season»[95]. The Libyan example were of mariners and not of soldiers, but it gives us a new aspect of the Dlmun soldiers being naked and that they were naked in the summer season possibly! the only culture that actually sent their soldiers naked into battle were the Celt culture of Western Europe, and according to my knowledge, they were the only culture to do so, of course Celt was not as ancient as Dilmun was,»... A Celt in battle wearing only his helmet, neck torque, and belt. Pulybius describes how the gaesatae fought in this manner, naked but for torques»[96].

The only case in which Mesopotamians were found naked on seal carvings, were not of a soldier but of a hero, «Heroes always were nude when in a fight against beasts or animals»[97], the nude hero example are such cases as, «Nude hero holding unidentifiable objects in both hands»[98], or, «Nude hero between two goats which are attacked by two lions»[99], or «Nude hero restraining lion»[100].

Until now the researcher does not have any idea why the Dilmunian soldiers were naked, in near 40% of their cases. May be, if we have the large collection of unpublished seals from Bahrain National Museum, then we can find few more examples to put some light on this unusual point of intrest. Until then the whole thing is very interesting to think of, but we cannot reach any valid conclusion.

IV. CONCLUSION

Now we should look at the ancient culture of Dilmun from a different angle, or from different point of view.

They were not just sea trade voyages or a trade centre for an ancient region only anymore. They were, and following the findings of this research, a culture with a very impressive collection of different types and styles of weapons. Too impressive a collection to be held by a minor military culture. They were very active in military life and the military had a noticeable influence on their culture. In line with the number of seals with carvings of military objects, 49 seals, this is an appreciable number. The researcher is very hopeful that there may be, and this is a very strong may be, much more weapons and data on Dilmun's military aspect carved on the unpublished seals collection at Bahrain National Museum. The so-promising-seals may have data of similar weapons or different type or groups of weapons. Those valuable unpublished seals could give us more information on aspects of Dilmun military life, possibly much more than we have at present.

Finally, Dilmun culture was then and from now on should be thought of as a military culture.

(95) America BC, P. 116.
(96) The Celtic World, P. 6.
(97) Sumer, P. 68.
(98) Ibid, p. 74, fig. 19.
(99) Ibid, p. 74, fig. 13.
(100) Ibid, p. 74, fig. 17.

The first type of ship, the reed bundle has been found carved on two seals[83], on one of these seals there are carvings of weapons, such as bows and swords, on the second seal there may be a carving of a spear. The two seals are military seals, and this type of craft are, «apparently the earliest type and has an upright bow and stern, an ancient figurehead, and lashings round the hull which suggest this was a reed bundle craft»[84].

This type of ship was made of, possibly, date palm boughs, after removing the leaves. This type is still made and used in Bahrain and some other Gulf areas[85].

The second type of ship, «The freeboard with sail», has been found carved on only a single seal[86], but there were no military objects carved on this seal. This ship was made of wood, it was a «Double-ended craft with a much greater freeboard, a mast amidships, and a steering system. The absence of lashings, the general shape and the presence of a large mast all suggest that the construction must be of wood rather than reeds»[87]. The importance of this type of ship is that it supports the theory that triangular sails were in use in the Gulf area in ancient times[88].

The third and final class of ships, are the freeboard without sail, and have been found on four seals[89]. None of them had any weapons carved on them. This type of ship is evidently made of wood, «The hull is much the same, with plenty of freeboard, high double ended bow and stern, and a mast amidships, but the animal head and tail have been replaced by two birds»[90]. On three of the seals there existed a masthead on the ships[91], but on one Seal No. 568 no masthead exist.

III. SOLDIERS OF DILMUN

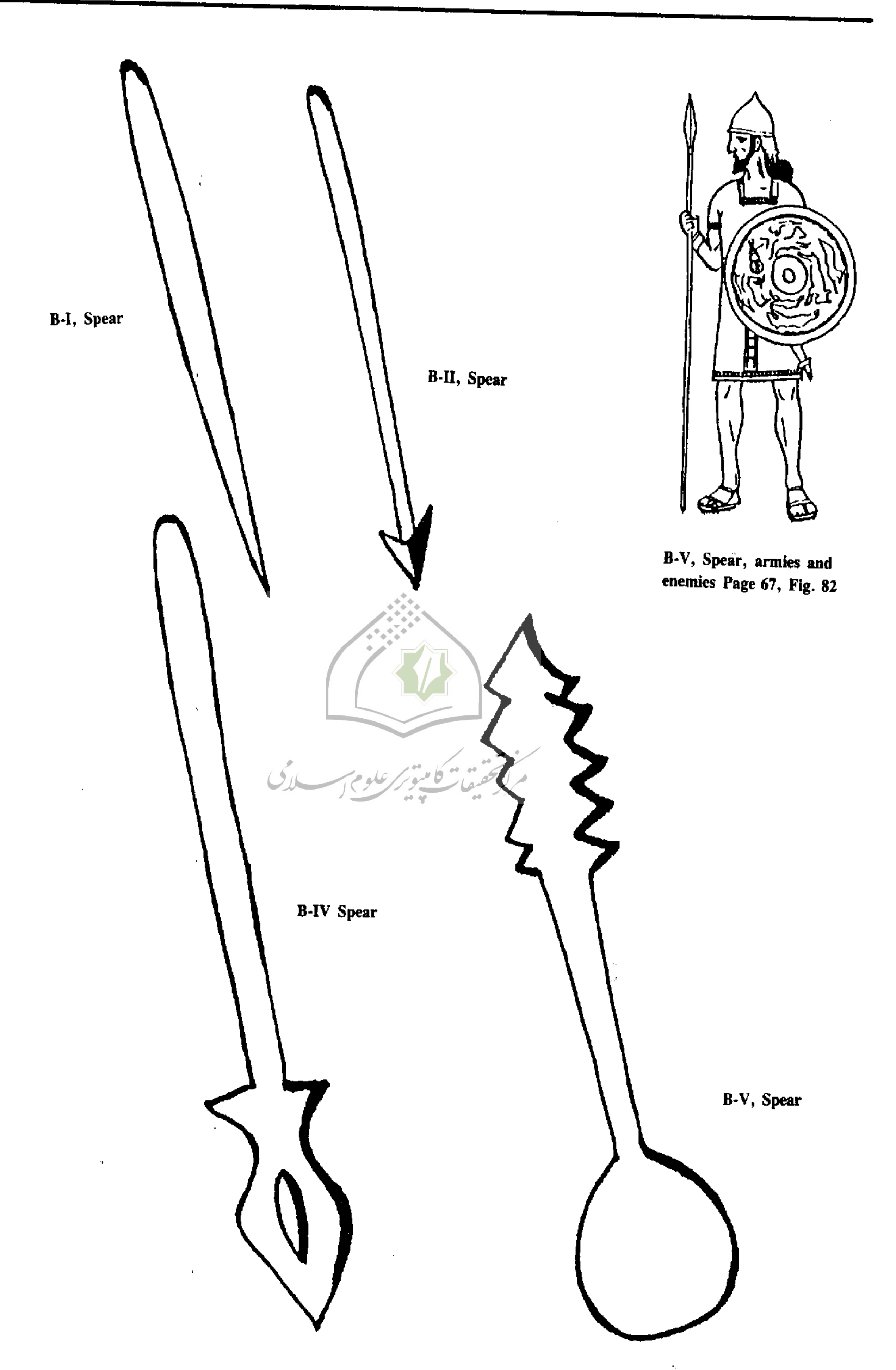
The Dilmunian soldiers were dressed, if they were dressed, in Sumerian fashion, i.e. thick wood dress, and they shaved their hair and beard in Sumerian style also. In some cases their hair and beards were Akkadian in style, including their hats which were in Sumerian or Akkadian styles.

The important points to be recorded about the soldiers of Dilmun are the following: Their non-military activities performed while their weapons were in their hands, such activities as, dancing, «Dancers holding hands»[92]; and the existence of musical instruments[93], the main activity is the actual performance of a sexual act while holding weapons in their hand[94]. These points of interest suggest the possibility that the soldiers mayhave engaged in such activities before the battle started, as similar activities existed within other cultures. As for example, the war dance performed by African and Arabian tribes before, or, after the war or victory.

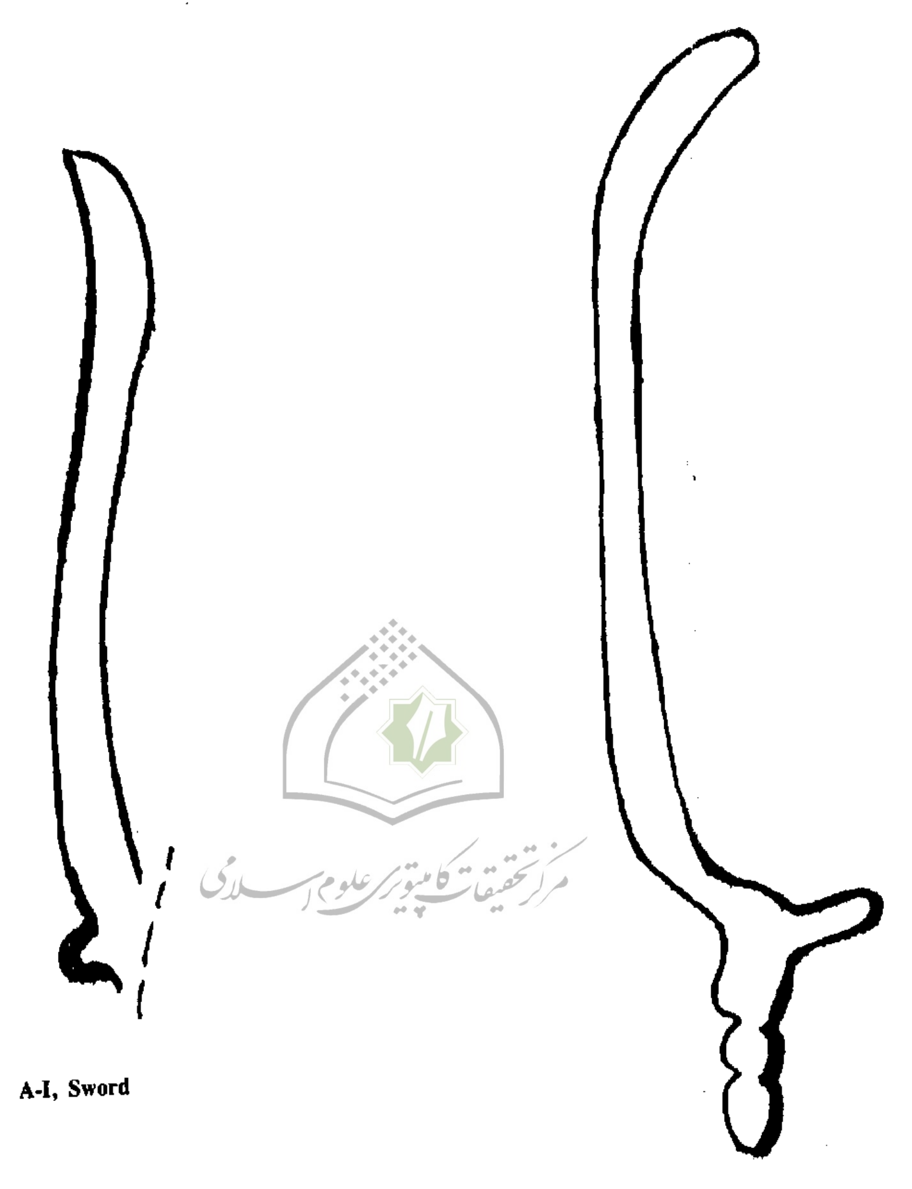
Over half, 55%, of the seals used in this paper have carvings of representative item(s) to the goddess of war, Ananna, who also was goddess of earth, sex, such item(s) such as example, bull, gazelle, date tree and a sexual act. These are logical items or objects to be found carved on military seals with military objects or activities on them, because Ananna was the goddess of war in ancient Mesopotamian culture.

The final and the main point of interest to be

(83) Researcher's seals No. 246 & 566 from Kuwait.
(84) Seacraft, P. 174.
(85) Illustrion, F-I.
(86) Researcher's seal No. 153 from Kuwait.
(87) Seacraft, P. 176.
(88) Illustrion, F-II.
(89) Researcher's seals No. 305, 352 & 568 from Kuwait and No. 439 from Bahrain.
(90) Seacraft, pp. 176-7.
(91) Illustrion, F-III.
(92) , P. 97.
(93) Researcher's seal No. 568 from Kuwait.
(94) Researcher's seal No. 236 & 216 from Kuwait.


B-I, Spear
B-II, Spear
B-V, Spear, armies and enemies Page 67, Fig. 82
B-IV Spear
B-V, Spear

V - ILLUSTRION:

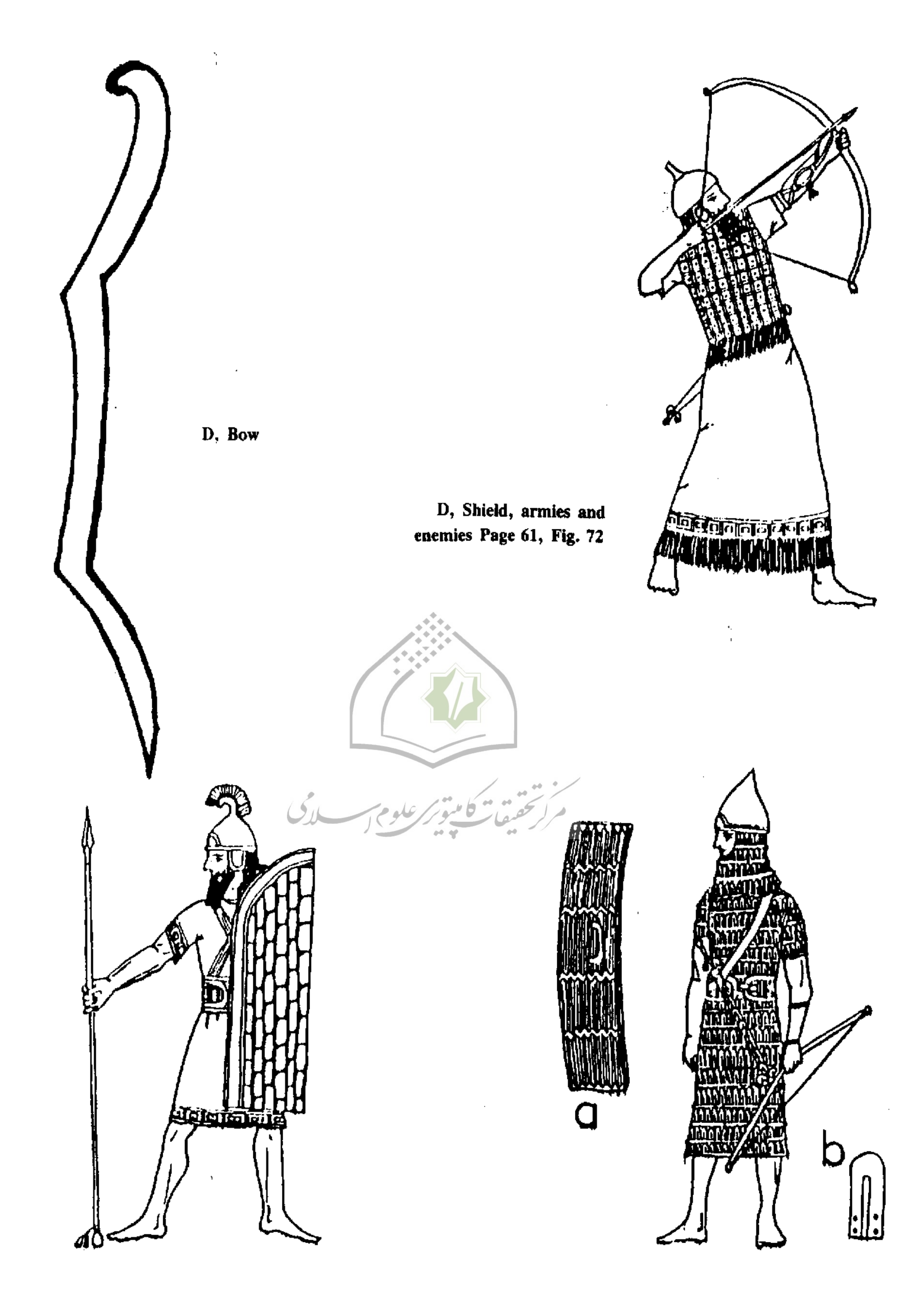


A-I, Sword

A-11, Sword



A-II, Sword, Tello, Louvre

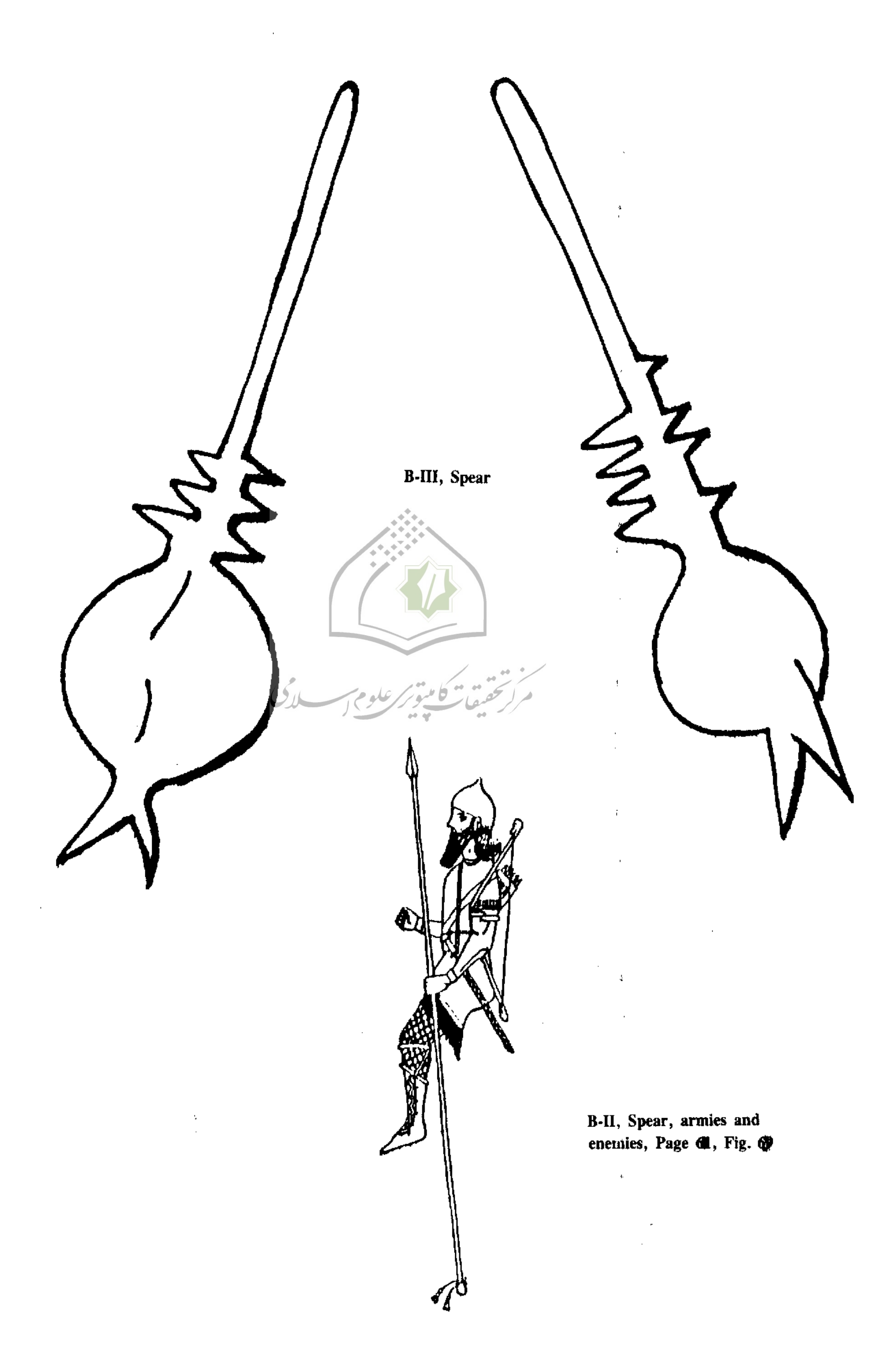


D, Bow

D, Shield, armies and enemies Page 61, Fig. 72

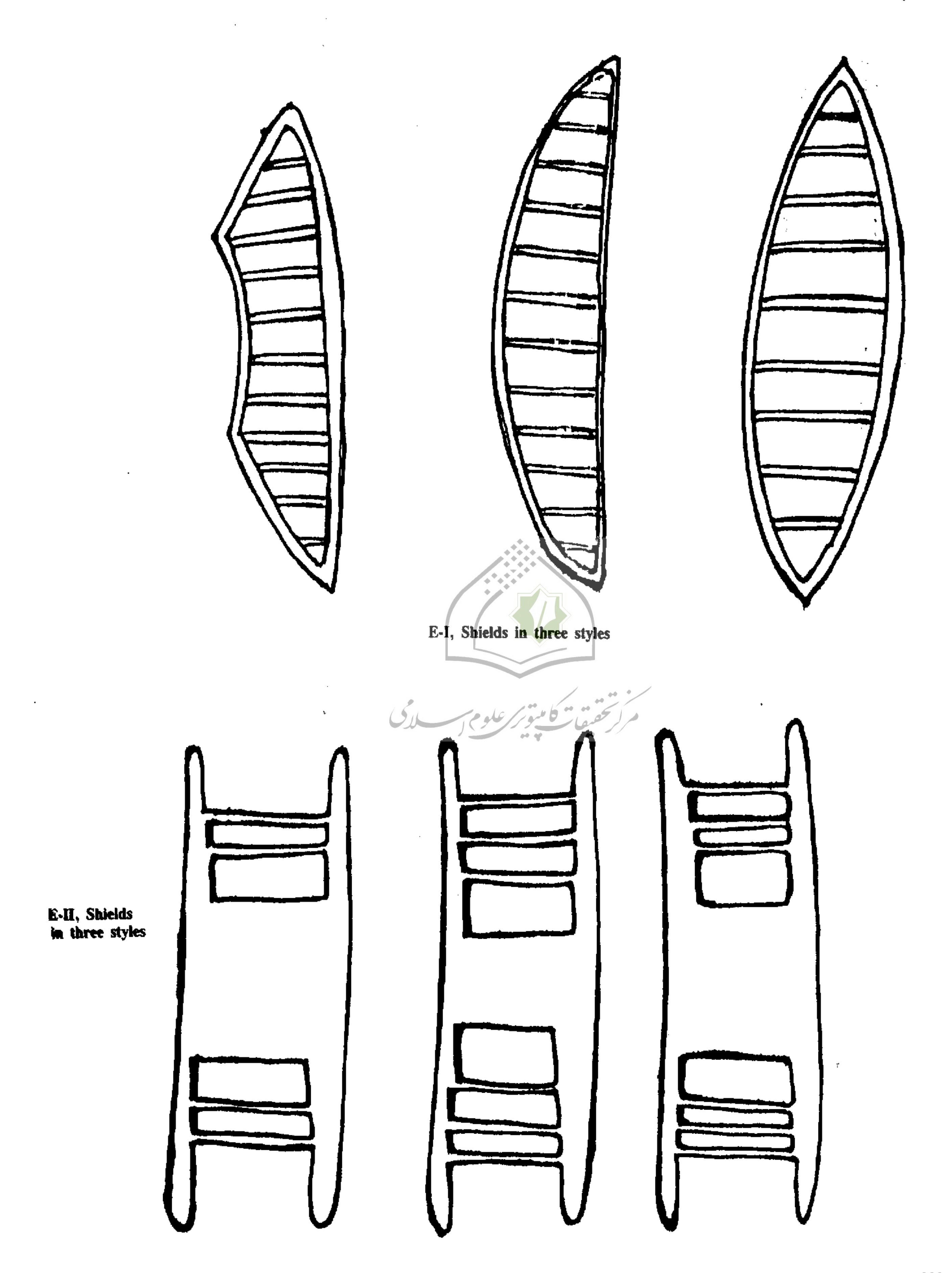
E-I Shield armies and enemies
Page 73, Fig. 101

E-I, Shield armies and enemies
Page 61, Fig. 67.



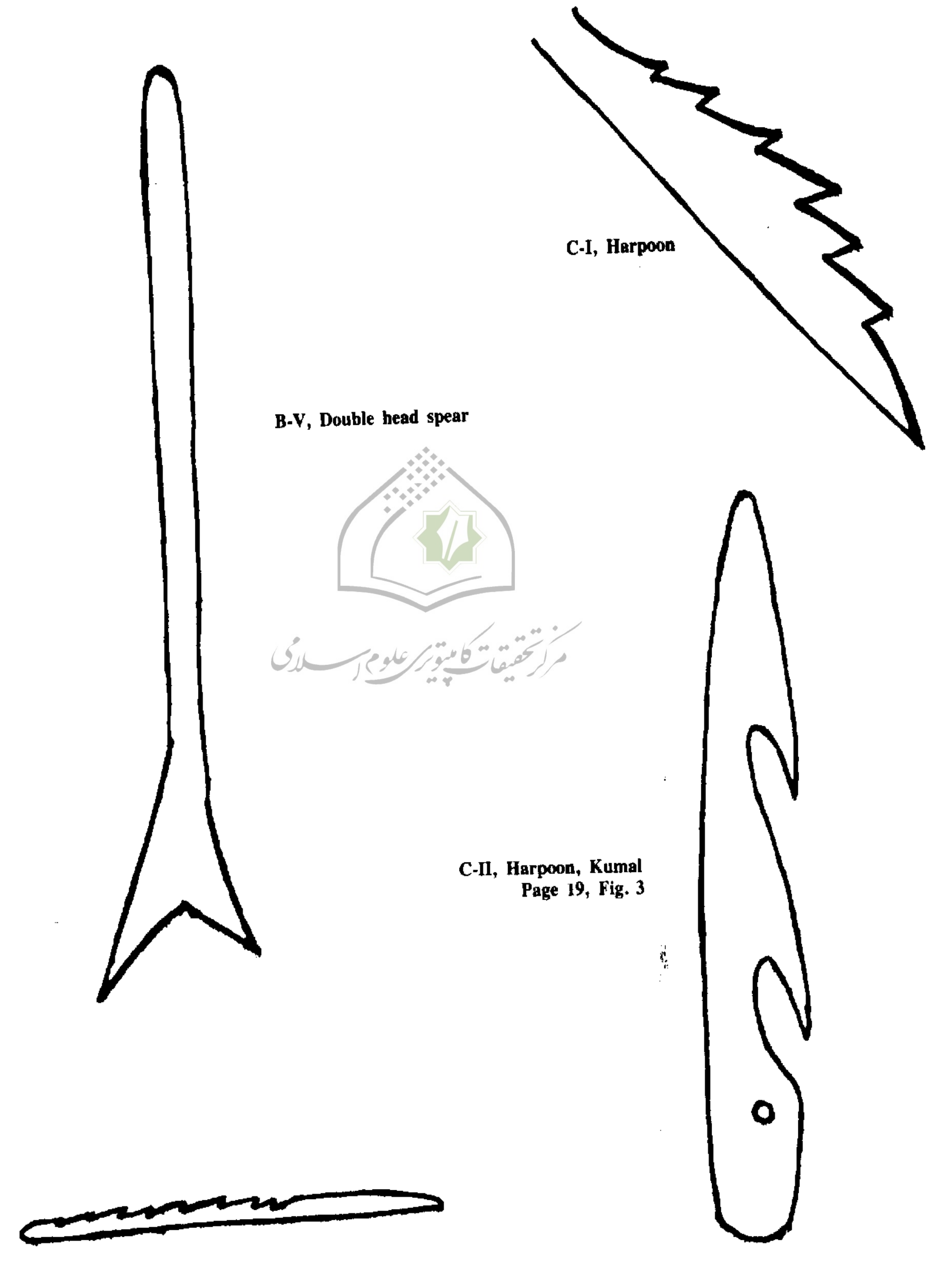
B-III, Spear

B-II, Spear, armies and enemies, Page 61, Fig. 69



E-I, Shields in three styles

E-II, Shields in three styles

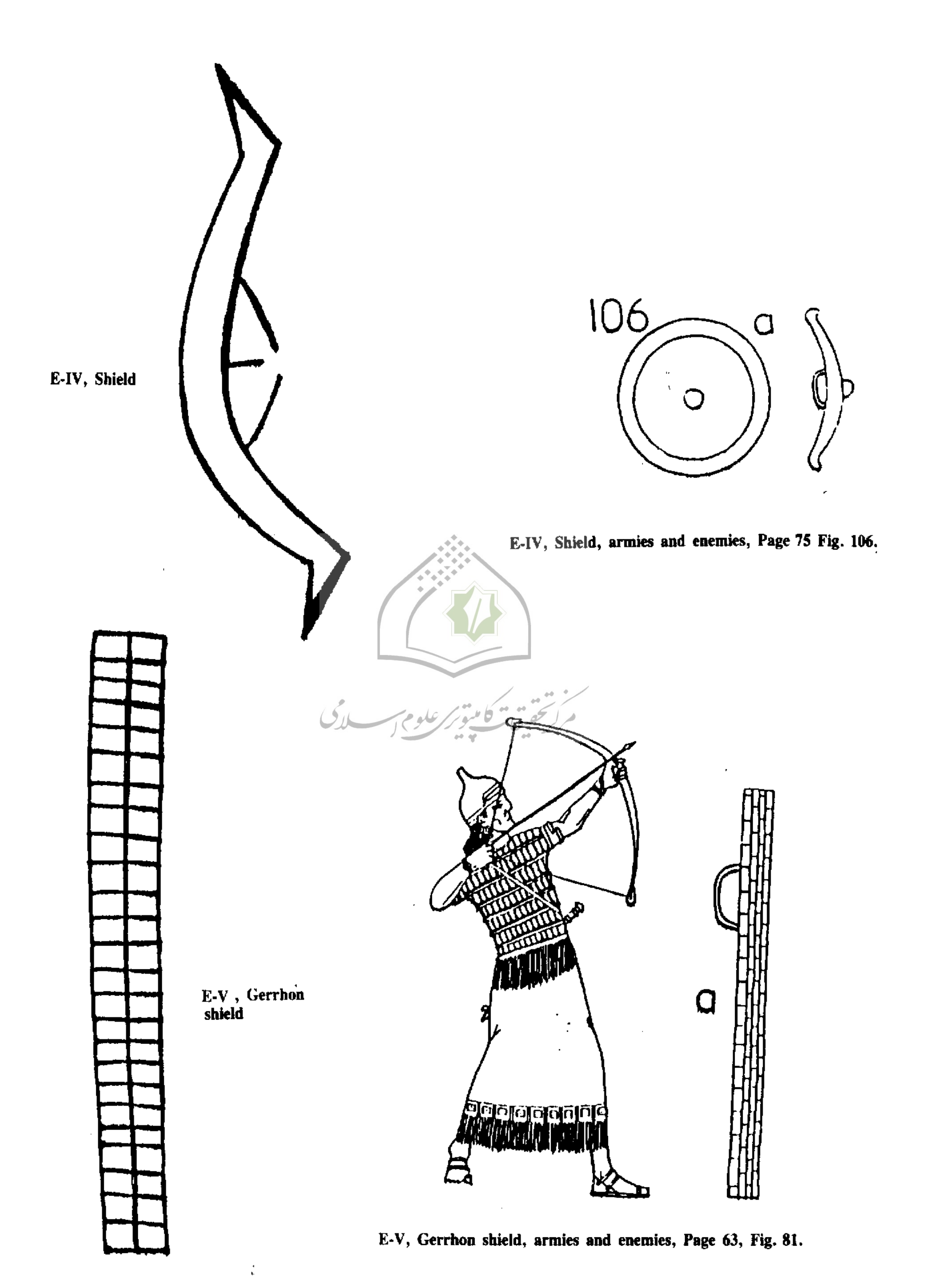


C-I, Harpoon

B-V, Double head spear

C-II, Harpoon, Kumal
Page 19, Fig. 3

C-III, Harpoon, Archaeology Page 101



E-IV, Shield

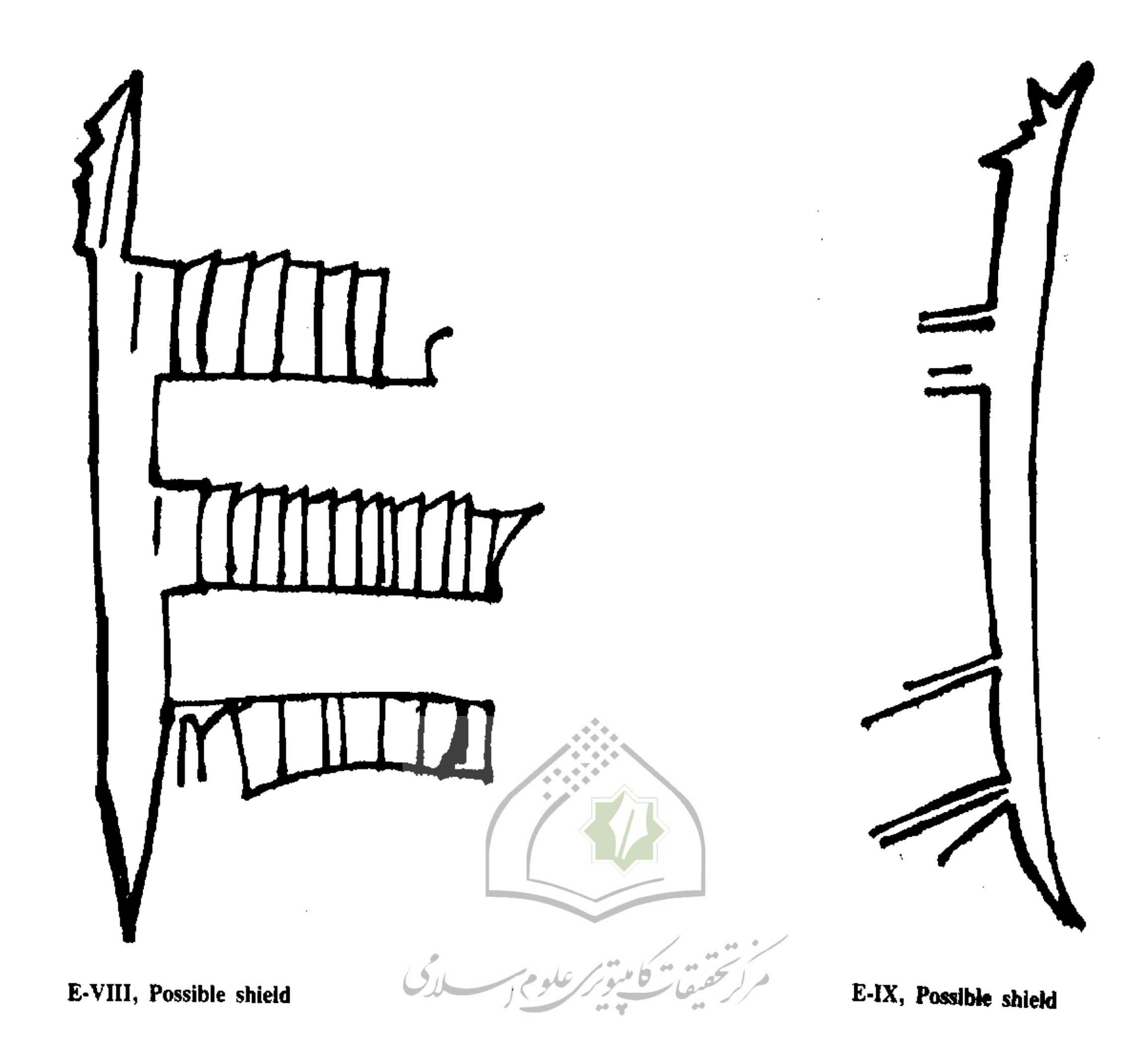
E-IV, Shield, armies and enemies, Page 75 Fig. 106.

E-V , Gerrhon shield

E-V, Gerrhon shield, armies and enemies, Page 63, Fig. 81.

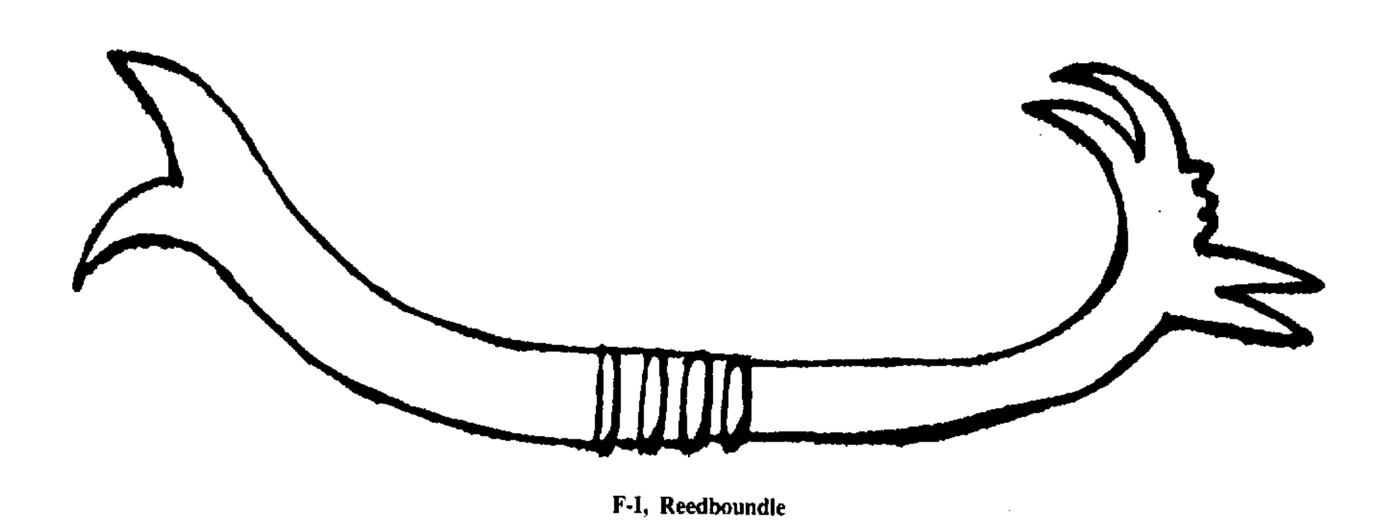


E-III, Shield in three styles



E-VIII, Possible shield

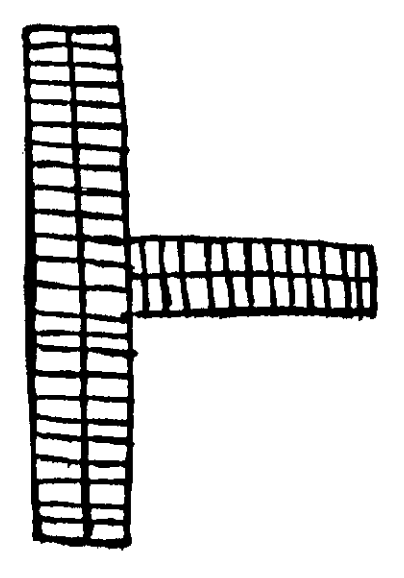
E-IX, Possible shield



F-I, Reedboundle

E-V, Gerrhon Shield

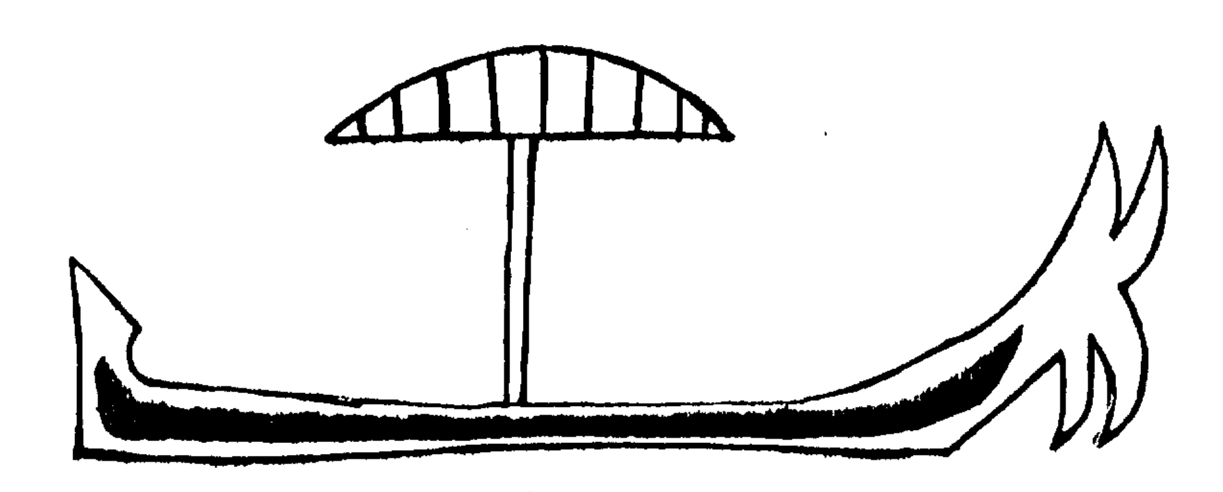
E-VI, Armies and enemies, page 61 Fig. 72.



E-VII, Possible gerrhon shield

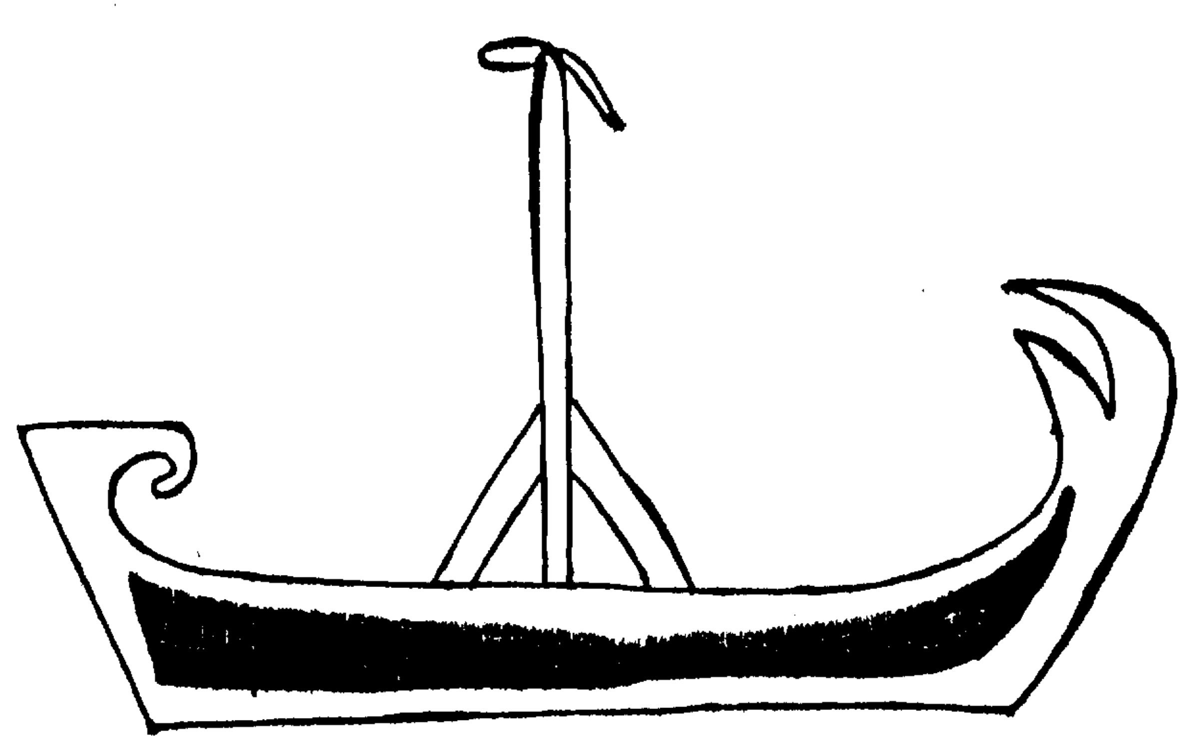


Seal no. 161, from kuwait. Shield E-II



F-II Freeboard with sail



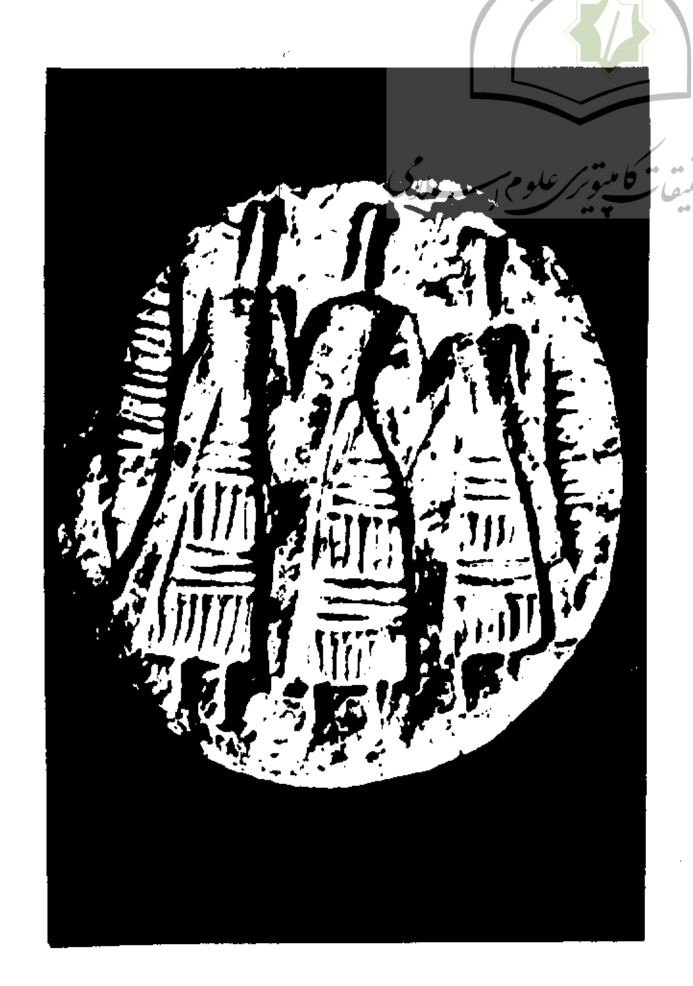


F-III, Freeboard without sail





Seal no. 246, from kuwait. Reedboundle ship, F-I, Sword, A-I, Bow, D.



Seal No. 245, from Kuwait. Shield E-I

(54) Armies and Enemies, P. 60.
(55) Ibid, Illustrion, P. 61, fig. 67.
(56) Ibid, P. 71.
(57) Ibid, Illustrion, P. 73, fig. 101.
(58) Illustrion, E-II.
(59) Researcher's seals No. 111, 128, 148, 238, 245 & 559 from Kuwait.
(60) Illustrion, E-III.
(61) Researcher's seals No. 6, 45, 144, 146, 161, 183, 202, 216, 237, 248, 285, 293, 134, 236 & 145 from Kuwait.
(62) Researcher's seals No. 90 & 261 from Kuwait and No. 403, 417 & 473 from Bahrain.
(63) Illustrion, E-IV.
(64) Illustrion, E-VI.
(65) Armies and Enemies, P. 62.
(66) Armies and Enemies, Illustrion, E-VI, P. 61, fig. 72.
(67) Researcher's seal No. 413 from Bahrain.
(68) Researcher's seal No. 227 from Kuwait.
(69) Armies and Enemies, P. 74.
(70) Illustrion, Armies and Enemies, P. 75, fig. 106.
(71) Illustrion, E-V.
(72) Armies and Enemies, P. 65.
(73) Armies and Enemies, Illustrion, E-V, P. 63, fig. 81.
(74) Researcher's seals No. 40 & 126 from Kuwait.
(75) Researcher's seals No. 104, 126 & 162 from Kuwait.
(76) Illustrion, E-VII.
(77) Researcher's seal No. 504 from Hamad Town, Bahrain.
(78) Illustrion, E-VIII.
(79) Illustrion, E-IX.
(80) The Seacraft of Prehistory, P. 175.
(81) Dilmun, vol. 10, P. 10.
(82) The tigiris expeditions, P. 14.
(83) Researcher's seals No. 246 & 566 from Kuwait.
(84) Seacraft, P. 174.
(85) Illusrion, F-I.
(86) Researcher's seal No. 153 from Kuwait.
(87) Seacraft, P. 176.
(88) Illustrion, F-II.
(89) Researcher's seals No. 305, 352 & 568 from Kuwait and No. 439 from Bahrain.
(90) Seacraft, pp. 176-7.
(91) Illustrion, F-III.
(92) الفن العراقي القديم, P. 97.
(93) Researcher's seal No. 568 from Kuwait.
(94) Researcher's seal No. 236 & 216 from Kuwait.
(95) America BC, P. 116.
(96) The Celtic World, P. 6.
(97) Sumer, P. 68.
(98) Ibid, p. 74, fig. 19.
(99) Ibid, p. 74, fig. 13.
(100) Ibid, p. 74, fig. 17.

VII - FOOTNOTES:

(1) ESOP, vol. 9, part 2, p. 207
(2) Reed the researcher's paper «Dilmun Trade» for more details on this aspect of Dilmun.
(3) Looking for Dilmun, p. 63.
(4) Antiquities of Bahrain, p. 12.
(5) Looking for Dilmun, p. 165.
(6) Antiquities of Bahrain, p. 11.
(7) Ibid, p. 11.
(8) Welcome to Bahrain, P. 74.
(9) Looking for Dilmun, P. 57.
(10) Antiquities of Bahrain, P. 12.
(11) Looking for Dilmun, PP. 370-71.
(12) Holocence Land use, P. 65.
(13) The Journal of Oman Studies, P. 82.
(14) Dilmun discovered, P. 153.
(15) Excavations of the Arab expedition, P. 35.
(16) For more detail illustration and archaeological information reed P. 80, fig. 47/1, 2, 3, 4, 5 & 6 and P. 156 fig. 47, from Excavation of the Arab Expedition.
(17) The Dilmun burial complex at sar, P. 68.
(18) Archaeology, P. 224.
(19) Illustrion A-I.
(20) Researcher's seal no. 246 from Kuwait.
(21) , P. 274.
(22) Illustrion A-II.
(23) Illustrion A-II.
(24) Researcher's seal No. 443, and Dr. M. Ibrahim's No. 5 Fig. 49.
(25) Archaeology, P. 215.
(26) Archaeology, pp. 215-16.
(27) Illustrion, from lovre, A-II.
(28) Researcher's seals No. 61, 128, 144 & 567 from Kuwait and 473 from Bahrain.
(29) Illustrion B-I.
(30) , P. 184, fig. 163.
(31) Researcher's seals No. 57, 158 & 285 from Kuwait and Nos. 424, 473 & 567 from Bahrain.
(32) Illustrion, B-II.
(33) Armies and enemies, P. 61, fig. 69.
(34) Illustrion from enemies, P. 61, fig. 69, B-II.
(35) Researcher's seals No. 134 & 318 from Kuwait
(36) Illustrion, B-III.
(37) Researcher's seals No. 424, 440 & 505 from Bahrain.
(38) Armies and enemies, P. 65, fig. 83.
(39) Illustrion, B-IV.
(40) Illustrion, B-IV.
(41) Researcher's seal No. 148 from Kuwait.
(42) Illustrion, B-V.
(43) Archeology, P. 101.
(44) Researcher's seal No. 144 from Kuwait.
(45) Illustrion, C-I.
(46) Archeology, P. 101, fig. 83, Illustrion C-II.
(47) Kumal 1975, P. 19, fig. 3, Illustrion C-III.
(48) Archeology, P. 41.
(49) Webster's dictionary, P. 261.
(50) Researcher's seal No. 246 from Kuwait.
(51) Illustrion, D.
(52) Illustrion, D, from armies and ememies, P. 61, fig. 72.
(53) Archeology, P. 210.

18 - The Celtic World
By: *Barry Cunliffe*
The Bodley Head Ltd., London, UK. 1979.

19 - Sumer, A Journal Published By: Dept. of Antiquities and Heritage, Baghdad, Iraq, vol. 38, No. 1&2, 1982. «Seals Reports».

20 -

سومر ـ فنونها، حضارتها

الفن العراقي القديم

الفن العراقي القديم ـ سومر وبابل واشور
دكتور ثروت عكاشة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ـ لبنان

21 -

سومر ـ فنونها وحضارتها
تأليف: اندري بارو
ترجمة: د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي
وزارة الثقافة والفنون
بغداد ـ العراق، ١٩٧٧



VIII - REFERENCES:

1 - Holocence Land Use Variations on the Bahrain Islands
By: *Curtis Evan Larsen*
PH.D. Theses to Chicago University, Chicago, Ill., U.S.A.

2 - Welcome To Bahrain
By: *James Belgrave*
The Augustan Press, London, UK, 1970.

3 - Looking For Dilmun
By: *Geoffery Bibby*
Proof edition, London, UK, 1970.

4 - Antiquities Of Bahrain
Bahrain Historical & Archaeological Society,
Ministry of Education, Bahrain, 1971.

5 - The Epigraphic Society Occasional Publications
vol. 9, part 2, # 227, 1981, San Diego, Cal. USA.
«The Dilmun Civiliation-Evidence of the Seals on the Trade and Economy», By: *Ali Akbar H. Bushiri.*

6 - The Journal of Oman Studies
vol. 4, 1978, Ministry of National Heritage, Muscat, Oman, «The Ali Cemetery: Old Excavations, Ivory and Radiocarbon Dating».
By: *Juluan Reade and Richard Burleigh.*

7 - Excavations of the Arab Expedition at Sar El-Jisr, Bahrain
By: *Moawiyah Ibrahim*, Ministry of Information, Bahrain, 1983.

8 - The Dilmun Burial Complex at Sar, The 1980-82 Excavations in Bahrain.
By: *Mohammed Rafique Mughal*, PH.D., Dept. of Antiquities and Museum, Ministry of Information, Bahrain, 1983.

9 - Dilmun Seals Photos Collection in Position of the Researcher.

10 - The Penguin Dictionary of Archaeology
By: *Warwick Bary and David Trump*
Penguin Books, UK, 1973.

11 - Armies and Enemies of Ancient Egypt and Assyria
By: *Alan Buttery*
A War Games Research Group Publication, UK, 1974.

12 - Kumal A Journal of Jysk Archaeologisk Selskab, No. 1975, Denmark
«New Harpoon Finds», By: *Soren H. Andersen*

13 - Webster's Third New International Dictionary Encyclopaedia Britannica, INC., Chicago, ILL., USA, 1981.

14 - The Seacraft Perhistory
By: *Paul Jahstone*
Harvard University Press, Cambridge, Mass., USA, 1980.

15 - Dilmun, A Journal of Bahrain Historical & Archaeological Society, vol. 10, 1982, Bahrain.
«Dilmun's Ships», By: *Ali Akbar H. Bushiri.*

16 - The Tigiris Expeditions
By: *Thor Heyerdahl*
Goerge Allen and Urwin, London, UK. 1980.

17 - America B.C.
By: *Barry Fell*
A Demeter Pree Book, New York, N.Y., USA. 1977.

محاضرة العدد

محاضرة الدكتور فؤاد سزكين مدير معهد التراث العلمي العربي والاسلامي في فرانكفورت

اعداد: محمد جاسم المشهداني

ضمن الموسم الثقافي لاتحاد المؤرخين العرب استضافت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب في جلسة مسائية يوم السبت 1988/1/3 الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين مدير معهد التراث العلمي العربي والإسلامي في فرانكفورت، حيث تحدث في محاضرته بالاتحاد عن دور المعهد في خدمة التراث العربي والإسلامي، وحضر المحاضرة جمع غفير من أساتذة التاريخ، حيث تحدث الدكتور فؤاد سزكين قائلاً:

«أخواتي وإخواني العرب، مع إنني تركي، لكني أجد طوال حياتي منذ انشغالي باللغة العربية قدري من قدركم ما يؤلمكم يؤلمني، وما يفرحكم يفرحني، بسبب المشاغل لا أخرج من مدينتي، ولكني أذهب إلى المدن العربية، كي لا أزور تركيا وذلك بسبب عدم الارتباط، عندما آتي إليكم أثناء انشغالي بالعلم قد يجد كلامي قبولاً أو رفضاً لديكم، جئت مستجيباً لدعوة د. نوري القيسي، ودعوة الزميل النجار الذي دعاني إلى هنا، للمعهد الذي أسسناه في إطار جامعة فرانكفورت، أسس المعهد في اطار الجامعة وافتتح منذ 1982، والدوافع أنني كنت لا أزال أستاذاً في علوم التاريخ في جامعة فرانكفورت، والمسؤولية كبيرة، إضافة إلى مسؤولية تدريس تاريخ العلوم الطبيعية في جامعة فرانكفورت، والكشف عن إنتاجات المسلمين وهي مسؤولية كبيرة جداً، والآن استطيع تحمل المسؤولية هذه، وكنت أتحمل مسؤولية تأليف تاريخ التراث العربي لضرورتها، وكان واجباً علينا الاستمرار في كتابة هذا الكتاب، وهذه المسؤولية كبيرة.

لقد ابتدأت بتأليف تاريخ التراث العربي باللغة الألمانية لكي يكون ملحقاً لتاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وبعد ذلك فكرت في كتابته بشكل جديد ومتكامل، في ألمانيا وباللغة الألمانية، وابتدأ الألمان بالقبول إلى حدٍ ما، وأن هناك عملاً كبيراً للمستشرقين، وإنني كنت راضياً عن أعمالهم، ولكني أعرف أنهم لا ينظرون إليها نظرة صحيحة وكانوا يخطئون ولا يحبون المستشرقين الذين كانوا يفكرون أنهم يستطيعون أن يكتبوا كل شيء وأن هذا الميدان مفتوح لهم وينظرون إلينا كأطفال لا يفهمون شيئاً، وأنتم العرب لا تريدون أن تهتموا بما كتبه المستشرقون، وبصراحة أرى من واجبي تحمل المسؤولية لكونكم لا تعرفون اللغات الكثيرة وعندكم خوف من تعلم اللغات، ويجب أن تطلعوا على ما كتب، وأحياناً تقدمون على عمل مؤتمرات وتناقشون مناهج المستشرقين هذا خطأ، لكونكم لا تعرفون كتبهم، ولا تعرفون عنهم إلاّ الشيء القليل ومعرفتكم قليلة وهم لا يؤمنون بما أنتم تؤمنون، وأن الذين يخالفونكم تشتمونهم. فاما أن تتقوا المدارس من شر أفكارهم، وتعملون مؤتمراً بعنوان مناهج المستشرقين وتعمموا الأشياء المكتوبة من قبل المستشرقين فمعنى ذلك أنكم تهربون من الواقع، وتضعون رؤوسكم في الرمال.

لذلك كان هذا دافعاً لي لعمل معهد لتكوين العنصر

المثقف الواعي الذي يقرأ ويستوعب ويستفيد من كل ما كتب ويدرس الأغلاط والنظريات غير الصحيحة، ويفكر بها ليحصل بعد التفكير على نظريات صحيحة ويعمل لكي يكون هذا المعهد مركزاً للطلاب والأساتذة من العالم العربي والاسلامي يتعلمون فيه، وليطلعوا فيه على بعض دراسات المستشرقين، وهذا هو السبب الأهم، وأنا أكتب التاريخ العربي، وهم يقولون إنك تقلد المستشرقين. فأنا لست غبياً، فأنا لم أسرق شيئاً من المستشرقين لأنهم أذكياء، ولم أعط لهم فرصة حتى الآن، فأنا لا أقلّدهم، ولكني أطور المناهج الخاصة، ليكون هذا المعهد في كفاح كبير لتبيان مكانة المسلمين في العلوم، ولكي يكون لعلماء المستقبل مكانة أكبر مني، ولكي نعطي للعرب في هذا المعهد فرصاً أكبر ليصلحوا مناهجهم، وليصلوا عبر هذا المعهد إلى أفضل مستوى ونوعية بالمقارنة مع دراسات المستشرقين، ولكن كان لتأسيس المعهد في ألمانية مقاومة شديدة وخاصة من الأساتذة الذين يدرّسون في جامعة فرانكفورت، من اليهود والجالية اليهودية، إن المعهد يقوم بالتدريس والبحث في جامعة فرانكفورت، ولا أحد من الألمان يموله، وإنما يمول من مبالغ الوقف من قبل الأقطار العربية والاسلامية وقد ساندت دولة الكويت المشروع، ويعدُّ المبنى أجمل مبنى وأطرف مبنى في جامعة المانية، وفي رحلاتي العديدة عرضت المشروع على دول أخرى بحيث صار لدينا رصيد جيد لتمويل المعهد مع ربع هذا الرصيد، وافتتحنا المعهد في شهر مايو سنة 1982 ومرّت الآن خمس سنوات ونصف، وبطبيعة الحال لم نفتح في مركز أوروبا مثل هذا المعهد وهو ينظر إليه كأنه وكر للتجسس وماذا يفعل هذا المعهد، وهذا متعلق بالأشخاص الذين تولوا المسؤولية، فهو يهدف إلى كثير من الخدمات، ففي التدريس لم نجد الأساتذة بالمواصفات التي تقبلها جامعة فرانكفورت، وتدريس العلوم الإسلامية هي من مسؤولياتي من خلال وجودي كأستاذ في جامعة فرانكفورت، وتدريس العربية مستمر بها أيضاً، وهناك الآن حوالى (200) طالب يرغبون بالعربية، وقد حُدد العدد بـ (90) طالباً، من الألمان ومن غيرهم، وهم يتعلمون العربية بسرعة وعلى حسب ما يراد؛ وبجانب التدريس في إطار ضيق أردنا أن نركز أنفسنا على ناحية البحث ووضعنا بعض المشاريع ولا نزال نضع مشاريع أخرى، ونحن نهرب من التقليد، فما الذي يستطيع أن يفعله المعهد ولا يفعله غيره، وما هو الأكثر فائدة.

1) نشر مجلة تاريخ العلوم العربية والإسلامية هدفه أن يجمع بحوث طريفة لمنتسبي المعهد، أو يشوّق الباحثين خارج المعهد في العالم ليرسلوا لنا بحوثهم لنشرها في المجلة، وقد صدر (3) أعداد والرابع تحت الطبع، باللغة الفرنسية والألمانية والانكليزية والعربية، واكتب مقالاتي بالعربية لاخاطبكم مباشرة وبدون أي واسطة، وفي كل عدد حاولت أن أبين اكتشافات مهمة للمسلمين وللعرب غير معروفة إلى الآن وهي منسوبة خطأً إلى الأوروبيين. وقد أصبح للمجلة مستوى عالمي معروف وبدأت تصلنا بحوث من جميع أنحاء العالم لنشرها في المجلة.

2) رأينا أن ننشر المخطوطات المهمة النادرة التي لم تنشر والتي إلى حد ما بقيت غير معروفة في مكتبات العالم، بالطبعة التصويرية وعملنا برنامج للمخطوطات، وتسمى هذه السلسلة سلسلة Coeo ونشرنا ما يزيد على (70) مخطوطاً في نواحي العلوم، ودائماً مقدمة بالإنكليزية والعربية، وكتبت المقدمات كلها، أحاول أن أبين قيمة هذا الكتاب الذي ينشر في تاريخ العلوم، وسوف استمر في إصدار السلسلة، ونهيّء الآن مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، (9) مجلدات بخط المؤلف وسينشر هذه السنة، وكتاب أحسن التقاسيم للمقدسي استناداً إلى نسخة صوفيا أيا.

3) سلسلة Py مخصصة للدراسات الطريفة ونشرنا فيها محاضراتي ونشرنا كتاباً للعالم الأميركاني ادوارد كنيدي، حول احداثيات الجغرافيين العرب، درجات الأطوال والعروض الواردة في الكتب الفلكية ونشرناه، وسيعطي للجغرافيين امكانية كبيرة للاستفادة من هذه الإحداثيات.

ببليوغرافيا حسب العلوم، ابتدأنا بعمل ببليوغرافيا عن كل ما كتب بالألمانية عن العلوم العربية والاسلامية، دراسات، مقالات بحوث، وجمعنا إلى الآن (30,000) عنوان، مرتبة على المواضيع، وأنجز (5) مجلدات مع الفهارس المختلفة أسماء القدماء والمحدثين، واصطلاحات، وغيرها، ومن أهدافنا ترجمته إلى اللغة العربية بالتعاون مع بعض المؤسسات في البلاد العربية، وخلال ستة أشهر سيتم

انجاز:

- مشروع سلسلة Dy مخصصة لعلم الخرائط ترجمة كتاب بطليموس باللغة العربية، وتم طبع كتاب «الأمير يوسف كمال» وهو تركي مصري، في 16 مجلداً، 70×60سم، كل مجلد عبارة عن 15-20 كغ طبع 26-1952، طبع في مطبعة بريل في منتهى الجمال، جمعوا نصوصاً وخرائط في (20) لغة، صينية ولاتينية، نشروها في (1000) خريطة باللغة الفرنسية، وأن المؤلف لم ينشر إلا (100) نسخة فقط، ونشر الكتاب، ونشرناه في (6) مجلدات وهي طبعة جيلة، «يطلب الإسراع بطلبه».

- إسهام المسلمين في علم الجغرافية من أكبر ما يتصور وأن الجغرافية الرياضية أبدعوا فيها، وساهموا في تطوير خريطة العالم وهذا رد على القول بأن بطليموس هو الفريد في موضوع علم الجغرافية الرياضية، وهذا خطأ 100% وفي هذا الموضوع خصص أطلس جديد في (3) لغات بـ (50) خريطة ويخرج خلال شهر بإذن الله.

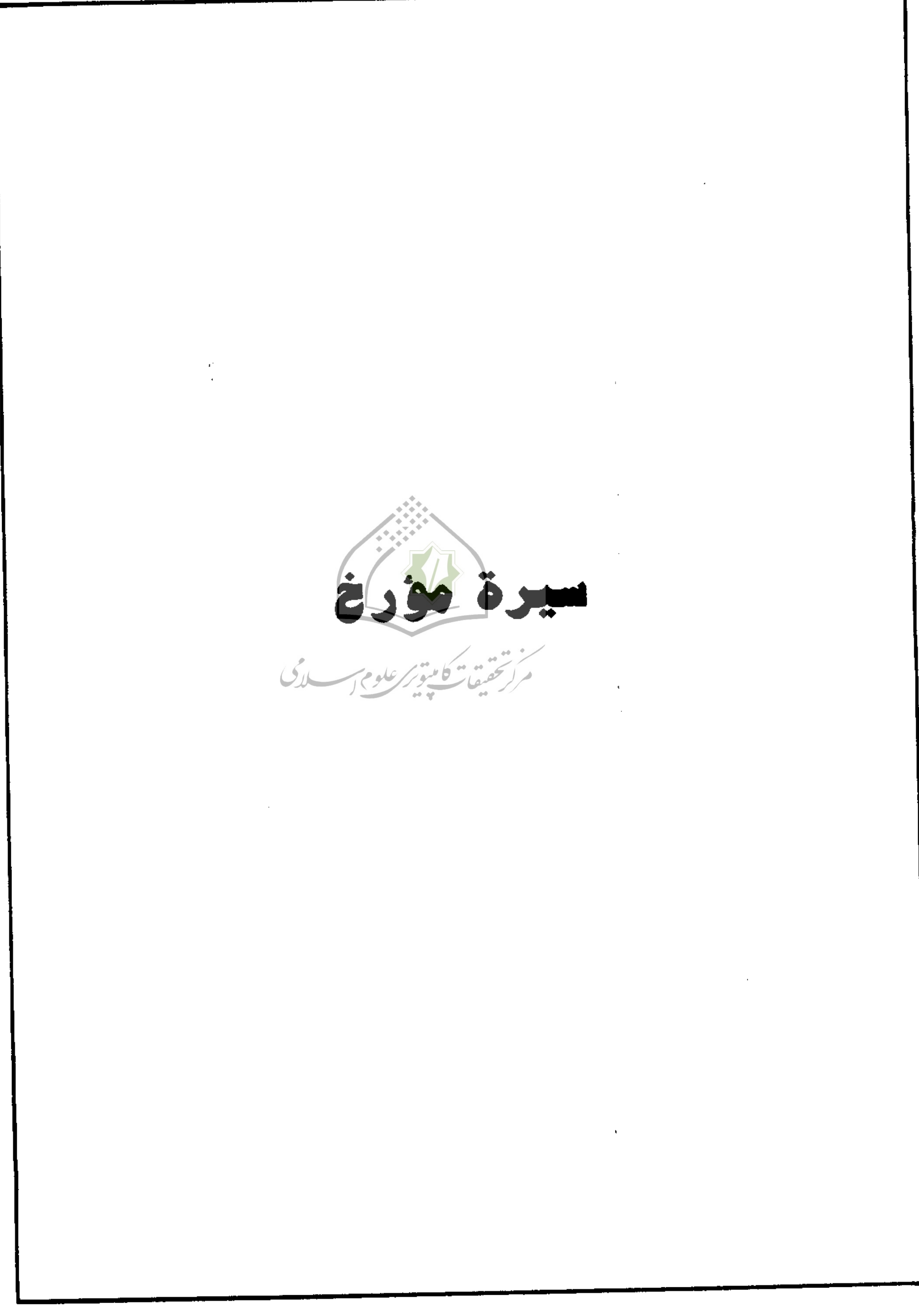
- مشروع لصنع الآلات الفلكية الفيزيائية الطبية العربية، وهذه الآلات تصنع في المعهد، وهناك أيضاً متحف لحفظ الأشياء النادرة الأثرية.

- وهناك مشروع لتعريب الفهارس للكتب العربية المكتوبة بالحروف العبرية، لأن أحد اليهود المترجمين يقول لم يكتف بترجمة الكتب العربية إلى العبرية لملاحظة أن كثيراً من اليهود يفهمون العربية ولكن لا يعرفون العربية، ولذلك عمل هذا، وهناك في مكتبات أوروبا (10) آلاف مخطوطة من هذا القبيل.









سيرة مؤرخ

السيرة العلمية

للدكتور يوسف محمد عبدالله

الاسم: يوسف محمد عبدالله.

الميلاد: بين شيبة، اليمن في 19 مايو 1943.

الحالة: متزوج وله أولاد.

الوظيفة: نائب رئيس هيئة الآثار ودور الكتب بدرجة نائب وزير.

التعليم العام: الثانوية العامة (امتحان شهادة الثقافة العامة 1962 ـ جامعة لندن).

التحصيل الجامعي: تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت عام 1967.

- بكالوريوس آداب ودبلوم تربية.
- حصل على درجة الماجستير من الجامعة نفسها عام 1970
- حصل على درجة الدكتوراة من جامعة «توبنجن» بألمانيا الاتحادية عام 1975.

الخبرة الأكاديمية والعملية داخل الجامعة:

- معيد في الجامعة الاميريكية في بيروت (1967-1970).
- محاضر في جامعة توبنجن (1975-1976).
- مدرس في قسم التاريخ والآثار بجامعة صنعاء (1976).
- رئيس قسم التاريخ والآثار بالجامعة نفسها (1977-1979).
- وكيل كلية الآداب بالجامعة نفسها (1979-1982).
- وكيل كلية التربية لمدة عام بالإضافة الى كلية الآداب (1980).
- عميد كلية الآداب بالجامعة نفسها (1982-1984).
- أستاذ زائر الدراسات العربية بجامعة «مينسوتا» بالولايات المتحدة الاميريكية لمدة فصل دراسي (1984).
- باحث متفرغ بجامعة ماربورج بألمانيا الاتحادية لمدة عام كامل (1985) في قسم الدراسات الشرقية، وشارك في إلقاء بعض الدروس بالقسم.
- عميد الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة صنعاء (1986-1987).

النشاط العلمي داخل الجامعة:

- عضو مجلس الجامعة أكثر من ثماني سنوات.
- عضو عدد من مجالس الجامعة ولجانها عدة سنوات.
- رئيس عدد من لجان الجامعة الرئيسية عدة سنوات مثل لجنة معادلات الشهادات الاكاديمية العليا ولجنة المكتبات.
- رئيس تحرير مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء (1982-1984).
- أمين عام الندوة العلمية العالمية لإحياء الذكرى الألفية للسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني، صنعاء (1981).
- ممثل الجامعة في عدد من المجالس والمؤتمرات العلمية العربية وعلى الأخص نيابة عن رئيس الجامعة في اجتماعي مجلس اتحاد الجامعات العربية في قطر (1977) وبغداد (1978).
- نظير مشروع البحث العلمي في اليمن بالتعاون مع الجامعات الألمانية لمدة ثلاث سنوات 1981-1983 وكان عنوان مشروع البحث: عمليات التنمية في السكان والاقتصاد والمجتمع في الجمهورية العربية اليمنية.
- نظير الجانب اليمني في رئاسة لجنة الإعداد للندوة العلمية العالمية حول اليمن المعاصر شمالاً وجنوباً والتي انعقدت في جامعة اكستر بالمملكة المتحدة (1983).

الخبرة العلمية والعملية خارج الجامعة:

- رئيس لجنة علماء التاريخ اليمني الموحد. أصدرت اللجنة

كتابين عام (1977).

- عضو مجلس مركز الدراسات والبحوث اليمني (1977-1985).
- عضو مجلس أمناء حماية وتحسين مدينة صنعاء القديمة، وخبير علمي في هذا المجلس الذي يرأسه رئيس الوزراء شخصياً (1984).
- عضو لجنة وثائق الدولة بقرار جمهوري (1984).
- عضو هيئة تدريس معهد الميثاق الوطني كمحاضر في مقرر التاريخ اليمني (1985).
- عضو مجلس أمناء مركز الدراسات والبحوث اليمني (1986-).
- عضو مراسل منتخب من مجلس معهد الآثار الألماني ببرلين (1983-)
- أمين عام مساعد لشؤون الآثار في اتحاد المؤرخين العرب (1987-)
- عضو لجنة الكتاب والنشر بوزارة الإعلام والثقافة والتي أصدرت عشرات الكتب التاريخية والأدبية والثقافية (1978-)
- عضو هيئة تحرير مجلة «دراسات يمنية» التي يصدرها مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء (1978-).
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الإكليل الفصلية، مجلة تعنى بتاريخ اليمن الفكري والحضاري، دمشق - صنعاء (1982-).
- نائب رئيس جمعية المؤرخين والأثريين اليمنيين - صنعاء (1987-).
- أبلغته الجهات المختصة مؤخراً أنه عين رئيساً لتحرير مجلة الآثار اليمنية صنعاء؛ وأنه عيّن في الهيئة الاستشارية لمجلة ريدان، عدن؛ والتي تعنى بالآثار والنقوش اليمنية القديمة وتصدر من مركز الأبحاث الثقافية في عدن وتحرر في باريس وعدن وتطبع في لوفان منذ عام 1979؛ وأن سيرته العملية اختيرت في باب «سيرة مؤرخ» في مجلة المؤرخ العربي للعدد القادم.

المؤتمرات والندوات والمحاضرات العلمية والثقافية:

- عضو وفد الجمهورية العربية اليمنية في مؤتمر آثار البلاد العربية، مراكش (1977).
- عضو وفد الجمهورية العربية اليمنية في مؤتمر آثار البلاد العربية، صنعاء (1979).
- عضو وفد الجمهورية العربية اليمنية في المؤتمر العام العشرين لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم، بلغراد (1980).
- عضو وفد الجمهورية العربية اليمنية في مؤتمر الثقافة العالمي في المكسيك (1982).
- مشارك في ندوة عمليات التنمية الجارية في اليمن، جامعة توبنجن - ألمانيا الاتحادية (1983).
- مشارك في مؤتمر المستشرقين الألمان، فورتزبورج (1985).
- رئيس وفد الجمهورية العربية اليمنية في المؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي، تونس (1987).
- محاضر في الندوة العالمية للحضارة اليمنية، عدن (1975).
- مشارك في الحلقة الثالثة لمراكز الدراسات في الخليج والجزيرة العربية صنعاء (1978).
- مشارك في اجتماع اللجنة الاستشارية للثقافة العربية التابعة لليونسكو، الدورة الثالثة صنعاء (1979).
- مشارك في ندوة الدراسات العربية، جامعة اكسفورد (1985).
- محاضر في ندوة الدكتور محمود الغول، جامعة اليرموك (1984).
- محاضر في ندوة الدراسات العربية، جامعة دورجام (1987).
- مشارك في مهرجان المربد، بغداد (1986).
- مشارك في المعرض الثقافي اليمني، بون (1983).
- مشارك في المعرض الثقافي اليمني، ميونيخ (1987).
- محاضر في الأسبوع الثقافي اليمني في الكويت (1979).
- محاضر في الاسبوع الثقافي اليمني في قطر (1980).
- محاضر في الأسبوع الثقافي اليمني في جدة (1982).
- محاضر في الاسبوع الثقافي، اليمني في بغداد (1986).
- محاضر في الأسبوع الثقافي، اليمني في تونس (1986).
- محاضر في الاسبوع الثقافي، اليمني في طرابلس (1987).
- محاضر في الموسم الثقافي لكلية الآداب بجامعة صنعاء (1987).

- محاضر في قسم الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو (1984).
- محاضر في قسم التاريخ بجامعة ونيونا (1984).
- محاضر في قسم الدراسات الشرقية الأثرية بجامعة بنسلفانيا (1984).
- محاضر في المؤسسة العامة للآثار بالجمهورية العراقية (1986).
- محاضر في قاعة السفراء باليونسكو (باريس) 1984.
- محاضر في قسم الدراسات الشرقية بجامعة السوربون باريس (1984).
- محاضر في قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود في الرياض (1983) وغيرها من المحاضرات داخل اليمن وخارجه.

الآثار العلمية

أولاً: الكتب:

1 ـ «النقوش الصفوية في مجموعة جامعة الرياض»، وهي نشر 123 نقشاً صفوياً جديداً، أطروحة علمية، الجامعة الاميريكية في بيروت (1970).
2 ـ «الأعلام في كتاب الاكليل للهمداني ونظائرها في النقوش اليمنية القديمة؛ أطروحة علمية، جامعة توبنجن (1975).
3 ـ أوراق في تاريخ اليمن وأثاره، الجزء الأول، مشروع الكتاب، صنعاء (1985).
4 ـ أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، الجزء الثاني، مشروع الكتاب. صنعاء (1985).
5 ـ الهمداني في ذاكره الألفية، جامعة صنعاء (1986). تحرير.
6 ـ الجوهرتان العتيقتان للحسن بن أحمد الهمداني، إصدار جديد مع ترجمة للدراسة من الألمانية، مشروع الكتاب، صنعاء (1986).
7 ـ رحلة أثرية الى اليمن لأحمد فخري، ترجمة بالاشتراك، مشروع الكتاب (1987).
8 ـ مدونة النقوش اليمنية القديمة، الجزء الأول، نشر لنقوش جديدة ودراسات (تحت الطبع).
9 ـ أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، الجزء الثالث، مشروع الكتاب، صنعاء (تحت الطبع).

ثانياً: الأبحاث (منها):

1 ـ مدونة النقوش اليمنية القديمة، نشر عشرة نقوش جديدة، مجلة دراسات يمنية، العدد 2 (1979).
2 ـ مدونة النقوش اليمنية القديمة، نشر أربعة نقوش جديدة، مجلة دراسات يمنية العدد 3 (1980).
3 ـ نقوش صفوية من عرعر وبدنة، نشر ثلاثة نقوش، مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء. (1981).
4 ـ خط المسند والنقوش الخشبية، اليمن الجديد عدد (1986) دراسة للخط الشعبي القديم في اليمن ونشر نقش خشبي جديد.
5 ـ نقش المدونة 543 قراءة جديدة بناء على اكتشاف الأصل، ودراسة باللغة الانجليزية، كتاب الذكرى لألفرد بستن (1987).
6 ـ القصيدة الحميرية أو صورة من الأدب الديني القديم في اليمن «نشر لنقش أدبي هام»، ريدان (1988).
7 ـ السلوا في كتاب الطواف حول البحر الأريتري دراسة ونشر لنقش جديد أعد لندوة إعادة كتابة تاريخ العرب، بغداد (1987).
8 ـ الماضي يحيا في الحاضر، دراسة عن الآثار والموروث في اليمن، نشرت في كتاب اليمن ثلاثة آلاف سنة من الفن والحضارة، ميونيخ (1987) بالالمانية.
9 ـ الصورة التاريخية لليمن القديم، مجلة الأكليل 1987, (2).
10 ـ الهمداني في صورة الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ اليمن الجديد، (1987).
11 ـ المدينة التاريخية اليمنية، اليمن الجديد (1986).
12 ـ المسألة الأثرية في اليمن، اليمن الجديد (1986).
13 ـ مصطلحات عربية في المعايير والأوزان من كتاب الجوهرتين العتيقتين للهمداني، مجلة العرب، الرياض ـ مايو/يونيو (1987).

وغيرها من الأبحاث المتخصصة والمقالات العامة.

منح وشهادات وجهود علمية متميزةً

- عُينّ معيداً في الجامعة الأميريكية ببيروت وحصل على منحة دراسية لمرحلة الماجستير في الجامعة نفسها (1967-1970).
- حصل على منحة دراسية من وكالة التبادل الثقافي الألماني لدراسة الدكتوراة (1970-1975).
- فاز بمنحة الكسندر فون همبولدت الألمانية للباحثين المبرزين وتفرّغ باحثاً لمدة عام واحد في جامعة ماربورج ومنح شهادة الكسندر فون همبولدت على أبحاثه في الدراسات اليمنية القديمة عام 1986.
- انتخب عضواً مراسلاً من مجلس معهد الآثار الألماني ببرلين، أعلى هيئة أكاديمية أثرية في المانيا الاتحادية، عام 1983.
- حصل على شهادات تقديرية لجهوده العلمية والانسانية من عدد من الجامعات العربية نذكر منها، ميدالية كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، وميدالية جامعة قطر، وميدالية، كلية العلوم بجامعة صنعاء، ووسام المؤرخ العربي من اتحاد المؤرخين العرب.
- حصل على شهادة تقدير متميزة من جامعة مينسوتا في الولايات المتحدة الأمريكية على جهوده في مجال التدريس بالجامعة (1982).
- اختيرت سيرته العلمية في باب «سيرة مؤرخ عربي» في مجلة المؤرخ العربي العدد الخاص بتاريخ اليمن، يصدر في مطلع عام (1988).
- كان أول من عني بنقوش منطقة المعسال وهجر قانية، وهي نقوش يمنية قديمة هامة يعتبرها العلماء فتحاً جديداً في الدراسات النقشية.
- اكتشف أول نص أدبي على شكل قصيدة أو أنشودة دينية، بالخط المسند عام 1977 وحلّ رموزها ونقلها الى العربية المحضة ونشرها.
- كان من أوائل من أسهم في حل رموزه خط المسند الشعبي الذي اكتشف منقوشاً على الأعواد الخشبية. ومن أوائل من نشر هذا النوع من النقوش. وقد قدم نتائج هذه الجهود في لقاء علمي في جامعة ماربورج جمع أبرز المختصين بهذا المجال، (1985). وألقى بحثاً في الموضوع نفسه في المؤسسة العامة للآثار في بغداد عام (1986).
- أسهم في اكتشاف وتوثيق عدد كبير من المواقع الأثرية اليمنية وكان رئيساً لبعثة الاكتشاف المثير للمومياوات في شبام الغراس في اكتوبر (1983).

جهود علمية وثقافية متنوعة:

- عهدت اليه جهات رسمية وهيئات علمية داخل اليمن وخارجه، بتقديم الرأي والمشورة في العديد من القضايا المتعلقة بمجال العلم والثقافة كخبير ومختص وخاصة الحكم على الكتب والأبحاث المعدة للنشر. نذكر على سبيل المثال بعض منشورات جامعة صنعاء ومنشورات وزارة الإعلام والثقافة ومنشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- يشرف منذ سنوات على الباحثين المحليين والاجانب في مجالات اللهجات والتاريخ والآثار بتكليف من مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء.
- يشارك حالياً في الإشراف على عدد من الرسائل العلمية بقسم الآثار بجامعة صنعاء.
- نشر وعلى مدى سنوات مقالات ومطالعات وترجمات (من الانجليزية والألمانية) في المجلات والصحف اليمنية تعنى بالحضارة والتاريخ والآثار والثقافة عموماً.
- يسهم على مدى سنوات في أحاديث وندوات إذاعية وتلفزيونية حول قضايا ثقافية وعامة مختلفة.

السيرة العلمية

الدكتور علي مفلح محافظه

الاسم الكامل: د. علي مفلح محافظه

العنوان الدائم: جامعة مؤتة - ص. ب 7 مؤتة - الكرك - الأردن

العنوان الحالي: جامعة مؤتة - ص. ب 7 مؤتة - الكرك - الاردن.

الدرجة العلمية: دكتوراة دولة في الآداب والعلوم الانسانية.

الجنسية: أردنية.

مكان وتأريخ الولادة: كفرجايز/إربد - الأردن.

موضوع رسالة الماجستير: العلاقات الاردنية - البريطانية 1921-1957.

اسم الجامعة التي حصل منها على الشهادة: جامعة باريس الثالثة - السوربون.

سنة الدخول: 1968

موضوع رسالة الدكتوراة: مسألة الهلال الخصيب 1918-1945.

اسم الجامعة التي حصل منها على الشهادة: جامعة باريس الأولى - السوربون

سنة الحصول: 1980.

التخصص العام: تاريخ حديث.

التخصص الدقيق: تاريخ العرب المعاصر.

الكتب المنشورة:

1 - تاريخ الاردن المعاصر - عهد الإمارة 1921-1946، عمان 73

2 - العلاقات الاردنية - البريطانية 1921-1957، بيروت 73.

3 - الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914، بيروت 75.

4 - العلاقات الالمانية - الفلسطينية 1841-1945، بيروت 81.

5 - موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية 1918-1945، بيروت 85.

6 - الحركات الفكرية في فلسطين والاردن 1775-1925 بيروت 87.

الندوات والمؤتمرات التي شارك فيها:

- المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول والثاني والثالث والرابع 1974-1987.
- المؤتمر الاستراتيجي العربي - عمان - الاردن 1987.
- مؤتمر الدراسات العربية - جامعة رين - فرنسا 1987.

ندوة العدد



توصيات الندوة القومية لكتابة تأريخ الأمة

المنعقدة في بغداد

للفترة من 27-1987/12/29

بإشراف هيئة كتابة التاريخ وبعنوان «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته»

في الجلسة الختامية للندوة أقرّ المؤتمرون اعتماد التوصيات التالية:

أولاً: الانطلاق عند دراسة تاريخ الأمة العربية من معطيات الحاضر من أجل فهم ودراسة التطورات التي حصلت في الماضي.

ثانياً: تبني المنهج القومي الحضاري في دراسة تاريخ الأمة العربية ودراسة الحياة الاجتماعية، وظهور الدول وسقوطها في إطار المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الشاملة للحياة العربية.

ثالثاً: العمل على اعتماد التقسيم الزمني الحضاري للتاريخ العربي بما يضمن تكامل حقبه وتواصله الحضاري ويؤمن التطور الصاعد في التاريخ ويغطي «أفقياً» الوطن العربي، واعتماد توحيد مصطلحاته.

رابعاً: الإفادة من فكرة الوحدة والتنوع في دراسة حضارات الوطن العربي القديمة ومدى تفاعلها مع الحضارة العربية الإسلامية من أجل كشف التواصل والعطاء الحضاري لأبناء الأمة العربية.

خامساً: الاهتمام بتطور الفكر التاريخي العربي بما يمكن من الوعي بتاريخ التأريخ وإدخاله مادة دراسية في أقسام التاريخ في الجامعات العربية.

سادساً: إيلاء أهمية خاصة للتحديات التي تواجهها الأمة العربية وفي مقدمتها التحدي الصهيوني والتحدي الشعوبي والتوجه لدراستها وكشف طبيعتها العدوانية وجذورهما واسبابها وممارساتها التخريبية المختلفة، ومخاطرهما على الإسلام والأمة العربية وعلاقتها بالشعوب الإسلامية واعتبار ذلك واجباً «قومياً» على المؤرخين العرب.

سابعاً: إدانة محاولات الكيان الصهيوني لطمس الشخصية العربية الفلسطينية وسرقة تراثها القومي وتزوير تاريخها واعتبار ذلك واجباً «قومياً» ينهض به المؤرخون العرب. ويحيّي المجتمعون انتفاضة سكان الأرض المحتلة، وما تمثله ثورة الحجارة من تحدٍ للصهيونية وهمجيتها.

ثامناً: دعم الهيئة العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية في اتحاد المؤرخين العرب وتمكينها من تنسيق النشاطات التاريخية التي تمارسها الهيئات الوطنية لكتابة التاريخ العربي والجمعيات التاريخية وأقسام التاريخ في الجامعات العربية.

تاسعاً: تشجيع النشر التاريخي العربي المشترك وتوسيع الصلات بين الجمعيات التاريخية العربية وإتاحة فرص الالتقاء والحوار بين المؤرخين العرب.

عاشراً: إعادة النظر بمناهج التاريخ في التعليم العام بما يضمن تعميق الوعي القومي والحضاري والإنساني العلمي بالتأريخ العربي، وبعث الثقة والاعتزاز بالأمة العربية وتأريخها.

حادي عشر: نشر المعرفة التأريخية وتعميق الوعي الجماهيري بالتأريخ العربي واعتماد ذلك في نشاط المؤسسات

الإعلامية في الوطن العربي بما يضمن وحدة واستمرار الشخصية القومية للأمة العربية.

ثاني عشر: زيادة اهتمام الدول العربية بجميع الوثائق والمخطوطات وتيسير اطلاع الباحثين عليها، وضرورة السعي لتأمين الوصول الى الوثائق في اتفاقياتها الثقافية مع الدول المختلفة وبخاصة تلك التي كانت لها علاقة بالوطن العربي في أي من حقبه التاريخية.

ثالث عشر: قيام الجامعات العربية بتعميم عناوين دراسات الماجستير والدكتوراه وأسماء الحاصلين عليها وترصين الدراسات العليا والتوجيه لدى أقسام التاريخ بتوجيه الطلبة لدراسة الموضوعات التي لم تدرس بعد وتمكين الطلبة من إتقان اللغات الضرورية لذلك وتطوير مدرسة نقدية تاريخية عربية معاصرة.



البيان الختامي لندوة
((نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي))

كان المشروع القومي منذ البدء وسيظل في المستقبل المنظور هو الخيار الاستراتيجي الذي لا بديل عنه للحفاظ على وجود الأمة العربية وصيانة أرضها وضمان مستقبلها.

لهذا، كان لا بد من استنفار الذاكرة القومية في مواجهة واقع التجزئة والقطرية، خاصة وأن هذا المشروع الذي تعمل الممارسات العربية على إسقاطه يواجه اليوم ببدائل تعود بالواقع العربي إما إلى حكومات قطرية ذات سياسات ماضوية، أو إلى تيارات تفجر الصراعات الطائفية والعشائرية.

لقد برزت مع الدولة القطرية مشكلات تضخيم التاريخ القطري على حساب التاريخ القومي. وبذلك يتحول عامل التاريخ المشترك من عامل توحيد للأمة وملهم لها في استعادة وحدتها ودورها الحضاري إلى شاهد زور يدعم النزعات القطرية والطائفية والعشائرية السائدة، ويمكن العدو من إحكام سيطرته.

ووفقاً لهذه الانحرافات، وحفظاً على الحقيقة التاريخية لوحدة الحضارة العربية، وصوناً لقدسية التاريخ العربي كعامل وحدة قومية وملهم للعرب في الإسهام بدور إيجابي في الحضارة العالمية، فقد رأى المجلس القومي للثقافة العربية، بالتعاون مع جامعة ناصر، دعوة المثقفين والمؤرخين العرب إلى إقامة ندوة فكرية تحت شعار: **(نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي)** في طرابلس بتاريخ: 10-1987/10/14م، قدمت فيها المحاور التالية:

1) نحو دراسة علمية للتاريخ العربي القديم.
2) المؤرخون العرب وتصوّرهم للتاريخ العربي.
3) بداية الوعي القومي في القرن التاسع عشر.
4) التاريخ العربي والاستشراق.
5) التاريخ القومي والتاريخ القطري.

حيث شارك فيها زهاء المائة استاذ وكاتب ومؤرخ ومثقف من مختلف أنحاء الوطن العربي، وقد تميزت الندوة بجدية بحوثها وحرية الحوار والروح الأخوية والقومية التي سادت بين الحضور.

أكدت الندوة في محورها الأول: «**نحو دراسة علمية للتاريخ العربي القديم**»، على الاستمرارية والوحدة الثقافية التي يتسم بها تاريخ المنطقة العربية من حيث هو تاريخ مشترك وتوقفت بالتالي عند الحاجة إلى دراسة التاريخ القديم للمنطقة العربية وتحريره من هيمنة الدراسات الاستشراقية التي لا تخلو في حالات تقل أو تكثر من تغرض يرمي، في ما يرمي إليه، إلى استحداث قطيعة بين التاريخ العربي قبل الاسلام والتاريخ العربي بعده. وفي الوقت الذي حذرت فيه الندوة بوجه خاص من خطورة وقوع التاريخ العربي القديم تحت رحمة أصحاب المنهج التوراتي من المؤرخين، رأت إحياء التاريخ العربي القديم وبيان الاتصالية بين طوره السامي وطوره الإسلامي يجرده أعداء الأمة العربية من واحد من أخطر أسلحتهم الفكرية في استثارة النعرات الطائفية والعرقية وفي إحياء النزعات الانفصالية وفي اصطناع ذاكرات تاريخية متعددة ومتضاربة تكون بمثابة نسخ مغذٍ للنزعات

القطرية والإقليمية . .

وعلى هذا النحو تشكل استعادة التاريخ العربي القديم من أيدي التوراتيين والمؤرخين الأجانب والمؤرخين المحليين من ذوي الميول الانفصالية مدخلاً ضرورياً إلى رؤية قومية للتاريخ المشترك للمنطقة العربية، رؤية تجمع ولا تطرح، تصل ولا تقطع، تلحم ولا تبتر.

وإذا كان فك الحصار الاستشراقي عن تاريخنا القديم يمثل خطوة أولى نحو إعادة دمجه بتاريخنا القومي العام، فإن إعادة تقويم مصادر التاريخ العربي الإسلامي وتبني المناهج العلمية الجديدة في معالجة وقائعه وقضاياه تبدو هي الأخرى مهمة عاجلة من وجهة النظر القومية نظراً لأن غلبة التأريخ للأحداث السياسية على التأريخ للظاهرات الثقافية وللبنى الاجتماعية ـ الاقتصادية قد جعلت من تاريخنا المشترك في مصادره القديمة تاريخ تقطع لا تاريخ اتصال، تاريخاً متعيناً بقيام الدول وسقوطها، وبمجيء الحكام وزوالهم، لا تاريخ السيرورة الواحدة والتيارات العميقة التي تصنع وحدة الأمة وتصونها في حالات الجزر كما في حالات المد، مهما عرف السطح من ظواهر انقسامية أو انفصالية.

وبعد أن خصصت الندوة على هذا النحو ثاني محاورها لتحليل وتقويم العمل التاريخي للمؤرخين العرب وتصورهم للتاريخ العربي الإسلامي، كان من الطبيعي أن تتوقف عند الحقبة المفصلية الثانية في تاريخ العرب، وهي الحقبة التي حاولوا فيها، بعد طول خبو وهجوع، استئناف مسيرتهم الحضارية المتوقفة، وذلك مع إطلالة عصر النهضة في القرن التاسع عشر. فالنهضة كانت بمثابة مشروع للقطيعة ولمعاودة الاتصال معاً. قطيعة مع واقع الانحطاط، وتجديد للاتصال مع عظمة الإسلام الأول. فالنهضة كانت استجابة لتحدي العصر الذي وجد العرب أنفسهم مدعوين إلى دخوله بل إلى اقتحامه لمواجهة المد الغربي الاستعماري الذي هددهم بعدوانه العسكري واجتياحه الاقتصادي واختراقه الثقافي في مقومات وجودهم بالذات وفي هويتهم القومية وشخصيتهم الحضارية من خلال التغريب اللغوي والثقافي والاستلاب الحضاري، ومن خلال التقاسم السياسي الغربي لمناطق النفوذ والاحتلال، بل من خلال محاولات الاقتلاع من الجذور والتصفية المادية عن طريق الاستعمار الاستيطاني. وقد أولى المتندون اهتماماً خاصاً لبدايات الوعي القومي العربي في القرن التاسع عشر ولمحاولات النهوض الذاتي والتحديث غير التابع وبناء الدولة القومية، تلك المحاولات التي سارع الاستعماريون إلى خنقها قبل أن تؤتي أكلها كاملة والتي لو قيض لها التواصل لما وجد العرب أنفسهم اليوم أسرى إشكاليات التخلف والتجزئة المتكافلين.

ومن منظور استعادة تاريخنا القومي ورفع يد المتطفلين عليه توقفت الندوة في رابع محاورها عند العمل التاريخي الاستشراقي، وتناولته بالتقييم بإيجابياته وسلبياته وحددت موقعه باعتباره نتاج حضارة غازية للعالم بأسره قرنت في تعاملها مع الآخرين العلم والاستعمار ولم تتعرفه في وجوده كآخر إلا بقدر ما استتبعته ومحورته حول ذاتها. وقد أكدت الندوة على أن العمل النهائي لإشكالية الاستشراق لا يكمن في نقده فحسب، بل في الانتقال أيضاً من موقع رد الفعل إلى موقع الفعل وتولي الدارسين العرب مهمة دراسة تراثهم بأنفسهم والتأريخ لتاريخهم بمختلف أطواره وأبعاده، وبكل ما توفره لهم الثورة الحديثة في مجال علوم الإنسان من أدوات منهجية ملائمة.

وضمن هذا المنظور جرى التشديد على ضرورة ولادة **مدرسة تاريخية عربية ذات رؤية قومية** تكون متفتحة على المناهج العلمية الجديدة التي تتطور بإيقاع متعاظم في كل قطاعات الدراسات التاريخية بدون أن يغيِّب عنها هذا الانفتاح خصوصية التاريخ العربية التي تقتضي بدورها تطويراً وتثويراً للمناهج المداولة.

وإزاء ما تشهده الساحة العربية اليوم من ترسخ للدولة القطرية ومن تجذر للآلية القطرية، فقد توقفت الندوة في خامس وآخر محاورها عند خطورة ما يتعرض له التاريخ القومي المشترك من عمليات تأطير وتشطير وتجزيء قطري، وشددت على ضرورة استنفار الوعي التاريخي العربي للارتفاع فوق النظرة التجزيئية واستبيان العوامل والعناصر الشمولية التي جعلت وتجعل من تاريخ المنطقة العربية، قديمة ووسيطية وحديثة، تاريخاً مشتركاً. وفي الوقت الذي يتزايد فيه نزوع الدول القطرية إلى قراءة التاريخ القومي قراءة

قطرية تتخذ القطر بما هو كذلك إطاراً للتفكير ومرجعاً للتقييم وتعيد صياغة بنية الماضي على ضوء الوضعية القطرية، وتقلب علاقة الاتصال إلى علاقة انفصال، تمس الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى استنهاض الذاكرة القومية وصون تاريخنا القومي ليبقى تاريخ وحدة لا تاريخ شتات وتجزئة..

إن المشاركين في الندوة يؤكدون على أهمية التوصل إلى صياغة رؤية قومية شاملة لإعادة كتابة التاريخ العربي، وبذلك نكون قطعنا شوطاً بعيداً على طريق وعي الذات وإنقاذها من حالة التفكك التي تعيشها الأمة في اللحظة الراهنة.

إن هذا التحدي هو رهان من أجل المستقبل. والندوة تتوجه إلى المؤرخين العرب ومثقفيهم ومناضليهم من أجل المساهمة في هذا المشروع القومي الذي سيكون بلا شك جسراً نحو صياغات عقلانية جديدة للفكر العربي، المقدمة التي لا بد منها من أجل بناء دولة الوحدة العربية، طريقنا نحو المستقبل.

وفي هذا الاطار يتوجه المشاركون إلى الأمة العربية جماهير وقيادات ليؤكدوا على أهمية التسريع في بناء دولة الوحدة العربية وإنجاز خطوات على طريقها ويعتبرون مبادرة الاتحاد العربي التي قدمها العقيد معمر القذافي خطوة ينبغي العمل على تحقيقها، حماية للأمن القومي العربي والتحرك على طريق صيانة وجود الأمة العربية ومصالحها.

وفي النهاية تتوجه الندوة بالشكر إلى الجماهيرية العربية الليبية على استضافتها الكريمة، وعلى الاهتمام الذي أبدته على صعيد القيادة والأوساط الثقافية والمعاهد العلمية ووسائل الاعلام. وتسجل الندوة اعتزازها بمشاركة الأخ الرائد عبدالسلام أحمد جلود والكلمة التي ألقاها في الجلسة الافتتاحية والحوار القومي الذي دار بينه وبين المشاركين.

وتمنى المشاركون أن تكون هذه الندوة فاتحة جهد مستمر من أجل تعميق الوعي بالتاريخ القومي والدخول في عصر تدوين عقلاني جديد على طريق صياغة المشروع الحضاري العربي.

توصيات الندوة

يقر المشاركون في ندوة «نحو رؤية قومية لكتابة التاريخ العربي» التي نظمها المجلس القومي للثقافة العربية بالتعاون مع جامعة ناصر من 10/ إلى 1987/10/14م التوصيات التالية:

أولاً: ضرورة تأسيس مركز عربي للدراسات التاريخية، وذلك لبلورة الجهود المبذولة من أجل تأسيس مدرسة عربية للتاريخ تستلهم رؤية قومية، ويعمل المركز على ربط الصلات وتوثيقها مع الجمعيات والجامعات والهيئات المعنية بتحقيق هذا الهدف، ويكون في مقدمة مهامه:

1) حصر الجهود المبذولة في الوطن العربي في ميدان الدراسات التاريخية.

2) العمل على إعداد موسوعة قومية للتاريخ العربي.

3) الاستعانة بالتخصصات العلمية والمساعدة من علوم سياسية واقتصادية.

4) متابعة الأعمال التاريخية الأجنبية المنشورة وغير المنشورة المتصلة بالتاريخ العربي.

5) العمل على تشكيل لجنة قومية لدراسة مناهج تعليم التاريخ في الوطن العربي دراسة نقدية برؤية قومية.

ثانياً: الاهتمام بدراسة العلاقات العربية الأفريقية لإبراز معالم التواصل والتفاعل الإيجابيين بين شعوب القارة الأفريقية تأكيداً للمصالح المشتركة وتصدياً لمختلف أشكال الغزو الامبريالي العنصري.

ثالثاً: التصدي ضمن الجهود المبذولة في إطار مواجهة كامب ديفيد وما تفرضه من تطبيع ثقافي وما أدى إليه من تعديل في المناهج وكتب التاريخ والعمل على دراسة وتحليل الكتب المدرسية وبخاصة التاريخية في فلسطين المحتلة.

رابعاً: يدعو المشاركون في الندوة المجلس القومي للثقافة العربية إلى العمل على الاتصال بالهيئات الثقافية العربية الشعبية والرسمية المختصة من أجل تنفيذ هذه التوصيات وأن يعمل على إدخالها ضمن برامجه...



ندوة العلاقات العربية الأفريقية (*)

قاعة الشارقة (جامعة الخرطوم)

18-20 فبراير 1987

مقدمة

يكتسب انعقاد ندوة العلاقات العربية الأفريقية الحالية معنىً خاصاً يبشر بالأمل في مستقبل هذه العلاقات وذلك لأسباب عديدة:

أولاً: يتزامن موعد هذه الندوة مع افتتاح «قاعة الشارقة» التي تعتبر هي نفسها رمزاً من رموز التعاون العربي الأفريقي.

ثانياً: لأن مشاركة أحد كبار المسؤولين العرب في هذه المناسبة وهو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي يجدد الأمل في النفوس بأن جذوة التعاون العربي ـ الأفريقي ما تزال مشتعلة وما تزال هذه القضية المصيرية موضع اهتمام القيادات العربية العليا. ولا بد أن نذكر في هذا المقام أن الشيخ سلطان كان دائماً من رواد فكرة التعاون العربي الأفريقي وقد ولدت فكرة هذه القاعة التي أهداها إلى جامعة الخرطوم في ندوة الشارقة للتعاون العربي الأفريقي في أوائل السبعينات.

ثالثاً: لأن هذه الندوة تعقد في الخرطوم عاصمة التجسيد الحقيقي لفكرة التكامل ووحدة المصير العربية الأفريقية. ونحن ندرك تماماً الدور القيادي والريادي الذي يمكن أن يقوم به السودان في مجال التعاون العربي الأفريقي. ثم إن الخرطوم هي مقر المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا.

لهذه الأسباب مجتمعة رأيت أن أشرك السادة المساهمين في هذه الندوة في بعض الأفكار المستقبلية التي تبلورت في ذهني عبر تجربة طويلة وحميمة مع التعاون العربي الأفريقي. وهي أفكار توضع الآن أمام المسؤولين العرب في أعلى المستويات، وربما يترتب عليها تطور كبير في استراتيجيات وأداء أجهزة التعاون العربي الأفريقي. وإنني لعلى ثقة من أن مداولات الأخوة المشاركين في الندوة ستثري هذه الدراسة بالأفكار وستساعد الباحثين على الوقوف على تفاصيل هذه المرحلة الدقيقة من مراحل التعاون العربي الأفريقي.

ملخص الدراسة والتوصيات

تتضمن الدراسة المعروضة أربع قضايا:

- قضية العون العربي الإنمائي لأفريقيا.
- قضية تمويل التجارة الخارجية العربية الأفريقية.
- قضية تشجيع قيام المشروعات العربية الأفريقية المشتركة.
- قضية استنفار الطاقات العربية في كل ما يقوم به المصرف والمؤسسات العربية الأخرى من نشاطات داخل أفريقيا.

قضية العون العربي الإنمائي لأفريقيا

يتعرض الباب الأول من الدراسة إلى المشاكل المتنوعة التي تحول دون تدفق أفضل المساعدات العربية الموجهة لتمويل المشروعات الإنمائية في أفريقيا. فبجانب النقصان الطبيعي الذي تتميز به التدفقات المالية العربية منذ سنة 1983 بالخصوص وذلك بعد مرور عشر سنوات بلغ فيها العون

(*) ملخص للدراسة التي أعدها الدكتور الشاذلي العياري الرئيس ـ المدير العام للمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا، بعنوان: «المناخ السياسي والاقتصادي في افريقيا وانعكاساته على التعاون العربي الأفريقي».

العربي لأفريقيا أرقاماً قياسية غير معهودة من جهات عون نامية هنالك عدد من المسائل السياسية والاقتصادية والمالية والفنية والتنظيمية التي تعترض مسيرة عون المشاريع في أفريقيا والتي يتوجب على معشر المؤسسات العربية والبنك الإسلامي للتنمية وصندوق الأوبك تحليلها وإيجاد الصيغ الملائمة للتغلب عليها إذا ما اخترنا أن نواصل نشاطاتنا في ميدان العون التنموي في السنين القادمة وأن نكسب عملنا في أفريقيا نوعية أفضل. وإن كان نضوب الموارد المالية العربية المتاحة لتمويل برامج العون في أفريقيا أمر حتمي بحكم ما تفرضه الجهات الغربية بالخصوص من ضغوط وهيمنة اقتصادية ومالية وتجارية على دولنا العربية النامية إلاّ أن إبعاد عدد متزايد من الأقطار الأفريقية من حظيرة التعاون العربي الأفريقي نتيجة لإعادة علاقاتها مع إسرائيل وتصاعد تجميد السحب على المشروعات القائمة في البلدان الأفريقية المتخلفة عن تسديد الأقساط المستحقة بل حرمان هذه الأخيرة من أي عون عربي جديد وتفضيل جهات التمويل غير العربية وبالخصوص البنك الدولي - وهي أطراف تعاون أساسية بالنسبة لنا - العون غير المرتبط بالمشروعات. وأخيراً تفاقم الصعوبات الفنية والاقتصادية والمؤسسية التي تواجهنا في أفريقيا بداية من الدراسات الأولية للمشروعات وانتهاءً بمراقبة الإنجاز ومروراً بكل المراحل الفنية والمالية والقانونية التي يمر بها المشروع الممول. قلنا إلاّ أن كل هذه المسائل تشكل عناصر سلبية مهمة في مسيرة العون العربي المقدم للمشروعات الإنمائية في أفريقيا.

إن المذكرة المقدمة إلى هذا الاجتماع توصي:

أولاً: بأن نقف عند ظاهرة التغلغل الصهيوني في أفريقيا قصد تقويم آثارها على عملنا المشترك في أفريقيا، خصوصاً وأن عدد البلدان الأفريقية التي من المحتمل جداً أن ترجع إلى أحضان اسرائيل سيزداد في المستقبل المنظور (صفحة 31 فقرة 68).

ثانياً: أن نتفاكر جماعة بخصوص معضلة التخلف عن الدفع التي تستفحل يوماً بعد يوم والتي تستبدل العلاقات الأخوية والتضامنية التي تربطنا بأشقائنا في أفريقيا بعلاقات مطالبة مستمرة وتنتهي بنا إلى تجميد العون العربي على العديد من البلدان الأفريقية وخصوصاً على البلدان المعوزة وغير القادرة على الدفع، رائدنا في ذلك الوفاق بين استرجاع حقوقنا من جهة وتوفير أسباب مواصلة التعاون مع البلدان الأفريقية من جهة أخرى (صفحة 35 فقرة 80).

ثالثاً: بأن نتدارس إمكانات إدخال التنوع الضروري في نشاطاتنا في أفريقيا وذلك بتخصيص جزء من مساعداتنا لتمويل برامج عون غير مرتبط بمشروعات اقتصادية بما في ذلك برامج التنمية الاجتماعية (صفحة 37 فقرة 86).

رابعاً: أن نكثّف الاتصال المباشر مع أفريقيا وذلك عن طريق تمثيل عربي مشترك شبه إقليمي في أفريقيا (صفحة 42 فقرة 98) وأن ندعّم برامج العون الفني المقدم لأفريقيا (صفحة 45 فقرة 104).

قضية تمويل التجارة الخارجية العربية الأفريقية

انطلاقاً من أن التعاون العربي الأفريقي هو تحقيق مصالح مشتركة ومنافع جماعية للطرفين وانطلاقاً كذلك من الأهمية الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية التي تكتسبها تنمية التبادل التجاري بين البلدان العربية والبلاد الأفريقية. وأخيراً انطلاقاً من أن التعاون العربي الأفريقي في حاجة أكيدة إلى التجديد وإلى التطور، تعرضنا في الباب الثاني من الدراسة إلى مزايا وسبل دفع التجارة الخارجية بين العرب والأفارقة - دون تفصيل - واقترحنا إحداث «نافذة» تجارية لدى المؤسسات العربية تعنى بتمويل وتنمية وتطوير التبادل السلعي والخدمات بين البلدان العربية والبلدان الأفريقية (صفحة 53 فقرة 188) مستندين في ذلك إلى تجربة البنك الإسلامي للتنمية.

قضية تشجيع قيام المشروعات الإنتاجية العربية الأفريقية المشتركة

أما الباب الثالث من الدراسة المعروضة فهو يخص تشجيع المشروعات الإنتاجية العربية الأفريقية المشتركة. وهو منهج من المناهج الجديدة للتعاون العربي الأفريقي التي تجسم مبدأ وضرورة تحقيق الفائدة المشتركة بين الطرفين العربي والأفريقي وإن لم ننف المخاطر العامة والخاصة التي ينطوي عليها أي

استثمار عربي خاص أو حكومي في افريقيا. إلّا أن ولـوج هذا النـوع من النشاط في قـارة مـا زالت بكـراً ومـا زالت تـزخـر بالإمكانات الزراعية والصناعيـة وذلك تحت مـظلة المؤسسات العربية بنفسها أمر مـرغوب فيـه وعنصر أساسي لإعـطاء هذا التعاون العربي الأفريقي نفساً جديداً وآفاقاً عريضة، عـلى أن تنـظم ملتقيات بـين المستثمرين العـرب والأفارقـة وتتوافر كل المعلومات الضرورية والضمانات الـلازمة قبـل اقتحام ميـدان الاستثمار المشترك، ولا شك أن للمؤسسات العـربية دوراً مهـماً في هذا الشأن (صفحة 57-58 فقرة 131).

قضية استنفار الطاقات العربية

في كـل مـا يقـوم بـه المصرف العـربي والمؤسسـات العـربيـة الأخرى من نشاطات داخل أفريقيا

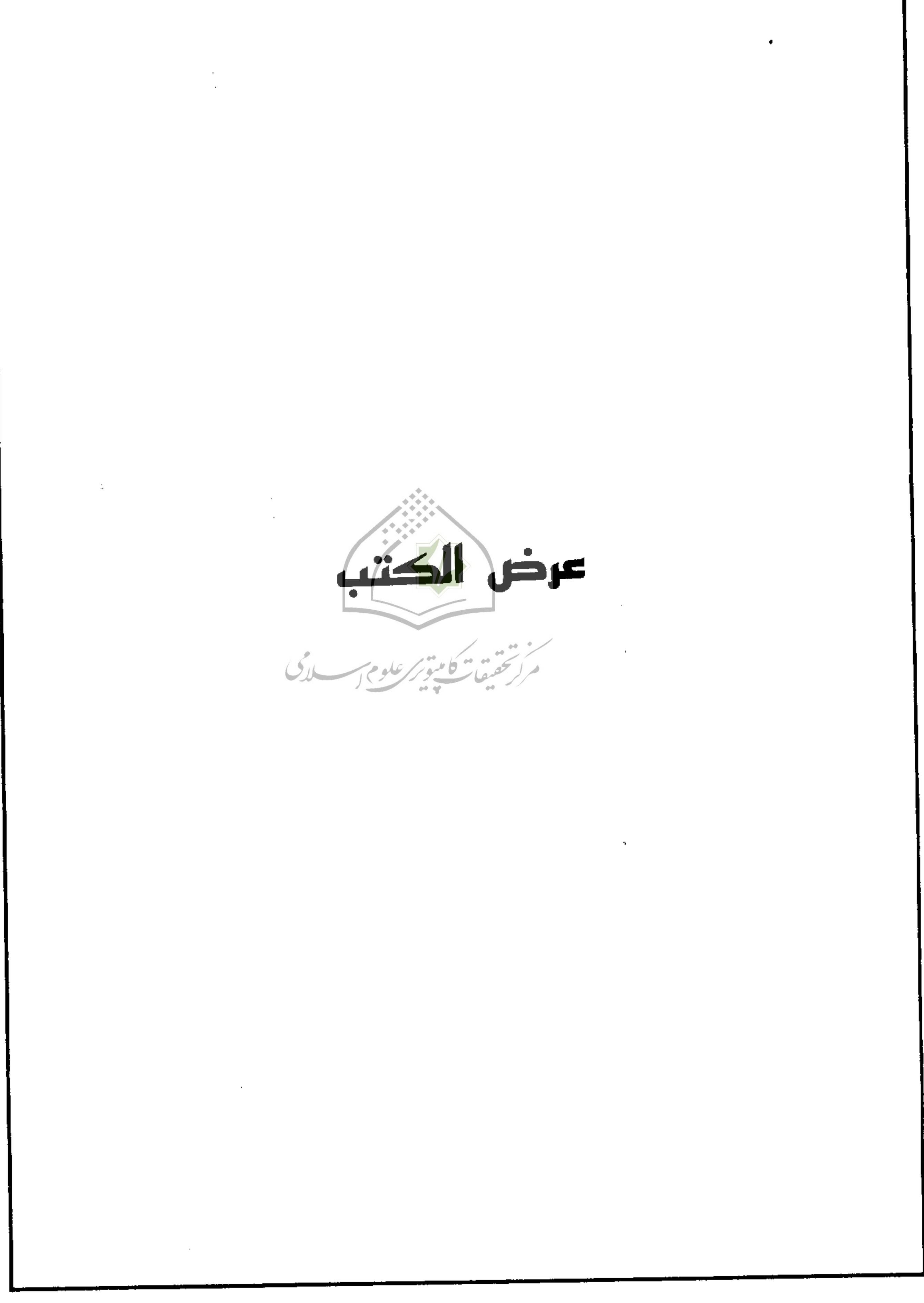
يتناول الباب الـرابع والأخـير من الدراسـة قضية استنفـار العنصر العـربي الفردي والمؤسسي في خـدمة التعـاون العـربي الأفريقي عن طريق برامج التمويل المقدمة من كل المؤسسات العربية لصالح أفريقيا.

وإن تنـاولنـا في الـدراسـة الأسبـاب التي أدت إلى غيـاب العنصر العـربي من ساحـة العمل العـربي المشترك في افـريقيا فذلك لا لتوجيه العتاب لأية جهة كانت بقدر ما هـو تحسيس المؤسسـات العربيـة وكل الأطـراف العـربيـة الأخـرى المؤهلة والمستعـدة للعمل في أفـريقيا بـأن الزمن قـد حـان لاستنفـار الـطاقات والكفـاءات والقدرات العـربيـة لـدخـول السـاحـة الأفريقية ونحن نعلم أن هذا الاستنفار قد بدأ، ولا شـك أن التنسيق بيننا وتبادل المعلومات حول الخبرة العربيـة المتواجـدة سيساعدان على تحقيق هذا الهدف المنشود.






مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



عرض الكتب

دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوروبي في آسيا

1800-1600

تأليف: د. عبدالأمين محمد أمين
عرض: د. حسين محمد القهواتي

الأستاذ الدكتور عبدالأمين محمد أمين، مؤرخ رائد فذ، سبر في دراساته السابقة، غور تاريخ الخليج العربي بمقدرة فائقة وموضوعية صادقة، ودراية متميزة، وخرج بمؤلفات وبحوث وثائقية نادرة معروفة من قبل كل المتخصصين في حقل الدراسات الخليجية، وهو اليوم يتحفنا بهذا الكتاب الذي هو في الحقيقة عبارة عن ثلاث دراسات جديدة، تهدف إلى فهم واقع الشركات الأجنبية التجارية الأوروبية العاملة في «آسيا» والتي بدون التعرف على أنشطتها وظروف تأسيسها وتشعب فعالياتها لا يمكن فهم واقع تاريخ المنطقة.

وقد أسهمت الجامعة الأردنية، متمثلة في شخص رئيسها الأستاذ الدكتور عبدالسلام المجالي والأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، عميد البحث العلمي في الجامعة المذكورة والمعروف بعلو مكانته العلمية، بنشر هذه الدراسات القيمة، وأتاحت للمثقفين العرب الاطلاع عليها والاسترشاد بها واعتمادها في دراستهم المستقبلية عن الخليج العربي، وهذه الدراسات هي:

1 ـ التطورات في أنماط التجارة الأوروبية الآسيوية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

2 ـ التطورات في تجارة الموانىء الآسيوية.

3 ـ الشركات التجارية الأوروبية بين الأهداف التجارية والسياسات التوسعية.

وصدرت هذه الدراسات على شكل كتاب يحمل عنوان دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوروبي في آسيا 1800-1600، صدر في عمان عام 1987، والدراسات الثلاث ليست فصولاً لكتاب بقدر امتياز كل فصل منها بالخصوصية والأصالة، ويسعى الباحث في دراساته هذه، إذ يلفت أنظار المؤرخين الشباب في الأقطار العربية للاهتمام بمثل المواضيع التي تطرق إليها ويحثهم على التعمق فيها، ويطالبهم بتوسيع رقعة بحوثهم لتشمل الموانىء الآسيوية، حيث مارست تلك الشركات الأجنبية الأوروبية أنشطتها فيها والتي اتخذتها قاعدة للانطلاق إلى مناطق المحيط الهندي والخليج العربي. ويعتقد الباحث بأن مثل هذا التوجه يساعدهم على فهم تاريخهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي بشكل موضوعي وسليم.

ومصطلح «الموانىء الآسيوية» الذي ابتكره الباحث لأول مرة، يقصد به تلك المراكز التجارية في أرخبيل الملايو والهند والمحيط الهندي، ولم يقصد الموانىء الأخرى في الأقاليم السياسية لقارة آسيا عموماً، وقد ركز الباحث بخبرته المعروفة على دور تلك الموانىء في تجارة القرنين السابع عشر والثامن عشر. وأكد على أهمية الواردات إلى أوروبا دون صادراتها إلى تلك الموانىء الآسيوية، لأن الواردات كانت هي الركيزة الأساسية لأنشطة تلك الشركات في بادىء الأمر.

ومما يعزز ثقتنا بهذه البحوث، الجهود المبذولة في جمع المعلومات المتعلقة بقيمة الصادرات من نماذج عديدة من سجلات شركة الهند الشرقية الإنكليزية، ومن المصادر الأولية

التي كتبها باحثون معروفون، كرّسوا جُلّ وقتهم لتتبع نشاطات الشركات الأجنبية العاملة في الموانىء الآسيوية.

ومن المعروف تاريخياً أنه ومنذ تأسيس الشركات التجارية الأجنبية خلال القرن السابع عشر ومزاولتها التجارة مع الشرق، كان الهدف الأساسي منها جني الأرباح من مبيعات السلع الآسيوية في الأسواق الأوروبية، ورغم أن بعض الحكومات الأوروبية أجبرت أحياناً شركاتها على تصدير السلع الأوروبية إلى الشرق، إلاّ أن تجارة القرن السابع عشر كانت عبارة عن تجارة صادرات السلع الشرقية إلى أوروبا، وهذا ما يكشفه الباحث بالأرقام والاحصائيات الدقيقة التي توصل إليها من مصادر متنوعة، تلك الأرقام التي جعلته يصل إلى استنتاجه العلمي بأن تلك المبيعات أثرت في التاريخ الاقتصادي والسياسي لا في آسيا وأوروبا فحسب وإنما في العالم أجمع، وكانت باكورة التحولات التي سبقت الثورة الصناعية، لأن ازدياد انتاج واستهلاك بعض السلع في آسيا وأوروبا التي نظم الباحث الإحصائيات بشأنها، أدّى إلى ارتفاع مستوى المعيشة فيهما. ولعلّ الأهم من هذا تلك الإشارة التي أوردها الباحث بأن سلعاً شرقية لم تكن تعرفها أوروبا من قبل مثل الشاي والقهوة قد دخلت ميدان التجارة الأوروبية والآسيوية وشغف بها الأوروبيون بصورة ملفتة للنظر، كما أن تطوراً كبيراً حدث في تجارة الحرير من بلاد فارس.

ومن جهة أخرى وقبل وصول شحنات السكر من جزر الهند الغربية ـ والتي يتتبع الباحث بصورة مشوقة بداياتها ـ إلى الموانىء الأوروبية ـ يشير الباحث إلى أن السكر المنتج في جاوة والبنغال والصين، كان هو المعوّل عليه في الأقطار الأوروبية، من هنا يتضح دور هذه التجارة في الاقتصاد والسياسة الدوليتين.

ومثل تجارة السكر لعبت تجارة الملح الصخري الآسيوي دوراً في التجارة الأوروبية فبعد أن كانت هذه الصخور توازن حمولة السفن أول الأمر، صارت مهمة إبان الحروب الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبخاصة بعد تطور صناعة البارود وحاجة المصانع إلى نسبة عالية من الملح الصخري، وهكذا يلاحق الباحث بصبر متميز وقدرة فائقة التفصيلات الدقيقة لأنماط التجارة الآسيوية والأوروبية، وفعاليات الشركات الأجنبية ويكشف أهدافها التجارية ويعري سياساتها التوسعية، لدرجة لا يمكن الاسترسال في عرض الكتاب لأن الأمر يقتضي إعادة سرد فقراته جميعاً التي هي مهمة جملة وتفصيلاً.

وختاماً أؤكد على ضرورة دراسة هذا الكتاب بعمق، للتعرف على دور تلك الشركات التجارية والأوروبية التي مارست أنشطتها في الشرق في وقت مبكر وبدأت بسلع مثل التوابل والأعشاب الطبية المربحة، لتنتهي بتصدير كل ما تستطيع تصديره، ولم تترك حتى «فضلات الكلاب».



السلطان عبدالحميد الثاني

صدر للأستاذ أورخان محمد علي كتاب (السلطان عبدالحميد الثاني، حياته وأحداث عهده).

يتناول هذا الكتاب تاريخ نشوء الدولة العثمانية وأدوار ازدهارها ثم توقفها وتراجعها وانحطاطها بشكل موجز. كما يتناول بالشرح المفصل حياة السلطان عبدالحميد الثاني والحروب والمعاهدات التي دخلتها الدولة العثمانية في عهده والظروف السياسية الدولية التي كانت سائدة آنذاك، والمشاكل الداخلية والخارجية التي جابهت السلطان عبدالحميد الثاني الذي دام حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة، والكتاب كما يذكر المؤلف هو أول كتاب يؤلف في هذا الموضوع باللغة العربية.

المقاومة اللاعنفية

تأليف: جين شارب
ترجمة وإعداد: مبارك عوض
منشورات: المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف
القدس، 1986

عرض وتحليل ونقد:

د. عاطف العقلة عضيبات

جامعة اليرموك - الأردن

-1-

تشير الإحصائيات التقريبية إلى أن البشرية في الفترة ما بين 3600 قبل الميلاد حتى الآن شهدت أكثر من 14,500 حرباً قتل بسببها قرابة 3,5 مليون إنسان سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة ومن جراء المجاعات والأوبئة التي تسببت بها هذه الحروب. وفي هذا القرن بالذات، بينما نجد أن هناك ثمانية ملايين جندي ومليون مدني قتلوا مباشرة في الحرب العالمية الأولى، نجد أن الحرب العالمية الثانية أودت وبشكل مباشر بحياة سبعة عشر مليوناً آخرين من الجنود وخمسة وثلاثين مليوناً غيرهم من المدنيين. هذا بالإضافة إلى أن الحروب الداخلية أودت بحياة ملايين أخرى من البشر. فالحروب الداخلية التي وقعت ما بين 1960-1970 أودت بحياة حوالي سبعمائة ألف صيني وقرابة نصف مليون إندونيسي وما يزيد على ربع مليون نيجيري[1].

ويبدو أن القرن الحالي تتزايد فيه أعمال العنف بشكل لم يسبق له مثيل وتحتدم قبله صراعات سياسية ونزاعات عقائدية تتحول إلى العنف الذي يزهق أرواح أعداد هائلة من البشر تزيد في مجموعها عما خسرته البشرية في القرون الخالية.

إن هذه الأوضاع المأساوية لم تكن إلا من مفهوم تعتقد به معظم الحكومات بأن وسائل العنف العسكرية هي وحدها القادرة على ردع الهجوم أو الدفاع ضده. وبناءً عليه، فقد أصبحت الشعوب والحكومات غير راغبة في التخلي عن الوسائل العسكرية، ولم تنجح الجهود الرامية إلى الجنوح للسلم في المجتمع الدولي، ونظراً لخطورة هذه الوسائل العسكرية فإن شعوباً كثيرة تعتقد أنها ضرورة لا بد منها. قد تختلف الآراء حول نجاعة الحلول العسكرية، وحول الأمور المترتبة عليها، ولكن أحداً لا يدّعي أنها تخلو تماماً من المشاكل والمخاطر. إن الاعتقاد الشائع بأن الوسائل العسكرية وحدها هي القادرة على صد الهجمات والدفاع عن حياض الوطن، هو في أحسن الأحوال، غير خال من العيوب، إلاّ أنه بالتمحيص والتدقيق ومن خلال بعد نظر ينكشف زيفه. ولذلك، ينبغي التطلع إلى حلول بديلة ممكنة. وفي حقيقة الأمر فقد استخدمت وسائل نضالية، بديلة للدفاع ضد تدخلات أجنبية أو اغتصابات داخلية للسلطة، وهي غالباً ما تكون غير معروفة جيداً، ونادراً ما فحصت جدياً أهمية قدراتها المحتملة، إلاّ أنها موجودة وتشكل بذلك بديلاً ممكناً، وأن هذا البديل الممكن هو: **المقاومة اللاّعنفية** التي اتخذ منها هذا الكتاب الذي بين أيدينا عنواناً له. إن أهمية هذا الكتاب وأصالته تنبع من أن السؤال الهام لا يكمن فيما إذا كانت البدائل لهذا الموضوع موجودة، وإنما في كيف يمكن تحليل وتطوير قدرات واحتمالات أشكال هذه البدائل: المقاومة اللاّعنفية لتصبح قادرة في المستقبل على ردع أي هجوم والدفاع ضده. وبالرغم من أن آلية هذا الأسلوب (المقاومة اللاّعنفية) في العمل الاجتماعي والسياسي لها تاريخ طويل، إلاّ أن معظمه بقي مجهولاً لأن المؤرخين والمحللين الاجتماعيين والسياسيين كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً في قضايا أخرى. وفيما يتعلق بالمقاومة اللاّعنفية يوجد هنالك العديد من الآراء

(1) راجع: Francis A. Beer. *Peace Against War: The Ecology of International Violence.* San Francisco: W.H. Freeman and Company, 1981, pp. 20-31.

الشائعة تدور حول كيفية عملها أو أسباب فشلها، وقلّما تستند هذه الآراء إلى فهم حقيقي لآلية هذه المقاومة وحركة تحولها، ولذلك فإنه بالمقارنة مع أشكال النضال الأخرى لا يزال نضال اللاّعنف (المقاومة اللاّعنفية) غير مدروس. وهنا يأتي هذا الكتاب ليسد نقصاً واضحاً في هذا المجال. إن هذا الكتاب يكتسب أهمية خاصة في منطقتنا العربية بسبب ندرة الكتابات في هذا المجال من جانب وزيادة الاهتمام بموضوع المقاومة اللاعنفية من جانب آخر. لقد جاء نشر هذا الكتاب متزامناً مع عقد مؤتمر «المقاومة اللاّعنفية» في الأردن في أواخر العام الماضي[2]. ومع ندوة «العنف والسياسة في الوطن العربي» في بداية هذا العام[3]. وتأتي أهمية هذا الكتاب لكونه بحثاً أكاديمياً يقدم للقارىء المطلع على شؤون الشرق الأوسط فرصة نادرة يتفاعل فيها مع الكاتب، ويدرس بإمعان الفلسفة المقترحة، ويتفهم بشكل مستقل التجارب التاريخية الخاصة بمجتمعات أخرى، والوسائل الممكنة للنضال في أماكن أخرى، ليصل إلى استنتاجاته الخاصة في كل حالة بالنسبة لما يمكن أن يطبّق هنا أو ما لا يمكن أن يطبّق، وعندئذ يكون له الخيار في تطوير أفكار جديدة ذات صلة بهذا الجزء من العالم أم لا.

وهذا الكتاب يقدم لنا خلاصة موجزة لدراسات وتحليلات البروفسور «جين شارب» حول موضوع المقاومة اللاّعنفية. وقد قسّم المؤلف الكتاب الذي يقع في حوالى 400 صفحة من الحجم العادي إلى مقدمة وسبعة فصول وعلى الرغم من أن الفصول السبعة تعالج أبعاداً مختلفة لقضية المقاومة اللاّعنفية إلاّ أن المؤلف نجح في عرضها في سياق متصل، هو أقرب أحياناً إلى الطابع الدرامي.

يتناول المؤلف في الفصل الأول «طبيعة السلطة السياسية وضوابطها» من منطلق أنه ليس صحيحاً أن العنف هو وسيلة العمل الوحيدة الفعالة في مواقف الصراع الحاسمة. ولذلك، فقد شنت عدة دول على مرّ التاريخ، وفي ظل أنظمة سياسية مختلفة في معظم أجزاء العالم، حروباً متعددة واستخدمت قوة فائقة لا يستهان بها عن طريق نهج أسلوب نضالي معيّن لا يقتل ولا يهدم وهو أسلوب النضال السلمي، نضال اللاّعنف. ومع أن هذا الأسلوب أطلقت عليه أسماء مختلفة، فإن أساسه واحد، وهو: الإيمان بأن وجود القوة في أية دولة يتوقف على موافقة المحكومين، الذين إذا سحبوا موافقتهم أصبحت الدولة في خطر.

وتشترك كل نضالات اللاعنف، بصورة صريحة أو ضمنية، في افتراض أساسي وهو نظرتها إلى طبيعة السلطة وقوتها وكيفية التعامل معها.

وفي تحليل المؤلف لطبيعة السلطة فإنه يشير إلى أن هنالك وجهتا نظر:

الأولى: ترى أن الناس يعتمدون على إرادة وقرارات الحكومة أو أية أنظمة إدارية يفيئون تحت ظلالها.

والثانية: مغايرة للأولى، فهي ترى أن الحكومة تعتمد على إرادة الشعب وقراراته ودعمه لها.

أما نضال اللاّعنف فيعتقد بوجهة النظر الثانية: وهي أن الحكومة تعتمد على الشعب، وأن السلطة تعددية والسلطة السياسية هشّة لأنها تعتمد على موجات كثيرة لتدعيم مصادر قوتها. إن نضال اللاّعنف على الرأي القائل بأن السلطة السياسية يمكن ضبطها بشكل فعال بدءاً من مصادرها. وهذا الفصل هو استكشاف لماذا يقتضي عمل ذلك وكيف يجب أن يكون؟ وفي صدد عملية الاستكشاف هذه تعرض المؤلف للجذور الاجتماعية للسلطة السياسية فأشار إلى أن النظر إلى القرارات والأحداث والمشاكل السياسية في معزل عن المجتمع الذي توجد فيه لهو خطأ غالباً ما يرتكبه دارسو السياسة. والمؤلف هنا يتفق مع عالم الاجتماع (أوجست كونت) الذي قال بأن سلطة الحكم متغيرة وأنها تعتمد على الدرجة التي منح المجتمع بها السلطة للحاكم. وبعد ذلك يناقش المؤلف مصادر السلطة السياسية التي تنشأ من تفاعل كل أو بعض المصادر التالية: السلطان، والمصادر البشرية، والمعرفة والمهارات، والعوامل غير الملموسة، والمصادر المادية، والعقوبات والروادع. وهذه المصادر تعتمد على الطاعة

---

(2) Conference on «Nonviolent Political Struggle», organized by Arab Thought Forum, Amman, Jordan, November 15-17, 1986.

(3) ندوة العنف والسياسة في الوطن العربي «المنعقدة في القاهرة من 27-28 فبراير 1987 والتي نظمها منتدى الفكر العربي بالتعاون مع اتحاد المحامين العرب ومركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة.

والاستجابة حيث إن الميزة الوحيدة الهامة التي لا يمكن لأية حكومة أن تهيمن وتقوى بإدارتها وسلطانها، هذه الميزة هي إطاعة شعبها لها واستجابته واحترامه للقوانين والأنظمة، فالطاعة هي عنوان السلطة السياسية. وفي إطار جواب المؤلف على سؤال حول تعليل إطاعة الشعب للحكومة أشار إلى أن الأسباب متعددة ومعقدة ومترابطة ويمكن حصرها في العادة، والخوف من الصعوبات والالتزام الأخلاقي، والمصلحة الشخصية، والتأثر النفسي المتفاعل وغير ذلك من الأسباب. ونلاحظ أن هذه الأسباب تنسجم مع بعض الآراء لمجموعة من أصحاب النظريات الذين كتبوا حول هذه القضايا، فبعضهم قال بأن الطاعة تنتج عن الخلط بين الرفض والقبول. ومضى المؤلف يؤكد أن الطاعة والتعاون اللتين هما أساس قوة الحاكم، غير ضروريتين حيث إنه على الرغم من الإغراءات والضغوط والمكافآت والعقوبات فإن الطاعة تبقى في الأساس إرادية وعن طواعية، ولذلك فإن الحكومات تعتمد على الموافقة والرضا من قبل مواطنيها، وإذا كانت الغالبية العظمى من المجتمع مصممة على الإطاحة بالحكومة وإضعافها وتحتمل هذه الأغلبية الأذى وما قد يلحق بها في سبيل تحقيق هدفها، فإن قوة تلك الحكومة مع قوة الأقلية التي تبقى مرتبطة بها أو متعاطفة معها، لا يكفي للمحافظة على بقائها أو حتى تأخير الإطاحة بها أو على الأقل انحطاطها، حتى ولو تدخلت الحكومات الأجنبية الحليفة لمساعدتها أو إنقاذها. إن من الصعب إخضاع الأفراد أو إكراههم على الطاعة الدائمة إذا كانوا يكرهون الحكومة كرهاً شديداً وكانوا مستعدين لمقاومتها حتى النهاية. وكما يعتقد رسو «Rousseau» فإنه (يسهل على المرء أن ينتصر من أن يحكم). يورد المؤلف العديد من الأدلة التاريخية الهامة من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي وألمانيا والهند والتي جميعها تؤكد أن هذه التأملات والأفكار النظرية صحيحة. ثم إن عدم التعاون مع السلطة في ظروف معينة يمكن أن يكون لذلك دور فعال في السيطرة على الحكومة وعلى إبطال قوانينها وإفشال إدارتها وخذلانها والحيولة دون ديمومتها.

وفي الفصل الثاني المعنون بـ «القاعدة البنيوية للسيطرة على الحكام» يعالج المؤلف بالتفصيل كيف يمكن لأسلوب اللاّعنف - المبني على المفهوم النظري للسلطة الذي قدمه المؤلف في الفصل الأول - أن يعمل أثناء النضال الفعلي. يؤكد المؤلف هنا أن الوضع البنيوي للمجتمع، هام جداً لتحديد قدرة المجتمع في السيطرة على حكامه. هذا الوضع البنيوي يعزى إلى وجود أو غياب مؤسسات مختلفة من حيث عددها، ومدى مركزيتها أو لا مركزيتها وإلى الخطوات والبرامج والأنظمة الداخلية لاتخاذ القرارات ومدى قوتها وفعاليتها واستجابة الجمهور لها وتأثيرها فيهم وتأثرهم بها، ثم إن هذا الوضع البنيوي للمجتمع والمتمثل في المجموعات والمؤسسات المختلفة مثل العائلات والطبقات الاجتماعية، والفئات الدينية، ومجموعات ثقافية وقومية، وأخرى مهنية وغيرها اقتصادية، ومنظمات تطوعية، وأحزاباً سياسية، وغيرها يؤثر على قدرة المجتمع في السيطرة على قوة الحكام بطريقتين، فإذا كانت السلطة لامركزية، وموزعة بيد مؤسسات مستقلة قوية وحيوية، فإن هذا الوضع سيساعد كثيراً في الحالات الطارئة التي يكون فيها النضال ضرورياً للسيطرة على الحاكم مما يعزز قدرة الأفراد ومؤسساتهم على إضعاف الحاكم وسحب مصادر سلطته من أجل فرض مثل هذه السيطرة. وكذلك، فإن الوضع البنيوي سيضع الحدود العريضة والواضحة لقدرات الحاكم المختلفة والتي لا يمكن له أن يتعداها بدون تغيرات بنيوية أو مساعدة فعالة متزايدة ومقصودة من الأفراد والمؤسسات. وبهذا، فإن السكان الذين يعملون من خلال مجموعاتهم ومؤسساتهم يمكن لهم فرض السيطرة على حاكم ديكتاتور، أو حتى يمكنهم إسقاط نظامه والقضاء على سلطته. والعكس صحيح أيضاً، فعندما تفقد هذه المجموعات والمؤسسات الاجتماعية قدرتها على القرار والعمل المستقلين، وسيطرتها على مصادر السلطة، أو عندما تضعف هي نفسها وتسحق بلا هوادة، فإن مثل هذه الخسارة تشكل مساهمة كبيرة في جعل سلطة الحاكم غير مقيّدة وغير مُسيطَر عليها ويصبح بذلك الرعايا مجرد حشود من الأفراد المتفرقين، غير القادرين على العمل الجماعي الفعال، وهنا تصبح إمكانية السيطرة على سلطة الحاكم أقل من أي وقت مضى. فالمجتمع الذي يكون فيه الأفراد مشتتين والسلطة في قبضة الدولة، فيكون ذلك سهلاً على الدولة أن تصبح

دكتاتورية مستبدّة ولكي تكون السيطرة على سلطة الحاكم ممكنة وفعالة في المدى البعيد، فيجب أن تنتقل هذه السلطة وتنتشر بصورة سريعة وناجحة بين جماعات ومؤسسات اجتماعية مختلفة في كل المجتمع. ولذلك، فإن المقاومة أو ثورة اللاّعنف لم تكن برنامجاً للاستيلاء على السلطة. إن الهند القوية من الداخل والمدعومة ذاتياً والمعتمدة على نفسها ستكون أمينة من القوى الأجنبية حتى بدون التسليح، كما حاول أن يبرهن غاندي. ولقد حاول المؤلف في هذا الفصل أن يوصل القارىء إلى استنتاج هام وهو أن العنف السياسي يسهم في تثبيت القوة حيث إن الثورات الضيقة والحروب قد واكبها وتبعها تزايد مضطرد وملحوظ في تركيز السلطة بيد الحاكم، بينما كان للمقاومة اللاّعنفية أثر مختلف تماماً على المدى البعيد، في توزيع القوة في المجتمع.

أما في الفصل الثالث وعنوانه «أسلوب فعال في النضال» فيناقش المؤلف قضية مركزية وهي أن اللاعنف يرتكز على مبدأ أساسي بسيط وهو أن الناس لا يفعلون دائماً ما يقال لهم أن يفعلوه، وأحياناً قد يفعلون أشياء كانت قد حظرت عليهم. والأفراد يمكن أن لا يطيعوا قوانين يرفضونها، وعندما تحدث مثل هذه الأمور بشكل متزامن، فإن الرجل الذي كان حاكماً قد يصبح رجلاً آخر عادياً. إن تلاشي السلطة هذا يمكن أن يحدث في مجموعات متنوعة وواسعة من الصراعات السياسية والاجتماعية. فعندما تسحب المساعدة البشرية التي خلقت ودعمت السلطة السياسية للنظام، فإن السلطة تتفسخ. وعندها، فإن الحكومة أو جهاز السلطة لن تكون له القوة الفاعلة المنشودة بعد ذلك، وهذا هو الافتراض السياسي الرئيسي للمقاومة اللاّعنفية. وبعد توضيح هذا الافتراض حاول المؤلف مناقشة بعض المفاهيم الخاطئة لعمل اللاّعنف وتوضيحه بإعطاء العديد من الأمثلة. فالمؤلف يعرف في (ص: 118) عمل اللاّعنف بأنه «مصطلح عام ويشمل عدداً كبيراً من أساليب الاحتجاج، كعدم التعاون والتدخل، والتي في جميعها يدير النشيطون الصراع عن طريق أن يفعلوا ـ أو يرفضوا أو يفعلوا ـ أشياء محددة بدون استعمال العنف المادي. ولذلك، فإن عمل اللاعنف كأسلوب تنتهجه مجموعة من أفراد المجتمع ليس أمراً سلبياً، إذ إنه ليس اللاعمل بل هو عمل اللاّعنف. ويمضي المؤلف ليؤكد أن اللاّعمل والذي يمكن أن يشمل الاستسلام والخضوع والجبن وما إلى ذلك لن يعيقنا لأنه لا علاقة له بأسلوب اللاّعنف الذي هو موضوع هذا الكتاب. ومن تعريفه فإن عمل اللاعنف لا يحدث إلاّ باستبدال الاستسلام والخضوع بالعمل الدؤوب والتحدي والنضال المستمر. إن اللاّعنف من وجهة نظر المؤلف ليس مرادفاً للسلامية (والتي تعني معارضة الحرب أو العنف ورفض اللجوء إليهما في حل النزاعات وبخاصة: رفض حمل السلاح لأسباب دينية أو أخلاقية)، وليس متطابقاً مع المبادىء الدينية أو النظريات الفلسفية التي تؤكد على أن اللاّعنف هو مسألة مبدأ أخلاقي. وبهذا المفهوم فإن عمل اللاّعنف يمكن أن يتضمن ما يلي:

1 ـ أعمال الإسقاط: أي أن الناس الذين يمارسونه قد يرفضون تنفيذ أعمال ينفذونها بصورة عادية أو أعمال من المتوقع أن ينفذوها وفقاً للعادة، أو أعمال يفرضها القانون أو النظام.

2 ـ أعمال الارتكاب: أي أن الناس قد ينفذون أعمالاً ينفذونها في العادة، أو أعمالاً لا يتوقع أن تنفذ حسب العادة، أو أعمالاً يمنع القانون أو النظام تنفيذها.

3 ـ مجموعة من أعمال الإسقاط وأعمال الارتكاب.

وفي الجزء الأكبر من هذا الفصل (ص 132-164) يورد المؤلف العديد من الأمثلة التوضيحية سواء أكان ذلك في المراحل التاريخية المبكرة، أم انتشار نضال اللاّعنف قبل عصر غاندي، أم حالات من أوائل القرن العشرين، أم اسهامات غاندي، أم النضال ضد النازيين، أم العصيانات المدنية في أمريكا اللاتينية أم النضالات الأمريكية من أجل الحقوق المدنية وغيرها. إن هذه الأمثلة التاريخية التي أوردها المؤلف للاستشهاد كافية لتوضيح المعنى الحقيقي للمقاومة اللاّعنفية ولدحض الأفكار الرئيسية المغلوطة التي كانت مقبولة على نطاق واسع فيما يتعلق بعمل اللاّعنف.

بعد استكشاف الخصائص الأساسية لأسلوب اللاّعنف ودراسة تاريخه، خصص المؤلف الفصل الرابع بعنوان: «أسلحة اللاّعنف» إلى العدد المتوفر «للأسلحة» السلمية الخاصة أو الأساليب التي يتضمنها مستودع الأسلحة. وهذا الفصل هو ملخص بليغ لكتاب المؤلف: **سياسة عمل**

اللاعنف، منهاج أعمال اللاعنف (الجزء الثاني، بوسطن: بورترسارجنت 1973). وفيه يرى المؤلف أن نشاط اللاعنف «يعمل» بأساليب خاصة يجب ادراكها. لكي يكون بالإمكان فهمها وتقييمها وتطبيقها بفعالية، وهذه الأساليب تختلف كلياً عن الفرضيات الشائعة عن الصراع والنضال، وبالتحديد عن الفرضية القائلة بأن العنف يمكن مواجهته بالعنف فقط. ونشاط اللاعنف مصمم للعمل ضد خصوم قادرين ومستعدين لاستخدام أساليب عنيفة. هناك العديد من هذه الوسائل والأساليب التي تشكل بمجموعها أسلوب عمل اللاعنف، وقد عمد المؤلف إلى تصنيفها لمجموعة فصائل، وأولى الفصائل في وسائل هذا الأسلوب: هو الاحتجاج والإقناع باللّاعنف، وهذا يتضمن طائفة واسعة من أعمال معظمها رمزية، من المعارضة السلمية أو محاولة إقناع، ممتدة وراء التعبيرات الكلامية. ولكنها تتوقف قبيل اللاتعاون والتدخل العنيف. من بين هذه الوسائل: الاستعراضات، الأمسيات، التهديدات بالإضراب، اليافطات، محاضرات التوعية بموضوع الساعة، إعلان الحداد، اللقاءات الاحتجاجية وغيرها. وقد أورد المؤلف أربعاً وخمسين وسيلة يمكن أن تحتويها فصيلة الاحتجاج والإقناع بفكرة اللّاعنف. وبعد هذه الفصيلة ينتقل المؤلف إلى فصيلة «وسائل اللّاتعاون والتي قسّمت إلى ثلاثة أصناف رئيسية:

1 ـ وسائل اللاتعاون الاجتماعي والتي تتضمن مقاطعات اجتماعية تشمل رفض ممارسة العلاقات الاجتماعية العادية. إما تحديداً أو بشكل عام، مع أشخاص أو فئات يعتمد أنها ارتكبت خطأً أو ظلماً، أو للتمشي مع أشكال سلوكية أو ممارسات اجتماعية معينة.

2 ـ وسائل اللاتعاون الاقتصادي والتي تتضمن مقاطعات اقتصادية واضطرابات مالية وتتكون هذه الوسائل من تعليق أو رفض الاستمرار في علاقات اقتصادية معينة. وأن النوع الفرعي الأول من اللاتعاون الاقتصادي الواسع، هو الذي يشمل المقاطعات الاقتصادية من حيث رفض مواصلة أو تنفيذ علاقات اقتصادية معينة أو خاصة البيع أو الشراء أو تبادل السلع والخدمات. أما النوع الفرعي الثاني الذي يتألف من أشكال مختلفة من الإضراب، والتي تتضمن تقليص العمل أو تعليقه بغية شلّ الحياة بمختلف مرافقها.

3 ـ وسائل اللاتعاون السياسي والتي يمكن تسميتها أيضاً وسائل المقاطعة السياسية وتشمل رفض استمرار الأشكال العادية للمشاركة السياسية في ظل الظروف القائمة، ويستطيع الأفراد والمجموعات الصغيرة ممارسة وسائل هذا الصنف، إلّا أن اللاتعاون السياسي يشمل في العادة أعداداً أكبر من الشعب بتعليق منسق ومحدد الأطر وغالباً ما يكون مؤقتاً لكل من الطاعة والتعاون والسلوك السياسي الطبيعي. ويمكن أن يأخذ اللاتعاون السياسي في الغالب أشكالاً مختلفة لا حصر لها للتعبير عن نفسه، طبقاً للوضع المعيّن. وكلها تنبثق أساساً من عدم الرغبة في مساعدة الخصم، وذلك بنهج أساليب معينة من السلوك السياسي. وقد أورد المؤلف ثمانٍ وثلاثين وسيلة كأمثلة للّاتعاون السياسي.

وتبقى فصيلة أخيرة من فصائل عمل اللّاعنف، وهي: التدخل اللّاعنيف، هناك واحدة وأربعون وسيلة في هذه الطائفة وجميعها تختلف عن تلك التي أوردها في مجال الاحتجاج والإقناع، كما تختلف عن تلك التي أوردها في مجال اللاتعاون من حيث كونها تتدخل بشكل أو بآخر في الوضع. ووسائل كهذه تعمل بالتدخل سلباً أو إيجاباً: فيمكنها أن تقوّض دعائمها، وحتى أن تدمر نماذج سلوكية قائمة أو سياسات أو علاقات أو مؤسسات قائمة يرى أنها غير مقبولة أو هي قادرة على إقامة نماذج سلوكية أو سياسات أو علاقات أو مؤسسات جديدة تعتبرها أفضل. وبالمقارنة مع وسائل الاحتجاج والإقناع ووسائل اللاتعاون، فإن وسائل التدخل اللاعنيف تشكل تحدياً أكثر مباشرة وفورية، وإذا نجحت فإن النصر قد يتحقق عند استخدام وسائل هذه الطائفة بسرعة أكبر مما لو استخدمت وسائل الأصناف السابقة، لأن تأثيرات التدخل المدمرة أقصى من أن تحتمل أو تقام لفترة طويلة. لقد أكد المؤلف على نقطة اعتبرها جوهرية وهي أن التصنيف العريض لوسائل العمل الخاصة في فصائل عامة من الاحتجاج والإقناع واللاتعاون والتدخل، لا يجوز اعتباره جامداً، بل إنه ببساطة يتمتع بصلاحية عامة. وهذه الوسائل المحتملة للمقاومة اللّاعنيفة تعتمد على الكثير من العوامل كحضارة وتقاليد الشعب المعني والوضع السياسي والاجتماعي العام، ودرجة القسوة التي يستعد الخصم لاستعمالها، وعدد

المشاركين بمختلف نشاطاتهم وقدراتهم في الذكاء، ودرجة الدعم الذي يتلقونه من السكان وغير ذلك من العوامل.

في الفصل الخامس: «كيف يعمل نضال اللاعنف» يحاول المؤلف أن يتقصّى الكيفية التي يعمل بها النضال اللاعنيف، من خلال التعرض لحركية هذا الأسلوب في النضال وآليات التغيير، والعوامل الخاصة التي تحدد فيما إذا كانت حملة معينة ستنتهي بنجاح أو فشل أو شيء بينهما. إن هذا الفصل هو ملخص مختصر جداً لكتاب المؤلف: **سياسات العمل اللاعنيف: ديناميكية العمل اللاعنيف** (الجزء الثالث، بوسطن بورترسارجنت، 1973).

من أجل فهم ديناميكية نضال اللاّعنف وحركيته، فلقد استخدم المؤلف الكثير من حالات المقاومة اللاعنيفة التي توضح أشكالاً هامة لهذه الآلية، من بين هذه الحالات العديدة: النضالات اللاعنفية لأمريكا المستعمرة 1765-1775، المقاومة الهنغارية للحكم النمساوي 1850-1867، الثورتان الروسيتان 1905-1917، حملة الاستقلال الهندية 1930-1931، حركات المقاومة في عدد من الأقطار التي احتلها النازيون 1940-1945، حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة 1955، أو المقاومة الدفاعية التشيكوسلوفاكية 1965-1969. إن الهيكل التحليلي لهذه الحالات العديدة يشير إلى أنه بعكس المعتقدات الشائعة، فإن النجاح في هذا الأسلوب من المقاومة اللاعنفية، ليس قائماً على فرض أن الإنسان «خير» بطبيعته. ولا يتطلب النجاح وجود نظام عام للقيم، أو جماعة قوية ذات مصلحة، أو درجة عالية من التقارب النفسي، وهذه يمكن أن تكون على قدر كبير من الأهمية في المساعدة لبلوغ الهدف المنشود، ولكنها ليست متطلبات ضرورية. ثم إن النضال اللاّعنيف، كما ادّعى البعض ليس حِكراً خاصاً على القديسين والرهبان، فلقد عمّ استخدامه من قبل أناس عاديين ونادوا به وتبنوا فكرة الدعوة له. في تحليل عملية إدارة القوة في المقاومة اللاعنفية، يشير المؤلف إلى أن العمل اللاعنيف هو وسيلة لخوض النضال في وضع تصادم، إنه يعبر عن حالة حرب، أكثر مما يعبر عن مفاوضات. هذا الأسلوب يتدبر القوة لمواجهة قوة جماعة معارضة، وللتقدم بأهداف مجموعة اللاعنف إلى الأمام أيضاً. ويمكن أن ينظر إلى أسلوب اللاعنف على أنه يتعامل مع القوة المناهضة بطريقة أقل مباشرة مما يفعله معها العنف السياسي. لكنه يمكن أن يرى أيضاً أكثر مباشرة في ضرب القوة المناهضة مما يفعل العنف. وبالرغم من التفاوت الواسع في حالات أعمال اللاعنف، فقد قدم المؤلف وصفاً عاماً للعمليات الأساسية والقوى الفاعلة، التي يمكن أن تدور خلال نضال من هذا الطراز والتي تتضمن: العشوائية أو التنظيم، والتحدي، والقمع والأحرار، مشاكل الخصم، وإمكانية الرد بوحشية، والتغيرات في الجماعة المناضلة وغيرها. وفي حديثه عن طرق نجاح أسلوب اللاعنف، ميّز المؤلف بين ثلاثة عناصر أساسية في التغير التي يعتمد عليها عمل اللاعنف. وهذه هي التمويل والملاءمة، والإكراه اللاعنيف. لقد ناقش هذا الفصل كذلك عملية نزع مصادر السلطة حيث أشار المؤلف إلى أنه يمكن لعمل اللاعنف أن يقلل من إمكانية الحصول على كل مصدر من مصادر السلطة السياسية المشار إليها. في الفصل الأول من هذا الكتاب وفي آخر الفصل، عالج المؤلف عملية النهاية التي يؤول إليها النضال مشيراً إلى أن الهزيمة بالمعنى السياسي المباشر ممكنة دائماً في عمل اللاعنف، تماماً كما هي ممكنة في الحرب أو في أي نوع من الأنواع الأخرى من العنف السياسي وعند انتهاء بعض حملات اللاعنف. تماماً كما هي الحال في الحملات العسكرية، فإنه قد يكون من الصعب التحدث عن «نجاح» أو «فشل» واضح لها، لأن هنالك عناصر من كليهما تكون ممكنة الوجود. وعلى المدى الطويل، يحتمل أن تكون أكثر النتائج تأثيراً هي تركيز زخم النضال في حل القضايا المطروحة، وفي نوايا المجتمعات تجاه بعضها البعض، وفي توزيع السلطة بين المجموعات المناضلة وداخلها، وحسب كل هذه الاعتبارات، فإن مساهمات نضال اللاعنف بالغة الأهمية واضحة المعالم.

في الفصل السادس الذي يحمل عنوان «دفاع مدني الارتكاز: سياسة ردع ودفاع جديدة» يحاول المؤلف التحري عن نجاعة هذه الأشكال النضالية العسكرية والتي أطلق عليها «دفاع مدني الارتكاز». ويشير هذا المصطلح (ص: 266) «إلى دفاع بواسطة المدنيين (كتميز عن الأفراد العسكريين)، باستخدام وسائل نضال مدنية (كتميز عن الوسائل العسكرية وشبه العسكرية). دفاع مدني الارتكاز،

هو إجراء يقصد به ردع وهزيمة الغزوات العسكرية الأجنبية، أو الاحتلال أو الاغتصابات الداخلية للسلطة. وهذه الأخيرة تشمل الانقلابات العسكرية بتحريض وعون خارجيين أو بدونهما. إن سياسة دفاع مدني الارتكاز تستدعي إنجاز الردع والدفاع بوسائل مدنية بحتة للنضال: اجتماعية، اقتصادية، سياسية، ونفسية. تستخدم هذه الوسائل لتنفيذ عدم تعاون واسع، وللتقدم بتحدٍ عام مركز. والهدف هو الحيلولة بين المهاجم وأغراضه التي يريدها، وكذلك ليجعل من المستحيل تدعيم حكم أجنبي، أو نظام عميل، أو حكومة من المارقين. هذا التعاون وهذا التحدي، ترافقهما أشكال أخرى من العمل، مصممة جميعها لتقويض ولأقوات المهاجم وموظفيه أو لتحريضهم على عدم الإطاعة لتنفيذ الأوامر والقمع، ولضمان تمردهم أيضاً. إن دفاع مدني الارتكاز والإطار العام للنضال الذي ينبثق عنه، ممكنان، وقادران على ممارسة قوة عظيمة، حتى ضد حكام طغاة وأنظمة عسكرية استبدادية، لأنهما يهاجمان أكثر المزايا التي تقوم على أسس واهية في كل المؤسسات والحكومات القائمة التي تتدرج في حزمها وصرامتها. يشير المؤلف إلى أن قدرة وقوة دفاع مدني الارتكاز على الردع في وضع بعينه تعتمد على عاملين رئيسيين هما:

1 ـ طاقة المجتمع الفعلية في الحيلولة دون المهاجم وأهدافه المرسومة له وفي تكبيده لوحده أو بالتعاون مع آخرين خسائر ينوء بحملها.

2 ـ إدراك المهاجم المحتمل لقدرة البلد الذي يخوض دفاعاً مدني الارتكاز على فعل ذلك.

وفي نهاية هذا الفصل يؤكد المؤلف أن تبنّي وممارسة دفاع مدني الارتكاز لا يحتاجان إلى ظروف اجتماعية مثالية، حيث إن معظم النضالات الارتجالية اللاعنيف في الماضي قد شنت ضد أنظمة نخبوية وقمعية ودكتاتورية ذات أصول أجنبية ومحلية على حد سواء، وقد جرت التطبيقات الماضية لنضال اللاعنف الارتجالي للدفاع ضد انقلابات في نظام الدولة، وغزو أجنبي واحتلال وسيطرة حدثت في مجتمعات أبعد ما تكون عن المثالية، في ظل غياب العدالة الداخلية، وتحت حكم نخبوي وطبقي، واختلاف عرقي ولغوي، ونزاعات اجتماعية وسياسية حادة.

في الفصل السابع والأخير يعود المؤلف إلى موضوع السلطة الذي ناقشه في الفصل الأول ولكن التحليلات في هذا الفصل تنطبق بالدرجة الأولى على المجتمع الأمريكي. ويغلب على هذا الفصل الطابع النقدي لتوزيع السلطة في المجتمع الأمريكي، حيث يرى المؤلف أن جميع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراسخة بجذورها والتي تواجه المجتمع الأميركي، تتضمن بشكل ما سوءاً خطيراً في توزيع السلطة. وذلك أن السلطة الفعلية صارت مركزة تركيزاً قوياً في فئات معينة من السكان والمؤسسات، والأخطر من ذلك، في يد جهاز الدولة. فالفئات الأخرى، أو قل السواد الأعظم من السكان يكون نصيبهم ضعيفاً في هذا المجال، ولذلك فهم خاضعون لإرادة الفئة التي تملك السلطة. إن معظم الناس في المجتمع الأمريكي، حسب رأي المؤلف، يشعرون بأن لا حول لهم ولا قوة في التصدي لهذه المشكلات العميقة الجذور التي تواجه مجتمعهم. ويتعرض المؤلف في هذا الفصل لقضايا عدة منها: تنامي سلطة الدولة والمشكلات المترتبة على ذلك، والأخطار على الحرية السياسية، والدساتير الديمقراطية القابلة للطعن، وعواقب العنف السياسي المنظم ومتطلبات التحرير الدائم وغير ذلك من القضايا. وفي نهاية الفصل، يقدم المؤلف العديد من «الينبغيّات» لإعادة تشكيل المجتمع لمعالجة المشاكل الاجتماعية ومواجهة حاجات الإنسان بشكل أفضل وذلك عن طريق استكشاف بدائل لا عنفية.

وهكذا قدم لنا المؤلف كتاباً هاماً يفتح المجال لمزيد من الدراسة والبحث، ولكن الأهم من ذلك هو أنه يشير إلى طريقة بديلة (المقاومة اللاّعنفية) يمكن أن تخرج مجتمعنا الإنساني من هاوية اليأس ومن دائرة العنف والعنف المضاد الذي لا يقود إلى الأمن أو السلام والعدل.

ومن الواضح أن الكتاب يحتوي على ذخيرة غنية من التأملات النظرية والأمثلة التاريخية التي تنتظر الباحث والمحلل لزيادة المعرفة بطبيعة وكيفية سير المقاومة اللاّعنفية. لكن هذا الكتاب يمكن أن تؤخذ عليه بعض المآخذ أو يثار حوله الجدل وتطرح بعض التساؤلات. ومن بين أهم هذه المآخذ أو التساؤلات:

أولاً: في الفصل الأول حول «طبيعة السلطة السياسية وضوابطها» والذي يعتبر بمثابة إطار يعتدّ به للتحليل، يرى المؤلف أن المقاومة اللاعنفية ترتكز على وجهة النظر القائلة بأن الحكومة تعتمد على إرادة الشعوب وقراراته ودعمه وأن السلطة تبعاً لذلك تعددية. إن وجهة النظر هذه تمثل في واقع الأمر ما ينبغي أن يكون عليه الحال «ما يجب أن يكون» ولكنها بالتأكيد لا تمثل ما هو كائن في مجتمعات اليوم. إن التحليل الموضوعي لمجتمعات اليوم، وحتى تلك التي تدّعي الديمقراطية، يشير إلى وضع خطير في توزيع السلطة. ذلك أن القرن الحالي يشهد وجود كثرة وتعاظم في الأنظمة الدكتاتورية، وغالباً بأشكال أكثر ظلماً وجوراً، حين نجد أن السلطة الفعلية أصبحت متداولة في أيدي فئات معينة من السكان والمؤسسات، ولا تتحول إلى سواهم، والأخطر من ذلك أن هذه الفئات تتحكم في الأجهزة العليا من الدولة. فالأفراد في العصر الحالي يعيش معظمهم حالة من الاغتراب يشعرون من خلالها بضعفهم وعجزهم تجاه القضايا المصيرية لهم ولمجتمعهم في معظم دول العالم. إن هذا الواقع المؤلم يضع وجهة النظر الأساسية التي تقوم عليها المقاومة اللاعنفية وبالتالي هذا الكتاب بكافة فصوله وأبوابه موضع حيرة واستفهام، خاصة وأن المؤلف نفسه في الفصل الأخير حول «سلطة الشعب» أكد هذه الحالة عندما تعرض إلى قضية تنامي السلطة مقابل نمو الضعف وتغلغله في المجتمع المدني. ولهذا، فليت أن المؤلف يعيد النظر في هذه الأفكار الأساسية وبعدئذ قد يرى أن من الضروري تحديد الظروف التي يمكن للمقاومة اللاعنفية بموجبها أن تؤدي أهدافها عندما يعتمد الناس على إرادة وقرارات الحكومة أو أي نظام هرمي ينتمون إليه وليس العكس.

ثانياً: إذا كان صحيحاً أن العنف ليس هو الوسيلة الوحيدة للعمل في مواقف الصراع الحاسمة فإنه صحيح أيضاً أن هنالك الكثير من الصراعات التي لا يمكن حلها إلّا من خلال النضال وحده ومن ضمنها الصراعات التي تتعلق بالمبادىء الأساسية للمجتمع والاستقلال والاحترام الذاتي، وقدرة الشعب على تقرير مصيره ومستقبله، ونادراً ما تكون الإجراءات القانونية العادية ملائمة لحل هذه الصراعات، والشك قائم في أن تكون ملائمة تماماً. إن هذا الوضع يضع علامة استفهام حول ما إذا كان معقولاً وممكناً أن تكون المقاومة اللاعنفية في عالم يمكن اعتبار معظم الصراعات القائمة فيه تتعلق بالمبادىء الأساسية والاحترام الذاتي. وفي دراسة قام بها توماس سمرلنج (T. Smerling) حول إمكانية تطوير حركة مقاومة لا عنفية يقوم بها الفلسطينيون (شبيهة بتلك التي قام بها غاندي) في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، خلص إلى أن إمكانية ذلك غير واردة ولن تغير جوهرياً في سياسة إسرائيل تجاه هذه المناطق المحتلة[4].

وفي دراسة أخرى حول استكشاف أساطير المقاومة اللاعنفية، أكد (ساثا انانـد C. Satha-Anand) أن المقاومة اللاعنفية محاطة بالعديد من الأساطير والخرافات التي تنجح غالباً في تشويه واقع حال المقاومة اللاعنفية. لقد أشار ساثا أنانـد في دراسته هذه إلى (كينيث كاوندا K. Kaunda) الذي كان في بداية حياته قائداً لحركة وطنية تستخدم اللاعنف كوسيلة للمقاومة، تحول عندما أصبح رئيساً لزامبيا ليقبل العنف على أنه وسيلة ضرورية لتسيير أمور السياسية[5]. وأن كينيث كاوندا نفسه يؤكد بأن العنف ليس هو الوسيلة الفضلى بل على العكس إنه وسيلة يائسة عندما لا تكون هناك أية وسيلة أخرى[6].

ثالثاً: لم يوضح المؤلف الفرق المبين بين أعمال الإرهاب وأعمال العنف المشروعة للدفاع عن النفس وتقرير المصير من جانب، وبين عنف الدولة وعنف المواطن من جانب آخر. أعتقد أن مثل هذا التمييز ضروري ليتمكن القارىء في منطقتنا العربية أن يدرك التشويه في الصورة والرأي لأجهزة الإعلام الغربية في تصويرها لأحداث الإرهاب التي تمارسها

(4) Thomas Smerling. «prospects for A Nonviolent Movement in West Bank and Gaza,» A paper presented for the conference on Nonviolent Political Strnggle, Organized by Arab Thought Forum, Amman Jordan, November 15-17, 1986.

(5) Chaiwat Satha - Anand, «Exploring Myths on Nonviolence», A paper presented for the conforence on Nonviolent political struggle organized by Arab Thought Forum, Amman, Jordan, November 15-17, 1986.

(6) Kenneth David Kaunda, «Kaunda on Violence». Colin M. Morris (ed.), st. James's place, London: collins, 1980, p. 97.

بعض العناصر العربية في الدفاع عن حقها واستعادة ما اغتصب من أرضها، في أمور مبالغ فيها إلى حد كبير من جهة، وهي من جهة أخرى تأتي كرد فعل لإرهاب أكبر تمارسه سلطة (اسرائيل) ضد المواطنين العرب. ولقد أثارت ندوة «العنف والسياسة في الوطن العربي» التي أشرت إليها سابقاً، العديد من القضايا والجدل الذي يمكن أن يشكل مع ما ورد في الكتاب نوعاً من الشمولية في النظر لأساليب المقاومة العنيفة واللاعنيفة. وعلى الرغم من عدم وجود إجماع بين المشاركين في هذه الندوة حول بعض القضايا إلّا أنهم اتفقوا على عدة نقاط منها:

1 ـ أن العنف ظاهرة بشرية تعرفها كافة المجتمعات أو هي جزء من نسيجي العلاقات الإنسانية التي تقوم على الصراع والتعاون، وقد ينشأ الخلاف بين مجتمع وآخر من خلال مقدار حجم العنف وطبيعته.

2 ـ أن العنف ليس ظاهرة مرضية على الدوام، فهو في بعض الأحيان ضرورة تاريخية تقتضيها طبيعة الحياة على مر الأزمان وكلما ازداد عدد سكان الأرض، وهنا يمكن أن نفهم الثورات الكبرى في تاريخ الإنسانية.

3 ـ أنه ليس من المحتمل أن يتقلص العنف في الوطن العربي خلال المرحلة القادمة نظراً لأن المجتمع العربي يمر بمرحلة انتقالية، فهو مجتمع قلق، ويعيش معظم أفراده في قلق دائم لم يستقر بعد، وتكافح شعوبه في سبيل صيانة الاستقلال الوطني، ناهيك عن طغيان عنصر الشباب على البناء الديموغرافي للمجتمع العربي كله وهي عوامل تؤدي أخيراً إلى زيادة احتمالات العنف.

4 ـ إن اسرائيل سبب أساسي لانتشار العنف في المنطقة، فهي دولة عنصرية تقوم على التمييز العنصري وتتعامل مع المجتمعات والدول التي تؤيد الفساد والعنصرية والعنف، وهي دولة دخيلة ذات كيان مصطنع، قام على أساس اغتصاب حقوق شعب وتشريده، وفي نفس الوقت تسعى لكي تقوم بدور القوة الإقليمية العظمى.

اعتقد أن تقليص العنف في العالم لا يكون إلّا من خلال نظام اجتماعي وتربوي وإنساني يركز على ترسيخ قيم وممارسات الديمقراطية بالمعنى السياسي (المشاركة السياسية) وبالمعنى الاقتصادي (العدالة الاجتماعية) واحترام حقوق الانسان وإعادة المكانة التي يستحقها إليه ووضع حد للاستغلال والسيطرة الذي تمارسه بعض الدول على غيرها.

وأخيراً، وعلى الرغم مما ذكرت من هنات فيه، يبقى الكتاب خطوة رائدة يستحق عليها المؤلف الثناء والتقدير، وأتمنى أن يلاقي الاهتمام الذي يستحق أو أن يبدأ الباحثون المتخصصون من حيث انتهى المؤلف. ومن المؤكد أن مزيداً من الدراسات سوف تمكننا من تطوير رواية أكثر شمولية وعمقاً لقضية المقاومة اللاعنفية.



التأثير العربي في الثقافة الاسبانية

تأليف: د. حكمت الأوسي
عرض وتحليل: عبدالله حامد محسن

دائرة الآثار والتراث ـ قسم المخطوطات

حظي موضوع التأثيرات الثقافية والحضارية باهتمام كبير من لدن المختصين بالدراسات التأريخية والحضارية ـ سواء أكانوا عرباً أم أجانب ـ لما لهذا الموضوع من أهمية علمية ونفسية على أبناء الأمة الواحدة. فضلاً عن كونه محاولة لتسليط الضوء على المجالات العلمية والثقافية والنفسية التي ساهمت بها حضارة من الحضارات في زمان ومكان معينين، وذلك لإبراز الدور الفاعل والأصيل لهذه الحضارة أو تلك ومدى مساهمتها في مسيرة الحضارة الإنسانية.

وإذا كان من حق الأمم والشعوب أن تفخر بحضاراتها وما قدمته من إنجازات في مجالات العلوم المختلفة خدمت بها الإنسانية، فحري بنا أن نفخر بحضارتنا العربية الإسلامية التي أسهمت إسهاماً فاعلاً وأصيلاً في رفد الحضارة الإنسانية بعطاء خصب وغذته بمعين ثر من نتاج علمائها في شتى ميادين المعرفة. فكان لذلك النتاج آثاراً جلية في إغناء الفكر الإنساني، والإسهام الذي سلك سبلاً متعددة ليكون عاملاً مهماً من عوامل النهضة الحضارية الأوروبية الحديثة.

وقد أعطانا الدكتور حكمت الأوسي صورة واضحة للتأثير الحضاري العربي الإسلامي على إسبانيا، وانتقاله بعد ذلك إلى أوروبا، وانعكاسات هذا التأثير في الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية لتلك الشعوب، وذلك في مؤلفه ـ التأثير العربي في الثقافة الإسبانية ـ الذي بيّن فيه القنوات التي انتقل خلالها الفكر العربي الإسلامي لينساح في محيط الثقافة الإسبانية ويمتزج به امتزاجاً خلاّقاً نهلت منه أوروبا كلها.

أكد المؤلف في مقدمة بحثه على الأهمية الحيوية لهذا الموضوع بالنسبة للدراسات الحضارية وعلم تأريخ الحضارات فقال: (وموضوع انتقال الخبر والأفكار العلمية العربية الإسلامية إلى الفكر الأوروبي من أهم موضوعات التاريخ العام للعلم ومن أهم موضوعات التأريخ الحضاري المقارن).

وفي تحديد لأهداف ودوافع دراسة هذا الموضوع من قبل المختصين الأوروبيين، أشار إلى أنهم اهتموا به لأغراض علمية وسياسية، إلّا أنه أضاف دافعاً آخر له علاقة صميمية بالحضارة العربية الإسلامية، ذلك هو الدافع القومي فقال: «وإذا كان العلماء الأوروبيون يهتمون بدراسة هذه التأثيرات الحضارية لأهداف علمية وسياسية معاً، فإن لدينا دافعاً آخر إلى جانب هذين الدافعين العلمي والسياسي: ذلك هو الدافع القومي بشقيه التراثي والسياسي معاً».

ثم قدم لنا المؤلف تمهيداً تأريخياً أشار فيه إلى فتح جزيرة إيبَريا من قبل العرب المسلمين وما نتج عنه من تطور سريع في مجالات الحياة المختلفة.

وتحدث بعد ذلك عن التأثير العربي في الثقافة الإسبانية ـ سبله ومراجع دراسته ـ مبيناً سبل ذلك التأثير وموضحاً انتشار اللغة العربية بين الإسبان المعايشين للعرب، باعتباره أهم سبل التأثير الثقافي، وكيف كان الإسبان يقبلون على اللغة العربية وآدابها، ويبتعدون عن اللغة اللاتينية وآدابها فقال:

«لم تكن العربية الفصحى لغة الأدب والفكر للمسلمين الأندلسيين فقط، بل كانت لغة الثقافة والأدب للمسيحيين الإسبان المعايشين للعرب والمثقفين منهم خاصة».

ولم يغفل الإشارة إلى الزواج - زواج العرب من الإسبانيات - والمعايشة الاجتماعية التي تُعدّ من العوامل الهامة والقوية في إضفاء الطابع العربي الإسلامي على الحياة الأندلسية.

انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن «مجالات التأثير العربي» موضحاً آثاره في الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية وفي ميادين العلوم الأخرى، لينتهي إلى القول بأنه: «كان لكل هذا تأثير عميق، دون شك، لا على الفكر الإسباني فحسب، بل على مجمل القضايا الفكرية والثقافية لأوروبا العصور الوسطى وعصر النهضة أيضاً».

وبجانب هذا كله، كان هنالك تأثير مماثل في عمقه وقوة رسوخه ساعد على وجوده وتثبيته أسلوب الاجتهاد في الفكر الديني، وضمان حرية التعبير عن الآراء الدينية والعقائدية، والتسامح الرائع الذي أشاعه الحكم العربي الإسلامي في المجتمع الأندلسي والذي لا تكاد الأزمنة الحديثة تعرض علينا مثيلاً له.

ثم ألمح المؤلف إلى آراء بعض الباحثين الأوروبيين الذين يرون بأن الكثير من الآراء المخالفة لكنيسة روما والتي كانت تظهر بين الإسبان بأنها كانت أثراً من آثار الإسلام على المسيحيين في الأندلس.

وضمن مجالات التأثير العربي تحدث المؤلف عن المبادىء العلمية وقواعد السلوك. وكيف أصبح الكثير من هذه المبادىء أساساً للحياة العلمية والاجتماعية لأوروبا المعاصرة خاصة والدول المتقدمة عامة.

وفي حديثه عن ضوابط الحياة الاجتماعية ذكر مبدأين أساسيين مستمدين من التعاليم الإسلامية متمثلين بالآيتين الكريمتين ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ و﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. لما لهذين المبدأين من أثر كبير على تقويم السلوك وتهذيبه وصولاً بالحياة الاجتماعية إلى مستوى أفضل.

أما بخصوص المبادىء العلمية التي يعوّل عليها في تطوير المعرفة العلمية فقد بيّن المؤلف مبدأين أساسيين هما:

أولاً: مبدأ يتعلق بطريقة الحصول على المعرفة العلمية، وفي هذا يشير إلى الطريقة التي اعتمدها عباس بن فرناس حينما أراد أن يثبت عملياً ما توصل إليه نظرياً من إمكان طيران الإنسان في الجو إذا ما كيّف جسمه بموجب القوانين الفيزياوية التي تجعل الطائر يطير.

ثانياً: مبدأ يؤكد على وجوب إجراء التجارب العملية في شرح التجارب العلمية وتقريبها إلى أذهان الناس، وهو أيضاً مستمد من أفكار وتطبيقات عباس بن فرناس.

وذكر المؤلف أن أول من قرر حقائق التأثير العربي في الثقافة الإسبانية خاصة والأوروبية عامة هو الأب خوان أندريس في القرن الثامن عشر باعتباره أول من تناول ذلك في كتابه الذي ألّفه بالإيطالية «أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة». وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإسبانية وكان أندريس قد أكد فيه على «أن الفضل في قيام الدراسات الطبية والرياضيات والعلوم الطبيعية وفي مجال الشعر يرجع إلى ما كتبه العرب»، «وأن اختلاط النصارى والمسلمين كان طبيعياً أن يدفع الأُوَل إلى تقليد الأُخَر». وغير ذلك من الآراء التي تؤكد التأثير العربي العلمي والفكري والأدبي والاجتماعي في الحضارة الأوروبية عامة والإسبانية بشكل خاص.

ولقد أشار المؤلف إلى ما نشر محققاً من التراث العربي الإسلامي عامة والأندلسي خاصة والدراسات التي قام بها المستشرقون والعلماء المتخصصون التي أثبتت ما ذهب إليه خوان أندريس في مجال التأثير العربي، وفي تناوله لهذا الجانب صرح بأن البحث العلمي الحديث قد كشف من حقائق التأثير العربي هذا أكثر مما ذهب إليه خوان أندريس دون أن يتوسع في الموضوع.

بعد ذلك تحدث عن «مسالك انتقال التأثير العربي» إلى أوروبا والذي تم عن طريق المراكز الحضارية التي أقامها العرب وأهمها الأندلس حيث استقرت دولة العرب والإسلام فيه ثمانية قرون متصلة كانت الحضارة العربية الإسلامية رافداً زاخراً من العطاء العلمي والفكري والروحي للنهضة الأوروبية والحضارة الإنسانية.

ثم انتقل إلى المراكز الحضارية الأخرى والتي كانت أيضاً مصدراً للإشعاع الثقافي والعلمي ولكن بدرجة أقل مما كانت عليه الحال في الأندلس، فأشار إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا هذه المناطق استقر فيها الحكم العربي الإسلامي أكثر من قرنين تركت فيه الحضارة العربية الإسلامية تأثيراً واضحاً في مجالات الحياة المختلفة.

وأما بلاد الشام - إبان الحروب الصليبية - فهي الأخرى تعد من مسالك التأثير العربي في الحضارة الأوروبية حيث احتك الصليبيون وبشكل مباشر بالشعب العربي المسلم الذي كان قد قطع أشواطاً طويلة في ميدان الحضارة والتطور. وقد استفاد الصليبيون كثيراً في مجالات الفنون الحربية والصناعات وأساليب التجارة وفن العمارة وتأثيرات اجتماعية أخرى.

ويأتي بعد ذلك كلامه على مدرسة المترجمين الطليطليين ودورها في عملية التأثير العربي فقد كانت كما يقول عنها: «مناراً هادياً للعالم اللاتيني كله» حيث تم بجهود مترجمي هذه المدرسة ترجمة أمهات المؤلفات العربية في ميادين العلوم المختلفة لمفكرين وعلماء مسلمين أمثال الكندي والفارابي والغزالي وابن سينا وابن رشد والخوارزمي والبتاني.

ثم أشار إلى الدور الذي قام به الملك ألفونسو العالم الذي أكمل ما بدأته المدرسة الطليطلية من أعمال الترجمة المنظمة والتي كان لها أبلغ الأثر في التطور اللاحق لإسبانيا وأوروبا.

وعندما تحدث عن الدراسات التي تناولت موضوع التأثير العربي في الثقافة الأوروبية ذكر أن هناك اتجاهين مختلفين، أما الأول فقد بدأ منذ القرن الثامن عشر متمثلاً في كتابات الأب خوان أندريس وهذا الاتجاه يرجع إلى العرب كل تقدم علمي وأدبي حققته أوروبا في عصر النهضة، ويعمد أصحاب هذا الاتجاه إلى الدراسات العلمية الموثوقة لإثبات ذلك.

وأما الاتجاه الثاني فينفي عن العرب كل فضل أو مشاركة في أي تقدم علمي أو إبداع أدبي ويعمد أصحاب هذا الاتجاه إلى أسلوب عاطفي إنشائي، كما يخضعون لتأثيرات تبعدهم عن الموقف العلمي الصحيح. فنراهم يتلمسون لعوامل النهضة الأوروبية جذوراً وأسباباً بين بقايا الحضارات القديمة، وليس من شك في أن الدوافع التي تكمن وراء مثل هذه الادعاءات ما هي إلّا محاولات تفتقر إلى التحليل العلمي النزيه، غايتها إعطاء صورة مشوهة عن الحضارة العربية الإسلامية ودورها الفاعل الأصيل في الحضارة الأوروبية.

وقد أكد المؤلف أن الرأي الغالب بين الباحثين الغربيين المعروفين برصانتهم ودقة أبحاثهم يعترف بالتأثير العربي الإسلامي الفعال والدور المبدع للحضارة العربية الإسلامية في الفكر العلمي والثقافي لأوروبا.

ثم إنه تحدث عن الوسائل الفعالة في التصدي للمحاولات الخطيرة التي تحاول تحديد الدور الحضاري العربي فأبدى جملة آراء ومقترحات يمكن التعويل عليها باعتبارها وسائل نافعة وفعالة في التصدي للمحاولات التي تقصد الإساءة إلى الأمة العربية الإسلامية، وتشويه تاريخها واستلاب دورها الحضاري.

وأما الدراسات والبحوث الغربية والعربية التي تناولت موضوع التأثير العربي في الثقافة الإسبانية والأوروبية، فقد ذكر المؤلف مجموعة منها مرتبة حسب الموضوعات التي تتناولها بالبحث ووفق تسلسل زمني متناولاً البعض منها بالنقد أو التعريف المختصر.

وختم المؤلف كتابه بقائمة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمد عليها في موضوع كتابه هذا وعددها (37) مصدراً.

هذا، وكان الكتاب قد صدر عن دار الشؤون الثقافية والنشر ضمن سلسلة الموسوعة الصغيرة العدد 152 لسنة 1984م ويقع في (93) صفحة من القطع الصغير.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الشحوح وتأريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي

(الطبعة الأولى 1987
تأليف: فالح حنظل
عرض: كفاح كاظم الخزعلي

إن مؤلف الكتاب، الأستاذ فالح حنظل قدم لنا العديد من الدراسات سواء أكانت منشورة أم مخطوطة أغنت المكتبة العربية بشكل عام والمكتبة الخليجية بشكل خاص. فمن مؤلفاته: المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة، معجم مصطلحات الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي، معجم القوافي والألحان في الخليج العربي، الغزو البرتغالي للبلاد العربية.

وكتابه «الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي» يتناول فيه جانباً مهماً من تاريخ الخليج العربي، قلما سُلّط الضوء عليه.

ويحدد المؤلف الموقع الجغرافي لموضوع بحثه، بأنه المنطقة الجبلية التي تشكل جبال عُمان وجبال دولة الإمارات العربية المتحدة. فمنطقة رؤوس الجبال تقع في الجزء الشمالي الأقصى من دولة عُمان، ويبلغ امتدادها من الشمال إلى الجنوب حوالى مئة كيلومتراً، أما عرضها فيقارب الأربعين كيلومتراً. والشحوح قبيلة عربية سكنت هذه المنطقة، يرجع نسبها إلى الحارث بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس الأزدي، فهم عربٌ أقحاح من الأزد.

يركز الباحث في دراسته لهذه المنطقة؛ على عدد من الجوانب التي تقدم لنا تصوراً كاملاً عن هذه المنطقة من خلال دورها في الأحداث التاريخية في منطقة الخليج العربي وعلاقتهم بدولة اليعاربة التي قادت المقاومة المسلحة ضد قوات الغزو البرتغالي، وكيف احتلت (دبا) المدينة الرئيسية في هذه المنطقة التي هي موضوع البحث، ودور اليعاربة في تحرير هذه المدينة من قوات الغزو البرتغالي.

ويسلط المؤلف الضوء على العقيدة الدينية للشحوح وشدة تمسكهم بالإسلام، وكيف كانت هذه العاطفة الدينية مؤثرة في تفكيرهم السياسي والاجتماعي «وهذا ما يفسر لنا كراهيتهم للإنكليز بسبب عدم تقبلهم النفسي لأي أجنبي، لذا نجدهم يمانعون بشدة مرور خط التلغراف السلكي الذي كان يربط الهند ببغداد ثم بأوروبا عام 1864 وقد قاتلوا الإنكليز عام 1930 بهدف منع بعثة جيولوجية بريطانية من العمل في أراضيهم».

ويستعرض المؤلف تقسيماتهم القبلية والتي تشكل أساس تكوينهم الاجتماعي والسياسي والعقائدي، وهذه التقسيمات هي: بنو هدَّية، بنو شتير، الكمازرة، الظهوريون، ويرفق المؤلف بهذا الموضوع (التقسيمات القبلية للشحوح، معجم بالقبائل والأفخاذ والبطون والأسر الشحية).

كما يتطرق المؤلف إلى حياتهم الاجتماعية موضحاً مدى تأثير طبيعة المنطقة التي يسكنونها في تكوينهم الاجتماعي، فهم جبليون انطبعت حياتهم بالكثير من خصائص الأقوام الجبلية التي تختلف عن سكان الصحراء. ويقدم لنا صورة واضحة عن عاداتهم وتقاليدهم وأزياء الرجال وأسلحتهم وصفات المرأة الشحية وعادات الزواج والختان.

ويحدد لنا المؤلف المؤشرات الأساسية لتطور حياتهم الاقتصادية ومصادر الدخل من خلال تقسيمات المجتمع

الشحي من حيث مصادر دخله القومي، مجتمع البيئة الريفية الجبلية الزراعية الذي يعتمد بشكل رئيسي على الري والزراعة والحصاد وبيع المحصول وتربية الأغنام والمواشي والاستفادة منها تجارياً أو كغذاء عام للمواطنين. ومجتمع البيئة الساحلية البحرية وهو أقرب إلى مجتمع الحضر عن مجتمع البداوة الشحي الجبلي، والذي تعتمد حياتها الاقتصادية ومصادر دخلها على البحر كبقية مجتمعات الخليج العربي.

ويختم المؤلف بحثه هذا، بدراسة عن أدب الفصحى وأدب العامية عند الشحوح، مع التركيز على اللهجة العامية عندهم.

ويرفق المؤلف في آخر الكتاب، قسماً خاصاً، أطلق عليه عنوان «الوثائق»، يقدم لنا صوراً من الوثائق الأصلية والخطية بين الشحوح وحكام المناطق المجاورة لهم.

فالكتاب مهم، لا غنى عنه في المكتبة العربية عموماً والخليجية خصوصاً.



نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1932

تأليف: عبد الرزاق أحمد النصيري
مراجعة: الدكتور كمال مظهر أحمد
الناشر: مكتبة اليقظة العربية/بغداد 1987
عرض: طاهر خلف البكار

الكتاب في الأصل رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ في كلية الآداب ـ جامعة بغداد، يتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ويقع بـ (406) صفحات، ويتحدث عن المرحلة الغامضة من حياة نوري السعيد، الشخصية التي قدر لها أن تلعب دوراً رئيسياً في السياسة العراقية المعاصرة، وغدا اسمه مرادفاً للعهد الملكي في القطر العراقي.

تناول الفصل الأول من الكتاب، حياة نوري السعيد المبكرة، وبعض ملامح شخصيته وثقافته، وبدايات حياته العملية، ودوره في جمعية العهد القومية التي أسسها عزيز علي المصري في استانبول، وانعكاسات كل ذلك على شخصيته ونشاطه السياسي فيما بعد. وتناول الفصل أيضاً اتصاله المبكر بالبريطانيين ونشاطه العسكري والسياسي أيام الثورة العربية في الحجاز وموقعه في حكومة فيصل بن الحسين في سوريا وما رافقها من أحداث ساعدت على بروزه فوق المسرح ونمو وزنه السياسي بصورة ملموسة.

أما الفصل الثاني فإنه عالج بشيء من الإسهاب دور نوري في السياسة العراقية إثر عودته إلى العراق عام 1921، ومواقفه من أجل ضمان وضع سياسي مستقر بما يخدم الملك فيصل، كما يعالج دوره في سبيل المصادقة على المعاهدة العراقية البريطانية الأولى في المجلس التأسيسي، ونشاطاته السياسية التي رافقت وجوده على رأس الجيش في مرحلة بنائه، الأمور التي مهدت السبيل له ليقلد رئاسة الوزارة لأول مرة في عام 1930 ليزداد دوره في السياسة العراقية في واحدة من أخطر المراحل التي تمخض عنها زوال الانتداب البريطاني.

وتصدى الفصل الثالث للسياسة الداخلية والخارجية لنوري السعيد في وزارتيه الأولى والثانية 1930م إلى 1938م والتي تضمنت دوره في معاهدة 1930م بين العراق وبريطانيا وموقعه تجاه «المعارضة الرسمية» ومفاوضاته النفطية وموقفه من إضراب رسوم البلديات 1931م ونشاطه في سبيل «الحلف العربي مع الأقطار العربية المجاورة ودوره في دخول العراق لعصبة الأمم»، فضلاً عن آرائه الاقتصادية وعلاقته بالملك فيصل الأول.

إن هذه الدراسة التي اعتمدت على مصادر متنوعة تأتي في مقدمتها الوثائق العراقية والبريطانية الخاصة، بينت أن نوري السعيد كان سياسياً ذكياً ومناوراً من الطراز الأول، استطاع أن يشق طريقه وسط ظروف معقدة وأنه كان ميكيافيلياً يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وكانت قناعاته بأن القوى الكبرى هي التي تقرر مصير الأحداث في المنطقة، ومن هذا المنطلق أصبح الرضوخ للأمر الواقع جزءاً ملازماً لسلوكه السياسي اليومي على جميع الأصعدة.

أكدت الدراسة بأن نوري السعيد لم يختلف عن معظم ساسة العراق في عهدي الاحتلال والانتداب، إلاّ في حدود تكاد تقترب من العدم في حالات غير قليلة، ولكنه أكثرهم صراحة وربما أكثرهم واقعية في إطار تفكيره وقناعته، الأمر الذي عرّضه لانتقادات الرأي العام أكثر من غيره.

وفي كـل الأحوال أظهـرت الدراسـة أنـه يعـدُّ أحـد أبـرز أقطاب السياسة العراقية في سنوات الانتداب البريطاني.

ومن المؤكـد أنها دراسة قيّمـة قـد سـدت فـراغـاً كبيـراً في المكتبـة العراقيـة بل والعـربية، إضـافـة إلى كـونها الـدراسـة العراقية الأولى التي تصدت إلى دور شخصية هامة في تاريخ العراق الحديث، وإذا كانت هذه الدراسة قـد سلطت الضوء على المرحلة الأولى لنوري السعيد ودوره السياسي فإن المراحل اللاحقـة تحتاج هي الأخـرى إلى مثـل هـذه الـدراسـة التي اتسمت بالعلمية والموضوعية والأمانة، وقد ارتقى المؤلف فيها إلى مستـوى نـاضـج من المـوضـوعيـة والـواقعيـة في تحليله للأحداث.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

The Arab Historian Quarterly

Address :
Union of Arab Historians
P.O.Box : 4085
Baghdad — Iraq
Telex :
Telephone :

Subscription Card.

Please enter my subscription for
One Year $ 150.00 for Institutions
$ 60 for Historians
$ 30 for Students of History

Please bill me ....
Check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Country ....
Date ....

المؤرخ العربي

مجلة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العنـــوان :
اتحاد المؤرخين العرب
ص.ب (4085)
برقيا : مؤرخين بغداد
هاتف : 4434236
بغداد : الجمهورية العراقية

قسيمة اشتراك

ارفق طيا صكا/ حوالة مصرفية بمبلغ .... مدفوعة لأمر اتحاد المؤرخين العرب/ الامانة العامة/ عن قيمة اشتراك بنسخة واحدة أو..........نسخ ، لمدة سنة واحدة على ان ترسل الى العنوان الآتي :

الاسم : ....
العنوان : ....
رقم التلكس .... رقم الهاتف ....

المشاركات
50 دينارا داخل العراق و 150 دولارا في الاقطار العربية ..


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

CONTENTS

PAPERS ON MODERN AND CONTEMPORARY HISTORY:

PAPERS ON ARAB AND ISLAMIC HISTORY

ANNUAL SUBSCRIPTION

		Inside Iraq	Outside Iraq
1	Governmental and Semi-Governmental Offices	50 dinars	150 dollars
2	Historians	20 dinars	60 dollars
3	Students of History	10 dinars	30 dollars

All Correspondance: **To Editor-in-Cheif**
P.O.Box 4085
Union of Arab Historians
Baghdad-Iraq



REQUIREMENTS OF PUBLICATIONS

1. Research should be truly academic.
2. It coincides with aims of the union.
3. Not more than 50 pages.
4. Original and not sent elsewhere.
5. May cover any area in history, and written either in Arabic or in English.
6. Title typed on a separate sheet, with names of researches in full.
7. Typed in two copies on every other page, and properly numbered.
8. In case the research is delivered in a conference, this may be foot-noted.
9. Foot-notes unified and correctly numbered.
10. All papers are evaluated before being admitted.
11. Papers are artistically ordered.
12. Address and name clearly written in English.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

The Arab Historian

AL-MUARRIKH AL-ARABI



A quarterly issued by:

The Union of Arab Historians
Baghdad

No : 37 / 1987

Eleventh Year (1409) A.H. 1989


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the general secretary

Iraq - Baghdad - P.O.Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی